جامعـة صنعـاء
نيابة الدراسات العليا والبحث العلمي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم التاريخ
شعبة التاريخ الإسلامي وحضارته

الحياة العلمية في القاهرة في القرن الثامن الهجري
من خلال
الكتابات التاريخية لابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢هـ

رسالة مقدمة من الطالب:
حمود عبد الله يحيى الأهنومي
لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي وحضارته

المشرف المشارك الدكتور:
فيصل بجاش

المشرف الرئيس الأستاذ الدكتور:
نزار عبد اللطيف الحديثي

صنعاء ٢٠١٤م


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إليكما يا عبق الحياة الفواح

ويا سِفْرَي الفضيلة الغراء

إليكما أبي وأمي

وإلى زوجتي الكريمة

وأولادي الطيبين

وإخوتي المحترمين

أهدي هذا العمل

شكر وتقدير

أشكر **الأستاذ الدكتور نزار عبداللطيف الحديثي** المشرف الرئيس، ورئيس لجنة الحكم والمناقشة على ما قدمه لي من عون ومساعدة، وما جاد به من نصائح وتوجيهات، ليخرج هذا البحث بحلته القشيبة هذه.

كما أشكر كلا من **الأستاذ الدكتور رعد زهراوي الموسوي، والأستاذ الدكتور محمد عبده السروري** عضوي لجنة المناقشة والحكم على ما قدماه من ملاحظات كريمة.

فهرس المحتويات

المقدمة

يقاس مدى تقدم المجتمعات وتطورها بنتاجها العلمي ومدى تأثيره في قيمها ورقيها الحضاريين، فهو حجر الزاوية في حياة المجتمع، وهو الذي يؤثِّر في المجتمعات في الحاضر والمستقبل، ومنه يستلهمون أفكارهم التي قد تكون إيجابية وقد تكون سلبية، وقد حملت القاهرة في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي لواء العلم، وصارت قبلة العلماء والباحثين في العالم الإسلامي بعد احتلال بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية وعاصمة ثقافتها في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، وقد أغراني هذا الدور الذي حملته القاهرة لدراسة حياتها العلمية.

أسباب اختيار الموضوع

تأتي في مقدمة اهتماماتي الرغبة العلمية لكشف الجوانب الحضارية لعالم الإسلام، وجاء اختياري هذا موضوع (الحياة العلمية في القاهرة في القرن الثامن الهجري من خلال الكتب التاريخية لابن حجر العسقلاني المتوفي سنة٨٥٢هـ) في هذا السياق.

احتل المغول بغداد سنة (٦٥٦هـ) ثم دمشق سنة (٦٥٨هـ) وانكمشت الحياة الحضارية الإسلامية في الأندلس في القرنين السابع والثامن الهجريين إلى جنوبها في مملكة غرناطة، وحملت القاهرة في تلك الظروف لواء الدفاع عن كيان الأمة، وأضحت المكان الطبيعي للعلم والعلماء حينئذ بعد أن ألقوا عصا تسيارهم فيها؛ وقد لعبت العقول العربية والإسلامية المهاجرة إلى مصر عموما والقاهرة خصوصا دورا يحتاج لمتابعة، كما يحتاج التطور العلمي الحاصل في القرن الثامن الهجري في القاهرة ذات الدراسة، لكشف الجوانب الكمية والنوعية فيه من خلال الوقوف على نتاجه العلمي في شتى المجالات ودراسة ما تسنى منه، وتقييمه بصورة تقريبية، وتطرح هذه الأمور مجتمعة جملة من التساؤلات يسعى الباحث للإجابة عليها.

جاء اختيار القاهرة من بين المراكز العلمية المصرية لتأخذ حاضرة المماليك موقعها العلمي المناسب أسوة بحواضر إسلامية سبقتها، كبغداد عاصمة العباسيين، وقرطبة العاصمة الأندلسية، والمفترض بداهة أن العاصمة هي التي يجب أن تحظى بالجانب الحضاري الأكبر مقارنة بمراكز أخرى تعتبر أقل شأنا منها. كما أشعل الشوق إليها العلامة ابن خلدون (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م) حيث نقل عن شيوخه من المغاربة إعجابهم المبالغ في ما وصلت إليه القاهرة علميا وماديا، حتى أن كبير العلماء فيهم قال: "من لم يرها لم يعرف عز الإسلام"[١]، كما أنه وهو الإشبيلي الأصل التونسي المولد والنشأة اعترف بحيازتها الأولوية في ميدان العلم بقوله: "ونحن لهذا العهد نرى أن العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر؛ لما أن عمرانها مستبحر، وحضارتها مستحكمة منذ آلاف السنين..."، وقال: " ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر فهي أم العالم وإيوان الإسلام وينبوع العلم والصنائع"[٢]. كما اعتبرها ابن فضل الله العمري (ت٧٤٩هـ/ ١٣٤٨)[٣] في كتابه (التعريف بالمصطلح الشريف)[٤]: أم الممالك، وحاضرة البلاد، ودار الخلافة وكرسي الملك ومنبع العلماء، ومحط الرجال.

يجعل البحث كتب ابن حجر التاريخية - وهي (الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة)، و(إنباء الغمر بأبناء العمر)، و(رفع الإصر عن قضاة مصر)، و(المجمع المؤسس للمعجم المفهرس) - المصادر الرئيسة في الحياة

---

[١] ابن خلدون: عبدالرحمن بن خلدون (ت٨٠٨هـ)، تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ت. خليل شحادة، بيروت، دار الفكر، ١٤٣١هـ - ٢٠٠١م، ج٧ ص٦٤٧، أما المقدمة فقد طبعت معه باعتبارها الجزء الأول، ورمزت إليها بـ(المقدمة).

[٢] ابن خلدون، المقدمة، ص٥٤٨، ٧٤٩.

[٣] شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العدوي، ولي الإنشاء بالقاهرة ودمشق، وله تصانيف كثيرة، وباع طويل في النظم والنثر، وله مؤلفات بعضها من مصادر هذا البحث. ابن حجر: أحمد بن علي العسقلاني، (ت٨٥٢هـ)، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ، ت. سالم الكرنكوي الألماني، بيروت، دار الجيل، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، ج١ ص٣٣١. وهي النسخة التي اعتمد عليها البحث.

[٤] العمري: أحمد بن يحيى ابن فضل الله العدوي، (ت٧٤٩هـ)، التعريف بالمصطلح الشريف، القاهرة، مطبعة العاصمة، ١٣١٢هـ، ص١٧٢.

العلمية في القاهرة باعتبارها نتاجا علميا لعالم من أبرز علماء زمن الدراسة والمتصل به فهي تعكس وضع الحياة العلمية بشكل عام.

أهمية الموضوع وأهدافه

يكتسب إظهار المدى الحضاري للقاهرة أهمية كبيرة، لا سيما إذا وُفِّق الباحث في وضع المفردات الحضارية الأخرى مع النتاج العلمي على طاولة بحثية واحدة، ليكشف العلاقات المتبادلة بينها، ويظهر عوامل التأثر والتأثير في الآثار الظاهرة و الباطنة سلبا وإيجابا، وتقديم الحياة العلمية للقاهرة على هذا النحو يساعد في الوقوف على جانب من عوامل نهوض الأمة آنذاك في وجه الأخطار الداخلية والخارجية، كما يشخِّصُ مكامن الضعف التي أُتِيَت الأمة من قبلها وأصابها في أهمِّ جانب ألا وهو الجانب العلمي وفي أثره على الجوانب الأخرى؛ إذ يرى الباحث أن مهمة المؤرخ الجاد هي نقل الصورة الحيوية الواقعية للأمة في زمن الدراسة، وليس عليه أن يمارس مهنة الطلاء والتلوين لسلبيات الماضي في الوقت الذي يحرم عليه أن يتتبعها على أنها مسيرة التاريخ الطبيعية، أو ينساق وراء أعداء الأمة الذين بيتوا النية لتشويه تاريخها. ويسلط البحث الضوء على أهم عناصر الحياة العلمية وهم العلماء، من حيث أصولهم الاجتماعية، وأحوالهم المختلفة، ورتبتهم المجتمعية، وعلاقاتهم بالدولة وظروفهم المختلفة التي كتبوا في ظلالها نتاجهم العلمي.

يحاول الباحث بالمنهج العلمي الجاد والمتجرد وبصورة تقريبية اجتهادية أن يصل إلى التشخيص الكمي والنوعي للنتاج العلمي في القاهرة في القرن الثامن الهجري في شتى مجالاته.

نطاق البحث المكاني والزماني

قصد البحث بالقاهرة تلك المدينة التي تشمل العواصم الخمس التاريخية (الفسطاط، العسكر، القطائع، القاهرة، قلعة الجبل)[١] وما بينها وما حولها من الضواحي. لقد اتصلت المدينتان الرئيستان (القاهرة والفسطاط) في النصف الأول من القرن الثامن الهجري ولا سيما في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون (ت٧٤١هـ/١٣٤٠م)، وأصبحتا في حكم المدينة الواحدة[٢]، وارتبطتا ارتباطا قويا بحكم القرب حيث كان العالم القاهري يجمع بين وظيفتين أو أكثر فيهما معا، كما هو الحال لدى ابن حجر العسقلاني كما سيأتي. ويمكن أن ينطبق مفهوم القاهرة على ذلك المكان الذي شرع السلطان صلاح الدين الأيوبي (ت٥٨٩هـ/ ١١٩٣م) في بناء سور عليه يضم العواصم الخمس بداخله عام ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م كما توضحه الخريطة المرفقة رقم (٢). وبمقارنة خريطة القاهرة المعاصرة بالقديمة وعلى ضوء خطط المقريزي[٣] يمكن تحديد القاهرة التي نعنيها بالأحياء المعاصرة التالية أسماؤها (مصر القديمة، وغرب، والسيدة زينب، وعابدين، والموسكي، وباب الشعرية، ووسط، ومنشاة ناصر، والوايلي، والشرابية، وشبرا، وروض الفرج، وبولاق، والبساتين، ودار السلام)[٤].

أما زمانه فهو القرن الثامن الهجري والذي يبدأ من سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م حتى نهاية عام ٧٩٩هـ/ آخر سبتمبر ١٣٩٧م، فمن عاش من العلماء هذه المدة دخل في إطار البحث، إلا إذا عاش أول عمره في آخر هذا القرن ولا

---

[١] بنى عمرو بن العاص مدينة الفسطاط سنة٢١هـ بعد فتح مصر، وفي بداية العصر العباسي بنى ولاتُهم مدينة العسكر إلى الشمال الشرقي من الفسطاط، وبنى أحمد بن طولون (ت٢٧٠هـ) مدينة القطائع إلى الشمال الشرقي من مدينة العسكر أيضا، ثم أنشأ الفاطميون على بُعْدِ ثلاثة أميال شمالا من الفسطاط مدينة القاهرة، واتخذوها عاصمة ملكهم، ثم بنى السلطان صلاح الدين الأيوبي (ت٥٨٩هـ) قلعة الجبل إلى الشمال الشرقي من القطائع كما يظهر من الخريطة المرفقة رقم (١)، ومع ذلك ظهر خلال القرن الثامن الهجري الدور الأكبر للمدينتين الرئيستين وهما مصر (الفسطاط)، والقاهرة، وانطوى ما عداهما تحتهما.

[٢] أكد ذلك كل من المقريزي: أحمد بن علي، (ت٨٤٥هـ)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ت. محمد زينهم، ومديحة الشرقاوي، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٩٨م، ج٢ ص٥٢، ٦٢، ٧٦٠؛ والقلقشندي: أحمد بن علي، (ت٨٢١هـ)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ت. يوسف الطويل، ط١، دمشق، دار الفكر، ١٩٨٧م، ج٣ ص٣٩٣.

[٣] أحمد بن علي المقريزي، مؤرخ عالم، من أقران ابن حجر، وله عدد من المؤلفات، منها المواعظ والاعتبار، والسلوك، تعتبر من مصادر البحث، توفي ٨٢١هـ.

[٤] ينظر الخريطة المرفقة رقم (٣).

يمكنه في العادة أن ينجز نتاجا علميا، لصغر سنه، أو لتأخر التحاقه بالعلم، أما إذا كان لهذا النتاج العلمي بدايةُ إنجازٍ ونتاجٍ حدث في القرن الثامن فإنه يدخل في نطاق البحث، فمن كانت له علاقة علمية أو دور علمي في هذا النطاق المكاني والزمني دخل تحت إهاب البحث، وكان من موضوعه.

الدراسات السابقة

تبين بعد البحث قدر الإمكان[1] أن هذا الموضوع بحيثياته المذكورة لم ينل حقه من الدراسة العلمية الجادة، على الرغم من أنه موضوع حيوي وذو وفرة في المعلومات، مع التسليم مسبقا أن هذه الدراسة ليست الأولى ولا الأخيرة في الموضوع؛ إذ تناولته بعض الدراسات من زوايا واعتبارات أخرى، ومن تلك الدراسات دراسة الدكتور عمار محمد النهار الموسومة بـ(العصر المفترى عليه عصر المماليك البحرية دراسة فكرية)[2]. وهي دراسة مهمة وجادة واطّلعت عليها بعد أن أجمعت أمري على الدخول في هذا الموضوع، واتضح أنها تخصصت في دراسة الحياة العلمية في عصر المماليك البحرية (٦٤٨ ـ ٧٨٤هـ)، وتتميز عن هذه الدراسة بكونها أعم منها مكانيا وأخص منها زمنيا، وبمنهجيتها التي تربط الحياة العلمية بالسلطة الزمنية، وبكون الباحث انطلق من قناعته المسبقة بأن العصر المملوكي كان عصر ازدهار لا غبار عليه، كما أنها لم تعقد فصلا لأهم عنصر في الحياة العلمية وهم العلماء، ومع ذلك فقد أفاد منها البحث فائدة كثيرة في مجال النتاج العلمي.

منهج البحث

اتبعت في بحثي المنهج التاريخي المتبع عادة في الدراسات التاريخية القائم على تجميع المعلومات، وتصنيفها وتحليلها، وكشف العلاقة بينها، ثم عرض النتائج التي تمّ التوصل إليها، مع ما يحتاجه البحث من الإحصاءات عن العلماء وعن نتاجهم كما وكيفا، وتحليل تلك النتائج وتعليلها. وحينما لم يجد الباحثُ بغيتَه في معلومات كتب ابن حجر التاريخية في بعض العلوم التي لم تكن من أولوياته، فقد كان يستعين بمصادر أخرى، وعلل إغفال ابن حجر لها، حتى يظهر البحث بصورة كاملة، غير أن معلوماته كانت تأتي دائما في مقدمة المصادر على طول البحث.

وحاول الباحث الوصول إلى النتاج العلمي لعلماء القاهرة والاطلاع عليه حيثما أمكن، وتقديم صورة تقييمية له، مستعينا بما كتبه ابن حجر أولا في كتبه التاريخية المختلفة حيث اطلع على كثير منه لا سيما في العلوم الشرعية والتاريخية، ثم بما كتبه الباحثون في مقدمات تحقيقاتهم لذلك النتاج. وأفردْتُ لأماكن التعليم التي ورد لدى ابن حجر أنها أدّت دورا علميا في القاهرة في القرن الثامن ملحقا، ضمّنْتُه كل ما ورد منها في البحث.

مصادر البحث

اعتمد البحث على مجموعتين من المصادر، أولاهما مجموعة اعتمدها اعتمادا رئيسا وأساسيا، وأخراهما مجموعة اعتمد عليها اعتمادا مكمِّلا.

المجموعة الأولى كتب ابن حجر التاريخية: وقد اعتمد عليها البحث بصورة رئيسة؛ لكونها كانت نتاج عالِم كان شاهد عصره أو الناقل الأمين الواعي لما نقله عن من قبله، وكان يمثّل نموذجا عمليا لواقع العالم القاهري أولوية وهدفا وسلوكا وإبداعا، إيجابا وسلبا. وهي **أولا:** كتاب **(الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة)**، والذي ترجم فيه من كان في المئة الثامنة ابتداءً من (٧٠١- ٨٠٠هـ) من "الأعيان والعلماء والملوك والأمراء والكتاب والوزراء والأدباء والشعراء"، لكنه أعطى رواة الحديث مزيد عناية حيث قال: "وعنيت برواة الحديث النبوي،

---

[1] في شبكة المعلومات، وفي فهارس الإصدارات الجامعية، وفي الإصدار الإلكتروني الثالث من قاعدة معلومات الرسائل الجامعية الصادر عن مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية الذي يضم أكثر من ٩٠ألف رسالة علمية (ماجستير ودكتوراه).
[2] الطبعة الأولى، دمشق، دار النهضة ومجموعة الكمال المتحدة،٢٠٠٧م.

فذكرت من اطّلعت على حاله، وأشرت إلى بعض مروياته؛ إذ الكثير منهم شيوخ شيوخي، وبعضهم أدركته ولم ألقه، وبعضهم لقيته ولم أسمع منه، وبعضهم سمعت منه"[1].

ثانيا: إنباء الغمر بأبناء العمر، والذي ضمّنه حوادث العصر الذي عايشه بدءا من سنة مولده سنة ٧٧٣هـ وانتهاء بسنة ٨٥٠هـ، اتّبع فيه المنهج الحولي، وفصّل أحوال الدول في كل سنة مركزا على حوادث الدولة المملوكية بشكل رئيس، ثم بحوادث غيرها، وفي آخر كل سنة يذكر وفيات الأعيان في كل مجال، وعدّد في أوله مصادره الذين أخذ عنهم مما لم يشاهده[2].

ثالثا: رفع الإصر عن قضاة مصر ألّفه حسب الطبقات، ورتّب تراجمه حسب الترتيب الهجائي، غير أنه التزم بترجمة من ورد ذكرهم فقط في أرجوزة الأديب الكحّال محمد بن دانيال الموصلي (ت٧١٠هـ/١٣١٠م)[3] التي عدّد فيها قضاة مصر[4]، وقد أوضح ابن حجر فيه تراجمهم من حيث النسب والنسبة والطبقة والحال والمذهب ووقت تولي القضاء والصرف عنه والوفاة. وهو ذو قيمة علمية جيدة؛ لأنه يكاد أن يكون المصدر الوحيد في تاريخ القضاء المصري عبر العصور الإسلامية حتى عصر المؤلف، بعد أن فقدت تواريخ مهمة كانت من مصادره[5].

رابعا: المجمع المؤسس للمعجم المفهرس[6] ويدور حول فكرة تدوين أسماء شيوخه وأخبارهم ومؤلفاتهم وما روى عنهم، وقد قسمه إلى قسمين؛ قسم لمن حمل عنهم بطريق الرواية، وقسم لمن أخذ عنهم على طريق الدراية، أو على طريق المذاكرة، وذكر في ترجمة كلٍّ منهم جميع ما سمعه عنه أو قرأه عليه، وعدّ فيه حوالي ٧٣٠ شيخا من شيوخ المؤلف جميعهم يعودون إلى القرنين الثامن والتاسع الهجريين، بلغ شيوخ الرواية ٢٨٠ شيخا، وبلغ من أجازوه إجازة عامة ٩٧ شيخا، وبلغ شيوخ الدراية ٣٥٣ شيخا، أدخل فيهم حتى من لقيه لقاء عابرا وسمع منه بيتا أو عبارة.

ويمكن إجمال بعض مميزات هذه المصادر في النقاط التالية:

١- اعتمد المؤلف فيها على مصادر كثيرة ومتنوعة وغنية بالمعلومات الدقيقة، تنوّعت طرقها ما بين المشاهدة والمشاركة للمترجمين والمساءلة والمكاتبة والمشافهة لهم أو لذويهم، ومنها الإجازات والسماعات[7] التي كان يجدها للمتَرْجَمين وما كتبوه بخطوطهم، ومنها مجاميع الشيوخ والطلبة والأثبات التي تؤرّخ للعلوم وحركتها، وتوثيقها، ومنها المؤلفات التاريخية السابقة على اختلاف أنواعها وكثرتها، وتلك المصادر هي أبرز عناصر القوة في كتب ابن حجر التاريخية.

٢- اعتمد على مصادر وكتب سابقة، وهي كثيرة جدا، وبعضها كانت قد محصت وروجعت من قبل أبرز علماء عصره؛ حيث كانوا قد تملّكوها قبل أن تصل إلى يده، كما صحح هو بعض الأوهام التي وقعت فيها.

---

[1] ابن حجر، الدرر الكامنة ، ج١ ص٤.

[2] ابن حجر: أحمد بن علي العسقلاني، (ت٨٥٢هـ)، إنباء الغمر بأبناء العمر، ت. حسن حبشي، القاهرة، ١٣٨٩هـ -١٩٦٩م، ج١ ص٤. وهذه الطبعة هي المعتمدة عند الإطلاق.

[3] ولد في الموصل، ورحل إلى مصر إثر اجتياح المغول للعراق، أبدع في مسرحيات خيال الظل الأدبية. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٤٣٤.

[4] ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني (ت٨٥٢هـ)، رفع الإصر عن قضاة مصر، ت. علي محمد عمر ، ط١، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، ص٣.

[5] ابن حجر، رفع الإصر، مقدمة المحقق ص٤.

[6] ابن حجر: أحمد بن علي العسقلاني، (ت٨٥٢هـ)، المجمع المؤسس للمعجم المفهرس، ت. يوسف عبدالرحمن المرعشلي، ط١، بيروت، دار المعرفة، ١٤١٣هـ -١٩٩٢م.

[7] الإجازة هي الإذن من الشيخ للتلميذ بالرواية، والسماع هو كتابة أسماء من حضر سماع كتاب ما في أوله أو في آخره. ينظر عبد القادر: موفق بن عبد الله، علم الأثبات ومعاجم الشيوخ والمشيخات وفن كتابة التراجم، ط١، مكة المكرمة، جامعة أم القرى، ١٤٢١هـ، ص٢٩، ٥١.

٣- علاقة هذه الكتب التاريخية في ما بينها علاقة تأكيدية في أغلب ما ورد فيها، حيث تؤكِّد المعلومات في هذا الكتاب المعلومات في ذلك الكتاب الآخر، كما أنها علاقة تكاملية فما أجمله هناك أو أغفله قد فصّله وذكره هنا، وإذا سكت عن مصدره في (الدرر الكامنة) فقد يفصح عنه في (إنباء الغمر)، أو العكس.

٤- كانت عناصر الترجمة للعالِم تتضمّن في مجمل تركيبتها عند ابن حجر الاسم، واللقب، والكنية، واسم الشهرة، والنسبة القبلية، والمكانية، والجنسية، والمذهبية، والموطن، والألقاب العلمية، والمولد، وتقدير العمر، والوفاة، ونشأته العلمية بذكر شيوخه، وعطائه بذكر بعض تلامذته وبعض مصنفاته، ومكان أخذه، وبعض محفوظاته ومسموعاته لا سيما الحديثية منها، وبعض صيغ تحمّله للعلم، وذكر أهم العلوم التي برع فيها، ومدى تمكّنه منها، ومنزلته بين نظرائه، ومكانته العلمية، ووظائفه وأهم أعماله، وأهم سجاياه وأحواله، وعلاقاته بأهله وأقرانه، وعلاقاته بالسلطة في عصره.

٥- من أهم ما تميز به ابن حجر أنه كان صديقا للعلم فقط، فقد أفسح المجال لقلمه في نقد المترجمين، وأعطى صورة واضحة وواقعية عن علماء عصره، لشخصياتهم البشرية، ولم تمنعه هالة بعضهم عن أن يورد ما قيل فيهم، وتركَّز نقده لهم في عناصر مختلفة من تراجمهم، في أنسابهم، وهيئاتهم، وأخلاقهم، وسجاياهم، وتدينهم، ومذاهبهم، وقدراتهم العقلية، ومواهبهم الفنية، ومكانتهم العلمية، ومقدراتهم الأدبية، وتولُّعهم بالعلم، واستحضارهم له، ومدى مهارتهم فيه، ولهذا كانت كتبه كنزا كبيرا من المعلومات في ما يتعلق بالعلماء وأحوالهم الاجتماعية وعلاقاتهم المختلفة، أفاد منها البحث أيما فائدة.

٦- كما كانت أهمية هذه المصادر تكمن في أن مؤلفها لم يكن مؤرخا فحسب، بل كان إماما في العلوم، وناقدا وأديبا، وكان يقدّم نفسه في مجال الأدب حاكما ناقدا مميزا رفيعه من وضيعه، ويقدّم أحكاما تقييمية، قد تكون على شكل ملاحظات قصيرة على كثير من ذلك النتاج العلمي الذي تعلق بالعلوم الشرعية واللغوية والتاريخية، وقد يدلي بمعلومات عن حركة بعضه، ومدى قبوله وانتشاره في أوساط الطلبة، مستخدما معارفه الواسعة في تصحيح خطئه، وتقويم اعوجاجه.

٧- كان يشحن الترجمة التي هي مثار خلاف بين المؤرخين بأقوال كبار أهل العلم، وقد يعقد مقارنات بين الأقران والحوادث.

٨- تميّزت (الدرر الكامنة) بمنهجيتها التي عكست موسوعية ابن حجر واعتداله وتسامحه، حيث وضع نفسه في خدمة الأمة وآثر أن لا تقف حدود مكانية ولا مذهبية ولا فئوية ولا مناطقية أمام روح الأمة التي كان يجدها في نفسه، والتي يسّرته لخدمتها بتوثيق حركة علمائها، مع ميله طبعا إلى مذاهب السنة السائدة، وإلى فئة المحدثين، كما يبدو في (إنباء الغمر) أكثر اهتماما بالعلماء من غير دائرة العلوم الشرعية مما هو عليه في (الدرر الكامنة)، وفي (رفع الإصر) تميّز باهتمامه البالغ بالحوادث التي تعلّقت بالقضاء، وذكر بعض نتاجهم فيه، كما تميّز في المجمع المؤسس بذكر وتوثيق نتاج شيوخه، النتاج الذي رواه عنهم.

ويؤخَذ عليه في تلك الكتب الأربعة عموما بعضُ النقاط التي أُجْمِلُها في ما يلي:

١- أنه ترك فراغات كثيرة لا سيما في تواريخ الوفاة أراد أن يعود إليها ليملأها، ولكنه لم يفعل، وكان بإمكانه أن يملأ ولو بعضها، حيث توجد تلك المعلومات الناقصة في المصادر الأخرى له.

٢- لم يراجع ما كتبه بصورة جيدة ومتكررة، وربما كان ذلك أحد أسباب المأخذ الأول.

٣- ركّز على تراجم الفقهاء الشافعية أكثر من فقهاء غيرهم حيث أخذت تراجمهم مساحات واسعة بينما تتضاءل كثيرا عند بعض نظرائهم من الحنفية والمالكية والحنابلة، وربما كان ذلك لتوفر المعلومات، كما

تشح لديه إلى درجة كبيرة في العلماء من غير دائرة العلوم الشرعية واللغوية والتاريخية، وصل الأمر إلى إغفاله أبرز علماء عصره فيها كما سيتضح في محاله.

٤- لم يستقص نتاج العلماء، ولم يظهر أنه كان معنيا بذلك، فكثيرا ما يذكر أن لذلك العالِم مثلا "مصنفات فائقة" أو نحوا من تلك العبارات، كما أنه قد لا يسميها بأسمائها بل بموضوعاتها؛ وهو أمر أفقد كتبه قيمة جيدة في هذا المجال كان البحث يعوّل عليها فيها، ولهذا استعان بمصادر أخرى.

٥- أخل بمنهجه في كلٍّ من الكتب الأربعة؛ فهناك من أعيان القرن الثامن الهجري لم يترجم لهم في (الدرر الكامنة)؛ مع أنها موضوعة لذلك، ومع أن بعضا منهم قد ذكرهم في كتابه (إنباء الغمر) أو في غيره من المصادر، وهناك من لم يذكره في (إنباء الغمر) وكان يُفْتَرَضُ به أن يذكره، وهناك من هو في قضاة مصر في القرن الثامن الهجري، ولكنه لم يستوعبه في (رفع الإصر)، وهناك من شيوخه ومع ذلك لا نجده في كتابه (المجمع المؤسس)، بل إن هناك من ذكره بين الأعيان في الدرر الكامنة ولم يذكر له دورا واحدا يدل على علَميّته، وهناك من جعله بين الأعيان فيها، وقصارى جهده أنه روى حديثا واحدا فقط، بينما أغفل آخرين كان حقا عليه أن يذكرهم ومنهم قضاة بارزون، وربما ترك بعضهم سهوا، وربما ذكرا سطورا عديدة لراوٍ من رواة الحديث بينما لا يكتب سوى سطرين لإمام من أئمة العلم.

٦- أسقط من كتبه أعيان أهل الذمة وعلماءهم إلا من كانت له علاقة بالحكام والأمراء ولعلها نظرة دينية متشددة ليست لدى ابن حجر فحسب نحو أهل الذمة في ذلك العصر، بل ولدى مؤرخين آخرين، وهو ما أفقد الباحث معلومات كثيرة في هذا الصدد.

٧- لقي الباحث صعوبة بالغة في تمييز بعض العلماء مكانيا، حيث كان يغيب إلى حد كبير العنصر المكاني من الترجمة؛ الأمر الذي تطلّب البحث في مصادر أخرى.

٨- قد لا يرجح ابن حجر ما يورد من الاختلافات مع وجود المرجح، كما قد يتساهل في حساب عمر المترجم، وكثيرا ما يغفل ذكر مصادره.

٩- تسيطر عليه النزعة الحديثية حيث آثَرَ المحدثين ورواة الأحاديث بالتراجم كما ونوعا.

١٠- لم يوف المترجَم له بجميع المعلومات المطلوبة وبالتالي فلا يمكن أن يستخرج الباحث قوائم مستقرة ومطردة لكل العلماء في وظائفهم التي ولوها، وتخصصاتهم العلمية، ومجالاتهم المعرفية.

ولهذا كله كان لا مناص من الاستعانة بمصادر أخرى مع أن كتب ابن حجر تلك غطّت على أكثر من نصف مساحة الهوامش، أخذت الدرر الكامنة تقريبا ما نسبته ٥٢% منها، وإنباء الغمر ٣٠%، ورفع الإصر ١٠%، والمجمع المؤسس ٧%، كما اشتركت كتب أخرى له في حوالي ١%.

ثانيا: المصادر الأخرى

استعان البحث بمصادر أخرى لا غنى عنها في بعض الموضوعات، ومنها كتاب (الجواهر والدرر) الذي خصصه مؤلفه السخاوي (ت٩٠٢هـ/١٤٩٦م)[١] تلميذ ابن حجر في ترجمة شيخه، وكونه تلميذا للمترجَم أكسبه قوة علمية، رغم أنه بدا منجذبا لشيخه بصورة لا يقبل فيها نقدا لمنتقِد ولهذا يجب أن يؤخذ هذا بعين الاعتبار، كما أفاد من كتابه الآخر (الضوء اللامع) في تراجم ونتاج العلماء الذين كتبوا نتاجا علميا في القرن الثامن الهجري، وامتدّ بهم العمر إلى أول القرن التاسع الهجري، وبهذا أفلتوا من (الدرر الكامنة)، ويأخذ السخاوي المساحة الأوسع في المصادر الأخرى، كما أفاد البحث من كتب المقريزي (السلوك لدول الملوك) في الأوضاع المختلفة للقاهرة،

[١] محمد بن عبدالرحمن السخاوي، القاهري الشافعي، تلميذه المقرب منه، حمل عنه أكثر تصانيفه، وأذن له في الإقراء، وهو أيضا أحد طلبته التسعة المكثرين في الحديث. السخاوي: محمد بن عبدالرحمن، (ت٩٠٢هـ)، الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر، ت. إبراهيم باجس عبدالمجيد، ط١، بيروت، دار ابن حزم، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، ص١١٤٦، ١٢٠٤.

و(المواعظ والاعتبار) في أماكن التعليم والتعريف بالمدارس القاهرية في الملحق الخاص بها، وفي العنصر المكاني في الحدث التاريخي العلمي فيها، و(درر العقود الفريدة) في تراجم بعض العلماء ونتاجهم. وتأتي أهمية المقريزي باعتباره معاصرا لابن حجر ويعيش روح عصره وظروفه المختلفة وبصراحته المعهودة.

كما أفاد البحث من كتابي الصفدي (٧٦٤هـ/١٣٦٢م)[١] (أعيان العصر) و(الوافي بالوفيات)، ومثّلت موسوعة القلقشندي[٢] (صبح الأعشى) مصدرا رئيسا لتوضيح بعض المصطلحات، وفي تطور بعض العلوم ونتاجها والتي لم تُعْنَ بها مصادر ابن حجر.

وإذا كانت كتب ابن حجر قد أغفلت تسمية كثير من النتاج العلمي القاهري فقد تكفّلت كتب فهارس الكتب بذلك، مثل كتاب (كشف الظنون) لحاجي خليفة (ت١٠٦٧هـ/ ١٦٥٦م)[٣]، يليه (هدية العارفين) للبغدادي (ت١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م)[٤]، ثم كتاب (أبجد العلوم) للقنوجي (ت١٣٠٧هـ/ ١٨٨٩م)[٥]، وأهميتها أنها أظهرت نتاج أولئك المبرزين في العلوم التي كانت وراء عناية ابن حجر، ولولاها لدرس ذكرهم.

كما أفاد البحث من المراجع الحديثة ومنها كتب الدكتور سعيد عاشور في الأوضاع التي كان عليها ذلك القرن، وهو الباحث المتخصص فيها، كما أفاد من دراسة الدكتور عمار النهار (العصر المفترى عليه) في ذكر النتاج العلمي والتعرف عليه في ما لم تصله يد الباحث.

هيكل البحث

تنقسم هذه الدراسة إلى مقدمة وستة فصول وخاتمة.

تضمّن الفصل الأول: الأوضاع العامة منذ النصف الثاني في القرن السابع الهجري وحتى بداية النصف الثاني من القرن التاسع الهجري، والعوامل المؤثرة في الحياة العلمية في القاهرة، وبها يتضح الإطار العام الذي اكتنف الحياة العلمية في القاهرة إيجابا وسلبا، كما يقدّم العوامل التي صنعت الحياة العلمية على النحو الذي عرّف به البحث.

وتضمن الفصل الثاني: الحياة الشخصية والعلمية لابن حجر العسقلاني، وقد درس شخصيته وهو العالم القاهري من حيث حياته الشخصية، أسرته، ونشأته، وزوجاته، وفروعه، وصفاته، وقدرته المالية وأثرها على حياته العلمية، ثم من حيث حياته العلمية باعتباره المصدر الرئيس للبحث، وباعتباره أيضا امتدادا لأحد مظاهر الحياة العلمية في القاهرة في القرن الثامن الهجري، وقد تناول دراسته، ومراحلها، وشيوخه، ورحلاته العلمية، وسلط الضوء أكثر على رحلته إلى اليمن وتأثيره وتأثره فيها، وتلامذته، ومصنفاته، وجهوده ووظائفه العلمية والقضائية، ومذهبه وآراؤه.

وتضمن الفصل الثالث: علماء القاهرة من حيث أصولهم الجغرافية والاجتماعية، وحالتهم المادية، وحياتهم الاجتماعية، وأخلاقهم واتجاهاتهم، وعلاقاتهم ببعضهم، وبالدولة المملوكية.

---

[١] صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت٧٦٤هـ)، تلقّى العلم في الشام والقاهرة، وولي وظيفة الكتابة فيهما، كان مؤرخا بارعا، وأديبا مفوها، وله عدد من المؤلفات. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٨٧- ٨٨.

[٢] أحمد بن علي القلقشندي، نزيل القاهرة (ت٨٢١هـ) تفقّه ومهر وعني بالأدب، وعُيّن في ديوان الإنشاء، وناب في الحكم. ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص١٧٨- ١٧٩.

[٣] مصطفى بن عبد الله كاتب چلبي، مؤرخ بحاثة، تركي الاصل، مستعرب، زار خزائن الكتب الكبرى، وكتب كتابه (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون). الزركلي: خير الدين، الأعلام، ط٥، بيروت، دار العلم للملايين، ج٧ ص٢٣٦.

[٤] إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم الباباني البغدادي: عالم بالكتب ومؤلفيها، له (إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون)، و (هدية العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين). الزركلي، الأعلام، ج١ ص٣٢٦.

[٥] محمد صديق خان بن حسن البخاري القنوجي، من رجال العلم في الهند، ألف كتبا كثيرة بالعربية والهندية والفارسية. الزركلي، الأعلام، ج٦ ص١٦٨.

وتضمن الفصل الرابع: النتاج العلمي في العلوم الشرعية، حيث بحث نتاجهم في علوم القرآن الكريم، وهي القراءات والتجويد والتفسير، والحديث النبوي وعلومه، وأصول الفقه والفقه الشافعي، والحنفي، والمالكي، والحنبلي، وعلم الكلام (أصول الدين)، والتصوف.

وتضمن الفصل الخامس: النتاج العلمي في العلوم اللغوية والعقلية والطبيعية، وفيه بحث نتاجهم العلمي في اللغة، في النحو والصرف، والبلاغة، واللغة، والأدب، والشعر، والخط، واللغات الأجنبية، وعلم المعمّى (التشفير)، كما بحث نتاجهم العلمي في العلوم التي للعقل فيها مجالٌ نشِط، وهي العلوم العددية (الرياضيات)، والهندسة والمنطق، والشطرنج، وفي العلوم التي لها تعلق كبير بالطبيعة، وهي الفلك، والطب والصيدلة، والكيمياء، وعلوم الأحياء (الحيوان والنبات).

وتضمن الفصل السادس: النتاج العلمي في العلوم الاجتماعية والجغرافية، وفيه بحث العلوم الاجتماعية وهي التاريخ (التاريخ العام، وتاريخ الأقاليم والدول والمدن، والأعيان، والسير)، وعلوم الدولة، وعلم القضاء، والحسبة، وعلم الأخلاق والتربية، وعلوم الجيش والحرب، والموسيقى والغناء، وبحث أيضا علم الجغرافيا.

وتم في الخاتمة إيجاز أهم النقاط التي خلصت إليها الدراسة.

وتضمن الملحقان: الخرائط الجغرافية، والتعريف بأماكن التعليم القاهرية.

الفصل الأول

الأوضاع العامة بين ٦٥٠هـ -٨٥٠هـ والعوامل المؤثرة في الحياة العلمية

- **أولا: الأوضاع العامة في القاهرة بين ٦٥٠هـ - ٨٥٠هـ**
- **ثانيا: العوامل المؤثرة في الحياة العلمية:**

١- العوامل المؤثرة إيجابا

٢- العوامل المؤثرة سلبا

أولا: الأوضاع العامة في القاهرة بين ٦٥٠ ـ٨٥٠هـ

على الرغم من أن مدة البحث هي القرن الثامن الهجري فقط، لكن لما كان القرن الثامن يعتبر امتدادا للدولة المملوكية التي نشأت في منتصف القرن السابع الهجري كان لا بد من استيضاح الأوضاع العامة فيه باعتبار حتمية تأثيرها في الحياة العلمية في زمن الدراسة كونه زمنا لاحقا وقريبا، وبسبب كون ابن حجر المصدر الرئيس في هذه الدراسة وهو الذي عاش بين (٧٧٤هـ و٨٥٢هـ) وكانت له علاقة بحكام عصره وبالتطورات المختلفة التي كانت في زمنه استلزم تمديد البحث في الوضع السياسي حتى عام موته، لتتبين بشكل أوضح الظروف التي كتب فيها نتاجه التاريخي ويتضح مدى تفاعله معها.

في الجانب السياسي دبّت الفرقة بين أمراء البيت الأيوبي بعد وفاة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي، فغلبت عليهم المشاحنات والحروب ضد بعضهم، وهو ما مهد لسقوطهم على يد مماليكهم[١]، الذين استكثروا من شرائهم لتكوين عصبيات عسكرية تدين بالولاء لهم، فأدى إلى ازدياد نفوذهم يوما بعد يوم[٢]. وفي سنة ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م اعتقل مجموعة من المماليك العادل الثاني أبا بكر بن محمد الكامل، وسلطنوا أخاه الصالح نجم الدين أيوب، وأحس الأخير أن لهم يدا بيضاء في وصوله إلى حكم مصر[٣]، وقد كشف هذا الدور عن قوة مؤثرة ومتنامية لهؤلاء المماليك، فأكثر الصالح نجم الدين أيوب من شراء مماليك أتراك، وأسكنهم معه بقلعة الروضة في بحر النيل فسموا بالبحرية، وأَمَّرَهم وجعلهم من خواصه، وصاروا بطانته بعد أن استبعد مماليك أبيه وأخيه[٤].

على صعيد آخر أبحر الملك لويس التاسع ملك فرنسا على رأس الحملة الصليبية السابعة متوجها إلى مصر[٥]، وكان حاكمها الصالح يحتضر للموت، فاستقدمت أرملتُه شجرةُ الدر ولَدَه تورانَ شاه للحضور فورا وأخذت له البيعة من الأمراء جميعا[٦]، وحصد الملك لويس وجيشه هزيمة نكراء على يد هؤلاء المماليك الأتراك، وطوردوا حتى وقع لويس التاسع نفسه أسيرا في ٣ محرم سنة٦٤٨هـ/ ٦ أبريل سنة١٢٥٠م، وقد أبلى المماليك وعلى رأسهم بيبرس البندقداري في هذا النصر بلاء حسنا[٧]، وأثبتوا أنهم يمكن التعويل عليهم في رد عدوان القوى الغازية لبلاد المسلمين.

كان لا بد من ظهور قوة تسد الفراغ السياسي الذي نجم عن عدم ظهور سلطان قوي بعد موت الصالح الأيوبي ومقتل ولده توران شاه على أثره، وكان العالم الإسلامي حينها يتعرض لضربات موجعة في الأندلس، بينما تقترب الجحافل المغولية من بغداد، ولا يزال في ساحل بلاد الشام مستوطناتٌ للفرنجة الصليبيين، وبقيت بقية من الحملة الصليبية بأرض الدلتا بساحل مصر على البحر الأبيض، وهنا ظهر المماليك باعتبارهم قوة صاعدة تجمعهم عصبية الخشداشية (الزمالة)، وباعتبارهم استمرارا لدولة الأيوبيين وإفرازا سياسيا عسكريا لذلك الواقع[٨].

---

[١] ماجد: عبدالمنعم، الدولة الأيوبية في تاريخ مصر السياسي التاريخ السياسي (٥٦٧-٦٤٨هـ/١١٧١-١٣٥٠م)، ط٢، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، ص١٦٨.

[٢] عاشور: سعيد عبدالفتاح، العصر المماليكي في مصر والشام، ط٢، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٧٦م، ص٣ -٤.

[٣] المقريزي: أحمد بن علي، (ت٨٤٥هـ)، السلوك لمعرفة دول الملوك، ت. محمد عبدالقادر عطا، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، ج١ ص٤٠١-٤٠٢.

[٤] المصدر السابق، ج١ ص٤٤١؛ والمواعظ والاعتبار، ج٣ ص٧٥؛ وأبو الفدا: إسماعيل بن علي الأيوبي، (ت٧٣٢هـ)، المختصر في تاريخ البشر، ت. محمد زينهم محمد عزب، ط١، القاهرة، دار المعارف، ج٣ ص١٦٧.

[٥] العبادي: أحمد مختار، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، بيروت، دار النهضة العربية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ص١٠١.

[٦] المقريزي، السلوك، ج١ ص٤٤٣-٤٤٤، ٤٤٥؛ وأبو الفدا، المختصر، ج٣ ص١٤٠.

[٧] المقريزي، السلوك، ج١ ص٤٤٦، ٤٤٨، ٤٥٥؛ وأبو الفدا، المختصر، ج٣ ص١٤٠،١٤١؛ والعبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص١٠٦- ١١٠.

[٨] قاسم: قاسم عبده؛ وعلي: علي السيد، الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري، القاهرة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ص١٢٦، ١٢٧.

آلت السلطة للمماليك بمقتل توران شاه حيث تسلطنت أرملة الصالح الأيوبي شجرة الدر في١٠ صفر سنة٦٤٨هـ/ ١٩مايو سنة١٢٥٠م[١]، لكنها تنازلت عن السلطة لزوجها المملوك عز الدين أيبك[٢]، وسهّل اغتيالُه ثم مقتلُ زوجته شجرة الدر وصولَ سيفِ الدين قطز إلى السلطة سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م[٣].

دمّر المغول بغداد وأطاحوا بالخلافة العباسية سنة٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، وشنت قواتهم بعد ذلك هجمات مدمرة على بعض مدن الشام، وهزت تلك الأحداث كيان المسلمين وأثارت خوفهم، ووصلت الأنباء إلى نائب السلطنة في مصر سيف الدين قطز، والذي نصب نفسه بعدها سلطانا لمواجهة التتار[٤]. لقد أثبت أنه كان رجل المرحلة الحاسمة، وكان حريصا على توحيد الجهود وتأليف القلوب ضد المغول، فصالح أعداءه السابقين من المماليك البحرية وعلى رأسهم بيبرس البندقداري، بينما أخفق من بقي من الأيوبيين في الشام بصورة فاضحة في مواجهة المغول[٥]، وكانت معركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م، التي جاءت بنتائجها الحاسمة في كسر موجاتهم المدمرة لدعم سلطة المماليك الناشئة، وإثبات أنها هي القوة الوحيدة القادرة على حماية العالم الإسلامي، وهو الدور الذي أخرج هذه الدولة إلى الوجود[٦]. وفي طريق العودة اغتيل السلطان قطز على يد بيبرس البندقداري أحد قادة جيشه المنتصر ليصل إلى سدة الحكم بطريقة وراثة القاتل عرش الضحية[٧]، مثبّتا هذه الطريقة التي ستكون أحد التقاليد السياسية المماليكية للوصول إلى الحكم، والتي باركتها أيضا التنظيرات التأصيلية في الأحكام السلطانية كما سيأتي.

حكم السلطان الظاهر بيبرس البندقداري من سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٩م إلى سنة ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م، وبذل جهودا عظيمة في بناء الدولة المماليكية، و"يعتبر المؤسس الحقيقي لها"[٨]، وقام بإصلاحات وأعمال مدنية عديدة، كما نفذ عمليات عسكرية ضد خصوم الدولة المختلفين[٩].

غير أن أهم حدث قام به بيبرس في الواقع هو إحياؤه منصب الخلافة العباسية سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م، وكان قد شَغَر بتدمير الخلافة العباسية وعاصمتها منذ ثلاث سنين ونصف، وقد استدعى لهذا المنصب أميرا عباسيا هو أبو القاسم أحمد ابن الظاهر محمد ابن الناصر أحمد[١٠]، الذي ما لبث أن أرسله بيبرس في مهمة اللاعودة على رأس جيش صغير لتحرير بغداد، فسُحِق على أيدي التتار[١١]. ثم بويع لأمير عباسي آخر هو أبو العباس أحمد ولُقِّب بالحاكم[١٢]، لكنه في هذه المرة شاء بيبرس أن تكون خلافته رمزية شكلية[١٣]، وبهذا اكتسبت القاهرة الصفة الرسمية لوراثة بغداد، وتمتعت منذئذ بشهرة دينية وعلمية وتجارية واسعة[١٤].

---

[١] المقريزي، السلوك، ج١ ص٤٥٩-٤٦٠.

[٢] المصدر السابق، ج١ ص٤٦٣-٤٦٤؛ والسيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر، (ت٩١١هـ)، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ت. محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م، ج٢ ص٣٦؛ والعبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص١٢٢.

[٣] المقريزي، السلوك، ج١ ص٤٩٣-٤٩٤.

[٤] المصدر السابق، ج١ ص٤٩٩، ٥٠٦ -٥٠٧.

[٥] المصدر السابق، ج١ ص٥١١، ٥١٣، ٥١٥.

[٦] قاسم، وعلي، الأيوبيون والمماليك، ص١٤٠.

[٧] المقريزي، السلوك، ج١ ص٥١٩، ٥٢٠.

[٨] عاشور: سعيد، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٩٦م، ص٢١٧؛ وقاسم وعلي، الأيوبيون والمماليك، ص١٤٧.

[٩] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٢٠٨؛ والمقريزي، السلوك، ج١ ص٥٢٦-٥٢٧؛ وعاشور، الأيوبيون والمماليك، ص٢٠١- ٢١٦.

[١٠] المقريزي، السلوك، ج١ ص٥٢٨-٥٣٠.

[١١] المصدر السابق، ج١ ص٥٣٥، ٥٣٧، ٥٤١؛ وأبو الفدا، المختصر، ج٣ ص٢١٣.

[١٢] المقريزي، السلوك، ج١ ص٥٤٧-٥٤٩؛ وأبو الفدا، المختصر، ج٣ ص٢١٥.

[١٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ٤٤٦؛ وموير: وليم، تاريخ دولة المماليك في مصر، تر. محمود عابدين، وسليم حسن، ط١، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، ص٤٩.

[١٤] السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢ ص٩٤؛ والعبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص١٩١.

بنى الظاهر بيبرس المدرسة الظاهرية بين القصرين، وجعلها للفقه والحديث والتفسير، وكانت من أجل المدارس التي يتنافس الطلاب في الالتحاق بها، وظلت تؤدي دورها العلمي في القرن الثامن الهجري[١].

وعبثا حاول السلطان بيبرس توريث ولده السعيد بركة في الحكم الذي يحكم في بيئة لم يؤمِن أمراؤها المماليك بهذه الولاية، فكانت فيها ولايته أشبه بمرحلة انتقالية ريثما يُحْسَم الصراع لصالح أحد أمراء المماليك الأقوياء[٢]، إذ خلع في سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م، ليستقر سيف الدين قلاوون الألفي سلطانا حتى سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م[٣]، وأوسع بعض بعض أمراء الظاهرية (البيبرسية) قتلا ونكالا[٤]، ويبدو أنه ظل يتوجس منهم خيفةً؛ الأمر الذي جعله يفكر جديا في في إنشاء عصبية لنفسه من المماليك يعتمد عليهم في مواجهة الأخطار الداخلية والخارجية، فأكثر من شراء المماليك ومعظمهم كانوا من الجركس، و"اختار أن يربيهم في أبراج القلعة ولذلك عرفوا بالبرجية" أو الجراكسة[٥].

الجراكسة[٥].

وفي سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م أنزل جيشه هزيمة ساحقة بالتتار بالقرب من حمص[٦]، وانتهز قلاوون فرصة النصر النصر على التتار فهاجم الصليبيين في بلاد الشام سنة٦٨٤هـ، وأدركه الموت وهو يعد العدة لعمل عسكري ضخم ضد آخر قلاعهم الحصينة في عكا، وبالفعل فقد كان لجهود المماليك السابقة أن تُتَوّج بطرد الصليبيين نهائيا في عهد السلطان أشرف خليل بن قلاوون سنة٦٩٠هـ/ ١٢٩١م[٧].

حمِد المؤرخون حكم قلاوون وحلمه وعدله، وفضّلوه على غيره من السلاطين، غير أن أكبر عمل خلّد ذكراه هو ذلك المجمع الضخم في القاهرة الذي شمل البيمارستان والمدرسة المنصوريين اللذين كانا من أبرز معالم القاهرة خلال القرن الثامن الهجري والتي كانت من أهم وأبرز المنشآت العلمية والخدمية[٨].

حقق السلطان قلاوون لنفسه سمعة طيبة جعلت المصريين يتمسكون بأبنائه وذريته في الحكم[٩]، وخلفه ولده الأشرف خليل سلطانا، لكنه رغم انتصاره على الصليبيين فقد أثار حنق الأمراء المماليك فقتله جماعة منهم سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م[١٠]، وقد حاول قاتله الأمير بيدرا أن يخلفه على السلطنة غير أن مماليك الأشرف خليل بقيادة زين الدين كتبغا المنصوري قضوا عليه ولمّا يدخلِ القاهرةَ بعدُ، ثم خاض كتبغا هذا دورة عنف مع نائب الأشرف خليل على القلعة وهو الأمير علم الدين الشجاعي انتهت بالقضاء عليه، لتبدأ سلطنة الناصر محمد بن قلاوون ذي التسع السنوات، على أن يتولى كتبغا نيابة السلطنة[١١].

تم إزاحة السلطان الصغير وتسلطن غيره من الأمراء الطامحين، ودخلت البلاد في دورات عنف بين كبار الأمراء؛ الأمر الذي جعلهم مرة أخرى يستدعون الناصر محمد بن قلاوون من الكرك حيث كان قد غادر إليها، والذي ظل يبدو لعامة الناس أنه صاحب الحق الشرعي، وحضر ليقضي ما عُرِف بمدته الثانية من سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م حتى سنة ٧٠٨هـ/ ١٣٠٨، التي تميزت بأنها كانت اسمية فقط، وكانت السلطة بيد نائب السلطنة الأمير سيف الدين سلار، والأستادار الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير.

[١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص١٨٨، ج٤ ص٢٠٨- ٢١٠؛ والمقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣ ص٤٧٦- ٤٧٩.
[٢] قاسم وعلي، الأيوبيون والمماليك، ص١٧٠.
[٣] أبو الفداء، المختصر، ج٤ ص١٣.
[٤] المقريزي، السلوك، ج٢ ص١٣٩-١٤١.
[٥] عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص٢٢٧.
[٦] أبو الفداء، المختصر، ج٤ ص١٤-١٥.
[٧] عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص٢٢٩- ٢٣١، ٢٣٣- ٢٣٤.
[٨] موير، تاريخ دولة المماليك في مصر، ص٦٦-٦٧، وعاشور، الأيوبيون والمماليك، ص٢٢٥-٢٢٦.
[٩] عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص٢٢١.
[١٠] المقريزي، السلوك، ج٢ ص٢٤٥- ٢٤٦.
[١١] المصدر السابق، ج٢ ص٢٥٢-٢٥٤.

هدّد التتار حينذاك بقيادة غازان بلاد الشام فأبلى كل من السلطان الناصر والأميرين الجاشنكير وسلار بلاء حسنا، وانجلت المعركة بانتصار المماليك في وقعة شقحب (بالقرب من حوران الشام) سنة٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م، وتفاءل عامة الناس من هذا النصر بسلطانهم الصغير، فاستقبلوه استقبال الأبطال[١]. لكنه ضاق ذرعا باستبداد الأميرين سلار وبيبرس بأمره؛ فحاول التخلص منهما لكنهما تمكنا من حصاره واضطراه ليعلن أخيرا انسحابه إلى الكرك متظاهرا بالزهد عن الحياة السياسية[٢].

بايع الأمراء بيبرس الجاشنكير سلطانا، فولي من سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٨ إلى سنة ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م ، ورغم قصر المدة فإنه قد أنشأ مؤسسات علمية مشهودة، ومنها القبة والمدرسة اللتان أدّتا دورا علميا واجتماعيا فاعلا، إلى جانب تجديده للجامع الحاكمي، وترتيبه تعليميا بصورة مثمرة[٣]، لكن لحسن حظ الناصر عانى القاهريون من غلاء شديد وأوبئة فاتكة؛ الأمر الذي دعى الجماهير لكره الجاشنكير وأن تهتف باسم الناصر، وتتمنى عودته.

ويبدو أن الناصر وهو لا يزال في الكرك استغل هذه الشعبية العارمة لزرع القلق السياسي في قلب الجاشنكير؛ الأمر الذي دعاه إلى الشك في أمراء قريبين منه، فشن حملة إعلامية ضده فأصبح محاصرا داخل القاهرة ومصر وفي الشام أيضا[٤]. ويومها قرّر الناصر العودة إلى القاهرة وتلاحق به بعض الأمراء، وانتصر على خصومه، وأُعْدِم الجاشنكير ورمَى بسلار بعد أن أمّنه في غياهب السجن حتى مات، واستبعد العلماء الذين كان لهم موقف سلبي من سلطنته الثانية من وظائفهم، وصغَّر شأنهم[٥]، "وصار كلما سمع بتآمر أمير" أو حتى شكّ في تصرفاته "تخلّص منه، وأقصاه عن الوظائف العامة، وصارت سياسته تجاه كبار الدولة بوجه عام هي أن يقرّب الواحد منهم، حتى إذا أحس أن نفوذه تخطّى الحد الذي ينبغي أن يقف عنده تخلّص منه في الحال"[٦].

دام حكم الناصر هذه المرة ٣١ عاما من سنة٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م حتى سنة٧٤١هـ/١٣٤٠م، ويمثل عصره أزهى عصور المماليك ازدهارا وتطورا واستقرارا، ليس من حيث سعة دولة الناصر فحسب التي بلغت "من المغرب غربا إلى الحجاز والشام شرقا ومن النوبة جنوبا حتى آسيا الصغرى شمالا"[٧]، لكن أيضا بكثرة المنشآت العلمية والتعليمية والمساجد والأراضي الزراعية المستصلحة وتطوير الري بإقامة المنشآت المائية على نهر النيل، والعناية بالثروة الحيوانية، والتطور العمراني في القاهرة الذي عكس حالة الرقي الاقتصادي[٨]، والهدوء النسبي في في العلاقات الخارجية[٩]، وبفتحه قنوات مباشرة مع العامة لسماع شكاواهم[١٠]، لولا ما أفسده بالإكثار والتسرع في حالات القتل والتعذيب والانقلاب على العاملين معه في سبيل ترسيخ مهابته وسلطانه، واستخدامه فرق الاغتيال السياسي[١١].

---

[١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٥٠٤ ج٢ ص١٨١، ج٤ ص١٤٥؛ والمقريزي، السلوك، ج٢ ص٣٥٥ ــ ٣٦١؛ وعاشور، الأيوبيون والمماليك، ص٢٤٢.

[٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص١٤٥-١٤٨؛ والمقريزي، السلوك، ج٢ ص٣١٠- ٣١١، ٤١٣-٤١٥، ٤٢١-٤٢٣.

[٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص ٤٧٣، ٤٠٦- ٤٠٧، ج٣ ص١٦١ـ ١٦٤؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص٢٠٩؛ والمقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣ ص٢٢٢-٢٢٦.

[٤] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٥٠٣-٥٠٧، ج٢ ص١٨١-١٨٢، ج٤ ص١٤٥-١٤٧؛ والمقريزي، السلوك، ج٢ ص٤٣١-٤٣٦.

[٥] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص١٥٩-١٦٠، ج٢ ص١٨١-١٨٢، ج٣ ص٣٣٤، ج٤ ص١٤٦-١٤٧، ج٣ ص١٢٨، وعاشور، الأيوبيون والمماليك، ص٢٤٨-٢٤٩.

[٦] عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص٢٤٩.

[٧] المرجع نفسه.

[٨] المقريزي، السلوك، ج٢ ص٣٠٢-٣٢٠.

[٩] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٤٧١-٤٧٢، ج٢ ص١٤٠؛ والمقريزي، السلوك، ج٣ ص٣١٠، ٣١٣.

[١٠] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٦.

[١١] المصدر السابق، ج١ ص٥٢٥، ج٢ ص٣١١، والمقريزي، السلوك، ج٣ ص٣٠٢، ٣١٣.

لقد آذنت وفاة الناصر بانتهاء مرحلة الاستقرار والرخاء التي تمتعت بهما دولة المماليك، وتمسك الناس بورثته بعد وفاته، كما حكم أولاده وأحفاده سياسيا على المكانة والهيبة التي أخذتها دولته[١]، وبما أن النظام السياسي كان يقوم على المغالبة العسكرية وتصارع قوى النفوذ فقد دخلت البلاد في مرحلة خطيرة من هذا النوع، "ويكفي أنه في العشرين السنة الأولى التي أعقبت وفاة الناصر (٧٤١هـ- ٧٦٢هـ/ ١٣٤١ –١٣٦١م) تعاقب على العرش ثمانية من أولاده، وفي المدة (٧٦٢هـ - ٧٨٤هـ/ ١٣٦١- ١٣٨٢م) تعاقب على ذلك المنصب أربعة من أحفاده، وحسبنا أن نعلم أن بعضا من هؤلاء السلاطين نودي به سلطانا وعمره عام واحد...، كما أن بعضهم لم يتسلطن سوى أشهر قليلة"، وهو يعكس حالة الفوضى وغياب الاستقرار الذي ضرب القاهرة خصوصا ومصر والشام عموما؛ الأمر الذي "ترك أثرا واضحا على الحياة العلمية والاقتصادية والاجتماعية"[٢].

ولضعف السلاطين في مرحلة أولاد الناصر وأحفاده طغت شخصيات الأمراء المسيطرين عليهم، وصاروا محور المؤرخين والأحداث[٣]، بينما توارى السلاطين خلف مكائد هؤلاء الأمراء وصراعاتهم، وعانت البلاد أوضاعا سيئة، ومنها الوباء القاتل الذي اجتاحها عام٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م، وخلف عبئا ثقيلا على الحياة في مختلف مجالاتها[٤].

ومع ذلك فإن أحسن الآثار العربية الإسلامية يعود لهذا الزمن الضعيف، إنها مدرسة وجامع السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون (ت٧٦٠هـ/١٣٥٨م)[٥] والتي سيأتي الحديث عنها.

أقام المماليك سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٢م الأشرف شعبان بن حسين ابن الناصر محمد بن قلاوون سلطانا وعمره عشر سنوات[٦]، وكان ضعيفا، وقدّم للحياة العلمية أثرا جيدا حيث بنى مدرسة ورتب فيها أمور التدريس والتعلم[٧]. ثم قضى نحبه في مؤامرة أطاحت به وهو في طريقه إلى الحج، ونُصِّب ولدُه المنصور علاء الدين علي سنة ٧٧٨هـ/١٣٧٦م، ثم أخوه الصالح حاجي سنة ٧٨٣هـ/١٣٨١م خلفا له بعد موته[٨].

في عام ٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م وصل إلى منصب الأتابكية[٩] رجل قوي من أصل جركسي يدعى برقوق، وبه بدأ عصر من عرفوا بالمماليك الجركسية[١٠]، إذ ما لبث أن قوّى نفوذه بالتقرب إلى الشعب من خلال تخفيف الضرائب وسك عملة جيدة، وتظاهر بزهده عن منصب السلطنة مكتفيا بالأتابكية للمنصور علي ثم للصالح حاجي[١١]، ولما هيأ لنفسه الظروف بإزاحة من ظن معارضته[١٢] دُعِيَ من قبل أحد صنائعه إلى اجتماع بالقلعة سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م حضره الخليفة والقضاة والأمراء لسماع دعوى كاتب السر المفيدة بضرورة تنصيب سلطان عاقل بدلا من السلطان الصغير، فأجمع الحاضرون بما فيهم العلماء على تنصيب (برقوق)[١٣].

---

[١] عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص٢٥١، ٢٥٣.
[٢] المرجع السابق، ص٢٥٣-٢٥٤.
[٣] المرجع السابق، ص٢٥٤.
[٤] المقريزي، السلوك، ج٤ ص٨٦-٩١.
[٥] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٧٧؛ والمقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣ ص٣٢٠.
[٦] المقريزي، السلوك، ج٤ ص٢٦٧.
[٧] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٢٠٩- ٢١٠؛ وإنباء الغمر، ج١ ص١٨٣- ١٨٤؛ والمقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣ ص٥٥٣.
[٨] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص١٨٨؛ وإنباء الغمر، ج١ ص١٢٨- ١٢٩، ١٣٢؛ والمقريزي، السلوك، ج٥ ص١٣- ١٤.
[٩] يطلق على أمير أمراء الجيش. دهمان: محمد أحمد، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ط١، بيروت، دار الفكر المعاصر، ودمشق، دار الفكر، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م، ص١١.
[١٠] ويسمون البرجية؛ لأنه حرص على تربيتهم في أبراج القلعة. عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص٢٥٩، ٢٦٠-٢٦١.
[١١] عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص٢٦٥.
[١٢] ومن ذلك عزله لقاضي القضاة برهان الدين ابن جماعة. ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٢٥٥.
[١٣] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٢٥٧؛ والمقريزي، السلوك، ج٥ ص١٤١- ١٤٢.

كان على برقوق وقد أخرج المُلْكَ عن أسرة قلاوون لنفسه، أن يتعرض لمحاولات غاضبة، وبعضها كان يحمل صبغة دينية، تسبَّبَ فيها حبسه للخليفة المتوكل العباسي[1] فأثار حفيظة بعض العلماء الأتقياء فدعوا لإقامة الخلافة الراشدة في منصبها القرشي، غير أن أخطر تلك الحركات هي حركة نائبي الشام منطاش ويلبغا الناصري اللذين أطاحا به برهة من الوقت وأودعاه السجن، لكنه انتصر عليهما في خاتمة المطاف بسبب خلافاتهما[2].

وفي سنة٧٩٥هـ/١٣٩٢م رأى برقوق فرصة للحشد ضد تيمورلنك ملك التتار الذي كان قد عاث جيشه فسادا في العراق والشام باعتباره جهادا يعطيه سمعة طيبة في أوساط المسلمين فنادى بذكر مساوئه، وتحرك على رأس جيشه إلى حلب لمواجهة التيمورية[3]. وشكلت دولة العثمانيين الفتية التي أخذت سمعة طيبة في أوساط المسلمين قلقا حقيقيا لدى المماليك[4]، وقد صدق قلقهم بعد حين. ومن إنجازاته المتعلقة بالعلم بناؤه المدرسة الظاهرية الجديدة بين القصرين عام٧٨٦هـ/١٣٨٤م[5].

في سنة٨٠١هـ/١٣٩٨م خَلَفَ الناصرُ فرجُ والده برقوق سلطانا بعهد من والده[6]، وفي سنة٨٠٣هـ هُزِم جيش المماليك في أطراف الشام على يد جيش التيمورية واجتاح حلب ودمشق، وفرّ السلطان إلى القاهرة بحياته[7]، ثم خضع لشروط التتار[8]. وقضى الناصر بقية عهده في إقرار الأوضاع المضطربة في بلاد الشام التي أثارها الأميران شيخ المحمودي ونوروز الحافظي، ثم قتل بدمشق وقد سخط عليه العلماء والخليفة المستعين أبو الفضل العباس ابن المتوكل وأفتوا بخلعه من السلطنة بسبب تظاهره بالشهوات وإسرافه في الدماء وتنكيله بمماليك أبيه، ثم قتل بدمشق بعد أن أعطي الأمان[9]، ويبدو أن إغراقه في الشهوات وتظاهره بها والسماح للمماليك بالعبث بأعراض بأعراض الناس وأموالهم وبيع الوظائف العامة بالمزاد[10]، وقصوره عن جهاد التيمورية كان سببا في حالة الاضطراب والتشاؤم بطلعته[11].

في هذه الظروف كان نجم مؤرخنا ابن حجر قد بدأ يلمع، وصار يشارك في الحياة العلمية، ويحضر مجالس السلطان، وصار منذئذ لاعبا في الأحداث السياسية بالقدر المسموح به لأمثاله من العلماء.

أفسح التنافس بين الأميرين القويين شيخ المحمودي ونوروز الحافظي وصراعهما مع الناصر فرج للخليفة المستعين أن يقوم بدور أكبر في الحياة السياسية في سبيل استعادة الخلافةِ حقَّها المسلوب، واضطرا لمبايعته سلطانا أيضا على كره منه[12]، غير أنه ما إن زالت الأسباب بمقتل الناصر سنة٨١٥هـ/١٤١٢م حتى عادت السلطنة إلى من بيده القوة العسكرية والاقتصادية، وهو الأمير شيخ المحمودي الذي أزاح الخليفة عن كرسي السلطنة واعتلاه بالقوة بعد خمسة أشهر من توليه[13] في ذات السنة التي قتل فيها الناصر، ولم يكتف بذلك بل وخلعه من الخلافة ورمى به في السجن، وقلّد الخلافة أخاه المعتضد داود ابن المتوكل[14].

[1] محمد بن أبي بكربن سليمان بن أحمد العباسي، المتوكل ابن المعتضد ابن المستكفي (ت٨٠٨هـ). ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٣٤٣-٣٤٤.
[2] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٢٧٥-٢٧٦، ٣١٧، ج٢ ص٣٣٢-٣٣٤؛ وعاشور، الأيوبيون والمماليك، ص٢٦٩-٢٧٠.
[3] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص ٤٥٠، وص٤٥٢، وص٤٥٦-٤٥٧؛ وعاشور، الأيوبيون والمماليك، ص٢٧٠-٢٧١.
[4] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٤٩٢.
[5] المصدر السابق، ج١ ص٤٦٤؛ والمقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣ ص١٤٣، ٥٧٨.
[6] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٤٩.
[7] المصدر السابق، ج٢ ص ١٣٦-١٣٨.
[8] عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص٢٧٢.
[9] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٤٨٩-٤٩١.
[10] المصدر السابق، ج٢ ص٢٥٨، وص٣٦٠، وص٤٨٩-٤٩١.
[11] المصدر السابق، ج٢ ص٥١١.
[12] المصدر السابق، ج٢ ص٥٠٧.
[13] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٥١٦.
[14] المصدر السابق، ج٣ ص١٥، وص٣٧.

بويع الأمير شيخ المحمودي سلطانا على المسلمين، وتلقّب بالمؤيد وتكنى بأبي النصر، وهي الكنية المقترحة له من مؤرخنا ابن حجر عند مبايعته[1]، وقد قضى على منافسيه من الأمراء في الشام[2]. وبنى المدرسة المؤيدية التي كانت من أحسن الأبنية وعيّن كبار العلماء للتدريس فيها، وبالطبع كان منهم مؤرخنا ابن حجر[3].

توفي السلطان المؤيد سنة٨٢٤هـ/١٤٢١م، وتصفه بعض المصادر بالتوبة عن المنكرات وصحة العقيدة والبراءة من البدع ومحبة العلم وأهله[4]، ومع ذلك فقد اتُّهِم بتسميم ولده القائد الناجح إبراهيم تحت تأثير بعض بطانته[5]، ولأنه غض الطرف عن المظالم وعن تسلط أتباعه على الناس نهبا وإذلالا، ولتظاهره أيضا ببعض أنواع أنواع المنكرات فإنه كان محل سخط بعض المعاصرين[6]. ومع ذلك فقد كان ابن حجر من المقرّبين منه.

عهد المؤيد بالسلطنة لابنه أحمد ذي السنة والنصف، وبايعه الخليفة والقضاة والأمراء، ثم أركبوه إلى القصر وهو يبكي لصغره فجدّدوا له البيعة بعد موت والده وقبّلوا له الأرض، ولقبوه بالمظفر في محرم سنة ٨٢٤هـ/يناير ١٤٢١م[7]، غير أن القائم بدولته ططر بن عبد الله الظاهري ما لبث في شعبان من نفس السنة أن جمع الخليفة والقضاة والأمراء في دمشق فنادوا به سلطانا[8]، فقضى هو الآخر بعد ٩٥ يوما في السلطنة، ورغم أنه أوصى بالسلطنة لابنه[9]، إلا أن القائم به الأشرف برسباي خلعه[10]، ومثله كذلك سيفعل الظاهر جقمق بولد برسباي. ويلاحظ أن حجة خلع هؤلاء السلاطين من قبل السلطان الطامح في عروشهم، ومن قبل القضاة، والأمراء، وأعيان العلماء، هي صغر سنهم وعدم أهليتهم للحكم[11]، وهي حجة واهية وكأنها كانت وليدة اللحظة**!!**

اتصف الأشرف برسباي بالشدة والقسوة المفرطة والجهل بالدين والشره البالغ في المال واحتكار بيع بعض السلع التجارية؛ ولهذا تميّز عهده بسوء الأحوال الاقتصادية[12]، كما هاجمت مجموعات من المماليك في عصره العامة من الناس في أماكن نزههم، ونهبوا أموالهم، وعبثوا برجالهم، واغتصبوا النساء والأطفال[13]، ولم يكن هناك موقف مشهود للعلماء في إنكار ذلك، ومع ذلك فقد تمكن من تنفيذ عمل حربي ضخم ضد قبرص، حيث اقتيد ملكها أسيرا إلى القاهرة سنة٨٢٩هـ/١٤٢٥م[14]، وبذلك وُضِع حدٌّ لاعتداءاتهم المتكررة.

اجتاح الطاعون بلاد الشام ومصر سنة٨٤١هـ/١٤٣٧م، وتوفي السلطان برسباي بعد تشبُّث بالحياة دفعه إلى توسيط[15] طبيبيه بالسيف متهما إياهما بالتقصير[16]، وقد انقلب على ولده من بعده كبير الأمراء الأمير جقمق العلائي

[1] المصدر السابق، ج٢ ص٥١٦
[2] عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص٢٧٤.
[3] المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣ ص٣٥٢- ٣٥٨.
[4] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص١٩٧-١٩٨، ٢٣٧،٢٢٠؛ والمقريزي، السلوك، ج٧ ص٢٦، ٢٧.
[5] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص٢١٧-٢١٩،
[6] المقريزي، السلوك، ج٧ ص٢٧.
[7] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص٢٣٧،٢٤٠-٢٤١؛ والمقريزي، السلوك، ج٧ ص٢٧.
[8] المقريزي، السلوك، ج٧ ص٣٩، ٤٠.
[9] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص٢٥٠.
[10] المصدر السابق، ج٣ ص٢٧٠.
[11] بتتبع جلسات خلعهم يتضح أنه كان يدَّعي السلطان الطامح أو من ينوبه أنهم غير مؤهلين لحكم البلاد وأن البلاد تحتاج رجلا قويا فيعلن الجميع موافقتهم وتنصيبهم هذا السلطان المعروف مسبقا.
[12] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص٢٨١، ٣٠٥، ٣٢٧-٣٢٨؛ والمقريزي، السلوك، ج٧ ص٣٥٥، ٣٥٧، ٣٦٩.
[13] المقريزي، السلوك، ج٧ ص٣٤٧.
[14] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص٣٦٦-٣٧٢.
[15] شكل عنيف من أشكال الإعدام في العصر المملوكي، وطريقته بأن يعرى الشخص من الثياب، ثم يشدُّ إلى خشبة مطروحة على الأرض ويضرب بالسيف تحت سرته بقوة ضربة تقسم جسمه نصفين فتنهار أمعاؤه إلى الأرض. دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص٤٨.
[16] المقريزي، السلوك، ج٧ ص٣٥٥، ٣٥٦؛ وابن حجر، إنباء الغمر، ج٤ ص٧٣.

العلائي الظاهري بعد شهور قليلة وأخذ السلطنة منه بمباركة القضاة والخليفة والأمراء[١]، الذين لم يكن يسعهم دائما دائما سوى المباركة الفعلية والتشريعية لما يريده صاحب اليد العليا في الأمراء.

ويظهر أن جقمق كان حريصا على إشاعة العدل في مملكته[٢]، "وكان معتدلا نسبيا إذا قيس بحكم برسباي، وعرف عنه تدينه واعتداله فحرّم المعاصي وشرب الخمور"، وقد تعرض في أوائل عهده لثورات أمراء طامحين انتهت بانتصاره عليهم، وتميز عهده "بتحسن علاقة الدولة المملوكية بدولة التتار"[٣]، غير أنه كما سيأتي كان على علاقة مضطربة مع مؤرخنا ابن حجر، وقد توفي سنة٨٥٧هـ/١٤٥٣م.

وإجمالا فإن قوة "هؤلاء السلاطين لا ترجع إلى مهارتهم الحربية بقدر ما ترجع إلى مقدرتهم إلى تحقيق طموحاتهم عن طريق ضرب خصومهم وطوائف المماليك بعضهم ببعض"[٤].

وبهذا تتضح الصورة السياسية التي حكمت هذه المدة الطويلة، وتتبين طريقة وصول هؤلاء الحكام إلى الحكم، وملامح عامة عن طبيعة إنجازاتهم وأعمالهم وأهميتهما التي لا بد وأن يكون لها أثر على الحياة العلمية، كما تبين الوضع السياسي للقاهرة والذي ينبغي معرفته لمعرفة دور العلماء فيه، وعلاقتهم به، ومعرفة النتاج العلمي المتعلق به، وفي كل الأحوال كانت الدولة المماليكية تشجع على العلم وتعتني به، وبنى كثير من الأمراء والسلاطين المدارس والمنشآت التعليمية المختلفة.

وفي الجانب الاقتصادي والاجتماعي اعتنى المماليك بالأرض والمرافق؛ ولذا فقد زاد المحصول الزراعي، "وكانت الأرض تزرع مرة واحدة في السنة عند فيضان النيل"، ومع ذلك فقد كان الفلاح المصري يعاني الفقر والحرمان، ويتعرض لعسف الأمراء من ناحية والأعراب من ناحية أخرى؛ إذ لم تكن الأرض الزراعية ملكا لهم، وإنما كانوا يعملون فيها باعتبارها أرضا خراجية تخضع لحكم السلطان، "وكانت قد قسمت أربعةً وعشرين قيراطا، منها أربعة قراريط للسلطان، وعشرة قراريط للأمراء، وعشرة للأجناد"[٥].

لقد كان المحصول الزراعي يصب في خزانة الحكام العسكريين، ولم يجن الشعب المصري سوى الشقاء والعنت، وقد تبرّم المصريون من هذا الوضع الذي كان فيه المال محصورا على المماليك وموظفيهم الماليين وجلهم من الأقباط، بينما عاش البسطاء من الناس حياة الشظف والعوز والحرمان[٦].

كانت هناك أراض موقوفة على المدارس والمساجد والأربطة والخوانق استغلها من وُقِفَت لصالحهم من العلماء وطلبة العلم وأئمة المساجد، وكثيرا ما كانت محل طمع الأمراء المماليك الذين كانوا يرون أحقية العسكر فيها باعتبارهم المدافعين عن الإسلام، ولكن المستفيدين منها استطاعوا إيقاف أيدي الأمراء عنها بوجاهتهم المجتمعية كما سيتبين في علاقتهم بالسلطة المملوكية[٧].

كان للتجارة أهمية بالغة في النشاط الاقتصادي بالإضافة إلى كل من الزراعة والصناعة، "وكانت المصدر الأول للثروة الهائلة التي انعكست صورتها في حياة المماليك ورفاهيتهم"، وقد كان ذلك بسبب "انسداد طرق

[١] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤ ص٩٤؛ والمقريزي، السلوك، ج٧ ص٣٨٢.
[٢] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤ ص٢٣٤، ٢٣٥.
[٣] عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص ٢٧٩، ٢٨٢.
[٤] المرجع السابق، ص٢٦٧.
[٥] المرجع السابق، ص٣١١-٣١٢.
[٦] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٣٣٥-٣٣٦؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٢٨٠-٢٨١.
[٧] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص١٧٥، ١٧٨؛ ورفع الإصر، ص٢٨٨- ٢٨٩؛ والمقريزي، السلوك، ج٥ ص٥١، ٥٧- ٥٨.

التجارة العالمية بين الشرق والغرب منذ القرن الثالث عشر الميلادي نتيجة لحركة التتار التوسعية التي ترتب عليها انعدام الأمن والسلام" في طرق التجارة سوى من طريق البحر الأحمر ومصر[١].

"واتصفت حياة سلاطين المماليك وأمراؤهم بالصخب والثراء والترف، وعاشوا طبقة أرستقراطية يحكمون البلاد ويتمتعون بالجزء الأكبر من خيراتها"[٢]، وربما كان للشره المادي لدى بعضهم دور في الترويج للفساد الأخلاقي[٣]، "واستطاعت بعض الفئات من أهل البلاد مثل التجار والعلماء" الذين أدركهم الحظ بحصولهم على وظائف إدارية أو تدريسية "أن يحتفظوا لأنفسهم بمكانة جيدة في المجتمع ومستوى لائق من المعيشة"[٤]، وكان المال هو العنصر الأهم في معادلة الحياة الاجتماعية[٥].

"أما غالب أهل البلد من العوام والفلاحين فظلوا يحيون حياة أقرب إلى البؤس والحرمان"، وضعفت الطبقة الوسطى المنتجة ضعفا بيِّنا، وتركّز النتاج في يد الطبقة المسحوقة من طبقات المجتمع، بينما ظل العلماء الصلة الروحية التي تربط السلطان بالشعب، على حين كان الموظفون الماليون - وغالبهم من الأقباط - الصلة المالية بينه وبين الشعب، ينظِّمون شؤون المال، ويجمعونه ويوردونه[٦]، وكان استئثار السلاطين وجنودهم وموظفيهم الأقباط بالمال محل سخط المجتمع العربي المسلم الذي عانى الفقر والحرمان[٧].

غير أنه كانت هناك مرونة في الصعود والتنقل بين بعض الطبقات الاجتماعية، فبإمكان أي شخص أن يكون تاجرا أو عالما[٨]، وهناك من أولاد المماليك من سلك طريق العلم[٩]، كما يظهر أن كثيرا من الإداريين هم في الأصل الأصل ممن تلقوا تعليمهم الديني في المدارس، وكان للفقهاء زيهم الخاص، وللصوفية زيهم الخاص، كما كان للجند زيهم الرسمي، ويبدو أن عامة الناس بل حتى العلماء نظر إلى الجندية باعتبارها مهنة محترمة[١٠].

وكانت التجارة طريق العبور إلى الشرف ومداخلة أعيان الدولة[١١]، وشق الأقباط الطامحون في الوظائف المالية العليا في الدولة طريقهم نحوها بإعلانهم الإسلام وبإخلاصهم للسلاطين إلى درجة تنكيلهم بالمواطنين في سبيل تحصيل الأموال، ومع ذلك يلاحظ أن أغلب أولئك الموظفين قضوا تحت سياط التعذيب والقتل من قبل السلطان المملوكي لا سيما في عهد الناصر ابن قلاوون[١٢]، وأظهرت بعض المصادر الطب والتطبيب وكأنه متركِّزٌ على أهل الذمة لا سيما اليهود، ومنهم من أعلن إسلامه[١٣]، رغم أنه سيتبين في النتاج العلمي أن كتب ابن حجر كغيرها من التراجم أهملت شأن الحديث عن نتاجهم.

---

[١] عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص٣١٢-٣١٤.
[٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٩٥، ٢٤١؛ وإنباء الغمر، ج١ ص١٤٣- ١٤٤، ٢٨٠- ٢٨١؛ وعاشور، الأيوبيون والمماليك، ص٣١٧.
[٣] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص١٢٧.
[٤] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣٤٦؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٩٩- ١٠٠؛ وعاشور، الأيوبيون والمماليك، ص٣١٧.
[٥] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٤٥٠، ج٢ ص٦٦- ٦٧.
[٦] عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص٣١٧؛ وجرجس: فوزي، دراسات في تاريخ مصر السياسي منذ العصر المملوكي، القاهرة، العربي للنشر والتوزيع، ص١١، ١٧.
[٧] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٢٨٠- ٢٨١.
[٨] عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص٣١٧.
[٩] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٤٤١- ٤٤٢، ٥٠٩- ٥١٠، ج٢ ص٩١.
[١٠] المصدر السابق، ج٢ ص ٦٠-٦١، ٨٦، ٩١، ج٤ ص٩٩.
[١١] المصدر السابق، ج١ ص٤٥٠.
[١٢] على سبيل المثال انظر: المصدر السابق، ج١ ص٣٣، ٤٠٠، ٤٠١، ٥١٥- ٥١٦، ج٢ ص١٨٧، ٢٥١- ٢٥٢، ٢٦١- ٢٦٣، ٢٩٤، ٣٣٠، ج٣ ص٢٧٤، ج٤ ص١٣٨- ١٣٩.
[١٣] المصدر السابق، ج٤ ص١٩٠- ١٩١، ٣٩٦.

وكانت القاهرة تمتلئ بالمنشآت الاجتماعية المتنوعة مثل الفنادق والخانات والوكالات والحمامات والبيمارستانات[١].

"أسهمت المرأة بنصيب ما في الحياة العامة؛ فكانت بصورة محدودة تطلب العلم في المساجد، وتخرج إلى الأسواق أو تتردد على الحمامات"؛ وكان أبرز مجال علمي نشطن فيه هو مجال الحديث، كما وُجِدَتْ منهن الواعظة الفقيهة، ومنهن من عملت المواعيد (المواعظ) للناس، أو كانت شيخة لرباط صوفي[٢]، وأغلب أولئك النسوة ينتمين لفئة العلماء وأسرهم، ومن خلال أسماء بعضهن[٣] يتضح الدافع لدى ذويهن في مشاركتهن في الحياة العلمية والعامة، كما أسهمت المرأة المملوكية في بناء المدارس العلمية والمساكن الخيرية الخاصة والإنفاق في الحج[٤].

وارتضى الصوفية لأنفسهم تسمية الفقراء[٥]، وهي تسمية توحي بالقناعة السلبية وروح الاستكانة والرضا بالقليل، بالقليل، وبسبب تكدس الثروة في يد الأمراء وتهاون الدولة بقضايا مواطنيها الاقتصادية فقد انتشرت ظاهرة السعي في قضاء حوائج الناس، وكان شيوخ الصوفية أبرز أولئك الساعين والوسطاء المحسنين[٦]، "وراجت الخرافات والأعاجيب، وكثر المعتقَدون من أهل الكرامات والجذب"[٧].

ووجدت حتى في أوساط المنتسبين إلى العلم ظاهرة العشق للمردان الذي وصف بـ(العفيف)[٨]؛ ودعا بعضهم إلى إلى توجيه الأنظار إلى محاسن النساء ترغيبا فيهن وصرفا للعشاق عن الذكران[٩]، وشاعت الأوبئة والطواعين التي التي فتكت بالمواطنين وكان أشدها طاعون سنة٧٤٩هـ/١٣٤٨م الذي كان يحصد الآلاف من القاهريين يوميا، وعمّ كل الأقاليم المصرية وبلاد الشام[١٠]، كما كثرت محطات الغلاء والجوع والمرض على طول مدة الدراسة[١١].

وفي الجانب الديني "اتسعت دائرة النشاط الديني في عصر المماليك، وتجلى في كثرة المنشآت الدينية" كالمساجد والمدارس، "وكانت أهم ظاهرة دينية آنذاك ظاهرة التصوف"، فقد "تقرّب السلاطين إلى الله ببناء الخانقاوات ووقف الأوقاف عليها والإحسان إلى الصوفية"، وآمن "عامة الشعب المصري بالصوفية فقصدوهم لقضاء حوائجهم ومشاركاتهم في أذكارهم"، وكان لذلك "أثره الخطير في الحياتين الاجتماعية والفكرية" إذ يرى بعض المفكرين أنهم "نشروا روح الاستكانة والتذلل للحكام بين عامة الناس مما استمرت بقاياه في نفوس الكثيرين أمدا طويلا"[١٢].

وكانت الصوفية طرائق شتى وتيارات مختلفة[١٣] وظهر في هذا العصر مؤيدون وأتباع للفلسفة الصوفية المتعلقة

---

[١] كما يتضح من خلال المواعظ والاعتبار للمقريزي.
[٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص١١٨، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٩، ج٤ ص٣٩٥؛ وعاشور، الأيوبيون والمماليك، ص٣١٨.
[٣] كست العلماء وست الخطباء وست الوزراء وست الفقهاء.
[٤] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٤٧٤- ٤٧٥؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٤٨٠.
[٥] المصدر السابق، ج٢ ص٣٨٥- ٣٨٦.
[٦] المصدر السابق، ج٢ ص٩، ج٣ ص١٠٩.
[٧] المصدر السابق، ج٣ ص٤٨٨، ج٤ ص١٢- ١٣، ٢٥٣؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٢٠٣؛ وعاشور: سعيد، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٩٢م، ص٢٥٩- ٢٦٣.
[٨] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٢١١، ٣١١.
[٩] المصدر السابق، ج٣ ص٣٥٢.
[١٠] المقريزي، السلوك، ج٤ ص٨٠- ٨١.
[١١] عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص٣٣٧- ٣٤٠.
[١٢] عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص٣٢٠، ٣٢١.
[١٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٤٦، ص٤٠٦، ج٣ ص٢٠٩، ص٣٣٠-٣٣١؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٣٢٤.

بابن عربي وابن الفارض[١]، وكان بعضهم غريبي الأطوار والحالات والتأثير، ولهم أقوال مخالفة للمعهود في المذاهب الإسلامية[٢]، وراج كثير من الشيوخ والدراويش المعتقدين من قبل عامة الشعب المصري[٣]، كما لم يكن ذلك الاعتقاد بمنأى عن السلاطين وكبار الأمراء[٤]، وقد سمى الصوفية أنفسهم بالفقراء[٥]، وكان لبعض مشاهير العلماء المعاصرين موقف متقدّم في صدد رفض خرافاتهم[٦]، ومع ذلك فقد كان هناك العلماء من أهل الزهد والورع والذين احترمهم المجتمع على أنهم صادقو الإيمان وأهل العلم والتقوى والعبادة[٧].

ويبدو أن المذهب الفكري السائد في القاهرة خلال القرن الثامن هو المذهب الأشعري، ووُجِد بعض الحنابلة المجسمة[٨]، ولما كان المماليك ورثة الأيوبيين الذين أقصوا الشيعة عن مصر فقد اعتبر المماليك أنفسهم حماة المذاهب السنية، ولم يعترفوا إلا بالمذاهب الأربعة، ولهذا فقد كان التشيع[٩] في القاهرة مرفوضا وظل تهمة توجب الإقصاء والملاحقة[١٠]، ومارس النصارى القبط نشاطهم الديني بحرية، وكانت تقوم بين الحين والآخر تحركات تعمل على اضطهادهم مستغلة بعض مخالفاتهم للسائد، لكنهم في نهاية الأمر كانوا يحظون كما في كثير من الأحيان بحماية الدولة لا سيما في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون[١١].

وفي الإدارة والقضاء: وُجِد إلى جانب السلطان نوابُ السلطنة، والأتابك وهو القائد العام للجيش المماليكي، والوزير ومهمته الإشراف على الشؤون المالية، كما اعتمد الجهاز الإداري على مجموعة من الدواوين: منها ديوان الجيش، وديوان الإنشاء، وديوان الأوقاف.

وهناك القضاة الأربعة، فقد كان لكل مذهب من المذاهب الأربعة قاضي قضاة يشرف على القضاة الفرعيين في المناطق المختلفة في الدولة، وامتدّت اختصاصات القضاة لتشمل مختلف أوضاع القضايا المدنية والجنائية، وهناك محكمة عليا تعقد في دار العدل برئاسة السلطان، عرفت باسم محكمة المظالم، وللعسكر قضاة مختصون بشؤونهم، وبالفصل في القضايا الناشبة بينهم وبين المدنيين[١٢]، وكانوا يعيّنون من فئة العلماء غالبا.

وفيما يبدو أن هناك احتراما ملحوظا للعلماء من قبل السلاطين، حيث لم يجرؤوا ليقوموا بعملية تغيير جوهرية في النظام السياسي، إذ قنعوا بما أعطاهم نظام المماليك من امتيازات وظيفية ومالية، وترك لهم الجهاز القضائي

---

[١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣٤٦، ٣٧٣- ٣٧٥، ج٣ ص٣٠٧، ج٤ ص٢٥٠، ٢٧٩، ٤٦٣. وابن عربي هو محيي الدين محمد بن علي الحاتمي الطائي الطائي (ت٦٣٨هـ) عاش في دمشق، ودخل القاهرة، وجاور بمكة، وقال بفلسفة وحدة الوجود، وخلّف تراثا هائلا من المؤلفات، ومنها كتاب (فصوص الحكم)، و(الفتوحات المكية). ابن حجر: أحمد بن علي العسقلاني، (ت٨٥٢هـ)، لسان الميزان، تحقيق عبدالفتاح أبو غدة، ط١، بيروت، مكتبة المطبوعات الإسلامية، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، ج٧ ص٣٩١- ٣٩٢. وابن الفارض، عمر بن علي، ولد وعاش وتوفي (سنة٦٣٢هـ) في القاهرة، وهو يقول بنظرية الاتحاد، وله القصيدة (التائية في نظم السلوك)، والاتحاد عندهم هو امتزاج شيئين أو أكثر في كلٍّ متصل الأجزاء. ابن حجر، لسان الميزان، ج٦ ص١٢٣، ١٢٤، ١٢٥.

[٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٣٨٤، ج٢ ص٧٢- ٧٣، ج٢ ص٣٩٧، ج٢ ص٤٠٨-٤٠٩، ج٣ ص٤٨٨، ج٤ ص١٢-١٤؛ وإنباء الغمر، ج١ ص١٢٥

[٣] يتضح ذلك من خلال كثرة التيارات الصوفية المختلفة كما سبق، ومن كثرة الشيوخ والدراويش المعتقدين من عامة الناس ومن خلال شعبيتهم العارمة في أوساط المجتمع. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٤٣٥، ج٢ ص١٠١، ج٣ ص١٤٥، ج٤ ص٢٥٠، ج٤ ص٤٣١- ٤٣٢، ص٤٦٣؛ وإنباء الغمر، ج١ ص١٢٥، ٢٠٣، ٢٥٤، ٢٩٦، ٣٨٣، ٤٠٣، ٤٠٥، ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٢٩، ٤٨١، ٤٩٧، ٥٠٦.

[٤] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٥٠٩- ٥١٠، ج٢ ص٩، ٧٢- ٧٣، ج٣ ص١٩٧، ج٤ ص٢٥٠، ٣٧٣، ٣٩٢، ٤٣١- ٤٣٢.

[٥] المصدر السابق، ج٢ ص٤٦، ٣٨٥- ٣٨٦.

[٦] المصدر السابق، ج٤ ص٣٠٢، ٣٠٩.

[٧] المصدر السابق، ج٤ ص٩١-٩٦.

[٨] المصدر السابق، ج٣ ص١٠١-١٠٣، ج٤ ص٣٤٧-٣٤٨.

[٩] التشيع هو التمذهب بأي مذاهب الشيعة المعروفة، وهي الزيدية، والإمامية الإثني عشرية، والإسماعيلية، وقد يراد بها مجرد تفضيل علي بن أبي طالب كرم الله وجهه على بقية الصحابة أو التظاهر بمحبة مخصوصة له، كما وصف به أبو حيان الغرناطي. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٠٦.

[١٠] المصدر السابق، ج٢ ص١٥٤-١٥٨، و المقريزي، السلوك، ج٢ ص٣٦٢، ومن المعروف أن تدريس الفقه في مدارس القاهرة كان مقتصرا على فقه المذاهب الأربعة.

[١١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٢١١-٢١٢، ٣٨٥-٣٨٦، ج٣ ص١٣٩-١٤١.

[١٢] عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص٣٢٩ - ٣٣٢.

والتعليمي مقابل مرتبات معلومة، ورغم أن السلاطين لم يستطيعوا أن يفرضوا رغباتهم على جميع القضاة، غير أنهم كانوا عرضة لاستبدالهم بمنافسين كانوا يتربصون بهم تلك الفرص[١].

تلك إذا ملامح الأوضاع العامة للقاهرة والتي تعكس البيئة العامة التي ظهرت فيها الحياة العلمية للقاهرة في القرن الثامن الهجري، وظهر فيها مؤرخنا ابن حجر الذي وثّق هذه الحياة وكان أحد شهود عيانها أو ناقلا عن من شهدها.

[١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٩-٤٠.

ثانيا: العوامل المؤثرة في الحياة العلمية في القاهرة

أثّرت عوامل عديدة في الحياة العلمية في القاهرة إيجابا وسلبا، وعلى النحو التالي:

١- العوامل المؤثرة إيجابا

ويمكن إجمالها في هذه النقاط:

١-العامل الديني فالمجتمع المسلم يباشر حياته اليومية في التعرف على أحكام الدين ولو في خطوطها العامة كحفظ القران الكريم، والحديث الشريف، والفرائض المباشرة مثل الصلاة والصيام، وهي موضوعات يقدمها التعليم وارتياد مجالس العلم، إضافة إلى ما في الإسلام من مبادئ وآداب وقواعد ونظريات كلها تحض وتثني على العلم والتعلم والتعليم والعلماء والمتعلمين، ومما أوجبه على أتباعه من معرفة لا سيما المعرفة الدينية، وهو عامل كاف في الاستمرار في الحرص على طلب العلم وإنعاش الحياة العلمية.

ومن هنا جاء حرص المجتمع المسلم على إكساب أبنائه فضيلة العلم، وتوريثهم المعارف والعلوم، فداروا بهم وهم صغار على شيوخ العصر في مختلف الأصقاع لتحمل الحديث النبوي[١]، وحرص الأبناء على اللحاق بركب الآباء في حمل العلم[٢]، بل بلغ بهم الحرص على غرس قيم البحث والمعرفة أن أحضروهم في السني الأولى بل في الشهور الأولى إلى حلقات الرواية للحديث النبوي[٣]، وفي هذا ما يشير إلى الدافع الذاتي لدى المجتمع المسلم في الانخراط في حياة العلم.

٢- كان إعلان القاهرة دار خلافة الإسلام من قبل السلطان الظاهر بيبرس سنة٦٥٩هـ/١٢٦٠م بمثابة بث الروح للعاصمة الإسلامية الجديدة، ومن الطبيعي حينها أن تكون دار الخلافة هي دار العلم والمكان الطبيعي للعلماء[٤]. كما أن الثقل السياسي والاقتصادي والعسكري والأمني الذي باتت تشكله كان عاملا أساسيا في اجتذاب أعداد هائلة من العلماء الذين جعلوا من القاهرة وجهة مهمة في عملية الأخذ والعطاء العلميين.

٣- إن الاستقرار الذي فرضه السلاطين المماليك لا سيما في عهد السلاطين الكبار مثل الظاهر بيبرس، والمنصور قلاوون، والسلطان الناصر محمد بن قلاوون، والذي غطّى على مساحة واسعة في النصف الأول من القرن الثامن جعل القاهرة مركزَ جذبٍ عالمي لعشاق المعرفة أخذا وعطاء، ويتبين من خلال تراجم رجال العلم الذين وصلوا القاهرة في تلك المدة أنها استقبلت رجال العلم ليس فحسب من تلك المناطق القريبة من مصر كالشام[٥]، والعراق[٦]، والمغرب الأوسط[٧]، بل حتى من مراكز العلم البعيدة شرقا من جنوب بحر قزوين إلى الهند[٨]، وغربا حتى الأندلس[٩]، وشمالا في بلاد الروم (تركيا حاليا)[١٠]، وجنوبا حتى الحبشة[١١]، ويكاد ينذُر خروج عالم من القاهرة باعتباره مطرودا منها.

---

[١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٢٧٦ -٢٧٧، ٤٣٦-٤٣٧، ج٣ ص١٠، ج٤ ص٣٥٢-٣٥٤؛ ورفع الإصر، ص٦٠.
[٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٣٥٧- ٣٥٨، ج٤ ص١٦٦-١٦٧.
[٣] المصدر السابق، ج٢ ص٢٧٩، ٣٠٦.
[٤] عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص٣٤١.
[٥] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٩، ٧٩، ٣٨٦، ج٤ ص٨، ٢٤ ــ ٢٥، ٦٩ ــ ٧٠، ٢٩٠-٢٩١؛ وإنباء الغمر، ج١ ص١١٦.
[٦] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣٢٣-٣٢٤، ٣٦٩-٣٧٠، ج٣ ص٢٢٦، ج٣ ص٤١٦-٤١٧، ج٤ ص٥٧، ١٢٨؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص٣٠٧.
[٧] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٤٢٢، ج٤ ص١٨١.
[٨] المصدر السابق، ج٢ ص٢٠٩-٢١٠، ج٣ ص٧٢-٧٤، ١٥٤-١٥٥، ٣٨٣-٣٨٤، ج٤ ص٣١٠-٣١١، ٣٢٧-٣٢٨، ٣٤٢-٣٤٣، ٣٥١؛ وإنباء الغمر، ج١ ص١٨٣-١٨٤، ٣٨٣-٣٨٤.
[٩] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص١٣٣، ٣٠٢-٣٠٩.
[١٠] المصدر السابق، ج١ ص١١٧، ج٢ ص١٧٦، ج٣ ص٢٤-٢٥.
[١١] المصدر السابق، ج٢ ص٤٤٦-٤٤٧.

بل إن إحصائية أوّلية لعلماء القاهرة خلال القرن الثامن والذين بلغ تعدادهم من خلال الدرر الكامنة[1] أكثر من ١٣٠٠ عالم تظهر أن ما يزيد على الثلاثة الأرباع منهم ممن شارك في حياتها العلمية كانوا يحملون ألقابا مكانية من خارج القاهرة، وهم سوى مَنْ لم تذكر لهم نِسَبٌ مكانية، وبهذا فقد اكتظّت القاهرة بهؤلاء العلماء الذين وسعتهم جميعا.

٤- إن هذه العقول الجديدة الوافدة على القاهرة وضواحيها ستُحْدِث بحملها معارف موطنها الأصلي وعلومه أثرا وتفاعلا مهما في عقول أبنائها ومعارفهم، وهو ما ينعكس إيجابا على العقل المعرفي الجمعي للعاصمة الإسلامية.

٥- ويبدو جليا الأثر الذي تركه الاستقرار الأمني الذي نعمت به القاهرة التي نجت من اجتياح التتار الذي دمر العراق ولم يزل بالإضافة إلى المستوطنات الصليبية يهددان الشام بين الحين والآخر خلال النصف الثاني من القرن السابع وأول القرن الثامن، كما أصابت الفوضى مغرب العالم الإسلامي في الأندلس والمغرب بمقتل، بالإضافة إلى توثُّب الصليبيين لطرد المسلمين من الأندلس وهو ما حدث نهائيا بعد سنين ليست بالكثيرة.

لقد كان احتلال التتار المغول للعراق والشام عام٦٥٦هـ/١٢٥٨م، ثم هجوم غازان المغولي أول القرن الثامن الهجري والفتن التي نشبت في هذه البلدان خلال ذلك عاملا في استقبال مصر لأعداد من أهل العراق والشام كانوا يجفلون[2] (يهربون) حفاظا على أرواحهم، وكان لهم ولأولادهم أثرٌ فاعل في حياة القاهرة العلمية[3]، ويبدو أنه كان عاملا أيضا في إثارة مخاوف العلماء بنهاية العلم وتدميره كما حدث في إغراق مكتبات بغداد؛ الأمر الذي ولّد انطباعا بضرورة توثيق كل هذه العلوم وتسجيلها فظهرت الموسوعات التي هي سمة هذا العصر، بل سمة هذه المدينة القاهرة خصوصا.

ويظهر بوضوح انتعاش الحياة العلمية في عهود الاستقرار السياسي ومنها عهد الناصر، ففيه يظهر كمٌّ هائل من العلماء للتدريس في أنواع العلوم في ظل وفرة اقتصادية جيدة ، ويبدو واضحا أن عهد الناصر كان أزهى العصور العلمية في الدولة المملوكية بسبب الاستقرار الذي يسّر هدوءا لحياة العلم لمدة كافية نافت على الثلاثة القرون، ومن قبله كذلك أيام والده السلطان قلاوون والسلطان بيبرس البندقداري.

٦- كان لا بد أن يدعم النظام العسكري المماليكي الحاكم الحياة العلمية حتى يضفي على حكمه البعد الديني ليعتاض رضاء الناس الذين نظروا إليهم على أنهم مغتصبون وغير شرعيين، وقد ربحت السلطة المملوكية هذا الجانب في قلوب الناس، ودعمت مركزها في أعين الشعب، ولم يشكِّل العلماء أي خطر يذكر على السلطة، بل كانوا عامل استقرار وهدوء وكانوا دائما طَوْعَ المتغلب على الأمر من المتنافسين، ولم تسع المؤسسة العلمائية لإحداث أي تغيير، ووقوفها إلى جانب سلطان ضد آخر لم يجبر السلاطين المنتصرين دائما على التفكير في محاربتهم جميعا؛ إذ كثيرا ما انقسم العلماء بين فريق مؤيد لذاك وآخر مؤيد للآخر، وفي غالب الأحوال إذا أراد السلطان المنتصر أن يعاقب الفريق الآخر فقد كان فقط بتقوية حلفائه، وإعطائهم الوظائف المعهودة، وحرمان المناوئين له منها[4].

[1] ثبت قطعا أن الدرر الكامنة لم تحص جميعهم، بل قد ترك ابن حجر أعيانا من العلماء ذكرهم في إنباء الغمر، وكذلك ترك علماء ذكرهم غيره في مؤلفاتهم. ينظر على سبيل المثال ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٦٧، ٨٧، ١١٨، ١٢٥.

[2] وقد أرخ المؤرخون بهذا الجفل (الهروب)، وقالوا: (وقع كذا سنة الجفل). ابن حجر، رفع الإصر، ص٣٥٦.

[3] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٢٤١-٢٤٣، ٣٢٣-٣٢٤، ج٤ ص١٢٨؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص٤٤٤، ٤٧٧؛ ورفع الإصر، ص١٣٧، ٣٥٦، ٣٦٧؛ والزركلي، الأعلام، ج٦ ص١٥٣.

[4] ابن حجر، رفع الإصر، ص١٦٤.

٧- لقد أنشأ سلاطين وأمراء المماليك في النصف الثاني من القرن السابع وخلال القرن الثامن الهجريين المدارس والمساجد والخوانق والمكاتب (الكتاتيب)، وأجروا عليها ميزانيات مالية كبيرة لتسيير عملية التعليم واستمرارها من خلال الأوقاف الطائلة، وتفننوا في بناء هذه المنشآت التعليمية وبذلوا الأموال الطائلة في سبيلها، وبنوا منها ما ملأ أخطاطها[١]، ووجدها ابن بطوطة (ت٧٧٧هـ/١٣٧٥م) حين زار القاهرة سنة٧٢٦هـ/١٣٢٥م لا تحصى لكثرتها[٢]، وكانت تربطهم علاقة جيدة بالعلماء يعظمونهم ويقضون شفاعتهم، ويصلونهم بالمال والهدايا[٣]، وبنوا لأجل متصوفيهم الخوانق[٤].

تميز بعض سلاطين المماليك وأمرائهم بالمحبة للعلوم والمشاركة في الحياة العلمية وأحبوا العلم ومذاكرته، ووجد منهم علماء، وقد أُثِر عن الظاهر بيبرس مثلا ميلٌ شديد إلى التاريخ وأهله، واعتباره مما يعطي التجارب، غير أن ميلهم إلى الحديث وأهله يبدو ملفتا إذ سُجّل لكثير منهم السماع للأحاديث ولـ(البخاري) خاصة، واستنساخ كتبه، واستقدم بعض أعيانهم شيوخه المشاهير من الشام لسماع روايتهم له، ومنهم من جعل بيته مكان إلقائه[٥].

وكان من الأسباب السياسية التي ساعدت على حياة العلم أن بعضا من الطامحين في المشاركة السياسية لما لم يجدوا ما يلبي رغبتهم فيها تحولوا إلى الاشتغال بالعلم[٦].

٨- شكل كون القاهرة عاصمة الدولة ودار الخلافة الإسلامية ومكان الثقل السياسي والاقتصادي والعسكري للأمة بأجناسها المتنوعة بالإضافة إلى التنافس المذهبي إثارة معينة؛ حيث جعلت لنفسها جاذبية متنوعة تلبية للحاجة الماسة في تغطية حاجتها باعتبارها مدينة بتلك المواصفات، ولهذا كان لا بد من توفر علماء الألسنة[٧]، والمذاهب[٨]، وذوي العلوم النادرة[٩]، والشعراء[١٠]، والفنانين[١١]، والتجار، وغيرهم ممن يلبون الحاجة لعاصمة ومدينة ومدينة كبيرة مثل القاهرة، ومن دون شك سيضفون على الحياة العلمية نوعا جديدا من الدافعية تجاه العلم وتحصيله ونشره.

٩- وكانت القاهرة لا تبخس أحدا حقه فبإمكان الفقير أن يشق طريقه نحو العلم والتفوق والحصول على أعلى المناصب المتاحة للعلماء آنذاك[١٢]، ويمكن لأحد العلماء الأجانب أن يصل إلى الغنى بعد الفقر، وإلى أعلى المناصب العلمية والإدارية المتاحة حسب كفاءته وقدرته على استثمار علاقاته والاستفادة منها مع التيارات الاجتماعية والمماليكية الفاعلة[١٣]، ونجد ألمع رجال العلم والقضاة من الوافدين على القاهرة، وقد أثبتت القاهرة عالميتها وإن في بعض الوجوه حين نجد بعض المدارس الشهيرة خصّصت للحنفية الآفاقيين من خارجها[١٤]. ومن

---

[١] القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣ ص٣٦٨. وينظر ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٣٨٠.

[٢] ابن بطوطة: محمد بن عبدالله اللواتي الطنجي، (ت٧٧٧هـ)، تحفة النظار في غرائب الأسفار وعجائب الأمصار، ط١، القاهرة، المطبعة الخيرية، ١٣٢٢هـ، ج١ ص، ٢٣، ٢٧- ٣٨.

[٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٣٢، ٣٥١-٣٥٢، ج٢ ص٤٠١-٤٠٣، ج٣ ص٦٣-٦٤، ج٤ ص٩٣-٩٤؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٥٣١؛ ورفع الإصر، ص٦٦-٦٨.

[٤] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٢٧-٣٢٨.

[٥] المصدر السابق، ج٢ ص٢١٧، ٢١٨، ٢٤٢، ٢٦٢-٢٦٣، ٢٧٦-٢٧٧، ٣١١-٣١٢، ج٣ ص١٥٤، ١٥٧، ٤١٦-٤١٧؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٤٨٤، ج٢ ص٦٩؛ وابن تغري بردي: أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، (ت٨٧٤هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م، ج٧ ص١٦٢.

[٦] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٤٤٧.

[٧] المصدر السابق، ج٤ ص٢٥٩.

[٨] المصدر السابق، ج٣ ص٧٢-٧٣، ١٥٤-١٥٥.

[٩] المصدر السابق، ج٣ ص٩، ٧٢- ٧٣.

[١٠] المصدر السابق، ج٢ ص٣٦٩-٣٧٠.

[١١] الزركلي، الأعلام، ج٦ ص١٥٣.

[١٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٢٦٦.

[١٣] المصدر السابق، ج٢ ص٣١٥-٣١٨، ج٣ ص١٥٤-١٥٥، ج٤ ص٣-٦، ٣٣٦-٣٣٧.

[١٤] مدرسة صرغتمش التي بنيت سنة ٧٥٧هـ. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٣٢؛ والمقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣ ص٥٤٠- ٥٤١.

الطبيعي أن تسير الأمور على ذلك النحو كون الحكام المماليك هم الآخرون أيضا غير مصريين؛ ولهذا فسيدعمون مثل هذا الاتجاه الآفاقي.

١٠- ويظهر بوضوح أن عالمية الحضارة العربية الإسلامية وانفتاح الأقطار على بعضها، وسهولة التنقل بين مراكز المعرفة، وغياب الحدود الإقليمية والمناطقية، وشعور علماء الإسلام بأنهم أمة واحدة كان له أثر كبير على استمرار قنوات الاتصال العلمي والتلاقح الفكري بين هذه الأقطار، فقد عمل بعض العلماء وزيرا في اليمن بعضا من الوقت، ومتصدرا للتدريس في القاهرة لمدة ثانية، ومدرّسا ومديرا لمشفىً في القدس لمدة ثالثة[١]، وكانت أبواب العلم مفتوحة أمام طالبيه من أي مكان أتى، ومن أي فئة قدم، ولا يزال يمر في أسفاره متعلما أو تاجرا أو هما معا فيجد العلماء أينما حل أو ارتحل شرقا وغربا وشمالا وجنوبا، ويأخذ عنهم فيلقيه في أي بلد وصله[٢].

١١- ومثّلت الشام بمراكزها العلمية المختلفة ذات الإشعاع العلمي القوي رديفا كبيرا للقاهرة في هذا الجانب مما كان له أثر كبير على تكامل البلدين مع بعضهما في الحياة العلمية، وتنقُّل العلماء ما بينهما بسهولة ويسر[٣]، وهذا عامل مهم يسّر للعالم أن يمارس دوره المفترض في أي مكان وصله.

١٢- وخصّص الواقفون الذين بنوا المدارس والجوامع للمعلمين بها والطلاب إعاشات دورية[٤]، أعانت الفقراء منهم؛ لكونها مصادر دخل ثابتة تعين على التفرغ لحياة العلم بدلا من المكابدة لأحوال العيش القاسية، وكان الطلبة محل عناية كثير من وجهاء القاهرة وإحسانهم إليهم[٥] وتوفير أرزاقهم وحاجاتهم فكثّرت أعدادهم[٦]، ووفرت بعض المدارس الاستقرار النفسي بتسكين مدرسيها في مبان موقوفة عليهم[٧]، كما كان للطلبة مساكنهم في بعض تلك المدارس مع مقررات مالية حسب ما حددها الواقف[٨]، وكان لها أثر على انصراف أذهانهم إلى حياة العلم والتفرغ للعلوم، وكان هذا عاملا كبيرا من عوامل استقرار الحياة العلمية.

ومن حسن الحظ أنه لم يحتكر السلاطين حق إنشاء المدارس والخوانق والمساجد، ولهذا فقد سارع كثير من الأمراء والوزراء للاقتداء بالسلاطين في بناء المدارس ووقف الأوقاف عليها، وكان منهم من أراد ذلك تغطية للظلم الذي أرهق كاهل المجتمع به، كما كان بعض تجار الكارم يتنافسون على بنائها، وجاءت بعض هاتيك المدارس على أحسن البناء والصنعة[٩].

واضطر بعض الوجهاء من كبار الأمراء والموظفين إلى وقف بيته الفخم مدرسة للعلم خوفا من عقوبة الهدم التي بات ينتظرها بعد أن يرميه الدهر بحدثانه بزوال نفوذه في عهد المماليك المتقلب المزاج[١٠].

لقد ازدهرت الأوقاف في عصر المماليك ووصلت عصرها الذهبي[١١]، وبلغت الأوقاف على المساجد والمدارس

---

[١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣١٥- ٣١٨.

[٢] المصدر السابق، ج٢ ص٢٧٠-٢٧٢، ٢٨٤-٢٨٥، ج٣ ص٢٥-٢٨، ٤١٣-٤٩٦،٤١٤، ج٤ ص٣-٦، ٣١٠-٣١١، ٣٤٢-٣٤٣.

[٣] كثرت في المدة المدروسة أعداد الشاميين الذين كان لهم أخذ أو عطاء في مصر وكذلك المصريون في الشام.

[٤] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٢٨٠-٢٨٣، ج٤ ص٢٥٠؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٩٨-٩٩.

[٥] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص١٧، ٢٧٥-٢٨٤، ج٢ ص٢١٠، ٢٦٨، ٢١٤، ج٣ ص١٢٧-١٢٨؛ ورفع الإصر، ص٣٤-٣٥.

[٦] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص١١٢.

[٧] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٩١-٩٢، ج٣ ص١٤٩؛ ورفع الإصر، ص١٩١، ٣٦٨.

[٨] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٢٨٠-٢٨١؛ وعاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص١٦٤.

[٩] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٦١، ٦٥-٦٦، ٨٦-٨٧، ١٠٠؛ وانظر المدارس في كتاب المواعظ والاعتبار، ج٣ ص٤٣٦- ٥٧٦؛ وينظر سعاد ماهر، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م. الجزء الثالث.

[١٠] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص١٠٤.

[١١] أمين: محمد محمود، ازدهار الأوقاف في عصر سلاطين المماليك، بحث قدم لمؤتمر الأوقاف الأول في مكة المكرمة عام ١٤٢٢هـ، موقع السادة الأشراف على النت، ص٢٤٣.

والزوايا على عهد الناصر مئة وثلاثين ألف فدان، سوى البيوت والمعاصر والأسواق وغيرها من المستغلات[١]، وكانت إدارة أموال الأوقاف من صلاحيات قاضي القضاة الشافعية إيرادا وتصريفا[٢]؛ الأمر الذي أعطى المؤسسة العلمائية فرصة الاستقلالية المالية، وهذا الدخل المالي الثابت لعناصر العملية التعليمية مكّنها نوعا ما من أداء رسالتها ودعم توجهاتها العلمية، ومع ذلك فقد كان هذا الدخل عرضة للانتقاص والفساد، ويصوِّر الحوار بين القاضي سراج الدين الهندي والأمير ألجاي حول مداخيل الفقهاء وصغار العلماء ضآلة ما كان يصل إليهم من الأموال كما سيتضح في أحوالهم الاقتصادية لاحقا.

١٣- شهدت بداية عصر المماليك نشاطا محموما في حركة التأليف والنسخ وجمع الكتب، ولعل السلاطين قدّروا أهمية الكتاب كما يظهر من احتفاظهم بمكتبة جليلة القدر اعتُبرت من ذخائر الملوك[٣]، كما أنشأ السلاطين والأغنياء والأغنياء أيضا المكتبات العامرة بأنواع العلوم، فأنشأ الظاهر بيبرس بمدرسته خزانة اشتملت على أمهات كتب المسلمين[٤]، ومثله فعل كل من المنصور قلاوون[٥] والناصر محمد بن قلاوون في مدرستيهما[٦]، وهناك خزانة الخانقاه الصلاحية[٧]، كما ذكر المقريزي[٨] عددا جيدا من المكتبات التي ازدانت بها مدارس القاهرة وجوامعها، ومنها خزانة جامع الحاكم، وخزانة جامع الخطيري ببولاق، وخزانة المدرسة الصاحبية البهائية، وخزانة المدرسة الصاحبية، وخزانة المدرسة الملكية، وخزانة المدرسة السابقية، وخزانة مدرسة ألجاي.

لقد كان هناك جهد شعبي في بناء تلك المكتبات إذ بادر بعض عشاق الكتب من العلماء إلى جمع أصول الكتب وأمهاتها، ووقفها على المساجد أو سهّل لآخرين شراءها وتحبيسها على مدارس القاهرة[٩]، وكانت الكتب الموقوفة كثيرة جدا لدرجة أنها أشبعت نهم أئمة العلم فضلا عن طلابه عن الشراء أو الاستنساخ[١٠].

١٤- اقتضت الحاجةُ إلى الكتاب ظهورَ سوق الكتبيين في القاهرة، وكان ملمحا هاما من ملامح الحياة العلمية في القاهرة، لم يقتصر دوره على إيجاد الكتاب وتوفيره للبيع، بل كان بؤرة ثقافية دارت في رحابه مناقشات علمية بين العلماء، و"ما برح مجمعا لأهل العلم يترددون إليه"[١١]، وناب عن المكاتب العامة في توفير المادة العلمية مجّانا للمطالعين والمصنفين[١٢]، وراجت التجارة في سوق الكتب رواجا عظيما ونال تجار الكتب أرباحا هائلة[١٣]؛ الأمر الذي يبين أن الكتاب كان له تأثير فعال في الحياة العلمية خلال القرن الثامن الهجري، كما يبين سهولة الحصول على المعلومة العلمية.

١٥- لكون مصر على طريق الحجاز فيلاحظ أن علماء المغرب والأندلس وكذلك علماء أفريقيا طالما كانت القاهرة قبلتهم عند مسيرهم لأداء الحج، أو عند رحلات رحاليهم، فحطوا رحالهم فيها إما لبرهة من الزمن أو

---

[١] عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص١٦٤.
[٢] ابن حجر، رفع الإصر، ص٤٨٥.
[٣] ويبدو أنها خرجت من الخدمة فعليا يوم الجمعة ٤ صفر سنة ٦٩١هـ بسبب حريق قضى عليها، ثم انتهب الغلمان ما بقي منها من نفائس محرقة بأبخس الأثمان. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣ ص٦٣؛ والسلوك، ج٢ ص٢٣٣.
[٤] المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣ ص٤٧٩.
[٥] المصدر السابق، ج٣ ص٤٨٢.
[٦] عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص٣٤٥- ٣٤٦.
[٧] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٢٤٦.
[٨] المواعظ والاعتبار، ج٣ ص٢٢٥، ٣١٠، ٤٥٨، ٥١٠، ٥١٥، ٥٢٨.
[٩] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٤٢١-٤٢٢؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٣٥٥، ج٢ ص١٨١-١٨٢؛ ورفع الإصر، ص٣٩٦.
[١٠] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٣٠٩؛ والمقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢ ص٥٩٨.
[١١] المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢ ص٥٩٨.
[١٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٣٩٨.
[١٣] المصدر السابق، ج٢ ص٤١٩.

استقر بهم المقام فيها، وفي كلا الحالين كان لهم أثر جيد ومشاركة فاعلة في الحياة العلمية[١]، وهو ما أعطى دافعية جيدة للبحث وتبادل المعلومات وتطوير الحياة العلمية، وتزويدها بعلماء كثر كان لهم دور علمي رائد.

١٦- اقتصر التعليم في القرى المصرية على تحفيظ القرآن الكريم وتعليم مبادئ العلوم الدينية واللغوية في الكتاتيب، وهو ما كان يتفق مع إمكانات القرية؛ لهذا التحق النابهون والطامحون في التألق والتعمّق العلميين من أولاد القرى بمدن الأقاليم المصرية وبالقاهرة أم المدن[٢]، في حين أن القاهرة كان يتوفر بها شيوخ العلم المتخصصون وأئمة العلوم في شتى ميادين ومجالات العلم المختلفة، وعنّ لبعض أولئك الطلاب أن يستوطنوا القاهرة حتى لا تفوتهم البيئة المناسبة لمستواهم العلمي بعد أن بلغوا فيه مراتب عالية ولا يمكن لهم العودة إلى القرى وقد ربطتهم علاقات علمية واجتماعية بقدر مستواهم العلمي الفائق[٣]؛ ولهذا نجد بعضا من أبناء المدن المصرية الأخرى من الأسر العلمية الشهيرة وقد استقر بهم المقام في القاهرة[٤].

١٧- ونشط في العلوم تدريس الطب في البيمارستان المنصوري وفيه الأطباء الماهرون، والصيادلة المتفوقون، وأطباء العيون (الكحالون)، والجرائحيون، و(أطباء العظام) المجبرون وقد استحوذت القاهرة على علوم لم تكن متوفرة في كل المدن المصرية الأخرى، مثل الطب والرياضيات والحساب والفلك والكيمياء[٥]، كما كان لتوفر الخدمات الطبية الموجودة أثر في اجتذاب العلماء للتداوي هناك[٦].

كما استقطبت أماكنُ الخدمات الاجتماعية للمسافرين كالفنادق والوكالات والمبرات السكنية الخيرية الثقافية العديدَ من روادها[٧]، وهو ما جعلها محطة جذب عامة معنية حتى بالعلوم الخاصة والنادرة، وأزال المشاكل المتعلقة المتعلقة بالسكن لمن رغب في العلم والالتحاق به.

وكانت الأضواء مسلطة على القاهرة كونها العاصمة السياسية والعسكرية والاقتصادية والعلمية، حتى أن أحد علمائها البارزين اعتقد أن السلطان أخمل ذكره حين ولاه الشام متمنيا أنه أبقاه في القاهرة[٨].

١٨- وازدهرت التجارة في ذلك العصر إلى مستوى كبير بين مصر وأقطار العالم، ووصلت مثلا العلاقات الإفريقية المصرية أزهى عصورها على مر التاريخ، ولا سيما في الجانب التجاري، وترتب على ذلك ازدياد حجم التبادل التجاري سواء بينهما أو بين مصر وأوربا[٩]، ومارس كثير من العلماء الآفاقيين مهنة التجارة من وإلى مصر، ومزجوا التجارة بالحج والعلم[١٠]؛ وهو ما ساهم في تسهيل عملية التواصل العلمي، وأفسح المجال للاستقلال العلمي عن السلطة الزمنية نوعا ما.

---

[١] المصدر السابق، ج٢ ص٣٤٣، ج٣ ص٤١١-٤١٢، ج٤ ص٨٣-٨٤، ١٢٣، ١٦٢، ١٦٨، ١٧٨-١٧٩، ١٨١-١٨٤، ٣٠٢-٣٠٩؛ وحبيب: شوقي عبد الحميد عثمان، التجارة بين مصر وأفريقيا في عصر المماليك، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠م، ص١٣٣.

[٢] بحر: مجدي عبد الرشيد، القرية المصرية في عصر سلاطين المماليك (٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م، ص٣١٩.

[٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٢٤٥، ٣٠٨-٣١٠، ج٣ ص٦٣، ٢٨٩-٢٨٠، ٣٢٥-٣٢٦، ج٤ ص٣٠٢-٣٠٩.

[٤] المصدر السابق، ج٤ ص٩٣-٩٤.

[٥] المصدر السابق، ج٢ ص٢٤٥، ج٣ ص٧٩-٨٠، ٢٧٩-٢٨٠، ٢٨٨، ٣٢٥-٣٢٦، ج٤ ص١٨١.

[٦] المصدر السابق، ج٢ ص٣٣٤، ج٣ ص١٤٩-١٥٠.

[٧] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص١١٤؛ وابن بطوطة، تحفة النظار، ج١ ص٢٣-٢٤؛ وعاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص١٠١.

[٨] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٢٦.

[٩] حبيب، التجارة بين مصر وأفريقيا في عصر المماليك، ص١٣٣، ١٣٤.

[١٠] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣٦٩-٣٧٠، ج٣ ص٤١٣-٤١٤.

تلك أهم العوامل التي أعتقد أنها ساهمت في تنشيط وصناعة الحياة العلمية في القاهرة إيجابا، ودفعت بها إلى مستوى جيد فاق في نظر المعاصرين[1] المستويات التي حصلت عليها المدن الأخرى المعاصرة لها في العالم الإسلامي.

٢- العوامل المؤثرة سلبا

توفّرت عوامل عديدة لوجود حياة علمية تتناسب وحجم الدور التاريخي والعسكري الذي حملته القاهرة بعد أن صارت قبلة العلماء والمتعلمين من أقطار الأرض، غير أن هناك من العوامل التي أثرت سلبا؛ ما أعاق مسيرة العلم عن الوصول إلى النضج الكامل وساهم في بعض التشوهات التي أصابت هذه الحياة، وهنا مجموعة من العوامل التي أرى أنها كانت كذلك.

١-لقد كانت الدولة المماليكية دولة استبدادية مبنية على القوة والقهر والاعتراف بالإسلام فيما لا يتعارض مع أهواء الحكام، وقد ساعدتهم العقيدة الداعية إلى طاعة ولي الأمر مهما بلغ به السوء كما سيأتي في النتاج العلمي في الأحكام السلطانية على الظهور بمظهر الحكام الذين لا يقف في وجههم شيء، وكانت تحكمهم توازنات اجتماعية ودينية لها حدود معينة، وعلى الرغم مما كان يظهره هؤلاء الحكام من احترام للعلماء إلا أنهم كانوا يخِفُّون إلى التنكيل بمعارضيهم من العلماء عزلا وتخويفا وقتلا، لا سيما إذا جاوز أحدهم الحدود المتعارف عليها في العلاقة القائمة بين تلك الأطراف، وكثيرا ما تدخّل عنصر الولاء للحاكم في ترقية هذا العالم وتوليته وعزله من منصبه في الدولة[2]، وقد خلق ذلك جوا من الخوف والرهبة التي لن ينمو في ثناياها إبداع مهما كانت الظروف ميسرة.

ولغياب الرؤية السياسية المنظّمة لعملية انتقال السلطة من حاكم لآخر؛ فكثيرا ما رافق عمليات الانتقال تلك كثيرٌ من الاضطرابات العسكرية والتمردات حتى ينتصر التيار القوي فيُسْكِت خصمَه بالقوة العسكرية، وفي ذلك ما يعود على الحياة العلمية في القاهرة العاصمة بالأثر السيء لا سيما حين تَسْتَدْرِجُ الفرقُ المتصارعةُ العلماءَ للوقوف معهم ولإصدار الفتيا السياسية الدينية لصالحهم، فإذا ما انتصر فريق ذهب لينكل بالآخرين[3].

٢- كان جل العلماء الذين لهم فعالية في المجتمع يعتنون بالعلوم الشرعية، وكان فيهم من لديه نظرة متشددة حيال بعض العلوم الأخرى، مثل علم المنطق والفلسفة، وعلم الكيمياء، وعلم الفلك، كما سيأتي، وكان البعض منهم يقوم بالتحريض ضد تلك العلوم شعبيا ورسميا وبتجريم من يشتغل بها؛ وبالضرب والتأديب لمن يتعاطاها[4]؛ الأمر الذي أقصاها عن المجتمع والدعم الرسمي والشعبي لها.

٣- كما عمد القادة المتنافسون على استخدام المنشآت العلمية والتعليمية للأغراض العسكرية خلال الصراعات العسكرية التي تنشأ بين الأمراء الطامحين[5]؛ الأمر الذي سيصيب الحياة العلمية ولو جزئيا بالشلل أو التوقف.

٤- ويبدو أن قناعة بعض أولئك الحكام بالحياة العلمية وضرورتها ليس إلا استجابة لتقليد مضى عليه الأيوبيون، وإيقاعا للمعادلة التاريخية الثنائية بين العلماء والحكام الذين استفاد كل منهما من الآخر في بقاء أزِمّة الشعوب بأيديهم، وتكاملت حينئذ السلطة السياسية العسكرية التي مثّلها الحكام مع السلطة الروحية الدينية التي مثّلها العلماء

---

[1] ابن خلدون مثلا الذي أثنى على مستوى القاهرة العلمي كما تقدم.

[2] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٤٤٣-٤٤٤؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٤٢٦-٤٢٧؛ ورفع الإصر، ص٤١.

[3] كما فعل كل من الناصر ابن قلاوون بعد عودته من الكرك كما مر، ومثله آخرون سيأتي الحديث عنهم في فصل (علماء القاهرة).

[4] على سبيل المثال ينظر السبكي: عبدالوهاب بن علي، (ت٧٧١هـ)، معيد النعم ومبيد النقم، ت. محمد النجار، ومحمود أبوشلبي، ومحمد أبوالعيون، ط٢، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، ص٧٧- ٨٠.

[5] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص١٥١.

في الحفاظ على ملامح الحياة العلمية ولو شكلا في بعض الأحيان؛ لكن لما لم تكن قناعات هؤلاء الحكام بأهمية العلم في تنمية الشعوب في المجالات المختلفة صار الأمر وكأنه إسقاط واجب يجب القيام به ولو شكلا ونراه في كثير من مجالات العلوم المختلفة، في حين لما كان التاريخ مثلا مطلوبا للحكام ولو لبعضهم فقد أثّر ذلك في استمرار تطوره، ويتبين أن التاريخ خاصة بسبب ذلك بلغ مرتبة جيدة وبشكل غير مسبوق.

٥- لقد كان النظام الاقتصادي مصمّما على النظام الضرائبي لمواجهة نفقات جيوش الدولة، وكان الأمراء المماليك يتقاضون رواتب هائلة، في حين كان ما يصل إلى الطالب أو العالم شيئا حقيرا جدا مقارنة بها، ومع ذلك ظلت الرغبة التسلطية لدى سلاطين المماليك تراودهم على حرمان العلماء وطلاب العلم من تلك المرتبات الضئيلة لولا استماتة هؤلاء في الدفاع عن أنفسهم وحقوقهم[١]، ولولا ما شكّلته المعادلة التاريخية في إحقاق التوازن الاجتماعي التكاملي بين فئتي الحكام والعلماء في مجتمع القاهرة.

وزاد الطين بلة أن تولّى هذه الأوقاف الموقوفة على العلماء والمتعلمين بعض البخلاء؛ وهو ما دعى بعض العلماء للبحث عن وظائف مهينة لدى الأمراء المماليك، وأدّى إلى وصول المناصب العلمية لغير أهلها[٢]، كما كان الفساد الإداري واستغلال بعض كبار الموظفين لمنصبه في مصادرة أموال الأوقاف والتلاعب بها بيعا واستبدالا[٣] جزءا من هذا العامل.

٦- وُجِدَت في هذا العصر لا سيما في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري ظاهرة شراء المناصب العلمية والقضائية والإدارية، واعتمد تحديد الثمن للوظيفة على قدر المنصب وحجم الطلب[٤]، وهي ظاهرة من دون شك تشجّع على اعتبار المال معيارا مهما في الحصول على الوظيفة، واستبعاد الكفاءات، وهو شأن سيفضي بلا شك إلى غياب التميز والإبداع، وحضور التعالم والادعاءات.

٧- وشكلت الأوبئة والطواعين والمجاعات المتعاقبة في تلك العصور عاملا خطيرا في استهداف الحياة العلمية عالما ومدرسة وكتابا، وحسبك أن طاعون٧٤٩هـ كان يحصد الآلاف من القاهريين يوميا، وقد عم كل الأقاليم سوى مصر[٥]. وبالعودة إلى وفيات العلماء نجد أن هذا العام شكّل هاوية وخندقا كبيرا التهم كثيرا من أعيان القرن الثامن الهجري ومنهم عشرات العلماء، بل كانت الأوبئة والأمراض لا تمكّن كثيرا من الأسر أن تستمر لأكثر من أربعة أجيال.

٨- كانت هناك أمراض اجتماعية طالما نخرت في الحياة العلمية ومن أكثرها انتشارا في القاهرة تلك الحياة التي دعى إليها بعض الصوفية والتي صاغت حياة الأمة على أنها نوع من التمسكن والتذلل والتكاسل والاستكانة والعبادة وترك العلم، وإذا حصلت لأحدهم جذبة صوفية فإنه سينقطع عن التعلم والتعليم[٦].

٩- وقد كثرت عقوبات القتل لمن أسموهم (الزنادقة)، وكان كل من تجرّأ على القول بما يخالف المتعارف عليه من الإسلام حكم عليه بالإعدام، وكان للقضاة المالكية دور في هذه العقوبات التي اتهموا فيه بالقساوة وانعدام

---

[١] ابن حجر، رفع الإصر، ص٢٨٨؛ ولابدوس: إيرا، مدن إسلامية في عهد المماليك، ترجمة علي ماضي، بيروت، الأهلية للطباعة والنشر، ١٩٨٧م، ص٩١، ٩٢.

[٢] ابن حجر، رفع الإصر، ص٢٤٣-٢٤٧، ٣٦٢-٣٦٣.

[٣] المصدر السابق، ص٢٨٩؛ والسخاوي: محمد بن عبدالرحمن، (ت٩٠٢هـ)، الذيل على رفع الإصر، ت. جودة هلال ومحمد محمود صبح، (بدون بيانات أخرى)، ص٢٨٩.

[٤] لم يسلم من هذه الظاهرة كبار العلماء ومشاهيرهم كما سيأتي في الفصل الثاني (الحياة الشخصية والعلمية لابن حجر العسقلاني) في مبحث (جهوده العلمية والقضائية والإدارية).

[٥] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٢١٦-٢١٨؛ والمقريزي، السلوك، ج٤ ص٨٠-٨١؛ والمواعظ والاعتبار، ج٣ ص٤٤٤.

[٦] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٧٩٧؛ وينظر عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص٢٥٩-٢٦٤.

الرحمة[1]، وعلى سبيل المثال فقد أُعدم فتح الدين أحمد بن محمد البققي المصري سنة٧٠١هـ، الذي كما يبدو أنه لغروره بعلمه ونفسه لم يترك له ذلك صديقا من رجال الدولة يخلّصه من أنياب القاضي المالكي[2] كما حدث مع آخرين[3].

وبغض النظر عن وجود عدالة في تلك الأحكام أو عدمها فإن الأمر سيعطي بيئة قلقة وخائفة لا تساعد على وجود عقول مبدعة وخلاقة، حيث لا تجرؤ على النقد والمخالفة؛ الأمر الذي يجعل الجميع يردد ما قاله السابقون بدون تأمل ولا تمحيص، ويسلبهم الحرية في الخروج عن أشكال السابقين ومفهوماتهم ومعلوماتهم وقناعاتهم.

١٠- وكان من الصعب أن يجد أهل المذاهب الأخرى مما عدا المذاهب الفقهية الأربعة أو أن يجد العقائديون من غير عقيدة أبي الحسن الأشعري[4] وأهل الحديث مكانا في القاهرة، ووصل الأمر بهم في حين من الأحيان أن جعلوا جعلوا اعتقاد الاعتزال[5] وقراءة كتاب (الكشاف) لجار الله الزمخشري (ت٥٣٨هـ/١١٤٣م)[6] مثلا جريمة لا تغتفر تغتفر ولو لعالم موسوعي، وأما التشيع فقد شنت عليه حرب شعواء في القاهرة[7]، وهو أمر حرم القاهرة التعدد والتنوع الذي كان يساهم في تكامل المجتمع المسلم في الحياة العلمية كما كان عليه الأمر في عصور الإبداع.

١١- ورغم توافد العلماء من الآفاق المختلفة إلى القاهرة بدوافع ضاغطة أو مغرية لكنها أثّرت سلبا حيث جمعت عددا ضخما من علماء الآفاق ذوي التخصصات المختلفة في بوتقة ظروف وبيئة واحدة، قد لا تكون كلها مشجعة للعلم وتطوره وتنوعه وظهور أثره الطيب.

١٢- وكانت تنشأ بين كبار العلماء حوارات عنيفة على قضايا جانبية تتحول إلى تكفير المخالف ومحاولة الانتقام منه[8]؛ وهذه الأمور بدورها لا تشجع على الإبداع العلمي ولا التفاعل الإسلامي بين مختلف فئات الأمة ومذاهبها، وسيكون هناك حدود للتأثير والتأثر بينها.

١٣- وفي واقع الأمر لم تكن المرأة القاهرية مشاركة بفعالية في الحياة العلمية؛ إذ عانت القاهرة ندرة حادة للنساء في مجالات العلم المختلفة، ورغم إسماع بعض العلماء الحديث لبناتهم وزوجاتهم والاستجازة لهن فيه، غير أنه كان محدودا جدا، وكانت القاهرة تأتي في مراتب متدنية بعد دمشق ومدن الشام المختلفة، كما سيتضح من شيخات ابن حجر، ويكفي دليلا على غيابهن عن العلم أنه لا يكاد يُعْثَرُ على امرأة واحدة تركت نتاجا علميا في أي مجال، ومن دون شك فإن مجتمعا تربّى على يد الأميات فلن يكون مهيئا للإبداع والتألُّق.

١٤- وكان مما يعيب الحياة العلمية توريث الوظائف التدريسية[9]، وخضوعها لإدارة القضاة والشيوخ الذين يتم تعيينهم أحيانا من خلال مواقفهم حول رغبات الحاكم وليس من خلال كفاءاتهم.

---

[1] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٣٠٨- ٣١٢؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٢٦٢.

[2] وكان البققي قد "مهر في كل فن، وقطع الخصوم في المناظرة، وفاق الأقران في المحاضرة"، وكان طبيبا، ويبدو أنه كان جريئا ويتلفّظ بألفاظ لا تروق لبعض معاصريه، كما يبدو أن للبغض الذي كان يحمله القاضي المالكي تجاهه بسبب كثرة انتقاده إياه أثرا حاسما في عدم قبول توبته التي أعلنها مرارا أمامهم لتخلّصه من حكم الإعدام بتهمة الردة، ولكن دون جدوى. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٣٠٨- ٣١٢.

[3] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٤٨٨؛ ورفع الإصر، ص٣٦٢.

[4] أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (ت٣٢٤هـ)، أخذ عن شيوخ المعتزلة ثم فجأة غيّر آراءه وانقلب عليهم، وتفرّد ببعض الآراء الكلامية. الزركلي، الأعلام، ج٤ ص٢٦٣.

[5] اعتقاد عقيدة المعتزلة، وهم فرقة كلامية لها آراء وعقائد تخالف الأشعرية والسلفية، في صفات الله وحرية الاختيار للمكلف في أفعاله.

[6] الكشاف تفسير شهير وله حضور قوي في حياة القاهرة العلمية، وصاحبه من رؤوس المعتزلة وله نتاج علمي رائد في اللغة والعربية والتفسير.

[7] ابن حجر، رفع الإصر، ص٦٣٢-٣٦٣؛ وعاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص١٧١-١٧١، ومثل ذلك كان في دمشق أيضا. ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٣٢٥؛ والسيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر، (ت٩١١هـ)، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ت. محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، بيروت، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٧م، ج٢ ص١٧٦.

[8] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٢٦٢.

[9] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٢٨-٢٩.

١٥- وكان من العوامل التي منعت بعض أهل القاهرة من إرسال أبنائهم إلى المدارس تلك البيروقراطية التي سار عليها أهل القاهرة في الزي الرسمي المفروض على الطلاب والذي كان يكلف مالا مرهقا جعل بعض الآباء يعزفون عن إرسال أبنائهم للدراسة لعجزهم عن شراء الأزياء الرسمية المعهودة[١].

١٥- ورغم أن القاهرة كانت مرغوبة لهواة الشهرة حيث الأضواء مسلطة عليها[٢]، غير أنها كانت موضع شكوى كثير ممن لم يستطب هواءها، وطالما فُضِّلت دمشق وهواؤها عليها[٣].

هذه العوامل والظروف التي أثرت سلبا على حياة القاهرة تفسر إلى أي حد وصل كَبْحُ العوامل الداعمة للحياة العلمية إيجابا، حين وقفت لها بالمرصاد، وقلّصت إمكانيات أثرها الإيجابي على النحو الذي سيتضح في نتاجها العلمي ونوعيته.

[١] العبدري: محمد بن محمد بن محمد، ابن الحاج الفاسي المالكي، (ت٧٣٧هـ)، المدخل، القاهرة، مكتبة دار التراث، ج١ ص١٥٤.
[٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٢٦.
[٣] ابن حجر، رفع الإصر، ص٤٣، ٦٤-٦٥.

الفصل الثاني: الحياة الشخصية والعلمية لابن حجر العسقلاني

- **أولا: حياته الشخصية:**

١-أسرته ٢- مولده ونشأته

٣-صفاته ٤- زوجاته وسريته

٥-أولاده وفروعه ٦- ثروته المالية

- **ثانيا: حياته العلمية:**

١-دراسته ومراحلها ٢- شيوخه

٣-رحلاته العلمية

٤-رحلته إلى اليمن

٥- تلامذته

٦-مصنفاته

٧- جهوده ووظائفه التعليمية والقضائية

٨-مذهبه

- **ثالثا: وفاته**

الفصل الثاني

الحياة الشخصية والعلمية لابن حجر العسقلاني

من المفيد التعرف عن قرب على شخصية ابن حجر؛ لكونه مصدر هذه الدراسة الأساسي أولا، ثم لكونه أحد رجال العلم في القاهرة في آخر القرن الثامن وأول القرن التاسع الهجريين، وتعتبر حياته الشخصية والعلمية نموذجا للحياة الشخصية والعلمية لعلماء القاهرة؛ ومن هنا تأتي أهمية التعرف عليه، كما يفيد التعرف عليه في التعرف على أحد علماء القاهرة باعتباره نموذجا مهما يمثل العنصر الأهم في الحياة العلمية، متعلما وعالما.

أولا: حياته الشخصية

تؤثر الحياة الشخصية في اتجاهات العالم والمؤرخ، وتصنع ظروفه المختلفة، ثم تنعكس على آرائه سلبا وإيجابا، ثم يتبين كيف تعامل هؤلاء العلماء مع مفردات حياتهم الشخصية وعناصرها.

١- أسرته

نسبه هو أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي، المصري والعسقلاني الكناني الأصل، وتضطرب المصادر حتى تلك التي خطّها ابن حجر بخطه في ما بعد جده الثالث (علي) تقديما وتأخيرا وحذفا بما لا يُطَمْئِن الباحثَ على إثبات أيٍّ منها سوى ترجيحِ أن وراء الجد الثالث (علي) الجد الرابع (أحمد)، وربما عكس هذا الاضطرابُ ضعفَ اطمئنان ابن حجر نفسه عن سلسلة نسبه[١].

وتعود أسرة ابن حجر المصرية إلى عسقلان في الشام، وقد يممت أسرتُه وجهَها نحو مصر في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي[٢]، ولا يظهر لهذه الأسرة كبير شأن لا في الشام ولا في مصر قبل ظهور عم والد ابن حجر الآتي، الأمر الذي يرجّح أن هذه الأسرة لم يكن العلم من اهتماماتها، وقد زاول جدا المؤلفِ الأولُ والثاني مهنةَ البزازة في القرن السابع الهجري في مدينة الإسكندرية[٣].

وإذا كان لهذه الأسرة صلة بمدينة الإسكندرية فإن هناك ما يدل على استيطانهم مصر (الفسطاط)، ولم تكن الإسكندرية إلا محل إقامة للتجارة فقط[٤]؛ ولهذا فقد كان لهذه الأسرة فرعان: فرعٌ آثر الإسكندرية، وبرز في أعيانها العلماء[٥]، وفرع يعود لجد ابن حجر وهو العدل قطب الدين محمد بن محمد أخو عثمان السابق، سمع الحديث من جماعة من الشيوخ، وأجيز من آخرين وكان يبيع البز بالإسكندرية، وتوفي سنة٧٤١هـ/١٣٤٠م[٦]، ومن ذريته زين

---

[١] ففي كتابه الدرر الكامنة، ج٢ ص٤٥٠ جاء في نسب عم والده بعد علي (أحمد بن محمود)، ومثله في ج٣ ص١١٤عند ترجمة والده التي بيّضها، وورد في أول إنباء الغمر عند ذكره نسبه (ج١ ص٣٠) مثله وزيادة آخرين في السلسلة هكذا: (...علي بن أحمد بن محمود بن أحمد بن حجر)، وفي كتابه تبصير المنتبه بتحرير المشتبه، ت. محمد النجار، وعلي البجاوي، بيروت، المكتبة العلمية، ص٤١٤، عند ترجمة عم والده عثمان أورده هكذا (عثمان بن محمد بن علي بن محمود بن أحمد)، وهو النسب الذي اعتمده تلميذه السخاوي في الجواهر والدرر، ص١٠١؛ وذكره المقريزي: أحمد بن علي، (ت٨٤٥هـ)، درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، ت. محمود الجليلي، ط١، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، ج١ ص١٩٤، لكن بزيادة هكذا (علي بن محمود بن أحمد بن أحمديل) وزيادة (أحمديل) هذه رآها أيضا السخاوي بخط ابن حجر نفسه في سلسلة نسب أحد أقاربه، وإذا كان السخاوي اعتمد نسبه بزيادة (محمود) بين علي وأحمد فإنه هو قد خالفها في الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ط١، بيروت، دار الجيل، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، ج١ ص٣٦، إذ أسقط محمود من بينهما جريا على أكثر ما أورده ابن حجر عن نفسه، وقد ذكر ابن حجر عن نسبه أنه يمكن قراءته طردا وعكسا، وهذا لا يمكن إلا إذا كان على الترتيب الذي ورد أكثرَ مِن سواه وهو هكذا (أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد). وهو الوارد في آخر أشهر كتبه فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ، ت. عبد القادر شيبة الحمد، ط١، طبع على نفقة الأمير سلطان بن عبد العزيز آل سعود، ١٤٢١هـ -٢٠٠١م، ج١٣ ص٥٥٦.

[٢] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٠٣-١٠٤.

[٣] عُرِفَ عمُّ والد ابن حجر عثمان بن محمد بن علي (ت٧١٤هـ) بابن البزاز. (ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص ٤٥٠)، وبهذا يكون البزاز هو الجد الثاني لابن حجر، بل أورد المقريزي في كتابه السلوك، ج٤ ص٣٩٥ عند ترجمة والد ابن حجر شعرا له يفيد أن أباه وهو الجد الأول لابن حجر كان يمتهن ذات المهنة التي كانت لوالده وهي البزازة في الإسكندرية أيضا.

[٤] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٢٥٨، ج٤ ص٤٣؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٣٨، ١١٦-١١٧.

[٥] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٤٥٠، ج٤ ص٤٣.

[٦] المقريزي، السلوك، ج٤ ص٣٩٥؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص١٠٦.

الدين محمد ابن مجد الدين محمد ابن قطب الدين المذكور، توفي بمكة سنة٧٨٥هـ/١٣٨٣م، ومنهم زين الدين شعبان بن محمد بن محمد ابن حجر، أحد طلبة ابن حجر العشرة الذين سيأتون، توفي سنة٨٥٩هـ/١٤٥٤م[١].

ومنهم والد المؤلف نور الدين علي بن محمد بن محمد، المولود في حوالي٧٢٠هـ/١٣٢٠م، وقد نشأ محبا للعلم على خلاف إخوته الآخرين، سمع الحديث وقرأ الفقه، وحفظ كتاب الحاوي[٢]، "ومهر في الفقه والعربية والأدب"، وله عدة دواوين أدبية، منها (ديوان الحرم)، وكتب مقاطع شعرية لبعض المنشدين، وقد أجيز بالفتوى وفي القراءات السبع، وناب في الحكم عن شيخه ابن عقيل حين كان قاضيا، ثم جفاه خليفته بسبب علاقته الجيدة بابن عقيل، فأعرض عن القضاء وأقبل على شأنه[٣]، ووصفه الحافظ العراقي بأوصاف علمية[٤] تعكس منزلته العلمية المرموقة.

ويبدو أنه مارس التجارة من غير تفرغ لها، فقد كان كثير الحج والمجاورة للبيت الحرام والسفر لحضور حلقات العلم، ويظهر أنه كان ذا يسار جيد، ورغم أنه أَخْبَر عن انفطامه عن تجارة البز في الإسكندرية لكنه لم يكن كما يبدو انفطاما نهائيا؛ إذ احتفظ بشيء من اليسار مكّنه من التوسع على زُوّاره[٥]. وقد وُصِف بالعقل والديانة ومكارم الأخلاق والمبالغة في تعظيم الصالحين[٦]، بل كان يعتقد ولاية بعض شيوخ الصوفية وتأثيرهم في القاهرة، وأوصى وأوصى أن يُكَفَّن في ثياب أحدهم[٧].

وأم أبيه كانت أختا لأحد أعيان القاهرة وهو أحمد بن محمد بن براغيث المتوفى سنة٧٧٦هـ/١٣٧٤م[٨]. وأما أمه فهي تجار بنة أبي بكر الزفتاوي، أخت صلاح الدين أحمد الزفتاوي التاجر الكارمي[٩]، وقد ماتت أمه قبل موت أبيه؛ لذا فقد اعتنت به أخته ست الركب التي تكبره بقليل[١٠].

وكانت لديهم مع أسرة آل الخروبي العريقة في التجارة المصرية علاقة مصاهرة قوية، وقد تزوج أبوه أخت أحد أعيانهم وهو تقي الدين علي بن عبد العزيز الخروبي، غير أنها ماتت قبل موت أبيه[١١].

وكان لابن حجر أخ من أبيه وُلِد قبله، ونشأ في طريق العلم حتى حفظ (المنهاج)[١٢] وفضل في الفقه، غير أنه مات قبل ولادة أخيه المؤلف[١٣]، كما كان له أخت من أبيه وأمه، أكبر منه هي أم محمد ست الركب ولدت سنة ٧٧٠هـ/١٣٦٨ في طريق الحجاز، وقد حرص والدها على الاستجازة لها من شيوخ الحديث في الحجاز والشام ومصر وتونس، وقد مات أبوها وهي صغيرة، لكنها كانت أعجوبة في الذكاء، فنشأت نشأة حسنة، وتعلمت الخط، وحفظت الكثير من القرآن، وأكثرت من المطالعة للكتب، ثم تزوجت وهي صغيرة محمد بن عمر بن عبد العزيز

---

[١] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٠٦-١٠٧، ١٠٩٣.

[٢] الحاوي الصغير في الفروع، تأليف الشيخ نجم الدين عبد الغفار بن عبد الكريم القزويني الشافعي المتوفى سنة ٦٦٥هـ، من الكتب المعتبرة والمشتهرة بين الشافعية، حظي لديهم بالشرح والتعليق والتحشية والتوضيح والتصحيح والاعتراض والاستنباط والنظم. حاجي خليفة: مصطفى بن عبد الله، (ت١٠٦٧هـ)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، بيروت، دار إحياء التراث العربي، مج١ ص٦٢٥-٦٢٦. ويكثر في مدة هذه الدراسة حفظ هذا الكتاب ودراسته.

[٣] المقريزي، السلوك، ج٤ ص١٩٥؛ وابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص١١٦-١١٧، ٣٥٨؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص١٠٧-١٠٨.

[٤] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٢٦٩، ٢٧٠.

[٥] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص١١٦-١١٧؛ والمجمع المؤسس، مج١ ص٣٥٤.

[٦] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص١١٦.

[٧] المصدر السابق، ج١ ص٢٠٣.

[٨] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٢٥٨؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٨٠.

[٩] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١١٦. والكارمية اسم أطلق على كبار التجار الذين نشطوا في تجارة البهار والفلفل في المحيط الهندي والبحر الأحمر ومصر منذ أيام الفاطميين، على الرغم أن اشتقاق (الكارمي) اللغوي لا يزال قيد التكهن والاستنباط. حبيب، التجارة بين مصر وأفريقيا في عصر المماليك، ص٤٤-٤٥.

[١٠] ابن حجر، رفع الإصر، ص٦٢؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٥١٧.

[١١] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص١٢٣.

[١٢] منهاج الطالبين لمحيي الدين يحيى بن شرف النووي ت٦٧٦هـ، من أشهر مختصرات الفقه الشافعي.

[١٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٤٣٢.

الخروبي، وأنجبت له ولدا سمي محمدا وبنتا سميت فوز. وقد ماتت ست الركب شابة، ويبدو أنها أبلت بلاء حسنا في تربية أخيها ومساعدته، وهو يصغر عنها كثيرا حتى أنه دعاها أمه بعد أمه[١].

وكانت أمُّه قد تزوجت قبل زواجها من أبيه أحمد بن محمد بن محمد بن عبد المهيمن البكري، وأولدها ولدا دُعِيَ عبد الرحمن، ورث من أمه (أم ابن حجر) مالا، لكنه مات بعد ذلك فضيّع والدُه ذلك المال[٢]؛ وهو أمر في غاية الأهمية إذ يفيد مدى غنى أم ابن حجر الذي انعكس إيجابا على حياة ابن حجر نفسه.

وبهذا يتبين أن هذه الأسرة التي وُلِد فيها ابن حجر كانت أسرة ميسورة، وظهر أثرُ ذلك على حالته المادية الجيدة والملفتة[٣]، كما يتبين كونُ الأسرة ذات مركز اجتماعي جيد، بدأت تشق طريقها منذ زمن ليس بالبعيد بالاتجاه في العلم والمعرفة على حساب مهنتها التجارية التي لم تقطع صلاتها بها البتة.

٢- مولده ونشأته

ولد ابن حجر في شعبان سنة٧٧٣هـ/فبراير١٣٧٢م[٤] في منزل والده الذي يقع على شاطئ النيل في مصر العتيقة العتيقة (الفسطاط) بالقرب من دار النحاس والجامع الجديد[٥]، وقد سماه والده أحمد وكناه أبا الفضل[٦].

تربى في سنيه الأربع الأولى في كنف والده وكان به كَلِفا، فقد كان كثير الحج والزيارة ولم يمنعه صغرُه أن يتجشم عناء السفر به معه، فقد سافر للحج والزيارة والمجاورة في مكة وبيت المقدس وأخذه معه، وحرص على إحضاره بعض حلقات العلم عند مجاورته، وعمرُه لما يتجاوز السنتين[٧]. وقد توفي الأب الحنون في رجب سنة٧٧٧هـ/ ديسمبر١٣٧٥م وعمره يكاد أن يفي بالرابعة، فضمه إليه أحدُ أوصيائه وصديقُ والده كبيرُ تجار مصر زكي الدين أبو بكر بن علي بن أحمد الخروبي (ت٧٨٧هـ/١٣٨٦م) وكان الخروبي رئيسا وجوادا كريما يحفظ القرآن ويجاور الحرم[٨].

وكان له وصي آخر هو شيخه العلامة شمس الدين محمد بن علي القطان السمنودي (ت٨١٣هـ/١٤١٠م) مع أن ابن حجر لم يحمَد له تصرُّفَه في ماله، وهناك زوجُ عمّته التاجرُ المعروف تقي الدين علي بن عبد العزيز الخروبي المتوفى سنة٨٠٢هـ/١٣٩٩م فقد كان به بَرًّا حسنا شفوقا[٩]، كما نجد صديقا آخر لأبيه وأصبح بعدُ أحدَ شيوخه، وهو

---

[١] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٥١٧؛ والمجمع المؤسس، مج٣ ص١٢٠-١٢٣؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص١١٤-١١٥.

[٢] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج١ ص٤٤٣.

[٣] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٣٣٣-٣٣٤.

[٤] في ترجمته لنفسه في رفع الإصر، ص٦٢ لم يحدد يوما بعينه في شعبان، وقد اختلف من جاء بعده من المؤرخين ولا سيما من تلاميذه ففي حين حدده بالثاني والعشرين من شعبان تلميذُه السخاوي في كتابيه الجواهر والدرر، ص١٠٤؛ والضوء اللامع، ج١ ص٣٦، ومثله فعل المؤرخ ابن العماد الحنبلي: شهاب الدين عبد الحي بن أحمد العكري الدمشقي، (١٠٨٩هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ت. محمود الأرناؤوط، ط١، دمشق وبيروت، دار ابن كثير، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، ج٩ ص٣٩٥؛ فقد حدده التلميذ الآخر لابن حجر وهو برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي (ت٨٨٥هـ) في كتابه عنوان الزمان باليوم الثاني عشر من شعبان، أما تلميذه الآخر، ابن فهد المكي: تقي الدين محمد بن محمد (ت٨٧١هـ) في كتابه لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ، مجلد فيه أيضا ذيل تذكرة الحفاظ للحسيني، محمد بن علي بن الحسن الدمشقي (ت٧٦٥هـ)، وذيل طبقات الحفاظ للحافظ جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ)، بيروت، دار الكتب العلمية، ص٣٢٦، فقد ذكر أنه في الثالث والعشرين من شعبان. (ينظر علي: محمد كمال الدين عزالدين، التاريخ والمنهج التاريخي لابن حجر العسقلاني، ط١، بيروت، دار إقرأ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ص ٦٢ وهامشها)؛ ولهذا ترجّح إهمال تحديد أي يوم من شعبان، كما فعل مؤرِّخُنا ابن حجر، وهو أدرى بما ذكر عن نفسه، وما جاء عن تلامذته فربما عن روايات شفهية عنه لا تستند إلى يقين؛ ولهذا اختلفوا.

[٥] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٠٤؛ والضوء اللامع، ج١ ص٣٦. والجامع الجديد بناه القاضي فخر الدين محمد بن فضل الله ناظر الجيش باسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون وانتهى من عمارته سنة ٧١٢هـ. ودار النحاس اختطّها وردان مولى عمرو بن العاص، ثم صارت مقر الديوان في أيام مسلمة بن مخلد. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢ ص٢١، ج٣ ص٢٨٩.

[٦] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص١١٧.

[٧] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج١ ص٣٥٤، والسخاوي، الجواهر والدرر، ص١٢١.

[٨] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٢٦١، ٣٠٦؛ ورفع الإصر، ص٦٢- ٦٤.

[٩] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص١٢٣.

وهو الشيخ عبد الرحمن بن أحمد بن المبارك، التاجر البزاز، المعروف بابن الشيخة (ت٧٩٩هـ/١٣٩٦م) يزوره إلى المكتب ويدعو له[١].

دخل المكتب في الخامسة من عمره فقرأ القرآن لدى شمس الدين ابن العلاف[٢]، وشمس الدين الأطروش[٣]، لكنه لكنه لم يكمل حفظ القرآن إلا عند مؤدبه صدر الدين محمد بن محمد السفطي المقرئ (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م) وعمره تسع سنين[٤]. وكان يتردد على الجامع الأزهر لحضور بعض الدروس[٥]، كما قرأ من القرآن تجويدا على شهاب الدين الخيوطي المتوفى سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٤م[٦].

لم يقتصر ابن حجر في هذه المرحلة على ما اعتاد عليه الطلاب من قراءة القرآن وإتقانه، فقد بادر مبكرا لمطالعة كتب التاريخ والتراجم، وعلق بذهنه كثير من تراجم الرجال وأحوالهم وأخبارهم[٧]، وكان حريصا على مطالعة الكتب واستعارتها واستئجارها من أصحابها[٨].

التقى بالشيخ نور الدين علي بن عبد الرحمن البدماصي سنة٧٨٥هـ/١٣٨٣م بمكة وتعلم منه الخط فيها، رغم أن الشيخ كان يُعَلِّم الخط المنسوب في حانوت بظاهر القاهرة[٩]، وأما شيخه الآخر في تعليم الخط المنسوب والذي لازمه مدة فهو الشيخ أبو علي الزفتاوي محمد بن أحمد المكتِّب (ت٨٠٦هـ/١٤٠٣م)[١٠].

وفي سنة٧٨٤هـ/١٣٨٢م اصطحبه وصيُّه الخروبي معه للحج، ثم جاورا في تلك السنة حتى العام القابل[١١]، وفيها هيأ له وصيُّه أن يسمع معه البخاري على مسنِد الحجاز النشاوري[١٢] على أحسن حال رغم صغر سنه وكان ذاك أول سماع له في الحديث[١٣]، وصلى ابن حجر بالناس لأول مرة صلاة التراويح بالمسجد الحرام[١٤]، ورغم أن هذا التعلم الابتدائي كان بداية حياته العلمية إلا أنه لاقترانه بظروف نشأته وتربيته فقد سوّغ الحديث عنه هنا.

٣- صفاته

كان ابن حجر ربعة[١٥] أبيض اللون، منور الصورة، صحيح السمع والبصر، "قوي البنية، عالي الهمة، خفيف المشية"، "مع سكون ووقار وأبهة وثبات"، "كثير الصمت، شديد الحياء، لا يواجه أحدا بمكروه مع الصدع بقول الحق"، "مفشيا للسلام"، "قليل التأنق في المأكل والمشرب وفي الآنية" والملبس مع معرفته لجيد الثياب[١٦] "حسن العِمة ظريف العذبة"، غير متقعر في كلامه، يعجبه الخطاب بالمتعارف، قليل الرغبة في العمارة، يحتال في

[١] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٢ ص١٠٨، ١٣٧.
[٢] وهو الذي ولي حسبة مصر سنة ٧٩١هـ. ينظر ابن حجر: إنباء الغمر ج١ ص٣٧١.
[٣] لم أهتد إلى ترجمة له.
[٤] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٣ ص٢١٨؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص١٢١.
[٥] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٣ ص٢١٧.
[٦] أحمد بن محمد بن علي الخيوطي المصري، رافق تلميذه ابن حجر في سماع بعض الحديث. ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٣ ص٧٠.
[٧] ابن حجر، رفع الإصر، ص٦٠.
[٨] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٢٥.
[٩] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٣ ص١٨٥.
[١٠] المصدر السابق، مج٣ ص٢٥٥-٢٥٦.
[١١] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٢٦١.
[١٢] عبد الله بن محمد عفيف الدين النيسابوري الأصل، أبو محمد المكي (ت٧٩٠هـ). ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٣٥٨-٣٥٩.
[١٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣٠١.
[١٤] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٣ ص٨٨، ٩٦، ١٠٩، ٢٦٩.
[١٥] وسطا لا طويل القامة ولا قصيرها.
[١٦] لخلفيته التجارية في أنواع البز.

الأماكن التي يؤخذ فيها المكس على الذهب بوضعه في إناء يختم عليه بما يكون حائلا بينه وبين ما يوضع فيه فلا يفطن إليه[١]، يتبسط مع صحبه وبعض خاصته ويمزح معهم[٢].

ويبدو أن تلك الصفات تنبئ بصحة جسمانية تمتع بها ابن حجر ونجى بها من الطواعين والأوبئة التي فتكت بالشعب المصري آنذاك.

كما يظهر أن أهم صفة جوهرية ومفتاحية في شخصية ابن حجر هي المثابرة والاهتمام العلمي، فقد كان رجلَ علمٍ مثابرا، يبذل في سبيله الغالي والنفيس، ومن خلال رحلاته العلمية وكثرة مؤلفاته العلمية ونتاجه الأدبي يتبين أنه كان لا يفوّت فرصة ولا وقتا إلا في العلم، ويتبين حرصه على نشر علومه حتى آخر لحظات حياته[٣]، كما كان كان حريصا على وصول المعلومة إلى طلابه من خلال إعارته إياهم كتبه ولو بالشكل الذي يهددها بالضياع[٤]، كل كل ذلك طمعا في العلم ونشره.

على أن أهم الصفات التي يجب أن تتوفر في المثابر هو الذكاء والذاكرة القوية وهي مواهب تجلت في ابن حجر بشيء كبير، وانعكست على مؤلفاته ونتاجه ومشاركاته في الحياة العلمية والاجتماعية والإدارية، ويعجب المرء من قصر المدة التي قضاها مجتهدا في قراءة العلم، وإذا به نابغة من نوابغ عصره، بما يدل على أن له ملكة عقلية سوية وعبقرية فنية أخذت له مكانا مميزا في تاريخ الحياة العلمية.

كان صبورا وقورا في المصائب[٥]، يبادر إلى مساعدة خصومه في أوقاتهم الحرجة، وربما آذاه بعض تلامذته فلم فلم يصارحهم بما يفعلونه به[٦]. يتحرى في مأكله ومشربه، وإذا أكل من شيء لا يستطيبه تقيأه[٧]، وإذا حضر وليمة وليمة من يكون في دخلهم شبهة أوهمهم أنه يأكل وهو لا يأكل شيئا[٨]، وإذا وصل إليه مال من مصادر لا يرتضيها قام بتوزيعه على من يرى أحقيتهم به[٩].

كما كان متواضعا، يقر بمواضع نقصانه بدون استحياء، ولهذا رفض تدريس كتاب (جمع الجوامع)[١٠] في أصول الفقه؛ لكونه ليس من تخصصه، ولا يتكثّر بعلومه ويكره الإسفاف في مديحه[١١]، ولكنه مع تواضعه كان لا يصبر على انتقاص مكانته العلمية أو تصغير جانبه، ويعتز بعلمه أمام من يظن تعالمهم، كما انتقد اهتمام المصريين بالعلماء الغرباء أكثر من اهتمامهم بعلماء بلدهم[١٢].

ومن صفاته الانبساط لا سيما في مجال النزه، وربما لعب الشطرنج مع أحد خاصته، وكان لطيف المعشر كريم الحديث، وكان إذا سمع طلبته يصخبون في نقاش الدرس أنهى صخبهم بإيراد حكاية تبين أن "الحق مع الأَسَدِّ وليس مع الأَشَدِّ"[١٣].

---

[١] الفساد هو ما جعل الإنسان يسلك طرقا ملتوية للحفاظ على حقه.
[٢] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٠٥٣-١٠٥٩؛ ١٠٢٩-١٠٣٨.
[٣] ينظر أيضا السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٠١٨.
[٤] بل وقد ضاع منها بسبب ذلك شيء كثير. السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٠١٩.
[٥] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٠٠٥.
[٦] المصدر السابق، ص٩٩٢-١٠٠٥، ١٠١٤-١٠١٥.
[٧] المصدر السابق، ص٩٨٠، ٩٨٢.
[٨] المصدر السابق، ص٩٨٣. وهو موقف يبدو متناقضا، يحضر أفراحهم ولا يأكل من طعامهم!!.
[٩] المصدر السابق ، ص٩٨٣.
[١٠] تأليف القاضي الشهير تاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي (ت٧٧١هـ/١٣٦٩م)، مطبوع.
[١١] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٠٢٤.
[١٢] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص ٥٧-٦٤؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص١٠١٤؛ وعلي، التاريخ والمنهج التاريخي، ص٩٩.
[١٣] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٠٢٩، ١٠٣١، أي أن الحق مع السداد وليس مع الشدة.

وكان له من العبادة والتهجد حظ ونصيب في الحل والترحال، يحافظ على صوم المأثورات[١]، كما كان يكثر من تلاوة القرآن بتأن وتدبر لا سيما حال ركوبه وبعد صلاة الصبح، وإذا مر بآية رحمة سأل وبآية عذاب استعاذ[٢].

وتميز في أغلب قضاياه بالتروِّي والرحمة فكان لا يحكم بإدانة أحد يمكن درأ العقوبة عنه، ويبحث عن أيِّ سبب لحفظ روحه؛ إما بإثبات خلل في عقولهم، أو بالمنازعة في كون الإدانة موجبة للقتل[٣].

وكان في الأغلب منصفا في بحوثه ومع من يختلف معهم في بعض الأفكار إنصافا جميلا[٤]، ويقوّم اختلافهم تقويما موضوعيا[٥]، متسامحا في المسائل الخلافية[٦]، عفيف اللسان، ذا أدب جم ومجاملة لطيفة لمن له بهم علاقة. غير أنه لم يكن كذلك في مؤلفاته اتساقا مع طريقة أهل الجرح والتعديل، فكان لا يخلي تراجم من ترجم لهم من نقد، حتى أنه لم يسلم من نقده أفضلُ شيوخه وأكثرُهم علما وشهرة في الآفاق[٧]، وملأ مؤلفاته التاريخية بنقدهم، وأثار كثيرا من العلماء والأعيان للرد عليه والحسد له[٨].

أحب بلده[٩]، حبا منعه عن قبول عروض سخية على شاكلة تولي القضاء في الشام واليمن، الحب الذي لم يدعه يخرج من بلده مرة أخرى بعد رحلاته العلمية سوى إلى مكة للحج وسوى رحلته مع السلطان إلى شمال الشام، الحب الذي يبدو أنه وراء جنف ابن حجر في تاريخه على مَنْ عدا المصريين كالمغاربة[١٠].

كانت علاقاته جيدة بكل فئات الشعب المصري غير أنه لم يكن يثق في أهل الذمة ولا في أطبائهم، ولهذا فقد رفض علاجهم وكان يعالج نفسه[١١]، وتأثر بالصوفية ورجالها وقد تغير لونه مرة لما تحرك بعض المجاذيب حركة مريبة[١٢]، رغم تكفيره لفلاسفة الصوفية كابن عربي وابن الفارض[١٣]، ورغم رأيه القائل ببطلان ما يسمى بخرقة التصوف[١٤].

لم يخرج عن الحدود المتعارف عليها بين العلماء والحكام في رسم المشهد الداخلي وعلاقة الدين بالسياسة وحدود صلاحياتهم، فقد اكتفى كثير من العلماء بالمجاملة لهؤلاء الحكام، وسكتوا عن مظالمهم، وغضوا الطرف عنها[١٥]، وهو سلوك أضر بالأمة، وقيّد دور العلماء، وجعلهم محصورين في دائرة التنافس على الوظائف يتلاعب بهم الأمراء والسلاطين حتى اضطروهم لدفع الأموال في الحصول على ما يستحقونه من وظائف[١٦]. غير أنه في

---

[١] تاسوعاء وعاشوراء ويوم عرفة وست شوال. السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٠٤٤.
[٢] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٠٤٤-١٠٤٥.
[٣] المصدر السابق، ص١١٩١.
[٤] المصدر السابق، ص١٠٤٣.
[٥] المصدر السابق، ص٧٣٥-٧٣٦.
[٦] المصدر السابق، ص٦٩٢.
[٧] ويمكن الرجوع إلى حصيلة الانتقادات التي وجهها ابن حجر لشيوخه في المعجم المفهرس، وفيها يتبين أن مقام الشيخية لم يمنعه من قول ما يراه ويعتقده. ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٤ ص٤٤٨-٤٥١؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص٣٩٠-٣٩٢.
[٨] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٦٨٥، ٩٨٧،
[٩] المصدر السابق، ص١٠٠٦.
[١٠] ابن حجر، رفع الإصر، ص١٦٥.
[١١] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١١٩١.
[١٢] المصدر السابق، ص١١٨٦.
[١٣] المصدر السابق، ص١٠٤٦-١٠٤٨.
[١٤] المصدر السابق، ص٩٤٠.
[١٥] على سبيل المثال فقد بنى الأشرف برسباي مدرسته بالحريرين بجانب الرواقين واغتصبت الدور التي هناك، وغالبها أوقاف فتحيل السلطان بإبطال الوقف بوجوه من الحيل كما حكى ابن حجر نفسه، ومع ذلك فقد حضر افتتاحيتها واقترح على السلطان أن يولي مستمليه الشيخ رضوان العقبي على خدمتها، قائلا للسلطان: "هذه جنة ويحسن كون رضوان خادما فيها"، وهناك مظالم كثيرة سيأتي بعضها في علاقتهم مع السلطان سكتوا عنها وداهنوا السلاطين عليها إبقاء لعلاقة الاحترام المتبادل بين القضاة والعلماء من جانب والسلاطين من جانب آخر. ينظر ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص٢٨١؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص١٠٢٦.
[١٦] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٦٢٣.

ما يبدو أراد أن يتجاوز بعض قواعد العلاقات الحاكمة بين الفريقين في آخر عمره لكنه اصطدم بالسلطان جقمق الذي استعان بزملائه من العلماء لضربه في مكانته الوظيفية ولتجريده من الوظائف التي تحته، وكان ربما أصابه الخور أمام بعض التهديدات المسربة من حاشية السلطان[١].

٤- زوجاته وسريته

١-أم بناته: أنس خاتون[٢] بنت القاضي ناظر الجيش كريم الدين عبد الكريم بن أحمد بن عبد العزيز اللخمي النستراوي المصري، ولي نظر الجيش سنة٧٩٢هـ/١٣٨٩م، وله سماع عن بعض الشيوخ في الحديث، وتوفي سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٤م[٣]، وأمها سارة بنت ناصر الدين محمد بن أنس المعروف بمنكوتمر نائب السلطان صاحب المدرسة المنكوتمرية والقاعة المجاورة لها، وقد توفيت في المحرم سنة٨٢١هـ/١٤١٨م[٤].

"ولدت زوجته أنس خاتون سنة٧٨٠هـ تقريبا، وتزوجها ابن حجر سنة٧٩٨هـ/١٣٩٥ بإشارة شيخه ووصيه ابن القطان"، ورغم انتمائها إلى أسرة ذات حشمة ورئاسة إلا أنها لم تنل حظها من الثقافة السائدة مثل بعض مثيلاتها، وقد حرص زوجها على إسماعها الحديث على بعض شيوخه، وعلى الاستجازة لها منهم[٥].

وقد حدّثت، وسمع عليها الفضلاءُ بحضور زوجها، وكانت تحتفل بذلك وتكرمهم، وكانت تحدِّث بالبخاري كل سنة في رجب وشعبان في حياة زوجها، ويقرئه لها الشيخ العلامة ابن خضر[٦]، وتكافئه بالمال الوفير على ذلك، وعند الختم تقيم حفلا يُهْرَع إليه الكبار والصغار، وتوزِّع فيه الحلوى والفاكهة[٧].

أنجبت له بناته الإناث؛ "زين خاتون، وفرحة، وغالية، ورابعة، وفاطمة"، وقد مِتْنَ جميعا قبلها[٨]. و"كانت تأتي بسِقْطٍ ذكر بين كل أنثيين".

كان ابن حجر يبجلها، وكانت تبادله المحبة والاحترام، وكانت شديدة الغيرة[٩]، ويبدو أنها فرضت احترامها عليه، عليه، فلم يتزوج عليها إلا رغبةً في ولد ذكر، وكان ينزل عند رغبتها حتى في علاقته مع تلك الزوجة الأخرى الحلبية والتي أحبها، وربما هي التي دفعته لتطليق أرملة الأمشاطي التي تزوجها عند مجاورتها للبيت الحرام مع سبطها سنة٨٣٤هـ/١٤٣٠م.

وبعد موته خطبها خصمه العلامة القاضي علم الدين البلقيني[١٠]، ولكن لم يتم ذلك الزواج، وبقيت بعد موت زوجها على حالها من التصوُّن، تكرم أقاربها وصديقاتها، وكات أن تقضي على مالها الجزيل إنفاقا في خصال البر والصلة، ثم توفيت سنة ٨٦٧هـ/١٤٦٢م[١١].

---

[١] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٦٢٥، ٦٢٦-٦٢٧، ١٠٠٦.

[٢] كذا (أنس خاتون) ورد اسمها في وصيته وصية الموت التي تعد وثيقة تاريخية. السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٢٠٣.

[٣] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٣٩٤-٣٩٥؛ والمجمع المؤسس، مج٣ ص١٦٦؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص١٢٠٧-١٢٠٨.

[٤] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٢٠٧.

[٥] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٥١٣؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص١٢٠٨.

[٦] إبراهيم بن خضر بن أحمد، من تلامذة ابن حجر، برع في الفقه وأصله وفاق في النحو وضرب في كل علم بنصيب، وكان حسن القراءة فلم يكن ابن حجر يفضل غيره عليه فيها، وأثنى عليه ثناء عظيما، وقد عده السخاوي الثاني في المنزلة بعد ابن حجر في شيوخه، توفي سنة ٨٥٢هـ. السخاوي، الضوء اللامع، ج١ ص٤٣-٤٧.

[٧] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٢١١.

[٨] المصدر السابق، ص١٢٠٨، ١٢١١.

[٩] المصدر السابق، ص١٢١١-١٢١٢، ١٢١٨-١٢١٩.

[١٠] علم الدين صالح بن سراج الدين البلقيني، قاضي قضاة الشافعية، وصفه السخاوي بكونه "فقيها إماما عالما"، صنف تفسيرا للقرآن، وشرحا على البخاري، وتوفي سنة ٨٦٨هـ. السخاوي، الضوء اللامع، ج٣ ص٣١٢، ٣١٣، ٣١٤ ؛ والذيل على رفع الإصر، ص١٦٩-١٧٠.

[١١] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٢١٢.

٢-سريته خاص ترك، وهي جارية تترية جميلة كانت مملوكة لزوجته، أحبها ورغب أن تنجب له ذكرا، فتظاهر بغضبه عليها للتضييق على زوجته ببيعها، وقد أرسل أحد أصدقائه سرا فاشتراها له، وأسكنها مكانا ونكحها بعد الاستبراء بملك اليمين، فأنجبت ولده محمدا في صفر سنة٨١٥هـ/١٤١٢م، واحتفل في دار زوجته بالمناسبة وهي لا تشعر مستدعيا طلبته للحضور على مائدة العقيقة، وبقي لدى أمه، غير أن زوجته الغيورة وأمها علمتا بالولد وأمه، فمارستا عليه ضغوطا اضطرته إلى الانفصال عنها وتزويجها من أحد أصحابه[١].

٣-أرملة الزين أبي بكر الأمشاطي (ت٨٣٣هـ/١٤٢٩م)، وكان قد أسند الأمشاطي وصيته إليه، فلما جاورت زوجته البيت الحرام سنة٨٣٤هـ/١٤٣٠م تزوج هذه الأرملة، وأسكنها قاعة المشيخة بالبيبرسية، ورُزِق منها بنت سماها آمنة، ماتت في شوال سنة٨٣٦هـ أثناء سفره إلى بلاد الشام، وبموتها طَلُقَت أمها؛ لأنه كان قد علق طلاقها بذلك[٢].

٤-ليلى بنت محمد بن طوغان الحلبية، تزوّجها ثيبا "أم ولدين بالغين" عند سفره إلى شمال الشام سنة ٨٣٦هـ/١٤٣٢م، ولما عاد إلى بلاده طلّقها ولم يعلِمها، غير أنه كما يبدو كان قد علِق بها قلبه، فتجرّأ على مواجهة زوجته الغيورة وضغوطها؛ فأرسل لأحد أصدقائه الحلبيين يترضّاها ويعِدُها بكل جميل، ويعتذر عن تطليقه إياها، فرضيت بذلك وقدمت مصر "فأسكنها قاعة المشيخة بالبيبرسية".

لكنه في سنة٨٤١هـ/١٤٣٧م قرر مفارقتها حين أزمعت زيارة أهلها في حلب بعد أن قضت معه خمس سنين، وما إن رجعت إلى مصر في نفس السنة حتى "أعادها إلى عصمته"، ورغم أنها كانت امرأة عاقلة وجميلة وذات خلق حسن غير أن سلطة زوجته الأولى فيما يبدو منعته أن يعطيها حقها في البيتوتة معها فكان فقط يأتي إليها نهار الثلاثاء والأربعاء من كل أسبوع، وهو سلوك لا يتفق مع وجوب العدل بين الزوجات، ولم يرزق منها ولد، "وقد تأخرت بعد موته" زمانا وتزوجت عدة أزواج واحدا بعد الآخر، ثم ماتت في رجب سنة٨٨١هـ/١٤٧٦م[٣].

٥- أولاده وفروعه

أنجب ابن حجر خمس بنات جميعهن من زوجته أنس خاتون، وولدا واحدا من سريته التترية ترك خاص.

١-**أولهن ابنته الكبرى زين خاتون**، "وهي بكر أولاده" ولدت في ربيع الآخر سنة٨٠٢هـ/ ديسمبر١٣٩٩م، "واعتنى بها أبوها فعلمها القراءة والكتابة، واستجاز لها" في نفس سنة مولدها كثيرا من الشيوخ[٤]، وأسمعها الحديث على بعض شيوخه، وتزوجت "الأمير شاهين العلائي قطلوبغا الكركي"، وهو من الأمراء الصغار في الدولة المملوكية[٥]، وأنجبت له عددا من الأولاد، عاش منهم أبو المعالي يوسف الذي عرف بسبط ابن حجر، ثم ماتت زين خاتون وهي حامل في طاعون سنة ٨٣٣هـ/١٤٢٩م[٦].

وأما ولدها يوسف أبو المعالي جمال الدين الكركي، فقد وُلِد في ربيع الأول سنة ٨٢٨هـ/ فبراير١٤٢٥م، ونشأ في حِجر جده وجدته عزيزا مدللا، وسمع العلم على جده، واستجيز له في الحديث، وسمع على بعضهم، وأخذ العلم عن آخرين، وكان يلبس بزي أبناء الجند، وتمذهب بمذهبهم الحنفي، ولما حجّ ألف له جده منسكا على مذهبهم،

[١] المصدر السابق، ص١٢١٨-١٢١٩.
[٢] المصدر السابق، ص ١٢٢٣.
[٣] المصدر السابق، ص١٢٢٦-١٢٢٧.
[٤] وقد حوى المجمع المؤسسس (الفهرس ج٤ ص٤٤٠) أكثر من ثلاثين موضعا فيه إجازات من شيوخ ابن حجر لابنته زين خاتون.
[٥] أحد الأمراء المماليك، قرأ القرآن وصلى إماما، ثم صار من مماليك الناصر فرج فوقع في أسر المؤيد شيخ عند قتاله للناصر فرج، ورقي دوادارا صغيرا لدى السلطان المؤيد، ثم تغير عليه السلطان ططر ونفاه إلى الشام، ورسم له بدراهم هناك فبقي فيها إلى أن مات سنة (٨٦٠هـ). السخاوي، الضوء اللامع، ج٣ ص٢٩٦؛ والجواهر والدرر، ص١٢٠٩.
[٦] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص٤٤٥؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص١٢٠٨-١٢٠٩.

غير أنه بعد عودته من الحج سنة٨٤٨هـ/١٤٤٤م لكونه أصبح الوريث الأرشد من ذرية منكوتمر صاحب المدرسة المنكوتمرية الشافعية أشير عليه أن ينتمي إليهم ليحق له الإشراف عليها.

نعى السخاوي عليه تفريطه في إدارة كتب المنكوتمرية، وإساءته التصرف في ما خلفه جده وجدته من أموال وسكن، ومصاهرته أحد خصوم جده، ومخاصمته لخاله القاضي محمد ابن حجر وهجوه إياه، كما انتقد سوء منهجه في اختصاره كتاب جده (رفع الإصر) وإعادة ترتيبه، وتجاسره على نقد جده، واستبداده برأيه، وعزى السخاوي ذلك إلى أصله التركي، ونقل عنه أن له مؤلفات أخرى، وعاد ليثني عليه بأنه خيّرٌ ساكن حسن الفهم متعبِّد بالصيام. ويبدو أن جده كان يحبه، وأما جدته أنس خاتون فقد استعاضت به عن فقد بناتها وحرمانها الأبناء، وأصبح لها بمثابة الابن وسكن معها، وقد توفي سنة ٨٩٩هـ/١٤٩٣م[١].

٢-فرحة ولدت في رجب سنة ٨٠٤هـ، وحصل لها أبوها إجازات من بعض شيوخ الحديث، وسمعت على أحدهم، "وتزوَّجها بكرا الشيخُ محب الدين ابن الأشقر"[٢] الذي يكبرها بحوالي ٢٤ سنة، "وكان أحد أعيان القاهرة" وعلمائها، وناظرَ الجيوش بها، وقد استولدها ولدا مات صغيرا، وحجّت معه سنة ٨٢٧هـ/١٤٢٣م ولكنها عادت مريضة فماتت سنة ٨٢٧هـ/١٤٢٤م عن ٢٣ سنة وتسعة أشهر[٣].

٣-غالية ولدت سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٤م واستجيز لها جماعة من المحدثين، وماتت هي وأختها فاطمة في طاعون سنة ٨١٩هـ/١٤١٦م[٤].

٤- رابعة ولدت في رجب سنة ٨١١هـ/١٤٠٨م، وأسمعها والدها على أحد شيوخ الحديث، وأجاز لها جمع من المصريين والشاميين[٥]، وزوّجت بالقاضي الكهل[٦] شهاب الدين أحمد بن محمد بن مكنون القطوي[٧] وهي بكر ذات ذات ١٥ سنة، وأنجبت له بنتا سميت غالية وتوفيت في حياتهما، ولما توفي هذا الزوج سنة ٨٢٩هـ/١٤٢٥م خلفه زوجا عليها الشيخُ محبُّ الدين الأشقر زوج أختها السابقة فرحة، واستمرت لديه حتى توفيت سنة ٨٣٢هـ/١٤٢٨م[٨]. ولعل رغبته في مصاهرة الكبار هي التي حملته على تزويج بناته كهولا كان فارق السن بينهم كبيرا، كما يبدو أن التعليم لهن لم يكن ثقافة ملزِمة ولا حتى لنخبة المجتمع آنذاك.

ويظهر أن البنت الوحيدة التي تلقّت قسطا جيدا من التعليم والقراءة والكتابة هي زين خاتون فقط، بينما بقيت الأخريات حبيسات الجهل، وإن كان قد استجاز لهن في الحديث فلا يعني ذلك تعلمهن للكتابة، وهو أمر يوضح تساهل الآباء ومنهم بعض العلماء في تدريس بناتهم.

٥- فاطمة وقد ولدت سنة٨١٧هـ/١٤١٤م، واستجيز لها جماعة، وماتت طفلةً في طاعون سنة٨١٩هـ/١٤١٦م[٩].

سنة٨١٩هـ/١٤١٦م[٩].

[١] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٣ ص١٠١؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص١٢١٢-١٢١٧؛ والضوء اللامع، ج١٠ ص٣١٣-٣١٧.
[٢] محمد بن عثمان بن سليمان التركماني الأصل القاهري، الحنفي، ولد سنة ٧٨٠هـ تقريبا، تعلم، ثم استقر إماما ليشبك ثم نائبا عن قاضي الحنفية، وولي مشيخة خانقاه سرياقوس سنة ٨١٥هـ، وولي أيضا عدة وظائف منها نظر جامع عمرو ونظر الجيش والبيمارستان وكتابة السر، كما استخلفه صهره ابن حجر العسقلاني في قضاء الشافعية مع أنه كان حنفيا سنة ٨٣٦هـ عند سفره إلى آمد، توفي في رجب سنة ٨٦٣هـ. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٤٤٠ في ترجمة والده؛ والسخاوي، الضوء اللامع، ج٨ ص١٤٣-١٤٥.
[٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٤٤٠؛ وإنباء الغمر، ج٣ ص٣٥٨؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص١٢٠٩-١٢١٠؛ والضوء اللامع، ج٨ ص١٤٣-١٤٥، ج١٢ ص١١٥.
[٤] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص٨٧؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص١٢١٠.
[٥] ورد اسمها في معجم شيوخ والدها المجمع المؤسس (الفهرس، ج٤ ص٤٤٠) في أكثر من أربعين موضعا أي لأكثر من أربعين مجيزا من شيوخ والدها.
[٦] كان عمره ٤٦ سنة تقريبا.
[٧] ولد بقطية أو قطيا سنة ٧٧٩هـ، ووالده حاكم بها فنشأ بها نشأة حسنة، وتعلم الفقه، ولي قضاء قطية بعد والده ثم قضاء غزة، ثم دمياط، وبعد زوال دولة المؤيد المؤيد شيخ تسلط عليه أناس بالشكاوى والتظلم، مات في رمضان سنة ٨٢٩هـ. ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص٣٧٣-٣٧٤.
[٨] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص٣٧٣-٣٧٤؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص١٢١٠.
[٩] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص٨٧؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص١٢١١.

٦- ولده بدر الدين أبو المعالي محمد، ولد في ١٨ صفر سنة٨١٥هـ/٣ يونيو١٤١٢م من سريته (خاص ترك) كما تقدم، وعلّمه والده القرآن فختمه حفظا، وصلى بالناس في رمضان سنة٨٢٦هـ بالخانقاه الركنية البيبرسية، وأسمعه والده الحديث على بعض الشيوخ، واستجاز له من عدَدٍ كثيرٍ من الشيوخ[١]، وصنّف والدُه كتاب (بلوغ المرام) من أجله، ومع ذلك فلم يحفظ منه إلا القليل. ويبدو أن تولي أبيه لكثير من الوظائف ومنها القضاء جعل الولدَ ينخرط في مساعدته في أعماله والتفريط في بنائه المعرفي الخاص، ومع ذلك فقد سمع بعض مؤلفات والده منه، وكتب كثيرا من مجالس الإملاء التي عقدها، وورد وصفُه لدى بعض المؤرخين بالجهل، وقد أقرّ ابن حجر نفسه أنه قلّ أن يجتمع حظٌّ لرجل في نسله ومصنفاته.

أحب ابن حجر ولده الوحيد الذي رُزِقَه بعد طول تمنٍّ حبا مفرطا، ومهر في مباشرة وظيفة أبيه وفي الحساب، ونزولا عند محبة الولد فقد طلب له والده وظيفة تدريس الحديث في المدرسة الحسنية على أن ينوب عنه هو، كما جلب هو على أبيه متاعب أدت إلى عزله من القضاء لنزوله على رأيه وهواه في اتخاذ بعض القرارات التي طالت بعض الموظفين من أهل النفوذ، وقد حُبِس الولدُ على ذمة التحقيق في التفريط بأوقافِ جامعِ ابن طولون مع جماعة في حياة والده وهمّ السلطان بضربه؛ الأمر الذي سبّب للوالد ضيقا شديدا وتألما كبيرا. وقد نعى عليه ابن أخته السبط تضييع كتب والده بعد وفاته، وهي تهمة أكّدها السخاوي نفسه، كما نعى عليه أنه لم يعُدْ لحلقات العلم رغم وعوده المتكررة بذلك.

توفي في١٦ جمادى الثانية سنة٨٦٩هـ/ ١٨فبراير١٤٦٥م، وخلف ولدا سمي عليا كان قد ولد في حياة جده ودعا له، وحضر مجلسه، كما خلف علي هذا عدة أولاد، بقي حيا منهم محمد، أمّل فيه السخاوي الخير لذكائه وفطنته[٢].

٦- ثروته المالية

لم يعان من ضائقة مالية فقد كان ميسورا في كل أوقاته، فهو الذي ينحدر إلى أسرة كارمية لها علاقات بأسر كارمية تجارية أيضا[٣] كما تقدم، ولهذا فقد استطاع أن يتفرّغ للعلم ويقوم برحلاته العلمية في مختلف مراكز العلم كما يأتي بدون أن يلاقي صعوبة مالية تُذْكَر، كما تقدم أن أمه كانت من أهل اليسار، ولا بد أنه ورث عنها مالا جزيلا أسوة بأخيه لأمه الذي حصل على مال كثيرا إرثا بعدها. كما حصل على هدايا موسمية بعد أن تزوج بأنس خاتون – فيما يبدو – من كلٍّ من السلطان والخليفة وصهره ناظر الجيش والدها، وهو لا يزال طالب علم[٤]، أما بعد أن تولى الوظائف والتي كانت بلا شك لها معاليم[٥] تعود عليه فإنه كان قد أثرى ثراء كبيرا منها؛ لكثرة وظائفه وظائفه التي تولاها.

ويبدو أن الحس التجاري لدى هذا الطالب للعلم ثم العالم الكبير لم يَغِبْ عنه، وقد أكد السخاوي أنه لم يترك التجارة طوال حياته، وأورد معلومات بصورة عرضية تفيد أنه كان له وكلاء يمارسون التجارة[٦]، وتشير إلى ممارسته التجارة؛ الأمر الذي يدل على أن مصادر دخله كانت متنوعة وكثيرة.

ومع ذلك فقد كان ورعا بعيدا عن الشح مراعيا حاجات من يقرب منه، يعطيهم ويبرهم، ولا سيما طلبة العلم

---

[١] ورد ذكره في المجمع المؤسس، الفهرس، مج٤ ص٤٤٠، في أكثر من ٦٠ مرة، وهو ما يؤشر إلى كثرة مجيزيه من شيوخ والده.

[٢] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٥٨٨-٥٨٩، ٦٠٤، ١٢١٩-١٢٢٥؛ وابن فهد المكي، لحظ الألحاظ، ص٣٣١؛ وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٥ ص٢٥٩.

[٣] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص١٢٣ عند ترجمته للخروبي.

[٤] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٩٨٣.

[٥] المعلوم وتجمع على معاليم لفظة شائعة في العصر المملوكي وتعني الراتب الذي يعين لصاحب الوظيفة مقابل عمل محدد يقوم به. ينظر السخاوي، الجواهر والدرر، ص٩٨٣-٩٨٥.

[٦] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٩٨٣، ٩٨٥.

والعلماء والفقراء والغرباء[١].

لقد كانت سعة ما في يده عاملا إيجابيا في حياته العلمية؛ فقد تملّك كتبا شهيرة بعضها بخطوط مؤلفيها المشاهير[٢]، وكوّن مكتبة ضخمة كما أنجز رحلات علمية، وأقام الاحتفالات المتعددة والمتنوعة، وهو أمر يشير إلى أهمية المال في المجتمع القاهري آنذاك لمن أراد الحصول على المكان الطبيعي فيه.

ثانيا: حياته العلمية

١- دراسته ومراحلها

لم يكن عليه سوى التفرغ لطلب العلم في ظل أوصيائه القائمين بماله الذي أفاد منه، على أن إمكانات ابن حجر الذاتية واستعداداته الفطرية لتلقي العلم كانت السبب الأقوى في توفره للعلم وحفظه وإتقانه، فقد كان سريع الحفظ والفهم معا على طريقة الأذكياء منذ صغره[٣]، وقد ظهر شغفه واضحا بالمطالعة منذ أيام طفولته وهو لا يزال في المكتب فاستعار بعضا من الكتب واستأجر بعضا آخر لهذا الغرض[٤]. ولعل اهتمامه المبكر بالتاريخ واطلاعه على أحوال العلماء كان مدعاة له إلى مزيد من المثابرة والتعلم.

ويمكن تقسيم مراحل أخذه العلم إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى وهي مرحلة التعليم الأساسي في المكتب، وتُعْنَى دائما بأساسيات الثقافة العربية الإسلامية من مبادئ القراءة والكتابة والحساب وقراءة القرآن وتجويده، غير أن ابن حجر كما تقدم تميّز بشغفه بالمطالعة في الكتب التاريخية وأحوال الرواة وهو لا يزال في المكتب، وقد ساعده ذلك على تكوين النواة الأولى لتوجهه العلمي الحديثي، ثم كانت رحلته إلى مكة ومجاورته البيت الحرام سنة٧٨٤هـ و٧٨٥هـ/١٣٨٢و١٣٨٣م - في نظري - هي المرحلة الفاصلة بين هذه المرحلة والتي تليها. ومع ذلك فإن تحديد هذه الفترات بحد فاصل ليس صحيحا بالمطلق؛ إذ نجد أنه في هذه المدة الأولى قد حضر دروس قنبر العجمي[٥] وهو العالم المختص في العقليات، والتي لا تتناسب ومع مرحلته الابتدائية؛ الأمر الذي يشير إلى غياب الرؤية الواضحة لدى هذا الصغير لغياب من يتابعه بصورة كاملة في بداية حياته العلمية.

المرحلة الثانية: مرحلة التعمق في مجالات العلوم المختلفة، وابتدأت في مكة سنة٧٨٥هـ/١٣٨٣م، وهناك كما تقدم حضر سماع (صحيح البخاري) على الشيخ النشاوري[٦]، وقرأ كتاب (عمدة الأحكام)[٧] على الشيخ ابن ظهيرة قراءة بحث[٨] وهو يدل على بداية تشكل وعيٍ جديدٍ ينحو منحى التخصص بالعلم والتوجه نحو الكتب الحديثية التي تعنى بالفقه، وتستمر هذه المرحلة حتى سنة٧٩٦هـ/١٣٩٣م[٩]، ويبدو أن علاقةً ما جمعته بالشيخ الذي بحث معه في في العمدة بمكة سنة٧٨٥هـ/١٣٨٣م، وهو ابن ظهيرة جعلته يسمع أيضا بقراءته الحديث في القاهرة

---

[١] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص٢٥٨-٢٥٩؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص١٠٠٨-١٠٠٩.
[٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٣٦٢، ٣٩٧.
[٣] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٢٣-١٢٤.
[٤] المصدر السابق، ص١٢٥.
[٥] قنبر بن عبد الله الأزهري الشافعي، قدم مصر قبل ٨٩٠هـ، وكان حسن التعليم متهما بالتشيع، وتصدّر للتدريس بالأزهر. ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٨٠-٨١.
[٦] ابن حجر، رفع الإصر، ص٦٢-٦٣.
[٧] عمدة الأحكام عن سيد الأنام، تأليف تقي الدين أبي محمد عبد الغني بن عبد الواحد الحنبلي (ت٦٠٠هـ). حاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ص١١٦٥-١١٦٦.
[٨] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٣ ص٣١٦.
[٩] إذ يجعل ابن حجر نفسه هذه السنة تاريخا مفصليا بالنسبة لحياته العلمية عندما قرر التتلمذ على الحافظ زين الدين العراقي وصحبه ١٠ سنوات بعدها.

سنة٧٨٦هـ/١٣٨٤م على الشيخ ابن رزين الحموي القاهري[١]، وفي هذه المرحلة كان قد بدأ اهتماما واضحا بسماع بسماع الحديث[٢]. وفي هذه المرحلة حفظ المختصرات[٣]، ومنها (العمدة) و(الحاوي الصغير)، و(مختصر ابن الحاجب الأصلي)[٤] و(الملحة) للحريري[٥]، وقد اعتاد الطلاب آنذاك عرض محفوظاتهم على الشيوخ وأخذ شهاداتهم شهاداتهم بذلك[٦].

ويبدو أن ظروفا مرّت به ولعل منها موت وصيه الخروبي سنة٧٨٧هـ/١٣٨٥م[٧] حملته على الفتور في طلب العلم ولم يعد لنشاطه التعلمي إلا حوالي٧٨٩هـ/١٣٨٧م عندما ضمّه إليه وصيه الآخر ابن القطان وحضر دروسه في الفقه وأصوله والعربية والحساب والفرائض[٨]، وبعد٧٩٠هـ/١٣٨٩م نجد ابن حجر يلازم الشيخ برهان الدين الأبناسي[٩] ويبحث عليه كتاب المنهاج في الفقه[١٠]، كما ذكر عن نفسه أنه من سنة٧٩٠/١٣٨٨هـ لازم العلامة المتفنن والمختص بالعقليات محمد بن أبي بكر ابن جماعة[١١] حتى وفاته، وأخذ عليه قائمة من الكتب التي اعتاد طلبة العلم على دراستها، وتنتمي إلى المختصرات والمطولات في أصول الفقه والبلاغة[١٢] وهو ما يشير إلى أنه ابتدأ دراسته من المختصرات في هذه المرحلة ثم انتقل إلى المطولات فيها وفي المرحلة اللاحقة التي يرجَّح أنه رغم تخصصه فيها في علم الحديث غير أنه لم ينقطع البتة عن دراسة العلوم الأخرى.

المرحلة الثالثة: مرحلة التخصص، ويضع ابن حجر نفسُه سنة٧٩٦هـ/١٣٩٣م[١٣] بداية مرحلة مهمة في حياته عندما عقد العزم على ملازمة حافظ عصره في الحديث الزين العراقي، ويظهر من خلال حديث ابن حجر عن هذا الحافظ كبير تأثيره عليه ومدى شكره وامتنانه له في نبوغه[١٤]، وهو أحد شيوخه الذين جمعوا بين علم الرواية والدراية. تخصّص في هذه المرحلة في علم الحديث شأنُه شأن شيخه العراقي، وقد ظهر منه نزوع حديثي مبكر، حيث رحل إلى قوص سنة٧٩٣هـ/١٣٩٠م بحثا عن مرويات الحديث، وكما مر فقد سمع البخاري مرات في المرحلة السابقة، ومع تخصصه فقد واظب على دروس الفقه والعربية والأصول وغيرها[١٥].

---

[١] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٣ ص٣١٦، وابن رزين هو نجم الدين عبد الرحيم بن عبد الوهاب الحموي الأصل القاهري توفي سنة ٧٩١هـ. وقد ورد اسمه اسمه (عبد الرحيم بن عبد الكريم بن عبد الرحيم) في إنباء الغمر، ج١ ص٣٨٦ مخالفا لما في الدرر الكامنة، ج٢ ص٣٥٧-٣٥٨، والمجمع المؤسس، مج٢ ص٢٣٠، والصحيح ما أثبت لوروده لدى المقريزي في درر العقود الفريدة، ج٢ ص٢٣٨، ولا عبرة بما ورد لدى ابن العماد في شذرات الذهب، ج٨ ص٥٤٤؛ لأنه يعول كثيرا على إنباء الغمر وينقل ما فيه على علاته.

[٢] ابن حجر، رفع الإصر، ص٦٣؛ وإنباء الغمر، ج١ ص ٥٣٥ -٥٣٦؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص١٢٥.

[٣] ابن حجر، رفع الإصر، ص٦٣.

[٤] هو مختصر لكتابه الأصلي منتهى السؤل والأمل في علمي الأصول والجدل، وهو كتاب عني به العلماء لا سيما علماء القاهرة في القرن الثامن الهجري عناية عناية فائقة وكان مدار عشرات الكتب وراءه شرحا وتعليقا واختصارا وتوضيحا، ويعد من أشهر كتب أصول الفقه في أوساط طلاب العلم، وكلاهما منتهى السؤل ومختصره تأليف الشيخ الإمام جمال الدين أبي عمرو عثمان بن عمر المالكي المشهور بابن الحاجب توفي سنة ٦٤٦هـ. حاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ص١٦٢٥، و١٨٥٣-١٨٥٧.

[٥] منظومة مختصرة ولطيفة في النحو لا يزال طلاب العلوم الشرعية المبتدئون يحفظونها، وهي من نظم أبي محمد القاسم بن علي الحريري (ت٥١٦هـ).

[٦] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٢٣.

[٧] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٣٠٦.

[٨] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٢٤.

[٩] إبراهيم بن موسى بن أيوب الأبناسي الشافعي برهان الدين أبو محمد نزيل القاهرة، توفي سنة ٨٠٢هـ عند عودته من الحج. ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص١١٢.

[١٠] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج١ ص٢٤٥.

[١١] عز الدين محمد بن أبي بكر بن عبدالعزيز ابن جماعة (ت٨١٩هـ)، موسوعي المعرفة، تميّز في العلوم العقلية، ولم يترك علما إلا وبرع فيه، عظّمه ابن خلدون. ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص١١٦، ١١٧؛ و المقريزي، درر العقود الفريدة، ج٣ ص١٠٤- ١٠٥.

[١٢] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٣ ص٢٩٢، وإنباء الغمر، ج٣ ص١١٦-١١٧.

[١٣] رفع الإصر، ص٦٢.

[١٤] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٢٧٥-٢٧٩؛ والمجمع المؤسس، مج٢ ص١٨٠-١٨١، ١٨٨.

[١٥] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٢٨.

تتميز هذه المرحلة بتداخل آخرها الشديد مع مرحلة النتاج؛ إذ بدأ في التأليف وهو لا يزال يطلب الحديث ويحضر حلقات الشيوخ[١]، كما كان لمعلوماته المتراكمة ومطالعاته السابقة في التاريخ أعظم عون على النبوغ في هذه المرحلة في وقت قصير[٢]، وفي هذه المرحلة سمع أكثر الكتب والمسانيد والأجزاء الحديثية وكذلك ما يتعلق بعلم الحديث من كتب المصطلح والتراجم للحفاظ، وفيها قام بأغلب رحلاته العلمية إلى مراكز العلم المختلفة في مصر والشام واليمن والحجاز، والتقى بأشهر شيوخ عصره الذين حظي بهم كما سيأتي.

وإجمالا فقد أخذ الفقه عن شيخه ووصيه ابن القطان وعلى الشيخ برهان الدين الأبناسي وبحث عليه في المنهاج للنووي[٣]، وعلى الشيخ الإمام نور الدين الأدمي[٤]، ثم قرأ على العلامة المصنف ابن الملقن (شرحه) على (المنهاج)[٥]، وتفقه على يد شيخ الإسلام البلقيني وحضر دروسه الفقهية وقرأ عليه كثيرا من (الروضة)[٦] و(مختصر و(مختصر المزني)[٧]. وتتلمذ في أصول الفقه على وصيه ابن القطان[٨]، وأخذه في مختصره ومطوّله عن ابن جماعة[٩]، وعنه أيضا أخذ علم المعاني والبيان[١٠]، وتعلّم في القراءات على يد الشيخ برهان الدين إبراهيم بن أحمد بن عبد الواحد التنوخي، وفي علم العروض على البدر محمد بن إبراهيم البشتكي[١١].

٢- شيوخه

تتلمذ على كثير من الشيوخ ومن أبرزهم:

١-عبد الرحمن بن أحمد بن المبارك الغزي القاهري، أبو الفرج ابن الشيخة[١٢]، تخصص في الحديث، ولم يلتفت إلى الأعمال الرسمية، ربطته صداقة بوالد ابن حجر مما كان له أثره في تفقد يتيمه وزيارته بعد موته، والحرص على إسماعه الحديث، لازمه من سنة٧٩٢هـ/١٣٨٩م حتى وفاته سنة٧٩٩هـ/١٣٩٦م، وأخذ عنه مسموعات حديثية كثيرة[١٣].

٢-إبراهيم بن أحمد بن عبد الواحد التنوخي، البعلي الأصل، نزيل القاهرة ومسندها وإمام القراءات، أقنعه ابن حجر بالعودة إلى إسماع الحديث وشوقه بأن خرج له معجما ضم شيوخه في ٢٤ جزءا تذكّر به شيوخه وسالفَ عهده، تميزت مسموعاته بكونه تفرد بكثير منها؛ ونزل الناس بموته درجة في السند، وقد أخذ عنه ابن حجر الكثير من المسموعات، ومنها بعض كتب الحديث وأجزاؤه ومسانيده ومشيخاته ومنتقياته ومجالسه، وفي القراءات (الشاطبية)[١٤]، وأذن له بالإقراء بعد القراءة عليه في أوائل المصحف، وفي النحو (الألفية) لابن مالك[١٥]، وفي الفقه

[١] فمثلا ألّف كتابه الذي لم يُسْبَق إليه، وهو (تغليق التعليق) سنة٨٠٣هـ، وبيّضه سنة ٨٠٧هـ، وكان لا يزال يواصل رحلاته العلمية، وأخذه للعلوم. ابن حجر: أحمد بن علي العسقلاني، (ت٨٥٢هـ)، تغليق التعليق على صحيح البخاري، ت. سعيد القزقي، ط١، بيروت، المكتب الإسلامي، وعمان، دار عمار، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، ج١ ص٢١٥.

[٢] فمثلا لا نجد من مقروءاته على شيخ الإسلام البلقيني سوى كتاب دلائل النبوة للبيهقي وفي كتاب الروضة، ولكن شيخه البلقيني سرعان ما تأكد له أن هذا التلميذ حافظ من الحفاظ وشهد له بذلك. ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٢٤٥-٢٤٧؛ والمجمع المؤسس، مج٢ ص٣٠٥، ٣٠٦.

[٣] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج١ ص٢٤٥؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص١٢٤.

[٤] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٣ ص١٧٦.

[٥] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٢٨.

[٦] روضة الطالبين وعمدة المتقين للإمام محيي الدين أبي زكريا يحيي بن شرف النووي (ت٦٧٦هـ).

[٧] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٢ ص٣٠٥؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص١٢٨.

[٨] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٢٨.

[٩] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٣ ص٢٩٢؛ وإنباء الغمر، ج٣ ص١١٦-١١٧.

[١٠] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٣ ص٢٩٢، وفيه نص ابن حجر أنه قرأ عليه في كتاب المطول لسعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني (ت٧٩٢هـ)، وهو شرح مطول على تلخيص المفتاح للقاضي جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني (ت٧٣٩هـ)، وللتفتازاني شرح آخر وهو المعروف بالمختصر.

[١١] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٣٩.

[١٢] ورد في الدرر الكامنة: (الشحنة)، وذكر محققها في هامشها أنه ورد في نسخة (الشيخة)، وهو الصواب لوروده كذلك في المصادر الأخرى.

[١٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣٢٤-٣٢٥؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٥٣٥-٥٣٦؛ والمجمع المؤسس، مج٢ ص١٠٨.

[١٤] حرز الأماني ووجه التهاني لإمام القراءات القاسم بن فيرّه الرعيني (ت٥٩٠هـ)، حظيت بالقبول من القراء والطلاب بما لم يعرف لكتاب آخر قديما وحديثا.

[١٥] محمد بن عبد الله الطائي، المشهور بابن مالك (ت٦٧٢هـ)، وقد لقيت الألفية شهرة واسعة في الأوساط العلمية.

(المنهاج) للنووي، وفي مصطلح الحديث كتاب (المحدث الفاصل بين الراوي والواعي) للرامهرمزي[١]. وقد توفي سنة ٨٠٠هـ/١٣٩٧م.

٣-برهان الدين إبراهيم بن موسى بن أيوب، الأبناسي الشافعي، نزيل القاهرة، أنشأ له زاوية بظاهر القاهرة يجمع فيها الطلاب على التفقه، ويوفر لهم ما يكفيهم، حتى صار أغلب طلاب القاهرة من تلامذته، وكان صديقا لوالد ابن حجر؛ لذا فقد اجتمع به قديما وأسمعه شيئا من الحديث، ثم لازمه ابن حجر من بعد٧٩٠هـ/١٣٨٨م وقرأ عليه الفقه في كتاب (المنهاج) بحثا، وسمع منه كثيرا من الحديث، مات راجعا من الحج سنة٨٠٢هـ/١٣٩٩م، ورثاه صديقه الحافظ العراقي[٢].

٤-عماد الدين أبوبكر بن إبراهيم بن العز إبراهيم المقدسي الصالحي، الحنبلي المعروف بالفرائضي، مسند الصالحية، وسمع منه عند رحلته إلى الشام الكثير من المرويات في أيام يسيرة؛ إذ كان يجلس له أغلب النهار، توفي سنة٨٠٣هـ/١٤٠٠م[٣].

٥-بدر الدين محمد بن إبراهيم بن إسحاق المناوي القاهري، قاضي القضاة السلمي، درس وولي إفتاء دار العدل وتدريس الشيخونية والمنصورية، وولي القضاء وأحبه الناس عند توليه القضاء، أخذ عنه ابن حجر مشيخته الحديثية، وتوفي غريقا أسيرا بأيدي المغول سنة٨٠٣هـ/١٤٠٠م[٤].

٦-شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن الحسن البوصيري المصري الصوفي، تفقه وبرع في الفنون، ودرس وأفاد وتصوف، ووعظ على طريقة الصوفية، وقد حضر ابن حجر دروسه وفوائده، وتوفي سنة٨٠٥هـ/١٤٠٢م[٥].

٧-سراج الدين عمر بن رسلان بن نصير الكناني البلقيني، شيخ الإسلام ونزيل القاهرة، نبغ منذ صغره، انتهت إليه رئاسة الفقه، ودرّس بمدارس كثيرة في القاهرة، وولي إفتاء دار العدل، وكان آية في الحفظ والعلم، حتى اعتبره بعضهم مجدد عصره، وله مؤلفات انتقد ابن حجر بعضها، وقد أشار ابن حجر إلى تحقق ملكة الاجتهاد فيه إلا أنه فضّل زين الدين العراقي عليه في معرفة الحديث ومهارة الاستدلال، ووصفه في موضع آخر بأعجوبة العصر في التوسُّع في معرفة الفقه الشافعي، قرأ عليه ابن حجر في (الروضة) وحواشيها له، وكتب له إذنا فيها، وكتاب (دلائل النبوة)[٦]، وفي أثناء قراءته اتضح له تفوق تلميذه ابن حجر في علم الحديث، كما كان قد سمع عليه بعضا من كتب الحديث وأجزائه، ولما أكمل ابن حجر الجزء الأول من كتابه (تغليق التعليق) قرظه ووصفه بالحفظ، وتبعه الحافظ العراقي وولده القاضي جلال الدين البلقيني[٧]، ويبدو بوضوح حرص ابن حجر على تسجيل شهادات شيوخه هؤلاء له بالحفظ، وقد توفي هذا الشيخ سنة٨٠٥هـ/١٤٠٢م، ورثاه ابن حجر بقصيدة أشرك فيها شيخه الآخر العراقي[٨].

٨-زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن المهراني المولد[٩]، أبو الفضل العراقي الكردي الأصل، تخصص في الحديث حتى صار حافظ الديار المصرية وشيخها ومسندها بلا منازع، وتصدّى للتخريج والتصنيف، وولي قضاء المدينة المنورة لأكثر من ثلاث سنين، انتهت بعزله سنة٧٩١هـ/١٣٨٩م، وتخرج عليه أغلب

[١] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج١ ص٨٣، ٨٨، ٨٩، ١٥٩، ١٨٥؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص٢٢-٢٣. والرامهرمزي: حسن بن عبدالرحمن بن خلاد، توفي سنة٣٦٠هـ، وكتابه أول كتاب في مصطلح الحديث. حاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ص١٦١٢.

[٢] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج١ ص٢٤٥-٢٤٦؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص١١٢.

[٣] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج١ ص٤٧٩-٤٨٠؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص١٥٨-١٥٩.

[٤] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٢ ص٥٠١؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص١٨١-١٨٢.

[٥] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج ٣ ص٣٨؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص٢٣٩.

[٦] للحافظ أحمد بن الحسين البيهقي (ت٤٥٨هـ)، مطبوع.

[٧] قاضي قضاة الشافعية عبدالرحمن بن سراج الدين عمر البلقيني، كان من عجائب الدنيا في سرعة الفهم وجودة الحفظ، انتهت إليه رئاسة الفتوى وتدريس التفسير بعد أبيه، توفي سنة ٨٢٤هـ. ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص٢٥٩- ٢٦٠.

[٨] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٢ ص٣١٨، ٤٩٢، ٣٠٨-٣٠٨؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص٢٤٥-٢٤٧.

[٩] نسبة إلى منشأة المهراني من أحياء القاهرة اليوم، وصفت بأنها بين مصر والقاهرة. ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٢ ص١٧٦. وبه يتبين خطأ القول بكون مكان ولادته رازنان من أعمال إربل؛ إذ ذلك مسقط رأس أبيه الأصلي وليس مكان ولادته. ينظر الزركلي، الأعلام، ج٣ ص٣٤٥.

المحدثين في علم الحديث، قرأ عليه ابن حجر منظومته في مصطلح الحديث (وهي الألفية) وشرْحَها قراءة بحث، وكذلك أغلب شرح الترمذي له، وسمع عليه كثيرا من المسانيد والأجزاء، وحضر غالب مجالس إملائه التي كان يعقدها منذ سنة٧٩٥هـ/١٣٩٢م حتى موته، وقد أمضى ابن حجر حوالي عشر سنوات (من٧٩٦هـ/١٣٩٣م – إلى سنة٨٠٥هـ/١٤٠٢م) ملازما له سوى ما تخللها من رحلاته، وقد تحدث ابن حجر عنه بفائق التعظيم والاحترام ولو بشكل عرضي بشكل لم نره مع سواه من الشيوخ الذين مهما أثنى عليهم فإنه قل أن تركهم من سهام نقده، وقد ميزه من بين سائر شيوخه بتحققِ مفهومِ الحفظ فيه على طريقة الفقهاء والمحدثين، وندبه بمرثية طنانة أشاد بمآثره العلمية وأخلاقه العالية، كما أشركه في أخرى مع شيخه الآخر شيخ الإسلام البلقيني[١].

٩-سراج الدين عمر بن علي بن أحمد الأندلسي الأصل المصري، ابن الملقن، تعلم العلوم ومهر في كثير منها، وولع بالتصنيف وهو شاب، فصنف المصنفات الطائلة والكثيرة، وكتب أكثر من ثلاث مئة مصنف، في الحديث والفقه والرجال وغيرها، وشهد له بعضهم بالعلم والسعة، واتهمه آخرون بالإغارة على كتب من سبقه، ويبدو أنه في بعضها تفوق في الكتابة والتأليف أكثر من المشافهة بها والتدريس لها؛ وهو ما حمل بعضَ من قابله على اتهامه بالقصور، ومن أولئك تلميذه ابن حجر الذي قرأ عليه شرحه الكبير على (المنهاج) وبعض الأجزاء الحديثية، وقد رأى أنه لم يكن على قدر ذلك الوصف لبعض العلماء فيه من الحفظ والحذق والمهارة في العلم والفتوى، وجوّز تغيّره عما كان عليه، بل ووجه له انتقادا لاذعا مؤكدا إغارته على بعض الكتب، وقد توفي سنة٨٠٤هـ/١٤٠١م[٢].

١٠-نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان، أبو الحسن الهيثمي، صحِب الشيخ زين الدين العراقي، وألف كتاب (مجمع الزوائد) وغيره، وصار كثير الاستحضار للمتون لكثرة ممارسته لها، كما كان سليم الفطرة خيِّرا ديِّنا عابدا، وقد قرأ عليه ابن حجر الكثير من كتب الحديث قرينا للشيخ العراقي، كما قرأ عليه الكثير منفردا، وكان بينهما مودة ومحبة. توفي الهيثمي سنة٨٠٧هـ/١٤٠٤م[٣].

١١-ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد الحضرمي الإشبيلي، أبو زيد المالكي، ابن خلدون، أصله من أشبيلية، ونشأ في تونس، مرّ على القاهرة سنة٧٨٤هـ/١٣٨٢م حاجًّا فقضى حجه وعاد إليها، فأقبل عليه المصريون ترحيبا وإكراما واستفادة، وعقد مجلس العلم في جامع الأزهر في أصول الفقه، وقد ولي قضاء المالكية مرات، وجرّ عليه القضاء في القاهرة عداوات واتهامات كثيرة، إذ باشر منصبه بالحزم والتثبت ورفض الشفاعات وعاقب الشهود بشدة حيث ظهر تزويرهم، كما كان معتزا بهيئته وأصله المغربي لا يأبه لتقاليد المصريين، فجلب عليه حِقْدَ كثيرٍ من كبرائهم وتلفيق التهم الكثيرة ضده، وقد وصلت عدوى تلك التهم والإشاعات إلى تلميذه ابن حجر ففي ترجمته إياه في كتابه (رفع الإصر)، وصل الأمر لدرجة إنكار ابن حجر تميُّز مقدمته التاريخية بشيء مهم، وهو ما يشير إلى مدى التحامل المفرط وقلة الإنصاف تجاهه، بخلاف ترجمته لدى المؤرخ المقريزي؛ إذ تجد فيها روح الإنصاف والواقعية، وقد حضر ابن حجر دروس ابن خلدون وسمع من فوائده وتصانيفه التاريخية، توفي ابن خلدون سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٥م[٤].

---

[١] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٢ ص١٧٦-١٨٥؛ وإنباء الغمر، ج١ ص ٤٩، ج٢ ص٢٧٥-٢٧٩، والسخاوي، الضوء اللامع، ج٤ ص١٧١-١٧٧.

[٢] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٢ ص٣١١-٣٢٠؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص٢١٦-٢١٩؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص٣٩٠-٣٩٢.

[٣] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٢ ص٢٦٣-٢٦٧؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص٣٠٩-٣١٠.

[٤] المقريزي، درر العقود الفريدة، ج٢ ص٣٨٣-٤١٠؛ وابن حجر، رفع الإصر، ص٢٣٤-٢٣٧؛ والمجمع المؤسس، مج٣ ص١٥٧-١٦٠؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص٣٣٩-٣٤٠.

١٢-شهاب الدين أحمد بن عمر بن علي بن عبد الصمد البغدادي الجوهري، قدم من بغداد[١] إلى الشام ثم إلى مصر، وسمع في كليهما الحديث، وكان محدثا غير أنه كان من الصوفية الذين يتواجدون عند السماع[٢]، وقد قرأ عليه ابن حجر (سنن ابن ماجه) وفي (تاريخ بغداد) و(طبقات الحفاظ) وتوفي سنة٨٠٩هـ/١٤٠٦م[٣].

١٣-شمس الدين محمد بن علي بن محمد، ابن القطان المصري الشافعي، وصي ابن حجر، لازم الشيخ ابن عقيل في دروسه فزوجه ابنته، ومهر في القراءات والحساب والفرائض ودرّس وصنف وأفتى، كره ابن حجر تصرفه في تركته، وانتقده بسبب تهالكه في الحصول على نيابة الحكم في آخر أيامه، وقد قرأ عليه في بداية الطلب (كتاب الحاوي)، وسمع منه دروسا في كتابيه، كتاب (السهل) في القراءات، وكتابه في الفرائض والحساب، وقد توفي سنة ٨١٣هـ/١٤١٠م[٤].

١٤-زين الدين أبو بكر بن حسين بن عمر، المراغي المصري نزيل المدينة الشافعي، تلقى العلم عن شيوخ القاهرة، وسمع الحديث عن شيوخ بارزين تفرد بالرواية عن بعضهم، وهو ما دعى ابن حجر أن يخرِّج له أربعين حديثا عن أربعين منهم، ولي قضاء المدينة وخطابتها، وقد سمع عليه ابن حجر بعضا من مروياته الحديثية في كل من منى سنة ٨٠٠هـ/١٣٩٧م وفي مكة والمدينة، وتوفي سنة ٨١٦هـ/١٤١٣م[٥].

١٥-جمال الدين محمد بن عبد الله بن ظهيرة المخزومي المكي، أبو حامد الشافعي، وبرع في الفقه والحديث، وشرح قطعة من (الحاوي)، ودرّس بمكة نحوا من أربعين سنة، وصار قبلة طلاب الحديث، الذين كان من أشهرهم الحافظ محمد بن إبراهيم الوزير (ت٨٤٠هـ/١٤٣٦م) من اليمن، كما ولي قضاء مكة، سمع عليه ابن حجر شيئا من الحديث، وكان أول شيخ سمع عليه في الحديث بمكة كما تقدم، وأول شيخ سمع الحديث بقراءته في مصر سنة٧٨٦هـ/١٣٨٤م، توفي بمكة قاضيا سنة ٨١٧هـ/١٤١٤م[٦].

١٦-مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد الشيرازي، الإمام اللغوي أبو الطاهر الفيرزآبادي[٧]، ولد سنة٧٢٩هـ بكازرون من أعمال شيراز[٨]، وتفقه وسمع ببلاده، وتخصص في اللغة فصار إمامها، وجال في مراكز العلم في العالم الإسلامي، ورزق الحظوة والتكريم لدى حكامه فصار عالِما عالَميا، لكنه استقرَّ به النوى في اليمن إذ عيّنه الأشرف الرسولي[٩] قاضي قضاة اليمن خلفا للإمام الريمي[١٠]،

---

[١] تختلف عبارة إنباء الغمر والمجمع المؤسس ففي الأول أنه قدم قديما مع أخيه عبد الصمد من بغداد، وفي الثاني أنه قدم مع أبيه وعمه دمشق.

[٢] التواجد هو التفاعل باستدعاء الوجد الذي يصاحب سماع الغناء. ينظر الجرجاني: علي بن محمد، (ت٨١٦هـ)، التعريفات، ت. إبراهيم الأبياري، ط١، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ، ص٩٥.

[٣] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج١ ص٤١٤-٤١٧؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص٣٦١. وابن ماجه محمد بن يزيد القزويني (ت٣٧٣هـ) أحد أصحاب السنن الأربع المشهورة. وتاريخ بغداد للحافظ أحمد بن علي المعروف بالخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ). وطبقات الحفاظ للحافظ المؤرخ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت٧٤٩هـ).

[٤] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٣ ص٣٣١؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص٤٦٧.

[٥] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج١ ص٥٣٨-٥٤٩؛ وإنباء الغمر، ج٣ ص٢٣؛ والمقريزي، درر العقود الفريدة، ج١ ص ١٣٠- ١٣١.

[٦] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٣ ص٣١٤-٣١٦؛ وإنباء الغمر، ج٣ ص٤٥-٤٦؛ والمقريزي، درر العقود الفريدة، ج٣ ص٤٣١؛ وابن الوزير: محمد بن إبراهيم، (ت٨٤٠هـ)، الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم، ت. علي محمد العمران، مكة المكرمة، دار عالم الفوائد، ج٢ ص٢٣٧.

[٧] وجه ابن حجر في كتابيه المجمع المؤسس وإنباء الغمر نقدا لادعاء شيخه بأنه من نسل أبي إسحاق الشيرازي صاحب التنبيه، ثم لادعائه أيضا أنه من نسل أبي أبي بكر (الخليفة)، كما استغرب منه تصديقه أكذوبة (رتن الهندي) ودعواه الصحبة لرسول الله لأنه قد دخل قريته في الهند، وفندها تفنيدا قطعيا.

[٨] مدينة كانت عاصمة بلاد فارس وتقع في الجنوب الشرقي من إيران. ينظر الحموي: ياقوت بن عبدالله، (ت٦٢٦هـ)، معجم البلدان، بيروت، دار الفكر، ج٣ ص٣٨٠.

[٩] إسماعيل بن العباس بن الأفضل بن المجاهد علي، ولي سنة ٧٧٨هـ ومات سنة ٨٠٣هـ.

[١٠] أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر الريمي نسبة إلى ريمة أحد مخاليف اليمن، من كبار علماء اليمن، وتخرج على يديه طلاب كثيرون، وله (التفقيه شرح التنبيه) لأبي إسحاق الشيرازي في الفقه الشافعي، وكان مقدما عند السلاطين آل رسول، توفي سنة ٧٩٢هـ. الخزرجي: علي بن الحسن (ت٨١٢هـ)، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، ت. محمد بسيوني عسل، القاهرة، مطبعة الهلال، ١٣٣٢هـ - ١٩١٤م، ج٢ ص٢١٨؛ وابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٤٨٦؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٤٠٧-٤٠٨، غير أنه في الدرر ذكر وفاته أنها سنة ٧٩٢هـ مخالفا لما أورده في إنباء الغمر موافقا للخزرجي، وروّج فيهما رواية لجمال الدين محمد بن أبي بكر المصري ثم الزبيدي (ت٨٢٠هـ) بأن الريمي كان كثير الوقيعة في النووي وأنه اندلع لسانه عند موته واسودّ.

واستمر قاضيا هناك للأشرف ثم للناصر[1] حتى مماته سنة٨١٧هـ/١٤١٤م وقد أغدق عليه الأشرف الأموال، وألف وألف كتبا كثيرة في اللغة والتفسير والجغرافيا، وأشهر مؤلفاته (القاموس المحيط)، وله (منح الباري شرح صحيح البخاري)، بلغ منه ربع العبادات في عشرين مجلدة، انتقده ابن حجر بتضمينه آراء (ابن عربي) الصوفية الفلسفية مراعاة لبعض أتباعه في زبيد، لقيه ابن حجر سنة٨٠٠هـ/١٣٩٧م في زبيد، وسيأتي ما قرأه لديه[2].

١٧-محمد بن أبي بكر بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم ابن جماعة، عز الدين ابن شرف الدين ابن عز الدين ابن بدر الدين، ومال إلى العلوم العقلية حتى صار مفخرة المصريين أمام العجم الذين كانوا قد شُهِروا بذلك، وكان موسوعيا يُحْسِنُ علوما كثيرة حتى الشعوذة والرمل والطب، وصنف حتى في العلوم العسكرية، تخرّج على يده خلائق من المصريين وغيرهم في الأصول والمنطق والمعاني والبيان والحكمة، كما درس في الفقه والنحو والتفسير، وكان يعلق على الكتاب الواحد الذي يُدَرِّسه عدة تعاليق، وكان ابن خلدون يفخر بتتلمذه على ابن جماعة[3]، وأقصى نفسه عن الوظائف القضائية، وعاش حياة البساطة مشاركا للعامة حياتهم، ونزّه نفسه عن مبارزات الجدل التي كان يقيمها العلماء ومنهم مؤلفنا ابن حجر ضد بعضهم في مجالس السلطان، ومع ذلك لم يكن حظه في التصنيف بالجيد، وقد مال في آخر عمره إلى علوم الحديث وهو أمر يشير إلى غلبة الاتجاه الحديثي على الاتجاه العقلي[4]، لازمه ابن حجر منذ سنة٧٩٠هـ/١٣٨٨ حتى وفاته سنة ٨١٩هـ/١٤١٦م، وقرأ عليه (مختصر ابن الحاجب) في الأصول، و(شرح العضد)[5] و(جمع الجوامع) و(شرح منهاج الوصول)[6] و(المطول)[7] لسعد الدين[8] وأجاز له ولأولاده، وكان ابن حجر يعظمه ولا يسميه إلا إمام الأئمة، كما كان شيخه هو الآخر يشهد له بالتقدم[9].

١٨-فاطمة بنت محمد بن أحمد التنوخية، أم الحسن المسندة الدمشقية، سمعت على بعض الشيوخ وأجاز لها كثير منهم، وتفردت في الدنيا بالرواية عن كثير منهم، وتوفيت متجاوزة التسعين عاما سنة٨٠٣هـ/١٤٠٠م، وهي أكثر شيوخ ابن حجر على الإطلاق في كثرة مروياته الحديثية عنها، فقد بلغت أكثر من ١٥٥ مرويا من الكتب الكبار والأجزاء مع أنه ذكر أنه لم يستوعب كل ما رواه عنها، وهو رقمٌ يفوق ما رواه على آثَرِ شيوخه لديه الحافظِ العراقي؛ إذ لم تصل مروياته عليه سوى ١١٥ مرويا[10].

ويبدو واضحا في هذا العصر ظاهرة طاغية على علمائه وهي الاستكثار من الشيوخ وتعدادهم، وتشييخ الطالبِ كلَّ من يلقاه أو يسمع منه أي فائدة معرفية، ولم يخرج عن ذلك ابن حجر، ففي معجمه سجّل كل من لقيهم وسجل عنهم معلومات ولو كانت عرضية وغير ذات أهمية.

---

[1] الناصر أحمد بن الأشرف إسماعيل تولى السلطنة بعد وفاة أبيه سنة ٨٠٣هـ وتوفي سنة ٨٢٧هـ.

[2] المقريزي، درر العقود الفريدة، ج٣ ص١٧٣-١٧٧؛ وابن حجر، المجمع المؤسس، مج٢ ص٥٤٧-٥٥٣؛ وإنباء الغمر، ج٣ ص٤٧-٥٠.

[3] وقع عند الزركلي، الأعلام، ج٦ ص٥٦، أن ابن جماعة هذا هو الذي تتلمذ على ابن خلدون، لكنه خلاف ظاهر عبارة المقريزي في درر العقود الفريدة ج٣ ص١٠٤- ١٠٥.

[4] وهو يشير إلى انتصار الحديث والمحدثين في القاهرة على الاتجاه العقلي الذي يظهر بوادر الخصومة الفكرية بينهما بين الحين والآخر.

[5] هو خير شروح مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه، وهو للشيخ عضد الدين عبدالرحمن بن أحمد الأيجي (ت٧٥٦هـ/١٣٥٥م). حاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ص١٨٥٣.

[6] منهاج الوصول في علم الأصول، تأليف القاضي عبدالله بن عمر البيضاوي (ت٦٨٥هـ)، وهو كتاب جليل في أصول الفقه، شرحه جماعة من العلماء، ومنهم علماء القاهرة في القرن الثامن الهجري وسيأتون. حاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ص١٨٧٨- ١٨٨٠.

[7] المطول لسعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني (ت٧٩٢هـ)، وهو شرح مطول على تلخيص المفتاح في البلاغة للقاضي جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني (ت٧٣٩هـ)، وللتفتازاني شرح آخر وهو المعروف بالمختصر. حاجي خليفة، كشف الظنون، مج١ ص٤٧٣.

[8] رغم تتبع الباحث أسماء الكتب التي قرأها فلم يجد سوى المذكورة، غير أن مدة الملازمة طويلة جدا فلا أظن أن قراءته لديه هي تلك الكتب فقط، ويترجح أنه كان يحضر كثيرا من الدروس التي كان ابن جماعة يقيمها.

[9] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٣ ص٢٩٢-٢٩٤؛ وإنباء الغمر، ج٣ ص١١٥-١١٧؛ والمقريزي، درر العقود الفريدة، ج٣ ص١٠٤-١٠٥.

[10] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٢ ص٣٨٩-٤٣٤، ج٤ (الفهارس) ص٤٤٥-٤٤٦؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص١٨٠؛ والمقريزي، درر العقود الفريدة، ج٣ ص٨.

لقد عدّ في معجم شيوخه حوالي ٧٣٠ شيخا صنّفهم إلى نوعين: شيوخ الرواية، وشيوخ الدراية، بلغ عدد شيوخ الرواية ٢٨٠ شيخا، وبلغ عدد من أجازوه إجازة عامة ٩٧ شيخا، وبلغ عدد شيوخ الدراية ٣٥٣ شيخا، على أنه يجب القول أنه رغم محاولته الاستقصاء في جمع شيوخه في هذا المعجم ولكنه فات عليه بعض الشيوخ[١].

وقد بلغ عدد شيوخه من الرجال ٦٧٣ شيخا، ومن النساء ٥٧ شيخة، حوالي ٨٤% منهن يُصَنّفْن في شيوخ الرواية، غير أن المثير في موضوع هؤلاء الشيخات أن حوالي ٩٠% منهن ينتمين لبلاد الشام، فمن دمشق وحدها حوالي ٣٥% من الشيخات، تليها الصالحية من ضواحي دمشق آنذاك بنسبة ٢١%، وتتوزع البقية على بيت المقدس وبعلبك وغيرهما، فيما كانت شيخاته من غير الشام فقط ١٠%، نصفهن مصريات، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على انحسار النشاط العلمي النسائي في مصر لصالح بلاد الشام، ولا سيما في دمشق التي يبدو أنها ذهبت بالفضل كله في هذا، كما يجب القول بأن نشاط هؤلاء الشيخات العلمي كان متعلقا بالحديث فقط، وهذا يشير إلى انحسار النشاط العلمي النسائي في القاهرة إلى حد بعيد.

جمع معجم شيوخه (المجمع المؤسس) عددا ضخما من المشايخ، مع أنه لم يُحْصِهم جميعا، وحرص فيه على تعداد كثير منهم تكثيرا للعدد أو جريا على ثقافة العصر المعجبة بكثرة الشيوخ، مع أن بعضا منهم سمع منه حديثا واحدا[٢] أو نال منه إجازة له أو لأحد أولاده، وربما نقل عنه بضع فوائد، أو كان من أقرانه[٣]. ولعل الثقافة المعجبة المعجبة بكثرة الشيوخ خلقت الحرص على توثيق اللقاءات العابرة.

ضم هذا المعجم كثيرا من الشيوخ ويعود أغلبهم لفئة المحدثين، ورغم محاولة الباحث إحصاء أبرز الشيوخ من غيرهم وفي التخصصات المختلفة فلم يجد سوى من تقدم ذكره، وهي نقطة مهمة تدل على أن تفوق ابن حجر لا يعود لكثرة الشيوخ بقدر ما يعود للجهد الذاتي في المطالعة والبحث والتدريس والمناقشة.

وتضمّن المعجم شيوخا من فئات وشرائح ومذاهب مختلفة فقد كان منهم المؤذن، وإمام المسجد، وخطيبه، ومنهم الملك السلطان، وولد السلطان، والقضاة، ونوابهم، ومنهم الشيخ المجذوب، والصوفي، ومنهم الخطاط، والطبيب، والشاعر، والمقرئ، والنحوي، والفلكي، ومنهم التلميذ له، والصديق، والجندي، والكتبي، والمزين[٤].

لم يكن شيوخ ابن حجر كلهم من المرضي عليهم عنده فقد وصم وأشاد وعاب وأثنى ومدح وقدح في كثير منهم[٥]، وهي السمة البارزة التي ميزت ابن حجر مع شيوخه وأهل عصره، ولعل ذلك هو ما جرّ عليه الانتقادات وفتح عليه أبواب الحسد والعناد.

وبالنظر إلى ما مر يتبيّن جذور ولع ابن حجر بالحديث وما يتعلق به من التاريخ ومعرفة الرجال في شيوخه الذين كانوا أشهر حفاظ عصره بالحديث وعلم الرجال، كما يتبين أنه تتلمذ على أبرز شيوخ ذلك العصر وأكثرهم وأبرزهم نتاجا، وكان لهذا أثر في نبوغه وكثرة نتاجه باعتباره وارثا للنابغين، وأثّر تنوعهم وخلفياتهم الفكرية والاجتماعية المتنوعة على عقليته التي استوعبت اختلافاتهم، فنجد لديه تسامحا أفضل من سواه في عصره في المواقف تجاه المخالفين.

---

[١] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص٣٣٧، وفيه ذكر نور الدين علي بن عبد الكريم الفوي، سمع عليه سيرة ابن هشام، ووصفه بقوله: "نعم الشيخ كان"، ولكنه لم يذكره في المجمع المؤسس.

[٢] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٣ ص٢٠، ٢٩٠، ٣٢٥.

[٣] المصدر السابق، مج٣ ص٢٩، ٥٠، ٥٦، ٥٧.

[٤] المصدر السابق، فهارس التحقيق، مج٤ ص٤٤٦-٤٤٧. والمزين من يختن الأطفال. ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص١٩٩.

[٥] المصدر السابق، فهارس التحقيق، مج٤ ص٤٤٨-٤٥١.

٣- رحلاته العلمية

شكّلت الرغبة الذاتية لدى ابن حجر في اكتساب العلوم والشغف بها، وتأثره الواضح ببعض شيوخه، وبيئته التي نشأ بها المشجعة للعلم، وطموحه الواسع في أن يكون رأسا في الحديث النبوي وحافظا كبيرا من حفاظه، وإيمانه العميق بأهمية وقته ووجوب توظيف كل أجزائه في العلم حلا وترحالا - الدافع الأبرز في دراسة العلم في مصر ثم الرحلة في الأمصار[١]، ويظهر أنه تأثر ببعض شيوخه لا سيما الحافظ العراقي تأثرا كبيرا دفعه إلى سلوك طريقته في العلم والحديث، ويظهر أن لتعرفه عليه أثرا واضحا في تغيُّر مسار حياته وارتباطه وشغفه بالعلم بطريقة منظمة، حيث بدت طريقته في طلب العلم والحديث قبل التحاقه بالعراقي سنة٧٩٦هـ/١٣٩٣م غير منظمة بخلافها بعد ذلك[٢]. وشجّعه على الرحلة بعض العلماء والشيوخ، ومكّنه منها تيسُّر حالته المادية، ثم إن أغلب البلدان التي رحل إليها ترتبط ارتباطا عضويا وتاريخيا ببلده مصر، كما أنه - وهو يحمل نفَس التاجر ومن أسرة التجار - كان يَهُونُ عليه خوضُ البحار وحملُ عصا التسيار، والبعدُ عن أنظار خلانه وذويه.

١-**رحلته إلى الصعيد**: رحل ابن حجر إلى قوص وبعض بلدان الصعيد سنة٧٩٣هـ/١٣٩٠م، ولم يستفد من هذه الرحلة شيئا من المرويات الحديثية، وإن كان قد سمع بعضا من نظم أهلها[٣]، ورحلته هذه بحثا عن الحديث تشير إلى توجه مبكر للتخصص فيه، وإلى الذوق الأدبي الشعري لديه، كما يشير إلى قلة الوعي بعلماء الحديث ورواته والبلدان التي يتواجدون فيها، ولقي قاضي (هو)[٤] وقاضي قوص وجماعة من أهل الأدب سمع من نظمهم، وله نظم متعلق بهذه الرحلة وبالبلدان التي دخلها[٥].

٢-**رحلته إلى الإسكندرية**: دخلها لثلاث بقين من ذي القعدة من سنة٧٩٧هـ/١٣٩٥م[٦]، وبها أخذ وسمع عن مسندها تاج الدين ابن موسى الشافعي (ت٧٩٨هـ/١٣٩٦م)[٧]، وعن مجموعة من مسنديها[٨]. واجتمع فيها بالعلامة المقرئ شمس الدين محمد بن محمد الجزري (ت٨٣٤هـ/١٤٣١م)[٩] تلك السنة قبل فراره إلى العثمانيين ونشره العلم هناك وقد حثه الجزري على الرحلة لا سيما إلى دمشق؛ لما رأى ما فيه من النجابة[١٠].

ويبدو أنه كان يتخذ منهج التدوين والكتابة لما يستفيده من حديث وأدب في كل رحلاته، فقد جمع فوائده الحديثية والأدبية المستفادة في الإسكندرية في جزء اطلع عليه السخاوي بعنوان "الدرر المضية في فوائد الإسكندرية"، ومكث في الإسكندرية بقية سنة ٧٩٧هـ وعدة أشهر في التي تليها[١١]. ولا يكاد يظهر له اهتمام لغير الحديث في هذه الرحلة سوى اهتمام ثانوي بالأدب، ويظهر ابن حجر في هذه الرحلة أكثر تنظيما لفوائده من ذي قبل، كما لقي فيها من دلّه وشجّعه على الرحلة في مراكز الحديث.

---

[١] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٤٢؛ وعلي، التاريخ والمنهج التاريخي، ص١١٥.
[٢] كما سيبدو من رحلته إلى قوص قبل التحاقه بالعراقي ثم رحلاته الأخرى إلى الإسكندرية والشام وغيرها.
[٣] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٤١٩؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص١٤٢-١٤٤.
[٤] بلدة بالقرب من قوص في الصعيد الأعلى. السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٤٢.
[٥] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٤١٩؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص١٤١-١٤٤.
[٦] وقع لدى الباحث محمد كمال الدين عز الدين في كتابه التاريخ والمنهج التاريخي، ص ١١٧ أنه دخلها سنة ٧٩٩هـ ومكث فيها حتى السنة التالية لها وهي سنة ٨٠٠هـ، رغم أنه ذكر في ص١١٨ أن ابن حجر كان في القاهرة سنة ٧٩٩هـ، ولعل ذاك نتيجة لتصحيفه كلمة (سبع) إلى (تسع) في مصدره المخطوط من الجواهر والدرر للسخاوي.
[٧] محمد بن أحمد بن عبد الرزاق بن موسى الشافعي، إمام المدرسة الكولمبية، قرأ عليه مشيخة وجيهية تخريج تقي الدين ابن عرام. ابن حجر، المجمع المؤسس، المؤسس، مج٢ ص٤٩٢؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٤٩٥.
[٨] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج١ ص٤٣٣- ٤٣٤، مج٢ ص٤٩٤- ٤٩٦، ٥٢٣.
[٩] أحد من يشملهم هذا البحث لكونه أنجز دورا علميا في القاهرة، وله كتاب غاية النهاية في طبقات القراء من مصادر البحث أيضا.
[١٠] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٤٥؛ والضوء اللامع، ج٩ ص ٢٥٦.
[١١] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٤٦.

٣-رحلته إلى الحجاز: يكتسب الحجاز من الحرمين الشريفين أهمية عظيمة لدى المسلمين؛ ولذا فمن الطبيعي أن يكون العالم لا سيما من أهل الحديث على علاقة قوية به، ففي مواسم الحج وأيام المجاورة يلتقي العلماء وتواتي الفرصة للطلاب الباحثين عن علم علماء البلدان فيدورون عليهم لينهلوا من علومهم.

مرّ ابن حجر على الحجاز في طريقه إلى اليمن في رحلته الأولى؛ إذ وصل الطور[١] في ذي القعدة سنة٧٩٩هـ ثم ينبع[٢] وفيهما أخذ عن بعض أهل الحديث[٣]. وقد عاد من اليمن آخر سنة ٨٠٠هـ/١٣٩٧م وحج حجة الإسلام[٤]، الإسلام[٤]، فسمع بمكة المكرمة والمدينة المنورة عن بعض الشيوخ فيهما[٥].

ولما عاد من رحلته الثانية من اليمن سنة٨٠٦هـ/١٤٠٣م حج أيضا[٦]، وحج أيضا سنة ٨١٥هـ/١٤١٢م[٧]، ثم حج حج آخر مرة سنة ٨٢٤هـ/١٤٢١م وفيها أنزله القاضي محب الدين ابن ظهيرة إحدى مدارس مكة[٨]. وقد لقي بها علماء من اليمن والجزائر وتونس ومصر وسمع منهم[٩]، كما سمع من إمام المقام الشافعي بمكة أبي اليمن محمد بن بن أحمد الطبري الشافعي (ت٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م)[١٠]. وسمع في جدة سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٤م عقب عودته من الحج[١١]، كما في (خليص)[١٢] نراه حريصا على طلب الرواية يسجّل ما يروى له، وكان قد اجتمع به بعض فضلاء مكة سنة ٨١٥هـ/١٤١٢م فقرأوا عليه وسمعوا منه وأذن لهم في رواية بعض تصانيفه، وأرشدهم سنة ٨٢٤هـ/١٤٢١م[١٣] إلى المسند الرحلة ابن طلوبغا السيفي التنكزي[١٤] وسمع هو منه أيضا[١٥]. وفي كل ذلك نراه حريصا على توثيق الحديث والتنقيب عنه بصورة تذكّر برجاله في القرن الثالث الهجري.

٤-رحلته إلى الشام: جاءت رحلته إلى الشام مخطّطا لها أكثر من رحلاته إلى سواها، وتحت تأثير نصح بعض من لقيهم[١٦]، وبعد أن استوعب ما لدى المحدثين في مصر. وقد خرج من القاهرة عصر الإثنين ٢٣ من شعبان سنة ٨٠٢هـ/٢٣ أبريل١٤٠٠م، وفي طريقه إلى الشام استغل نزوله في بعض الأماكن للاستراحة في سماع الحديث مثل ضاحية القاهرة سرياقوس[١٧] وفي قطية[١٨]، وفي غزة[١٩]، ثم في الرملة[٢٠]، وكان يريد السماع من الشيخ الرحلة[٢١] العلائي (ت٨٠٢هـ/١٤٠٠م)[٢٢]، غير أنه وهو في الرملة في ١٨رمضان بلغه وفاته، فغيّر مساره شمالا

---

[١] ساحل في جانب الرأس الداخل في بحر القلزم بين عقبة أيلة وبين بر الديار المصرية. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣ ص٥٣٧.

[٢] ينبع: واد كثير القرى والعيون والنخيل، والتي أخذ اسمه منها، إلى الغرب الجنوبي من المدينة المنورة. الحموي، معجم البلدان، ج٥ ص٤٥٠.

[٣] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج١ ص٥٦٥؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص١٢٦؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص١٤٦- ١٤٧، ١٥٠.

[٤] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص١٢٦؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص١٥٠.

[٥] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج١ ص٦١٦- ٦١٧؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص٨٥، ١٢٠، ٣٧٢.

[٦] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٣٤٦؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص١٥٢.

[٧] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٥٢.

[٨] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص٢٥٠؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص١٥٣.

[٩] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٣ ص١٠٩؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص٣١٣، ج٣ ص٢٣، ١١٤.

[١٠] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٢ ص٤٩٤- ٤٩٥.

[١١] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٣ص ١٤٨-١٤٩؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص١٥٢.

[١٢] حصن بين مكة والمدينة على الطريق. الحموي، معجم البلدان، ج٢ ص٣٨٧.

[١٣] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٢ ص١٧١.

[١٤] عبد الرحمن بن محمد بن طلوبغا، أسد الدين التنكزي الدمشقي، بقية المسندين بدمشق، أجاز لابن حجر ولأولاده، ثم لقيه بمكة سنة ٨٢٤هـ وسمع منه. ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٢ ص١٧٠-١٧٣.

[١٥] المصدر السابق، مج٢ ص١٧٠-١٧٣.

[١٦] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٥٦.

[١٧] بليدة بنواحي القاهرة. الحموي، معجم البلدان، ج٣ ص٢١٨.

[١٨] قرية في طريق مصر وسط الرمل قرب الفرما. الحموي، معجم البلدان، ج٤ ص٣٧٨؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص١٥٦-١٥٧.

[١٩] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج١ ص٤٤٥-٤٥٠، مج٣ ص٢٠؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص٢٤٠ ؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص١٥٧.

[٢٠] . ابن حجر، المجمع المؤسس، مج١ ص٤٢٣-٤٢٦، مج٢ ص٢٣؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص١٥٥-١٥٦؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص١٥٧. والرملة تقع غرب بيت المقدس وجنوب شرق يافا. الحموي، معجم البلدان، ج٣ ص٦٩-٧٠؛ وأبو خليل: شوقي، أطلس التاريخ العربي الإسلامي، ط١٢، دمشق، دار الفكر، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م، ص٩٠.

[٢١] بل قال ابن حجر إنه رحل من القاهرة إلى الشام بسبب ظهور سماع سنن ابن ماجه للعلائي على الحجار. إنباء الغمر، ج٢ ص١١٤. غير أن وصية الجزري له بالرحلة لا سيما إلى دمشق وكونها المركز الأهم للعلم والحديث في الشام يشير إلى أن وجهته كانت تتعدى بيت المقدس.

[٢٢] أحمد بن خليل بن كيكلدي، أبو الخير شهاب الدين العلائي الدمشقي ثم المقدسي، أسمعه أبوه على كبار المسندين ورحل به إلى القاهرة وأسمعه على شيوخها، سكن بيت المقدس وصار محدثها والرحلة إليها. ابن حجر، المجمع المؤسس، مج١ ص٣٥٣-٣٥٤؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص١١٤.

نحو دمشق، فسمع بها وبصالحيتها[١] على عدد كبير من الشيوخ والشيخات[٢]، ومن أولئك الشيخات فاطمة بنت محمد، أم الحسن التنوخية الدمشقية (ت٨٠٣هـ/١٤٠٠م)، ولعلها أكثر شخص روى عنه ابن حجر في الحديث على الإطلاق، كما سمع عن آي ملك البعلية ثم الدمشقية (ت٨١٥هـ/١٤١٢م)، وسمعت هي عليه بقراءته[٣]، وقد غادر دمشق أول يوم من سنة٨٠٣هـ/٢١أغسطس١٤٠٠م جنوبا نحو نابلس[٤] على وقْع أخبار التتار وفظائعهم في حلب وما حولها، وقد بذل جهدا كبيرا في سماع الحديث وتحصيل كتبه وأجزائه ووصل إجازاته المنقطعة[٥]، في مدة لا تكاد تتجاوز الثلاثة أشهر[٦] في دمشق، وكذلك في غيرها من البلدان والمراكز مدفوعا بنهمة شديدة، وقدرات وعوامل مهارية مساعدة.

ثم سمع بنابلس عن مجموعة من الشيوخ[٧]، وعبر طريق وعرة تربط نابلس ببيت المقدس وصل ابن حجر إليها[٨] إليها[٨] وسمع فيها عن بعض شيوخها[٩]، ومنهم إمام المسجد الأقصى أحمد بن محمد ابن مثبت المالكي (ت٨١٣هـ/١٤١٠م)[١٠]، وإمام قبة الصخرة عبدالرحمن بن محمد، ابن حامد المقدسي (ت٨٠٧هـ/١٤٠٤م)[١١]، وغزال بنت عبدالله القلقشندية (ت بعد ٨٠٢هـ/بعد ١٣٩٩م)[١٢]، وفي طريق عودته سمع في الخليل[١٣].

وتعد هذه الرحلة إلى الشام أكثر رحلة استوعب فيها ابن حجر في مدة قياسية كثيرا من الكتب والمجلدات والأجزاء سماعا ورواية وإجازة ووصلا لإجازات منقطعة، كما كتب من الفوائد الحديثية والنثرية والتتمات الملحقة في تصانيفه بما يقدر بثمانية مجلدات، وطرّف[١٤] كتاب المختارة للحافظ ضياء الدين المقدسي (ت٦٤٣هـ/١٢٤٥م)[١٥] في حوالي مجلد[١٦]. وهي إنجازات ومهارات تشير إلى نبوغ مبكر في التصنيف واستغلال

---

[١] الصالحية مدينة ممتدة على جبل قاسيون تشرف على دمشق، ذات أسواق وربط ومدارس وبساتين، أكثر أهلها من حنابلة بيت المقدس. الحموي، معجم البلدان، ج٣ ص٣٩٠؛ والقلقشندي، صبح الأعشى، ج٤ ص٩٨.

[٢] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج١ ص٣٧٩-٣٩٢، ٣٩٧-٤٠٢، ج٢ ص٢٣٤-٢٤٢، ٢٣٢-٢٣٤، ٣٥٠-٣٥٧، ٣٨٩-٤٣٤، ٥٢٠-٥٢٢، ٤٤٦-٤٥١، ٥٧٢-٥٧٢-٥٨٧؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص١٥٥، ١٦٩، ١٧٩، ١٨٤، ١٨٧-١٨٨؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص١٥٩.

[٣] آي ملك بنت إبراهيم بن خليل، أخت جمال الدين ابن الشرائحي، سمعت بعناية أخيها من ابن أميلة ومن بعده وحدثت معه. ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٥٢٦.

[٤] مدينة مشهورة في فلسطين إلى الشمال من بيت المقدس بينهما حوالي عشرة فراسخ. الحموي، معجم البلدان، ج٥ ص٢٤٨؛ ومؤنس: حسين، أطلس تاريخ الإسلام، ط١، القاهرة، دار الزهراء للإعلام العربي، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م. ص٩٠.

[٥] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٥٨، ١٦٠-١٦١.

[٦] إذ عرفنا أنه في يوم ١٨ رمضان في جنوب الشام في الرملة، متوجها إلى دمشق، كما تقدم، وذكر أنه خرج منها في أول يوم من سنة ٨٠٣هـ. ابن حجر، إنباء إنباء الغمر، ج٢ ص١٣٣.

[٧] ومنهم إبراهيم وعلي بن محمد بن إبراهيم بن العفيف، وأحمد بن محمد بن عبدالقادر، وعيسى بن علي بن محمد بن غانم المقدسي. ابن حجر، المجمع المؤسس، مج١ ص٢١١-٢١٢، ج٣ ص١٨٦، ٢٠٨-٢٠٩؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص١٥٧.

[٨] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٦٠.

[٩] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٣ ص٧٢.

[١٠] أحمد بن محمد بن علي بن أحمد بن مثبت، سمع عن الميدومي وأكثر عن العلائي (الذي كان سبب رحلة ابن حجر إلى بيت المقدس) وغيرهما، لكن كان فهمه بطيئا. ابن حجر، المجمع المؤسس، مج١ ص٤٥٠-٤٥٣. ووقع لدى الباحث محمد كمال الدين في كتابه التاريخ والمنهج التاريخي، هامش ص١٣١ أنه توفي سنة ٨٠٣هـ، ولعله تصحيف لـ(٨١٣هـ).

[١١] عبد الرحمن بن محمد بن حامد المقدسي الشافعي، حدث عن الميدومي والعلائي، قرأ عليه ابن حجر جزءا. ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٢ ص١٧٠.

[١٢] غزال بنت عبد الله القلقشندية النوبية الأصل، مولاة شيخ القدس تقي الدين إسماعيل القلقشندي، سمعت من الميدومي، وحدثت، سمع منها ابن حجر، وذكر السخاوي أنها توفيت سنة ٨٠٢هـ، وهو وهم؛ إذ لم يدخل ابن حجر بيت المقدس إلا بعد عودته من دمشق في سنة ٨٠٣هـ، كما مر لنا. ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٢ ص٣٦٠؛ والسخاوي، الضوء اللامع، ج١٢ ص٨٥.

[١٣] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٥٧؛ والخليل اسم موضع وبلدة بها حصن وسوق وعمارة بالقرب من بيت المقدس جنوبا بينهما مسيرة يوم، وبها مرقد الخليل إبراهيم عليه السلام. الحموي، معجم البلدان، ج٢ ص٣٨٧. وهي اليوم مدينة مشهورة في فلسطين المحتلة.

[١٤] التطريف هو أن يذكر حديث الصحابي مفردا بذكر طرف منه يعرف به مع الجمع لأسانيده، إما على سبيل الاستيعاب أو على جهة التقيد بكتب مخصوصة. ابن حجر: أحمد بن علي العسقلاني، (ت٨٥٢هـ)، إتحاف المهرة بالفوائد المبتكرة من أطراف العشرة، ت. زهير الناصر، ط١، المدينة المنورة، مجمع الملك فهد، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م، مقدمة التحقيق، ج١ ص٢٥.

[١٥] محمد بن عبد الواحد، ضياء الدين السعدي المقدسي الأصل، الصالحي الحنبلي، الحافظ أحد أعلام الحديث ومؤسس مدرسة دار الحديث الضيائية المحمدية بسفح قاسيون شرقي الجامع المظفر، رحل إلى مصر وبغداد وفارس، وألف كتبا منها الأحكام، والأحاديث المختارة. النعيمي: عبد القادر بن محمد الدمشقي، (ت٩٧٨هـ)، الدارس في تاريخ المدارس، ت. إبراهيم شمس الدين، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، ج٢ ص٧١-٧٣.

[١٦] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٥٨، ١٦٠-١٦١.

الوقت والعقلية المنظمة.

وقد ساعده على إنجاز كل هذا عدة عوامل أشار إليها السخاوي، ومنها: سرعته الحسنة في القراءة[١]، والاستعداد والاستعداد النفسي بالطموح، واشتياقه لنيل مرتبة المشاهير من العلماء[٢]، وسرعة الكتابة مع حسنها[٣]، واستثمار جميع وقته وصرف كل همته في المطالعة والتصنيف والأخذ والإفادة والاستفادة[٤]، وقدرته على إقناع شيوخه العسرين في إسماع الحديث بالعدول عن ذلك من خلال تحريك حافز أو دافع لهم يدفعهم إلى الإسماع، وفرح كثير منهم به وتفرسهم بنجابته لما رأوه عليه من الذكاء والاهتمام[٥]، وتواضعه في العلم[٦]، مع ما كان عليه من المؤهلات المؤهلات الفطرية كالذكاء والحفظ، ومهارته في التنظيم والانتقاء والترتيب لما يتعلمه ويقمشه، ولكن لكون ما أنجزه كثيرا لا ينسجم مع المدة القصيرة فمن المرجح كما صرّح تلميذه السخاوي بأن رفقته الطيبين أعانوه بالكتابة والقراءة والعارية والمذاكرة والمراجعة[٧].

وكان يذهب وهو في الشام إلى محلات شيوخه الخاصة كالبيت والحانوت ليأخذ عنهم[٨]، كما كانت عملية جمعه للحديث عملية موثقة، فهناك إشارات إلى أن التوثيق كان على درجة عالية من الدقة في تسجيل الحالة التفصيلية لكل مجلسِ سماعٍ في الأخذ والسماع والقارئ والشيخ والطلاب والحاضرين والغائبين والمتخلفين ومكان البدء ومكان النهاية، ورُبما كانت المحاضر تُرْقَم في حوامي الكتب المقروءة[٩]، كما تبيَّن أن رحلته إلى الشام كانت عن تخطيط مسبق[١٠].

٥-رحلته إلى حلب: بقيت الرحلة إلى حلب أمنية ابن حجر، ولا سيما إلى محدثها برهان الدين سبط ابن العجمي (ت٨٤١هـ/١٤٣٧م)[١١]، ويبدو أن أخبار فظائع المغول حول حلب هي التي اضطرّته إلى ترك الرحلة إليها أول القرن التاسع الهجري، ولم تتحقق هذه الأمنية إلا في سنة٨٣٦هـ/١٤٣٢م حين قاد السلطان الأشرف برسباي حملة عسكرية ضد التركمان فيها، واصطحب السلطان القضاة الأربعة والخليفة ومنهم ابن حجر قاضي قضاة الشافعية.

لم تخل طريق سفره عن بحث أو سماع حديث أو كتابة نظم عن أحد القضاة الأربعة وكانوا رفقة[١٢]، وقد عقد مجلس الإملاء في الجامع الأموي بدمشق بحضور محدث الديار الشامية
ابن ناصر الدين الدمشقي (ت٨٤٢هـ/١٤٣٨م)[١٣]، وفقيهها ابن قاضي شهبة (ت٨٥١هـ/١٤٤٧م)[١٤] وجمع وافر من

---

[١] الجواهر والدرر، ص١٦١.
[٢] يفسر هذا الطموح والاشتياق والاستعداد ما حكاه عن نفسه أنه شرب ماء زمزم ثلاث مرات، في المرة الأولى شربه لينال مرتبة الحافظ الذهبي، وفي الثانية لكي يكتب الفتوى من رأس القلم كشيخه البلقيني، ونالهما، ولم يذكر الثالثة. السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٦٦.
[٣] المصدر السابق، ص١٦٧.
[٤] المصدر السابق، ص١٧٠.
[٥] المصدر السابق، ص١٧١-١٧٤؛ وابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص١٥٨-١٥٩.
[٦] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٧٨-١٨٠.
[٧] المصدر السابق، ص١٦٩.
[٨] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص١٥٥، ١٦٩،
[٩] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٢ ص٤٢٩، ٤٣٤.
[١٠] فقد عزم للرحلة إلى بيت المقدس ليروي عن العلائي غير أنه أخبر وهو في الرملة أنه قد توفي، كما قرر وهو بدمشق الرحلة إلى حلب للرواية عن مسندها عمر بن إيدغمش، فبلغه وفاته أيضا. السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٧٦.
[١١] المصدر السابق، ص١٨٣. والبرهان ابن العجمي هو إبراهيم بن محمد بن خليل، برهان الدين الطرابلسي ثم الحلبي، المحدث، رحل إلى البلدان ومنها القاهرة وسمع على أبرز شيوخ ابن حجر بها، وله مؤلفات عديدة، وكانت بينه وبين ابن حجر مكاتبات. والتقاه في الرحلة إلى حلب وسمع منه المسلسل بالأولية. ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٣ ص٩- ١٥.
[١٢] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٧٦.
[١٣] محمد بن أبي بكر عبد الله بن محمد ناصر الدين، سمع من شيوخ ابن حجر وممن ماتوا قبل رحلته إلى دمشق، فصار محدث الشام، وشارك في العلوم الأخرى، وصنف تصانيف حسنة، وسمع المنتقى من مسند الحارث من ابن حجر، وهو أجاز له. ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٣ ص٢٨٥-٢٨٩.
[١٤] أبو بكر بن أحمد بن محمد، تقي الدين الأسدي الشهبي الدمشقي، الفقيه المؤرخ، له الإعلام بتاريخ الإسلام، ومناقب الشافعي، وطبقات النحاة واللغويين، ومدارس دمشق وحماماتها. السخاوي، الضوء اللامع، ج١١ ص٢١؛ والزركلي، الأعلام، ج٢ ص٦١.

الفضلاء والعلماء[١].

لما وصل حلب نزل لدى قاضي الشافعية علاء الدين ابن خطيب الناصرية (ت٨٤٣هـ/١٤٣٩م)[٢]، وأقام بها ١٥ يوما، وفيها طالع تاريخ حلب للقاضي علاء الدين رغم أنه لم يكن قد بيّضه كاملا، وكان مصدره الرئيس عن حلب وعلمائها[٣]، ورغم أنه ذكر أن سبب رحلته إلى حلب هو حب اللقاء لمحدثها ابن العجمي[٤]، إلا أنه لم يرو عنه إلا شيئا يسيرا لم يكن ذا أهمية[٥]؛ الأمر الذي يشير إلى أن هذه الرحلة كانت خليطا من طلب العلم والترويح على النفس بلقاء أهل العلم والتباحث معهم، وبحكم رتبة ابن حجر في العلم فقد كانت مزيجا من الأخذ والعطاء فقد كان يحدث ويبحث ويروي ويسمع ويكتب، ويطالع[٦]. كما طاف ظاهر حلب من القرى وكان له نشاط علمي فيها، ومنها البيرة[٧] وعينتاب[٨] وخضر[٩] والسحلولية[١٠] وجبرين[١١] والباب وبزاعة[١٢] وسربس[١٣] وظاهر النبك[١٤].

غادر حلب مع السلطان وجيشه في ٧ ذي الحجة[١٥] ومروا على دمشق وفيها في ٢٢ذي الحجة استدعى بالمسندة عائشة الشرائحية (ت٨٤٢هـ/١٤٣٨م) أخت آي ملك المتقدمة، وأكرمها وأجلسها على بساطه الذي يصلي عليه، وسمع عليها[١٦]، وأمّ بالسلطان في الجامع الأموي بدمشق في يوم الجمعة ٢٧ ذي الحجة/ ١٣أغسطس١٤٣٣م، ثم خرجوا يوم السبت ٢٨ذي الحجة[١٧]، وبيَّن في بلاد الشام فسادَ ما بثه فيها بعض المحدثين الكاذبين من أسانيد مختلقة[١٨]. وأودع فوائد هذه الرحلة ونوادرها في تذكرته التي أسماها (جلْب حلب) في نحو أربعة أجزاء[١٩]، وقد درّس في هذه الرحلة أشياء كثيرة رواية ودراية كما علق بخطه ما يزيد على مجلدين[٢٠].

وتتميز هذه الرحلة بأنها جاءت بعد شهرته في العالم الإسلامي وبعد تبوئه منصبَ القضاء بالديار المصرية وكثيرا من الوظائف التدريسية، وكان فيها معطيا للعلم أكثرَ منه آخذا؛ إذ صار معروفا في العالم الإسلامي حينها بعلمه وتحقيقه في علم الحديث. وبهذا يتضح أنه لم يتغير اتجاهه في الحديث، بل ختم رحلته هذه المتأخرة لتكون أيضا لصالح هذا العلم الذي أحبه ابن حجر حبا جما؛ وهو الأمر الذي وضح في كتاباته التاريخية التي سخرها لخدمته أيضا. كما يبدو أن تلك الجهود العلمية لم تكن جميعها من عمله ولكنها كانت نتيجة أعمال فريق كان يقوده ويديره.

---

[١] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٨١.

[٢] علي بن محمد بن سعد، الطائي الحلبي الشافعي، سمع على شيوخ مصر والشام ومنهم شيوخ ابن حجر نفسه، وسمع من فوائده، وهو علق عنه من كتابه تغليق التعليق، ولي قضاء حلب، واعتنى بتاريخها. ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٣ ص١٧٦-١٨٩.

[٣] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٥.

[٤] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٨٣.

[٥] المسلسل بالأولية، ومشيخة الفخر ابن البخاري تخريج ابن الظاهري. ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٣ ص١٥، والسخاوي، الجواهر والدرر، ص١٨٣-١٨٤.

[٦] مما حدث به: المحدث الفاصل بين الراوي والواعي للرامهرمزي، والحديث المسلسل بالأولية وغيرهما. ينظر السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٨٣-١٨٧.

[٧] المصدر السابق، ص١٨٦-١٨٧.

[٨] دخلها في عيد الفطر مع رفيقه في السفر وزميله قاضي الحنفية البدر العينتابي، وسمع عليه أحاديث فيها. المصدر السابق، ص١٨٧.

[٩] وهي زاوية معروفة سمع بها في ٦ شوال حكاية عن الشرف يحيى بن أحمد ابن العطار الموقع. السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٨٩.

[١٠] سمع بها في ١١ شوال عن برهان الدين إبراهيم بن علي بن ناصر الدمياطي، وهو كتب عن ابن حجر أبياتا للعلامة البلقيني. السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٨٩.

[١١] قرية في شرقي حلب. وقد قرئ بها في ١٧ شوال عليه وعلى ابن خطيب الناصرية كتاب الأربعين لابن المحبر. السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٨٨.

[١٢] سمع بهما شيئا عن شهاب الدين أحمد بن أبي بكر بن أحمد بن الرسام. السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٨٩.

[١٣] سمع بها في ٢٤ ذي القعدة بقراءة رفيقه ابن المهندس على الزين عمر بن السفاح كاتب سر حلب حينئذ. السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٨٩.

[١٤] سمع بها من لفظ نقيبه شهاب الدين أحمد بن يعقوب بسماعه عن شيخه العراقي. السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٨٩.

[١٥] المصدر السابق، ص١٩٠.

[١٦] المصدر السابق، ص١٨٢.

[١٧] المصدر السابق، ص١٩٠.

[١٨] المصدر السابق، ص١٩٠-١٩١.

[١٩] المصدر السابق، ص١٧٧.

[٢٠] منها أنه انتقى من شرح البخاري لبرهان الدين الحلبي ما يقارب المجلد، وانتقى التدوين في تاريخ قزوين للرافعي، وانتقى زوائد الألغاز للغزي، ولخص ثبت البرهان الحلبي، وطالع تاريخ علاء الدين ابن خطيب الناصرية. السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٩٠.

٤- رحلته إلى اليمن

لكون اليمن وطن الباحث، وهي التي لا زالت بحاجة إلى بحوث كثيرة تكشف علاقتها بالعلم والعلماء فإن هذا كان مسوِّغا لبحث علاقة ابن حجر علميا بها بشكل متعمّق.

كان لابن حجر رحلتان إلى اليمن، إحداهما في سنة ٨٠٠هـ والأخرى في سنة ٨٠٦هـ، ففي يوم الخميس ١٢ شوال سنة٨٠٠هـ/ ٢يوليو١٣٩٨م غادر ابن حجر القاهرة متوجها نحو الحجاز في طريقه إلى اليمن مرافقا صاحبه صلاح الدين خليل بن محمد الأقفهسي (ت٨٢٠هـ/١٤١٧م)، وأبا بكر بن أبي المعالي الناشري اليمني (ت٨٢١هـ/١٤١٨م)[١]، ووصل الطور يوم الأحد ٢ ذي القعدة ولقي هناك نجم الدين محمد بن أبي بكر المكي المرجاني (٨٢٧هـ/١٤٢٣م)، وفيها تناولوا الألغاز والفوائد العلمية والأدبية[٢].

وصل هو ورفيقه الناشري في ربيع الأول سنة٨٠٠هـ/ ديسمبر١٣٩٧م إلى مدينة زبيد، ولقي بها جماعة من الفضلاء والعلماء، واجتمع بالفقيه البارع أحمد بن أبي بكر الناشري (ت٨١٥هـ/١٤١٢م) واستفاد منه، وكانت رئاسة العلم قد انتهت إليه، وقد تعصّب عليه الصوفية من أهل زبيد أتباع ابن عربي[٣] وهو ردّ عليهم[٤]، ولقي الشرف إسماعيل بن محمد بن أبي بكر المقري (ت٨٣٧هـ/١٤٣٣م)[٥]، صاحب كتاب (عنوان الشرف الوافي)[٦]، وكان ماهرا في الفقه والعربية، واستفاد منه ابن حجر الكثير، وطارحه شعرا، وسمع هو منه مختصر ديوان شعره، وأحسن السفارة له في الرحلتين إلى السلطانين الرسوليين، وهما الأشرف الثاني إسماعيل بن الأفضل العباس (ت٨٠٣هـ/١٤٠٠م)، والناصر أحمد بن الأشرف إسماعيل (ت٨٢٧هـ/ ١٤٢٣م)، وقد أعجب ابن حجر بشعر المقري[٧]، ولعل القرب الثقافي بين الرجلين وكراهتهما لتصوف ابن عربي الذي كان ينتشر في كل من القاهرة واليمن هو ما متّن العلاقة بينهما.

كما لقي في زبيد القاضي وجيه الدين عبد الرحمن بن محمد بن يوسف العلوي (ت٨٠٣هـ/١٤٠٠م)[٨]، وسمع من من فوائده، وناوله بديعيته التي عارض بها صفي الدين الحلي[٩] فكتب عليها شيئا، والعلوي هذا من رجال الأشرف الثاني[١٠]، كما لقي وزير الأشرف الطبيب حسين بن علي الفارقي الزبيدي (ت٨٠١هـ/١٣٩٨م)[١١]، وسمع من فوائد أحد أئمة العربية باليمن وهو عبد اللطيف بن أبي بكر الشرجي الحنفي (ت٨٠٢هـ/١٣٩٩م)، وسمع هو عليه شيئا

---

[١] كانت وجهة الأول مكة للمجاورة بها، وكان الثاني عائدا من سفارته في مصر للسلطان الرسولي.

[٢] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٣ ص٩٨-٩٩؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص١٤٦-١٤٧.

[٣] احتدم في اليمن صراع بين الفقهاء والصوفية أتباع ابن عربي الطائي (ت٦٢٦هـ) أصحاب التصوف الفلسفي، والذين اتهموا بالقول بوحدة الوجود (وحدة وجود الخالق والمخلوق)، والقول بقدم العالم، ونفي علم الله بالجزئيات، وإنكار بعث الأجساد وعذاب الكفار، وتعتبر المدة الواقعة بين سنتي ٧٧٨هـ/١٣٧٦م و ٨٢٧هـ/١٤٢٣م هي المدة التي علت فيها قوة الصوفية؛ لميل السلطان الأشرف الثاني إليهم، وتولية الناصر الرسولي أكبر شيوخهم وهو أحمد بن أبي بكر الرداد (٨٢١هـ/١٤١٨م) قضاء الأقضية سنة ٨١٧هـ/١٤١٤م، فضايق الفقهاء المعارضين له. الأهدل: الحسين بن عبدالرحمن، (ت٨٥٥هـ)، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن، ت. عبدالله محمد الحبشي، أبو ظبي، المجمع الثقافي، ١٤٢٥هـ، ج٢ ص٧٠-٧١؛ والحبشي: عبد الله محمد، الصوفية والفقهاء في اليمن ، صنعاء، مكتبة الجيل الجديد، ١٣٩٦هـ -١٩٧٦م ، ص٤٦.

[٤] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٣ ص٣٠-٣١.

[٥] لقيه في الرحلتين سنة ٨٠٠هـ وسنة ٨٠٦هـ. ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٣ ص٨٦.

[٦] اسمه الكامل (عنوان الشرف الوافي في الفقه والتاريخ والنحو والعروض والقوافي)، طبع طبعات كثيرة، وهو كتاب بديع الترتيب وعجيب البناء؛ فإذا قرأه القارئ كاملا وجده فقها على مذهب الشافعية، وإذا قرأ أوائل السطور فقط أو أواسطها فقط أو أواخرها فقط وجدها نحوا أوتاريخا أوعروضا.

[٧] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٣ ص٨٧-٨٨؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص١٤٧-١٤٨.

[٨] تشكك ابن حجر في أي العامين توفي أفي عام٨٠٣هـ أم في عام٨٠٤هـ، والمرجح ما جزم به المقريزي في درر العقود الفريدة، ج٢ ص٣٧٨ وهو عام٨٠٣هـ.

[٩] اسمها الجوهر الرفيع ودوحة المعاني في معرفة أنواع البديع ومدح النبي العدناني. السخاوي، الجواهر والدرر، ص٧٢٣. والحلي هو صفي الدين عبد العزيز بن سرايا الحلي العراقي (ت٧٥٠هـ)، من أعلام الشعر في القرن الثامن الهجري، زار القاهرة، والتقى كبار أدبائها. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣٦٩-٣٧٠.

[١٠] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٣ ص١٦١-١٦٢؛ والخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج٢ ص٢٤٢، ٢٥٨، ٢٦٣، ٢٧١؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص١٤٨، ٧٢٣.

[١١] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٧٠.

من الحديث[١]، ولقي المؤرخ الخزرجي علي بن الحسن (ت٨١٢هـ/١٤٠٩م) وطارحه الخزرجي برسالة أدبية[٢]، وسمع من نظْمِ شاعر اليمن في عصره علي بن محمد بن إسماعيل الناشري (ت٨١٢هـ/١٤٠٩م)، وكان شاعرا مجيدا يقترحون عليه الموضوعات فيأتي لها بأشعار على أحسن وجه[٣]، وسمع أيضا من فوائد أحمد بن عبداللطيف عبداللطيف بن أبي بكر الشرجي الزبيدي (ت٨١٢هـ/١٤٠٩م)، وكان قد مهر في العربية، ودرّس في مدارس زبيد، وله تأليف في النجوم، كما أن الشرجي سمع عليه شيئا من الحديث[٤].

اطّلع ابن حجر على مشهد من تاريخ التصوف لأهل مدينة زبيد؛ إذ لقي الشيخ إسماعيل بن إبراهيم الجبرتي المكي (ت٨٠٦هـ/١٤٠٣م)، واجتمع به ووجده صوفيا اتحاديا بوعيٍ وفهمٍ منه لتلك المقالة، وكان له اعتقاد عند أهل زبيد، وعند السلطان الأشرف، وكان داعية لمذهب ابن عربي، وكانٍ بيته مجمعا لأهل الذكر والعبادة ولأهل الرقص والسماع ولأهل الحاجات، وكان يعادي من من لم يحصل على نسخة من كتاب (الفصوص) لابن عربي[٥].

كما لقي تلميذه القاضي شهاب الدين أحمد بن أبي بكر بن محمد الرداد التيمي المكي ثم الزبيدي (ت٨٢١هـ/ ١٤١٨م)، الذي دخل اليمن ومال نحو القول بتصوف الفلاسفة (ابن عربي)، وسمع ابن حجر من فوائده ونظمه، كما سمع هو الآخر منه جزءا في الحديث، وكان الردّاد داعية إلى التصوف الفلسفي، و"أفسد عقائد أهل زبيد" ـــ على حد قول ابن حجر-، ونظمه وشعره ينعق بالاتحاد، وكان المنشدون يحفظون أشعاره تقربا إليه، ورغم أن سيماء العبادة على وجهه إلا أنه كان يوافق السلطان على شهواته، ولا يتعاطى معه شيئا من المسكرات، وقد طلب القضاء بعد ذلك لنفسه خوفا من تولية الفقيه الناشري الذي كان يواجه الصوفية، فاستغل الردّاد منصبه لإقصاء خصومه من الفقهاء والانتقام منهم لكنه أيضا عوجل بالموت[٦].

وفي زبيد وفي وادي الحُصَيب القريب منها جنوبا لقي أبرز العلماء وهو إمام اللغة بلا مدافع القاضي مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي الفيروزآبادي (ت٨١٧هـ)، وقرأ عليه في (القاموس المحيط) تأليفه، وناوله البقية مجيزا إياه إجازة عامة، وسمع منه أجزاء من الحديث، وكتب له تقريظا على بعض تخريجاته، ووجده منكرا لفلسفة التصوف إلا أنه كان يداهن أهل القول بها في زبيد بخلاف الفقيه الناشري المصارِح لهم، كما وجده مصدّقا أكذوبة رتن الهندي[٧] مستنكرا إنكار الذهبي لها[٨].

ولقي أيضا جمال الدين محمد بن أبي بكر المصري ثم المكي أخو نجم الدين المرجاني السابق (ت٨٢٠هـ/١٤١٧م) وكان قد اتصل بالملك الأشرف وحظي لديه وولي بعض الولايات فكان ملجأ للقاصدين إلى اليمن لا سيما من الحجازيين يسفِر لهم لدى السلطان ويعينهم، وقد لقيه ابن حجر مرارا وسمع منه قليلا[٩].

والتقى في زبيد في النخل منها سنة٨٠٠هـ/١٣٩٧م محدث اليمن الموصوف بأنه إمام أهل السنة في اليمن، نفيس الدين سليمان بن إبراهيم بن عمر العلوي الحنفي (ت٨٢٥هـ/١٤٢١م)، وأعجبه حرصه على طلب الحديث،

---

[١] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٣ ص١٦٧؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص١٢١-١٢٢.
[٢] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٣ ص١٨١-١٨٢؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص٤٤١.
[٣] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٣ ص١٨٦؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص٤٤١-٤٤٢.
[٤] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٤٣٧.
[٥] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٣ ص٨٣- ٨٥؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص٢٢٤.
[٦] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٣ ص٢٩ ـــ ٣٠؛ وإنباء الغمر، ج٣ ص١٧٧- ١٧٨.
[٧] رجل هندي ادعى أنه من صحابة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأنه طال به العمر حتى أدرك القرن السادس الهجري، وقد أحسن ابن حجر حين أنكر هذه الخرافة بتاتا مستندا إلى حديث صح لديه، وحمل رواية الفيروآبادي أنه رآه في قرية في الهند وأنه رأى خلقا يشهدون عن أسلافهم ما يصحح قصته على أنه طال به العمر فحسن لديه أن يدعي الصحبة، وله أحاديث غريبة، ولعل بعض المتصوفة بأفكارهم غير العقلانية المنتشرة في ذلك العصر هم من أشاعوا وجوده، وللأسف فقد مرّرها بعض المؤرخين اليمنيين، وانطلت على الإمام الفيروزآبادي وعلى المؤرخ الصفدي. ابن حجر: أحمد بن علي العسقلاني، (ت٨٥٢هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة، ت. علي البجاوي، ط١، بيروت، دار الجيل، ١٤١٢هـ، ج٢ ص٥٢٣- ٥٣٨.
[٨] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٢ ص٥٤٧-٥٥٣؛ وإنباء الغمر، ج٣ ص٤٧- ٥٠.
[٩] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٣ ص٢٩٨-٢٩٩.

وسمع عليه ابن حجر جزءا خرّجه لنفسه، وسمع هو وأبوه إبراهيم بن عمر، ويحيى بن محمد بن أبي بكر بن قرط الحنفي عليه (المئة العشارية) التي خرجها لشيخه إبراهيم البعلي، كما سمع منه مشيخة في الحديث في تلك السنة. ثم لقيه في الرحلة الثانية بتعز وقد اتخذها مقاما لإسماع الأحاديث، هذا وقد مر العلوي على البخاري أكثر من ١٥٠ مرة ما بين قراءة وإسماع[١].

وفي تعز لقي أيضا الفقيه القاضي أبابكر بن محمد بن صالح، ابن الخياط الشافعي (ت٨١١هـ/١٤٠٩م) وكان قد مهر في الفقه وشارك في غيره من العلوم، ودرس في بعض مدارس تعز، وله أجوبة على مسائل شتى، وولي القضاء مكرها مدة ثم استعفى، وقد سمع ابن حجر من فوائده[٢]، وطارحه هناك البرهان إسماعيل بن إبراهيم الجحافي بقصيدة امتدحه بها وهنأه بالسلامة، فأجاب عليه ابن حجر، ثم عاوده بقصيدة ثانية عشية خروجه من تعز إلى عدن[٣].

وفي عدن سمع الحديث عن عبدالرحمن بن حيدر بن أبي بكر الشيرازي الدقهلي المصري التاجر (ت٨١٧هـ/١٤١٤م) وأجاز له، بعد أن كان قد حدثه في زبيد عن ست العرب بنت محمد ابن الفخر[٤]، كما لقي أبابكر بن يوسف بن أبي الفتح العدني، رضي الدين ابن المستأذن (ت٨١٦هـ/١٤١٣م) وكان قد قدم القاهرة وقرأ على بعض شيوخ ابن حجر فيها، وعني بالأدب ومهر في القراءات، وكان خطيب جامع عدن، وسمع من نظمه، وهو سمع من ابن حجر كثيرا، غير أنه وصفه بأنه "لم ينجُب"، وفي موضع آخر رواية عن بعض أصحابه أنه كان "كثير المجازفة"[٥]، كما حدّث في هذه السنة بكتابه (تخريج الأبعين النووية بالأسانيد العلية)[٦]. كما لقي ترحابا كبيرا من صديق خاله وهو علي بن يحيى الطائي الصعدي الزيدي (ت٨٠٣هـ/١٤٠٠م)، المفوّض إليه أمر عدن من قبل السلطان الرسولي[٧].

سفر لابن حجر - كما تقدم الفقيه - شرف الدين المقري إلى السلطان الأشرف الثاني فدخل عليه ابن حجر ومدحه بقصيدة فأثابه عليها، وفي ديوانه أربع قصائد ملوكية مدحه بها، بالغ فيها بكرم الأشرف وإغداقه عليه[٨]، وكان قد وصفه بأنه كان طائشا في أول أمره ثم أقبل على العلم وجمع الكتب، وأنه كان يكرم الغرباء ويجزل لهم العطاء، وأهدى إليه نسخة فريدة من كتاب (خريدة القصر)[٩] فأثابه عليها ثوابا جزيلا، كما أهدى إليه تذكرته الأدبية الأدبية وكانت في أربعين مجلدا لطافا، وكان السلطان محبا لجمع الكتب[١٠].

وفي اليمن خرّج ابن حجر لنفسه من مروياته (الأربعين المهذبة بالأحاديث الملقبة) تلبية لطلب النفيس العلوي المحدث، ونسخ لنفسه (التقييد)[١١] في خمسة أيام، وحدث بكتاب (الحصن الحصين) في الأدعية والذكر لابن الجزري (ت٨٣٩هـ/١٤٣٥م)، وبذلك روّج له قبل دخول مصنفه[١٢]، وكانت له تذكرة يدوّن فيها فوائده الأدبية، وربما كانت هي تلك التي أهداها للسلطان الرسولي[١٣].

---

[١] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٣ ص١١٥- ١١٦؛ وإنباء الغمر، ج٣ ص٢٨٤؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص١٠٩٣، ١١٧٣.
[٢] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٣ ص٩٩؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص٤٠٨؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص١٤٧.
[٣] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٧٨٣- ٧٨٧.
[٤] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٣ ص١٤٨-١٤٩؛ وإنباء الغمر، ج٣ ص٤٤.
[٥] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٣ ص١٠١، وإنباء الغمر، ج٣ ص٢٣.
[٦] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٦٦٧.
[٧] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص١٦٥- ١٦٦.
[٨] ابن حجر: أحمد بن علي العسقلاني، (ت٨٥٢هـ)، ديوان ابن حجر العسقلاني ، ت. السيد أبو الفضل، حيدر أباد، ١٣٨١هـ - ١٩٦٢م، ص٣٨،٣٩، ٤٠، ٤٢. ٤٢.
[٩] خريدة القصر وجريدة أهل العصر لعماد الدين محمد بن محمد الكاتب الأصفهاني (ت٥٥٧هـ) في الأدب.
[١٠] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص١٥٨؛ والدرر الكامنة، ج٢ ص٣٦٥؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص١٥٢.
[١١] التقييد لمعرفة رواة السنن والأسانيد تأليف الحافظ محمد بن عبد الغني المعروف بابن نقطة الحنبلي (ت٦٢٩هـ). حاجي خليفة، كشف الظنون، مج١ ص٤٧٠.
[١٢] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٤٩.
[١٣] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٣ ص٩٨.

وكما تقدم فقد وصل زبيد بتاريخ ربيع الأول سنة٨٠٠هـ/ ديسمبر١٣٩٧م، ونجده في ربيع الثاني في تعز، وتوجه بعد ذلك إلى عدن[١]؛ الأمر الذي يشير إلى أنه غادر زبيد ولمّا يسمعْ كلَّ ما سمعه إلا بعد رجوعه من عدن، ويبدو أنه عاد إلى زبيد مبكرا ومكث فيها يسمع ويروي ويفيد ويستفيد[٢] حتى إذا جاء موسم الحج غادر اليمن من غير الطريق المعتادة للحجاج فسلم من العطش الذي أصاب الحجاج في تلك السنة[٣].

وبهذا تبيّن أنه عاد من اليمن وقد ازدادت معارفه، وانتشرت علومه ولطائفه، وتوثّقت صلاته، وانتشر صيته، ووصل إلى مكة وحج هذه السنة٨٠٠هـ/١٣٩٧م[٤].

وكانت رحلته الثانية إلى اليمن سنة٨٠٦هـ/١٤٠٣م بعد أن جاور بمكة بعضا منها، ولكنه في هذه المرة واجه متاعب جمّة فقد غرق المركب الذي كان يُقِله وغرقت فيه الأمتعة والكتب والنقود التي كان يحملها معه، وحاول استرداد ما أمكن استرداده منها على يد الماهرين في الغوص في البحر، فرجع معظم الكتب وصالحهم على مالٍ أجرة لهم، وأخذ عليه بعض الظلمة بعض النقود، ويشير السخاوي أن أموالا طائلة كانت معه تعود لأحد التجار وأعطاها إياه للتبضع[٥]؛ وهو ما يبين أن مهمة رحلة ابن حجر هذه لم تكن علمية خالصة بل كانت رحلة مزدوجة للتجارة وللعلم، وليس للتجارة لنفسه فقط بل حتى للآخرين، كما تشير إلى أهمية اليمن التجارية والعلمية آنذاك.

ويتبين من خلال قصيدته التي امتدح بها الناصر الرسولي أنه قد أصابه حزن شديد على ماله المنهوب والغريق، فيمّم وجهه نحو السلطان لينجده بجاهه، شاكيا ما كان قد نُهِبَ من مال في الشام عند غزو التيمورية، وما ناله من أمير مكة[٦]، ورغم اعتقاده انحراف الناصر[٧] إلا أنه اضطر للتزلف إليه بأنه أوعى الملوك هدى وأوهاهم عدى، ودعا له بالبقاء في العزة والسعادة. وهو ما يكشف عن نكبة كبيرة وقعت عليه اضطرّته لمثل هذا الخضوع لينال مما في يد السلطان الفاجر الجائر على حد قوله.

وكانت معه مجموعة من الكتب الحديثية وغرق بعضها كما تقدّم، واعتقد ابن حجر أن السبب في غرقه هذه المرة هو إصابته بـ(العين) من أحد رفقته، وكان قد دخل عليه ذات مرة وتعجب من كثرة ما في كتبه بخطه[٨]، وهو وهو ما يشير إلى الثقافة السائدة لدى مؤلفنا في مثل هذه الحوادث.

وقد أشار السخاوي[٩] إجمالا إلى أن ابن حجر قد لقي في اليمن في هذه الرحلة من لقيهم في الرحلة الأولى وغيرهم، وأنه حمل عنهم وحملوا عنه. غير أنه يمكن القول بأن الباحث لم يطلع على ما يبين مدة الرحلة ومسارها، غير إشارة واردة لدى السخاوي[١٠] أنه مكث في عدن قريبا من الثلاثة الأشهر.

نص ابن حجر على بعضهم أنه لقيهم في الرحلتين ومنهم النفيس العلوي، الذي لقيه كما يبدو في المرة الثانية في تعز، وهناك إشارات تدل على أن من لقيهم في المهجم[١١] أنه لقيهم في هذه الرحلة وليس في الأولى، وهم أحمد بن إبراهيم القوصي المصري ثم اليمني الذي نشأ باليمن وناب عن الشيخ مجد الدين الفيروآبادي في بعض بلدانها، وسمع عليه ابن حجر حديثا في البلدانيات، وحج معه سنة٨٠٦هـ/١٤٠٣م[١٢]، وعلي بن أحمد الصنعاني الذي أنشده

---

[١] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٧٨٣، ٧٨٧.
[٢] وهناك إشارة تقول إنه كان في شعبان وعيد الفطر سنة ٨٠٠هـ موجودا في زبيد. السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٠٩٣.
[٣] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص١٢٦.
[٤] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج١ ص٥٤٠؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص١٥٠.
[٥] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٥١-١٥٢.
[٦] ابن حجر: أحمد بن علي العسقلاني، (ت٨٥٢هـ)، الديوان، ت: السيد أبو الفضل، حيدر أباد، ١٣٨١هـ - ١٩٦٢م، ص٤٣-٤٤، ٤٦، ٤٧، ٤٨.
[٧] وصفه بأنه كان جائرا فاجرا. إنباء الغمر، ج٣ ص٣٣١.
[٨] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٥١.
[٩] المصدر السابق، ص١٥١.
[١٠] المصدر السابق، ص١١٤٧.
[١١]مدينة تهامية إلى الشرق من مدينة الزيدية، كانت عاصمة تهامة الشمالية، جدّد المظفر الرسولي جامعها الكبير سنة٦٤٧هـ. المقحفي: إبراهيم أحمد، معجم البلدان والقبائل اليمنية، ط٤، صنعاء، دار الكلمة، وبيروت، المؤسسة الجامعية، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م، ج٢ ص١٦٧١.
[١٢] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٣ ص٢١؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص١٤٨.

قصيدة رثى بها إبراهيم بن عمر بن علي، برهان الدين المحلي التاجر، وذكر فيها ولده شهاب الدين، وقد مات في تلك السنة سنة٨٠٦هـ/١٤٠٣م[١].

كما لقي سنة٨٠٦هـ/١٤٠٣م بعدن تلميذه الشيخ محمد بن عبدالرحيم بن عبدالكريم، عفيف الدين بن الشرف الجرهي الشيرازي (ت٨٣٩هـ/١٤٣٥م)، وأقرأه (مسند الشافعي)[٢] و(البردة)[٣]، و(الأربعين النووية)[٤]، ولازمه ثلاثة أشهر هناك، ثم لقيه في مكة سنة ٨١٥هـ/١٤١٢م فقرأ عليه (المناسك) للعلامة تقي الدين الجراحي[٥]، و(تخريج الأربعين النووية)[٦]، واليسير من (الموطأ) والكتب الستة و(الترغيب والترهيب) للحافظ المنذري (ت٦٥٦هـ/١٢٥٨م)[٧].

ما يجدر ذكره أن ابن حجر في هذه المرة ابتدأ جمع كتابه (المجمع المؤسس للمعجم المفهرس) في عدن، رغم أنه ذكر أنه أكمل مسودة الجزء الأول وبيّضها سنة٨١٩هـ/١٤١٦م في القاهرة، ثم ذكر في آخر الكتاب أنه فرغ منه سنة٨٢٩هـ/١٤٢٥م، ثم ألحق به أنه فرغ منه في سنة٨٣٢هـ/١٤٢٨م[٨]. ويبدو بالشروع في تأليفه في عدن أنه أنه أحس مقاربته لاستيعاب كل شيوخه الذين طمح في اللقاء بهم في العالم الإسلامي، ويشير إلى أن بيئة عدن كانت بيئة علمية مشجعة على التأليف والتصنيف.

وبهذا يتبين أن ابن حجر أفاد من رحلته إلى اليمن لقاء أبرز شيوخها من العلماء والذين كانوا في المهجم وزبيد وتعز وعدن، وعلى رأسهم إمام اللغة المجد الشيرازي، والمحدث النفيس العلوي، والشاعر الفقيه أبو بكر المقري، والفقيه الخياط، واطّلع عن كثَب على مجمَل الوضع العلمي والاجتماعي والسياسي في اليمن، وكان لهذا أثره الواضح في نضج كتاباته التاريخية عن اليمن، وعن حياة العلم بها، وعن مذاهبها، وربطته علاقات جيدة بحكامه من آل رسول، واكتسب شعبية كبيرة لديه جعلتهم ينتظرون قدومه لتوليته القضاء لمدة سنتين، ويظهر أن اليمن كانت بيئة مناسبة للتأليف، فقد أنجز فيها بعض الرسائل والتخريجات، وتفتّقت قريحته عن الشروع في كتابه (المجمع المؤسس)، وهو من أهم كتبه التاريخية التي تعنى بالحديث، كما تتلمذ على شيوخ الحديث، وعقد بنفسه حلقات العلم في اليمن حيثما حل في مدنها، وقرأ عليه بعض الطلاب كتبا وأجزاء، بعضها من تأليفه، وبعضها من تأليف غيره، خلا تلك المناقشات والمطارحات الأدبية التي كان يتناولها مع العلماء أينما وجدهم.

ويتضح أنه كان يسير في ذات الاتجاه الذي استأثر به وهو الاتجاه الحديثي؛ إذ يتضاءل معه أي نشاط لاتجاه آخر في اليمن سوى الأدب وإن بصورة ثانوية، ويبدو أنه كان يعلم أن اليمن لم تكن من البلدان التي تكتنز في طياتها أحاديث أكثر مما في مصر والشام، ولكنه أراد الاستقصاء، ويترجّح أنه كان له غرض آخر في هذه الرحلة وهو الغرض المادي التجاري، ومع ذلك فيبدو أن نشاطه العلمي بصورة عامة كان مقيدا وذلك بسبب قلة المرويات الحديثية في اليمن، ثم لسيطرة الصوفية الفلسفية (أتباع ابن عربي) على الوضع الثقافي وهو الذي أبدى

---

[١] توهم الباحث محمد كمال الدين في التاريخ والمنهج التاريخي، ص١٢٣ أن الصنعاني توفي سنة ٨٠٦هـ، والواقع أنه لا تاريخ لوفاة ورد لدى مصدره ابن حجر في المجمع ولا السخاوي في الضوء اللامع يشير إلى ذلك، والتاريخ الذي جاء في تلك الترجمة هو تاريخ لقاء ابن حجر بالصنعاني ووفاة شهاب الدين ابن التاجر برهان الدين المحلي فقط. ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٣ ص١٧٧؛ والسخاوي، الضوء اللامع، ج٥ ص١٩١، وليس فيه شيء زيادة على ما في المجمع المؤسس.

[٢] هو مسند الإمام محمد بن إدريس الشافعي (ت٢٠٤هـ). مطبوع.

[٣] هي القصيدة الموسومة بـ(الكواكب الدرية في مدح خير البرية) للشيخ شرف الدين محمد بن سعيد البوصيري (ت٦٩٤هـ) مطلعها: أمن تذكر جيران بذي سلم ... مزجت دمعا جرى من مقلة بدم.

[٤] هي أربعون حديثا اشتملت على مجالات مختلفة من الدين، اختارها الحافظ يحيى بن زكريا النووي الشافعي (ت٦٧٦هـ)، وقد حظيت بالشروح والتخاريج، ومنها تخريج ابن حجر العسقلاني. حاجي خليفة، كشف الظنون، مج١ ص٥٩- ٦٠.

[٥] لم أعرفه.

[٦] لابن حجر نفسه. حاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ص١٠٣٩.

[٧] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١١٤٧.

[٨] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٢ ص٥٨٢، مج٣ ص٣٦٩.

كراهته إياهم منذ صغره، وربما شغله أيضا الجانب التجاري في رحلاته، ولعل الفارق المذهبي هو ما حمله على تجنب الوصول إلى المراكز الزيدية كصنعاء وصعدة، وبما أن وجهته حديثية فسوف لن يجد بغيته هذه لديهم بالتأكيد، بخلاف المؤرخ ابن عبد المجيد اليماني (ت٧٤٤هـ/١٣٤٣م)[١]، الذي وصل صنعاء حاضرة الزيدية حينذاك، وحمل معه (تلخيص المفتاح) للقزويني إلى علمائها[٢].

ومهما يكن من أمر فقد ظل اليمنيون يحتفظون بالذكرى الحسنة له، ويطلبونه قاضيا لهم، وبلغت وجاهته الاجتماعية عندهم شيئا جعل سلطان مصر يطلب منه أن يَسْفِر له إليهم، وكانت كتبه محط اهتمامهم، واعتنى حتى حكامهم بتحصيلها، وعلماؤهم بنقاشِ ما فيها[٣].

٥- تلامذته

تتلمذ عليه وتخرج به كثير من أعلام الجيل اللاحق لجيله، وقد عد السخاوي أكثر من ٦٠٠ تلميذ اطلع على تتلمذهم عليه من خلال مصادر كثيرة من بينها اطلاعه على إجازات الشيخ ابن حجر لهم، ووصفه إياهم[٤]، معترفا أنه لم يستوعب إحصاءهم؛ لأن من كانوا يحضرون مجالسه العلمية يصعب حصرهم لكثرتهم[٥]، ومع ذلك فقد عد من تلامذته من إذا سمع منه ولو جزءا حديثيا[٦]، وما يجدر ذكره أنه لا يكاد بلد يدخل فيه ابن حجر إلا ويتتلمذ عليه عليه من أهله أعلامه، وقد مر لنا تلامذته في اليمن، ويبدو أنهم كانوا من فئات مجتمعية مختلفة فلم يكونوا فقط من الطلاب المتخصصين بالعلم[٧]، كما يبدو أن هناك حرصا على توثيق كل من حضره أو سمعه، طبقا لثقافة الاستكثار الكمي السائدة في الشيوخ وفي التلامذة وفي التأليفات، وهنا أبرز تلامذته:

١-برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد بن ظهيرة القرشي المكي الشافعي (ت٨٩١هـ/١٤٨٦م) العلامة قاضي مكة، قدم القاهرة وقرأ عليه نحو النصف الأول من (شرح النخبة) له[٨]، وقطعة من ربع النكاح (الحاوي الصغير) قراءة بحث وإتقان، وأذن له في التدريس، وقد أعجب به ابن حجر وبحسن بحثه وأشاد بتواضعه[٩].

٢-برهان الدين إبراهيم بن عمر الخرباوي البقاعي، أبو الحسن (ت٨٨٥هـ/١٤٨٠م) "قرأ عليه من تصانيفه وغيرها شيئا كثيرا، وسافر معه إلى حلب" سنة٨٣٦هـ/١٤٣٢م ولازمه حتى مات، وقد ترجمه السخاوي في الضوء اللامع ترجمة متحاملة، ووصفه بقلة العلم متهما إياه أنه يدعي التصنيف والعلم، وأنه لا يبلغ أن يكون من العلماء، وطوّل في إيراد ما ادعاها معايب له مدعيا أن كتبه شاهدة على ذلك، غير أن الشوكاني انتصف له، وأبان أنه من أئمة العلم وأن كتبه شاهدة على سعة علومه وإتقانه للمعقول منها والمنقول ولا سيما كتابه في التفسير، وأرجع ما وقع بينه وبين السخاوي إلى حسد الأقران وتنافسهم على الدنيا، ومما يرُدُّ على السخاوي قوله أنه اعترف أن ابن حجر كتب له تقاريظ على تصانيفه، وأنه هو والسخاوي من طلبته التسعة الذين أوصى لهم بمال

---

[١] تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد المخزومي المكي (ت٧٤٤هـ)، مؤرخ، عمل باليمن كاتبا للدرج، ثم وزيرا، وقدم مصر وولي بها التدريس بالمشهد النفيسي وشهد على البيمارستان. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣١٥.

[٢] ابن أبي الرجال: أحمد بن صالح، (ت١٠٩٢هـ)، مطلع البدور ومجمع البحور، ت.عبد الرقيب حجر، ط١، صعدة، مركز أهل البيت للدراسات الإسلامية، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، ج٤ ص٤٢٠.

[٣] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٦٥٢- ٦٥٣، ٦٨٩؛ والشوكاني: محمد بن علي، (ت١٢٥٠هـ)، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، ج١ ص٣٠٩.

[٤] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١١٦٤- ١١٧٩.

[٥] المصدر السابق، ص١١٧٩.

[٦] المصدر السابق، ص١٠٧٠.

[٧] المصدر السابق، ص١٠٦٩-١٠٧٠.

[٨] في مصطلح الحديث.

[٩] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٠٦٦.

يُفَرَّق بينهم لتفوقهم في الحديث، ويبدو أن تحرر البقاعي عن التقليد وحملته على مخالفه في الرأي وتصميمه على ذلك هو ما سبب له كثرة المتاعب التي واجهها في حياته، وقد ألف مؤلفات تاريخية وفقهية[١].

٣- شهاب الدين أحمد بن محمد بن صدقة، الدلجي، عالم الصعيد في عصر السخاوي[٢].

٤- تقي الدين أحمد بن محمد بن محمد، الشمني الحنفي (ت٨٧٢هـ/١٤٦٧م) شيخ العصر، لازمه قديما وأخذ عنه في مصطلح الحديث، وأثنى عليه ابن حجر ووصفه بـ"الإمام مفتي المسلمين"[٣]، وله مؤلفات منها (شرح المغني) لابن هشام، و(مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء)[٤].

٥-زين الدين رضوان بن محمد بن يوسف، الشيخ العقبي (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، قرأ عليه كثيرا من تصانيفه، "واستملى عليه من سنة٨٢٧هـ/١٤٢٣م حتى مات"، وكان هذا الطالب "يراجعه ما يقرؤه على الشيوخ الآخرين"، ووصفه ابن حجر بأنه "أمثل من تخرج على طريقة طلب الحديث"[٥].

٦-زين الدين زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا، الشيخ العلامة الأنصاري السنيكي ثم الأزهري (ت٩٢٦هـ/١٥١٩م)، الذي أصبح قاضي قضاة الشافعية في مصر سنة٨٨٦هـ، "قرأ عليه (بلوغ المرام)، و(شرح النخبة) من مؤلفاته، والكثير من (شرح الألفية) للعراقي، ومن (علوم الحديث) لابن الصلاح[٦]، كما قرأ عليه السيرة السيرة النبوية لابن سيد الناس[٧]، ومعظم (سنن ابن ماجه)"[٨].

٧-تقي الدين عبدالرحمن بن أحمد بن إسماعيل القلقشندي (ت٨٧١هـ/١٤٦٦م)، لازمه وقرأ عليه جملة من تصانيفه وغيرها، ووصفه شيخه بالشيخ الفاضل المحدث البارع، وهو أحد الطلبة التسعة الذي أوصى لهم ابن حجر بمال يُفَرَّق فيهم[٩].

٨-فخر الدين عثمان بن محمد بن عثمان، الشيخ أبو عثمان الديمي الأزهري (ت٩٠٨هـ/١٥٠٢م)، قرأ عليه بعضا من كتب الحديث[١٠].

٩-نورالدين علي بن سالم بن معالي، الماrديني القاهري الشافعي (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، نشأ على طلب العلم وحفظ القرآن واشتغل في الفقه وأصوله والعربية والفرائض والحساب وغيرها، قرأ لدى شيوخ آخرين، ولازم ابن حجر ملازمة تامة رغم أنه كان رفيقه في بعض سماعاته في الحديث، ومما قرأه عليه (البخاري) و(شرح النخبة) له، وبعضا من كتب الحديث، وكان يجيد اللسان التركي وعمل في قواعد نحوه كتابا، وولي القضاء بصفد، وتوفي بها سنة٨٥٢هـ/١٤٤٨م ولم يعلم بذلك ابن حجر، ولهذا أوصى له بمال أسوة بتسعة آخرين من طلبته، كما أنه هو (ابن سالم) أوصى إلى ذمة شيخه (ابن حجر) بتخليصه من بعض الديون، فنفذها ولده[١١].

١٠-نجم الدين عمر بن محمد بن محمد، ابن فهد المكي (ت٨٨٥هـ/١٤٨٠م)، محدث الحجاز، وقرأ عليه في (لسان الميزان)[١٢]، وكان ابن حجر يحبه كثيرا لكونه من المكثرين في الحديث النبوي، وهو أحد طلبته التسعة،

---

[١] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٠٦٧؛ والضوء اللامع، ج١ ص١٠١-١١١؛ والشوكاني، البدر الطالع، ج١ ص١٩ -٢٠.

[٢] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٠٨١.

[٣] المصدر السابق، ص١٠٨٢-١٠٨٣.

[٤] كلاهما مطبوعان. الزركلي، الأعلام، ج١ ص٢٣٠.

[٥] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٠٩٢.

[٦] من أشهر كتب علوم الحديث، تأليف أبي عمرو عثمان بن عبد الرحمن المعروف بابن الصلاح الشهرزوري الحافظ الشافعي الدمشقي المتوفى سنة ٦٤٣هـ. حاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ص١١٦٢.

[٧] هي (عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير) تأليف الحافظ فتح الدين محمد بن محمد بن محمد، ابن سيد الناس الأندلسي اليعمري (ت٧٣٤هـ)، تتلمذ على ابن دقيق العيد، ودرّس الحديث في المدرسة الظاهرية. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٢٠٨- ٢١٠.

[٨] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٠٩٢.

[٩] المصدر السابق، ص١٠٩٥-١٠٩٦، ١٢٠٤.

[١٠] المصدر السابق، ص١١١١، ١٢٠٤.

[١١] السخاوي، الضوء اللامع، ج٥ ص٢٢٢- ٢٢٤ ؛ والجواهر والدرر، ص١٢٠٤.

[١٢] من أشهر مؤلفات ابن حجر في علم الرجال، وضعه تلخيصا واستدراكا على ميزان الاعتدال للذهبي.

ويبدو أنه كان أحد مصادر ابن حجر في معلوماته عن اليمن ومكة وأحوالهما ووفيات نبهائهما[١]، ومن مؤلفاته في التاريخ (إتحاف الورى بأخبار أم القرى)، و(ذيل تاريخ مكة) للفاسي[٢].

١١-زين الدين قاسم بن قطلوبغا الحنفي (ت٨٧٩هـ/١٤٧٤م)، أحد الأعيان، ووصفه ابن حجر سنة ٨٥٠هـ/١٤٤٦م بالإمام المحدث الحافظ، ومما قرأ عليه تصنيفه (الإيثار بمعرفة رواة الآثار)، وهو أحد الطلاب التسعة، ولكنه يبدو أنه أخذ بمنهج شيخه في النقد الذي لا يراعي قرابة، فانتقد شيخه ابن حجر، لذا فقد اتهمه السخاوي بالتفتيش عن الطعون فيه. كتب ابن قطلوبغا عددا من المؤلفات منها (تاج التراجم) في طبقات الحنفية[٣].

١٢-تقي الدين محمد بن أحمد بن علي، العلامة الحافظ الفاسي المكي (ت٨٣٢هـ/١٤٢٨م)، المحدث الأصولي المؤرخ، سمع عليه سنة ٨٠٣هـ، وسنة ٨١٥هـ، وسنة ٨٢٤هـ أجزاء من الحديث وبعضا من مصنفاته، وحضر عنده في القاهرة بالبيبرسية مجالس من أماليه، ونقل عنه ابن حجر في تصانيفه، وأذن له في رواية تصانيفه، وزكّاه لدى الأشرف برسباي لما عزل عن قضاء مكة بأنه أعلم أهل مكة والحجاز على الإطلاق[٤]، ومن مؤلفاته (العقد الثمين في أخبار البلد الأمين)، و(شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام)[٥].

١٣-شمس الدين محمد بن الخضر بن داوود، ابن المصري (ت٨٤١هـ/١٤٣٧م)، "سمع منه، وكتب عنه من إملائه، سمع منه بعضا من كتبه (المشتبه) و(فتح الباري)، و(الإصابة)، وكذلك (البخاري)"، وراسله بأبيات شعرية[٦].

١٤-محمد بن عبدالرحمن السخاوي، القاهري الشافعي (ت٩٠٢هـ/١٤٩٦م)، الشيخ المؤرخ حكى عن نفسه أنه "لازمه بأخرة" ملازمة شديدة، وحمل عنه أكثر تصانيفه، "وأذن له في الإقراء"، قال شيخه ابن حجر عنه: "إنه أمثل جماعته في فن الحديث"، وهو أيضا أحد طلبته التسعة المكثرين في الحديث[٧]، وهو من أكثر تلامذته إخلاصا إخلاصا لشيخه وانحيازا إليه وحمية عليه، وله مصنفات تاريخية رائقة ومبدعة، منها (الضوء اللامع)، و(الجواهر والدرر) من مصادر البحث، وفي تاريخ التاريخ كتب (الإعلان بالتوبيخ على من ذم التاريخ)، وهو كتاب مبدع في موضوعه.

١٥- شمس الدين محمد بن علي بن جعفر، الشيخ ابن قمر الحسيني سكنا (ت٨٧٢هـ/١٤٦٧م)، إمام المدرسة البيبرسية، "أكثر عنه واختص به، وضبط الأسماء في كثير من الأوقات عنده، وكتب له" كثيرا من مصنفاته، وقد أذن له في الإفادة، وهو أحد طلبته التسعة[٨].

١٦- كمال الدين محمد بن محمد بن حسن بن محمد الشمني (ت٨٧٢هـ/١٤٦٧م)، قرأ عليه من مصنفاته سنة٨١٥هـ، وسنة٨١٧هـ، وكان شيخه ينوِّه به لكونه أنبه الطلاب لديه، وتبرّع له بوظيفة تدريس الحديث بالجمالية، ووصفه بالإمام المحدث، وطُلِب لقضاء الحنفية فامتنع[٩].

١٧- محمد بن محمد بن عبدالله بن خيضر، الإمام الخيضري، قاضي الشافعية بدمشق (ت٨٩٤هـ/١٤٨٨م)، "حمل عن ابن حجر جملة من الكتب، ومنها (الإصابة) التي لم يقرأها عليه أحد غيره، وكان كثير الميل له والتنويه به"، وأحد طلبته التسعة، وصنف في فقه الشافعية، وطبقاتهم، وشرح ألفيه العراقي في مصطلح الحديث[١٠].

---

[١] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١١٢١-١١٢٣، ١٢٠٤.
[٢] السخاوي، الضوء اللامع، ج٦ ص١٢٦- ١٣١.
[٣] وهو من مصادر البحث، ومن النتاج العلمي لعلماء القاهرة في التاريخ. السخاوي، الجواهر والدرر، ص٧١٢-٧١٣، ١١٢٤-١١٢٥، ١٢٠٤؛ والضوء اللامع، ج٦ ص١٨٤- ١٩٠.
[٤] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٢٩٨؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص١١٢٨-١١٢٩.
[٥] السخاوي، الضوء اللامع، ج٧ ص١٨؛ والزركلي، الأعلام، ج٥ ص٣٣١.
[٦] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١١٤١. وستأتي الكتب المذكورة هنا في مصنفاته.
[٧] المصدر السابق، ص١١٤٦، ١٢٠٤.
[٨] المصدر السابق، ص١١٥٠-١١٥١، ١٢٠٤.
[٩] المصدر السابق، ص١١٥٧-١١٥٨؛ والسيوطي، حسن المحاضرة، ج١ ص٤٧٥.
[١٠] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١١٥٩، ١٢٠٤؛ و الضوء اللامع ج٩ ص١١٧- ١٢٤.

لم يكن طلابه فقط من طلاب العلم بل كانوا من فئات مجتمعية أخرى[١]، وفيهم من ولي وظائف رسمية في الدولة[٢]، وقد كان هناك من الطلاب من يحفظ بعض كتبه[٣]، ومنهم من كان يعرض محفوظاته حفظا عليه، وبلغ بأحدهم أنه كان يحفظ ١٢ كتابا[٤]، ومن طلابه من تبنى قضاياه الشخصية فلم يحضر مجالس وحلقات العلماء المنافسين له[٥]، ومع ذلك فقد أشار السخاوي[٦] إلى تقاعس كثير من طلابه عن القيام بما كان يفترض أن يقوموا به من التحقيق والتدقيق، وأورد ما يبين أن كثيرا منهم كانوا على قدر من الإهمال لما ألفه شيخهم.

ويبدو من خلال ما تقدم أن كثيرا من تلامذته حظي باهتمامه وعنايته، وأنه كان يحبهم لا سيما أهل الحديث كما مر عن وصيته لطلبة الحديث المكثرين وأشار إلى ذلك السخاوي صراحة[٧]، لكن يجد الباحث في حديث السخاوي عن شيخه عظيم المودة والاحترام والوفاء الصادق لشيخه الجليل، خلا قلة من التلامذة الذين طرأ عليهم التغير بعد وفاته، فلم يراعوا حق الشيخ، وتعقبوا عثرات شيخهم من دون طائل، وآذاه بعضهم في حياته وبعد وفاته[٨]، وكأن من فعل ذلك قد سقاه بنفس الكأس النقدية التي سقى هو بها كثيرا من شيوخه. وفي نظري أن السخاوي كان ينزعج من أي نقد يوجّه لشيخه.

ومما تقدم ومن خلال مقروءات هؤلاء الطلبة يظهر أن كثيرا من هؤلاء الطلبة كانوا امتدادا حقيقيا لشيخهم في اتجاهه الحديثي والتاريخي، ودرسوا لديه مصنفاته الحديثية بشكل مركَّز، ثم كانوا من أبرز علماء عصرهم ورجاله، بما يُظْهِرُ الشيخ وكأنه قد نجح في إيجاد أشباهه من حملة العلم، كما يتبين من خلال كثرة طلابه الذين عدّدهم السخاوي في الجواهر والدرر أنه ضمّنهم أولئك الطلاب الذين لا ينتظمون في حلقات العلم، وأن طابع الكثرة الكمية كان ثقافة سائدة، وأن كثيرا من طلابه عموما قد قرأ عليه بعضا من مؤلفاته، كما أن توزُّع هؤلاء الطلاب وانتماءاتهم المختلفة إلى الأمصار كان سببا من أسباب شهرة هذه المؤلفات في العالم الإسلامي آنذاك.

٦ـ مصنفاته

تميز ابن حجر بتعدد جوانب شخصيته العلمية تدريسا وإفتاء وقضاء وتأليفا بل وإكثارا في التأليف، ولهذا فقد خلّف تراثا عظيما، يكشف عن مهارة فائقة في التأليف وعن ذوق عال في التعامل مع مجالات التصنيف.

بدأ التصنيف من وقت مبكر؛ قال السخاوي[٩]: إن أول كتاب ألفه هو تخريجه (المئة العشارية) لشيخه برهان الدين التنوخي سنة ٧٩٦هـ، غير أنه ذكر في موضعين آخرين ما يثبت أنه قد بدأ التأليف سنة٧٩٥هـ/١٣٩٢م[١٠]، ثم بقي يؤلف إلى آخر عهده بالدنيا. وأورد السخاوي[١١] قائمة بمصنفاته بلغت ٢٧٣ مؤلفا رتّبها حسب الموضوعات[١٢]، ووصف باحث[١٣] عني بدراسة مصنفاته قائمة السخاوي هذه بأنها أوسع القوائم التي اطلع عليها،

[١] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٠٦٩-١١٧٩،١٠٧٠، ١١٨٠.
[٢] المصدر السابق، ص١١٨٠.
[٣] المصدر السابق، ص١١٨٠-١١٨١.
[٤] المصدر السابق، ص١١٩٥.
[٥] المصدر السابق، ص١١٠٣.
[٦] المصدر السابق، ص٦٩٧-٦٩٨.
[٧] المصدر السابق، ص١١٢١-١١٢٢.
[٨] المصدر السابق، ص٧١٢-٧١٣، ٩٩٥-٩٩٦.
[٩] المصدر السابق، ص٦٧٠.
[١٠] المصدر السابق، ص٦٩٠، ٦٩٣؛ وينظر عبدالمنعم: شاكر محمود، ابن حجر العسقلاني مصنفاته ودراسة في منهجه وموارده في كتابه الإصابة، ط١، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، ج١ ص١٥٩-١٦٠.
[١١] الجواهر والدرر، ص٦٦٠- ٦٩٥.
[١٢] وقد وهم الباحث محمد إسحاق كندو في كتابه منهج الحافظ ابن حجر العسقلاني في العقيدة من خلال كتابه فتح الباري، الرياض، مكتبة الرشد، ص١٠٧، إذ ذكر أن السخاوي أورد قائمته حسب حروف المعجم.
[١٣] عبدالمنعم، ابن حجر العسقلاني، ج١ ص ١٦٨.

مع أنها لم تستوعب كل مصنفاته؛ إذ أورد ذلك الباحث ٢٨٢ عنوانا تأكد له نسبتها إلى ابن حجر[١]، بينما أضاف ٣٨ عنوانا تحت عنوان الكتب المنسوبة إلى ابن حجر، مستدركا أن ذلك لا يعني نفي نسبتها إليه[٢].

وتتسم مصنفاته بكثرتها الكاثرة التي تدعو للشك في نسبة جميعها إليه، لا سيما إذا عرفنا من خلال ما تقدم وما سيأتي من جهوده ووظائفه أن عمر نشاطه التأليفي ينحصر ما بين ٧٩٥ و٨٥٢هـ، أي خلال ٥٨ سنة، وأنه أمضى ٢١ سنة خالصة رئيسا للقضاة، و٤٤ سنة وهو مدرس في عدد من المدارس، و٢٦ سنة في الإملاء، أملى فيها حولي ١١٥٠ مجلسا، و٤١ سنة قضاها مفتيا، وكان معدل فتاواه في اليوم ٣٠ فتوى، وقضى ٤٧ سنة خطيبا، و٤٩ سنة شيخا للبيبرسية، و٤٦ سنة خازنا لمكتبة المدرسة المحمودية، و٦ سنوات مشرفا على حمام ابن الكويك، بالإضافة إلى حاجاته الشخصية والاجتماعية، ومن كان هذا حاله فكيف يتسنى له كتابة ٢٨٢ كتابا منها ما كان في مجلدات، بحيث لو قسمناها على عدد سنيِّ نشاطه التأليفي لوجدنا أنه كان يكتب ٥ عناوين كل سنة، وهو عدد ضخم، يضاعف الشكوك لمن كان ذلك حاله.

وبالتعرف على طبيعة نشاطه التأليفي من خلال قائمة الدكتور عبدالمنعم[٣] يتضح أن ١٤% من تلك العناوين صرحت المعلوماتُ أنها مؤلفات لم تُنْجَزْ[٤]، وأن ٤٤% فقط من تلك المؤلفات ذكرت أنها أُنْجِزت، بينما سكتت عن عن قدر كبير منه وهو ٤١%، ولم تصفه لا بالإنجاز ولا بعدمه، مع ترجيح أنها أيضا لم تنجز[٥]، وهذا يعني أن ما ما يقارب النصف فقط من تلك المؤلفات هو الذي أُنْجِز، ودخل النصف الآخر في قائمة المشاريع المتعثرة، كما كانت نسبة ٥١% من مجمل النتاج مبنية على هياكل سابقة، وتوزعت ما بين الشرح والتلخيص والاختصار والتخريج، ومع أن ٤٦% منه كان متحررا عن الهياكل السابقة، إلا أن كثيرا منه كان عبارة عن إما مباحث خاصة، من موضوعات مختلفة، ركّز عليها ابن حجر بالبحث، أو كان عبارة عن موضوعات عادية ومطروقة، وغالب الجميع رسائل صغيرة، على أن كمية كبيرة منه ما يقارب ٧٠% من تلك المؤلفات كانت تتصل بالحديث وعلومه مباشرة، و١٢% له علاقة غير مباشرة بالحديث، كالفقه مثلا؛ الأمر الذي يعني أن ابن حجر كان محدِّثا غارقا في الحديث والعلوم المساعدة له إلى شحمة أذنيه. وتختلف من حيث حجمها فمنها ما يقع في مجلدات، ومنها ما هو في أجزاء، أوأسفار، أوكراريس، وبعضها عبارة عن إجابة مستفيضة لسؤال، أو نكت أو فوائد أو حواشٍ، أو تعليقات، كانت في الواقع حصيلة لعقليته النقدية عند مطالعته لمؤلفات من سبقه[٦].

إن هذه الإحصائية تخفف حالة الشك في نسبتها، بالإضافة إلى ذاكرة ابن حجر القوية، وذائقته العلمية ومهارته التصنيفية اللامعة، واستغلاله لأوقاته في الاختصار والانتقاء، وكون بعضها لا يعدو أن يكون اختصارا أو انتقاء أو إعادة إنتاج في شكل جديد، أو إعادة ترتيب، حيث رتّب مؤلفاته ترتيبا منطقيا فبنى واستخلص ما تأخر منها على ما تقدم[٧]، وهناك عناوين مثلا تصل إلى حوالي ١٨% من مجمل نتاجه يمكن أن تكون مادة مستخدمة في كتاب واحد، مثل فتح الباري، أو في عدة كتب، وكذلك استجابة نفسه العجيبة لدواعي التأليف تحت أي من

[١] عبدالمنعم، ابن حجر العسقلاني، ج١ ص١٧٣-٣٨٦.
[٢] المرجع السابق، ج١ ص٣٨٧-٣٩٨.
[٣] اتسمت قائمته بأنها دقيقة وفيها معلومات أثبتت تلك المصنفات من كتب ابن حجر، ومن كتب تلميذيه السخاوي والبقاعي. عبدالمنعم، ابن حجر العسقلاني، ج١ ج١ ص١٧٣-٣٨٦.
[٤] الإنجاز أن يبيّض الكتاب ويخرج عن مسودته.
[٥] إذ لو أنجزت لذكروها وتوفّرت معلومات عنها.
[٦] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٦٥٩؛ وعبدالمنعم، ابن حجر العسقلاني، ج١ ص١٥٨.
[٧] فمثلا اعتمد في كتابه تغليق التعليق في اختصاره إلى كتاب آخر أو كتابين، واعتمد عليه بصورة كبيرة عند تأليفه فتح الباري، بل ذكر هو أنه أغنى عن تعب كثير في عملية تأليف فتح الباري، (السخاوي، الجواهر والدرر، ص٦٦٥، ٦٦٦) وكذلك حين خرج زوائد الحديث وأطرافه أفاده في معرفة كثير من موضوعات الحديث.

الظروف[1] والمناسبات[2]، وكثرة مصادره ومراجعه وتوفرها له[3]، كما أن بعضا من مؤلفاته كانت عبارة عن محاضرات يقوم بتحضيرها ليمليها على طلابه الذين عليهم أن يكتبوا تلك الأمالي[4]، وقدرته الباهرة في التفاعل مع مع معلوماته لا سيما في الحديث من حيثيات مختلفة، كما أنهم عدوا في تلك العناوين فتاواه البحثية باعتبار كل فتوى عنوانا مستقلا.

ومع ذلك كله فإن هذا لا يسعف ابن حجر لأن يكتب كل ذلك النتاج، في الوقت الذي كان عليه التزامات كثيرة أخرى مثل القضاء والتدريس، وهذا يفترض القول بأنه كان لديه فريق من طلابه ومحبيه يساعدونه في جمع المعلومات وبحثها وتصحيحها ومقابلة بعضها قبل خروجها على الناس، وهناك إشارة وردت لدى السخاوي تعزّز هذا الافتراض، وكان يعقد مع تلامذته النابهين حلقة نقاش حول ما حرره في فتح الباري[5].

اشتهرت بعض مؤلفاته في زمانه وزمان شيوخه شهرة طاغية فتهادتها الملوك، وطلبها الأعيان، وتهافت على قراءتها وحفظها العلماء والطلبة، وقرأ عليه الكثيرون ما بُيِّض منها في حياته[6]، وهو يدل على مدى قيمتها العلمية ومسايرتها للروح العلمية السائدة. وتتميز بعضها بأنه قضى معها وقتا طويلا في تأليفها؛ فمثلا بدأ تأليف كتابه (المجمع المؤسس) في سنة٨٠٦هـ/١٤٠٣م في عدن وفرغ منه سنة٨٢٩هـ/١٤٢٥م وأضاف فيه في سنة٨٣٢هـ/١٤٢٨م[7]، وذكر ابن حجر ما يشير أنه ضمّن كتابه (إنباء الغمر) معلومات في فترتين متباعدتين[8]، وبدأ تأليف كتابه (فتح الباري شرح صحيح البخاري) في أوائل سنة٨١٧هـ/١٤١٤م وانتهى من تأليفه سنة ٨٤٢هـ/١٤٢٨م، واستمر يضيف فيه حتى قبيل وفاته[9]. كما تتسم بأن فيها ما لبّى كثيرا من المستويات العلمية والاجتماعية والحاجات والإمكانات المحدودة؛ فمن لا يمكنه أن يحصل على الكتاب الكبير فبإمكانه الحصول على ما يكفيه من الكتاب المختصر. كما ارتبط التأليف في بعضه بالشكليات الفنية المتمثلة مثلا في علو السند ونوعه، وعلى سبيل المثال (العشاريات)[10] و(الإمتاع بالأربعين المتباينة[11] بشرط السماع) وما شاكلهما.

وهنا أجتزئ بذكر مؤلفاته التي أشاد بها[12] والتي تشير إلى اتجاهه العلمي وتخصصه وبذكر بعض من الكتب المشتهرة من سواها وصارت من الكتب المقروءة وأهم الكتب التاريخية.

١-وأشهر تلك الكتب هو فتح الباري بشرح صحيح البخاري – مطبوع – وهو من أفضل شروح البخاري، وأكثرها شهرة بين الملوك والعلماء والطلاب[13]، وامتاز بجمع طرق الحديث التي ببعضها يتميز ترجيح أحد الاحتمالات شرحا وإعرابا، ومنهجه في الأحاديث المكررة أنه يشرح في كل موضع ما يتعلق بمقصد البخاري

[1] فمثلا لم يؤثر عليه سفره إلى اليمن ومحنة غرقه ونهب ماله في منطقة (حلي بن يعقوب) عن البدء في تأليف كتابه (المجمع المؤسس).

[2] كان عند حلول مناسبة ما يبادر إلى جمع كتاب فيها يبين فيه ما يراه من وجهة نظره حكم الإسلام ومن خلال الأحاديث المروية عن الرسول (ص)، مثل حوادث الطاعون التي ألف بمناسبتها (بذل الماعون)، وحادثة سجن ولده التي ألف فيها (ردع المجرم)، ومن أجل ولده محمد ألف كتابه (بلوغ المرام) على أمل أن يحفظ أحاديثه.

[3] بلغت مصادر ابن حجر في كتابه فتح الباري حوالي ١٤٣٠ مصدرا. ينظر سليمان: أبو عبيدة مشهور بن حسن، وبن صبري: أبو حذيفة رائد، معجم المصنفات الواردة في فتح الباري، ط١، الرياض، دار الهجرة، ١٤١٢هـ -١٩٩١م، ص٣٧، وتوفر له أن يكون أمين أنفس المكتبات المصرية وأضخمها وهي المكتبة المحمودية كما يأتي والتي كانت تحوي ٤٠٠٠مجلدا. ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص٢٩٩.

[4] منها الأربعين المتباينة. السخاوي، الجواهر والدرر، ص٥٨١.

[5] المصدر السابق، ص٦٧٥-٦٧٦.

[6] المصدر السابق، ص٦٩٦-٦٩٧، ٦٩٩، ٧٠٢.

[7] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٢ ص٥٨٢، ج٣ ص٣٦٩.

[8] أحدهما سنة ٨٣٦هـ والأخرى ٨٤٧هـ. ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص٣٠٧، ٣٣٤.

[9] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٧٦٥.

[10] العشاريات كتب خاصة بأحاديث، لا يكون عدد رواة سندها من أولهم إلى رسول الله إلا عشرة رجال، ومثلها التساعيات، والثمانيات.

[11] هي أحاديث يخرجها الراوي بروايته عن شيوخ مختلفين، بطرق مختلفة، وفي موضوعات متباينة.

[12] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٣٢٠، ٦٥٩.

[13] المصدر السابق، ص٦٩٩، ٧٠٧.

بذكره فيه، ويحيل بباقي شرحه على المكان المشروح فيه على إغفالٍ لنزْرٍ من تلك الإحالات وتناقضٍ في قليل من الترجيحات، وامتاز بتبيينه بعض الأوهام التي وقع فيها بعض شراح البخاري قبله[١]. ولما أكمل تأليفه أولم ابن حجر وليمة دعا إليها الأئمة والعلماء والطلاب وجمعا من المسلمين في السبت ٢شعبان سنة٨٤٢هـ/ ١٨ يناير١٤٣٩م، وقرئ فيها مجلس الختم، وبيع الكتاب بـ٣٠٠ دينار، وأفصح الشعر بهذه المناسبة، صرف فيها ابن حجر ٥٠٠ دينار، وأتحف الحاضرين بأنواعٍ من المأكولات والمشروبات والفواكه والحلوى، ووزع الذهب على من كان ملازما للكتابة فيه[٢].

٢-مقدمة فتح الباري المسماة (هدي الساري)، حديث – مطبوع[٣] – أكمل تأليفها سنة٨١٣هـ/١٤١٠م، واشتملت على مقاصد الشرح من دون الاستنباط، وانفردت بذكر فوائد حديثية، ونكات أدبية، وفرائد فقهية، وضمنها بحوثا حول صحيح البخاري وأهميته، وأورد معلومات قيمة عن علم التاريخ وفنونه، وبيّن فيها منهجه في الشرح، كما عقد فصلا لبيان مبهمات الصحيح وغريبه[٤]، وبسبب اشتهارها في الأمصار مسبقا طلب الناس الشرح وأكثروا من البحث عنه[٥].

٣-لسان الميزان، من كتب الرجال – مطبوع– وهو مشتمل على تراجم من ليس في (تهذيب الكمال) للمزي[٦] ممن ذكروا في (ميزان الاعتدال) للذهبي، مع زيادات كثيرة في بيان أحوالهم جرحا وتعديلا وبيانَ وهمٍ، كما اشتمل على عددٍ كبيرٍ من الرجال لم يُذْكَروا في الميزان، وقد أسِفَ ابنُ حجر أنه لم يجعله في هيئة مبتكَرة لا تتعلق بالميزان[٧].

٤-تهذيب التهذيب، من كتب الرجال – مطبوع – وهو تهذيب لكتاب تهذيب الكمال، الذي انتقده ابن حجر بكونه أطال فيه وقصرت عن تحصيله الهمم، كما أن الذهبي أطال العبارة في (تذهيب التهذيب) مع إخلال بكثير من التوثيق والجرح، وفي (تهذيب التهذيب) اقتصر ابن حجر على ما يفيد في علم الجرح والتعديل، وأبقى التراجم القصيرة على ما هي عليه، وحذف كثيرا من الخلاف في وفاة المترجم، وزاد كثيرا من الرجال المترجم لهم، وانتهى من تبييضه سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٤م[٨]، ومع ذلك فقد أخذ معظم ما أضافه فيه من كتاب (إكمال تهذيب الكمال) لعلاء الدين مغلطاي (ت٧٦٢هـ/١٣٦٠م) وكان له حسن الانتقاء للمعلومات فقط[٩].

٥-وقد اختصره بـ(تقريب التهذيب) – مطبوع- الذي كان يقتصر فيه على سطر في الترجمة فيذكر اسم الراوي وضبطه والمشهور من نسبه وحاله في الجرح والتعديل[١٠].

٦-(تبصير المنتبه بتحرير المشتبه)، من كتب المشتبه في الرجال – مطبوع - ألف الذهبي كتاب (المشتبه)، ولكن كان به اختصار مجحف يُبْقِي اللبس على حاله، ومن حيث بسطه لما لا يُحْتَاج إليه، ومن حيث افتقاره إلى

[١] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٧٠٧-٧٠٨؛ وعبدالمنعم، ابن حجر العسقلاني، ج١ ص١٩١.
[٢] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٧٠٣-٧٠٤؛ وعبدالمنعم، ابن حجر العسقلاني، ج١ ص١٩٢.
[٣] طبعت لمفردها في الهند، كما طبعت مع فتح الباري ومنها طبعة عام ١٤٢١هـ/١٩٩١م في الرياض.
[٤] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٦٧٦؛ وعبدالمنعم، ابن حجر العسقلاني، ج١ ص١٨٩.
[٥] ابن حجر: أحمد بن علي العسقلاني، (ت٨٥٢هـ)، انتقاض الاعتراض في الرد على العيني في شرح البخاري، ت. حمدي السلفي وصبحي السامرائي، الرياض، مكتبة الرشد، ج١ ص٨.
[٦] ألف الحافظ عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي الجماعيلي الحنبلي (ت٦٠٠هـ) (الكمال في أسماء الرجال)، أي رجال الحديث، فجاء الحافظ جمال الدين يوسف يوسف بن عبدالرحمن المزي الدمشقي (ت٧٤٢هـ)، وهذّب هذا الكتاب وسماه (تهذيب الكمال) وهو كتاب ضخم، ومع ذلك فقد أكمله الحافظ مغلطاي القاهري، ولخصه أيضا الحافظ الذهبي وآخرون، وتوالت عليه الأعمال المختلفة والتي منها عمل ابن حجر تهذيب التهذيب، وتقريب التهذيب. حاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ١٥١٠- ١٤١١.
[٧] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٦٥٩، ٦٨٣.
[٨] ابن حجر: أحمد بن علي العسقلاني، (ت٨٥٢هـ)، تهذيب التهذيب، ط١، بيروت، دار الفكر، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ج١ ص٣-٤؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص٦٨٢-٦٨٣.
[٩] المزي: يوسف بن عبدالرحمن، (ت٧٤٢هـ)، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، ت. بشار معروف، ط٦، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م، مقدمة مقدمة المحقق، ج١ ص٦٩.
[١٠] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٦٨٣.

ضبط الأسماء بالحروف، ومن حيث تركه لبعض التراجم، فأعاد ابن حجر إخراجه على سد هذا النقص فيه، وميز زياداته بـ(قلت) في البدء، و(انتهى) في الختم، وضبط ملتبسه بالحروف، وفرغ من تحريره سنة٨١٦هـ/١٤١٣م وذكر في آخره أنه ليس له سوى حسن التلخيص[١].

٧-تغليق التعليق، في الحديث – مطبوع – وهو كتاب وصفوه بأنه جليل القدر، إذ وصل فيه معلقات صحيح البخاري من الأحاديث المرفوعة والآثار الموقوفة، وحكم عليها صحة وحسنا وضعفا، وبوّبها على أبواب الأصل أكمله سنة٨٠٣هـ/١٤٠٠م، وبيّضه سنة٨٠٧هـ/١٤٠٤م[٢]، وشهد له بسببه شيوخه بالحفظ وبأنه لم يسبق إلى مثله، رغم أنه اعترف أنه استلهم هذه الفكرة من الحافظ أبي عبدالله محمد بن عمر، ابن رشيد السبتي (ت٧٢١هـ/١٣٢١م)[٣] وقد اختصره في كتاب، كما وصل مُهِمَّه في كتاب آخر[٤]. وهكذا يظهر كيف كان ابن حجر حجر يتعامل مع بعض كتبه ويعيد إنتاجها بصور مختلفة.

٨-نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، في مصطلح الحديث – مطبوع - اعتمد فيه على علوم الحديث لابن الصلاح، وأضاف أنواعا أخرى من أقسام الحديث، وكان تأليفه سنة٨١٢هـ/١٤٠٩م.

٩-نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر، شرح المتن السابق – مطبوع - دمجه مع المتن في نص واحد، وقد أعجب به كثير من العلماء والطلاب وتنافسوا على أخذه وتحصيله وبعضهم حفظه مع متنه، وقد انتهى من شرحه هذا سنة٨١٧هـ/١٤١٤م[٥]. وكانت النخبة وشرحها محطَّ اهتمامِ عددٍ كبيرٍ من العلماء والطلبة والمؤلفين، في عهد المؤلف وبعده شرحا واختصارا واستدراكا[٦].

١٠-بلوغ المرام من أدلة الأحكام – مطبوع - وهو أحاديث مختصرةُ الأسانيد مبينةُ الحكم صحة وحسنا وضعفا، توزعت على أبواب الأحكام الفقهية، وضعه بغرض حفظه من قبل الطلاب المبتدئين ومنهم ولده، وقد اختصره من كتاب الإلمام لابن دقيق العيد (ت٧٠٢هـ/١٣٠٢م)، وزاد عليه[٧]، وشرحه العلامة محمد بن إسماعيل الأمير (ت١١٨٢هـ/١٧٦٨م) بكتابه الشهير (سبل السلام).

١١-الإصابة في تمييز الصحابة – مطبوع - من أشهر مصنفات ابن حجر وأعظمها بعد فتح الباري[٨]، وقد قسمه قسمه ابن حجر إلى أربعة أقسام: أولها من وردت روايته أو ذكره في الصحابة من طريق صحيحة أو حسنة أو ضعيفة أو منقطعة، والثاني من له رؤية للرسول (ص) فقط، والثالث من أدرك الجاهلية والإسلام ولم يرد في خبر أنه اجتمع بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، والرابع – وهو المقصود من وضع الكتاب – من ذكر في كتب مصنفي الصحابة أو مخرجي المسانيد غلطا، مع بيان ذلك وتحقيقه مما لم يسبق إلى غالبه[٩].

١٢-رفع الإصر عن قضاة مصر

١٣-الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة.

١٤-إنباء الغمر بأبناء العمر.

١٥-المجمع المؤسس للمعجم المفهرس. وقد مضى الحديث عنها.

---

[١] ابن حجر، تبصير المنتبه، ص١-٢؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص٦٧٩.

[٢] ولا يلزم بالضرورة مما ذكره ابن حجر في رفع الإصر، ص٦٤ أنه أكمل كتابه بعد رجوعه من رحلته إلى الشام أنه في سنة ٨٠٤هـ كما ذكره أحد الباحثين، وهي إشارة ضعيفة لا تكون في مستوى نص السخاوي الوارد في متن البحث أعلى. السخاوي، الجواهر والدرر، ص٦٦٥.

[٣] ابن حجر، تغليق التعليق، ج٢ ص٦- ٧؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص٦٦٥.

[٤] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٦٦٥-٦٦٦.

[٥] المصدر السابق، ص٦٧٧-٦٧٨؛ وعبدالمنعم، ابن حجر العسقلاني، ج١ ص١٧٩.

[٦] حاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ص١٩٣٦-١٩٣٧.

[٧] ابن حجر: أحمد بن علي العسقلاني، (ت٨٥٢هـ)، بلوغ المرام في أدلة الأحكام، ت. عصام موسى أبو هادي، ط١، الجبيل (السعودية)، دار الصديق، ١٤٢٣هـ ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، ص١٣؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص٦٦١.

[٨] عبدالمنعم، ابن حجر العسقلاني، ج١ ص٢٩٧.

[٩] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٦٨١-٦٨٢.

١٦-بذل الماعون بفضل الطاعون – مطبوع - مجلد جمع فيه أحاديث وآيات وآداب متعلقة بموضوع الطاعون[١]. ويبدو العنوان ملفتا في إثباته للطاعون فضلا، وهو تعبير عن ثقافة رجل الدين الذي يبتغي الأجر من الله على تلك المصيبة، ويظهر بوضوح أن كثرة الطواعين التي جرت على العالم آنذاك عموما وعلى مصر خصوصا هي ما حملت ابن حجر على تأليف مثل هذا الكتاب في تحسين القبيح لو صحت العبارة، والصبر على البلاء، لا سيما ونحن نعلم أن ثلاثا من بناته توفين بالطاعون، على أنه أبدى نظرة متخلفة تجاه وباء الطاعون، حيث استساغ أن يكون من أسبابه (وخز الجن) كما ورد في أحاديث منسوبة إلى الرسول (ص)، كما رفض فكرة العدوى رفضا باتا، ورفض فكرة (الحجر الصحي)، وردَّ على تاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي (٧٧١هـ/١٣٦٩م)[٢] الذي استحسنها، وتطرّف حين حكم بتكذيب الطبيبين من المسلمين لو شهدا بانتقال المرض عبر العدوى[٣]، وهي نظرة تعكس ثقافته الصحية غير الكافية، وثقافة بعض علماء الدين آنذاك.

١٧-الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف، حديث – مطبوع - وهو تخريج للأحاديث الواردة في تفسير جار الله الزمخشري، لخّصه من كتاب الزيلعي[٤].

١٨-تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، وورد لدى السخاوي "التمييز في تلخيص تخريج أحاديث شرح الوجيز"، لخّصه من تخريج أحاديث شرح الوجيز تأليف شيخه ابن الملقن[٥]، الذي انتقد طوله بسبب التكرار، وقد وُصِف تلخيص الحبير بأنه أجمع كتاب في الأحكام والفقه المقارن، وفيه تجلت سعة اطلاعه على الأحاديث وتحقيقها تحقيقا علميا، وقد فرغ من اختصاره سنة ٨١٢هـ وفرغ منه تتبعا سنة ٨٢٠هـ[٦].

١٩-لابن حجر ديوان شعر كبير[٧]، وله ديوان أصغر منه، يدعى (ضوء الشهاب)، وله ديوان ثالث، وهو المسمى (السبع السيارة النيرات)[٨]، أو المسبعات كما سماه السخاوي[٩].

تلك أهم وأشهر مصنفات ابن حجر والتي عكست علمه وثقافته، والتي ترجح أن فريقا من طلابه ساعده في بعضها، كما أنه تَبَيَّن بها اتجاهه العلمي وتخصصه وتعمقه وهو علم الحديث والتاريخ، الذي برز فيهما باعتباره أحد الحفاظ في عصره إن لن يكن أعلمهم، وفي مؤلفاته ما كان مبتكرا، وما بني على غيره شرحا، أو تلخيصا، أوانتقاء، أو تخريجا، أوتعليقا، ولهذا فقد كانت مؤلفاته صورة معبِّرة عن عصرها الذي أُلِّفت فيه بشكل كبير، كما حاز بعضُها رضى أهلِ عصره في أرجاء العالم الإسلامي، وتنافسوا على تحصيلها، كما أنها صورة نابضة بما كان عليه العالم القاهري وأولوياته العلمية والثقافية التي كان يحرص عليها، وفيها ما عكس العقلية السلبية التي كان عليها المجتمع المسلم آنذاك في تفاعله مع بعض القضايا الاجتماعية.

---

[١] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٦٦٤.

[٢] القاضي تاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي (ت٧٧١هـ)، تعلم أولا بالقاهرة، ثم في الشام، ودرّس بمدارسهما، وصنف في علوم عديدة، وولي قضاء الشام. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٤٢٥- ٤٢٨.

[٣] ابن حجر: أحمد بن علي العسقلاني، (ت٨٥٢هـ)، بذل الماعون في فضل الطاعون، ت. أحمد عصام الكاتب، الرياض، دار العاصم، ص٢٨، ٤١، ٤٢، ١٠٩، ١٣٣، ١٤١- ١٥٥، ٢٢٧، ٢٢٩.

[٤] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٦٦٦.

[٥] الوجيز في الفقه الشافعي لأبي حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ)، وشرحه أبو القاسم عبد الكريم بن محمد القزويني الرافعي (ت٦٢٣هـ) عدة شروح أكبرها المسمى بـ(فتح العزيز على كتاب الوجيز)، وخرج شيخ الإسلام سراج الدين عمر ابن الملقن (ت٨٠٤هـ) أحاديثه في كتاب سماه (البدر المنير) في سبعة مجلدات ثم لخصه في مجلدين وسماه (الخلاصة) ثم انتقاه في جزء وسماه (المنتقى)، واختصر ابن حجر كتاب شيخه ابن الملقن (البدر المنير) في كتابه تلخيص الحبير هذا. حاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ص٢٠٠٢-٢٠٠٣.

[٦] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٦٦٦؛ وعبدالمنعم، ابن حجر العسقلاني، ج١ ص٢٢٨-٢٢٩.

[٧] توجد منه نسخة مخطوطة في مكتبة المجمع العلمي العراقي مصورة ميكروفيلم عن نسخة بمكتبة الإسكوريال بذات الرقم (Escorial No. 444)، وتوجد نسخة نسخة مشابهة في معهد المخطوطات العربية المصورة تحت رقم ٢٣٩ الأدب، ونسخة أخرى تحت الرقم ٢٠٤، مصورة ميكروفيلم عن مكتبة كوبرلي برقم ١٢٨٢ كتبت في القرن التاسع الهجري. عبدالمنعم، ابن حجر العسقلاني، ج١ ص٣٦٩ مع الهامش.

[٨] وهو الذي تقدم وطبع بتحقيق السيد أبو الفضل، تحت عنوان (ديوان ابن حجر العسقلاني)، كما نبه إلى ذلك الدكتور شاكر عبدالمنعم في بحثه القيم ابن حجر العسقلاني ج١ ص٣٦٧.

[٩] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٦٩٣؛ وعبدالمنعم، ابن حجر العسقلاني، ج١ ص٣٦٧.

٧- جهوده ووظائفه التعليمية والقضائية

شارك ابن حجر بقوة في الحياة العملية المتصلة اتصالا وثيقا بالجانب العلمي لديه، وقدّم خدمة جيدة للمجتمع الذي كان يعيش فيه، وصار أحد المؤثرين فيه من خلال القضاء والتدريس والإملاء والإفتاء ووظائف أخرى أهلته لأن يكون من نخبة المجتمع آنذاك.

أ-القضاء

كان القضاء أبرز الأعمال الحكومية وأعلاها التي يمكن لرجال الدين أن يتولوها، وكانت ذات صلاحيات كبيرة، تتناول مجالات عديدة في الحياة الاجتماعية والمدنية للمجتمع القاهري بل والمصري، وقد وصل ابن حجر إلى هذا المنصب الخطير.

ويبدو أن عدة عوامل أوجدت لديه رغبة حقيقية في تولي القضاء بالقاهرة ومنها توليه الوظائف التدريسية والإدارية في مدارس القاهرة ونبوغه العلمي والتعليمي، وتفوقه في علم الحديث والفقه، وكون كلا شيخيه الكبيرين البلقيني والعراقي سعيا في تولي القضاء[١]، وكون ابنيهما وهما من زملائه قد وليا القضاء - أوجد لديه رغبة في توليه في القاهرة.

مع ذلك ساق السخاوي مبرِّرا لا يبدو مقنعا لقبوله منصب القضاء سنة ٨٢٧هـ/١٤٢٣م؛ حيث ذكر أن ابن حجر استثاره ترفُّعُ زميلِه وابنِ شيخه علمِ الدين صالح بن سراج الدين البلقيني الذي ولي القضاء قبله في تلك السنة؛ وهو ما حدا به لقبوله حين عُرِض عليه[٢]، بل وأعتقد أن في هذا المبرر الضعيف ما يشير إلى وجود رغبة جادة، وكيفما وكيفما كان الأمر فهي رغبة مشروعة.

تشير ظروف سابقة أيضا إلى استعداد ابن حجر لتولي هذا المنصب، فقد لازم مجالس السلاطين على سخف بعضها[٣]، وشارك في اقتراح الألقاب الرسمية لبعضهم[٤]، وولي دار الإفتاء سنة٨١١هـ/١٤٠٨م[٥]، وولي نيابة القضاء للقاضي جلال الدين البلقيني[٦] وهو ابن شيخه، وحين مات راعى خاطر خليفته القاضي أبي زرعة ولي الدين أحمد بن زين الدين عبدالرحيم العراقي[٧] فقبل بعرض النيابة له أيضا[٨]. ويلاحظ أن علاقة حسنة توطدت بين بين ابن حجر والسلطان المؤيد شيخ، واعترف السلطان بتفوقه العلمي وكلفه مرة بترؤس محكمة خاصة[٩]، كما رفض منصب قاضي قضاة الشام من قبله لا على أنه كان يكره القضاء مبدئيا ولكن لكون هذا العرض جاء نتيجة غضب عارض للسلطان على قاضي الشام[١٠].

وقد تنبأ القاضي جلال الدين البلقيني بتوليه[١١]، وهو أمر يشير إلى ترشيحه لهذا المنصب وفهم القاضي جلال الدين رغبته فيه، على أن أبياتا شعرية اتُّهِم ابن حجر بصناعتها وُجِدَت في مجلس المؤيد سنة٨٢١هـ/١٤١٨م

---

[١] ابن حجر، رفع الإصر، ص٢٢٧؛ وإنباء الغمر، ج١ ص١٧٢-١٧٣، بل وقد سعى البلقيني لتولية ولده جلال الدين وأعطى في ذلك الأموال مما عرضه لانتقاد لانتقاد شديد من قبل بركة و اللذين كانا يتوليان أمر الدولة آنذاك. ابن حجر، رفع الإصر، ص٢٢٦.

[٢] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٦١٩، ٦٢٠.

[٣] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص٥٧-٦٤، ٩٩.

[٤] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٥١٦.

[٥] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٦٠٠.

[٦] المصدر السابق، ص٦١٨-٦١٩.

[٧] ولي قضاء الأقضية سنة٨٢٤هـ، وكان من حفاظ الحديث، وشيوخ ابن حجر، ويتلو أباه في العلم، وكتب بعض المؤلفات في الحديث والتاريخ والفقه، وتوفي سنة٨٢٦هـ. ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص٣١١.

[٨] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٦١٨-٦١٩.

[٩] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص٥٧-٦٤، ١٥٧، ١٩٠-١٩١، ١٩٧، ٢٢٠، ٢٣٧.

[١٠] المصدر السابق، ج٣ ص٩٥- ٩٦.

[١١] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٦٢٠.

وتعرضت للطعن في القاضي جلال الدين من جهة أقاربه المفسدين، والطعن في شمس الدين محمد بن عطاء الله الهروي (ت٨٣٩هـ/ ١٤٢٦م) منافسِه بقلة علمه وعُجْمته، واقترحت تقليده لثالث[١]، وفي هذا كله ما يدل على توقان توقان واضح من قبل ابن حجر لهذا المنصب لا يدع انتظار ترفع علم الدين البلقيني عليه ليكون سببا مقنعا حتى ينتصر لنفسه بالتزاحم على ذلك المنصب.

ومهما يكن من أمر فلم يواته الحظ في تولي القضاء إلا في المحرم سنة٨٢٧هـ/ ديسمبر١٤٢٣م لمّا قلده السلطان الأشرف برسباي[٢]، وقد اعترف أنه جنى على نفسه بتولي القضاء، ورفَضَ جماعةٌ من أهل العلم زيارته بعد ذلك[٣]، ذلك[٣]، وكان يظهر ندمه على توليه لكنه كان ندما لا يفضي إلى تغييرِ قرارٍ أو تعديلِ موقفٍ، فقد استمر في القضاء القضاء حتى ٢٥جمادى الثانية سنة٨٥٢هـ/٣٠ أغسطس١٤٤٨م تخلل هذه المدة عزله لمرات تسع، مع كثير من النكد والتعب، وكان إجمالي تقلده لمنصب القضاء حوالي ٢١ سنة[٤].

بذل ابن حجر المال في سبيل ذلك المنصب، وكان يدفع نصف ذلك المبلغ من ماله الخاص، والنصف الآخر من فائض الأوقاف، وكان يحاول التبرير شرعا لصرفها في هذا المصرف[٥]، ومن المعروف أن بذل الأموال كان ظاهرة شائعة في شراء الوظائف والمناصب في العصر المملوكي، واعتمد تحديد الثمن للوظيفة على قدر المنصب وحجم الطلب[٦]، وقد حاول بعض الباحثين[٧] إنكار دخول ابن حجر في هذه المسألة، غير أن تلميذيه السخاوي وابن وابن فهد المكي[٨] أثبتا ذلك، ونقل عنه السخاوي ما يُحَسِّن بذل المال في منصب القضاء لأجل عزل من لا يستحقون، واعتبر فاعله مأجورا لا مأزورا، كما أورد ابن حجر نفسه الحكم الفقهي الداعم لهذه القضية في كتابه فتح الباري[٩]، كما فعله وقال به شيخه شيخ الإسلام البلقيني، وابنه القاضي جلال الدين، وشيخه الآخر سراج الدين ابن الملقن من قبله[١٠]. وهو وضعٌ مؤسِف أصاب القضاء بمقتل ولا زال المسلمون يعانون منه حتى اليوم، وأسوأ منه التبرير الفقهي لمثل هذا الفساد.

والطريف أن ابن حجر رمى بمسؤولية توليه القضاء على القضاء والقدر المحتوم عليه[١١]، وهي نظرة فكرية ينزع إلى القول بها كثيرٌ من الذين يضعُفُون عن تحمُّل مسؤولية اتخاذ قراراتهم ونتائجها، والأطرفُ من ذلك أنه من خلال أبيات شعر تمثّل بها أمام القاضي المنافس له في إحدى عزلاته الأخيرة سلّط الضوء على مقدار المجاملات والرغبات الجامحة التي يحاول القضاة إخفاءها[١٢].

يبرز في تاريخه القضائي علم الدين البلقيني أشدَّ منافسيه على هذا المنصب، ورغم سوء العلاقة التي استحكمت بينهما إلى درجة غير معقولة[١٣]، إلا أن ابن حجر أدرك متأخرا أنه شبع من ذلك التنافس واستسلم لراحة باله معلنا

---

[١] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص١٦٤-١٦٥، وفي الهامش أن العيني اتهم ابن حجر بوضعها؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص٨٥٦-٨٥٧.

[٢] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص٤٢٣.

[٣] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٦٢٠.

[٤] المصدر السابق، ص٦٢٠-٦٣٠، ٦٣٣.

[٥] المصدر السابق، ص٦٢٣.

[٦] أحمد، أحمد عبدالرزاق: البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك (دراسة عن الرشوة)، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٩م، ص١٣١.

[٧] عبدالمنعم، ابن حجر العسقلاني، ج١ ص١٤١؛ وعلي، التاريخ والمنهج التاريخي، ص١٦٠، مع أنهما أوردا ما يدل دلالة واضحة على ما نفياه.

[٨] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٦٢٣، وقال إن البذل كلف ابن حجر في أيام الظاهر جقمق وحده ١٣٠٠٠ دينار؛ وابن فهد المكي، لحظ الألحاظ، ص٣٣٠-٣٣١.

[٩] ابن حجر، فتح الباري، ج٥ ص٢٦١.

[١٠] ابن حجر، رفع الإصر، ص٢٢٧؛ وإنباء الغمر، ج١ ص١٧٢-١٧٣.

[١١] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٦٢٠.

١٢ تمثل بهذه الأبيات حين عزل بالقاضي القاياتي: (عندي حديث ظريف بمثله يتغنى من قاضيين يُعَزَّى هذا وهذا يُهَنَّا فذا يقولُ اكْرَهونا وذا يقول استرحنا ويَكْذِبان ونهذي بمن يُصَدَّقُ منا). السخاوي، الجواهر والدرر، ص٦٢٨.

[١٣] مثلا يترك أحدهم صلاة الجنازة بسبب تقدم الآخر إماما، أو يرتضي أحدهما شخصا آخر أقل منهما علما لإمامتهما جميعا، ويستغل أحدهما مناسبة عارضة للتنديد بضعف الآخر، واتهام أحدهما للآخر بعدم صلاحيته للقضاء أو أنه استغل منصبه القضائي لنهب أملاك الوقف، ووصل العداء إلى أن بعضا من طلاب

ذلك لمنافسه، طالبا منه المصالحة والاطمئنان على عزوفه عن القضاء، ومراعاة مصالح ولده الذي كان سببا في توليه بعض الوظائف المتأخرة[1]، كما يبرز من المنافسين له شمس الدين الهروي[2]، والشيخ ولي الدين الولوي السفطي[3]، والشيخ القاضي محمد بن علي القاياتي (ت٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م) وكان عالما تقيا وكبيرا[4].

ويبدو أن شهرة ابن حجر في العالم الإسلامي، وحظوته في الأوساط العلمية والسياسية، وشهرته الطاغية، وتمكنه في منصب القضاء منذ سنة٨٢٧هـ/١٤٢٣م، ودوره في إيصال السلطان الظاهر جقمق إلى السلطنة جعله يِنِدُّ قليلا عن حدود الأدوار والاتفاقات المتعارف عليها بين مؤسسة القضاء العلمائية وبين السلطان في القاهرة، فقد تغيّر ابن حجر أيام الظاهر جقمق عما كان عليه في أيام المؤيد شيخ والأشرف برسباي، وخشُنَت عبارته ضد السلطان، ويلاحَظ أنه كان أقوى أمامه عما كان عليبه أيام سلفه، وكان يواجهه ببعض ما يكره، وهي مواقف تشعر بفتور علاقتهما التي وصلت إلى حد تهديد ابن حجر بخلع السلطان، رغم أنه كما يبدو كان أمثل السلاطين الذين سبقوه، وأقربهم إلى الخير[5]، غير أنه في نهاية الأمر تخلص من ابن حجر نفسه بإزاحته عن منصب مشيخة الخانقاه البيبرسية ثم عن منصب القضاء[6]، وهو وضع يشير إلى اهتزاز مكانة القضاء مهما كانت قوته لارتباط تعييناته بمزاج السلطان.

وما من شك أن عالما بدرجة ابن حجر لا بد أن يستفيد منه المجتمع ولا بد أن يستفيد هومن توليه؛ إذ جعله على اتصال دائم بفئات المجتمع المختلفة، وهو ما أكسبه خبرة اجتماعية ظهرت في مؤلفاته التاريخية، كما أثار عليه تنافس وحسد آخرين، وقد وصفه السخاوي[7] بأنه كان ذا دُرْبة وخبرة في القضاء، وأنه حقق إنجازات مهمة، ومن المعروف أنه لا يضطلع بها إلا أمثاله من العلماء الأفاضل.

ب-التدريس والمشيخة

امتلأت خطط القاهرة بالمدارس والمنشآت التعليمية المختلفة، وتشترط وقفيات المدارس شروطا معينة للمدرسين بها، ويحظى المدرِّسُ بامتيازات مالية من القائمين عليها، ولي ابن حجر التدريس في أكثر من١٥ مدرسة في القاهرة، في موضوعات علمية وشرعية مختلفة تنوعت ما بين تفسير وحديث وفقه.

وصَف السخاوي[8] دروس شيخه بالمتعة والتحقيق وكثرة الفوائد وتقديم الحلول للمشكلات العلمية، ويبدو أنه كان ذا طريقة حسنة في تقديم دروسه وعرضها والتي تعتمد التعلم الفعال بطرح المشكلات والعصف الذهني وإغلاق النقاش بالتحقيق والاستدراك[9]، وهي أساليب متقدمة في العمل التدريسي؛ ولهذا تقاطر عليه العلماء والطلاب وأفادوا منه[10].

أحدهما لم يجتمع بالآخر البتة. ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص٢٧٩-٢٨٠؛ ورفع الإصر، ص١٦٩- ١٧١؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص٥٨٨،٦٣١، ١١٠٣.

[1] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٦٣٠.

[2] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص٥٧- ٦٤، ١٥٨- ١٥٩.

[3] السخاوي، الذيل على رفع الإصر، ص٢٤٥- ٢٤٩. والسفطي ولي الدين محمد بن أحمد الولوي (ت٨٥٤هـ)، ولي القضاء سنة٨٥١هـ بدلا من ابن حجر، وانتزع منه التدريس بالصالحية. السخاوي، الذيل على رفع الإصر، ص٢٤٥- ٢٤٩.

[4] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤ ص٢٤٦.

[5] المصدر السابق، ج٣ ص٢٢٢-٢٢٣،٢٨١، ٣٢٧-٣٢٨، ج٤ ص١٩٩-٢٠٠، ٢٢٨،٣٣٤-٣٣٥ ؛ السخاوي، الجواهر والدرر، ص٦٠٦، ٦١٦-٦١٧، ٦٢٦-٦٢٧، ١٠٠٦.

[6] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٦٠٤.

[7] المصدر السابق، ص٦٣٣.

[8] المصدر السابق، ص٥٩٩.

[9] المصدر السابق، ص٦١٠.

[10] ابن تغري بردي: أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، (ت٨٧٤هـ)، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ت. محمد محمد أمين، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٨٤م، ج٢ ص١٩.

لقد ولي تدريس التفسير في المدرسة الحسنية في مستهل سنة٨٢٩هـ/١٤٢٥م، وكان قد طلب من ناظرها أن يرتبه مدرسا للتفسير بها، وأن يرتب ولده محمدا شيخا للحديث على أن ينوب عنه فعليا والده في وظيفته هذه[١]، كما كما ولي تدريس الحديث أيضا بالقبة المنصورية سنة٨٠٨هـ/١٤٠٤م[٢]، وولي وظيفة الحديث في كل من المدرسة الشيخونية سنة٨٠٨هـ/١٤٠٣م، وهي أول مكان درس فيه الحديث[٣]، كما ولي تدريسه بالقبة البيبرسية بعد وفاة نور نور الدين علي بن عبدالرحمن الرشيدي الربعي (ت٨١٣هـ/١٤١٠م)[٤]، وافتتح تدريس الحديث بالجمالية أول افتتاحها سنة٨١١هـ/١٤٠٨م، ثم أسندها لتلميذه كمال الدين الشمني سنة٨١٩هـ/١٤١٦م[٥]، وولي تدريسه في كل من من مدرسة الناصر حسن نيابة عن ولده سنة٨٢٦هـ/١٤٢٢م، وجامع ابن طولون سنة ٨٣٣هـ/١٤٢٩م، والقبة المنصورية[٦]، كما ولي مشيخة الحديث في المدرسة الزينية سنة٨٥١هـ/١٤٣٧م[٧]، وفي المدرسة المحمودية حوالي حوالي سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٦م[٨]، وأسند إليه مشيخة دار الحديث الأشرفية بدمشق، وهي ظاهرة ملفتة للنظر حيث يتم يتم تشييخ من هو غائب عن المدرسة التي يُشَيَّخ فيها، ولما رحل إلى الشام سنة٨٣٦هـ/١٤٣٢م أسند مشيختها إلى أحد حفاظ الشام[٩].

ودرس الفقه في الشيخونية سنة٨١١هـ/١٤٠٨م[١٠]، وفي الشريفية الفخرية[١١] سنة٨٠٨هـ/١٤٠٥م، وفي الكهارية[١٢]، واستمرت وظيفة تدريس الفقه في المؤيدية في يده منذ وليها سنة٨٢٢هـ/١٤١٩م إلى أن مات[١٣]، وولي تدريس الفقه في الخروبية البدرية سنة٨٣١هـ/١٤٢٧م[١٤]، وولي تدريسه في المدرسة الصالحية سنة ٨٣٣هـ/١٤٢٩م[١٥]، وكذلك تدريسه في المدرسة الصلاحية ونظرها في رجب سنة ٨٤٦هـ/١٤٤٢م[١٦].

ويلاحظ أن وظائف كثيرة في التدريس حصل عليها ابن حجر ولكنه لم يكن يستمر فيها كثيرا؛ لأنه كان من عادته أن يحاول في الحصول على وظيفة لكي يحتجزها ممن لا يصلحون لها ليتنازل بها لمن يصلح[١٧].

ومن جهوده المشكورة في إدارة المدارس أنه أدخل ترتيبات فنية مثل وضع الفهارس المرتبة حسب حروف المعجم لأسماء المنتسبين إليها تساعد على سلاسة الإدارة وسرعة مراجعتها، وكانوا من قبل ذلك في تعب، كما استفاد من هذه اللفتة الفنية ديوان الجيش[١٨]؛ وهو ذوق فني ساعده على ترتيب بعض مؤلفاته.

---

[١] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٥٨٩.
[٢] المصدر السابق، ص٥٨٩.
[٣] المصدر السابق، ص٥٩١.
[٤] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٤٧٣.
[٥] المصدر السابق، ج٣ ص١٨٥؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص٥٩١-٥٩٢.
[٦] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٥٩٣.
[٧] لما فرغ الزيني الأستادار من عمارتها طلب من ابن حجر افتتاحها سنة ٨٥١هـ للتجمل به، وعين لها جماعة من طلابه منهم السخاوي والبقاعي. السخاوي، الجواهر والدرر، ص٥٩٣.
[٨] المصدر السابق، ص٥٩٥.
[٩] المصدر السابق، ص٥٩٥.
[١٠] ثم رغب عنها للقاضي شهاب الدين الأموي. السخاوي، الجواهر والدرر، ص٥٩٩.
[١١] ثم رغب ابن حجر عن هذه الوظيفة فيما بعد لنور الدين القمني. السخاوي، الجواهر والدرر، ص٥٩٦.
[١٢] وقد نزل عنها للبدر ابن الأمانة. السخاوي، الجواهر والدرر، ص٥٩٧.
[١٣] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص١٩٣؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص٥٩٧.
[١٤] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٥٩٧.
[١٥] ثم صار بعد ذلك مضافا للقضاء، لكنه لما خلع من القضاء آخر مرة أعيدت إليه تطييبا لنفسه وألبس خلعة لذلك. السخاوي، الجواهر والدرر، ص٥٩٨.
[١٦] وقد خلف فيها ابن حجر سنة ٨٤٦هـ القلقشندي، ولما عاد الونائي منفصلا عن قضاء الشام سعى فيها، فنزل له عنها طوعا سنة ٧٤٨هـ. السخاوي، الجواهر والدرر، ص٥٩٨-٥٩٩.
[١٧] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٦١٨.
[١٨] المصدر السابق، ص٦٠٤.

ج-الإملاء

الإملاء طريقة ضابطة من طُرُق نقل المعرفة من الشيخ إلى التلاميذ، اشتهرت في أوساط المحدثين للحاجة إلى ضبط الحديث النبوي عن الأخطاء، واعتبرها المحدثون أعلى مراتب الرواية والسماع، وأحسن وجوه التحمل وأقواها[1]؛ لما تعتمده هذه الطريقة من الضبط الجيد، كما أنها تلبي الحاجة إلى سماع الحديث الصحيح وتقييده عن كبار الشيوخ مباشرة دون المرور على النساخ وتصحيفاتهم وأخطائهم، ووضع علماء المصطلح آدابا لهذه الطريقة، ضمّنوها في كتب مصطلح الحديث، وخصص السمعاني كتابه (أدب الإملاء والاستملاء) لذكر آداب كلٍّ من المُمْلي والمستملي والكَتَبة من طلبة الحديث وأحوالهم والاستدلال عليها[2].

وقد كان الإملاء طريقة مهمة في رواية الأحاديث ونشرها بين الناس، وهي طريقة جماهيرية ربما كان لها أثرها في نشر ثقافة المحدثين في أوساط العامة، غير أن هذه الطريقة انقطعت عند الحافظ ابن الصلاح (ت٦٤٣هـ/١٢٤٥م)، وفي إطار جهوده لإعادة نشر علوم الحديث كان الحافظ العراقي (ت٨٠٦هـ/١٤٠٣م) هو أول من أعاد هذه الطريقة إلى الحياة العلمية سنة٧٩٥هـ/١٣٩٢م[3]، ثم تبعه ولده الحافظ أبو زرعة حتى توفي[4]، وأملى الحافظ ابن حجر حوالي١١٥٠ مجلسا، احتوتها حوالي عشرة مجلدات[5]. ورغم محاولة السخاوي والسيوطي[6] أن يواصلوا هذه الطريقة إلا أنهم لم يصلوا إلى ما وصل إليه ابن حجر، فقد كان خاتمة المطاف في هذا الصدد، ومهما كان من أمر فإن هذه العودة لهذه الطريقة تعني انتعاشا لعلم الحديث وطريقة الإملاء في القاهرة، كما يعني خمودُها بموته أن تلك الطريقة (الإملاء) كانت في الحقيقة في نزعها الأخير.

التزم ابن حجر بآداب وتقاليد الإملاء[7]، سوى أنه كشيخه العراقي كان يحدِّث من حفظه[8]، وكان يقيم مجالسه يوم يوم الثلاثاء من كل أسبوع[9]، وفي بعضها يوم الجمعة[10]، ولم يستمل له إلا جماعة من متقني أصحابه وأنبههم[11]. وأملى أغلبها في القاهرة في أماكن متعددة منها، في الجمالية المستجدة[12] والمنكوتمرية[13] والخانقاه البيبرسية[14] ولما أخرج منها سنة٨٤٩هـ واصل الإملاء بدار الحديث الكاملية[15]، وأول ما ابتدأ الإملاء في المجالس كان في الشيخونية، وبعضها في منزله بمصر على شاطئ النيل[16]. ولما سافر إلى الشام مع السلطان سنة٨٣٦هـ/١٤٣٢م عقد المجالس في دمشق وحلب[17].

[1] السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر، (ت٩١١هـ)، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، ت. صلاح عويضة، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م، ج٢ ص٨، ١٦.

[2] السمعاني: عبدالكريم بن محمد التميمي، (ت٥٦٢هـ)، أدب الإملاء والاستملاء، ت. ماكس فايس فايلر، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، ص٤٥، ٤٦، ٤٨، ٥٣، ٥٥، ٦٠، ٦١، ٦٥، ٦٦، ٦٨، ٧٠، ٧٣، ٧٧، ٨٤، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩٣، ٩٦، ١٠٥.

[3] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٢ ص١٨٤، ١٨٦، ١٨٧.

[4] المصدر السابق، مج٣ ص٤٦؛ والسيوطي، تدريب الراوي، ج٢ ص٨٢.

[5] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٥٨٤.

[6] المصدر السابق، ص٥٨٦؛ والسيوطي، تدريب الراوي، ج٢ ص٨٢.

[7] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٥٨٤، ٥٨٦، وتقارن بما ورد لدى السمعاني كما مضى.

[8] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٥٨٤؛ وابن فهد المكي، لحظ الألحاظ، ص٣٣٥.

[9] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٥٨٢، ٥٨٧.

[10] المصدر السابق، ص٥٨٢.

[11] المصدر السابق، ص٥٨١، ٥٨٢، ٥٨٣.

[12] عند افتتاحها سنة ٨١١هـ. السخاوي، الجواهر والدرر، ص٥٨١-٥٨٢.

[13] المجاورة لبيته وابتدأ الإملاء بها سنة ٨١٢هـ. السخاوي، الجواهر والدرر، ص٥٨٢.

[14] وكان أغلب مجالسه فيها. السخاوي، الجواهر والدرر، ص٥٨٢، ٥٨٣-٥٨٤.

[15] المصدر السابق، ص٥٨٤.

[16] سنة ٨٠٩هـ. السخاوي، الجواهر والدرر، ص٥٨١.

[17] المصدر السابق، ص٥٨٢-٥٨٣.

كان ابن حجر يقوم بتحضير تلك المجالس وتحريرها ليلة الثلاثاء وفي صباحه يقوم بإملائها[١]، وكان محاضرا مجيدا يمليها من حفظه محرّرة متقنة، وكانت تقع في هذه المجالس الأبحاثُ والفوائد المهمة والنكت النفيسة[٢]، وقد اشتملت تلك المجالس على ما يسميه علماء التربية الرجاع الهامشية، فعند كلامه على الأحاديث يستطرد نقدا لأسانيدها ومتونها ودلالتها، ويذكر فوائد في التاريخ والأنساب والعقائد وعلم الرجال، وبهذا وإن استهدف الإملاءُ نشرَ الحديث إلا أنه سيعطي الطلبة والسامعين رصيدا ثقافيا متنوعا بالغ الأهمية[٣]، ويجمع بين المتعة والفائدة العلمية.

لم يتقيّد ابن حجر بكتاب معين حيث أعدّ بعض التحضيرات التي أعاد صياغتها لتكون من المؤلفات[٤]، ولكنه في في غالبها كان يعتمد الابتكار في المواضيع، ويراعي المناسبات في الأزمان والوقائع[٥]، وهو ما يشير إلى واقعية ابن حجر وتفاعله مع مجتمعه[٦] ومشاركته إياهم أحاسيسهم وانفعالاتهم.

وبهذا تظهر محاولة المحدثين ومنهم العراقي وتلميذه ابن حجر في إحياء الثقافة الشعبية الحديثية كما كانت عليه في العصور الذهبية للحديث، ولكنها سرعان ما خبى أوارها.

د- الإفتاء

جرت العادة أن يمنَحَ الشيخُ تلميذَه إجازة فتوى مكتوبة كانت بمثابة الشهادة على قدرته وتأهله للفتيا[٧]، وبه يظهر يظهر أن كل من توفرت فيه الأهلية فله أن يفتي، غير أن وظيفة الإفتاء بدار العدل كانت رسمية، ويبدو أن هذا المفتي كان له حق الفتوى الدينية والمشاركة في حضور مجالس السلطان في دار العدل[٨]، ويتكون مجلس دار الإفتاء من السلطان والقضاة الأربعة وقضاة العسكر والمفتين بدار العدل من المذاهب الأربعة ووكيل بيت المال ومحتسب القاهرة[٩].

ولي هذا المنصب سنة٨١١هـ/١٤٠٧م، واستمر في يده حتى مات[١٠]، ويبدو أن صلاحياتها ومرتبها المالي لم يكن مطمعا للتنافس عليه؛ لذا لا نشهد منافسا لابن حجر حتى موته، كما أن تبحر ابن حجر في الفقه وتفوقه لم يترك مجالا لذلك أيضا، وكما تقدم فإن الطموح راود ابن حجر ليكون فقيها مفتيا، وشرب لذلك من ماء زمزم[١١]، وهو أمر منبئ عن استعداد نفسي لهذه المهمة.

بلغ معدل فتاواه في اليوم ٣٠ فتيا، وهو رقم كبير لعالم متعدد الوظائف ومتنوع الاهتمامات، ويشير إلى تمكنه وعلمه الواسع بمادتها الذي ساعده على مثل ذلك الإنجاز، وقد كان إلى فتاواه النهاية في الإيجاز مع حصول الغرض، مخرّجة على القوانين المحررة بالدلائل المعتبرة[١٢]. ولكثرتها (٣٠٠ فتوى) وقع ابن حجر في أخطاء

---

[١] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٥٨٧.
[٢] المصدر السابق، ص٥٨٤، ٥٨٥، ٥٨٦.
[٣] عبدالمنعم، ابن حجر العسقلاني، ج١ ص١٣٨.
[٤] مثل الإمتاع بالأربعين المتباينة بشرط السماع، وعشاريات الصحابة المسماة بالإصابة، وتخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب الأصلي. السخاوي، الجواهر والدرر، ص٥٨١، ٥٨٢.
[٥] المصدر السابق، ص٥٨٢.
[٦] عبدالمنعم، ابن حجر العسقلاني، ج١ س١٣٦.
[٧] القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٤ ص٤٦٣.
[٨] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٥١٦.
[٩] القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤ ص٣٧؛ والمقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣ ص٥٣- ٥٤.
[١٠] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٦٠٠.
[١١] المصدر السابق، ص٦١٥.
[١٢] المصدر السابق، ص٦١٤.

تصيّدها خصومُه للطعن عليه، لكنه اعتذر أن من يكون له هذا الكمّ من الفتاوى في مثل هذا الوقت القصير لا يُسْتَبْعَد أن يحصل منه خطأ، وربما كان غير مقصود، مع أنه كان لا يحابي في فتاواه أحدا[١].

وكان ماهرا في فهم مقاصد السائلين من العامة، وإذا استغلق عليه فهمُ سؤالٍ أرشد السائل إلى أن يكتب استفتاءَه طالبُ علمٍ، وكان إذا عرف أن مذهبه لا يوافق غرض السائل أرشده إلى من يمكن أن يجد لديه مراده ترخيصا للعامة من الناس، وإذا علم من المستفتي مقصدا سيئا من استفتائه تجاهل الإجابة على الفتوى[٢]، وهو أمر يشير إلى إلى دور الفقيه في التيسير على المجتمع المسلم من الفتاوى المتشددة، والرفع من شأن الفتوى ووظيفتها الدينية.

وكانت ترد إليه الفتاوى من مختلف أصقاع العالم الإسلامي، واشتملت على أجوبة في الفقه والحديث والتفسير والتاريخ، وكانت ردوده مناسبة لذات أصلها شعرا ونثرا[٣]، ومن الواضح أن ابن حجر كان أيضا على اتصال دائم بمختلف فئات مجتمع شعبه حكاما ومواطنين، وهو ما سيعود على عقليته وكتاباته لا سيما التاريخية منها بالنضج والكمال[٤].

هـ- الخطابة والإمامة:

اتسمت الخطابة في العصر المملوكي بالضعف وقلة الارتجال؛ لعجمة ألسنة حكامها، ولقلة الدواعي إلى تطويرها، ومع ذلك فقد انتشر الوعظ الديني وقصاراه الوعظ والإرشاد وإنكار المخالفات الفقهية[٥]، ولعل ابتعاد الشعب عن السياسة وخوف الخطباء من إغضاب الحكام كان سببا وراء قلة أو انعدام الخطب السياسية، بل إن انتشار التصوف الداعي إلى التقلل من هذا التوجه كان له أثرٌ كبيرٌ في أن يترك الشعبُ كلَّ شيء من هذا القبيل وراءه. لقد كانت الخطبة متقيدة بما يريد الحكام[٦]، بل وربما كان ذلك عن قناعة الخطباء أنفسهم بفعل الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والإدارية التي حُكِم بها الشعب من قبل الدولة المماليكية.

تولى ابن حجر بعض[٧] خطابة جامع الأزهر في حوالي سنة٨١٥هـ/١٤١٢م[٨] رغبة من خطيبه ابن رزين (ت٨١٩هـ/١٤١٦م)[٩] في التنازل له، ثم في سنة ٨٣٨هـ قايض بما معه من نصف خطابة الأزهر الشيخ شمس الدين بن محمد بما معه من خطابة جامع عمرو، ولم يلبث أن استنزل صاحب النصف الثاني وهو بدر الدين محمد بن مجد الدين البرماوي، بل وولي نظر الجامع سنة٨٤٨هـ/١٤٤٤م، واستمرت الخطابة وإمامة جامع عمرو في يده حتى في أيام تلبسه بالقضاء، وكان حينها يستنيب بديلا عنه[١٠].

---

[١] جمع ابن حجر فتاواه في مجلد سماه (عجب الدهر في فتاوى شهر). السخاوي، الجواهر والدرر، ص٦١٦- ٦١٧.

[٢] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٦١٧.

[٣] عقد السخاوي فصلا في نبذ من فتاويه صنفها إلى مكية ومدنية وقاهرية ومصرية وقدسية وشامية ويمنية وحلبية. الجواهر والدرر، ص٧٩١-٩٦٧؛ وعلي، التاريخ والمنهج التاريخي، ص١٥٤.

[٤] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٦٠٨؛ وعلي، التاريخ والمنهج التاريخي، ص١٥٤.

[٥] سليم: محمود رزق، الأدب العربي وتاريخه في عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث، القاهرة، مطابع دار الكتاب العربي، ١٣٧٧هـ - ١٩٥٧م، ص٢٢-٢٣.

[٦] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٦٠٦.

[٧] ورد في مطبوعة الجواهر ص٦٠٥ (لمشاركة غيره له في رفعها "الخطابة")، لكنها وردت لدى الباحث محمد كمال الدين في التاريخ والمنهج التاريخي ص١٦٦ وقد اعتمد على نسخة مخطوطة، وفيها ورد "في نصفها" وهو الأصح؛ إذ سيأتي أنه عاوض بنصف وظيفته في الأزهر خطيب جامع عمرو بنصف وظيفته فيه.

[٨] وقد أخطأ الباحث محمد كمال الدين عز الدين حين ذكر أنه تولاها سنة ٨١٩هـ اعتمادا على عبارة الجواهر والدرر المرتبكة التي أوهمت تاريخ وفاة ابن رزين بتاريخ تنازله عن الخطابة، والواقع أنه منذ سنة ٨١٥هـ خطب ابن حجر في الأزهر وقد تولى في خطبة الجمعة سنة ٨١٥هـ إذاعة البيان الذي أرسله = = الخليفة العباسي والأمير توزون والأمير شيخ من الشام المتضمن خلع الناصر فرج بن برقوق على منبر الأزهر. ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٥٠٩؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص٦٠٥-٦٠٦؛ وعلي، التاريخ والمنهج التاريخي، ص١٦٦؛ وابن حجر العسقلاني مؤرخا، ط١، بيروت، عالم الكتب، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ص٧٤.

[٩] تاج الدين محمد بن محمد علاء الدين الحموي الأصل المصري.

[١٠] وغالبا ما كان ينوب عنه موقّعه ناصر الدين ابن المهندس المصري. السخاوي، الجواهر والدرر، ص٦٠٨-٦٠٩.

ومن الطبيعي أن يَخْطُبَ بالسلطان في جامع القلعة أيام توليه القضاء؛ إذ كانت خطابة جامع القلعة من واجبات قاضي قضاة الشافعية، وربما استناب بعض الأحيان أحد نوابه[1]، ومع ذلك فقد تعفّف عن معلوم خطابته وكان ٤٠٠ ٤٠٠ درهمٍ شهريا بسبب كون الوقف مشتبها فيه[2]. كما كان إليه وظيفة الوعظ في جامع الظاهر[3] بالحسينية، وكان وكان يستخلف من ينوب عنه[4]. وقد وصف السخاوي[5] شيخه بالجلالة والمهابة إذا ما اعتلى المنبر، وأنه كان لخطبه وقع في القلوب، ويبدو أنه كان ذا قدرة خطابية مؤثرة.

وإضافة إلى الوعظ التقليدي الذي قام به فقد أذاع البيان الداعي إلى خلع السلطان الناصر فرج بن برقوق سنة ٨١٥هـ/١٤١٢م من على منبر الأزهر، وكان يكثر من صلاة الغائب على المشاهير من علماء الأمصار كلما بلغه نبأ وفاة لأحدهم، تنبيها على مكانتهم، وكان ينهى عن بعض العادات الاجتماعية المخالفة للرؤية الشرعية[6]، وهي مواضيع لا جديد فيها ولا ابتكار.

و- وظائف أخرى

- مشيخة البيبرسية ونظرها: انتشرت الخوانق الصوفية في عصر المماليك، وكان من أشهرها وأكبرها في مصر الخانقاة البيبرسية، ويعيَّنُ لكل خانقاة شيخٌ، اشتُرِط فيه أن يكون من جماعة الصوفية ممن صحب المشايخ، وممن لم يتخذ التصوف حرفة له، كما يعيَّن لها ناظرٌ مهمته العمل على صيانة الأوقاف والإشراف عليها وتنفيذ شروط واقفها، ومراقبة أرباب وظائفها[7].

ولي ابن حجر مشيختها في ربيع الأول سنة ٨١٣هـ/١٤١٠م، على أن بعضهم كان قد نازعه إياها، لكن فرصة لاحت له حيث استغل انتصارَه على خصمه الهروي في المناظرة في مجلس المؤيد شيخ سنة٨١٨هـ/١٤١٥م، فأعيدت إليه، واستمرت بيده إلى أن ساءت العلاقة بينه وبين السلطان الظاهر جقمق فأخرجها منه سنة٨٤٩هـ إلى العلامة شمس الدين القاياتي (ت٨٥٠هـ/١٤٤٦م)[8]. ثم أعيد إليها في أوائل ربيع الثاني سنة ٨٥٢هـ/١٤٤٨م، لكن تدبير ولده بإقامة الحساب في المدة التي وليها القاياتي وابنه وتعكر صفو علاقته بالسلطان حمله مرة أخرى إلى عزله عن النظر مع بقائه في المشيخة[9]. وقد أفادت الخانقاة من ولاية ابن حجر عليها إذ أدخل إصلاحات فنية على على كشوفات المنتسبين إليها حسب حروف المعجم، وهو ما وفر لها سلاسة إدارية وحسابية[10].

– خازن مكتبة المدرسة المحمودية، سنة ٨٢٦هـ/١٤٢٢م كما يبدو[11]، لما بنى الأستادار محمود (ت٧٩٩هـ)[12] هذه المدرسة اشترى تلك الكتب من ورثة القاضي برهان الدين ابن جماعة (ت٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م)[13] ووقفها عليها،

---

[1] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٦٠٧.

[2] المصدر السابق، ص٩٨٣.

[3] بناه الظاهر بيبرس البندقداري سنة ٦٦٥هـ، في ميدان فسيح خارج القاهرة آنذاك، وبعد أن شعّثه الزمن تسلمت موقعه مصلحة الآثار وباشرت في ترميم ما بقي منه. سعاد ماهر، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، ج٣ ص٣٣.

[4] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٥٨٩.

[5] الجواهر والدرر، ص٦١٧.

[6] المصدر السابق، ص٦٠٥-٦٠٦، ٦٠٧.

[7] عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص١٨٩.

[8] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص٦٢- ٦٣؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص٦٠١.

[9] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٦٠٥.

[10] المصدر السابق، ص٦٠٤.

[11] إذ تم عزل وتعزير خازنها فخر الدين عثمان الطاغي سنة ٨٢٦هـ، وذكر ابن حجر أنها اختبرت بعد أن ادعي نقصها في هذه السنة لدى السلطان ففهرست، وقد بين السخاوي أن المفهرس هو ابن حجر نفسه، وهو ما يرجح أنه ولي أمرها منذ ذلك الحين. ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص٢٩٩؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص٦٠٩.

[12] محمود بن علي بن أصفر عينه السودوني، جمال الدين، أستادار السلطان الظاهر برقوق، حصل أموالا طائلة، وبنى المدرسة المحمودية، وزودها بمكتبة ضخمة، توفي سنة٧٩٩هـ. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٢٩.

[13] القاضي إبراهيم بن عبدالرحيم، ولي قضاء الديار المصرية بمهابة، وكتب تفسيرا، وعني بجمع نفائس الكتب. ابن حجر، رفع الإصر، ص٢٩- ٣١؛ وإنباء الغمر ص٢٣٣.

وكانت من أنفس الكتب في القاهرة، وكانت نفاستها هي الدافع لابن حجر لتوليها، وقد أفاد منها في تكثير مراجعه العلمية؛ إذ كان يمكث ليلة في هذه المكتبة أسبوعيا، يبحث عن مواضيع وكُتُب كان قد أعد البحث عنها، وتيسّر على يديه إعادة بعض كتبها الضائعة، واستمرت بيده حتى مات، كما كان يفتدي كتبها بكتبه الخاصة فلا يأخذ المستعير من كتبها إلا ما لم يكن في مكتبته الخاصة، وإذا كان له أن يستفيد منها علميا فقد استفادت المكتبة وروادها من خبرة ابن حجر الفنية في وضع فهرستين لها، إحداهما حسب حروف المعجم في أسماء التصانيف، والأخرى على الفنون[١]، وهو أمر يعطينا إشارة مهمة في حسن إدارة المكتبات العامة في تاريخ الحضارة الإسلامية، وتسهيل الاستفادة منها.

– **الإشراف على حمام ابن الكويك[٢]:** فوّض التقي المقريزي (ت٨٤٥هـ) إليه الإشراف على هذا الحمام، واستمر واستمر معه حتى مات[٣].

وقد عرضت عليه مهامٌّ إداريةٌ أخرى فرفضها؛ منها ما تقدم من العرض بتولي قضاء الشام وترغيبه بكثرة المعاليم[٤]، ومنها السفارة إلى سلطان اليمن الرسولي من قبل السلطان المؤيد شيخ المحمودي سنة٨١٩هـ/١٤١٦م فاستعفى فأعفي عنها[٥]، لمعرفته المسبقة بسلطانها وأهلها، ولا ندري عن طبيعة المهمة التي كان يراد تكليفه بها. كما انتظره سلطان اليمن الناصر لمدة سنتين بعد موت المجد الشيرازي ليوليه قضاء اليمن لمدة سنتين، ولما لم يقدم[٦] ولاه أحمد بن أبي بكر الرداد (ت٨٢٢هـ/١٤١٩م)[٧] كما مضى.

٨- مذهبه

مذهبه الفروعي (الفقهي): تتفق المصادر الموجودة لدى الباحث في التأكيد على انتسابه للشافعية[٨]، وأورد السخاوي تقاريظ - تعتبر وثائق تاريخية - لكبار العلماء من معاصريه واجهوه في بعضها بوصفه بالشافعي[٩]، وقد تقدم أنه ولي وظائف التدريس للشافعية كما ولي رئاسة قضاتهم. غير أن السخاوي عدّ له مسائل قليلة بين فيها اختياره على خلاف الشافعية[١٠]، وهي إن دلت على أهليته للاجتهاد إلا أنها كما يبدو لم تخرجه عن دائرة التقليد الفعلي للإمام الشافعي، شأنه شأن كثير من أئمة الشافعية الذين كانت لهم اختيارات فقهية داخل المذهب الشافعي. والسبب في ذلك كثرة الأقوال في هذا المذهب مما جعله مذهبا ناميا، ومكّن تلاميذه من الاجتهاد في الفروع والتفريع في المذهب[١١]. وفي تسمية السخاوي لتلك الاجتهادات اختيارات ما يشير إلى أن ابن حجر كان يختار ما قد اختلف فيه من قبل أئمة الفقه السابقين.

---

[١] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص٢٩٩؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص٦٠٩-٦١٠، ١٠١٨.
[٢] أنشأها وزير فاطمي بين حارة زويلة ودرب شمس الدولة، ثم جددها أحد التجار المعروف بابن الكويك سنة ٧٤٩هـ فعرفت باسمه. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢ ص٥٥٥.
[٣] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٦٠٥.
[٤] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص٩٥-٩٥.
[٥] المصدر السابق، ج٣ ص٨٨. وكان الرسولي قد أرسل هدية ثمينة صرفت بمبلغ كبير في بناء المؤيدية، فطلب المؤيد من ابن حجر السفارة له إلى الرسولي لكنه استعفى، فأعفي.
[٦] ولعل رفض ابن حجر لقضاء اليمن لما جبل عليه من حب بلده أولما بلغه عن الناصر من تعاطي الشهوات وشرب المسكرات. ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص١٧٧-١٧٨.
[٧] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص١٧٧-١٧٨، والسخاوي، الجواهر والدرر، ص٦٥٢-٦٥٣.
[٨] المقريزي، درر العقود الفريدة، ج١ ص١٩٤؛ وابن فهد المكي، لحظ الألحاظ، ص٣٢٦؛ والسخاوي، الضوء اللامع، ج٢ ص٣٦؛ وابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٢ ص١٧؛ والسيوطي، ذيل طبقات الحفاظ، ص٣٨٠؛ ونظم العقيان في أعيان الأعيان، تحرير فيليب حتي، بيروت، المكتبة العلمية، ١٩٢٧م، ص٣٥؛ وابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٩ ص٣٩٥.
[٩] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٣٦٤ ، ٢٧٥، ٢٧٩، ٢٨٤، ٢٩٤، ٢٩٥.
[١٠] المصدر السابق، ص٩٦٥-٩٦٧.
[١١] أبو زهرة: محمد، تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية، القاهرة، دار الفكر العربي، ص٤٤٦.

مذهبه العقدي: لا تصرِّح كتب المترجمين القدماء بعقيدة ابن حجر الأصولية، وهو ما جعل المؤلفين اليوم من مذهبي الحنابلة والأشاعرة يتنازعونه، ويهوّن كلٌّ منهم المسائل التي خالفهم فيها، فقد شكّل علمُه الغزير وخدمته لتراث السنة والحديث ثقلا جعله محطَّ أطماعِ كلٍّ، على أنه لم يسلم من انتقادهم إذا ما خالف قناعتهم.

نسب الباحث عبدالستار الشيخ ابن حجر إلى منهج السلف في كليات العقيدة وجزئياتها[١]، ويرده أن أحد شيوخ السلفية[٢] اليوم عَدَّ مخالفات ابن حجر لهم في فتح الباري في ما يتعلق بالعقيدة فكانت ١٧١موضعا خالف فيها المذهب السلفي، كما انتقد الشيخُ ابنُ باز مواضعَ كثيرة من فتح الباري لمخالفتها ما هم عليه[٣]. ويرى الشيخ أحمد الكاتب[٤] من الأشعرية أنه كان أشعري العقيدة، لكن يشكل عليهم مخالفته بعضا مما يعتقده الأشاعرة. ويرجِّحُ فريق فريق ثالث[٥] أنه تذبذب بين الفريقين، فتارة يوافق هؤلاء وتارة يوافق هؤلاء.

يعلل الباحث كندو[٦] هذا الاختلاف بكونه لم يؤلِّف كتابا مخصصا في العقيدة، وبعدم وجود دراسة متجردة ومستقصية لجميع آراء ابن حجر الأصولية في جميع كتبه، فجاء الاختلاف فاعتمد كلٌّ فريقٍ بعضَ الدلائل في بعض مصنفات ابن حجر للاستناد عليها فلم يتفقوا في الحكم، وقد وضع الباحث كندو منهجا في تتبع ما وافق ابن حجر فيه أهل السلف وما خالفهم فيه والموازنة بين أي المذهبين غلب عليه، وأمّل في بحثه أن يسهم في ذلك المشروع[٧]، ومع التأكيد أنه بذل وسعا لا يستهان به في ذلك، إلا أن ما توصل إليه يمكن توجيه بعض الانتقادات عليه، حيث حمل البحث في هذه القضية تناقضات وتلبيسات، والتي في المحصلة لا تجعل ابن حجر إلا أشعريا[٨].

اعترف الباحث أيضا أن ابن حجر في (فتح الباري) كان يقول بأهم المسائل التي تعتبر عماد مذهب الأشاعرة، ومنها نفي التحسين والتقبيح العقليين، وامتناع تسلسل الحوادث في الماضي، وكون صفات الذات قائمة بالله تعالى أزلا وأبدا، وتفسير نصوص صفات الله وتأويلها، وإثبات رؤية المؤمنين لله في الآخرة مع نفي الجهة، والاستشفاع بالصالحين بعد موتهم، والتبرك بهم وبآثارهم وفضلاتهم الطاهرة، وجواز شدِّ الرحال إلى قبورهم لقصد التبرك بها، واعتقاد عصمة الأنبياء من الصغائر والكبائر[٩]، وتشكل هذه القضايا في مجموعها أهم عقائد الأشعرية.

---

[١] في كتابه ابن حجر العسقلاني أمير المؤمنين في الحديث، ط١، دمشق، دار القلم، ١٣١٢هـ، ص٣٤٩- ٣٦٦.

[٢] تعليقات الشيخ البراك (عبدالرحمن بن ناصر) على المخالفات العقدية في فتح الباري، نسخة إلكترونية بترقيم آلي، المكتبة الشاملة الإصدار الثاني، (الكتاب).

[٣] علق الشيخ عبد العزيز بن باز في مقدمة فتح الباري شرح البخاري، ت. عبد العزيز بن عبد الله بن باز، القاهرة، المكتبة السلفية، ج١ ص٤، بأن لابن حجر أخطاء لا يحسن السكوت عليها، وقد كتب تعليقا تحذيرا من تلك الأخطاء.

[٤] انظر الكاتب: أحمد، عقيدة التوحيد في فتح الباري، ط١، بيروت، دار الآفاق الحديثة، ١٤٠٣هـ، ص٨.

[٥] الدكتور سفر بن عبدالرحمن الحوالي في كتابه منهج الأشاعرة في العقيدة، وهو ما توصل إليه محمد بن إسحاق كندو في أطروحته منهج الحافظ ابن حجر العسقلاني في العقيدة، ص١٤٠-١٤١.

[٦] المرجع السابق، ص١٣٤-١٣٥.

[٧] المرجع السابق، ص١٤١.

[٨] ذلك أن الباحث وهو متأثر بالعقيدة السلفية كان يهمه أن يؤكد أن أهل السنة والجماعة فقط هم من كان على المذهب الحنبلي السلفي معتبرا إياها العقيدة الصحيحة وما عداها من المذاهب السنية الأخرى كالأشعرية فهو باطل. (منهج الحافظ ابن حجر العسقلاني في العقيدة ص١٣٠، ١٣٥-١٤٠)، كما بين أن أهم شيء تميز به الأشاعرة عن أهل السنة والجماعة (الحنابلة) هو تأويلهم لكثير من الصفات الإلهية الثابتة بنصوص الكتاب والسنة على حد قوله (منهج الحافظ ابن حجر العسقلاني في العقيدة ص١٣٠)، وإذا كان ذلك هو أهم الأمور الفاصلة المميزة لأهل السنة (الحنابلة) عن الأشاعرة فإن ابن حجر لم يخرج عن هذا الإطار فقد أقر الباحث نفسه في ختام بحثه أنه لم يتحول عن منهج الأشاعرة في موقفهم من الصفات هذا (منهج الحافظ ابن حجر العسقلاني في العقيدة ص١٤٥٥)، كما أنه يعاب بأنه عرض نتائج بحثه عارضا فيها ابن حجر على ما يقوله الحنابلة، مسميا لهم أهل السنة، ويأتي به ليقول إنه وافق أهل السنة في كذا وخالفهم في كذا، وربما ذكر مسألة يتفق عليها أهل السنة جميعا حنابلتهم وأشاعرتهم ليذكر أن ابن حجر وافقهم فيها، وعلى سبيل المثال قولهم بعدم وجوب الأصلح على الله، فمن المعروف أن المخالفين فيها هم بعض المعتزلة، وليس أهل السنة، ومثل أنه وافق أهل السنة في نفي رؤية الله بالعين في الدنيا، وإثباتها للمؤمنين في الآخرة، وإثبات الشفاعة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، ووجوب الطاعة للأمراء وتحريم الخروج عليهم وإن جاروا (منهج الحافظ ابن حجر العسقلاني في العقيدة ص١٤٥٢، ١٤٥٣، ١٤٥٥، ١٤٥٦، ١٤٥٧، ١٤٥٨)، وهو عمَلٌ حمَل كثيرا من التلبيس وافترض ابن حجر خارجا عن أهل السنة مسبقا، وهي أمور لا تتفق مع المنهج الذي طرحه قبلُ من تتبع أي المذهبين غلب على ابن حجر ولا تتفق وسنيته المتواترة.

[٩] منهج الحافظ ابن حجر العسقلاني في العقيدة ص١٤٥٣، ١٤٥٥، ١٤٥٦.

ومع ذلك فلم يسلم ابن حجر من انتقاد بعض الأشاعرة[1] بسبب اعتداله مع الحنابلة وتقريظه لكتاب ابن ناصر الدين الدمشقي المسمى (الرد الوافر) في الدفاع عن الشيخ ابن تيمية الحنبلي لما كفّره بعض الأشاعرة[2].

وأما موقفه العقدي من التصوف فقد مر ما يفيد أنه لم يخرج عن السائد في عصره مما أنكره الشيخ ابن تيمية وأتباعه، كما أنه كان يعتقد ولاية الأولياء من الصوفية ممن يلتزمون تعاليم الكتاب والسنة، وأما المجاذيب منهم فمن كان قبل انجذابه ملتزما بالأدب الشرعي فكان يُحْسِن الظن به وبالأحوال التي تعتريه، ومن كان غير ذلك رأى أن أحواله أحوال شيطانية[3]، غير أنه كان يرى أن تصوف الفلاسفة كابن عربي وابن الفارض ضلال مبين، ويحسن عنده لعنُهم، بل قال بكفرهم، وباهل على ضلالهم[4]، ومن وجهة نظر حديثية لم يصح لديه سند خرقة التصوف[5].

وبهذا يتبين أن ابن حجر كان شافعي الفروع على طريقة أهل الحديث، وأنه كان أشعري العقيدة في مجمل العقائد، وإن خالف بعضهم في كونه لم يتخذ مواقف متشددة ضد مخالفيهم الحنابلة، وهو بهذا يبين تسامحه داخل المذاهب السنية، إلا نحو بعض طرائق الصوفية فقد كان متشددا، كما يتبين أن نتاجه العلمي والتاريخي يعكس هذه النظرة داخل هذه المذاهب.

ثالثا: وفاته

ابتدأه المرض في ذي القعدة سنة ٨٥٢هـ/يناير١٤٤٩م، وتردد عليه الأطباء من المسلمين فقط لمعالجته، ونظر هو في كتاب (القانون) لمعرفة مرضه وعلاجه، وهُرِع إليه الفضلاء والأعيان لمعاودته وزيارته، ثم مات ليلة السبت ١٨ ذي الحجة/١٧ فبراير١٤٤٩م، وحضر جنازته عشرات الآلاف، حيث غُصَّت بهم الطرقات، وحضرها السلطان والأمراء والعلماء والأعيان[6].

وبهذا طويت صفحة عالم ملأ الدنيا علما ومصنفات، وكان أنموذجا حيا للعالم القاهري الفقيه المحدث المتصف بالاستبحار العلمي الذي هو أبلغ وصف للقاهرة في القرن الثامن الهجري، وكان مثالا نابضا للمثقف القاهري الذي لا يخلو من ثقافة عصره الإيجابية والسلبية.

---

[1] السقاف: حسن بن علي، السلفية الوهابية أفكارها الأساسية وجذورها التاريخية، ط١، عمّان، دار الإمام النووي، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، ص١٣٦-١٣٧.

[2] أثنى ابن حجر على ابن تيمية حيث ذكر أنه معدود في أكابر أهل العلم، وأن ما أصاب فيه هو الأكثر وأنه مجتهد معذور في أخطائه، وأن لا يقلد فيما أخطأ، وتبين أخطاؤه، وأنكر تكفيره ودعاهم إلى تركه حتى لا تقر عيون من سماهم الرافضة والحلولية والاتحادية ممن كان أعظم الناس قياما ضدهم، رغم أنه أورد في ترجمته في الدرر الكامنة بعضا من الانتقادات اللاذعة ضده والتي لا تكاد توجد في كتاب غيره. الدرر الكامنة، ج١ ص١٤٤- ١٦٠؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص٧٣٥-٧٣٦.

[3] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٠٤٦-١٠٤٨.

[4] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٤٣٦؛ وإنباء الغمر، ج٣ ص١٧٧-١٧٨، والسخاوي، الجواهر والدرر، ص١٠٠١-١٠٠٢، ١٠٤٦-١٠٤٨.

[5] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٩٤٠.

[6] المصدر السابق، ص١١٨٥، ١١٩٠- ١١٩٥.

الفصل الثالث: علماء القاهرة

- **أولا: أصولهم البلدانية والاجتماعية**
- **ثانيا: حالتهم المادية**
- **ثالثا: حياتهم الاجتماعية**
- **رابعا: أخلاقهم واتجاهاتهم**
- **خامسا: علاقاتهم:**

-علاقاتهم ببعضهم

-علاقاتهم بالدولة المملوكية

-علاقات القضاة بالسلطان والدولة

الفصل الثالث: علماء القاهرة

ما يهم الباحثين اليوم من الحياة العلمية الماضية هو نتاجُها العلمي أكثر من أي شيء آخر؛ إذ هو الدليل المادي الأكثر وضوحا على جهودهم ونوعيتها؛ إذ هو الذي لا زال يؤثر في حياتنا المعاصرة من خلال إنجازاته وإخفاقاته، وأفكاره المبدعة منها والتقليدية التي لا جديد فيها، ومدى ما قدّم من مساهمة في المسيرة الحضارية الإنسانية التي وصل إليها إنسان اليوم، ومن الأهمية بمكانٍ التعرُّفُ على العلماء الذين أنتجوا ذلك النتاج، من حيث خلفياتهم الجغرافية والاجتماعية وأحوالهم الاقتصادية وعلاقاتهم في ما بينهم وعلاقاتهم مع السلطة في عصرهم.

أولا: أصولهم البلدانية والاجتماعية

يظهر أن علماء القاهرة - سواء أولئك المولودين فيها أو الوافدين عليها وهم القاهريون أخذا وعطاء أو أخذا فقط أو عطاء فقط - قد احتفظوا بنسبهم البلدانية التي تبين أجنبيتهم بالنسبة للقاهرة، وليس هناك من علماء القاهرة أخذوا العلم فيها وأعطوه فيها وهم من ذوي أصول قاهرية[1] غيرُ عدَدٍ قليلٍ مقارنة بالوافدين إليها.

ويتبين من تراجمهم في الدرر الكامنة مقارنة بمصادر أخرى أنهم قلة، وإن اشتهر بعضهم شهرة واسعة، ويأتي في مقدمتهم إمام الشافعية وفقيههم ابن الرفعة الأنصاري (ت٧١٠هـ/١٣١١م)[2]، وإمام النحو ابن هشام النحوي الأنصاري (ت٧٦١هـ/١٣٥٩م)[3]، ويغلب على كثير منهم التوجه نحو إقراء القرآن ورواية الحديث[4]، ومنهم ابن أبي رقيبة (ت٧٧٨هـ/١٣٧٦م) الذي انتهت إليه رئاسة الخط (المنسوب)[5] الذي اختصت القاهرة بجعله عِلْما مختصا على حد قول ابن خلدون[6]، ويبدو أن البعض من أسر القاهرة توفرت على التخصص في تعلم الطب، ومنهم أسرة (صغير) المصرية، وهم أهل بيت كثُر أطباؤه، ومنهم محمد بن محمد، ابن صغير (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م) طبيب السلطان الناصر ابن قلاوون، ورئيس الأطباء علي بن عبد الواحد بن صغير (ت٧٩٦هـ/١٣٩٣م)[7]، وهؤلاء سوى آخرين من المصريين من فئة اليهود والنصارى الذين مارسوا الطبابة[8].

ومنهم شيخ القراءات تقي الدين ابن الصائغ (ت٧٢٥هـ/١٣٢٤م)[9]، ومنهم من كان يعظ الناس في الأزهر[10]، ومنهم من علّم أهل الوعظ الألحان وكان عارفا بالموسيقى[11]، واشتهرت أسرة الوزير الصاحب فخر الدين علي ابن حنا (ت٦٥٤هـ)[12] بتوارث التدريس بالمدرسة الشريفية[13]، ويشير ابن حجر أن حفيده الصاحب محمد بن أحمد ابن محمد بن علي (ت٧٤٧هـ) كان آخر من بقي من رؤساء مصر ومدرسيها[14]، وهي إشارة تحمل قدرا من

---

[1] يقصد الباحث بالأصول القاهرية هنا أن المصادر ومنها كتب ابن حجر التاريخية تنسبهم إلى القاهرة، أو لا تنسبهم إلى مكان آخر، أولم تنص أنهم ولدوا في مكان آخر أيضا؛ وهو ما يرجح قاهريتهم؛ إذ حرصت لا سيما كتب التراجم منها على ذكر نسبهم المكانية.

[2] أحمد بن محمد بن علي الأنصاري النجاري. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٢٨٤-٢٨٦؛ وابن قاضي شهبة: أبو بكر بن أحمد بن محمد الأسدي، (ت٨٥١هـ)، طبقات الشافعية، ت. الحافظ عبدالعليم خان، ط١، بيروت، عالم الكتب، ١٤٠٧هـ، ج٢ ص٢١١-٢١٣.

[3] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣٠٨-٣٠٩؛ والسيوطي، حسن المحاضرة، ج١ ص٥٣٦.

[4] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص١٠٨، ٣٧٩، ٣٨٤، ج٢ ص٣٨٦-٣٨٧، ج٣ ص٢٣-٢٤، ج٤ ص٣٢، ١٧٤-١٧٥.

[5] ابن أبي رقيبة: محمد بن علي بن أحمد المصري. ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص١٤٥.

[6] المقدمة، ص٥٢٤، ٥٢٨.

[7] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص١٩٠-١٩١، ج٣ ص٧٩-٨٠؛ والصفدي: خليل بن أيبك، (ت٧٦٤هـ)، أعيان العصر وأعوان النصر، ت. علي أبو زيد وآخرين، مطبوعات مركز جمعة الماجد بدبي، ط١، بيروت، دار الفكر المعاصر، ودمشق، دار الفكر، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، ج٥ ص١٨١،١٨٠.

[8] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص١٩٠، ٣٨٠؛ وابن الأخوة: محمد بن محمد بن أحمد، (ت٧٢٩هـ)، معالم القربة في أحكام الحسبة، ق١٠٧/ أ، مخطوط لعله بخط المؤلف سنة ٧١٢هـ محفوظ بمكتبة جامعة الملك سعود، قسم المخطوطات، تحت رقم٥٠٢٣ لدي منه نسخة رقمية؛ والعبدري، المدخل، ج٢ ص٣٢٦، ٣٢٨، ج٤ ص١٠٩، ١١٤؛ وابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٥ ص٢٨٤.

[9] محمد بن أحمد بن عبد الخالق المصري، كان رئيس متصدري الإقراء، رحل إليه الطلاب لعلو إسناده ودرايته. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٣٢٠-٣٢١.

[10] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٢٨٠.

[11] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص١٤٦.

[12] علي بن محمد بن سليم، بهاء الدين أسلم هو وأبوه في يوم واحد، وكان جوادا ممدحا، ورئيسا كاملا. ابن حجر، تبصير المنتبه، ص٤٧٣.

[13] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٢٤٨؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٣٢١؛ والمقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣ ص٤٦٣- ٤٦٤..

[14] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٣٥٧-٣٥٨.

الصحة إذ بدت القاهرة من خلال دراسة جغرافيتهم البشرية أنها اجتذبت عددا كبيرا من الآفاق، كان لهم الشهرة الفائقة والكثرة الكاثرة على أهلها الأصليين.

وهناك قاهريون أخذا ولكنهم آفاقيون انتماء وعطاء، وقليلٌ من هؤلاء من وُلِد في القاهرة وأغلبهم وُلِدوا في خارجها، ثم تعلموا فيها وغادروها، وتختلف أسباب ذلك فقد يكون ذلك بسبب تقليده منصبا إداريا خارج القاهرة[١]، أو مع وليِّه الذي أنيط به عمل من الأعمال خارج القاهرة[٢]، أو رغب في صحبة أحد هؤلاء الذين تولوا عملا إداريا إداريا خارجها[٣]؛ ويلاحظ ندرة شديدة في هذه الفئة من القاهريين؛ الأمر الذي يشير إلى كون القاهرة ظلت تحتفظ بأبنائها، إلا من طرد منها على سبيل الإكراه[٤]، وبعض أصول هؤلاء تعود إلى بعض أعمال مصر مثل سبك العبيد[٥] وأميوط[٦][٧]، وخارجها مثل بيت المقدس[٨]، وحوران[٩]، وآمد[١٠]، ومراكش المغرب[١١].

وأوردت الدرر الكامنة أسماءَ بعضٍ من أهل العلم وطلابه الذي ينتمون إلى بلدان خارج القاهرة ولكنهم أخذوا العلم فيها ثم عادوا إلى بلدانهم، داخل مصر كمدينة قوص، أو خارجها كالشام ولا سيما دمشق، ومكة المكرمة، وقد قدموا إلى القاهرة ابتغاء تعلم القراءات ورواية الحديث، وأخذ الفقه والعربية عن مشاهير العلماء في القاهرة، ويلاحظ أن هذه الفئة سجلت حضورا جيدا في نشر العلم في بلدانها بعد العودة، وتقلد بعضهم أعمالا تدريسية وإدارية، ونالوا قسطا وافرا من الشهرة العلمية والنتاج العلمي[١٢]، ولعل أشهر هؤلاء الحافظ والمؤرخ الشهير الذهبي.

وهناك كثيرون قدموا للتعلم في القاهرة ولم يعودوا إلى بلدانهم بل تحولوا إلى بلد آخر، وكان لهم دور علمي أو قضائي فيه، وقد قدموا من بلدان مختلفة ومنها أسوان[١٣] وأسيوط[١٤] والبرلس[١٥] من الديار المصرية[١٦]، ومن مدن الشام كدمشق وبيت المقدس[١٧]، ومن فاس[١٨] في المغرب الأقصى، ومن كرمان وقزوين[١٩] في إيران، ومن دهلي

---

[١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٤٦، ص١٥٩-١٦٠.

[٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٤٢٥-٤٢٨.

[٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٤٣٩-٤٤٠؛ وابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، ج٣ ص١٢٣-١٢٥.

[٤] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٣٠٠.

[٥] قرية من أعمال المنوفية شمال غرب القاهرة. ابن الجيعان: يحيى بن شاكر بن عبدالغني، (ت٨٨٥هـ)، التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية، القاهرة، المطبعة المطبعة الأهلية، ١٨٩٨م، ص١٠٠، ١٠٥؛ ومؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص٣١٥.

[٦] قرية من أعمال الغربية شمال غرب القاهرة أيضا إلى الجنوب من المنوفية. ابن الجيعان، التحفة السنية، ص٧١،٦٥؛ ومؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص٣١٥.

[٧] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٤٢٥-٤٢٨، ج٤ ص١٥٩-١٦٠.

[٨] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣١٦.

[٩] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٤٣٩-٤٤٠؛ وحوران كورة واسعة جنوب دمشق ذات مزارع وقرى كثيرة. الحموي، معجم البلدان، ج٢ ص٣١٧.

[١٠] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٤٦، وآمد: أعظم مدن يار بكر آنذاك، أجلها قدرا وأشهرها ذكرا. الحموي، معجم البلدان، ج١ ص٥٦.

[١١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٣٠٠. ومراكش: أعظم مدينة بالمغرب وأجلها وهي عاصمة بني عبد المؤمن. الحموي، معجم البلدان، ج٥ ص٩٤، غير أن ابن بطوطة بعد أن مدحها بسعتها وكثرة خيراتها وعظم مسجدها شبهها ببغداد في استيلاء الخراب عليها. ابن بطوطة، تحفة النظار، ج٢ ص٢٣٠.

[١٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص١٦٦-١٦٨، ج٣ ص٣٧٤، ج٤ ص٨، ٦١-٦٢، ٤١٨-٤١٩؛ وإنباء الغمر، ج١ ص١١٦، ٣٢١، ج٣ ص٤٥-٤٦؛ والذهبي: محمد بن أحمد بن عثمان، (ت٧٤٨هـ)، تذكرة الحفاظ، ت. عبدالرحمن المعلمي، بيروت، دار الكتب العلمية، ج٤ ص١٥٠٢.

[١٣] أسوان: مدينة كبيرة من أعمال آخر الصعيد جنوب مصر. الحموي، معجم البلدان، ج١ ص١٩١-١٩٢.

[١٤] مدينة على الساحل الغربي للنيل كانت مركزا إداريا في صعيد مصر، سمي بالأعمال الأسيوطية، تقع بين أخميم جنوبا ومنفلوط شمالا. مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص٣١٨.

[١٥] بَرَلُّس: بليدة على شاطئ النيل من الأعمال النستراوية المطلة على البحر المتوسط بين دمياط شرقا ورشيد غربا. مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص٣١٥، ٣١٦.

[١٦] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٣٠٨، ٣٧٣؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص١١١.

[١٧] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٤٣٧، ج٤ ص٢٨٦-٢٨٧؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص١١٤، ٣٣٦، ٣٤٧-٣٤٨؛ والسخاوي، الضوء اللامع، ج٩ ص٢١٨، ٢١٩.

[١٨] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٤٩٦. فاس مدينة مشهورة كانت آنذاك عاصمة بني مرين، من أجل مدن المغرب قبل اختطاط مراكش. الحموي، معجم البلدان، ج٤ ص٢٣٠.

[١٩] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٩٧، ج٤ ص٣١٠-٣١١، والسخاوي، الضوء اللامع، ج٥ ص٨٦. وكرمان إقليم يقع بين إقليم فارس غربا وإقليما مكران والمفازة شرقا والخليج العربي جنوبا، ومفازة خراسان شمالا، وفيه يمتد رأس مضيق هرمز. الحموي، معجم البلدان، ج٤ ص٤٥٤؛ ومؤنس، أطلس تاريخ

في الهند[1]. أخذ هؤلاء في القاهرة أنواعا شتى من العلوم النظرية، ولا سيما الدينية، ولعل ما تميزت به مصر والشام من العناية بالحديث وعلومه واحتياجها إلى حاملي العلوم العقلية الرائجة في الشرق[2] كان أهم أمر اجتذب أهله إليها، وبعضهم عاد إلى بلاد الشرق التي كان يشيع فيها العناية بالعلوم العقلية والآلية فقط لنشر علوم الحديث بها[3]. ويتبين أن أهم البلدان التي تحولت إليها هذه الفئة من العلماء هي الإسكندرية، ودمشق، وبيت المقدس، وغزة، وبصرى، وصفد، وطرابلس، والكرك في الشام، وبغداد، وشيراز[4].

غير أنه يجب أن يؤخذ في الاعتبار أنه ليس بالإمكان وضع تصنيف حاد لهذه الفئات فهناك من بذل العلم في بلده التي تعلم فيها ثم انتقل إلى القاهرة فأخذ فيها وأعطى، ثم انتقل إلى بلد آخر، ومنهم من تعلم في القاهرة وغيرها من البلدان، ومنهم من طالت به السنون أخذا فيها، ومنهم من قصرت به.

وأما القاهريون بالعطاء فهم أكثر علماء القاهرة وأشهرهم، وأصول كثير من المتفوقين فيها تعود لأمصار أخرى، منهم من ولد ونشأ فيها بعد انتقال والده أو جده إليها، ومنهم من تزود فيها من المعارف والعلوم واستقر به المقام فيها، ومنهم من استُدْعِيَ إليها للتدريس أو لعمل إداري آخر، وبهذا أصبحت القاهرة مجمعا كبيرا للعلماء الوافدين، وأنها توفّرت لها فرصة النهوض العلمي برجال العلم هؤلاء إلى درجة متميزة.

فمثلا من خلالِ تَتَبُّعِ ما يربو على ٤٠ قاضيا من (رفع الإصر) ممن لهم علاقة بالإطار الزمني والمكاني للدراسة يتضح أنه يكاد ينعدم القاضي فيها من أصول قاهرية، كما أن قلة منهم ولدوا في القاهرة لكن أصولهم القريبة كانت من أمصار أخرى وأغلبهم قدموا إليها من خارجها يطلبون العلم، أو ازدادوا تعلما فيها إضافة إلى ما لديهم، أو قدموا ابتغاء العمل فيها، أو دُعُوا إليها للقيام بعملٍ إداري أو علمي، وهكذا نجد أن أغلب مشاهير علماء القاهرة كانوا من هذه الفئة.

وبالتتبع للأصول الجغرافية لهؤلاء يتبين أن القاهرة كانت مجمعا لشبكة كبيرة من المراكز العالمية الحضارية التي دفعت بكوادرها نحو القاهرة داخل مصر[5] وخارجها، فمن الوجه البحري شمال القاهرة كان هناك علماء ينتسبون إلى القليوبية[6]، والطنتداوية[7]، وبلقينة[8]، وسبك العبيد[9]، وبلبيس[10]، والمحلة[11]، والنحريرية[12]، وسمنود[13]،

الإسلام، ص٢٢٩. وقزوين مدينة تقع شمال غرب الري (إحدى ضواحي طهران حاليا) جنوب غرب بحر الخزر (قزوين حاليا)، كانت تخضع لحكم مغول فارس آنذاك. ينظر مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص٢٢١، ٢٢٩.

[1] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص١٤-١٥. وهي عاصمة آل تغلق التي حكمت الهند خلال القرن الثامن الهجري. مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص٢٤٦.

[2] يرى الذهبي في تذكرة الحفاظ، ج٤ ص١٤٨٥ أن الحديث وعلومه هُجِر في المشرق والمغرب، مشيرا إلى تميز أهل الشام ومصر في هذا المضمار. ويقصد بالشرق هنا هو ما وراء العراق شرقا من البلدان الإسلامية من إيران حتى أفغانستان والهند الإسلامية، كما عبر عنها ابن حجر نفسه. ينظر الدرر الكامنة، ج١ ص١١٤، ج٢ ص٤٠٣.

[3] المصدر السابق، ج٣ ص٩٧؛ والسخاوي، الضوء اللامع، ج٥ ص٨٦.

[4] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٩٧، ٣٠٨، ٣٧٣، ٤٣٧، ٤٩٦، ج٤ ص١٤-١٥، ٢٨٦-٢٨٧، ٣١٠-٣١١؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص١١١، ١١٤، ٣٣٦، ٣٤٧-٣٤٨. وشيراز: قصبة بلاد فارس التي تقع في الجنوب الغربي لإيران حاليا. الحموي، معجم البلدان، ج٣ ص٣٨٠.

[5] ينظر الخريطة رقم (٤) و(٥) في الملحق رقم (١).

[6] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٣٤٦. والقليوبية هي الكورة (وحدة إدارية) الأقرب إلى القاهرة إلى الشمال منها، وتشكل اليوم أحد أجزاء ما يسمى بإقليم القاهرة الكبرى.

[7] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٣٧٣. وهي الكورة التي تحدها شمالا السخاوية وغربا السنهورية وجزيرة بني نصر، وجنوبا المنوفية، وشرقا السمنودية. مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص٣١٦.

[8] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٢٤٥. وبلقينة كانت من الأعمال الغربية، بالقرب من المحلة إلى الجنوب الغربي منها. ابن الجيعان، التحفة السنية، ص٧٣؛ ومؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص٣١٥.

[9] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٦٣-٦٤. وهي من الأعمال المنوفية. ابن الجيعان، التحفة السنية، ص١٠٠، ١٠٥.

[10] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٣٨٢؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص٢١٤، ٤٠٦، ٤٠٧-٤٠٧؛ ورفع الإصر، ص٨١. وهي مركز أعمال الشرقية، تقع على بعد عشرة فراسخ من القاهرة على طريق الشام. الحموي، معجم البلدان، ج١ ص٤٧٩؛ والقلقشندي، صبح الأعشى، ج٤ ص٢٧.

[11] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص٧٦-٧٧؛ ورفع الإصر ٢٢٩. وهي عاصمة الأعمال الغربية وبها مقام واليها. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤ ص٦٧.

[12] ابن حجر، رفع الإصر، ص٥٧. وهي مدينة من عمل الغربية. القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٤ ص٤٢٢.

[13] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٤٧٦. وهي مدينة صغيرة على بعد ميلين من المحلة أضيفت إلى أعمال الغربية بعد أن كانت عملا مستقلا. الحموي، معجم البلدان، ج٣ ص٢٥٤؛ والقلقشندي، صبح الأعشى، ج٣ ص٤٣٨.

وبساط[١]، وسنباط[٢]، وإخنا[٣]، ودمياط[٤]، وتفهنة[٥]، ودميرة[٦]، والإسكندرية[٧]، ومن الوجه القبلي جنوب القاهرة كان هناك من ينتسب إلى منية القائد[٨]، وإطفيح[٩]، والفيوم[١٠]، ودلاص، وببّا، وميدوم، وأقفهس[١١]، والأشمونين[١٢]، وأسيوط[١٣]، وإخميم[١٤]، وإلى الأعمال القوصية[١٥] ومنها قنا[١٦]، وقوص[١٧]، والأقصر[١٨]، وأرمنت[١٩]، وأسنا[٢٠]، وأدفو[٢١]، وأسوان[٢٢].

وقد شكلت هذه المراكز التي قدم منها هؤلاء بما فيها من مدارس علمية عمقا استراتيجيا ومخزونا علميا خلفيا للقاهرة، وكانت بمثابة مدارس ابتدائية وثانوية تساعد على تدريس الطلاب، ومن أراد منهم التعمق والتخصص فعليه أن يرحل إلى القاهرة، وكثيرا ما قدم إليها هؤلاء وقد أحرزوا كثيرا من العلوم إلا أنهم أرادوا التعمق والزيادة والبذل والعطاء[٢٣]، أي أن هذه المناطق ليست مزودة بشرا فقط بل كانت مشاركة للقاهرة في نتاج العلماء وتطوير العلوم.

[١] بليدة بالغربية في ولاية السمنودية. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص١٤٨؛ ورفع الإصر، ص١٦٣.

[٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص١٦. وهي بلدة من أعمال المحلة (الغربية). ابن العماد، شذرات الذهب، ج٨ ص١٠٥.

[٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٢٩١؛ ورفع الإصر، ص٣٤-٣٥. وهي بلد من عمل الغربية بالقرب من الإسكندرية. القلقشندي: ج٣ ص٤٤٢.

[٤] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص١١٥. وهي الثغر الواقع على مصب الفرع الشرقي لنهر النيل في البحر المتوسط. مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص٣١٦.

[٥] وهي قرية بالقرب من دمياط. ابن حجر، رفع الإصر، ص٢٢٤.

[٦] ابن حجر، رفع الإصر، ص١٠٨. ودميرة قرية كبيرة قرب دمياط. الحموي، معجم البلدان، ج٢ ص٤٧٢.

[٧] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٢٢٩؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٢٢٣-٢٢٤، ج٣ ص١٨٧؛ ورفع الإصر، ص٢٣٢-٢٣٣.

[٨] من أعمال الجيزية جنوب القاهرة. ابن حجر، تبصير المنتبه، ص١٣٩٤.

[٩] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٢٧٦. وهي كورة من الأعمال القبلية جنوب الفسطاط مباشرة. مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص٣١٧.

[١٠] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص١٢٨. والفيوم قاعدة كورة الفيومية وهي إلى الغرب من دلاص في البهنساوية. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣ ص٤٣٠؛ ومؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص٣١٧.

[١١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٣٠١، ج٢ ص،٣٠٧، ج٤ ص١٥٧-١٥٨؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٤٦٢، ج٢ ص٣٠٤. ودلاص وببا وميدوم وأقفهس من الأعمال البهنساوية وهي شمال عمل الأشمونين وجنوب عمل الأطفيحية والجيزية. ابن الجيعان، التحفة السنية، ص١٥٩، ١٧٣؛ والحموي، معجم البلدان، ج١ ص٢٣٧، ٣٣٣؛ مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص٣١٧.

[١٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٢٠٢. وهي عمل يقع جنوب البهنساوية وشمال المنفلوطية. مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص٣١٧.

[١٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٦٠-٦١، ج٢ ص٣٧٧، ج٣ ص٣٠٨. وأسيوط قاعدة عمل الأسيوطية وهي جنوب المنفلوطية وشمال الإخميمية، مدينة بها مساجد ومدارس وأسواق. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣ ص٤٥٤؛ ومؤنس، أطلس تاريخ الإسلام ص٣١٨.

[١٤] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٢٠٣-٢٠٤، ج٣ ص٣٨٧. حاضرة عمل الإخميمية التي هي مجاورة لعمل الأسيوطية من جنوبيه، وأكثرها في البر الغربي للنيل. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣ ص٤٥٤.

[١٥] وكان عملا مترامي الأطراف شرقي النيل وغربيه ينتهي إلى أسوان جنوبا، وكانت مخزن ثمار مصر. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣ ص٤٥٥؛ ومؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص٣١٨.

[١٦] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٤١٥؛ وتبصير المنتبه ص١١٥٤. وهي في شمال عمل القوصية.

[١٧] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٩١، ١٣٥، ٢٢٥. وهي مدينة جليلة ذات ديار أنيقة ومدارس ومساجد يسكنها التجار والعلماء، وكان بها ستة عشر موضعا للتدريس. الأدفوي: جعفر بن ثعلب، (ت٧٤٨هـ)، الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد ، ت. سعد محمد حسن، وطه الحاجري، القاهرة، الدار المصرية، ص٤٤؛ والقلقشندي، صبح الأعشى، ج٣ ص٤٥٥.

[١٨] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣٨٥، ج٤ ص٣٧٣. وهي جنوب قوص على الشاطئ الشرقي للنيل، وبها كان يوجد مدرسة. الأدفوي، الطالع السعيد، ص٤٤؛ ومؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص٣١٨.

[١٩] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص١٢؛ والأدفوي، الطالع السعيد، ص٥٢٨. وهي مدينة صغيرة على البر الغربي الشمالي من النيل، بينها وبين أسنا مرحلة، وبها مدرسة. الأدفوي، الطالع السعيد، ص٤٤؛ والقلقشندي، صبح الأعشى، ج٣ ص٤٣٥.

[٢٠] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٧٤، ج٣ ص٤٢١-٤٢٢، ج٤ ص٩٨-٩٩. وهي مدينة حسنة بالبر الغربي للنيل ما بين أصفون شمالا وإدفو جنوبا، وكان بها مدرستان. الأدفوي، الطالع السعيد، ص٤٤؛ والقلقشندي، صبح الأعشى، ج٣ ص٤٣٥؛ ومؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص٣١٨.

[٢١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص١٨٢. وهي مدينة بين أسوان جنوبا والأقصر شمالا. مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص٣١٨.

[٢٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٢٠٥. وهي آخر الصعيد الأعلى جنوبا وبداية أرض النوبة، وكان بها ثلاثة مواضع للتدريس. الحموي، معجم البلدان، ج١ ص١٩١؛ والأدفوي، الطالع السعيد، ص٤٤.

[٢٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٦٣-٦٤، ٤٢١-٤٢٢، ج٤ ص٩١-٩٢، ٩٨-٩٩، ١٣٥-١٣٦؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص٢١٤، ٢٤٥-٢٤٧، ٣٧٣؛ ورفع الإصر، ص٢٢٩؛ والأدفوي، الطالع السعيد، ص٤٤-٤٥؛ وابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، ج٣ ص١٢٠.

كما يلاحظ كثرة النِّسَبِ المكانية للعالِم الواحد، وقد تتعدد بتعدد اختلاف الأمكنة التي قطنها أو سافر إليها[١]؛ الأمر الأمر الذي يشير إلى حركة دؤوبة في مجال التنقل والهجرة بين مراكز العلم المختلفة قبل الاستقرار في المحطة الأخيرة القاهرة.

ومن أشهر القاهريين بالعطاء وهم من أصول مصرية ابن دقيق العيد الشهير، وقد لمع من أسرته آخرون شاركوا في الحياة العلمية والقضائية في مصر[٢]، ومنهم أسرة تقي الدين السبكي[٣]، وأسرة سراج الدين البلقيني[٤]، ومنهم أسرة الإخنائي[٥]، ومنهم القاضي صدر الدين المناوي[٦]، ومنهم العلامة الفقيه والمؤرخ الشافعي الأسنوي[٧]، الأسنوي[٧]، والمحدثان الميدومي[٨] والدمياطي[٩] وكثير سواهم.

وكانت بلاد الشام شريكا أساسيا للقاهرة في تطور الحركة العلمية؛ دفعت بكثير من رجالاتها إلى القاهرة، وتعود أصول كثير منهم إلى القدس، ومنهم من نشأ بها[١٠]، ويعتبر من أشهرهم ابن خليل الموقع (ت٧١٢هـ/١٣١٢م)[١١]، وصلاح الدين ابن الأعمى (ت٧٩٥هـ/١٣٩٢م)[١٢]، وقاضي الحنابلة تقي الدين أحمد بن عمر (ت٧١١هـ/١٣١١م) وولده المحدث والمؤرخ أحمد بن محمد (ت٧٦٥هـ/١٣٦٣م)[١٣]، ومنهم القاضي الشهير عبد الله بن محمد بن عبد الملك (ت٧٦٩هـ/١٣٦٦م) الذي انتشر بسببه مذهب الحنابلة في القاهرة[١٤]. ومنهم من كان من صفد وعسقلان وبعلبك[١٥]، والكرك ومنها القاضي الأزرقي (ت٨٠١هـ/١٣٩٩م)[١٦].

وكان بين دمشق حاضرة الشام والقاهرة حاضرة السلطة المملوكية المركزية علاقة وطيدة؛ ولهذا فقد وجد علماء دمشقيون في القاهرة[١٧]، منهم المسند الكردي (ت٧٢٠هـ/١٣٢٠م)[١٨]، والفقيه زين الدين الكتاني

---

[١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٩١-٩٢؛ وإنباء الغمر، ج٣ ص١٨٧.

[٢] منهم أبو بكر بن عامر بن محمد بن علي، ولي قضاء المحلة، وتوفي ٧٥٥هـ، ورقية ابنته حدثت بالقاهرة وتوفيت ٧٤١هـ، وعلي بن محمد (ابنه) ناب في الحكم عن والده، وتوفي ٧١٦هـ، ومحمد بن عثمان بن محمد بن علي (حفيده)، كتب له ابن جماعة بتدريس دار الحديث بقوص وتوفي بالقاهرة ٧٢٦هـ، ومحمد بن محمد ولده، درس بالنجيبية بقوص، وتوفي ٧١٨هـ. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٤٤٤، ج٢ ص١١٠، ج٣ ص١١٣، ج٤ ص٤٣، ٢٠٣.

[٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٦٣-٦٤. والسبكي هو علي بن عبد الكافي السبكي (ت٧٥٦هـ)، ولد وتفقه على والده، ثم في القاهرة، حتى أصبح من المبرزين بها، وولي التدريس بمدارسها، وحظي باحترام رجال الدولة، وصنف في مسائل كثيرة. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٦٣-٦٤.

[٤] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٢٤٥-٢٤٧.

[٥] منهم أحمد بن محمد بن عيسى، ناب في الحكم وولي نظر الخزانة، وتوفي ٧٣٩هـ، وعلم الدين محمد بن أبي بكر بن عيسى لازم الدمياطي، وولي قضاء الإسكندرية ثم الشام، وتوفي ٧٣٢هـ، وأخوه تقي الدين محمد بن أبي بكر بن عيسى، مهر في العلم وولي قضاء المالكية بمصر، وكان الناصر يحبه، وتوفي سنة ٧٤٩هـ، ومحمد بن محمد بن أبي بكر، ولي نظر الخزانة، ثم ولي قضاء المالكية بعد عمه تقي الدين، وتوفي ٧٦٣هـ، وبرهان الدين إبراهيم بن محمد بن أبي بكر، تفقه في دمشق، ورجع إلى القاهرة وولي القضاء بها. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٢٩١، ج٣ ص٤٠٧، ٤٠٧-٤٠٨، ج٤ ص٢٤٥؛ وإنباء الغمر ص٣٤-٣٥.

[٦] قاضي القضاة محمد بن إبراهيم السلمي المناوي، ولد ٧٤٢هـ، وتوفي سنة ٨٠٣هـ. ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٢ ص٥٠١.

[٧] جمال الدين عبد الرحيم بن الحسن الأسنائي نزيل القاهرة (ت٧٧٢هـ) صنف التصانيف النافعة، ودرّس بعدد من مدارس القاهرة، وتخرج عليه طلبتها، وكتب في مجالات عملية مختلفة، ستأتي. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣٥٤ـ ٣٥٥.

[٨] محمد بن محمد بن إبراهيم، سمع الحديث من صغره، وكان خاتمة أصحاب النجيب الحراني وابن علاق وابن عزون وفاة، أكثر الأخذ عنه المحدثون. توفي ٧٥٤هـ. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٤٥٣، ج٤ ص١٥٧-١٥٨.

[٩] شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدمياطي (ت٧٠٥هـ) الحافظ النسابة المؤرخ. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٤١٧.

[١٠] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٣٤٤-٣٤٥، ٢٥٣-٢٥٤؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص٤١٣-٤١٤، ٥١٩؛ ورفع الإصر، ص١٦٠-١٦١.

[١١] محمد بن موسى بن محمد بن خليل، الموقع الكاتب. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٢٦٩-٢٧٠.

[١٢] محمد بن محمد بن سالم الحنبلي، برع في مذهبه ودرّس في الظاهرية بين القصرين، وتعين لقضاء الحنابلة، وكان من المتعصبين لمذهب ابن تيمية. ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٤٦٤.

[١٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٢٢٥-٢٢٦، ٢٤١.

[١٤] ولي القضاء في القاهرة. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٢٩٧-٢٩٨.

[١٥] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٣٧٤، ٤ ص٩٠، وإلى عسقلان ينتسب كثيرون انتقلوا منها ومنهم ابن حجر نفسه وأسرته.

[١٦] أحمد بن عيسى العامري الأزرقي الشافعي، ولد بالكرك حوالي ٧٤١هـ، وتعلم في مصر وغيرها، وقدم القاهرة قاضيا سنة ٧٧٢هـ، ودرس بمدارسها، وكان عفيفا نزيها. ابن حجر، رفع الإصر، ص٦٦-٦٨.

[١٧] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص١١، ج٢ ص٤٤٦، ج٤ ص٣٩٠؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٣٨١، ج٢ ص٢٢-٢٣؛ ورفع الإصر، ص٣٢.

[١٨] الحسن بن عمر بن عيسى، ولد بدمشق سنة ٦٣٠هـ، وتحول إلى الجيزة، ثم تعرف عليه طلاب الحديث فجأة، فأحضر إلى القاهرة مرات للسماع عنه. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣١-٣٢.

(ت٧٣٨هـ/١٣٣٧م)[١]، والقاضي الحنفي شمس الدين الحريري (ت٧٢٨هـ/١٣٢٧م)[٢]، والخطاط ابن الوحيد (ت٧١١هـ/١٣١١م)[٣]، والأسرة العلمية الطبية من ذرية ابن أبي الحوافر القيسي (ت نحو ٦٢٠هـ/١٢٢٣م)[٤].

وإلى بيت المقدس ينتسب القاضي الحنبلي أحمد بن عمر بن عبدالله المقدسي (ت٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م)[٥]، والقاضي موفق الدين عبد الله بن محمد بن عبد الملك الربعي المقدسي الحنبلي (ت٧٦٩هـ/١٣٦٧م)[٦]، ومنهم الطبيب إسماعيل بن إبراهيم المقدسي، ابن الحراني (ت٧٣١هـ/١٣٣٠م)[٧].

وإلى حماة تتحدّر أسرة القاضي تقي الدين ابن رزين الحموي (ت٦٨٠هـ/١٢٨١م)[٨] العلمية في القاهرة، وكان لهم دور بارز في حياة العلم بالقاهرة طوال القرن الثامن الهجري[٩]، وكذلك الأسرة المشهورة بالقاهرة علما وقضاء وقضاء وهي أسرة القاضي بدر الدين ابن جماعة الشافعي (ت٧٣٣هـ/١٣٣٢م)[١٠] الذي تنقلت به أحوال القضاء ليستقر في القاهرة، وهناك أعقب ذرية نساء ورجالا شاركوا بقوة في حياتها العلمية والقضائية طوال القرن الثامن الهجري[١١].

وإلى حلب ينتسب علماء أثروا الحياة العلمية، ومنهم المقرئ الحافظ قطب الدين ابن منير الحلبي (ت٧٣٥هـ)[١٢]، والمحدث جمال الدين ابن الصابوني (ت٧٣١هـ/١٣٣٠م)[١٣]، وشيخ الحنفية في عصره أبو الطاهر الحلبي (ت٧١١هـ/١٣١١م)[١٤]، والمقرئ النحوي السمين الحلبي (ت٧٥٦هـ/١٣٥٥م)[١٥]، وناظر الجيوش ابن عبد الدائم (ت٧٧٨هـ/١٣٧٦م)[١٦]، والصدر الكاتب ابن الأثير (ت٧٣٧هـ/١٣٣٦م)[١٧]، والعلامة الألسني فخر الدين الدوركي

---

[١] عمر بن أبي الحرم الدمشقي الشافعي، ولد سنة ٦٣٥هـ بالقاهرة ونشأ وتتلمذ بدمشق، وأفتى ودرس ثم انتقل إلى مصر، وولي بعض الولايات، وتصدر للتدريس بالقاهرة، وكان له موقف مندد بالحكام الظالمين. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص١٦١-١٦٣؛ وابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، ج٢ ص٢٧٦-٢٧٧.

[٢] محمد بن عثمان بن أبي الحسن الأنصاري، ولد في ٦٥٣هـ بدمشق، وتعلم بها، ثم طلب للقضاء بالديار المصرية سنة ٧١٠هـ، وأضيف إليه التدريس ببعض مدارس القاهرة، وكان متين الديانة حريصا على الحق. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٩-٤٠.

[٣] محمد بن شريف الزرعي، كاتب الشريعة بجامع الحاكم. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٤٥٣-٤٥٦.

[٤] عثمان بن هبة الله بن أحمد القيسي، أكبر أطباء عصره، ولد ونشأ بدمشق، وخدم الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين، وولاه في القاهرة رئاسة الطب، وبقي كذلك إلى أن توفي بالقاهرة، وهناك بقيت له ذرية توارثت المعرفة الطبية وشاركت في الثقافة العامة للمجتمع كرواية الحديث. ابن أبي أصيبعة: أحمد بن القاسم بن خليفة السعدي الخزرجي، (ت٦٦٨هـ)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ط١، المطبعة الوهبية، ١٢٩٩هـ -١٨٨٣م، ج٢ ص١١٩؛ وابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٢٤٥، ج٣ ص٨١، ج٤ ص٣٨.

[٥] ابن حجر، رفع الإصر، ص٦٦-٦٦.

[٦] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٢٩٧- ٢٩٨؛ وإنباء الغمر، ج١ ص١٤٤.

[٧] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٣٦٣.

[٨] محمد بن الحسين بن رزين الشافعي، ولد بحماة سنة ٦٠٣هـ، استوطن القاهرة سنة ٦٥٨هـ عند هجوم التتار على الشام، وناب في الحكم فيها ودرس بالصلاحية والظاهرية، واشتهر بالفتاوى فقصد من بلدان مختلفة. ابن حجر، رفع الإصر، ص٣٥٦.

[٩] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٤٤٥، ج٣ ص١٧٣، ج٤ ص٢٩.

[١٠] قاضي القضاة بدر الدين محمد بن إبراهيم، عالم موسوعي، ولي قضاء الديار المصرية، كتب في مختلف المجالات المعرفية. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج ٣ ص٢٨٠-٢٨٣؛ ورفع الإصر، ص٣٤٢-٣٤٦.

[١١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٣٨، ج٢ ص١٢٠، ٢٣٦، ٣٧٨-٣٨١، ج٣ ص١٧٢؛ وإنباء الغمر، ج٣ ص١١٦-١١٧.

[١٢] عبد الكريم بن عبد النور بن منير، قطب الدين الحلبي، ابن أخت نصر المنبجي، الحافظ المؤرخ. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣٩٨؛ والذهبي، تذكرة الحفاظ، ج٤ ص١٥٠٢.

[١٣] أحمد بن يعقوب بن أحمد، الحلبي الأصل ثم الدمشقي، نزيل القاهرة، ولد سنة٦٧٦هـ، رحل وتميز وتلقى الحديث عن شيوخ كثر، وولي مشيخة الحديث بالمنكوتمرية. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٣٣٦-٣٣٧.

[١٤] إسحاق بن علي بن يحيى، نجم الدين، تفقه ومهر، وناب في الحكم عن النعماني، وشرح الهداية، ودرس في الأزكوجية والمنصورية والفارقانية بالقاهرة. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٣٥٨.

[١٥] أحمد بن يوسف بن عبد الدائم، شهاب الدين. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٣٣٩.

[١٦] محمد بن يوسف بن أحمد بن عبد الدائم، محب الدين الحلبي، ذكرت الدرر الكامنة أنه ولد بالقاهرة سنة٦٩٧هـ، وذكر إنباء الغمر أنه ولد وتعلم في بلاده ثم قدم القاهرة، ويترجح ما ورد في الدرر لكونه يوافق ما ذكره الجزري: محمد بن محمد، (ت٨٣٣هـ)، غاية النهاية في طبقات القراء، ت. ج. برجستراتر، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٦م، ج٢ ص٢٤٨. وكان أخص به وأعرف لكونه تتلمذ عليه، ولي نظر الجيوش. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٢٩٠-٢٩١؛ وإنباء الغمر، ج١ ص١٤٧.

[١٧] أحمد بن إسماعيل بن أحمد، نجم الدين، من كبار رؤساء القاهرة، وكتب بدار الإنشاء، وكان يحضر مجلس دار العدل، وسمع الحديث من ابن الشحنة. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص١٠٤.

(ت٧١٣هـ/١٣١٣م)[١]. وإلى الشرق من حلب (بالس)[٢]، ومنها الفقيه ابن عقيل الشافعي (ت٧٢٩هـ/١٣٢٨م)[٣]، والقاضي النحوي بهاء الدين ابن عقيل (ت٧٦٩هـ/١٣٦٧م)[٤]. وإلى أذرعات[٥] ينتسب بعضهم، ومنهم القاضي جمال الدين الزرعي (ت٧٣٤هـ/١٣٣٣م)[٦]، وإلى منبج[٧] ومنها الشيخ المقرئ والصوفي نصر المنبجي (ت٧١٩هـ/١٣١٩م)[٨].

وقدم بعضهم من اليمن، ومنهم الشيخ عبدالله بن أسعد اليافعي الشافعي اليمني ثم المكي (ت٧٦٨هـ/١٣٦٦م)[٩]، وابن عبد المجيد اليماني (ت٧٤٤هـ/١٣٤٣م)[١٠]، وغيرهما[١١]، ومن الحجاز، ومنهم محمد بن أحمد الحجازي ثم المصري (ت٧٩٢هـ/١٣٨٩م) الملقب بالرفاء[١٢]، ومن مكة المكرمة[١٣]، والمدينة المنورة[١٤].

ومن الجزيرة من الموصل، ومنهم موفد ملكها إلى مصر أبو المعالي ابن الخطيب[١٥]، والمؤدب الموصلي (ت٨١٥هـ/١٤١٢م)[١٦]، وجزيرة ابن عمر[١٧]، وإلى ماردين[١٨] تنتسب أسرة فخر الدين التركماني الماrديني (ت٧٣١هـ/١٣٣٠م)[١٩]، ودنيسر[٢٠]، وحران[٢١] ومنها الإمام المتطبب ابن شبيب الحنبلي (كان حيا سنة

---

[١] محمد بن مصطفى بن زكريا، التركي الأصل الدوركي، أدب السلطان الناصر، ودرس في الحسامية. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٢٥٩.

[٢] بينها وبين الرقة على الجانب الغربي للفرات. الحموي، معجم البلدان، ج١ ص٣٢٨.

[٣] فخر الدين محمد بن عقيل بن أبي الحسن، أخذ في دمشق والقاهرة، وناب في الحكم بها، وانتفع به طلبتها، ودارت عليه الفتيا بها. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٥٠.

[٤] عبد الله بن عبد الرحمن، البالسي نزيل القاهرة قاض القضاة والفقيه النحوي. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٢٦٦-٢٦٨.

[٥] مدينة بالبلقاء (شرقي الأردن). الحموي، معجم البلدان، ج١ ص١٣٠.

[٦] سليمان بن عمر بن سالم، من أصل مغربي، وتعلم بدمشق، وناب عن ابن جماعة في القاهرة، ووليه استقلالا، ثم أعيد ابن جماعة، وكان فصيحا بالتركي والفارسي والعربي. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص١٥٩-١٦٠.

[٧] من أعمال حلب، إلى الشرق منها، قرب الفرات. الحموي، معجم البلدان، ج٥ ص٢٠٥.

[٨] نصر بن سلمان بن عمر، أخذ العلم في حلب والقاهرة، وبها استقر، وتصدر للقراءات، وشارك في العلوم، وانقطع بزاوية للعبادة، وكانت له حظوة لدى بيبرس الجاشنكير، وكان يحط على ابن تيمية لقدحه على ابن العربي، أثنى عليه الذهبي. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٩٢؛ والصفدي: أعيان العصر ج٥ ص٥٠٢.

[٩] نشأ وتعلّم أولا في اليمن قبل أن يغادرها إلى مكة. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٢٤٧- ٢٤٨.

[١٠] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣١٥.

[١١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص١٧١.

[١٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٣٤١.

[١٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٢٧٥.

[١٤] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص١١٥- ١١٦.

[١٥] محمد بن علي بن أحمد الأربلي ثم الموصلي. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٥٧.

[١٦] إبراهيم بن أحمد الموصلي، تفقه واحترف تأديب الأطفال بالقاهرة. ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٥٢٣.

[١٧] وهي بلدة فوق الموصل، بينهما ثلاثة أيام دمرها تيمور لنك فيما بعد، نسب إليها مشاهير العلماء من بني الأثير. الحموي، معجم البلدان، ج٢ ص١٣٨. وإليها ينتسب العلامة محمد بن يوسف الجزري، قدم قوص وتعلم بها، ثم درس بالقاهرة، وقرأ عليه اليهود والنصارى والمسلمون، وكان عالما بالفقه والأصولين والنحو والمنطق والرياضيات والأدب والطب، وتوفي سنة ٧١١هـ. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٢٩٩-٣٠٠؛ والسبكي: عبدالوهاب بن علي، (ت٧٧١هـ)، طبقات الشافعية الكبرى، ت. محمود الطناحي، وعبدالفتاح الحلو، ط١، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م، ج٩ ص٢٧٥-٢٧٦.

[١٨] قلعة مشهورة على قمة جبل الجزيرة مشرفة على دنيسر ودارا ونصيبين. الحموي، معجم البلدان، ج ٥ ص ٣٩.

[١٩] عثمان بن إبراهيم بن مصطفى الماrديني، نزل مصر، وشرح الجامع الكبير في فقه الحنفية، أقرأه في المدرسة المنصورية، وأنجب ولديه القاضيين علاء الدين علي، ولي القضاء وتوفي سنة ٧٥٠هـ، وتاج الدين أحمد صنف في ١٧ فنا من العلوم، وتوفي سنة ٧٤٤هـ، ومنهم القاضي عبد الله بن علي بن عثمان، درس بالكاملية والتفسير بالطولوني، وتوفي سنة٧٦٩هـ. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص١٩٨، ج٢ ص٢٧٦، ج٣ ص٨٤؛ والصفدي: خليل بن أيبك، (ت٧٦٤هـ)، الوافي بالوفيات، ت. أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، ط١، بيروت، دار إحياء التراث العربي،١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م، ج١٩ ص٣٠٦.

[٢٠] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٤٤١. وهي قرب ماردين بينهما فرسخان. الحموي، معجم البلدان، ج٢ ص٤٧٨.

[٢١] وهي قصبة ديار الجزيرة، على طريق الموصل والشام. الحموي، معجم البلدان، ج٢ ص٢٣٥.

٧٤٧هـ/١٣٤٦م)[١]، ومن سروج[٢]، ومنها القاضي شمس الدين السروجي (ت٧١٠هـ/١٣١٠م)[٣]، ومن ديار بكر[٤]، بكر[٤]، ومنهم أمير السيف والقلم محمد بن جنكلي (ت٧٤١هـ/١٣٤٠م)[٥]،

ومن آمد[٦]، وباجربق[٧].

ومن أرض الروم[٨] من قونية[٩] ومنها علاء الدين القونوي (ت٧٢٩هـ/١٣٢٨م)[١٠]، ومن قيصرية[١١] ومنها جمال الدين العجمي ابن القيصري (ت٧٩٩هـ/١٣٩٦م)[١٢]، وثيرة، ومنها جمال الدين الثيري التباني (ت٧٩٣هـ/١٣٩٠م)[١٣]، وبابرت ومنها الشيخ أكمل الدين البابرتي (ت٧٨٦هـ/١٣٨٤م)[١٤]، ومن مدن أرمينية من خلاط، ومنهم المسند الصوفي ابن الصلاح (ت٧٢٧هـ/١٣٢٦م)[١٥].

وإلى العراق - وكانت في القرن الثامن تحت حكم المغول والجلائريين - تعود أصول حافظ عصره زين الدين العراقي الكردي (ت٨٠٦هـ/١٤٠٣م)[١٦]، وآل الهكاري المحدثين[١٧]، وسعد الدين الحارثي الحنبلي (ت٧١١هـ/١٣١١م)[١٨]، ومنها قدم نجم الدين البغدادي (ت٧٤٨هـ/١٣٤٤م)[١٩]، والسيف البغدادي (ت٧٠٥هـ/١٣٠٥م)[٢٠]، وأبو الفتح التستري (ت٨١٢هـ/١٤٠٩م)[٢١]، وابن النور الحكيم (ت

[١] الشيخ نور الدين علي بن عبدالرحمن بن شبيب الحنبلي الحراني. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٥٩-٦٠؛ والصفدي، الوافي بالوفيات، ج٦ ص٢٢٣-٢٢٤. ٢٢٤.

[٢] بلدة قريبة من حران. الحموي، معجم البلدان، ج٣ ص٢١٦.

[٣] أحمد بن إبراهيم بن عبد الغني، ولي قضاء الحنفية في ديار مصر. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٩١-٩٢؛ وابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج١ ص٢٠١.

[٤] إحدى ديارات أرض الجزيرة تنسب إلى بكر بن وائل، غربي نهر دجلة، ومن مدنها آمد وميافارقين. الحموي، معجم البلدان، ج٣ ص٤٩٤.

[٥] أمير عالم موسيقي، تحنبل في القاهرة بعد أن كان حنفيا. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٤١٦-٤١٧.

[٦] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٤٦؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٤٩٦.

[٧] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص١٢-١٤. وهي كورة بين البقعاء ونصيبين من قرى ما بين النهرين. الحموي، معجم البلدان، ج١ ص٣١٣.

[٨] أطلق هذا الاسم على أراضي دولة تركيا المعاصرة، وكانوا يكتبونها هكذا (أرضروم).

[٩] تقع إلى الجنوب الغربي من مدينة طرسوس، وجدها ابن بطوطة يكثر فيها الصوفية، وفيها قبر الصوفي الكبير جلال الدين الرومي. ابن بطوطة، تحفة النظار، النظار، ج١ ص٢٢٦.

[١٠] علي بن إسماعيل بن يوسف القونوي من أفاضل صوفية القاهرة، ولي قضاء الشام. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٢٤-٢٨.

[١١] مدينة في وسط الأناضول بين ملطية وأنقرة. مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص٣٥٢.

[١٢] محمود بن محمد القيصري، قدم القاهرة قديما، وقرأ بها، وولي قضاء الحنفية والحسبة ونيابة الحكم، ومشيخة الشيوخ، ونظر الجيوش، والتدريس بعدة مدارس، وكان فصيحا بالعربية والفارسية والتركية، وكان ذا دهاء وتأنق. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٣٦-٣٣٧؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٥٤١-٥٤٢.

[١٣] جلال بن أحمد، الشيخ العلامة الفقيه الحنفي، قدم القاهرة قديما وتعلم بها، وصنف مصنفات كثيرة، ودرس بالصرغتمشية والألجيهية، وامتنع عن تولي القضاء. وثيرة بلدة بالروم. ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٤٢٤؛ وابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٥ ص٤.

[١٤] بابرت بأرضروم شمال شرق تركيا حاليا، وأكمل الدين محمد بن محمود الحنفي، من أئمة الحنفية بالقاهرة، وله دور علمي كبير. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٢٥٠-٢٥١؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٢٩٨؛ وأبو خليل: شوقي، أطلس دول العالم الإسلامي، ط٢، دمشق، دار الفكر، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، ص٤٢.

[١٥] علي بن أبي بكر الواني، نزيل مصر، ومسندها. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٩٠.

[١٦] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٢٧٥.

[١٧] منهم المفسر العالم برجال الحديث، أحمد بن أحمد الهكاري الكردي (ت٧٦٣هـ)، وابنته المسندة المعمرة جويرية بنت أحمد (ت٧٨٣هـ). ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٩٨، ٥٤٤؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٢٤٥.

[١٨] مسعود بن أحمد الحارثي، نسبة إلى الحارثية قرية من قرى بغداد، إمام الحنابلة في القاهرة، اتهم بالتجسيم. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٤٧-٣٤٨.

[١٩] عبد العزيز بن عبد القادر، درّس في القراسنقرية، وتعين لمشيخة خانقاة سعيد السعداء القاهرة، وتوفي بها. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣٧٥-٣٧٦، والصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٨ ص٣٢٣.

[٢٠] عيسى بن داود المنطقي الحنفي، ولد بخوارزم، وتعلم ببغداد، ودرّس المنطق في المدرسة الظاهرية بين القصرين بالقاهرة، وأخذ عنه أعلامها. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٧٥، ج٣ ص١٠١- ١٠٢، ٢٠٣- ٢٠٤، ٣٠٨.

[٢١] نصر الله بن أحمد التستري الأصل البغدادي، قدم القاهرة في ٧٩٠هـ تقريبا، وتقرر مدرسا للحنابلة بمدرسة برقوق. ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٤٤٤.

بعد٧٧٠هـ/١٣٦٨م)[١]، والموسيقار شمس الدين المرواني (ت٧٦٣هـ/١٣٦١م)[٢]، والقاضي الحنفي حسام الدين الغوري (ت في خمسينات القرن الثامن)[٣].

ومن بلاد العجم (إيران) والتي كانت إلخانية مغولية تحت حكم ذرية هولاكو، قدم منها علماء منهم أحمد بن عبد الله العجمي(ت٧٨٠هـ/١٣٧٨م)[٤]، والموسيقي عارف العجمي (ت٧٨٠هـ/١٣٧٨م)[٥]، والقاضي أبو الثناء جار الله الحنفي (ت٧٨٢هـ/١٣٨٠م)[٦] ومن تبريز أحد أهم مراكز العلم الإلخانية بالتحديد قدم جماعة من العلماء الذين أثروا الحياة العلمية في القاهرة، ومنهم الأطباء أسرة الطبيب نفيس بن داود (قدم القاهرة سنة ٧٥٤هـ/١٣٥٣م)[٧]، ومحمد بن أبي محمد التبريزي (ت٧٧٦هـ/١٣٧٤م)[٨]، وتاج الدين التبريزي (ت٧٤٦هـ/١٣٤٥م)[٩]، وإلى أشنة[١٠] إلى الجنوب الغربي منها ينتمي المحدث صالح بن مختار (ت٧٣٨هـ/١٣٣٧م)[١١]. ومن شيراز قدم المحدث الأبرقوهي (ت٧٠١هـ/١٣٠١م)[١٢]، ومن تستر[١٣]، قدم بدر الدين التستري الشافعي (ت بعد٧٣٠هـ/١٣٢٩م)[١٤]، ومن أصفهان[١٥] قدم الشيخ شمس الدين الأصفهاني (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م)[١٦]، ومن شرق إيران في (سبزوار)[١٧] قدم قنبر الشافعي (ت٨٠١هـ/١٣٩٨م)[١٨]، وقدم من بلاد القرم[١٩] قاضيها ضياء الدين العفيفي (ت٧٨٠هـ/١٣٧٨م)[٢٠]،

---

[١] يحيى بن عبد الرحمن الجعبري، الكحال والنقاش والموسيقار والخطاط. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٤١٧-٤١٨.

[٢] محمد بن عيسى بن حسن بن كر، ولد ونشأ بالقاهرة، وتفقه حنبلياً، وسمع الحديث، ثم تعلم الموسيقى فصار كبير موسيقيي القاهرة. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص١٢٨.

[٣] حسن بن محمد بن محمد، ولد ببغداد وتفقه بها، وولي الحسبة وقضاء الحنفية بالقاهرة، وشنع عليه ابن حجر، بما يشير إلى شائبة تعصب مصرية ضد هذا العراقي الذي بدت تعاملاته مغضبة لسياسة السلطان، فسلط عليه العامة، فاضطر للعودة إلى بغداد. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص١٩٩. وجهل المؤرخين بتاريخ وفاته؛ لأنه لما عاد إلى بغداد انحسر عن أضواء التاريخ التي كانت مشرقة في الشام ومصر.

[٤] كان مغرى بكتب ابن العربي، واشتغل بالعلوم العقلية. ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص١٨١.

[٥] عارف بن محمد، نزيل القاهرة، انتهت إليه رئاسة الموسيقى بها، وكان أحد صوفية البيبرسية. ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص١٨٤.

[٦] محمد بن عبد الله بن محمود، قدم من الشرق، وهو متأهل في عدة فنون ومنها الطب، وولي مشيخة سعيد السعداء، وقضاء الحنفية، وساس الناس سياسة جميلة. ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٢٢٩؛ ورفع الإصر، ص٣٨٠-٣٨١.

[٧] نفيس بن داود الداودي التبريزي، قدم القاهرة في خدم وحشم، فاشتمل عليه اليهود، وعرف بالمهارة في الطب ومعرفة الجواهر، فألزمه الناصر حسن بالإسلام بالإسلام فأسلم، فأقطعه إقطاعا، وأسلم بإسلامه خلق كثير، وخلف ولديه بديع الذي أصبح رئيس أطباء القاهرة سنة٧٨٢هـ وله في الطب تصانيف، ومعتصم الذي عاد إلى تبريز، وولد له فتح الله الذي استقر أيضا رئيس أطباء القاهرة وطبيب الظاهر برقوق فيما بعد. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص١٥٩، ج٤ ص٣٩٦-٣٩٧؛ ،وإنباء الغمر، ج١ ص٢١٦، ج٣ ص٢٩-٣٠.

[٨] الشافعي، تعلم في بلده، وبرع في المعقول، ودرس الطب بالبيمارستان المنصوري، والفقه بالمنصورية، وانتفع به الطلاب كثيرا. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٢٥٠؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٣٣.

[٩] تاج الدين علي بن عبد الله بن أبي الحسن الأردبيلي الشافعي، قدم سنة ٧٢٢هـ، وكان موسوعي المعرفة، درس في الحسامية، وانتفع الناس به. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٧٢-٧٣. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٧٢-٧٣؛ والسبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج١٠ ص١٣٧-١٣٨.

[١٠] قرية في أطراف أذربيجان من الجنوب الغربي بين أربيل غربا وأرمية شرقا أقرب إلى هذه الأخيرة. الحموي، معجم البلدان، ج١ ص٢٠١؛ ومؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص٢٢٠.

[١١] الأشنهي العجمي الأصل المصري المولد أقام بقبة الشافعي زمانا وحدث. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٢٠٤-٢٠٥.

[١٢] أحمد بن إسحاق الهمذاني الأصل الأبرقوهي (أبرقوه من عمل شيراز) الصوفي، رحل للحديث في الأمصار، ثم قطن القرافة، وحدث إلى أن مات، وروى عنه مشاهير المحدثين. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص١٠١-١٠٢.

[١٣] أعظم مدينة بخوزستان (الأحواز) وهو إقليم واسع بين البصرة وفارس، يشتمل على مدن كثيرة. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤ ص٣٤٠.

[١٤] محمد بن أسعد، ذكره الشيخ الأسنوي وأطراه في العلم، في الأصولين والمنطق والفقه، وعابه بالتشيع ولم يستقر كثيرا في القاهرة. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٣٨٣-٣٨٤.

[١٥] هي عاصمة بلاد الجبل، وصفها ابن بطوطة بكونها من كبار المدن وحسانها في عراق العجم، وأنها قد خرب بعضها بسبب الفتنة بين الشيعة والسنة. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤ ص٣٦٦؛ وابن بطوطة، تحفة النظار، ج١ ص١٤٧- ١٤٨.

[١٦] الشيخ شمس الدين محمود بن عبد الرحمن، درس بالشام ومصر، واستقر بها، وكان مبرزا في العلوم العقلية والأصول والعربية والطب. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٢٧-٣٢٨؛ والنعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج١ ص٢٠٤.

[١٧] قاعدة بيهق في خراسان. الزركلي، الأعلام، ج٦ ص٤٨.

[١٨] في إنباء الغمر، ج٢ ص٨٠-٨١، وردت نسبته هكذا (السبزواني) والصحيح (السبزواري)؛ لأنه لا يوجد بلد اسمه (سبزوان) في كتب البلدان التي بين يدي الباحث، وتوجد فقط (سبزوار) في بيهق كما تقدم.

[١٩] وهو اسم للإقليم وهو يشمل أربعين بلدا، منها صلغات وصوداق والكفا، وقد يطلق على صلغات. أبو الفدا: إسماعيل بن علي الأيوبي، (ت٧٣٢هـ)، تقويم البلدان، ت. رينود، وماك كوكين ديسلان، باريس، دار الطباعة السلطانية، ١٨٤٠م، ص٢٠٠. وهي اليوم سواحل أوكرانيا على البحر الأسود.

[٢٠] ضياء بن سعد الله القرمي العفيفي، الفقيه الشافعي، تفقه في بلاده، وأخذ عن القاضي عضد الدين الإيجي، وأخذ عنه قديما سعد الدين التفتازاني، درّس في البيبرسية والشيخونية، وسماه الأشرف شيخ الشيوخ. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٢٠٩-٢١٠؛ وإنباء الغمر، ج١ ص١٨٣-١٨٤.

والشيخ ركن الدين القرمي (ت٧٨٣هـ/١٣٨١م)[١]، ومن بلاد السراي[٢] قدم بعضهم ومنهم ابن قطلوشاه الحنفي (ت٧٧٥هـ/١٣٧٣م)[٣] والشيخ بدر الدين الكلستاني (ت٨٠١هـ/١٣٩٨م)[٤].

ومن بلاد خوارزم من مدينة كاث[٥] ومنهم افتخار الدين الكاثي (ت٧٤١هـ/١٣٤٠م)[٦]، والطبيب النعمان بن دولات شاه (ت بعد٧٢١هـ/١٣٢١م)[٧]، ومن بلاد ما وراء النهر من بخارى[٨] ومنهم أبو العلاء السنجاري البخاري البخاري (ت٧٠٠هـ/١٣٠٠م)[٩]، ومن أتقان[١٠] جاء الفقيه الحنفي أمير كاتب بن عمر أمير عمر الأتقاني (ت٧٥٨هـ/١٣٥٦م)[١١].

ومن بلاد الترك من أبناء المماليك من رفدوا الحياة العلمية بصورة محدودة، ومنهم المحدث بلبان الغلمشي (ت٧٠٩هـ/١٣٠٩م)[١٢]، والمؤرخان بيبرس المنصوري (ت٧٢٥هـ/١٣٢٤م)[١٣]، وابن دقماق (ت٨٠٩هـ/١٣٠٦م)[١٤]، والمقرئ ابن أيدغدي (ت٧٦٩هـ/١٣٦٧م)[١٥]، ومعلمَا الخط المنسوب أيبك التركي (ت٧٧٦هـ/١٣٧٤م)[١٦]، وغازي بن قطلوبغا (ت٧٧٧هـ/١٣٧٥م)[١٧]. ومن غزنة ودهلي[١٨] قدم القاضي سراج الدين الهندي (ت٧٧٣هـ/١٣٧١م)[١٩]. وكان علماء الشرق قد أغلقوا باب علوم الحديث[٢٠]، ومهروا في الطب والهيئة والمعقولات إلى الحد الذي جعل محبي هذه العلوم من المصريين يقلِّدون ويحاكون العجم في شكلهم وملبسهم[٢١].

---

[١] أحمد بن محمد بن عبد المؤمن، قدم القاهرة بعد أن ولي القضاء في بلاده ٣٠ سنة، فناب في الحكم وولي إفتاء دار العدل، ودرس بالجامع الأزهر وغيره. ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٢٤٢.

[٢] قاعدة مملكة السرير المغولية مطلة على نهر إتل. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٧ ص٣٦١.

[٣] محمد، أوحد الدين، قدم من بلاده وهو كبير، وأقام بالشام مدة وتخرج به جماعة، ثم أقدمه صرغتمش فولاه مدرسته إلى أن مات، وكان غاية في العلوم العقلية العقلية والأصول والعربية والطب والمنطق. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٣٢؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٧٠.

[٤] محمود بن عبد الله الكلستاني السرائي الحنفي، تعلم ببلاده وببغداد، ثم قدم القاهرة وأعطاه الظاهر برقوق تدريس الشيخونية والصرغتمشية، وكان فصيحا بالتركية والعربية والفارسية، ثم ولي كتابة السر. ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٨٨-٩٠.

[٥] إقليم من أقاليم ما وراء النهر، ويشتمل على دلتا نهر جيحون الذي يصب في بحيرة خوارزم (آرال)، ويحده من الغرب والشمال بعض بلاد الترك، ومن الشرق إقليم الصغد ومن الجنوب خراسان، وكاث من نواحيه إلا أنها من شرقي جيحون. الحموي، معجم البلدان، ج٤ ص٤٢٧؛ والقلقشندي، صبح الأعشى، ج٤ ص٤٥١.

[٦] جابر بن محمد الحنفي، قرأ ببلاده وتمهّر، وولي مشيخة الجاولية بالقاهرة، وباشر الإفتاء والتدريس. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص١٨١.

[٧] وصل دمشق ٧١٨هـ، وفاق في المعقولات، وأقام بمصر سنة ونصفا، ثم عاد ليخدم طبيبا لدى القان أزبك، وقد استصحب كثيرا من كتب الطب من دمشق، وصار رئيس بيمارستان خوارزم. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٩٥؛ والصفدي، أعيان العصر، ج٥ ص٥٢٢.

[٨] ما وراء نهر جيحون، وهي تتبع اليوم إداريا دولة أوزبكستان الإسلامية. أبو خليل، أطلس دول العالم الإسلامي، ص٢٠.

[٩] محمود بن أبي بكر بن أبي العلاء الحنفي الصوفي، وتفقه ببلده، وسمع في مراكز العلم في طريقه من الشرق إلى الغرب ثم دخل مصر، وسمع الحديث أيضا، أيضا، وكان إماما فقيها ورعا متحريا وفرضيا ماهرا. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٤٢-٣٤٣.

[١٠] في فاراب، ولاية وراء نهر سيحون (أموردرايا). الحموي، معجم البلدان، ج٤ ص٢٢٥؛ وأبو خليل، أطلس دول العالم الإسلامي، ص٢٠.

[١١] مهر في بلده، وألف بها، ثم تنقل بين بلدان العالم الإسلامي، وولي القضاء والتدريس ببغداد، ثم استدعي إلى مصر وأصبح شيخ مدرسة صرغتمش. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٤١٤- ٤١٦.

[١٢] بلبان بن شكلان، كان مملوكا لعز الدين ابن الصائغ، وتنقل إلى أن صار أميرا وولي الشرقية، وكان منسوبا إلى الظلم، شديد الوطأة على العربان، تنصل عن الولاية وآثر الحديث. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص١٦٥.

[١٣] الأمير المملوكي المؤرخ بيبرس بن عبد الله المنصوري الخطائي الدوادار، ولي نظر الأوقاف، ونيابة دار العدل، ثم نائبا للسلطنة على القاهرة، وأجيز بالإفتاء والتدريس. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص١٧٢؛ وابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٣ ص٤٧٨.

[١٤] إبراهيم بن محمد بن دقماق الحنفي، مؤرخ الديار المصرية. ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٣٦٠.

[١٥] أبو بكر بن أيدغدي الشمسي، من كبار القراء بالقاهرة. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص١٤٩؛ والجزري، غاية النهاية، ج١ ص١٦٣.

[١٦] أيبك بن عبد الله التركي، الكاتب المجود، تصدر لتعليمه بالأزهر. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٤٢١؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٨٣.

[١٧] شرف الدين التركي، شيخ الخطاطين، تصدّر لتعليم الخط مجانا. ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص١١٨؛ ولم يذكره في الدرر الكامنة.

[١٨] غزنة مدينة في إقليم زابلستان (أفغانستان)، إلى الجنوب الغربي من مدينة كابل، كانت عاصمة محمود الغزنوي من آل سبكتكين. ودهلي في وسط الهند أقرب إلى الشمال، عاصمة ملوك الهند آل تغلق، وكان بها كثير من المدارس التابعة للحنفية والمستشفيات العامة، القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥ ص٦٥-٦٦؛ ومؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص٢٢٠، ١٠٠، ٢٥٤- ٢٥٥.

[١٩] عمر بن إسحاق الغزنوي الحنفي، أحد أهم قضاة القاهرة الفقهاء. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص١٥٤-١٥٥.

[٢٠] الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج٤ ص١٤٨٥.

[٢١] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٣٦٠، والسخاوي، الضوء اللامع، ج١ ص٢٤٠.

ومن (زيلع) على ساحل البحر الأحمر (شمال غرب الصومال اليوم) قدم سنة٧٠٥هـ/ ١٣٠٥م الفقيه فخر الدين عثمان بن علي بن يحيى بن يونس الزيلعي الحنفي (ت٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م)[١]، وإليها أيضا ينتمي المحدث عبد الله بن يوسف الزيلعي الحنفي (ت٧٦٢هـ/١٣٦٠م)[٢].

ومن الغرب في أفريقية استقبلت القاهرة الكثير من الأسر والأفراد التي ظهر من خلالها علماء مبرزون في حياة القاهرة العلمية؛ ومنهم من كان يعلم الطب بمصر[٣]، ومنهم الطبيب ابن المغربي (٧٥٦هـ/١٣٥٥م)[٤]، ومنهم الإمام الإمام اللغوي ابن منظور الأنصاري (ت٧١١هـ/١٣١١م)[٥]. ومن تونس بالتحديد قدم ابن خلدون فيلسوف علم الاجتماع (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م)[٦]، والموسوعي ابن القويع (ت٧٣٨هـ/١٣٣٧م)[٧]، وآخرون[٨]، ومن المهدية[٩]، ومن ومن المغرب الأوسط (الجزائر) ومنها بجاية[١٠]، وتوزر[١١]، ومنها أبو عبد الله التوزري (ت٨٠٠هـ/١٣٩٧م)[١٢] ومن باجة[١٣] قدم علاء الدين الباجي (ت٧١٤هـ/١٣١٤م)[١٤]، ومن تلمسان[١٥] ابن مرزوق العجيسي (ت٧٨١هـ/١٣٧٩م)[١٦]، ومن المغرب الأقصى من مراكش[١٧]، وإليها يعود الفقيه تاج الدين الشافعي (ت٧٥٠هـ/١٣٤٩م)[١٨]، ومن ركراكة[١٩]، القاضي شمس الدين الركراكي (ت٧٩٣هـ/١٣٩٠م)[٢٠]، ودكالة[٢١]، ومنها أبو أمامة ابن النقاش (ت٧٦٣هـ/١٣٦٢م)[٢٢].

---

[١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٤٤٦.

[٢] مؤلف نصب الراية. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣١٠؛ ٣٣. ؛ والتميمي: تقي الدين بن عبد القادر الغزي، (ت١٠١٠هـ)، الطبقات السنية في تراجم الحنفية، ت. عبد الفتاح الحلو، القاهرة،١٣٩٠هـ -١٩٧٠م، ج٤ ص٢٥٢ ـ ٢٥٣.

[٣] العبدري، المدخل، ج٤ ص١١٠.

[٤] إبراهيم بن أحمد، رئيس الأطباء في مصر والشام، قرأ على شيوخ الطب في القاهرة، وعين رئيسا للطب فيها، وكان طبيب السلطان الناصر وجليسه. ابن حجر: ج١ ص١٦؛ والصفدي، الوافي بالوفيات، ج٥ ص٢٠٧-٢٠٩.

[٥] محمد بن مكرم بن علي الأنصاري الأفريقي ثم المصري، مؤلف لسان العرب. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٢٦٢-٢٦٣.

[٦] ابن حجر، رفع الإصر، ص ٣٣٤.

[٧] محمد بن محمد بن عبد الرحمن، ركن الدين الجعفري المالكي، تعلم ببلده، ثم بدمشق، ثم استقر بالقاهرة، ودرّس بالمنكوتمرية، ودرس الطب بالبيمارستان. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص١٨١-١٨٢.

[٨] مثل أحمد بن عبد الرحيم التونسي، النحوي، صاحب ابن هشام المصري (ت٧٧٨هـ)، ومحمد بن محمد الربعي التونسي ثم المصري، المالكي المسند، توفي سنة ٧٦٣هـ. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٢٤٦-٢٤٧؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٤٧؛ والمقريزي، السلوك، ج٥ ص٢٥.

[٩] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٥٠٢. وتقع على خليج قابس بين سوسة وصفاقس في تونس.

[١٠] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٤٩٧. وهي مدينة على ساحل البحر المتوسط، وهي في وسط شمال الجزائر. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢ ص٢٥٤؛ ومؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص٤١٩.

[١١] مدينة شمال شرق مدينة نقطة في جنوب غرب جمهورية تونس. مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص١٦٠.

[١٢] محمد بن سلامة التوزري، أبو عبد الله الكركي، كان عالما، ومقربا من السلطان برقوق، غير أنه كان من أتباع نظرية ابن العربي ولذا كان ابن حجر يبغضه تدينا. ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٢٩-٣٠.

[١٣] مدينة في مملكة تونس آنذاك، وتقع على مسيرة يومين غرب مدينة تونس. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥ ص١٠٠-١٠١. وهي اليوم عاصمة ولاية باجة في الشمال الغربي لجمهورية تونس.

[١٤] علي بن محمد الباجي، كان علامة كبيرا أصوليا مناظرا، وكذلك ابنه جمال الدين ابن علاء الدين ولد حوالي ٧٠٤هـ، وتوفي ٧٨٨هـ، وكان محدثا. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٢٧٨-٢٧٩، ج٣ ص١٠١-١٠٣.

[١٥] مدينة عظيمة في شمال غرب الجزائر، كانت قاعدة المغرب الأوسط آنذاك. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥ ص١٤٤؛ ومؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص٤١٩.

[١٦] محمد بن أحمد، شمس الدين، سمع ببلده تلمسان، وبمعظم مراكز العلم في المغرب ومصر والشام والحجاز، وكان مشاركا في فنون كثيرة، استقر في سنة ٧٧٣هـ بمصر وقلده سلطانها الأشرف شعبان دروسا ومدارس في القاهرة. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٣٦٠-٣٦٢.

[١٧] مدينة تبعد اثني عشر ميلا شمال أغمات بناها يوسف بن تاشفين بعد أن اشترى أرضها من أهل أغمات. الحميري: محمد بن عبدالمنعم، (ت٩٠٠هـ)، الروض المعطار في خبر الأقطار، ت. إحسان عباس، ط٢، بيروت، مكتبة لبنان، ص٥٤٠.

[١٨] محمد بن إبراهيم بن يوسف، وكان فقيها نحويا مفتيا، يعطي الأجرة لمن يطالع له لأنه كان مطموس العين. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٣٠٠.

[١٩] مرسى على ساحل المغرب على البحر المحيط، مقابلا لمدينتي مراكش وأغمات غربا، ويقال لها (رجراجة). الحميري، الروض المعطار، ص٤٦؛ ومؤنس: أطلس تاريخ الإسلام ١٦٥.

[٢٠] محمد بن يوسف المالكي، قدم من المغرب مراهقا، وتعلم بالقاهرة، حتى مهر في المعقولات والأصلين والعربية، وتعرض للإقصاء من منافسيه المالكية، وقد عين قاضيا لهم بمصر. ابن حجر، رفع الإصر، ص٤٣١.

[٢١] مدينة جنوب الدار البيضاء على ساحل المحيط. مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص١٥٧.

[٢٢] محمد بن علي، كان واعظا مفوها، صنف في الفقه والحديث والعربية. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٧١-٧٢.

ومن جزيرة الأندلس قدم من غرناطة[1] الشيخ الإمام أبو حيان الجياني (ت٧٤٥هـ/١٣٤٤م)[2]، ومن وادي آش[3] آش[3] قدم كثيرون منهم المحدث الوادي آشي (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م)[4]، ووالد الشيخ ابن الملقن (ت٨٠٤هـ/١٤٠١م)[5]، (ت٨٠٤هـ/١٤٠١م)[5]، وابن بنت العراقي (ت٧٠٤هـ/١٣٠٤م)[6]، ومن أشبيلية[7] خرجت أسرة ابن سيد الناس اليعمرية[8].

ويبدو أن حركة التنقلات كانت نشطة في ذلك الحين، ومن هنا ظهر بعض العلماء وهم يحملون أكثر من لقب مكاني[9]، وربما تعددت الأمكنة التي قدم منها وإن غلب عليه أحدها مثل الأصل الأول، مثل حالة القاضي جلال الدين القزويني (ت٧٣٩هـ/١٣٣٨م)[10].

وبهذا يتبين أن العلماء كانوا يتقاطرون إلى القاهرة من كل حدب وصوب، بفعل ظروف الرغبة الجاذبة في القاهرة وظروف الرهبة الطاردة في بلدانهم. ويتبين أن القاهرة ضمت أصولا بلدانية مختلفة (مصريون وشاميون ويمنيون وحجازيون وعراقيون وهنود ومغاربة وأندلسيون وأفارقة وعرب وفرس وترك وكرد وغيرهم) من الشرق والغرب والشمال والجنوب، ومن هؤلاء مسلمون وهم الأغلبية الساحقة، وشاركوا في جميع مجالات الحياة العلمية سواء كانوا من أصول إسلامية أو من أصول يهودية أو نصرانية[11]، ومنهم أهل الذمة يهودا ونصارى، وقد كانوا يشكلون أقلية ولكنها ذات أهمية في المجتمع المصري[12].

شارك أهل الذمة بفعالية كبيرة في مجال الحساب والطب البشري وطب العيون[13]، إلى درجة أنه لا يخلو بلد من وجود طبيب منهم؛ الأمر الذي أثار انتقاد بعض المسلمين لإهمالهم هذا الجانب وتركيزهم على العلوم الدينية[14]، وكان من الطبيعي أن يتوجه هؤلاء إلى هذا الجانب العلمي المتصل بخدمة المجتمع والوصول إلى الوظيفة المتاحة التي تُدِرُّ عليهم الأرزاق حيث لا داعي يدعوهم إلى تعلم العلوم الشرعية، ولركود علوم اللغة أيضا ولارتباطها بالعلوم الشرعية.

---

[1] من أحسن المدن، تشبه دمشق في الشرق، تقع على الجنوب الشرقي من نهر شنيل أحد فروع نهر الوادي الكبير، خسرها المسلمون في ١٤٩٢م. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢ ص٢٩٣.

[2] محمد بن يوسف بن علي الغرناطي المولد، الجياني الأصل. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٠٢-٣٠٣.

[3] مدينة بالأندلس قريبة من غرناطة تتدفق حولها المياه والأنهار، وتطل على نهرها من جهة الشرق. الحميري الروض المعطار، ص٦٠٤.

[4] محمد بن جابر بن محمد القيسي، شمس الدين الأندلسي ثم التونسي المالكي، تعلم بتونس وجال في المشرق والمغرب عناية بالحديث، وحدث بكثير منه في مصر والشام. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٤١٣-٤١٤.

[5] ابن الملقن، عمر بن علي بن أحمد الأنصاري سراج الدين الوادي آشي ثم المصري. ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٢١٦-٢١٨؛ والسخاوي، الضوء اللامع، ج٦ ص١٠٠-١٠٥.

[6] عبد الكريم بن علي بن عمر العراقي الأنصاري، مهر في الفقه والأصول والعربية والكتابة والحساب، وكان له مهارة فائقة في التعليم، وتخرج عليه معظم أهل العلم بمصر. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣٩٩-٤٠٠.

[7] مدينة كبيرة تقع غربي مدينة غرناطة على نهر الوادي الكبير، كانت قد سقطت في يد الأسبان قبل ٦٤٦هـ/١٣٤٨م. الحميري، الروض المعطار، ص٥٨-٦٠، ٦٠، ومؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص١٧٦.

[8] ومنهم محمد بن محمد بن أحمد بن سيد الناس، من أسرة أهل رئاسة في أشبيلية، ولد ٦٤٥هـ، (أي قبل سقوط مدينتهم بسنة)، قدم مصر ومعه أمهات من الكتب، وولي مشيخة الكاملية بالقاهرة، وانتزعها منه ابن جماعة، وأنجب أولادا علماء، من أشهرهم محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الربعي اليعمري، ولد سنة ٦٧١هـ في القاهرة، وهو الحافظ العلامة الأديب المتوفى سنة ٧٣٤هـ. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص١٦٢، ٢٠٨.

[9] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص١٠١-١٠٢؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٢١٦؛ ورفع الإصر، ص٣٣٤.

[10] محمد بن عبد الرحمن بن العجلي القزويني أصلا، ولد بالموصل سنة ٦٦٦هـ، وسكن الروم مع أسرته، وتعلم بها، ثم أخذ في دمشق أيضا، ثم دعي للقضاء بالقاهرة، ودرس بها. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣-٥؛ ورفع الإصر، ص٣٦٦.

[11] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص١٣٥-١٣٦، ٣٨٠؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٢١٦.

[12] عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص٤٧.

[13] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص١٩٠، ٣٨٠؛ وابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٥ ص٢٨٤؛ والعبدري، المدخل، ج٢ ص٣٢٦، ٣٢٨، ج٤ ص١٠٩، ١١٤.

[14] العبدري، المدخل، ج٤ ص١٠٩، ١١١، ١١٣- ١١٤؛ وابن الأخوة، معالم القربة، ق١٠٧/أ- ب..

ومع أن هذه العلوم لم تكن حكرا عليهم حيث رأينا مسلمين تفوقوا فيها، إلا أن كثيرا منهم اشتغلوا بها بصورة ملفتة، في حين ذهب المسلمون إلى تعلم العلوم الشرعية التي تؤهلهم لشغل المناصب الدينية والقضائية والتي يرون أنهم سيكتسبون الشرف من خلالها كما يرى ابن الأخوة[١].

كانت فئة العلماء والمتعلمين إحدى فئات المجتمع القاهري المركب على الفئوية الوظيفية والاقتصادية، وقد كانت المهنة هي التي تحدد التراتب الطبقي في المجتمع، باستثناء طبقة المماليك الذي عاشوا طبقة منفصلة متميزة عن بقية السكان، وقد جاءت فئة العلماء لدى المقريزي[٢] بين الفئات الفقيرة بعد طبقة المماليك والتجار المياسير ومتوسطي الدخل والفلاحين في الأرياف، ويليهم الحرفيون وأرباب الصنائع ثم ذوو الحاجة والمسكنة.

بدون شك فقد كان هذا التراتب الطبقي مؤثرا وفعالا في الحياة الاجتماعية، وكان لكلٍّ مميزاته، بل وتعدى ذلك إلى سلب الطبقات العاملة من أهل الحرف والمهن المسترذلة أهلية الإنسان السوي؛ فردّ بعض الفقهاء شهادتهم، وحرّم تزويجهم لانعدام الكفاءة في النسب أو الحرفة، وجعلوا الحكم الشرعي فيها مرهونا بالعرف الجاري بين الناس[٣].

غير أنه كان بإمكان أي من أفراد هذه الفئات أن يلحق بفئة العلماء والمتعلمين صعودا وهبوطا، فهناك علماء كانوا من أبناء المماليك والجند[٤]، ومنهم أبناء التجار الكبار[٥]، ومنهم أبناء العلماء والقضاة مثل الأسر العلمية الشهيرة بالقاهرة، ومنهم أبناء الفلاحين الريفيين[٦]، ومنهم من كان ذا خلفية مهنية كالتجارة المتوسطة وما دونها، أو أو خلفية حرفية ليست مما يسترذل في الغالب، ويترجح أن من امتهن بالمهن الأدنى وكانت له مشاركة علمية فإنه في الغالب من جماعة المحدثين، حيث وُجِدَ كثيرٌ من عامَّة الشعب من حمل رواية الحديث، وبذلك صار الحديث وكأنه هو الثقافة الشعبية السائدة وإن بصورة بسيطة في غالب الأحيان[٧].

ومن ناحية أخرى فقد كان هناك ما يبدو أنه وجه اجتماعي آخر ولو من منظار واحد فهناك القاهريون الذين تهذبت أخلاقهم، وهناك أهل الريف الذين لا زالوا يحملون جفاء أهلهم[٨]، وهناك العلماء العرب وتميزوا بتفوقهم في في علوم الحديث، وهناك علماء العجم وتميزوا بتفوقهم في العلوم العقلية، وربما انزعج المصريون من حصولهم على مكانة منافسة[٩]؛ وقد تبنى بعض من علماء الشافعية المصريين العصبية العربية ضد فئة العجم الذي كانوا يتركزون نوعا ما في المذهب الحنفي[١٠]، وهناك الفئات المكانية المختلطة بالأجناس فقد كانت هناك المصريون

---

[١] معالم القربة، ق١٠٧/ أ.

[٢] المقريزي، أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ): إغاثة الأمة بكشف الغمة، ت. كرم حلمي فرحات، ط١، ١٤٢٧هـ -٢٠٠٧م، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ص١٤٩.

[٣] ابن الأخوة، معالم القربة، ق١٦٣/ أ- ب؛ والنووي: يحيى بن شرف أبو زكريا النووي، (ت٦٧٦هـ)، منهاج الطالبين وعمدة المتقين، ت. محمد محمد طاهر شعبان، ط١، جدة، دار المنهاج، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، ص٣٧٩-٣٨٠؛ والشربيني: محمد بن أحمد الخطيب، (ت٩٧٧هـ)، مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المحتاج، ت. محمد خليل عيتاني، ط١، بيروت، دار المعرفة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، ج٤ ص٥٧٦-٥٧٧.

[٤] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص١٤٩، ١٧٢، ج٢ ص٤٣٦؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص٣٦٠؛ والصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٩ ص٣٠٦؛ وابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٣ ص٤٧٨؛

[٥] ومنهم ابن حجر نفسه.

[٦] وهم كثيرون قدموا من القرى المصرية المختلفة شمالا وجنوبا. وينظر ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣١٢، ٣١٣؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص١١٢؛ ورفع الإصر، ص٢٢٩؛ والسخاوي، الضوء اللامع، ج١ ص١٧٢، والمقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣ ص٦٢١.

[٧] فمنهم الحريري والصيرفي والقطان والبزاز والمطرز والكتاني والسكري والزركشي والعطار والتمار والخياط والدقاق والخباز والطباخ والصابوني وبائع الأكل والحلوى والفراش والسماك وغيرها. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٣٧٩، ٤٥٩، ج٢ ص٢٧٦، ج٣ ص٦٢، ٩١، ١٦١-١٦٢، ٣٢٠، ٣٩٧-٣٩٨، ج٤ ص٩، ١٦، ٣٩، ٦٩-٧٠، ٩٧، ١١٤، ٢٩٩؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٩٥-٩٦، ٣٨١، ٥٠٢، ج٢ ص٤٤١، ٤٧٦؛ والمجمع المؤسس، مج١ ص٤٨٨-٤٨٩.

[٨] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣١٢-٣١٣.

[٩] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٢١٦، ج٢ ص٣٦٠؛ ورفع الإصر، ص٤٣١.

[١٠] من ذلك أن التاجر بدر الدين الخروبي بنى مدرسته واشترط فيها أن لا يلي عجمي أيا من وظائفها، ومنه الاتهام كيدا من الشاعر المصري ابن العطار ضد علماء الأحناف العجم في محاولتهم التأثير على الأمراء الترك حتى يتساووا بمميزات علماء الشافعية في مصر. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣ ص٤٥٣-٤٥٤؛ وابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص١٩٣-١٩٤.

أصلا كما تقدم، وهناك طائفة الأتراك وقد كانوا ينسلون من كل حدب إلى القاهرة ومنهم السلطة القائمة[١]، وهناك المغاربة[٢]، والأندلسيون، وهناك الكرد[٣]، بالإضافة إلى العجم، والهنود وغيرهم من الأجناس المختلفة.

ومن خلال هذا العرض تظهر القاهرة في القرن الثامن وهي تحتضن علمائيا فسيفساء متنوعة وعالمية؛ الأمر الذي وفّر لها عاملا مهما من عوامل التطور العلمي، وجعل منها مركزا عالميا تلتقي فيه الثقافات الشرقية والغربية لتشكّل مزيجا من الثقافة القاهرية المتنوعة والمتعددة.

ثانيا: حالتهم المادية

تهيّأت ظروفٌ اقتصادية ضخمة للقاهرة في هذا القرن عموما حقَّقت إمكانية الوصول إلى الغنى، من أهمها ممارسة التجارة، كما توفرت العديد من المؤسسات التعليمية والقضائية والاجتماعية والوقفية والإنشائية والإدارية فيها باعتبارها عاصمة الدولة استدعت الحاجة إلى وجود عدد ضخم من العلماء لشغل وظائفها[٤]، وكان للنظام الاقتصادي الجاري في القاهرة المفصّل على الإقطاع العسكري معتمدا على السلطة العسكرية أيضا - أثرٌ في جعل المال الرسمي يتمحور حول السلطة المملوكية والنخب التي تدور حولها[٥]؛ مما جعل طائفة من العلماء على علاقة متصلة بمراكز السلطة والمال، ولكون عملهم متصلا بالجماهير فقد كانوا قريبين منهم، وظلوا حلقة وصل بين الفئة المملوكية الحاكمة وبين الشعب، وعلى علاقة متشابكة مع جميع فئات المجتمع.

عبر بعضهم عن رفضه لاستئثار المماليك مع معاونيهم الماليين من القبط، كما أدرك بعضهم أهمية اكتساب الثقافة التركية، وضرورة أن يكون العالم على قدْرٍ من الجاه والثراء ليحظى بمكانة اجتماعية مرموقة[٦]، ولم يكن الأمر مقصورا على النصف الثاني من القرن الثامن بل حصل نوع من هذا في نصفه الأول[٧] بما يشير إلى المقاييس الاجتماعية السلبية التي حكمت الناس آنذاك.

كانت الأوقاف على المدارس والمدرسين والطلبة أكثر ما يدر النفقات على العملية التعليمية والعلمية وعناصرهما، وقد أدرك المماليك متأخرا بوحيٍ من طغيانهم تعاظُمَ هذه المصادر، وحاولوا الحدَّ منها والتي كانت في العادة تُنْقِصُ ما هو في الأصل تحت نفوذهم من أموال الإقطاع التي وقفها بعض الأمراء، لكنها جوبهت بمقاومة شديدة من قبل العلماء[٨] إدراكا منهم أن هذه المحاولة إنما هي ضربة طامعة في تقزيم دورهم من خلال محاصرتهم في حياتهم المادية وحقوقهم الشرعية.

وكان لدى كثير من العلماء مثالية عالية جعلتهم ينفرون من الوظائف المتعلقة بالدولة هربا من تلوث أيديهم بمالها المشبوه، واتهاما للواقفين بأنهم أخذوا المال من غير حله، ولهذا نأوا بأنفسهم عن كثير من أموال التدريس

---

[١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص١٥٨، ج٢ ص٤٣٦، ج٤ ص٢٥٩؛ وابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج١ ص٣٨٢-٣٨٣.

[٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣١٢-٣١٣؛ والعبدري، المدخل، ج٤ ص١١٠.

[٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٩٨، ٥٤٤؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص٢٧٦

[٤] مثلا تحتاج المدرسة والقبة والبيمارستان المنصوريات التي بناها المنصور قلاوون عددا هائلا من العاملين علماء وغير علماء، وهو يدل دلالة واضحة على استيعاب مثل هذه المنشآت لكثير من الفئات الاجتماعية. النويري: نهاية الأدب ج٣١ ص٧١-٧٥.

[٥] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٢٤١، ٢٦٨، ٤٠١-٤٠٤، ج٣ ص١٠٧؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٣٣، ٩٩-١٠٠، ١٤٣-١٤٤، ١٧٨، ٢٨٠-٢٨١، ٤٧٠، ج٢ ص٢١٠؛ ورفع الإصر، ص٧٥-٧٦.

[٦] وقد قال شاعر:
وكيف يروم الرزق في مصر عاقل * ومن دونه الأتراك بالسيف والترس * وقد جمعته القبط من كل وجهة * لأنفسهم بالربع والثمن والخمس فللترك والسلطان ثلث خراجها * وللقبط نصف والخلائق في السدس. وقال ابن الفرات (ت٨٠٤هـ): إذا شئت أن تحيا حياة سعيدة * ويستحسن الأقوام منك المقبحا تزيّ بزيّ الترك واحفظ لسانهم * وإلا فجانبهم وكن متصولحا. وقال نقيب الأشراف الحسين بن محمد ابن قاضي العسكر (ت٧٦٢هـ): إذا العلم لم يعضده جاه وثروة * فصاحبه في القهر يمسي ويصبح. ابن حجر: الدر الكامنة ج٢ ص٦٧؛ وإنباء الغمر، ج١ ص١٤٣-١٤٤، ج٢ ص٢١٠.

[٧] قال الكمال جعفر الأدفوي (ت٧٤٨هـ) معلقا على تولية بعضهم في غير مكانه المناسب: بالجاه تبلغ ما تريد فإن ترد * رتب المعالي فليكن لك جاه أو ما ترى الزين الدمشقي قد ولي * درس الحديث وليس يدري ما هو. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص١٦٢.

[٨] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص١٧٨، ج٢ ص٢٢١-٢٢٢؛ ورفع الإصر، ص٢٨٨.

والقضاء، وآثروا حياة البساطة والزهد والورع، وكان بعضهم لا يأكل إلا من عمل يده[١]، ومنهم من التحق بوظائف حرة تبلّغَ منها عيشة الكفاف بجانب ممارسة التدريس باعتباره واجبا مجانيا[٢]، واشتهر منهم من كان لديه قسط من الورع والتحري في اختيار الأكفاء للوظائف التدريسية والقضائية[٣].

غير أن الغالبية رأوا أن يدخلوا غمار الواقع، وتولَّوا الوظائف وحصلوا من ورائها على أموال طائلة، بل ولا يخلو ذلك العصر من سلبيات خطيرة في هذا الجانب، فبعض قضاته الصلحاء ممن يشرفون على الأوقاف كانوا بخلاء في صرف ريع الأوقاف على مستحقيها؛ وهو ما جعل كثيرا من أهل العلم يضطرون للبحث عن وظائف تدر عليهم الحاجة إلى المال لدى أمراء المماليك[٤]، كما أظهر بعضهم تنافسا وتحاسدا غير محمود على الوظائف التدريسية والقضائية، وكان أحيانا لا يصل إلى الوظيفة إلا من كان له جاه وصوت مسموع عند السلطان، كما أن بعض من وصل إلى قرار التوظيف احتكر الوظائف لأقاربه، وبهذا ذهبت بعض الوظائف العلمية إلى من لا يستحقها[٥]، هذا فضلا عن الوظائف الكبار التي كانت في بعض الأحيان لا يحصل عليها إلا أصحاب الأموال الطائلة.

تحدّدت المداخيل المالية للعلماء بحسب قربهم وبعدهم من الدولة، وطبيعة الوظائف التي تقلدوها، وعددها في ظل تقليدٍ سمَح بتعددها، فقد كان القاضي يتقاضى معاليم ضخمة[٦] مقارنة بغيره بسبب تعدد مهامه واتصاله بالسلطة، وتقاضى مدرسو المذاهب الأربعة أعلى المرتبات في قائمة المدرسين، حيث مثلا تقاضى أحدهم في المدرسة المنصورية ٢٠٠ درهما، وفي الجامع الحاكمي ١٣٠ درهما، وفي الخانقاة الشيخونية ٣٠٠ درهما، وقد ساواهم أو تلاهم في المرتبة مدرسو التفسير والحديث، والواعظون الرسميون أصحاب المواعيد العامة، ويليهم معلمو الأيتام في المكاتب ثم مقرئو القرآن، بينما من خلال التراتب المالي لمدرسي المدرسة المنصورية نجد مقرئي النحو والعربية أقلهم أجرا[٧].

ومن المؤكد أن حجم المبلغ كان يخضع لكرم الواقف وغناه وطبيعة وظيفته وتوجهاته، ولذلك فقد تباينت المعاليم تباينا كبيرا، كما أن بعضا من هذه المعاليم في بعض المدارس والخانقاوات كانت مشفوعة أيضا بنفقات جارية يومية وموسمية، مثل الخبز والماء والكسوة السنوية أو النصف السنوية، وكذلك حلوى رمضان وأضحية الأضحى للمدرسين أو الطلبة[٨]. وبعضها كان معلومها موادَّ عينية مثل القمح[٩].

ويتبين أن العلماء ذوي الوظائف العالية والمتعددة أو من كان له وظيفة أخرى كالتجارة - كانوا على مستوى جيد من الناحية المادية، لكن بعضا منهم رغم اجتهاده كان يكابد الفقر؛ لأنه لم يكن له علاقات اجتماعية أو لا يجيد

---

[١] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٨٠-٨١، ٥٢٣، ج٣ ص٣٧٣؛ والعبدري، المدخل، ج٢ ص١١٤-١١٥.

[٢] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص٥٤، ١٠٨-١٠٩.

[٣] ابن حجر، رفع الإصر، ص٣٩٤-٣٩٦.

[٤] ابن حجر، رفع الإصر، ص٢٤٤.

[٥] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص١٢١-١٢٢، ١٧٢-١٧٣، ج٢ ص١٩٠-١٩١؛ ورفع الإصر، ص٨١-٨٢، ٢٤٣-٢٤٦؛ والعبدري، المدخل، ج٢ ص١١٤-١١٥.

[٦] وقد كان يتولى رئاسة القضاء والأوقاف والجوامع ومودع الأيتام ونظر بعض المدارس والجوامع والتدريس، وقد جاء في تقليد السلطان بيبرس للقاضي تاج الدين ابن بنت الأعز قضاء مصر أنه أجرى له ما كان مقررا شهريا لمن تقدمه، وهو ٤٠ دينارا صرف ٤٠ درهما، و٦٦٠ درهما ناصرية، وثلثان وخمسة وعشرون إردبا غلة، ويكون مصدر هذه الجامكية الجوالي (مصدر الجزية)، والغلة تؤخذ من مخازن الحبوب بمصر، وحين أقيل ابن جماعة من القضاء قرر له من الجوالي عوضا عن معلوم القضاء مبلغ ألف درهم شهريا؛ وقد أدى ذلك إلى شعور بعض العلماء ممن لم يتوفر لهم مثل هذا الدخل بالحرمان، فرفض أحد كبارهم التوقيع على الفتاوى وكان يحيل المستفتي على القضاة ذوي المعاليم (المرتبات) العالية. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٢٦٨، ج٣ ص١٦١-١٦٢؛ ورفع الإصر، ص٣٤٦؛ والنويري: أحمد بن عبدالوهاب، (ت٧٣٣هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب، ت. مفيد قميحة، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م، ج٣٠ ص٩، ج٣٢ ص٥٨-٦٠، ج٣٣ ص٧.

[٧] النويري، نهاية الأرب، ج٣١ ص٧١-٧٥، ج٣٢ ص٤٦-٤٧، ٥٨-٦٠، والمقريزي، السلوك، ج٤ ص١٥٧.

[٨] ابن حجر، رفع الإصر، ص١٥٠-١٥١؛ والنويري، نهاية الأرب، ج٣١ ص٦٤، ج٣٣ ص٢٣٠-٢٣١،

[٩] كالمدرسة القمحية وكان لهم ضيعة في الفيوم تغل قمحا يفرق بين مدرسيها الأربعة وطلابها. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣ ص٤٣٩.

صناعتها بما يمكنه من توظيفها في الحصول على وظائف أخرى، ومن ثم لم يحصل على معلوم يكفيه[١]، أو لم يستطع الحصول على وظيفة تعيله في زحمة التنافس على الوظائف ونجاح السعاة المهرة أصحاب الوجاهات، ولم يكن فقط فقرُ بعض العلماء واضحا وباديا للعيان في آخر القرن الثامن[٢]، بل نجد مثل ذلك الوضع حتى في أيام الناصر ابن قلاوون[٣]، وقد جزم السبكي[٤] بأن راتب أكبر فقيه يعتبر أقل من راتبِ أصغرِ مملوك؛ ولهذا فقد كان على كثير منهم توفيرُ أسباب رزقهم من أعمالٍ حُرّة أخرى، فمنهم من تعانى التجارة، ومنهم من كان قبّانا، أو صائغا أو حمّالا يتكسب على عياله بحمل أمتعة الناس[٥]، كما ظهرت ظاهرة السعي في قضاء الحوائج لدى المياسير والأمراء[٦].

وكان الموظفون أحرارا في تكملة مداخيلهم بالعمل في جهات متعددة، في الأوقاف أو كسب مال إضافي في تجارة أو حرفة، والأمر المفيد هو أن العلماء المستخْدَمين جزئيا في أعمال دينية وإدارية والمالكين مهارات قابلة للكسب كمعرفة القراءة والكتابة والعلم بالشريعة الإسلامية كانوا ينجزون أدوارا قانونية وإدارية ودينية وتعليمية كلما دعت الحاجة إلى ذلك، وحيث كان العمل متوفرا، وكان هذا التنوع في وظائفهم ومداخيلهم مؤديا إلى ربطهم بالطيف الكلي للطبقات والفئات والمصالح التي تتكون منه المدينة المملوكية[٧].

تولى العلماء مختلف الوظائف الإدارية في الدولة المملوكية فقد وُجِدوا في وظيفة نظر الدولة[٨] وفي نظر الجيش[٩] وفي نظر بعض الولايات[١٠] وفي نظر بيت المال[١١] والحسبة[١٢] وتدبير السلطان[١٣] وإدارة البيمارستان[١٤] وديوان الصدقات[١٥]، وكان منهم رؤساء القضاة والقضاة ونوابهم[١٦] ومنهم قاضي العسكر[١٧]، وأمين الحكم[١٨]، والموقع[١٩]، وكاتب الشروط بدار الحكم[٢٠]، ومتولي عقود الأنكحة[٢١]، وناظر الأوقاف[٢٢]، وكاتب ديوان الإنشاء[٢٣]،

---

[١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٣٨٢؛ والسبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج٩ ص١٢٩-١٣٠.
[٢] نجد ذلك في مجادلة القاضي سراج الدين الهندي للأمير ألجاي متولي الأوقاف الذي أراد قطع رواتب الفقهاء فذكر له الهندي أن إقطاعه ألف ألف درهم بينما راتب الفقيه خمسة وعشرة، وكذلك في تقسيم المقريزي في كتابه إغاثة الأمة ص١٤٩ للفئات المصرية من حيث الفقر والغنى وقد جعل مرتبة معظم الفقهاء والعلماء والطلبة في المرتبة الخامسة بعد رجال الدولة ومياسير التجار وتجار البز وأرباب المعايش وأصحاب الفلاحة والحرث وعد بعدهم أصحاب الحرف ثم أهل الخصاصة والمسكنة.
[٣] مثلا كان المحدث يوسف بن عمر الختني الحنفي المصري المتوفى سنة ٧٣١هـ مقلا، وكان لا يحدث أحدا إلا بالأجرة، بطلب وضغط من زوجته. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٤٦٦-٤٦٧. وكذلك كان أحد أطباء الناصر - وهو ابن صغير - قليل الرزق رغم أنه كان لا يطب إلا لبيت السلطان خاصة. الصفدي، أعيان العصر، ج٥ ص١٨٠-١٨١.
[٤] معيد النعم، ص٤٩.
[٥] ابن حجر، رفع الإصر، ص٧٥-٧٦، وإنباء الغمر، ج١ ص٥٤٣، ج٢ ص٢٨٢-٢٨٣، ٣٤٣، ٣٤٩.
[٦] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٩، ج٣ ص١٠٩.
[٧] لابدوس، مدن إسلامية في عهد المماليك، ص٢٣٢؛ وابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص١٦، ج٢ ص٢٩٥، ٣٥٨، ؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٥٢٠؛ ورفع الإصر، ص٦٦-٦٧؛ والصفدي، الوافي، ج٥ ص٢٠٧-٢٠٩.
[٨] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣٣٠.
[٩] المصدر السابق، ج٢ ص٢٤٥؛ وإنباء الغمر، ج١ ص١٤٧-١٤٨.
[١٠] المصدر السابق، ج٢ ص٢٧٠.
[١١] المصدر السابق، ج٢ ص٣٥٤-٣٥٦، ج٣ ص٣٣٣.
[١٢] المصدر السابق، ج٢ ص٣٥٤-٣٥٦، ج٣ ص٢٠٦-٢٠٧، ٤٦٢.
[١٣] المصدر السابق، ج٢ ص٤١٠.
[١٤] المصدر السابق، ج٢ ص٤٤٧.
[١٥] المصدر السابق، ج٢ ص٣٨٥.
[١٦] المصدر السابق، ج٢ ص١٣٩.
[١٧] المصدر السابق، ج٢ ص٤٠٩، ج٣ ص٣٣٣-٣٣٤.
[١٨] المصدر السابق، ج٢ ص١٩٩-٢٠٠.
[١٩] ابن حجر، رفع الإصر، ص٨١-٨٣.
[٢٠] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٥٠.
[٢١] المصدر السابق، ج٢ ص١٠٦.
[٢٢] المصدر السابق، ج٣ ص٢٠٦-٢٠٧، ٣٣٣.
[٢٣] المصدر السابق، ج٢ ص١٠٨، ٢٠٢، ٣٨٢-٣٨٣، ج٤ ص٢٦٢-٢٦٣.

ودوادار السلطان[١]، ونقيب الأشراف[٢]، وناظر الخزانة[٣]، وشاهد بيت المال[٤]، وشهود التوثيق[٥]، وناظر المدرسة المدرسة ونائبه[٦]، وشيخها[٧]، ومدرسوها المختلفون[٨]، والمعيدون بها[٩]، وموظفون آخرون بها[١٠]، وناظر الجامع ونائبه والهيئة العاملة به[١١]، وشيخ الخانقاة والمدرسون بها[١٢]، والمفتون بدار العدل[١٣]، وناظر الصدقات والأيتام والمطابخ والأسرى[١٤]، والمواريث الحشرية[١٥]، وغيرها من الوظائف الجليلة والحقيرة.

وهناك آخرون منهم ممن لم تتوفر لهم الوظائف الحكومية، أو رغبوا في الانخراط بالعمل الحر، فقد كان منهم التجار[١٦]: بائع الحرير[١٧]، وتاجر الكتب[١٨]، ودلالها[١٩]، والصائغ[٢٠]، وطابخ السكر[٢١]، وبائع الورق[٢٢]، والخياط[٢٣]، وصانع القبان[٢٤]، وصانع الكلوتات[٢٥]، والسقاء[٢٦]، وبائع الصابون والطعام[٢٧]، والسماك[٢٨]، والحمال[٢٩]، وغيرهم.

ومن الواضح جدا أن من كانت تربطه علاقات الصداقة أو العمل مع الأمراء المماليك فقد كان غنيا جدا، ومن غضب عليه السلطان فإنه سيحرم كثيرا من الامتيازات والوظائف، وإذا تقلّد أحدهم وظيفةً فإنه سرعان ما تبين أثرها في حالته الاجتماعية والاقتصادية[٣٠]، كما أنه لم يكن هناك صندوقُ تقاعدٍ للعاملين من العلماء في أحايين كثيرة، فمنهم من ساءت حالته جدا بعد عزله من وظيفته التي كان يتولاها، وكان ذلك خاضعا لمدى إحسان السلطان أو الأمراء لأحدهم[٣١]، فما أكثر أولئك المملقين حتى إذا اتصلوا بالدولة أقبلت عليهم الدنيا بسعة[٣٢].

[١] المصدر السابق، ج٢ ص٢١٧. وهو الذي يتولى إبلاغ السلطان ببلاغات المتظلمين، وإيصال أوامره فيها إلى أهلها. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥ ص١٣٥. ص١٣٥.
[٢] المصدر السابق، ج٢ ص٦٦.
[٣] المصدر السابق، ج٢ ص٣٧٩.
[٤] المصدر السابق، ج٣ ص١٥٧.
[٥] المصدر السابق، ج٢ ص١٨٦؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص٨٧-٨٨؛ والعبدري، المدخل، ج٢ ص١٦١-١٦٢.
[٦] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٤٣٥.
[٧] المصدر السابق، ج٢ ص١٩٩-٢٠٠.
[٨] المصدر السابق، ج٢ ص٣٦-٣٧، ٦٠، ٣٥٤-٣٥٦، ٣٨٩، ٤٢٦.
[٩] المصدر السابق، ج٢ ص٦٠-٦١.
[١٠] المصدر السابق، ج٤ ص٥٥.
[١١] ومنهم الإمام والمدرسون ورئيس الأذان (عالم بالوقت) والخطباء. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٨٩، ٢٨٥، ٣٠٦، ٣٢٠، ٣٣٦، ٤٠٩، ج٤ ص٢٤٩؛ والنويري، نهاية الأرب، ج٣٣ ص٧.
[١٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٢٩١-٢٩٢، ٣٩٧؛ والمقريزي، السلوك، ج٤ ص١٥٧.
[١٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣٦-٣٧.
[١٤] المصدر السابق، ج٢ ص١٨٦.
[١٥] المصدر السابق، ج٢ ص١٤٥. وهي مال من يموت وليس له وارث، أو المال الباقي بعد أخذ ذوي السهام من الورثة سهامهم. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣ ص٥٣٢.
[١٦] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣١٨.
[١٧] المصدر السابق، ج٢ ص١٤٤.
[١٨] المصدر السابق، ج٢ ص٤٠٦-٤٠٧.
[١٩] المصدر السابق، ج٢ ص٢٠٠.
[٢٠] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٣٤٩.
[٢١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٢٧٦؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص٢٨٢-٢٨٣.
[٢٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣٠-٣١.
[٢٣] المصدر السابق، ج٢ ص٢٠٤-٢٠٥.
[٢٤] المصدر السابق، ج٢ ص٣٤٣. والقبان هو الميزان.
[٢٥] المصدر السابق، ج٢ ص٢٠٥. والكلوتات هي الملابس الداخلية. دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص١٣١.
[٢٦] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص١٧٥.
[٢٧] المصدر السابق، ج٤ ص٦٩-٧٠.
[٢٨] المصدر السابق، ج٣ ص٩١.
[٢٩] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٥٤٣.
[٣٠] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٢٩٣-٢٩٤، ج٣ ص٣٣٣-٣٣٤، ج٤ ص٢٠٨-٢١٢؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص٨٨-٩٠؛ ورفع الإصر، ص٣٦٤.
[٣١] ابن حجر، رفع الإصر، ص٨١-٨٣.
[٣٢] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٨٨-٩٠، ٣٦٠.

ومع ذلك كله يظهر بوضوح تميُّز علماء القاهرة عن من سواهم من الأمصار في حالة البذخ والرفاهية التي نعموا بها، كانعكاسٍ واضحٍ لحالة الغنى والقرب من طقوس الحالة الإدارية المصرية آنذاك[1]، وقد تنعم بعض منهم بالجواري الحسان والآنية الثمينة، وخلفوا الأموال الضخمة، ولبسوا الملابس الفاخرة، وركبوا الخيل المسومة، وشيدوا القصور، وضاهوا أمراء المماليك في ما كانوا يتمتعون به من الملذات[2]، بينما بقي قلة منهم على حالة الزهد والقناعة والتواضع رغم ما وصلوا إليه في المستوى الوظيفي.

ثالثا: حياتهم الاجتماعية

-عوائلهم

اعتمدت الحياة الاجتماعية على النظام الأسري في القاهرة، ويلاحَظ غياب النظام القبلي بصورة ملفتة، ووُجِدَتْ نظم ترابط اجتماعية بديلة عن القبلية، منها المصاهرة[3]، ورابطة الفئوية كفئة العلماء مثلا، ورابطة الأستاذية[4]؛ ولهذا كان الأب يوصي برعاية أولاده الصغار إلى وصي مأمون من أصهاره أو زملائه، ويلاحظ أن أغلب علماء القاهرة كانوا يحملون نِسَبًا مكانية، وندر من حمل نِسْبة قبلية، كما كانت القاهرة - كما تقدم - مفتوحة لكل من أحب السكنى بها من أي مكان كان، وكان بإمكانه الوصول إلى أي وظيفة إدارية رسمية، وكانت المصاهرة أحد أنواع السُلّم الذي يترقى به الطامح إلى تسنم المناصب[5]، وقد يلتئم شمل أسرة وهم من أصول مكانية متباعدة[6].

لقد شهرت في سماء القاهرة العلمي أسرٌ مرموقة في العلم واستمرت بضع عقود[7]، ولكن جوائح الأوبئة الفتاكة والمجاعات كانت كفيلة بزعزعة الاستقرار الأسري، ومنع استمرار كثير من الأسر عقودا كثيرة[8]، وقلّ أن يجتمع للعالم حظوة العلم وقرة عينه من الأولاد[9]، ومع ذلك نجد أنه كان هناك علماء كان آباؤهم علماء أيضا.

لا يختلف العلماء عن بقية أهالي القاهرة في حياتهم العائلية سوى ما كان على علاقة بحياتهم العلمية ووضعهم الاجتماعي ودورهم التنويري، وقد كان العلماء معنيين ببناء أسر مستقرة، كان الأب العالم يحب أبناءه، ويُخْلِصُ لهم، ويسافر بهم طلبا لمرضاتهم وصلاحهم وتحصيل العلوم[10]، وكانت تحكم الأسرة روابط قوية جدا، وإذا مات الأب الراعي فإن الأخ الأرشد أو الأخت الكبرى أو العم هو من يقوم مقامه في رعاية الأسرة، وحين يموت أحد منهم يطيلون العزاء فيه مددا طائلة[11]، بما يعكس قوة الترابط الأسري، وقد وُجّه اللوم لبعض العلماء أنهم تساهلوا مع زوجاتهم، أو أنهم لم يقوموا بما عليهم من تنوير الناس بأحكام الشريعة في قضاياهم الاجتماعية[12].

عني الآباء والأمهات بتربية أولادهم بنين وبنات وبتعليمهم، وبإكسابهم الأخلاق والآداب الفاضلة، وبالدفع بهم إلى الكتاتيب لحفظ القرآن وأساسيات المعارف، أو تعليمهم داخل بيوتهم[13]، كما حرص كثير منهم على إحضار

[1] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٢٦٦-٢٦٧؛ والعبدري، المدخل، ج١ ص١٣٠-١٣١، ١٥١، ج٢ ص١٦٧.
[2] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٢٦٦-٢٦٧، ٢٩٣-٢٩٤، ج٣ ص٢٨٨؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص٨٨-٩٠؛ ورفع الإصر، ص٣٦٤، ٣٦٦-٣٦٩.
[3] ابن حجر، رفع الإصر، ص٨١-٨٢، ٣٨٠-٣٨١.
[4] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٢٣. وكحال ابن حجر مع تلامذته وتعصب بعضهم له إلى درجة هجر منافسيه.
[5] المصدر السابق، ج٢ ص١٢٣، ٢١٦-٢١٨، ٢٤٥-٢٤٧، ٤٧٦ ؛ ورفع الإصر، ص٣٨٠-٣٨١. وكما مر في ترجمة ابن حجر ومصاهرة أسرته لآل الخروبي.
[6] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣٩٩-٤٠٠.
[7] مثل أسرة بيت بني جماعة وأسرة بني التركماني الماريدني وابن رزين الحموي والسبكي والبلقيني والعراقي.
[8] كالموت المبكر لأغلب بنات ابن حجر وأبناء من تزوج منهن، ومثله كثير. وعدم استمرار أسر كثير من علماء القاهرة، ومنهم من كان يموت ولده قبله فيكثر من الأسى عليه. مثلا ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٥١٩.
[9] ابن حجر مثلا.
[10] كفعل والد ابن حجر به، وكفعل الحافظ العراقي بولده، وكثيرين.
[11] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص٢٩-٣٠؛ ورفع الإصر، ص٢٢٤-٢٢٥؛ والعبدري، المدخل، ج١ ص٢٥٢.
[12] ذكر العبدري في كتابه المدخل قضايا كثيرة من هذا القبيل.
[13] العبدري، المدخل، ج٤ ص٢٩٦؛ وعاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص١٢٨-١٢٩.

أولادهم الصغار إلى مجالس المحدثين للسماع والاستجازة[1]، وظلّت عملية إعاشتهم مهمة للآباء إلى حد الإذن لهم بأخذ معاليم المدارس المشتبه بحلية أوقافها عند الضرورة[2]، وقد يتربى الولد لدى جده من قبل أمه لا سيما إذا كان عالما[3].

وكان الآباء العلماء حريصين على الحصول على الذكور من الأولاد[4]، وفي اليوم السابع (أو الثامن) لميلاد الولد الولد كان العالم يعقد وليمة العقيقة، ويعتبر ذلك من السنة، يدعو فيها طلبته ويضيفهم باللحم والحلوى[5]. ومن رزق منهم إناثا فقد كان يحرص بعض آبائهن على تعليمها العلم الشرعي واستجازة الحديث، ومن خلال اختيارهم لأسمائهن[6] يظهر أنه كان عبارة عن تعويض نفسي للحرمان الذي فرض عليهن، ومن الملاحظ أن من لمعن من الأسماء النسوية في مجال العلم فقد كن من بنات العلماء[7] رغم أن نشاطهن العلمي في القاهرة كان ضعيفا مقارنة ببلاد الشام ويتركّز في الجانب الحديثي.

تأثر بعض الأبناء بآبائهم فكان ولد الحافظ حافظا[8]، وولد القاضي قاضيا[9]، وولد الطبيب طبيبا[10]، وولد الصوفي الصوفي صوفيا[11]، وولد الفقيه فقيها[12]، ومن الأبناء من لم يكن عند أمل أبيه فيه[13]، كما أن بعضا منهم من كان عالما مسلما رغم أن أبويه كانوا كفارا[14]، وجلب بعض الأبناء لآبائهم العلماء متاعب في وظائفهم وربما كانوا بانحرافاتهم سببا في عزلهم عن وظائفهم[15].

ويلاحظ ظاهرة واضحة لا يكاد يخلو منها مجتمع وهي محاولة بعضهم توريث وظيفته لابنه كتقليد موجود وتسومح فيه، رغم محاولة بعض أتقياء العلماء رفض هذا الواقع، كما كثر محاولة الأولاد الجلوس في وظائف آبائهم لا سيما التدريسية، وربما قلّد السلطان أحد الأبناء وظيفة أبيه بحكم خبرته ومرانه عليها أيام أبيه، وربما فاق أحدهم أباه فيها[16].

ورغم عزوف الصوفية عن الدنيا واعتزالهم الحياة الدنيا واكتفائهم بما يجود به عليهم الأغنياء إلا أن عددا كبيرا من علماء القاهرة رغبوا في الزواج، وندر منهم من لم يتزوج[17]، أو تزوج ولكنه زهد عن مباشرة زوجته[18]، بل كانوا يعتقدون مندوبية الزواج في أقل الأحوال[19]. وكثر زواج العلماء والطلاب من ذات فئتهم ومن أهل مذهبهم ولو اختلفت أصولهم المكانية[20]، ولو كانت أُمِّيَّةً جاهلة[1]، وقد تزوج العالم بامرأة مخالفة له في المذهب[2]، وهو يشير

---

[1] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص١٠٣، ٢١١، ٢٦٣.
[2] ابن جماعة: محمد بن إبراهيم الحموي، (ت٧٣٣هـ)، تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم، ت. محمود العبد، مكتبة مشكاة الإسلامية، ص٦٥.
[3] كحفيد ابن حجر.
[4] كتسري ابن حجر سرا بجارية تركية لأن زوجته الأثيرة لم تنجب إلا بنات كما تقدم.
[5] كفعل ابن حجر حين ولد له ولد كما تقدم؛ والعبدري، المدخل، ج٣ ص٣٠٠.
[6] كست العلماء وست الناس وست الكل.
[7] سارة بنت تقي الدين السبكي مثلا (ت٨٠٥هـ). ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٣٤٣. ومثل شيخات ابن حجر اللاتي تقدمن.
[8] مثل ولد الحافظ العراقي.
[9] مثل آل جماعة.
[10] كأسرة آل صغير، وبديع بن نفيس الداودي.
[11] مثل علي بن محمد بن وفاء الشاذلي توفي سنة ٨٠٧هـ. ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٣٠٨-٣٠٩.
[12] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٤٦٤.
[13] كولد ابن حجر نفسه فلم يكن مثل أبيه.
[14] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٤٩٦.
[15] ابن حجر، رفع الإصر، ص٦٥-٦٦، ٤١٤، وكما وقع لابن حجر من جهة ولده.
[16] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٢١١، ٢١٢، ج٢ ص٤٠٩، ج٣ ص٢١٠-٢١١، ج٤ ص١٧٣؛ ورفع الإصر، ص٣٥- ٣٦، ٦٧- ٧٧، ٢٢٤- ٢٢٥.
[17] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص١١٦-١١٧.
[18] العبدري، المدخل، ج٢ ص١٧٩-١٨٠.
[19] ابن حجر، فتح الباري، ج٩ ص٦.
[20] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٢٤٥-٢٤٧، ٣٠٩-٣١٠، ٤٧٦؛ ورفع الإصر، ص٣٨٠-٣٨١.

يشير إلى التعايش المذهبي الجيد داخل المذاهب الأربعة، وتزوج بعض الأمراء المماليك الصغار بل وبعض السلاطين بنات بعض العلماء ممن كانت لهم وظائف لدى الدولة[٣]، ويبدو أن زواج العلماء من بنات التجار والعكس كان معروفا أيضا[٤]، وكان زواج من هن أقل من ١٨ عاما ممن يكبرونهن سنا أمرا عاديا في مجتمع علماء القاهرة[٥]، كما حدث وأن تزوج أحد العلماء بامرأة تفوقه بأكثر من ٤٠ عاما[٦]، وبدا أمرا مهما مراعاة العلماء للزواج من الفئات المحترمة اجتماعيا[٧].

ويظهر أن القاهريين بشكل عام استغرقوا كثيرا من إمكانياتهم وأموالهم في إثراء حياتهم الاجتماعية وطقوسها المتعددة، وكثيرا ما نسبوا تلك الطقوس الاجتماعية إلى الدين، واهتموا بها لا سيما في الزواج واحتفالاته ومراحله[٨]، ولم يكن العلماء بعيدين كل البعد عن هذا الوضع[٩]، فقد عمّت البلوى بأن لا يدخل الزوج إلا بعد أن يعطي زوجته ثلاث دكك: دكة فضة، ودكة نحاس أبيض، ودكة نحاس أصفر[١٠]، كما كان لا يقدر أحد على عمل عرس إلا بعد تسليم ٢٠ إلى ٣٠ مثقالا من الذهب لمندوبة الضرائب على المغنيات[١١].

وجمع بعضهم أكثر من زوجة في آن واحد، لا سيما إذا غابت زوجته أو هو غاب عنها[١٢]، كما تسرّوا بالجواري[١٣]، وكان بعض العلماء المتعلقين بالدولة كثير التنعم بالجواري الحسان والآنية الثمينة[١٤]، وهو ما يعكس مجتمعا متعدد المنازع والاتجاهات. ويبدو أن العلماء قد تشبهوا بما يفعله الأمراء والعامة من الناس في بعض صور حياتهم الاجتماعية تسامحا وتهاونا رغم كونه منتقدا عند المتحرّجين منهم[١٥]، وقد أجاز ابن حجر[١٦] إباحة خروج المرأة لحوائجها مع أمن الفتنة.

ويظهر أن بعضا من زوجات العلماء كن ذوات نفوذ قوي على أزواجهن، وذوات غيرة شديدة، وكانوا يبجلونهن وربما خضع أحدهم لرغبة زوجته الأثيرة في تطليق ضرتها[١٧]، ولا تمانع الأرملة كبيرة السنة من الزواج ولو على عدو زوجها[١٨].

---

[١] كزواج ابن حجر من زوجته أنس خاتون التي حرص هو فيما بعد على تعليمها. وقد حث العبدري (المدخل ج١ ص٢٧٦) العلماء على تعليم زوجاتهم الجاهلات وبالغ فيه، وحثهن على التبليغ عن أزواجهن العلماء إلى النساء الأجنبيات.

[٢] زواج القاضي المارديني بابنة القاضي ابن جماعة صالحة (ابن حجر، رفع الإصر، ص١٩١). والقاضي محب الدين الأشقر الحنفي بابنتي ابن حجر الشافعيتين.

[٣] تزوج السلطان برقوق ابنة القاضي جمال الدين العجمي ناظر الجيش. (ابن حجر، رفع الإصر، ص٨١-٨٣)، وتزوج الأمير الكركي التركي زين خاتون ابنة ابن حجر وأولدها سبطه يوسف كما تقدم.

[٤] كزواج أسرة ابن حجر في آل الخروبي وتزوج آل الخروبي التجار في آل ابن حجر العسقلاني. ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص١٢٣.

[٥] فقد زوج ابن حجر إحدى بناته وعمرها ١٥ عاما برجل يكبرها ٢٠ سنة، وزوج أخرى كان عمرها ١٥ عاما أيضا بآخر عالم بلغ عمره ٤٦ عاما كما تقدم.

[٦] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص٢٩-٣٠.

[٧] ابن حجر، رفع الإصر، ص٣٣٤، ٣٣٦.

[٨] العبدري، المدخل، ج١ ص٢٧٧-٢٨٠، ج٣ ص٢٩٠، ١٩١، عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص١٣١-١٣٥.

[٩] كما يبدو من انتقادات العبدري لسكوتهم وتهاونهم وإقرارهم لبعض الأوضاع التي رأى أنها مخالفة لقانون الفقه الإسلامي. مثلا المدخل ج٢ ص١٦٧-١٦٨، ١٦٩.

[١٠] العبدري، المدخل، ج٢ ص١٦٧-١٦٨.

[١١] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص١٢٧، ١٦٤.

[١٢] كحال ابن حجر في زواجه حال غياب زوجته بمجاورتها للحرم، وكذلك عند رحلته إلى حلب سنة ٨٣٦هـ.

[١٣] كابن حجر وتسريه بجاريته التركية أم ولده، وينظر ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٤٧٦.

[١٤] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٢٩٣-٢٩٤.

[١٥] العبدري، المدخل، ج١ ص٢٨١، ج٢ ص٢٤١-٢٤٢، ٢٦٤.

[١٦] فتح الباري، ج٩ ص٢٤٨، ٢٤٩.

[١٧] كما هو الحال عند ابن حجر نفسه.

[١٨] مثل أم ابن حجر وزوجته أرملة الزين وزوجته ليلى الحلبية فقد تزوجن للمرة الثانية، وكذلك زوجته أنس خاتون وافقت من الزواج بخصمه القاضي علم الدين البلقيني بعد موته.

وبطبيعة حال القاهرة آنذاك لكونها دار السلطان، وبها كثير من المظاهر الاجتماعية المتناقضة والمختلفة، والانفتاح البعيد عن تحرج المتقين فقد اعتبرت بعض المظاهر التي مارسها عامة الناس في حياتهم اليومية من الأمور المكروهة للعلماء والطلاب، وربما حملتهم الغيرة على نسائهم إلى حصول الاختلاف والشقاق داخل الأسر، حتى آثر بعض العراقيين العودة إلى بغداد؛ لأنها كانت أقل فسادا من القاهرة[١]، ولهذا تشدّد بعضهم في تعامله مع زوجته، ونادى البعض منهم إلى مخالفة النساء في كثير من العوائد لتربيهن في بيئات بعيدة عن أهل العلم[٢].

وظهرت المرأة القاهرية في القرن الثامن الهجري وهي تبحث عن جمالها وزينتها وحسن مظهرها وسمن بدنها[٣]، غير أنها في نظر بعض المعاصرين[٤] كانت تتزين في المكان غير الجائز، وهو عند خروجها إلى الشوارع، وتتركه حيث يندب لها، وهو عند زوجها، ولم يتحرجوا من ذكر بعض الإرشادات والحركات الجنسية للزوجين التي بها تدوم الألفة ويتحصّل النشاط الجنسي المباح، بالإضافة إلى قراءة بعض آيات القرآن والأدعية[٥].

وكان العلماء معنيين بستر أزواجهم بصورة كبيرة في بيوت مستورة[٦]، وعابوا كثيرا مما يحدث للنساء من تبرج تبرج بالزينة، ومن لبس الملابس القصيرة والضيقة بدون سراويل داخل البيوت، ومن تعرٍّ في الحمامات التي يختلط فيها نساء المسلمين باليهوديات والمسيحيات[٧].

وكما أوجبوا على العالِم أن يعلِّم زوجته لتبلِّغ عنه أحكام الشرع للنساء عموما ولبعض الرجال خصوصا من أقاربها، وجعلوا تعلمها حقا لها ينتزع من الزوج ولو كرها[٨]، وهي نظرة جيدة، لكنها لم تشهد واقعا مطابقا، وقد عيب على بعضهم أنهم لا يأمرون نساءهم اللائي لا يصلين بالصلاة، وقد يكون السبب من جهتهم حيث سكنوا ببيوت لا حمامات فيها للغسل ولا مواضي للصلاة[٩].

-بيوتهم

بنيت معظم مساكن القاهرة المختلفة بالطوب، واختلفت فهناك القصور والدور والمدارس والخوانق والرباع[١٠] والأربطة[١١]، وقد بني معظمها بالطوب، وكانت طبقاتها خمسا إلى سبع طبقات، وربما يسكن في الدار المئتان من الناس، وأسفل دورهم عادة غير مسكون[١٢]، ويبدو أن كثرة عدد سكان الفسطاط وازدحام أحيائها جعلها لا تروق لبعض الرحالة المغاربة نظافة[١٣].

لقد كان البيت عنوانا للرقي والجاه الاجتماعي والمروءة في مجتمع القاهرة[١٤]، وقد اهتم المصريون بتشييد بيوتهم وتأثيثها وتزويدها بوسائل الراحة، وبدت في مظاهرها الخارجية بسيطة وصغيرة إلا أنها كانت في الداخل

---

[١] العبدري، المدخل، ج١ ص٢٦٧، ٢٦٩، ٢٧٠.
[٢] المصدر السابق، ج١ ص٢١٠، ج٣ ص٢٨٢.
[٣] المصدر السابق، ج١ ص٢٤١-٢٤٢، ج٢ ص٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ١٦٧-١٦٨.
[٤] المصدر السابق، ج١ ص٢٤٥-٢٤٦، ج٢ ص١٦٩.
[٥] المصدر السابق، ج٢ ص١٨٠-١٨٣.
[٦] ابن جماعة، تذكرة السامع والمتكلم، ص٦٨، وكثير من موضوعات العبدري مما يتعلق بالنساء يدور حول هذا.
[٧] العبدري، المدخل، ج١ ص٢٤١، ج٢ ص١٧٢.
[٨] المصدر السابق، ج١ ص٢٧٦.
[٩] السبكي، معيد النعم، ص٧٦؛ والعبدري، المدخل، ج٢ ص١٦٩-١٧٠.
[١٠] جمع ربع، وهو المنزل.
[١١] المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢ ص٦٢.
[١٢] الإدريسي: محمد بن محمد، (ت٥٦٠هـ)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، القاهرة، المكتبة الثقافية، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م، ج١ ص٣٢٣، ٣٢٤؛ والمقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢ ص٨.
[١٣] المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢ ص٩.
[١٤] لهذا يذكرون أنه ما إن ولي القاضي جمال الدين محمود بن محمد القيصري الحسبة سنة ٧٧٨هـ حتى استعار دارا من صديق له نزل فيها، بعد أن كان فقيرا يتنزل على إحدى المدارس. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٣٦-٣٣٧.

مرتبة غاية الترتيب ومزينة ومقسمة إلى غرف وحجرات، وكانت الفكرة الأساسية لهندسة بيوتهم هي تلطيف الجو الحار في القاهرة ومنع رؤية من هو خارج الدار لمن هو داخلها، وتمكين من بداخلها رؤية من بخارجها[١]، لكن مع مع ذلك شاعت ظاهرة سيئة في القرن الثامن الهجري وهي أن غالب بيوتهم لم يكن بها حمامات للغسل ولا مواضي للوضوء، حتى في الدور غالية الأثمان، وإذا أراد أحدهم الغسل خرج إلى الحمامات العامة[٢]، وهو ما يعني حفاظهم على نظافة البيت بسبب غياب التصريف الصحي لمخرجات الحمامات، إلا أن ذلك أيضا لا يهيّئ المدينة للنظافة بشكل عام.

سكن العلماء بحسب غناهم وفقرهم مختلف المباني السكنية، فقد عرف حيٌّ منها بأنه حي أعيان المصريين من القضاة والكتاب[٣]، كما شيّد كبار العلماء ممن تقلدوا الوظائف الحكومية المحترمة دورا مشهورة[٤]، وبالغ بعضهم في في الإنفاق على بناء قصره مضاهيا بذلك كبار الأمراء المماليك[٥]؛ الأمر الذي جعل أحد السلاطين يعاقب أحدهم بهدم داره[٦]. وكان لبعضهم بيوت معدة للنزهة على النيل، وقد يعقدون فيها بعض الجلسات العلمية الخاصة[٧].

ولما كانت مدارس القاهرة توفّر للملتحقين بها مساكن مجانية ملائمة، فقد نزل بها أعداد كثيرة من أهل العلم وسكنوها فرادى ومع نسائهم وأولادهم[٨]، كما أُعِدّت أيضا للمدرسين والمعيدين والفقهاء والأئمة وللطلاب أيضا، ومن المدارس التي وفّرت السكن المجاني المدرسة المعزية، والشريفية، والظاهرية، والصالحية، والناصرية، والصاحبية البهائية، والجمالية، والسابقية، والحسامية[٩]، وكان لبعضها وهي مساكن الصالحية أهمية كبيرة من حيث حيث أنها كانت سكن كبار القضاة[١٠]، كما تنافس الطلاب في سكنى بيوت الصاحبية البهائية لنفاستها[١١]، وخصصت بعضها لبعض المذاهب دون سواها، كما حدَّدَتْ وقفياتُ بعضِها السكنى فيها بشروط وحالات معينة[١٢]، ونشأت إشكالات في السكنى بها وعلاقات الساكنين ببعضهم؛ الأمر الذي سيحمل بعضا من العلماء لأن يكتب آدابا وقوانين تنظِّم هذه العلاقات على الأقل من وجهة نظره، كما هو الحال لدى العلامة ابن جماعة في كتابه (تذكرة السامع والمتكلم) كما سيأتي.

كما نزل صوفيتهم في الخوانق والرُّبُط والزوايا التي تنافس الأمراء على بنائها[١٣]، وقد تتغير إدارة الخانقاة فتقوم الإدارة الجديدة بطرد بعض العلماء النازلين بها ممن لا تنطبق عليهم وقفياتها[١٤].

اعتُبِرَت البيوت بالنسبة للعلماء مكان الراحة ومعاشرة الأهل والنوم والأكل والضيافة مثلهم مثل بقية أفراد المجتمع[١٥]، بل بالغ بعض كبارهم من الذين كانوا على رأس وظائف كبيرة في ترتيب أموره داخل بيته بطريقة

---

[١] عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص١٢٥-١٢٦.
[٢] العبدري، المدخل، ج٢ ص١٦٩-١٧٠.
[٣] المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢ ص٧٤٠.
[٤] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٢١٣، ج٣ ص١٥٥.
[٥] المصدر السابق، ج٢ ص٢٩٣-٢٩٤.
[٦] المصدر السابق، ج٤ ص٢٥٣-٢٥٤.
[٧] البلوي: خالد بن عيسى، (ت بعد ٧٦٧هـ)، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، ت. الحسن السائح، طبع بإشراف اللجنة المغربية الإماراتية المشتركة، مؤسسة إحياء التراث الإسلامي، ج١ ص٢٢٨.
[٨] ابن جماعة، تذكرة السامع والمتكلم، ص٦٥، ٦٨.
[٩] النويري، نهاية الأرب، ج٣١ ص٧٨، ج٣٢ ص٤٦، ٧١، ٨٧؛ وابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٤٢، ج٣ ص٢٥، ٧٢-٧٣، ١٤٩، ٣١٤؛ ورفع الإصر، ص٤١-٤٢، ١٩١؛ والمقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣ ص٤٥٨، ٥١١، ٥١٥.
[١٠] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٤٢؛ ورفع الإصر، ص٤١-٤٢، ١٩١.
[١١] المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣ ص٤٥٨.
[١٢] المصدر السابق، ج٣ ص٥١١.
[١٣] ابن بطوطة، تحفة النظار، ج١ ص٢٣.
[١٤] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٤٩٢-٤٩٣.
[١٥] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٢٥؛ والسخاوي، الجواهر والدرر، ص١٠٥٣- ١٠٥٤.

ملفتة تعكس بيئة القاهرة البيروقراطية والإدارية المنضبطة، وجدّيتهم في الحفاظ على الهيبة والجاه وتحصيل المتعة والهدوء[١]، لكن أيضا نجد آخرين حافظوا على حياة البساطة والقناعة والزهد ولم يتغير حالهم[٢].

غير أن أهم أمر ميّز بيوتهم هو أنها كانت دائما مجمعا للفضلاء وضيافتهم وإكرامهم، وطالما كانت دورا للعلم والمعرفة وعقد حلقات العلم ولا سيما الخاصة منها، فكانت مسرحا فاعلا لحلقات العلم ورواية الأحاديث والمؤلفات واستنشاد الأشعار والأدب، والإجازات والمناولات[٣]، وهي ميزة ساهمت في توسيع دائرة النشاط العلمي ومتّنت علاقات أهل العلم فيما بينهم.

-أكلهم

لم تتميز فئة العلماء عن المجتمع القاهري في أنواع الأكل والشراب وطرائقهما وآدابهما، سوى ما رأوا فيه مخالفة شرعية يجب تجنبها، وقد حفل (المدخل) للعبدري المغربي بآداب الأكل التي يجب التزامها لا سيما على أهل العلم، وحذّر من بعض البدع التي رأى فيها مخالفة شرعية أو تأثرا وتشبها بعادات الأعاجم، ويبدو أن الجو العام الذي كان يسيطر على حياة العلماء هو دعوتهم إلى القناعة والبساطة والالتزام الدقيق لآداب الإسلام في هذا الجانب، شملت تلك الآداب هيئات الآكل وحالاته وكيفية أكله وأي الأنواع والمقادير تكون، كما كان هناك حرص على أن لا يقع العلماء فيما وقع فيه غيرهم من مخالفات تلك الآداب[٤].

اختلفت طريقة العلماء في التعامل مع هذه الجوانب ما بين مستكثِرٍ من أنواع الملاذِّ وأطايب الطعام، وبين مقتصِدٍ متقشِّف، ويظهر أن بعضا ممن التحقوا بركب الدولة وتقلدوا مناصبها كانوا قد انخرطوا في اختيار الحياة الأنيقة في مآكلهم ومشاربهم، ولهذا ورد وصفهم بالتأنق في المأكل والمشرب والملبس والمسكن والمنكح والطيب، بل وفي طريقة ترتيب هذه الأشياء داخل بيوتهم[٥]، ومنهم من كان سمح النفس يقدم كثيرا منه لأي زائر يزوره[٦]، ومنهم من توسع في إطعام غيره ولا سيما من الطلبة توسعا محمودا[٧].

وإذا كان الصوفية وقد طالتهم الحياة الإدارية بطقوسها وأصبحوا يعتمدون على جرايات يومية من الأمراء في خوانقهم، فإن هناك من زهد وتقشف تدينا وكظم شهوة بطنه حتى في غمرة غناه، ولم تغيره وظيفته[٨]، كما أن كثيرا كثيرا من المدرسين والعلماء عاشوا حياة الزهد والقناعة، ومنهم من امتنع عن الأكل ليلا حتى لا يضطره للشرب فيضيع عليه جزء من الوقت[٩].

ومع ذلك فقد كان لبعضهم معرفة تثير التعجب في أنواع المأكولات والمشروبات والمشمومات والملبوسات وتراكيبها وصفاتها ومقاديرها وأنواع الغش والتنظير والتأصيل شرعا للمحتسب في التعامل الحسن مع هذه

---

[١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٩-٤٠، ٢٠١-٢٠٢.
[٢] المصدر السابق، ج٢ ص٢٤١-٢٤٢، ج٣ ص٢٥، ٢٦.
[٣] المصدر السابق، ج٢ ص٣٦٦، ج٣ ص١٠٩؛ والبلوي، تاج المفرق، ج١ ص٢٣٠، ٢٣٧.
[٤] العبدري، المدخل، ج١ ص٢١٦-١٣٦.
[٥] مثل القاضي الشافعي الفقيه النحوي عبد الله بن عبد الرحمن بن عقيل، والكاتب أبو بكر بن محمد بن محمد الحلبي، والكاتب محمد بن أحمد بن فضل الله المصري، والقاضي الحنبلي أحمد بن عمر المقدسي، والقاضي والمحتسب الحنفي جمال الدين محمود بن محمد القيصري، والقاضي شمس الدين الحريري، والقاضي الصاحب تاج الدين محمد بن محمد بن علي المصري وغيرهم. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٢٢٦، ٤٦٤، ج٢ ص٢٦٧، ج٣ ص٣٦٨، ج٤ ص٢٠١-٢٠٢، ٣٣٦-٣٣٧.
[٦] المصدر السابق، ج٢ ص١٤٨، ج٣ ص١٦٣.
[٧] مثل القاضي المارديني الذي كان يجمع الطلبة على طعامه ويكرمهم. ابن حجر، رفع الإصر، ص١٩١.
[٨] ومنهم الإمام ابن دقيق العيد، والقاضي الشافعي محمد بن إبراهيم ابن جماعة، والقاضي الحنبلي موفق الدين عبد الله بن محمد المقدسي. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٢٤-٣٥، ٢٨٣؛ ورفع الإصر، ص ٢٠٠-٢٠١.
[٩] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص١٤٩، ج٤ ص٣٢٧.

الموضوعات[1]، وهو الأمر الذي يشير إلى الحاجة الملحة للتنظيم الإداري لهذه الأمور ابتغاء الرفاهية والصحة وإيجاد أنواعٍ أفضل للعلاقة بين أفراد المجتمع المكتظ بالزحام.

-زيهم

ارتبط الزي في العهد المملوكي بالوظيفة وبالسلوك الاجتماعي ارتباطا وثيقا؛ وقد كان لافتا أن يترجم شخص بأنه "تزيا بزي الفقراء" حينما سلك طريقة الصوفية، ولما عاد إلى ممارسة الحياة العلمية قيل فيه: "ثم تزيا بزي الفقهاء"[2]، وقيل في جندي تصوّف: "ثم ترك لبس الجندية ولبس الفقيري"، وهذا يعكس اهتمام المماليك بالزي المعين والمحدد لكل فئات المجتمع لا سيما تلك الفئات المرتبطة بالدولة من أجل الانضباط الإداري الذي سيطر على حياتهم وثقافتهم، كما يعكس أولويتهم في المحافظة على تميزهم وتفوقهم على جميع الفئات الأخرى[3].

ارتبط الزي (الملبس) ارتباطا وثيقا بالوظيفة المدنية أو العسكرية للابس من أجل التمييز الذي حرص المماليك على حصوله حفاظا على نخبويتهم في المجتمع المصري، وكان ملفتا هذا التنوع في الأزياء للرحالة والوافدين إلى القاهرة، حتى عاب بعضهم[4] على العلماء التميز عن سائر الناس بزيهم المعين. والتزم العلماء الزي بشدة، حفاظا على المكانة الاجتماعية وحفاظا على هيبة العلم، بل وفُرض على الطلاب زي معين محافظة على منصب العلم، وإذا أهملها طالب "قيل عنه مهين يتهاون بمنصب العلم لا يعطيه حقه"[5]، ويهتم المترجم للعلماء بتسجيل ملاحظته عن أحدهم إذا تعلقت بهذا الجانب[6]، أو تسجيل ملاحظته على عالم وافد لم يلبس زي قضاة مصر وعلمائها، ولا يستبعد أن يكون ذلك سبب الاضطغان عليه[7]. لقد كان الاهتمام بتميُّز العلماء عمن سواهم من الناس صفة مصرية مملوكية، وهي عادة غريبة مثلا في المغرب[8].

يرى العبدري[9] أثرا سيئا لهذه الصيغة البيروقراطية حيث جرّت إلى حرمان بعض الأولاد من تعلم العلم، لأن آباءهم الفقراء لم يستطيعوا توفير الزي المطلوب، كما أنه لاحظ تبذيرهم وإسرافهم على حد وصفه في توسيع الأثواب وأكمامها ومبالغتهم في حسنها وصقالتها، كما لاحظ ابن بطوطة كِبَر عمائم بعض علماء مصر؛ الأمر الذي جعلهم مثار تندر الممثلين وسخريتهم في مسرحية خيال الظل[10]، التي انتقدت ذلك منهم[11].

وإذا كان الباحث لا يتفق ونظرة الزهد هذه في المظهر، بل إنها تعكس الرقي الاجتماعي والثقافي، ولا تتناقض مع جوهر الإسلام وتعاليمه، لكن يبدو أن علماء القاهرة آنذاك أثقلوا أنفسهم بزي ثقيل وواسع فضفاض، خرج بهم عن السمت والوقار المطلوب، وبالغ بعضهم في تفقُّد زيِّه وإصلاحه كل لحظة بشكل مثير وبما شغله عن مهامه[12].

لقد كان على القضاة الرسميين أن يلبسوا العمائم من الشاشات الكبار، ومنهم من يرسل منها بين كتفيه ذؤابة طويلة[1] تصل إلى سرج فرسه لو كان راكبا، وزهادهم كانوا يقصرون تلك الذؤابة، كما جعل بعضهم بدلا عن

---

[1] كما ظهر في الباب الحادي عشر إلى الباب السابع والعشرين من كتاب معالم القربة لابن الأخوة (ت٧٢٩هـ) من الورقة ٦١ حتى الـ٨٦.
[2] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٦٠-٦١.
[3] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٢١٠؛ والسبكي، معيد النعم، ص٤٩.
[4] العبدري، المدخل، ج١ ص١٥١.
[5] المصدر السابق، ج١ ص١٣٦.
[6] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص٣١
[7] كما هو الحال في ترجمة ابن خلدون عند ابن حجر، وهو ممن رفض التزيي بزي أهل مصر وبقي محافظا على زيه المغربي، فتحامل عليه بعضهم. ابن حجر، رفع الإصر، ص ٣٣٤-٣٣٦.
[8] العبدري، المدخل، ج١ ص١٥١.
[9] المصدر السابق، ج١ ص١٥٤.
[10] نوع من الأدب الذي يتم التمثيل به، وسيأتي تعريفه في النتاج العلمي للأدب.
[11] ابن بطوطة، تحفة النظار، ج١ ص١٢؛ والعبدري، المدخل، ج١ ص١٣٢، ١٣٩.
[12] المصدر السابق، ج١ ص١٣٢، ١٣٩.

الذؤابة الطيلسان[2] يغطي به رأسه وكتفيه، ويلبس فوق ثيابه دلقا[3] متسع الأكمام طويلها ومفتوحا فوق كتفيه بغير تفريج، وتميّز قاضي قضاة الشافعية دائما وقاضي قضاة الحنفية في وقت من الأوقات بلبس الطرحة[4].

وأما غير القضاة فيلبس عمامة أصغر، ويلبس بدل الدلق فرجية[5]، فإذا كان صيفا كانت هذه الدلق والفراريج من القطن، وإذا كان شتاء كانت من الصوف الأبيض المطلي[6]، ومن ألبستهم البقير[7]، وكانوا يلبسون الخفاف[8] من الأديم الطائفي[9] بغير مهاميز[10]، وبعضهم يلبسها بمهاميز[11]. وكانت ملابس الصوفية منهم تشبه ملابس العلماء، غير أن الدلق غير طويل الكم ولا سابلا، وكان يدلون ذؤابة قصيرة[12]، وكان الشاذلية منهم يتخذون الملابس النظيفة من الصوف الخشن واللون الأبيض[13]، ومن العلماء الزاهدين من لم يتعمم بل اكتفى بطاقية[14] عليها طيلسان[15].

وقد تفاوت العلماء في مادة هذه الألبسة وحسن صقلها وتأنق تفصيلها، فالمتوسعون أحبوا فاخرها وأنيقها وجميلها، والزاهدون لا يكترثون لذلك[16]، ومنهم من اهتم بهندامه حتى حينما يأتي لصلاته[17]، على أن قليلا منهم لم تتغير عمامته الصوفية المتواضعة حتى بعد أن ولي القضاء[18].

وحين يولي السلطان أحدهم لمنصب كان يخلع عليه بخلعة كانت غالبا عبارة عن جبة مطرزة وعمامة وطيلسان مقوَّر وسيف[19]، وكان للقاضي الشافعي دائما الطرحة بدلا من الطيلسان، وحصل القاضي الحنفي على امتياز لبس الطرحة حينا من الزمان، وسرعان ما حُرِمَه، وكانت الخلع متخذة من الحرير حتى إذا ولي القاضي ابن دقيق العيد

---

[1] لعلها المسماة بالبقيار. المصدر السابق، ج١ ص٢١١.

[2] كساء اتُّخذ في الأغلب من القماش الأخضر، يوضع على الرأس والكتفين وأحيانا على الكتفين فقط، ويحيط بالبدن، وهو خال من الصنعة كالتفصيل والخياطة، ويسمى في مصر والشام الشال. إبراهيم: رجب عبدالجواد، المعجم العربي لأسماء الملابس، ط١، القاهرة، دار الآفاق العربية، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م، ص٣٠٦.

[3] لباس اتخذ من الصوف غالبا، وكان واسعا متسع الأكمام غير مشقوق، بل مفتوحا من فوق الكتف، ولون ما يلبسه الخطباء أسود كشعار العباسيين. إبراهيم، المعجم العربي، ص١٧٦-١٧٧.

[4] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص١٥٤-١٥٥؛ وإنباء الغمر، ج١ ص١٩٣-١٩٤؛ ورفع الإصر، ص٣٨٠-٣٨١؛ والقلقشندي، صبح الأعشى، ج٤ ص٤٣-٤٤. والطرحة تشبه الطيلسان، تصنع من الشاش الموصلي الذي يلاث على العمامة، أو يطرح على الكتفين فيتدلى على الظهر. إبراهيم، المعجم العربي، ص٢٩٩-٣٠٠.

[5] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٣٦-٣٣٧؛ والقلقشندي، صبح الأعشى، ج٤ ص٤٣-٤٤. والفرجية ثوب فضفاض طويل الأكمام مفتوح من الأمام من أعلاه إلى أسفله، ومزرّر بالأزرار وله كمان واسعان طويلان يتجاوزان أطراف الأصابع. إبراهيم، المعجم العربي، ص٣٥١.

[6] القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤ ص٤٤.

[7] وهو برد يشق فيلبس بلا كمين. العبدري، المدخل، ج١ ص٢١١.

[8] نوع من الأحذية الجلدية يلبس فوقها حذاء آخر. إبراهيم، المعجم العربي، ص١٥٣.

[9] الجلود منسوبة إلى مدينة الطائف جنوب الحجاز.

[10] المهماز أو المهمز حديدة تكون في مؤخرة الخف، وقد اتخذت للعلماء حديدا وللأمراء ذهبا. إبراهيم، المعجم العربي، ص٥١٨.

[11] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص١٤-١٥.

[12] القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤ ٤٤-٤٥.

[13] ابن حجر، رفع الإصر، ص٣٦٥.

[14] غطاء للرأس من الصوف أو القطن ونحوهما، وصاروا في الدولة الجركسية يلبسونها بغير عمامة ويمرون في الشوارع من دون بأس بعد أن ظلت زمانا عارا وفضيحة. إبراهيم، المعجم العربي، ص٣١١.

[15] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص١٧٨-١٧٩.

[16] تماما مثل موقفهم من المسكن، المصدر السابق، ج١ ص٤٦٤، ج٢ ص٢٦٧، ج٣ ص١٠٩، ٢٧٩-٢٨٠، ٢٨٣؛ ورفع الإصر، ص٣٦٧.

[17] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص١٤-١٥.

[18] المصدر السابق، ج٣ ص٢٦.

[19] المصدر السابق، ج٢ ص١٦٠، ج٢ ص٣٩٧؛ ورفع الإصر، ص٢٨؛ وإبراهيم: المعجم العربي ص١٥٥. والتقوير خرم الشيء من الوسط وإبقاء الحافة بشكل دائري، ولعلهم هنا كانوا يقوِّرون الطيلسان حول الوجه.

في أول القرن الثامن غيّرها إلى الصوف[1]، ويبدو أنها استمرت كذلك خلال القرن الثامن الهجري، لكنها تغيرت في آخره أو أول القرن التاسع فصارت ما بين حرير وذهب[2].

ولعل أهم أمر يجب التذكير به هو ما تميزت به القاهرة والعصر المملوكي من تخصيص الأزياء فكان للجند زيهم الذي يبدو أنه كان مرغوبا حتى في بعض الأوساط العلمية[3]، وبذلك يشير إلى نخبوية الجندية، واعتبارها فئة محترمة عند العلماء، كما كان زي الترك (حكام البلد) أحد وسائل الطامحين إلى الوصول إلى مرتبة اجتماعية مرموقة[4]، كما كان هناك زي للفقراء، ويسمى الفقيري يلبسه الصوفية منهم، وحين يبتدئ أحدهم سلوك طريقة تصوف كان لا بد أن يضع شيخ الطريقة الخرقة[5] على رأسه[6].

وأما علماء اليهود والنصارى في القاهرة فلم يخرجوا عن النسق الذي كان يجري عليه أهل طائفته، فقد تعرضوا لنوبات مختلفة خلال القرن الثامن ألزمتهم أن يتميزوا عن المسلمين في الألبسة، ومنها مثلا أثناء ولاية بيبرس الجاشنكير الذي ألزم النصارى بلبس العمائم الزرق، واليهود العمائم الصفر، وأن لا يتظاهروا بملبوس فاخر، ولا مشابه للبس المسلمين في شيء من ذلك[7]، كما حرّم عليهم لبس الفراجي ذات الأكمام الواسعة، واشترط عليهم أن تكون ثيابهم وعمائمهم قصيرة[8].

وفي بعض الأحيان استكثر المماليك على الفقهاء لبس الثياب الفاخرة وركوب الخيل، وحدث أكثر من مرة أن اعتدوا على فقيه وأنزلوه مِنْ على خيله بحجة أنه لا يحق ركوبها إلا للمحاربين، وهم الجنود الذي كانوا جميعا من الأتراك[9]، وفي الحقيقة أن ما طالب به هؤلاء المحاربون كان تقليدا مصريا قديما رآه الرحالة ناصر خسرو (ت حولي٤٨١هـ)[10] أيام الفاطميين، ومع ذلك فقد كان القضاة يركبون البغال النفيسة بلُجُمٍ ثقالٍ وسروجٍ مدهونة مع مميزات أخرى، وكان مَنْ دونهم يركبون الخيول بمتاع أقل[11].

-احتفالاتهم وعوائدهم

مارس المجتمع القاهري كما يبدو حياتَه الاجتماعية بنوع من التوسع والبحث عن الرفاه بما يعكس عمق الروابط الاجتماعية بين فئات الشعب، وربما كان لمجيء الأيوبيين ثم المماليك بعد الفاطميين الذين أولوا المناسبات والأعياد عناية خاصة ما جعلهم مولعين بها.

ويلاحظ اهتمام العلماء وعنايتهم في حفظ نواميس المكانة الاجتماعية واصطناع الهيبة تشبها بحالة الأمراء، ولهذا كانت لهم عوائدُ خاصة، ويتبين أن المصريين عموما كانوا مولعين بالعادات والطقوس الدينية التي تعكس حالة التدين العميقة في قلوبهم رغم ما رآه البعض من مخالفتهم لمبادئ وطقوس الإسلام[12]. وكان الإنشاد في

---

[1] ابن حجر، رفع الإصر، ص٣٩٦.
[2] السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢ ص٣٢٠، وقد رفض السيوطي هناك الإدلاء بمعلومات أكثر عنها؛ لأنه على حد زعمه أخذ على نفسه أن لا يذكر حراما في كتابه.
[3] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٩٩، ج٤ ص٩٩.
[4] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٢١٠.
[5] عبارة عن ثوب غليظ لبسه الصوفية. إبراهيم، المعجم العربي، ص١٣٧.
[6] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص١٠٢-١٠٣، ج٤ ص٩٠، ٤٦٣؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٣٢٤.
[7] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٥٠٢-٥٠٤.
[8] عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ٢٣٨؛ نقلا عن النويري، الإلمام بالأعلام، ج١ ص٩٤.
[9] السبكي، معيد النعم، ص٣٢، ٤٩؛ وينظر عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص٣٩.
[10] ناصر خسرو (ت حولي ٤٨١هـ)، سفر نامة، ترجمة يحيى الخشاب، ط٢، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٣م، ص١٢١.
[11] القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤ ص٤٤-٤٥.
[12] على سبيل المثال العبدري، المدخل، ج٣ ص٢٩٠، ٢٩١.

المناسبات فنا قائما بذاته، كما توفّر بعض الشعراء من أهل العلم لوضع الأشعار للمنشدين[١]. وشارك العلماء بفعالية بفعالية في الأعياد الدينية ومنها عيد رأس السنة الهجرية، وجرت العادة أن ينهض الخليفة ومشايخ العلم لتهنئة السلطان والذي كان يوزّع الأرزاق والإكراميات الخاصة بهذه المناسبة، كما كانوا يتبادلون التهاني فيما بينهم[٢].

واعتبر الفقهاء بل حتى متشددوهم يومَ عاشوراء من المواسم الشرعية للفرح، واعتاد الناس فيه التوسعة على الأهل والأقارب والصدقة[٣]، في حين رأى المقريزي[٤] أن اتخاذه يوم حزن كان من صنيع الفاطميين، ولما جاء الأيوبيون أحيوا سنة الأمويين في اتخاذه يوم سرور، ورأى أن "كلا الأمرين غير جيد".

وكان للمولد النبوي شأن كبير في أوساط المصريين على مختلف فئاتهم، وكان السلطان المملوكي يقيم احتفاله في أول خميس يتفق في أول شهر ربيع الأول من كل عام[٥]، ويبدأ الحفل فعالياته من بعد الظهر حتى آخر الليل[٦]، وكان الترتيب أن يجلس شيخ الإسلام وأحد الصوفية في ميمنة السلطان، بينما كان على ميسرته قضاة القضاة الأربعة ومشايخ العلم[٧]، ويقرأ القراءُ القرآن فإذا فرغوا قام جمع من المنشدين للإنشاد، فيدفع السلطان لكل واحد منهم مبلغا من المال، فإذا انقضت صلاة المغرب مدت أسمطة الطعام فأُكلت، ثم أسمطة الحلوى فتؤكل ويتخطّفها الفقهاء، ثم ينشد المنشدون إلى نحو ثلث الليل، فإذا فرغوا من الإنشاد انصرف القضاة، ثم يلقي المغنون مقطوعاتهم الغنائية المصاحبة للرقص حتى الفجر[٨]. وربما استغل بعض العلماء حضوره لإقناع السلطان بأمر ما[٩]، ما[٩]، كما كانت بعض الموالد التي يقيمها الصوفية في ضواحي القاهرة تتضمن بعضا من المفاسد الأخلاقية والدينية والدينية ولهذا كانت محل سخط الفقهاء[١٠].

وإذا أقبل رمضان أكثر أهل العلم زيارة بعضهم، ومن لم يفعل ذلك ظُنّ به أمرٌ موجِبٌ للتأخر من مرض ونحوه[١١]، وحرص كثير من الشيوخ على أن يؤم أولادُهم مِن حفظة القرآن الناسَ في صلاة القيام، وإذا ختم القرآنَ فيها احتفلوا وأنشدوا القصائد والكلام المسجوع، وكانوا يتواعدون ليلة الختم ويرتبونها واحدة بعد أخرى ليتسنى لهم الحضور فيها جميعا، وكان المؤذنون يجتمعون في موضع الختم فيكبرون جماعة في حال الصلاة، وكان العامة من الناس يحتفون بهذا الإمام ذهابا وإيابا، وعليه أن يتكلف في ليلة الختم مأدبة يدعو إليها الإخوان والأصحاب والمعارف، إلى نواميس أخرى تعارفوا عليها وكانت محل انتقاد بعضهم[١٢].

وعند خروج الإمام لصلاة الصبح يوم العيد يجتمع أهالي الحي إلى باب داره، فإذا خرج شرعوا في التكبير بصوت رفيع، واستمروا كذلك إلى أن يصل المحراب، وكانوا يزفونه وبأيديهم القناديل[١٣]. وحين يعيّن أحد العلماء للتدريس يرتّب له درس حافل يحضره أعيان المذاهب والعلماء ويسمى يوم الإجلاس، ويجري فيه البحث بين

---

[١] مثل والد ابن حجر الذي كان لا ينشد علم الدين سليمان بن فيروز القرافي إلا من شعره. ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٣٥٨.
[٢] عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ١٩٥-١٩٦.
[٣] العبدري، المدخل، ج١ ص٢٨٩.
[٤] المواعظ والاعتبار، ج٢ ص٣٤٨-٣٤٩.
[٥] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٣٥١، ٣٥٧، ج٢ ص٢١، ج٣ ص٣٦٥؛ والمقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣ ص١٠٥.
[٦] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص٣٦٥؛ والمقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣ ص١٠٥.
[٧] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٢١؛ والمقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣ ص١٠٥.
[٨] المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣ ص١٠٥؛ وعاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص١٩٨.
[٩] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٣٤٧.
[١٠] المصدر السابق، ج١ ص٣٥٠-٣٥١، ٣٥٧.
[١١] العبدري، المدخل، ج٢ ص١٩٨.
[١٢] المصدر السابق، ج٢ ص٣٠٠-٣٠١، ٣٠٥.
[١٣] المصدر السابق، ج٢ ص٢٨٤-٢٨٥.

الحضور، وربما ندّ بهم البحث إلى مشاحنات وخلافات[1]؛ وإذا خُلِع على أحدهم بولاية من السلطان كالقضاء فقد جرت العادة أن يركب معه الأمراء إلى أن يصل إلى سكنه في المدرسة الصالحية[2].

كان على العلماء الحضور في احتفالات السلطان العامة، وفي الجلسة الأسبوعية للنظر في المظالم صباح كل اثنين يحضر فيها السلطان إلى دار العدل في مجلس يضم القضاة الأربعة ومفتيي دار العدل من المذاهب الأربعة ووكيل بيت المال ومحتسب القاهرة، ولكلٍّ منهم مكان معين للجلوس[3]، ورُزِقَ بعض القضاة نفوذًا جيدا على بعض بعض السلاطين فكان إذا تكلم في دار العدل لم يكن بعده لأحد كلام[4]. وإذا عاد السلطان من أسفاره أو حروبه أو شفي من مرضه أو أراد ختان أولاده؛ فإن ذلك موجب لحضورهم مهنئين ومباركين رغم ما يتخلل ذلك من فساد وقبائح وإسراف بالمال[5]. وإذا دخل أحد من وجهاء أهل الذمة في الإسلام فكان يقيم احتفالا ووليمة عظيمة يدعو إليه كبار القضاة والعلماء، ويفرحون به فرحا عظيما[6].

وفي السنين التي يقع فيها وباء أو غلاء أو نقصان النيل عن المقياس يخرج العلماء والقضاة والشيوخ للدعاء وقراءة القرآن وصلاة الاستسقاء، كما كانوا يكثرون من قراءة البخاري في الأزهر وغيره من جوامع القاهرة في مواجهة تلك الشدائد[7]، ويُسْتَحْضَر الواعظون للعظة في بعض المناسبات الاجتماعية التي كثيرا ما يقع فيها الاختلاط بين النساء والرجال كتمام شهر على وفاة ميت، أو عقد نكاح[8].

رابعا: أخلاقهم واتجاهاتهم

من الملاحظ أن أخلاق الناس ومنهم العلماء تتأثر سلبا وإيجابا بمدى قوة الدولة وضعفها؛ إذ تنعكس قوة الدولة على التزام الفرد بأدبياتها وقيمها بصورة جدية، ويضعف الالتزام بالقيم حين تضعف الدولة، وقد لاحظ ذلك أحد أعيان القرن الثامن الهجري في القاهرة[9]، وما من شك أن أخلاق الفرد هي انعكاس بصورة كبيرة لقيم الدولة التي يعيش في كنفها.

وتحكم منظومةَ الأخلاق المجتمعية عدةُ عواملَ منها كما ذكر أعلى قيم الدولة التي تحكمها، وهي المؤثر الأكبر والفاصل الموضوعي، ومنها العقيدة الأخلاقية والآداب الدينية وتظل على علاقة جدلية انحسارا ومدا مع أدبيات الدولة وقناعات أهل القرار فيها، والتاريخ كفيل بتسجيل نقاط المخالفين للشائع من الأخلاق ولو كان ذلك المخالف مصيبا، فمثلا كانت طاعة السلطان والإغضاء عن سلوك الأمراء المخالف للدين ولقواعد العدالة الإنسانية من قبل العلماء خلقا سائدا، وحين نرى أفرادا معدودين منهم يرفضون هذه الثقافة نجد بعض المؤرخين يصورونهم بأهل نفور وزعارة[10].

اختلف العلماء القاهريون في مدى الاختلاط بحياة الناس العامة، وبحكم طبيعة الأعمال المنوطة بهم بحيث كان حضورهم في الدولة الرسمية وفي مجالات خدمة الناس قويا، وقد انتصر من يدعو إلى هذا بحكم الواقع على

---

[1] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٢٦٧، ج٤ ص٣٢٧-٣٢٨؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٢٤٢-٢٤٣.
[2] ابن حجر، رفع الإصر، ص٢٨.
[3] القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤ ص٤٦.
[4] ابن حجر، رفع الإصر، ص٣٦٧.
[5] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص١٠٣؛ وعاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص٢١٦.
[6] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣٦٦.
[7] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٥٩، والمقريزي، السلوك، ج٤ ص٨٦، ٣٦٣، وعاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص٢١٧.
[8] ابن الأخوة، معالم القربة، ق١١٧/ ب.
[9] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٢١٥.
[10] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص١٦١-١٦٤.

أولئك الذين ظلوا يدعون إلى الانعزال والتبديع والتسفيه لمن يخالط الناس من العلماء ولا ينكر عليهم المنكرات[١]، ومع ذلك فقد وجدت قناعات مختلفة في علماء القاهرة رأت أن الانعزال عن الحياة الدنيا وأهلها خير لهم وأطهر من الانخراط فيها، ومن ألجأته ظروفه إلى العمل في الشأن العام كان لا يمارس ذلك إلا بنحو تقتضيه الضرورة[٢]، الضرورة[٢]، وعانى بعضهم مشقة بالغة في سبيل ما آمن به من التشدد والانقباض[٣]، ومنهم من عزف عن وظائف

وظائف
الدولة فقط ولكنه حضر مجالس العوام وأهل الهزل منهم بما أثار استغراب آخرين[٤].

وفي إطار القناعة الشخصية بالأخلاق من المنظور الإسلامي وفي الدائرة المسموح بها وُجِدت نماذج متميزة في العلماء خاضوا غمار الحياة القاهرية والمصرية، وضربوا مثلا رائعا في الالتزام الديني محاولين الاقتفاء لما آمنوا به من المنهج الإسلامي، ومنهم من ولي كبار الوظائف الإدارية ومع ذلك استمروا على طبيعة أخلاقهم ومثاليتهم التي اقتنعوا بها في مجمل حياتهم، ومن أولئك الإمام ابن دقيق العيد، وعز الدين ابن جماعة (ت٧٦٧هـ/١٣٦٥م)[٥]، (ت٧٦٧هـ/١٣٦٥م)[٥]، وقد كادت أن تعد معايبهم[٦]، ولهذا ورد في أوصاف بعضهم "نزر الكلام عديم الدعوى، وافر العقل، كثير السكينة، تام الورع، سمحا، جوادا، زكي النفس"، و "كان معظما عند الأكابر عظيم السمعة عند العوام، عظيم المروءة، جميل المودة، كثير الاحتمال، مهيبا مع كثرة المباسطة لأصحابه والشفقة عليهم والتنويه بذكرهم"[٧].

وتميز بعضهم عن الآخر ببعض الأوصاف؛ ولهذا خُصِّصوا بالوصف بها، فوُصف كثير منهم بأنه كان حسن الأخلاق دمثها كريم العشرة[٨]، ووصف آخرون بأنهم كانوا ذوي سكون وحياء[٩]، ومنهم من أوتي بسطة من الأخلاق العالية بالإضافة إلى حسن السمت وجمال الشكل والمظهر[١٠]، ومنهم من تميز بالتواضع فكان "لين الكلمة ظاهر البِشْر كثير التواضع"، وبعضهم كان يتواضع للفقراء ويترفع على الأغنياء[١١].

ولعل أغلب من اتصفوا بالتواضع كانوا قريبين للطلبة ومقتدرين على التدريس بصورة أفضل[١٢]، وورد من صفات البعض منهم أنهم كانوا يحسنون إلى الطلبة ويلاطفونهم[١٣]، ومنهم من لم يقصر إحسانه على الطلبة وعم جميعَ الناس إفضالُه، وفي الأغلب كان هؤلاء ممن له علاقة بالدولة[١٤]، وورد الوصف لبعضهم بأنه "من ذوي المروءات" وقُصِد بذلك أنه كان يسدي المعروف إلى الآخرين[١٥].

---

[١] كما هو الحال في كتاب المدخل للعبدري المغربي.
[٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٧٠، ٤١٣، ج٣ ص٣٤١، ٣٩٧-٣٩٨، ٤٩٣.
[٣] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٥٤٣.
[٤] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص١١٦-١١٧.
[٥] عبدالعزيز بن محمد بن إبراهيم بن جماعة الحموي ، ولي قضاء الديار المصرية بعفة ومهابة، وألف في الفقه، والسيرة. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج ص.
[٦] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٩٧؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص٢٤٥-٢٤٧؛ ورفع الإصر، ص٣٤-٣٥، ١٩١، ٢٠٠-٢٠١، ٣٩٤.
[٧] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٩٧؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص٢٤٥-٢٤٦.
[٨] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٢٧٧-٢٧٨، ج٢ ص٣٧٩، ج٣ ص٤، ١٥٥، ج٤ ص٢٦٩-٢٧٠.
[٩] المصدر السابق، ج١ ص٣٠١، ج٢ ص١٧٥.
[١٠] المصدر السابق، ج١ ص٢٨٥، ج٣ ص٤٢، ج٤ ص٢٩٩-٣٠٠.
[١١] المصدر السابق، ج١ ص٢٧٨-٢٧٩، ج٢ ص١٩، ٦٨، ٢٤٨، ج٤ ص٢٥٩.
[١٢] المصدر السابق، ج٢ ص٣٩٩-٤٠٠.
[١٣] المصدر السابق، ج٢ ص٢١٠، ج٣ ص٣١، ج٤ ص٣٨٠؛ ورفع الإصر، ص٣٤-٣٥.
[١٤] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص١٧٤، ج٣ ص٧٩-٨٠، ١١٠، ج٤ ص٢٩٩-٣٠٠؛ ورفع الإصر، ص٣٦٩.
[١٥] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص١٧٥، ج٢ ص٢٠٩-٢١٠.

واتصف بعضهم بصدق اللهجة والعفة وطهارة اللسان[١]، ومع ذلك كانوا من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر مع الصرامة[٢]، ومن أبرز أولئك بعض المؤرخين الذين عفّت مؤلفاتهم عن ثلب الأعراض[٣]، وآخرون ورد ورد عن بعضهم أنه كان "كثير الصمت سليم الصدر"[٤]، غير أن هناك من وُصِف ببذاءة لسانه فكان سببا في كره العامة له[٥]. ووصف بعضهم بكثرة العبادة وقيام الليل[٦]، والمواظبة على الجماعات[٧]، وكان فيهم من ظل متقللا عن عن الدنيا زاهدا فيها[٨]، ممتنعا عن تقلد المناصب رغم عرضها عليه[٩]، ومنهم من كان صادق الورع والنسك[١٠]، ومع ذلك فكان لا يخلو بعض الزاهدين من المآكل الطيبة[١١]، كما عرف بعضهم بكثرة التلاوة[١٢].

وذكر عن بعضهم أنه كان "فصيحا مفوها طلق العبارة فصيح الإشارة"[١٣]، كما تميّز بعضهم بالذكاء الخارق، وأنه من "أذكياء العالم"[١٤]، ومنهم من بلغ الغاية في الحفظ وسرعته[١٥]، ومنهم من كان معروفا بسداد الرأي والعقل والديانة، ولهذا رشح بعضهم للسفارة في الدول الخارجية[١٦]، كما كان لاشتداد المعارك الكلامية والمناظرات ما ميّز بعضهم بالذكاء وقوة المناظرة[١٧].

ومما تميز به بعض كبار علمائهم وقضاتهم هو النزاهة والهيبة والصلابة في الحكم، وهي من الصفات الحسنة التي يجب توفرها في القضاة[١٨]، وكثيرا ما أدّى التزام القاضي لعدم مراعاة أصحاب الجاه إلى عزله[١٩]، وتوفر لدى قلة منهم الإنصاف من نفسه في ما حازه من الأموال العامة بغير حق[٢٠]، وكان لبعضهم إنصاف أيضا في النقاش والبحث ويميل مع الحق أينما كان[٢١]، ولم يبعد أن كان بعض رؤساء العلماء محبا للفقراء (وهم الصوفية) واعتُبرت واعتُبرت من حسناتهم[٢٢]؛ الأمر الذي يشير إلى ثقافة القوم الذين شجّعوا هذه الحالة التي قد تكون لها آثار مهمة في حياة العلم.

وكان السماع للأناشيد الصوفية معروفا لا سيما في المدارس والخوانق الصوفية، وتحصُل لبعضهم حالات مختلفة حين يسمع السماع، وكان يصاحبه الضرب بقضيب أو الرقص، وكان بعض ذلك يمارس في المساجد

[١] المصدر السابق، ج٣ ص٢٧،٥٨، ١٠١، ٢٣٨، ٢٩٨.
[٢] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص١٠٨-١٠٩.
[٣] المصدر السابق، ج٢ ص٣٦٠.
[٤] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٢٨٥، ٤٠٤.
[٥] المصدر السابق، ج٢ ص٤١-٤٢.
[٦] المصدر السابق، ج١ ص٥١٠، ج٢ ص٢٩٥، ٣٧٨، ج٣ ص١٢٢.
[٧] المصدر السابق، ج١ ص٢٩٨-٢٩٩، ٥٠٩-٥١٠.
[٨] المصدر السابق، ج٢ ص٤٣٤، ٤٥٠، ج٣ ص٤٢،
[٩] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٤٢٤.
[١٠] المصدر السابق، ج٢ ص٥٢٣.
[١١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٥٣٦.
[١٢] المصدر السابق، ج١ ص٥٠٩، ج٣ ص٢٢١.
[١٣] المصدر السابق، ج١ ص٢٧٨، ٢٨٥، ج٣ ص٤٢.
[١٤] المصدر السابق، ج١ ص٢٨٤، ٢٨٥، ج٣ ص٤٢.
[١٥] المصدر السابق، ج٤ ص٥٧، ٥٨، ٨٣.
[١٦] المصدر السابق، ج٢ ص٤٠٣، ج٣ ص٥٣، ٦٢، ٦٣.
[١٧] المصدر السابق، ج٣ ص٢٨٢، ٣٣٤.
[١٨] المصدر السابق، ج٢ ص٤١٣، ٤٢٨، ج٣ ص١٧٣، ٢٨٥.
[١٩] ابن حجر، رفع الإصر، ص٤١-٤٢.
[٢٠] المصدر السابق، ص٣٦٦-٣٦٩.
[٢١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٢٥، ٣٠٧.
[٢٢] المصدر السابق، ج٢ ص١٩٩-٢٠٠، ج٣ ص١٥٨-١٥٩.

والربط والمدارس[١]، ولعل مما له علاقة بعقيدة الحلول[٢] لدى بعض الصوفية وصلت عدوى محبة الغلمان أهل الصور الحسان والعشق لهم إلى بعض العلماء[٣].

وتميز علماء المذاهب الأربعة وداخل المذاهب السنية بالتسامح فيما بينهم[٤]، وندر أن وقعت حوادث تحمل طابعا طابعا مذهبيا متعصبا، وكانت تحمل بعدا شخصيا[٥]، أو ذات طابع تنافسي أكثر منه مذهبيا[٦]، على أنهم لم يسلموا منه في التعامل مع الحالات خارج مذهب أهل السنة كمذهب الاعتزال والشيعة فقد كانوا جميعا هم والدولة شديدي العداوة لهذه المذاهب، ويكفي أن يكون اعتقاد ما في كتاب الكشاف للزمخشري المعتزلي مسقطا لحرمة صاحبه[٧]، كما كان لهم موقف متشدد في بعض الأحيان من أتباع ابن تيمية والظاهرية[٨].

كما أنهم كانوا عرضة لبعض المعارك الشخصية التي تنشأ بسبب بحْثٍ جدلي بينهم، ولهذا كان يُمْتَشَقُ سلاح التكفير بسرعة في تلك المعارك التافهة[٩]، وعيب على بعضهم محاولته إغراء قلب السلطان ضد زميل له حسدا وإبعادا له عن مجالسه[١٠]. وهو يشير إلى صحة بعض ما ردده العبدري المغربي منتقدا على بعض العلماء أنهم كانوا يبحثون عن الدنيا وحظوظ أنفسهم، ولم يخلصوا النية لله تعالى، وكانت نية البعض من طلب العلم هي الترفع والمباهاة[١١].

وقد وجدت سلبيات علِقت ببعضهم؛ فمنهم من تغير مزاجه فمرض ثم مات إثر حرمانه ولاية كان يؤملها[١٢]، وامتعض بعضهم حين تقدّم عليه من هو أصغر منه سنا[١٣]، أو جلس مجلسا أعلى منه لدى أحد الولاة[١٤]، وسبب ذلك كله هو حب الرياسة والحفاظ على المكانة الاجتماعية[١٥]، وهي حالات لا يخلو منها مجتمع. وكان فيهم من وُصِف بعزة النفس والترفع عن مجالس الأمراء[١٦]، لكن ظاهرة انتشرت في بعض كبار العلماء وهي ظاهرة المداخلة والمخالطة للأمراء والمنحرفين ومجالستهم حتى في حال التلبس بالمخالفات[١٧]، وهو أمر كان يبعث على الغرابة حتى في أوساط كبار أهل الدولة[١٨].

وأحب بعضهم حياة البذخ والرفاهية في حياتهم وبيوتهم وملابسهم وأوانيهم والتمتع بالجواري الحسان والخيول الفارهة والأواني المذهبة[١٩]، كما اتصف بعضهم بالظرافة[١]، وبعضهم بالجدية وانعدام الهزل[٢]، ووُجد من كان

---

[١] المصدر السابق، ج٣ ص٣٠٦- ٣٠٧؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص٣٦١؛ والعبدري، المدخل، ج٣ ص٩٨-٩٩، ١١٩، ١٢٢؛ وابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر، بكر، (ت٧٥١هـ)، الكلام على مسألة السماع، ت. راشد الحمد، ط١، الرياض، دار العاصمة، ١٤٠٩هـ، ص١٦١.

[٢] سيأتي التعريف بها في النتاج العلمي في التصوف.

[٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٢١١، ٣١١.

[٤] ابن حجر، رفع الإصر، ص١٩١.

[٥] مثل قضية ابن تيمية وحبسه، وقضية إعدام كتاب الإمام لابن دقيق العيد من قبل شيخ الحنابلة العراقي مسعود الحارثي (الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٤٧-٣٤٨)، ومثل غضب المالكية من القاضي المناوي لما تجرأ وقال في مسألة خلافية: البحث فيها بيننا وبين مالك (رفع الإصر، ص٣٦٢-٣٦٣)، وكتعصب السراج الهندي لابن الفارض وقمعه للأديب ابن أبي حجلة (رفع الإصر، ص٢٨٨-٢٨٩).

[٦] ابن حجر، رفع الإصر، ص٣٨٠-٣٨١.

[٧] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٤٦، ١٥٤- ١٥٧؛ ورفع الإصر، ص٣٦٢.

[٨] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص١٦٦- ١٦٧؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٢٥٨- ٢٦٠.

[٩] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٢٤٢-٢٤٣، ٢٦٢، ٤٩٢-٤٩٣.

[١٠] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٢٥٣-٢٥٤.

[١١] العبدري، المدخل، ج١ ص١٤-١٥، ١٩.

[١٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣٧٥-٣٧٦.

[١٣] المصدر السابق، ج٣ ص٧٠-٧١.

[١٤] المصدر السابق، ج٣ ص٣٤٦.

[١٥] العبدري، المدخل، ج١ ص١٥٧.

[١٦] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص١١٣، ج٤ ص١٢٨.

[١٧] المصدر السابق، ج٤ ص١١٥-١٢٣، ٢٠٩، ٢١١- ٢١٢، ٢١٢، ٢١٣.

[١٨] المصدر السابق، ج٤ ص١١٨.

[١٩] المصدر السابق، ج٢ ص٢٩٣-٢٩٤؛ ورفع الإصر، ص٣٦٤-٣٦٥، ٣٦٦-٣٦٩.

مخالفا للقيم والأخلاق الدينية، فذُكر عن أحدهم بأنه كان على مذهب أهل الأدب في الشباب والشراب[٣]، وسُجِّل على بعضهم أخذُه المال رشوة ممن كان يسعى في وظيفة لدى أبيه قاضي القضاة[٤]، ونقل عن أحدهم سوء سيرة، أو أن له هنات (مواقف سيئة)[٥].

وقليل منهم وصف بالشجاعة والجرأة في الكلام[٦]، وهو أمر يبين حالة أغلبهم المنكفئين على حدود معينة لا يتعدونها في المواجهة للظلم[٧]، ما عدا حالات معينة منها تلك الأمور التي تمس الوضع العام للعلماء[٨]. وورد في وصف بعضهم الإسراف في النفقات وتصريف المال[٩]، في حين اشتهر بعض أئمة العلم بالبخل العام أو البخل في وجه مخصوص والكرم المفرط في ما سواه[١٠]. ولم يكونوا بمعزل عن عصرهم المليء بالخرافات وكانوا يصدقون كثيرا منها[١١]، ووقع بعضهم تحت تأثير المجاذيب ممن يتظاهر بترك بعض أركان الإسلام[١٢]، مع أنه وُجِد من بعضٍ منهم من ذوي الأصل الأندلسي مَنْ تخفَّف من أعباء الخرافة المرهقة[١٣].

وعلى الرغم من اتصاف جمهرتهم بحسن الأخلاق، إلا أنه كان منهم من ضاقت أخلاقه أو تنكرت في آخر أمره[١٤]، ويصف ابن حجر المغاربة بالزعارة والجفاء[١٥] والاستهتار بالكبار واحتقار الناس، ولهذا فقد تم طرد بعضهم من القاهرة[١٦]، ولا يجب أن يؤخذ الأمر على ظاهره فربما كانوا ينتقدون ما رأوه خطأ بحكم بيئتهم المغربية التي عاشوا فيها وكانت كما يبدو بسيطة وبعيدة عن الروتين القاهري[١٧].

وتنكَّب كثير منهم معاشرة الأقباط؛ ولهذا عابوا من عاشرهم وخصّوه بالذكر[١٨]، وكان بعضهم لا يثق في أطباء اليهود والنصارى وفي إخلاصهم لمهنتهم[١٩]، وشن العبدري[٢٠] هجوما لاذعا على العلماء؛ لأنهم سكتوا وتسامحوا على قيام موظفين من المسلمين لليهود والنصارى والمنافقين عند دخولهم. واتصف بعضهم سلبا بقلة البضاعة في العلم رغم أنه كان محمودا في تصرفاته القضائية[٢١]، وكان بعضهم كثير الشطح[٢٢]، وهو أمر غير مستغرب في بيئة انتشرت فيها ثقافة الشطح والفلسفات الصوفية الغريبة؛ وكذلك لم يكن غريبا على بعض أفاضلهم أنه كان يخشع ويطيب عند سماع الأغاني[٢٣].

---

[١] المصدر السابق، ج٢ ص٣٨٣، ٣٩٩-٤٠٠.
[٢] المصدر السابق، ج٣ ص٤٩٧.
[٣] المصدر السابق، ج٢ ص٣٦٢-٣٦٣.
[٤] المصدر السابق، ج٣ ص١١٣.
[٥] المصدر السابق، ج٣ ص٣٤٣؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص٣٦٣.
[٦] المصدر السابق، ج٢ ص٤٢٨.
[٧] العبدري، المدخل، ج١ ص٨٢، ٨٣-٨٤.
[٨] ابن حجر، رفع الإصر، ص٢٨٨-٢٨٩.
[٩] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٢٧٨، ج٤ ص١٧.
[١٠] المصدر السابق، ج٤ ص٢٩٠-٢٩١، ٣٠٩.
[١١] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٢١٤.
[١٢] المصدر السابق، ج١ ص١٢٥.
[١٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٠٩.
[١٤] المصدر السابق، ج٢ ص٣٦٢، ج٣ ص١٥٠.
[١٥] المصدر السابق، ج٢ ص٣١٢-٣١٣.
[١٦] المصدر السابق، ج٣ ص٣٠٠؛ ورفع الإصر، ص٤٣١.
[١٧] كما يبدو من خلال كتابات العبدري وانتقاداته ومقارناته ما يجري في مصر بالمغرب من مظاهر وعلاقات اجتماعية مختلفة.
[١٨] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٥؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص٣٦٦-٣٦٧.
[١٩] العبدري، المدخل، ج٤ ص١٠٩-١١٠.
[٢٠] المصدر السابق، ج١ ص١٩٥-١٩٦.
[٢١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٣٨١، ج٤ ص٣٠.
[٢٢] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٣٢١.
[٢٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص١٤٩.

ومن الاتجاهات السائدة أنه كان لا بد لمن أراد الحصول على وظيفة عامة أن يجيد مهارات الاتصال بكبار رجال الدولة ليظفر بها، ومن هنا جاء وصف بعضهم "لا يحاول أمرا إلا ويصل إليه خبيرا بأمر دنياه ودينه"، ومع ذلك كان "أديبا فاضلا متعبدا كثير الصدقة والحج والمجاورة سريع الدمعة"[١]، وبهذا يتبين أن هذه الفئة من العلماء كانت هي أيضا تسعى في الوظائف ولا تتأفف من ذلك باعتباره حقا من حقوقها.

ويبدو أن برما وضيقا ساد في الجنس العربي من العلماء حين أدركوا أن السعادة لا تحصل إلا لأولئك الذين تثقفوا بثقافة المماليك[٢]، وهو أمر يوحي بتثُّقف كثير منهم بثقافة الأتراك حتى يضمنوا الحصول على مصالحهم، كما أن بعض العلماء الذين اشتغلوا بالعلوم العقلية تزيوا بزي العجم الذين كانوا أهم روادها في ذلك العصر في القاهرة[٣]، وتغافلوا عما كان يقوم به المماليك من مهاجمة المنتزهات العامة حيث يعبثون بالنساء والرجال وينهبون أموالهم[٤] ربما بحجة تأديبهم.

وتصوّن العلماء عن مواضع النزه التي كان يكثر فيها اختلاط الرجال بالنساء ويحضر فيها الأوباش والعامة حفاظا على هيبتهم التي طالما راعوها في تقاليدهم اليومية؛ ولهذا خُصِّص بالذكر من كسر هذا الناموس ورفض هذه الثقافة المحافظة[٥]. ويلاحظ من اتجاهاتهم أنه كان لديهم سعي في توريث أبنائهم في الوظيفة العامة، ومحاولة الأبناء وراثة ذويهم فيها أيضا[٦]، كما يلاحظ تنافسهم الحاد على الحصول على الوظيفة العامة[٧].

هذه إذا بعضُ أخلاقهم واتجاهاتهم التي كانوا عليها، وكانت أسباب وعوامل مهمة في حياتهم المختلفة التي كانت تتفاعل مع بعضها داخل منظومة واحدة وتعكس حالتهم التي كانوا عليها حين كتبوا ذلك النتاج العلمي، ومنها ما كان إيجابيا ومنها ما كان سلبيا فجاءت النتائج منسجمة مع هذه المقدمات.

خامسا: علاقاتهم

تفيد معرفة علاقاتهم المختلفة مع العناصر المؤثرة مجتمعيا في فهم الظروف التي أنتج فيها هؤلاء العلماء ذلك النتاج العلمي، وأهم أولئك هم العلماء أنفسهم، والسلطان، وأمراء الدولة.

-علاقاتهم ببعضهم

تتسم علاقاتهم مع بعضهم في مجملها بالتنافس؛ حيث كانت طبيعة أعمالهم وأدوارهم ورؤاهم الدينية والاجتماعية تشكِّل منظومة واحدة تتفاعل داخلها تناقضاتُهم التي هي في الأساس محكومة بمجموعة من المبادئ والقيم التي اقتنعوا بها، وبملامح وقرارات الدولة التي كانت تحكمهم، واتسمت عادة بالتفاعل والاحترام. ويبدو أن كلا منهم كان يتحرك في فلكه المرسوم له من غير تناقض تام مع الآخرين؛ إذ أنهم حتى في حالات التناقض الجزئي كانوا محكومين بالمبادئ التي يعتنقها جميعهم، وبإشراف الدولة التي كانت الفيصل في حالات انسداد الخلاف بينهم.

لقد كانت تفاصيل الحالة السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية في القاهرة قابلة للتحرك داخل المتعارف عليه، ومما تعورف عليه الترحيب بالعلماء الأجانب فكان العالم الأجنبي يجد مجالا لممارسة دوره مثل العلماء

[١] المصدر السابق، ج١ ص٢١١-٢١٢.
[٢] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٢١٠.
[٣] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص١١٦-١١٧.
[٤] المقريزي، السلوك، ج٧ ص٣٤٧.
[٥] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص١١٦-١١٧.
[٦] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٢١٠-٢١١؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٢١-٢٣، ١٢٣؛ ورفع الإصر، ص٢٢٤-٢٢٥.
[٧] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص٣٨٠.

القاهريين بحسب قدرته ومهارته الشخصية، وإن كانت هناك حسنة للدولة المملوكية فهو أنها لم تجعل الخلفية الجغرافية والاجتماعية مانعا أو عائقا للعالم أن يؤدي دوره العلمي؛ ولهذا كانت القاهرة تعج بمختلف العلماء من مختلف الأجناس والبلدان.

تعاون علماء القاهرة في بعض القضايا السياسية لصالح طرف متغلب ضد آخر حين أدركوا أنه لا بد أن يكون كذلك، وهو أمر يعود بالأساس إلى الفكر العقائدي الذي حملوه، وهو إضفاء الشرعية الدينية للمتغلبين الأقوياء طمعا في تثبيت حالة الاستقرار، وحيثما كانوا ينقسمون عموديا في بعض القضايا كان الطرف الخاسر يخسر عادة وظائفه وامتيازاته لصالح المنتصر، لكنهم في المحصلة لم يخسروا الحياة العلمية التي ظل دعمها والحفاظ عليها مسؤولية كل الأطراف المتنازعة. لقد اتحدوا ضد بعض الأخطار التي استهدفت حياتهم الاقتصادية وقوة نفوذهم، فحين أراد بعض السلاطين انتزاع أراضي الأوقاف التي يعتمدون عليها بشكل كبير في حياتهم كان لهم موقف قوي تجاهه.

عطف أغنياؤهم على فقرائهم ولاطفوا الطلبة وأمدوهم ببعض الإفضالات التي أعانتهم على طلب العلم[١]، كما وجدت حالات من التصافي والتآخي حتى بين أولئك المختلفين مذهبيا كما كان حال القضاة الثلاثة الشافعي والحنفي والحنبلي في حين من الأحيان[٢]، كما أن بعضا منهم ظلوا على احترامهم للآخرين حتى في حالات الاختلاف الفكري، ومن ذلك ما ظل يكنه علاء الدين القونوني الصوفي من احترام وتعظيم للشيخ ابن تيمية الحنبلي والذي كان له موقف متشدد ضد الصوفية والأشاعرة[٣]، وحين تصدّى أحد العلماء للرد عليه كان معه منصفا متأدبا[٤]، ولما سمع ابن تيمية بموت خصمه ومناظره المفوَّه ابن الوكيل[٥] لم يملك إلا أن ترحم عليه واعتبره واعتبره فقيدا للأمة[٦].

وضرب بعضهم مثلا رائعا في التسامي على الأغراض الشخصية؛ فحين عُزِل قاضٍ بآخر ذهب المعزول لتهنئة الجديد إلى بيته[٧]، وأراد السلطان معاقبة أحدهم فذهب منافسه وخصمه ليتشفّع له[٨]، ولما ألقي الشيخ سراج الدين ابن ابن الملقن في السجن من قبل الأمير بركة ذهب جمع من العلماء ومنهم الشيخ سراج الدين البلقيني وصمموا على أن لا يعودوا إلا بالشيخ سراج الدين ابن الملقن معهم، وكان لهم ما أرادوا[٩].

ويلاحظ أن مجتمع العلماء كان عبارة عن دوائر صغيرة تتصل بأحد كبار العلماء ويتحلق حوله محبوه وطلبته وأنصاره، وكان يحصل بينهم من التعاون والتواد ما يشبه رابطة القبيلة وتقاليدها، كما حصل التعاون بين الشيخ وتلامذته العلماء في إنجاز بعض الأعمال التأليفية[١٠].

صوّر العبدري[١١] حالة اللقاء اليومي للعلماء على بعضهم بأنه كان نوعا من التملق والتزكية لبعضهم، وأن البعض كان يحني رأسه ويركع للكبراء من العلماء. وهي حالة تبين بعض المجاملات السائدة للقاءات العلماء فيما

---

[١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٨٠؛ ورفع الإصر، ص١٩١.
[٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٢٦٧؛ ورفع الإصر، ص١٩١.
[٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٢٤-٢٧.
[٤] ابن حجر، رفع الإصر، ص٤١-٤٢.
[٥] صدر الدين محمد بن عمر بن مكي العثماني الدمشقي، كان أعجوبة في الذكاء وسرعة الحفظ، وكان لا يقوم أحد بمناظرة الشيخ ابن تيمية سواه، ودرّس بمدارس دمشق والقاهرة، وله مؤلفات، ويعتبر من أكابر شعراء عصره، توفي سنة٧١٦هـ. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص١١٥، ١١٦، ١١٨، ١٢٠، ١٢١.
[٦] المصدر السابق، ج٤ ص١١٦، ١٢٣.
[٧] المصدر السابق، ج٢ ص٢٦٨.
[٨] السخاوي، الجواهر والدرر، ص١٠١٤- ١٠١٥.
[٩] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص١٧٢-١٧٣.
[١٠] مثل البيهقي والعراقي – صاحب نصب الراية – كما تقدم.
[١١] المدخل، ج١ ص١٥٩.

بينهم، وتوقير كبارهم بذلك النوع الذي يستخدم في مجالس الأمراء، ويجب أن لا يؤخذ الأمر على علاته كما صوّره العبدري؛ إذ كان ينظر إليه من خلال خلفيته المغربية البسيطة.

غير أنه من الواضح جدا أن علاقاتهم أيضا اتصف بعضها بالغيرة والحسد، وكان للأمر علاقة بقوة السلاطين وضعفهم؛ فكثيرا ما اشتعلت المعارك بينهم في أيام السلطان الضعيف.

أثار الاختلاف الفكري والعقائدي بينهم حالة من التناقض السلبي؛ فقد كان العلامة ابن دقيق العيد الأشعري الفقيه ينفر من العلامة الحنبلي المحدّث سعد الدين الحارثي العراقي لاعتقاد الأخير الجهة في حق الله، واتُّهامه برمي كتاب (الإمام) الفقهي لابن دقيق العيد في فسقية الصالحية[١]، كما تألّب كثير من علماء القاهرة – وكان غالبيتهم من الأشاعرة والصوفية – ضد ابن تيمية الذي أتى بأقوال تخالفهم والذي شن هجوما واسعا ضد الصوفيين[٢]، وبعد أن عظّمه أبو حيان زمانا انحرف عنه وذكره في تفسيره الصغير بكل سوء ونسبه إلى التجسيم[٣]، كما كان أبو حيان يرفض بعض خرافات الصوفية؛ لهذا كان هدفا سهلا لسهام اتهامهم[٤]، وأما إذا اتُّهم أحد الفقهاء السنة بالميل إلى التشيع أو الاعتزال فإنه سيبقى محل انتقاصهم وشكهم في دينه[٥].

كما كان الاختلاف قائما بين الفقهاء والصوفية؛ فأدى إلى وقوع بعض الأحكام ضد بعضهم، ومنها الحكم بتعزير أحدهم لتفسيره بعض النصوص الشرعية حسب فهمه الصوفي[٦]، ومن ذلك محاربة الفقهاء لأتباع نظرية ابن عربي الصوفية وكتابة محاضر تتضمن تكفيرهم والتصريح ببغضهم تدينا[٧]، وأطلق بعض غلاة الصوفية عبارات مستنكرة لدى الفقهاء جعلتهم يرمونهم بالكفر[٨]، كما ضُبِطت على بعضهم كلمات وإشارات على طريقة الاتحادية كانت كافية لتكفيرهم والتحذير منهم والحكم بقتلهم[٩].

وتبدو مناظرة سراج الدين البلقيني لبدر الدين ابن الصاحب المصري هل جثة النبي صلى الله وعليه وآله وسلم في المدينة أم لا غير ذات جدوى، وتثير الغرابة والاستهجان مسارعةُ شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني إلى تكفير ابن الصاحب[١٠] إذا لم يُسْتَحْضَر البعد العقائدي هنا باعتبار السراج ممثلا للفقهاء وكبيرهم، بينما كان ابن الصاحب صوفيا كثير الشطح متظاهرا بعقيدة الاتحاد ولا يستحي أن يتكلم بالأقوال الغريبة[١١].

ورغم استيعاب الدولة المملوكية لجميع فئات وعناصر الشعوب الإسلامية شرقا ومغربا لكن بعض النعرات المناطقية والعرقية كانت تسْخُن من وقتٍ لآخر؛ ومن ذلك سعي القضاة الأحناف ذوي الأصول الشرقية - وهم سراج الدين الهندي وجار الله الحنفي - للحصول على بعض امتيازات القضاة الشافعية، لكنهم لقوا مواجهة شديدة ليس من القضاة الشافعية ذوي الأصول العربية فقط بل وحتى من كبير علماء الأحناف أكمل الدين البابرتي الرومي[١٢]؛ الأمر الذي يعطي مظهرا عرقيا لهذا الجدل والخلاف. ولا يبعد عن ذلك اتهام المصريين للمغاربة

[١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٤٣٧-٤٣٨؛ ورفع الإصر، ص٣٩٤-٣٩٦.
[٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص١٥٤، ٢٧٣- ٢٧٤، وسيأتي شيء من ذلك عند الحديث عن نتاج الصوفية العلمي.
[٣] المصدر السابق، ج٤ ص٣٠٨.
[٤] المصدر السابق، ج٤ ص٣٠٩.
[٥] المصدر السابق، ج٣ ص٣٨٣-٣٨٤؛ ورفع الإصر، ص٣٦٢. واعتبر ابن حجر نفسه أن الاعتزال بدعة يمدح المرء على اجتنابها. (الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٠٥).
[٦] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٨٧-٨٨.
[٧] المصدر السابق، ج٢ ص٢٩-٣٠.
[٨] المصدر السابق، ج٢ ص٣٠٨-٣٠٩.
[٩] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٣٣٠-٣٣١.
[١٠] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٢٦٢.
[١١] المصدر السابق، ج١ ص٣٢١.
[١٢] المصدر السابق، ج١ ص١٩٣-١٩٤؛ ورفع الإصر، ص٣٨٠-٣٨١؛ والمقريزي، المواعظ والآثار، ج٣ ص٤٥٣- ٤٥٤.

بالجفاء وشكاسة الأخلاق بالإضافة إلى اختراعهم عليهم بعض القضايا نكاية وانتقاما[١]، ولم يبعد عن هذا حتى بين المصريين أنفسهم فقد نصر شاعرٌ قاهريٌّ مصري بَلَدِيَّه بدْرَ الدين ابن الصاحب حينما وقعت له محنة على يد سراج الدين البلقيني الذي لم يكن قاهري الأصل[٢].

ومن الأمور التي وقع فيها الخلاف بين علماء القاهرة تنافسهم على الوظائف العامة وانتزاع بعضهم وظيفة بعض[٣]، وبلغ بهم الأمر لا سيما في آخر النصف الثاني من القرن الثامن بعد ضعف الدولة أن دفعوا الأموال الطائلة للحصول على وظيفة كبرى كقضاة القضاء، أو نزلوا عند هوى السلطان في أخذ المال بغير حق، أو خضعت القضية لتأثير الحاشية على صانع القرار، وهذا أدى إلى وصول المناصب الهامة إلى من يدفع المال لا إلى من يستحقها[٤]، وربما وقع أخيرا اصطلاحٌ بين المتنافسين على اقتسامها بينهم[٥]. وبحثا عن الوجاهة فقد سعى بعضهم ضد بعض عند السلطان، وأدّى ذلك إلى نكبة المنهزم بالطرد من الوظيفة أو من القاهرة نفسها أو تخريب داره[٦]، وكان تقدُّم اللاحق أو الأصغر سنا منهم كافيا على الأقل في امتعاض السابقين[٧]، هذا إذا لم تؤخره مواقفه السياسية الداعمة لسلطانٍ أفل نجمه[٨].

كان التنافس على الوظائف والمصالح الشخصية سببا أيضا في بعض المشكلات التي لبست مسوح العلم والدين؛ فادعى بعضهم على بعض المخالفة في الدين وسارع بعضهم إلى تكفير البعض الآخر بصورة ملفتة[٩]، ويترجح أن التكفير سلاح طالما أشهره الفقهاء ضد بعضهم عند الاشتباه بأي لفظة مستنكرة[١٠]. وقد اشتهر القضاة المالكية بالإسراف في أحكامهم من خلال إسراعهم إلى توقيع أحكام الإعدام بحق المخالفين، بحيث ظهر الأمراء المماليك - وهم أشد الناس ضراوة وقساوة - أرحم منهم في بعض المواقف[١١]، وهناك من لم تُتَحْ له فرصة الدفاع ضد هذه الأحكام فقضى إعداما بتهمة الردة أو الزندقة[١٢].

وربما ثارت ثائرة أحدهم من خلال نقاش عرضي بين اثنين في مسألة من المسائل وأدّت إلى إساءة أحدهما للآخر[١٣]، ولا يبعد أن يكون حب الانتصار في الحوار سبب هذه النتيجة، كما لا يبعد أن تقف حظوظ النفس خلف عزل أحد الخطباء بسعي أحد كبار العلماء[١٤]، كما كان مكان الجلوس لأي الرجلين عند السلطان سببا كافيا لإثارة البغضاء بينهما[١٥]. ويبدو أن حسد الأقران هو ما جعل القاضي الحريري الحنفي يلْؤُمُ مع سلفه القاضي السروجي

---

[١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٣٠٠؛ ورفع الإصر، ص٣٣٤-٣٣٦، ٤٣١.
[٢] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٢٦٢.
[٣] المصدر السابق، ج١ ص١٩٠-١٩١؛ ورفع الإصر، ص٨١-٨٣.
[٤] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص١٧٢-١٧٣؛ ورفع الإصر، ص٨١-٨٣، ٦٦-٦٨.
[٥] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص١٩١.
[٦] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٢٥٣-٢٥٤، ج٣ ص٢٨٨، ٤١٢-٤١٣.
[٧] المصدر السابق، ج٣ ص٧٠-٧١.
[٨] المصدر السابق، ج٣ ص٣٣٣-٣٣٤.
[٩] المصدر السابق، ج١ ص١٨٥، ج٤ ص٢٥٤؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٤٨٨.
[١٠] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٢٤٢-٢٤٣.
[١١] المصدر السابق، ج١ ص٤٨٨؛ ورفع الإصر، ص٣٦٢.
[١٢] من الذين قتلوا بتلك التهمة المقرئ الفقيه إسماعيل بن سعيد الكردي سنة ٧٢٠هـ، والموسوعي أحمد بن محمد البقي سنة٧٠١هـ. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٣٠٨- ٣١٢، ٣٦٧.
[١٣] المصدر السابق، ج٢ ص٢٦٧.
[١٤] المصدر السابق، ج٤ ص٢٩٩-٣٠٠.
[١٥] المصدر السابق، ج٣ ص٣٤٦، ومثل تلميذ ابن حجر برهان الدين البقاعي الذي غضب بشأن تقديم شيخه لأحد زملائه عليه. السخاوي، الضوء اللامع، ج١ ص١٠٥.

حين أخذ منه جميع وظائفه التدريسية، ولما التمس هذا السلف أن يبقى في تدريس الصالحية ليحظى بسكنها أخرجه منها قهرا؛ الأمر الذي آلمه بشدة ومرض بعدها فمات بعد شهر فقط[١].

ووقع للقضاة أن يستعين أحدهم بأحد كبار العلماء الوجهاء لعزل زميله من المذهب الآخر فيُعِيْنُه؛ لأن المعزول لا يلتفت إلى رسائل الوساطة[٢]، كما كانت رغبات الأمراء والسلاطين في الانتقام من خصومهم السياسيين في قضايا الأوقاف عاملا في إثارة خلاف بعض القضاة الأربعة في ما بينهم في اتخاذهم مواقف مختلفة إزاء قضية ما من تلك القضايا[٣]، وربما تأكدت الوحشة بينهم لخلاف شبّ بينهم[٤].

ويترجح أن تنافس الأقران أثّر سلبا على اتخاذ العلامة النحوي ابن هشام المصري موقفا سلبيا إزاء الإمام النحوي أبي حيان الأندلسي مفضّلا عليه شيخه الآخر وهو العلامة ابن ذؤالة الحراني[٥]، وكان ابن هشام شديد الانحراف عن أبي حيان كثير المخالفة له[٦]؛ الأمر الذي جعل قاضي الحنابلة موفق الدين الحنبلي أن يحكم بتعزير ابن هشام لتكذيبه أبا حيان في بعض كتبه[٧]، ويترجح أيضا أن للعامل المذهبي دورا في ذلك؛ إذ عُرِف أبو حيان بمخالفته للحنابلة وبعض قضاياهم العقدية وعلى رأسهم ابن تيمية[٨]، بينما انتقل ابن هشام آخر الأمر إلى المذهب الحنبلي[٩]، ومن كان شانه ذلك سيتحمس للمذهب الجديد بصورة أكثر تشددا.

تعرّض بعض علماء الأمصار المستوطنين للقاهرة لتهم استهدفت سمعتهم، ومنهم على سبيل المثال الإمام أبو حيان الذي اتهم بالتنفير عن الصالحين والحط على الإمام ابن دقيق العيد[١٠]، وكذلك الأمر بالنسبة لابن خلدون فقد تعرض لحملة ظالمة بسبب اعتزازه بمغربيته، حتى أنه وقع تحت تأثيرها مؤرخُنا ابن حجر الذي هوّن من أهمية مقدمته رغم معرفته واعترافه أن خصوم ابن خلدون لفّقوا له تهما كثيرة لا أساس لها، وممن تأثر بها من تيار المحدّثين والعلوم النقلية الشيخ نور الدين الهيثمي؛ لأن ابن خلدون كان من أنصار العلوم العقلية[١١].

ومع كل ذلك فقد ظهر العلماء كمنظومة واحدة تتحرك نحو هدف واحد في مسيرة واحدة وهي نشر العلم والاشتغال به، ومهما كانت تلك الاختلافات شديدة إلا أنها في النهاية كانت تحت سيطرة الحاكم، ومن سوء الحظ فربما كان الحاكم هو من يؤججها لإضعاف سلطة العلماء الروحية ولابتزازهم بما يتناسب مع ميوله واتجاهاته.

-علاقاتهم بالدولة المملوكية

اضطلع العلماء بدور وظيفي في الدولة على نحو واسع، ومن خلال تتبع وظائفهم نجد استئثارهم بمناصب كثيرة وعالية في الوظائف الدينية والإدارية؛ ولهذا أصبح الكثير منهم داخل الدولة ويتحرك لصالحها حتى وإن بدا أنهم متنصلون عنها وينأون بأنفسهم عن مظالم أمرائها. لقد انتشروا فيها أفُقيا بشكل كبير، مع أن بعض تلك الوظائف ليس له تعلق بالعلم والمعرفة وأصبحوا جزءا منها، وكانوا شراح الشريعة الإسلامية، وأئمة المساجد، وأساتذة القانون الإسلامي، والثقافة الإسلامية، ومدرسيها، ووكلاء الشؤون الاجتماعية، والشخصية، وأساتذة التربية،

---

[١] ابن حجر، رفع الإصر، ص٤١-٤٢.
[٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص١٤٨.
[٣] ابن حجر، رفع الإصر، ص٢٠٠-٢٠٢.
[٤] المصدر السابق، ص٣٦٢.
[٥] عبد اللطيف بن عبد العزيز الحراني، المعروف بابن ذؤالة وابن المرحل (ت٧٤٤هـ)، من أبرز نحاة القاهرة. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٤٠٦-٤٠٧، ٣٠٨-٣٠٩.
[٦] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٤٠٦-٤٠٧، ٣٠٨-٣٠٩.
[٧] ابن حجر، رفع الإصر، ص٢٠٠-٢٠١.
[٨] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٠٥، ٣٠٨.
[٩] المصدر السابق، ج٢ ص٣٠٦.
[١٠] المصدر السابق، ج٤ ص٣٠٩.
[١١] ابن حجر، رفع الإصر، ص٢٦٢. والعلوم العقلية هي ما أطلق عليها في هذا البحث بالعلوم العقلية والطبيعية.

والتدريس، والعلماء المجتهدين، والقضاة المعوّل عليهم في الفصل في قضايا الناس، والأمناء، والكتاب العدول، وضم الجهاز الإداري المدني في جنباته كثيرا من المنتسبين إليهم، كما كانت بعض الوظائف الإدارية داخل الجهاز العسكري تضم علماء دين وقضاة وكتابا ومحاسبين.

لقد شكّل العلماء داخل الدولة بكل أصنافهم وعلى رأسهم شيخ الإسلام ورؤساء القضاء مركز قوة باعتبارهم بُعدا مدنيا، إلى جانب المركز الآخر الذين هم أمراء المماليك برئاسة السلطان باعتبارهم بُعْدا عسكريا وأمنيا؛ ولهذا كانت المعادلة التي تقوم عليها السلطة واضحة ومتميزة، فأولئك لأمر الدين والعلم، وهؤلاء لأمر الدولة والحرب، ورغم ما حدث بين مركزي القوة هذين من تجاذبات إلا أنها في مجملها ظلّت بسيطة، وظل كلاهما يستمد قوته من الآخر، وكان لشعور المماليك بأنهم غرباء على هذا البلد وللنزعة الدينية الواضحة في تفكيرهم ومواقفهم أثرٌ كبير في إفساح المجال لتحرك العلماء والاهتمام بالعلم باعتباره فريضة دينية وضرورة شرعية، وفي ذات الوقت وبسبب افتقاد العلماء للمهارة القتالية فقد ظلوا بحاجة إلى الاستقرار ودعم الأمن الآتي من هذا الحكم العسكري؛ ولهذا كانوا أهم داعم رئيسي لحالة الاستقرار والصبر على الواقع.

لقد كانت هذه المعادلة التي شكلت ملمح الدولة العسكري المستند للقاعدة الدينية انعكاسا واضحا لمقتضى العقيدة السائدة في بلاد مصر والشام التي تدعو للصبر على السلطان، والتي ظلّت داعما له حرصا على الأمن والابتعاد عن الفوضى، ودعى العلماء للهدوء والاستكانة والصبر، وغضوا الطرف عن انحرافات السلاطين من أجل ذلك؛ بل وضحّوا من أجل ذلك بولائهم للسلطان أو النظام الذي تراءى لهم أنه أفل نجمه في حالات الصراع على السلطة، وتحولوا بسرعة فائقة لإضفاء الشرعية على المتغلّب الجديد؛ وهو موقف سياسي نابع عن تلك العقيدة التي تقول بشرعية المتغلب جلبا لحالة الهدوء والاستقرار السياسي. وكانت أسوأ أيامهم هي أثناء التناقض والاختلاف في حالات الحرب التي تشبّ بين الأمراء المماليك الطامعين في الحكم فينقسمون إلى قسمين؛ الأمر الذي كان يلقي بظلاله على مواقف المنتصر ضد العلماء الذين وقفوا مع خصمه المهزوم بالإقصاء لهم[١]، ويصل في حالات متطرفة إلى القتل[٢].

لقد كانت العلاقة السائدة بين العلماء والدولة علاقة الجزء من الكل، وأصبح العلماء مثل الأمراء المماليك معنيين إلى حدٍّ بعيد باستقرار الدولة وبالحرص على بقائها؛ فكانوا وجهين لعملة واحدة؛ ولهذا كانت سلطتهم في مجال إدارتهم ووظيفتهم تقوى بقوة الدولة كما حدث في النصف الأول في القرن الثامن الهجري، وتضعف بضعفها كما حدث في النصف الثاني من ذلك القرن.

حظي كبار العلماء بمنزلة جيدة لدى الدولة المملوكية، وقلّ أن تجد سلطانا ليس له علاقة حسنة بهم، وقد حفلت تراجم بعضهم بوصفهم معظّمين من السلطان وأمراء الدولة[٣]، ومن مظاهر ذلك التعظيم والاحترام أن السلاطين تواضعوا للعلماء وأعفوهم عن تقبيل الأرض بين أيديهم حسب العادة المتبعة[٤]، بل وقد قبّل السلطان لاجين يد ابن دقيق العيد[٥]، وكان برقوق رغم انحرافه الأخلاقي يقوم لدخول أحدٍ منهم ولم يُعْهَد ذلك من ملوك مصر قبله؛ وكان

[١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص١٥٩-١٦٠، ج٤ ص١٤٦-١٤٧؛ ورفع الإصر، ص١٦٤-١٦٥؛ والمقريزي، السلوك، ج٢ ص٤٤٤.
[٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٢٩٦- ٢٩٧.
[٣] المصدر السابق، ج٣ ص٢٥، ج٤ ص٣- ٥، ٢٥٠- ٢٥١؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٧٠.
[٤] المقريزي، السلوك، ج٧ ص٥٦.
[٥] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٩٣- ٩٤.

يعود مرضاهم، ويمشي في جنازة أحدهم إذا مات[1]، وقد أضفت عليهم الألقاب في الرسائل السلطانية مسحة جيدة من التعظيم والتقدير[2].

لقد بين اهتمام السلاطين والأمراء المماليك بالعلم وبناء المدارس ودعمها ماليا إلى أي حدٍّ كانوا يعظمون العلم لنزعة دينية بدت عليهم رغم دمويتهم، وكان كثير منهم يخضع روحيا لرجال التصوف واعتقدوا وقوع الكرامات لهم[3]، كما كانت هناك حاجة تدعوهم لاحترام العلم وهي اكتساب رضاء العامة من الناس، وأحس العلماء بمدى قوتهم الروحية؛ لأن المماليك بهم "عرفوا دين الإسلام وفي بركتهم يعيشون" ولولا هم لما عرفوا الإسلام[4].

إن التركيز الجزئي للسلطة في أيدي الموظفين الإداريين المتعلقة بفريق العلماء واتصالهم الوثيق بالشؤون السياسية والإدارية لدولة المماليك أفضى إلى توظيف العلماء في البيروقراطية الحكومية، وأدّى التعاون بين العلماء والأمراء في النهاية إلى شبه دمج للعلماء في جهاز الدولة كما أن الموظفين الكبار من العلماء البارزين مثل رئيس القضاة وقضاة الجيش ورئيس الخزينة العامة والمفتش التجاري (المحتسب) كانوا جميعا معينين من قبل الدولة، أضف إلى أن رئيس مشايخ الصوفية والمقرئين والأساتذة البارزين والواعظين الرسميين ومدراء المستشفيات وأئمة المصلين كانوا جميعا يتلقون تأكيدا رسميا حول تعييناتهم[5].

ولهذا اتسمت علاقتهم بالإيجابية نحو الدولة، ورغم الشعبية الواسعة والسلطة الروحية لهم والتي عزّزت من مراكزهم الاجتماعية وثقلهم في المجتمع، إلا أنه ومن خلال احتفاظ السلطان بحق تعيينهم وعزلهم فقد أوجد لسلطتهم حدودا لا يمكنهم تعديها ولا الانتقاص من رغبات السلاطين وطموحاتهم المخالفة.

لقد كانت علاقة العلماء بالسلاطين حسنة وإيجابية بسبب حسن اعتقاد السلاطين في العلماء ومعرفتهم أنهم جزء فعال من الدولة وعامل مهم في استقرارها وخضوع كثير منهم للسلطة الروحية المتمثلة فيهم[6]، وبسبب عظمة العلماء وسطوتهم ومكانتهم وتوفر صفات قيادية فيهم أيضا[7]، وحرص السلاطين على اجتذاب العلماء وأفاضلهم للتدريس في مدارسهم وخوانقهم التي يبنونها، وطمعهم في الحصول على الأموال من وراء خبرات بعضهم[8]، بالإضافة إلى مواقف العلماء المؤيدة للمنتصرين منهم في حالات الحروب الداخلية، أدّى ذلك إلى قوة شخصيات بعضهم في الوقوف حتى أمام السلاطين؛ الأمر الذي جلب لهم احترام الناس ومهابتهم، وكانت لدى بعضهم قناعة وحرص في تزيين ممالكهم وتحقيق العدل باختيار أفاضل العلماء في مناصب هامة في الدولة[9].

لقد كان للسلطان ونائبه الحق في التعيين والعزل لأي منصب يمكن أن يتولاه عالم من العلماء في القضاء والوزارة والخاص والأوقاف والأحباس[10]؛ ويتضح أنه مهما أوتي العالم من مؤهلات قيادية ومهما وفّرت له الظروف الآنية من إمكانيات في سبيل استقلالية العلماء والنأي بأنفسهم عن مخالفات السلطان للشريعة، ومحاولة تطبيق الشريعة في مجال أعمالهم؛ فإن بقاء حق تعيينهم وعزلهم بيد السلطان كان أكبر معيق ومعرقل لتطبيق طموحاتهم في النزاهة والاستقلال؛ فمهما بدا العالِم مستقلا عن نزوات السلاطين فإنه في النهاية كان رهن هذا

---

[1] المقريزي، السلوك، ج٥ ص٢٣١.
[2] القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥ ص٤٥٩، ج٦ ص١٠٩، ج٧ ص١٨٠، ٢٠٢، ٢٠٣.
[3] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٥٧.
[4] المقريزي، السلوك، ج٥ ص١٢٤.
[5] لابدوس، مدن إسلامية في عهد المماليك، ص٢٢٦، ٢٢٩.
[6] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٢٥٠- ٢٥١؛ ورفع الإصر، ص٦٦- ٦٨؛ وإنباء الغمر، ج١ ص ٤٣٨، ج٢ ص٧٠، ٧١.
[7] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٢٤٦؛ والمقريزي، السلوك، ج٥ ص١٢٤.
[8] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٣٢، ج٢ ص٧٢؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٥٣١.
[9] ابن حجر، رفع الإصر، ص٢٩- ٣٠؛ وإنباء الغمر، ج٤ ص٢٣٤، ٢٣٥.
[10] القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤ ص١٧.

التقليد الذي سيؤدي إلى عزله واستبداله بآخر أكثر انقيادا لما يريده السلطان، وظلّت هذه القضية مكمن ضعفهم رغم أنهم قدّموا نماذج جيدة في استقلال القضاء وانتهاج النزاهة في أدائهم الوظيفي، ومنهم بعض القضاة ممن سيأتي الحديث عنهم، ومنهم شيخ الإسلام البلقيني فقد كان "معظما عند الأكابر عظيم السمعة عند العوام، وإذا ذكر خضعت لذكره الرقاب"[١]، وكان نفوذه يثير عداء بعض الأمراء المماليك فتوعده بالأذى، لكنه لم يصبه شيء[٢].

ومن مظاهر العلاقة الطيبة بينهم أن شفاعاتهم كانت مقبولة لدى السلاطين والأمراء[٣]، وحصل بعضهم على امتيازات ضخمة في الحالة المادية جعلتهم يعيشون كالأمراء في الرفاهية والنعيم[٤]، بل لم يجلّ بعضُهم شأن العلم فذهب ينادم الأمراء ويخالطهم وهم في حالة مكروهة؛ الأمر الذي أثار غرابة السلطان نفسه[٥]، ووصل ببعضهم الحال إلى التنافس على منادمة السلطان والحظوة لديه وتآمرهم ضد بعضهم بشأن ذلك[٦].

وكان أهم مظهر من مظاهر التعاون بين العلماء والسلاطين هو حرص الأمراء على بناء المدارس والمنشآت العلمية والدينية وجلب أفضل العلماء في العالم الإسلامي طمعا في خلود الذكر وجميل الأحدوثة، كما حرص العلماء على الاستجابة لهذا الطلب؛ ومن ذلك أن الأمير صرغتمش استقدم محمود بن قطلوشاه الحنفي السرائي، وكان غاية في العلوم العقلية والعربية والطب وولاه مدرسته[٧]، ولما بنى الأمير شيخو خانقاته قرر القاضي نور الدين علي بن عبد النصير السخاوي فيها[٨]، وفوّض إلى الشيخ أكمل الدين البابرتي إدارتها فعمر أوقافها وأدارها إدارة حسنة رغم رفضه لمنصب القضاء حين عرض عليه[٩]، وعهد الأشرف بمشيخة مدرسته إلى الشيخ ضياء بن بن سعد الله القزويني وسماه شيخ الشيوخ وكان ماهرا في الفقه والأصول والمعاني والبيان[١٠]، وطلب قوصون الشيخ شمس الدين الأصبهاني على البريد من الشام لترتيبه شيخا في خانقاته وكان بارعا في العقليات[١١].

ومن مظاهر التعاون بينهم أن السلطان أو أحد أمرائه كانوا يعقدون المؤتمرات العلمية لسماع آرائهم حول بعض القضايا، وكان كلٌّ يدلي برأيه[١٢]، وقد ينزل السلطان عند اقتراح العلماء ويغير ما رأوه منكرا فيقوم بكسر جرار الخمر مثلا[١٣]، وحرصا على إرضاء العلماء ورجال الدين فلا غرابة أن يولي الناصر فرج بن برقوق مثلا عالما لاحتساب تعليم العامة الصلاة وتعليمهم إياها رغم ما اشتهر به من تهتك وفسوق[١٤].

لقد كان للاعتقاد السائد بوجوب الحرص على الاستقرار مهما كان الثمن أثر في إقامة علاقة هادئة بين فئة العلماء والدولة؛ ولا غرابة أن يسكت كبار العلماء والقضاة عن مخالفات كثيرة ارتكبها السلطان؛ إذ يرون وجوب الصبر عليهم ما لم يظهروا كفرا بواحا، بل وزادوا أن شاركوا السلطان في تكميم أفواه من كانوا ينكرون المنكر منهم، وكثيرا ما سكتوا عن الإنكار على بعض ما يعتقدونه مخالفا لأحكام الشريعة[١٥].

---

[١] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٢٤٦.
[٢] المصدر السابق، ج٢ ص٢٢١-٢٢٢.
[٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٤، ٦.
[٤] المصدر السابق، ج٢ ص٢٩٣- ٢٩٤.
[٥] المصدر السابق، ج٤ ص١١٧، ٢٠٩، ٢١١، ٢١٣.
[٦] المصدر السابق، ج٣ ص٤١٢- ٤١٣.
[٧] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٧٠.
[٨] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٧٩.
[٩] المصدر السابق، ج٤ ص٢٥٠- ٢٥١؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٢٩٨.
[١٠] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٢٠٩- ٢١٠؛ وإنباء الغمر، ج١ ص١٨٣- ١٨٤.
[١١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٢٧.
[١٢] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٣٥، ١٧٨، ١٨٣- ١٨٤.
[١٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٤٣٦؛ وإنباء الغمر، ج١ ص١٠١، ٣٠٧، ج٣ ص٣٩٩.
[١٤] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص١٠٩- ١١٠.
[١٥] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص١٣٩- ١٤١؛ وإنباء الغمر، ج١ ص١٠٣.

وبهذا يظهر في مجمل الوضع أن العلاقة السائدة بين العلماء والدولة المملوكية كانت علاقة متزنة فكلا الطرفين يحفظ للآخر هيبته ويحرص على فعاليته، وتجلّى بشكل واضح في مجمل القرن الثامن الهجري، وسادت علاقات طيبة شكّل العلماء فيها الرديف الأهم للمماليك في استقرار الحكم[١]، وأظهر كما مضى المماليك احتراما للعلماء واعترافا بأهميتهم، ومع ذلك فلم يحظ العلماء بهذه الميزة على طول محطات القرن الثامن الهجري، وأهم ما في الأمر أن العلماء كانوا صادقين في الإخلاص والولاء لهذه الدولة ويتدينون بذلك انطلاقا من عقيدتهم في منع الخروج على الحاكم مهما كانت الظروف.

ومع ذلك فقد ظهرت اختلافات بين المماليك والعلماء، وفيما يبدو أنه تنافس محموم بين قطبي رحى الدولة المملوكية ومحاولة كل قطب التفوق على القطب المنافس، ومما يظهر بوضوح أن منزلة العلماء لدى المماليك والمجتمع المصري ركدت في الربع الأخير من القرن الثامن الهجري، هو ما لاحظه المقريزي من ضعة أقدار العلماء في ذلك الحين، وكيف أصبح "أقل الغلمان وأرذل الباعة" يتكلمون بكل قبيح في العلماء، واتهم السلطة المملوكية بترويج الشائعات المغرضة ضدهم، كل هذا بعد أن كان الأمراء قبل ذلك يبالغون في إجلالهم ويرون أن بهم "عرفوا دين الإسلام، وفي بركتهم يعيشون"، وقد صدق المقريزي[٢] في تعليله لهذه الظاهرة حيث ذكر أن السبب فيها هم العلماء أنفسهم حيث أهانوا العلم، وخضعوا للدنيا، وهناك حوادث تشير إلى انسياق بعضهم نحو شراء المناصب والتهالك عليها[٣].

ومهما كان في ما سبق من احترام وهيبة للعلماء فقد كان لا يرقى أمرهما إلى توظيفهما لصالح الحكم الرشيد والإدارة الحسنة لشؤون الأمة، وإذا كان الإمام ابن دقيق العيد مثلا قد امتنع عن إمضاء فتوى رغب فيها المماليك لجمع الأموال من المواطنين بحجة دفع العدو، فإنهم في الواقع نفّذوا رغبتهم بدون هذه الفتوى[٤]، أي كان جهد أحدهم الامتناع عن فعل ما يريد السلطان أو قوله، وكان السلطان يمضي في نهاية الأمر ما يريده.

ومن الأمور التي وقع الخلاف عليها أحقية العلماء في ركوب الخيل ولبس الثياب الفاخرة، وفي ما يبدو فقد ظل المماليك حريصين على الاحتفاظ بتفوقهم العسكري والحربي ومظاهر القوة، وأرادوا في بعض الظروف معاقبة العلماء المخالفين؛ فقد نودي في شوارع القاهرة عدة مرات (عام٧٨١هـ، و٧٩١هـ، و٧٩٢هـ، و٧٩٣هـ) بمنع المتعممين والعلماء من ركوب الخيل[٥]، ويتضح أن توقيت هذه القرارات جاء في المدة التي ساد فيها التهكم على العلماء، وجاءت عقيب مواقف اعتبرها المنتصر من المماليك تأييدا للمنهزم، كما أن تكرارها كل سنة على ذلك النحو الذي مضى يشير إلى أنه سرعان ما يعاود العلماء ركوبها مخالفين لها.

وفي ما يظهر أنه معركة كسر العظام بين القطبين وإن بطريقة سلمية الخلاف حول إلغاء نظام الأوقاف، فبعد أن رأى المماليك كثرة الأوقاف حتى أنها أثّرت تأثيرا بالغا على الأراضي الزراعية الخراجية، والتي يفترض أنها تصب في مصلحة جيش الدولة، حاول الأميران برقوق وبركة بدءا من عام٧٨٠هـ/١٣٧٨م إلغاء نظام الوقف وإعادة الأراضي الزراعية إلى أصلها الخراجي، وكان ذلك حين وضع الأمير بركة الأوقاف تحت إدارته مباشرة مستغلا ضعف قاضي القضاة الشافعي، وهو ابن أبي البقاء، وقد اطلع عن كثب على حجم عائداتها[٦]؛ لقد دعى برقوق وبركة العلماء والقضاة إلى عقد اجتماع بشأن ذلك، حيث أرجع برقوق سبب ضعف الجيش إلى ضعف

---

[١] المقريزي، السلوك، ج٢ ص٣٤٦.
[٢] السلوك، ج٥ ص١٢٤.
[٣] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص١٧٢- ١٧٣، ٢٣٣، ٤٧٠، ج٣ ص٥٧-٦٤، ١٥٨-١٥٩، ص١٦٤، ٢٧٩-٢٨٠، ٤٥٩، ٤٧٤، ٥٣٦، ج٤ ص٤٧، ٥٠، ١١٩؛ ورفع الإصر، ص١٧٠-١٧١.
[٤] المقريزي، السلوك، ج٢ ص٣٤٧.
[٥] السبكي، معيد النعم، ص٣٢، ٤٩؛ والمقريزي، السلوك، ج٥ ص٢٦٣، ٢٩٨، ٣٠٢؛ وعاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص٣٩.
[٦] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص١٧٥؛ والمقريزي، السلوك، ج٥ ص٥١.

وارداته التي كانت تعتمد في ما سبق على الأراضي الخراجية، ولكن بعد أن تطاول عليها المماليك واشتروها ووقفوها نقصت تلك الموارد، في الوقت الذي بدت فيه الأخطار مهددة للدولة الإسلامية.

لكن العلماء وقفوا موقفا حازما ضد هذا الاقتراح مسنودين بكونها معركة حياة وموت، إذ أن هذا الاقتراح كان يعني إلغاء الحياة العلمية وتسريح العلماء والطلاب من المدارس والمساجد الموقوف عليها؛ لاعتماد حياتهم المعيشية على ذلك، بل وأظهر بعضهم شجاعة برفض مقولة أحد متزلفي القضاة وهي: أن "الأرض كلها للسلطان" يتصرف فيها كيف يشاء[١].

ورغم أن الأميرين نقضا عدة أوقاف من غير أوقاف العلماء والمتعلمين نزولا على ما اقترحه شيخ الإسلام البلقيني ولعلها من الأوقاف الأهلية[٢] فإنهم كما يظهر تهيبوا نقض الأوقاف جميعها، ولهذا يلاحظ عودة السلطان برقوق مرة أخرى للمطالبة بهذا الأمر سنة٧٨٩هـ/١٣٨٧م، وربما كان هدفه ابتزاز العلماء للتنازل عن بعض الغلات؛ ولهذا آل الأمر إلى السماح له بأخذ متحصل سنة منها تجهيزا للعسكر[٣]، ولاستماتة العلماء في هذه القضية أخفق المماليك في مسعاهم، رغم إشاعة متشدديهم أنهم سيلغونها وسيعاقبون العلماء ويحرقون كتبهم[٤].

إن أخطر حركة دينية علمائية قادها قاهري ضد المماليك، وهو العلامة أحمد بن محمد أبو هاشم المشهور بابن البرهان (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م) لما استبد بالسلطنة السلطان برقوق سنة٧٨٥هـ وحبس الخليفة العباسي، وأراد قتله، فغضب ابن البرهان وخرج فطاف بلاد الشام وديار بكر والعراق، ودعا الناس إلى الله والعمل بكتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، ومبايعة رجل من قريش كما هو مقتضى العقيدة السنية، واستجاب له بشر كثير من خراسان إلى الشام، وتابعه من العرب والتركمان وأهل العلم لما يرون من فساد الأحوال وكثرة المعاصي، وفشو الرشوة في الأحكام، لكنه قُبِضَ عليه وعلى مجموعته وأُرْسِلوا إلى القاهرة مصفّدين في الأغلال[٥]، ويبدو أن الخليفة ومعه بعض الأمراء والأعراب طمعوا في إعادة مجد الخلافة المغتصبة من قبل السلاطين، لكن انكشف أمرهم قبل أوانه، فكان مصير قادة هذه الفكرة هو الحبس والقتل[٦].

كان من المقبوض عليهم سليمان الياسوفي (ت٧٨٩هـ/١٣٨٧م) الذي يبدو أنه تأثر بفكر ابن البرهان بعد أن ظلّ يعتقد حرمة الخروج على الدولة، وصنّف في ذلك كتابا، وصفه ابن حجر بأنه "حسن"،[٧]، كما هو رأي أهل السنة جميعا، لقد دار حوار بين قائد هذه الحركة الفاشلة وبين السلطان برقوق، يبين عمق التزام هذه الحركة الدينية الثورية بمبادئ العقيدة السنية التي تقول بقرشية الخليفة[٨]، وفي نهاية الأمر أرسلهم إلى السجن، حتى إذا ثار عليه يلبغا الناصري ومنطاش سنة٧٩١هـ/١٣٨٨م، وتدهور وضعه أطلقهم، وقد أثنى المقريزي وابن حجر على ابن البرهان خيرا، وكانا قد أخذا عليه وتعلما منه[٩].

---

[١] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص١٧٨؛ والمقريزي، السلوك، ج٥ ص٥٧- ٥٨.
[٢] المقريزي، السلوك، ج٥ ص٥٨.
[٣] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٣٣٥.
[٤] المصدر السابق، ج٢ ص٢٢١-٢٢٢.
[٥] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٣١٧، ج٢ ص٣٣٢-٣٣٤؛ والمقريزي، السلوك، ج٥ ص١٥٢؛ ودرر العقود الفريدة ج١ ص٢٩٧.
[٦] المقريزي، السلوك، ج٥ ص١٥١- ١٥٢، ١٥٣، ١٥٦.
[٧] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٣٤٠-٣٤١؛ والمقريزي، السلوك، ج٥ ص٢٠٣؛ ودرر العقود الفريدة ج١ ص٢٩٨- ٢٩٩.
[٨] هذا نص الحوار. لقد سأله السلطان قائلا: ماذا تنكر من أيامنا يا أحمد (أي ابن البرهان)؟ فقال: كل أيامك منكر، فقال: أيش من ذلك؟ فقال: جلوسك في السلطنة، فإنه لا يحل أن تكون إماما للمسلمين فإن الأئمة من قريش بنص رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال السلطان: أنا أعرف هذا ولكن أين من يصلح للخلافة وقد علمت أن الخلفاء لما لعبوا بالحمام وأعرضوا عن تدبير المملكة خرجت الخلافة عنهم، ولو علمت أحدا يصلح للخلافة لسلّمت الأمر إليه، فقال ابن البرهان: كون الواحد أو الجماعة من قريش فرّطوا لا يوجب ذلك خروج الأمر عنهم كلهم، قال السلطان: فأين من يصلح حتى أقوم معه؟ قال: أهل ذلك كثير، قال: فأينهم؟ قال: تخل أنت عن هذا الأمر ويختار المسلمون، فانقطع السلطان، وقال: عرفنا هذا فما تنكر أيضا؟ قال: المكوس، قال لم أفرضها أنا، فقال: ليس في الشر أسوة، وأخذ يعدّد ما عليه الناس من المنكرات. ينظر المقريزي، السلوك، ج٦ ص١٦٣.
[٩] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٣٣٢-٣٣٤؛ والمقريزي، السلوك، ج٦ ص١٦٣؛ ودرر العقود الفريدة ج١ ص٢٩٨- ٢٩٩.

ويتبين أن هذه الحركة كانت منطلقة من حماس ديني ينتصر لفكرة عقَدِية موجودة حتى برأس السلطان، لكنها بدت فورة وُجِدَت وانتهت في ذلك الوسط الخانع لحكم المماليك، ولو أنها انطلقت من العقائد السنية المتفق عليها، ويظهر أن تأثير ابن تيمية وتحركاته القوية أثّرت على قناعة الرجل[١]، كما ذكروا أنه تأثّر برجل غمطه التاريخ حقه ولا نعلم عنه شيئا، وهو سعيد السحولي[٢].

وقد يصل عقوبة أحدهم القتل لأنه من سوء حظه وقف مع المنهزم، فقد كان الرئيس فتح الدين محمد بن إبراهيم النابلسي المعروف بابن الشهيد أحد أفراد الدنيا علما وذكاء ورياسة ونظما، وقف إلى جانب منطاش ضد برقوق، ولما انتصر هذا الأخير سنة٧٩١هـ/١٣٨٨م قتله[٣]، ومثله المؤرخ ابن عرام خليل بن علي الإسكندراني (قتل٧٨٢هـ/١٣٨٠م) قُتِل ضحية الصراع الذي دار بين الأميرين برقوق وبركة، وقد أمره برقوق بقتل بركة السجين لديه، ولما قتله ادعى أنه قتله بدون أمره فقتله[٤].

وهناك علماء اتهموا بالانحلال فكان جزاؤهم السيف بعد أن ضُبِطت عنهم كلمات اعتُبرت خروجا عن الدين[٥]، وهناك من وقع تحت تحريض المخالفين له فكريا ومن ذلك ما نزل بابن تيمية الذي كان حنبليا ويخالفهم في بعض الآراء السائدة، فنكّل به السلطان حبسا وتشريدا في القاهرة ثم في الإسكندرية فدمشق[٦]، وقد ترك أتباعا يتحمسون لأفكاره ومقالاته وأغلبهم في دمشق فكانت القاهرة تبدو وكأنها حامية المذهب الأشعري، وتناضل ضد دمشق التي يكثر بها مناصرو ابن تيمية الحنبلي وداوود وابن حزم الظاهريين؛ ولهذا فقد كان علماؤها الأشاعرة لا يكفون عن الانتصار لعقيدتهم ضد هؤلاء[٧]، وكثيرا ما قام الفقهاء ضد الصوفية أتباع ابن عربي[٨].

ومنهم من عاقبه السلطان بالطرد بسبب شكوى من عالم مقرب من السلطة كما حدث لمحمد بن إبراهيم الشافعي، تاج الدين المراكشي (ت٧٥٢هـ/١٣٥١م) حيث نفي إلى دمشق بعد أن شكاه جلال الدين القزويني إلى الناصر ابن قلاوون بحجة أنه استطال عليه[٩]، ومنهم من وقع تحت طائلة هدم بيته ونفيه من قبل السلطان بسبب تحريض علماء آخرين نافسوه المكانة لدى السلطان نفسه[١٠].

وكان زين الدين الكتناني عمر بن أبي الحرم (ت٧٣٨هـ/١٣٣٧م) إذا وصل في خطبته إلى الدعاء للسلطان قال: أللهم أصلح فساد سلطاننا، وخذ الظلمة أخذ عزيز مقتدر، يعرّض بأحد الأمراء الظالمين، وكان يقول لمن أتاه بفتيا: إذهب إلى القضاة الذين لهم من المعاليم كذا وكذا في كل شهر، واعتُبر لذلك ذا نفار وزعارة، وكان لا يخضع لقاض ولا لأمير[١١]، وهو بهذا يجعل القضاة في منظومة السلطة الحاكمة.

---

[١] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٣٣٢.
[٢] ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٢ ص٨٨، ويبدو من لقبه أنه يعود إلى أصول يمنية من منطقة السحول المعروفة في وسط اليمن، ولعله قدم بهذا الفكر الثائر من اليمن.
[٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٢٩٦-٢٩٧؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٤٢٦-٤٢٧.
[٤] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٢٢٣-٢٢٤.
[٥] كما تقدم.
[٦] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص١٣٣- ١٦٠.
[٧] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٢٥٨-٢٦٠.
[٨] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٣٣٠-٣٣١.
[٩] المصدر السابق، ج٣ ص٣٠٠.
[١٠] المصدر السابق، ج٤ ص٢٥٣-٢٥٤.
[١١] المصدر السابق، ج٣ ص١٦١-١٦٤.

ومنهم من بخسه السلطان حقه وأقصاه عن المناصب لاتخاذه موقفا مبدئيا ينسجم وقناعته، ولم تكن له عصبية تنصره؛ فقضى عمره يكابد الفقر والحاجة، مثل محمد بن إسحاق البلبيسي (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م) الذي رفض أن يأخذ السلطانُ أموالَ الأيتام حين كان قاضيا في الإسكندرية فعزله ووضع من قدره[١].

وفي آخر القرن الثامن حين صارت المناصب تُشْتَرى بالأموال فقد عجز أحدهم عن دفع ما وعد به من أموال مقابل حصوله على كتابة السر، فكان جزاؤه أن ضُرِب بالمقارع ضربا عنيفا، ونودي عليه: هذا جزاء من يسعى في الوظائف الكبار بما لا يقدر عليه[٢].

ومنهم من اعتزل الحياة الرسمية وكان معروفا بصدق اللهجة والصرامة والأمر بالمعروف والمرابطة في ثغور الجهاد، ووقعت له حكايات مع أهل الظلم نجى فيها[٣]، ويظهر أن فريقا من العلماء زهدوا في مناصب الدولة ووظائفها بل ونهوا أولادهم عن الدخول فيها[٤].

وبهذا يتبين أنهم لم يكونوا دائما في حالة الانسجام الكامل مع الأمراء والسلاطين، بل وقفوا مبدئيا ضد المصادرات بدون موافقة أصحابها وبدون التعويض الكامل، وفي إحدى حالات الدفاع الجريئة عن قدسية الملكية الخاصة أكد أحد القضاة أن انتهاكها عمل مناف لتعاليم الدين الإسلامي[٥]، وقاوم بعضهم أيضا الادعاء أن كل أراضي مصر هي ملك للسلطان ورفضوا إفتاء السلطان بأخذ أموال الرعية واجتمعوا ضد هذه المكوس.

يتبين إذا أن معادلة العلاقة بين الفئتين كانت في نهاية الأمر تميل لصالح الأمراء المماليك على حساب فئة العلماء، واقتنع كثير منهم بما يصلهم من دعم وتشجيع واحتواء من الأمراء بدلا عن التفكير بقوة في تغيير قواعد هذه المعادلة.

-علاقة القضاة بالسلطان والدولة

وإذا كانت تلك علاقات العلماء بشكل عام فمن الأهمية بمكان أن نفرد لموضوع أخص وهو علاقة نوع من العلماء الذين صاروا جزءا من السلطة وهم القضاة مع السلاطين والدولة المملوكية، لأهمية تاريخ القضاء في مصر، ولعراقته في التميز والاستقلال، وللتعرف على مواطن قوته وضعفه.

لقد كان للقاضي صلاحيات واسعة فمنها النظر في الأحكام الشرعية، وإليه استخلاف النواب في جميع الأعمال، وتعيين الخطباء بالجوامع والمتصدرين للتدريس فيها، وأئمة لها، والإشراف على الجوامع وأحوالها، وتعيين كتاب الشروط الحكمية[٦]، وله إرشيف للسجلات لتوثيق الشؤون القضائية، ويتولى توزيع القضايا التي ترد عليه على نوابه للنظر فيها، وكان يجلس في الجامع كل سبت وثلاثاء للنظر في القضايا، بهيئة معينة تعكس هيبة القضاء، وإذا مشى مشى حوله القراء، وبين يديه المؤذنون، ولا يتقدم عليه أحد في الحفل إذا حضر، وكان يشرف أيضا على بيت المال الصادر إليه والوارد منه، وعلى أموال الأيتام، والسفهاء، وكان إذا عزل القاضي قُرِّر له على مال

---

[١] المصدر السابق، ج٣ ص٣٨٢؛ والسبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٩ ص١٢٨-١٣٠.
[٢] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٢٢٠، وكانت وظيفة كاتب السر لا يليها إلا عالم كما يدل على ذلك سبب وضع كتاب صبح الأعشى للقلقشندي.
[٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص١٠٨-١٠٩.
[٤] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٣٢٨-٣٢٩.
[٥] لابدوس، مدن إسلامية في عهد المماليك، ص٢٣٣.
[٦] هم كتاب التوثيق سواء خارج المحكمة أو داخلها كمن يطلق عليهم اليوم أمناء السر مثلا.

الجوالي معلومٌ شهريا يكفيه وعياله[1]، على أنه لم تكن مرتبات المتقاعدين هذه دائمة؛ إذ دلتنا حالات وقعت أن بعض القضاة كابدوا الفقر والحاجة بعد صرفهم عن القضاء كما تقدّم.

شكّل منصب القضاء في مصر أهم المناصب التي كان لها تأثير كبير في حياة الدولة المملوكية، شأنها في ذلك شأن الدولة الأيوبية التي سبقتها، وحظي القضاة بامتيازات تفوق الامتيازات التي حصل عليها الخلفاء، وثبت للقضاة أهمية كبيرة بالقدر الذي كان أبناء المجتمع المصري بحاجة إليهم للفصل في قضاياهم، ويتضح ذلك من خلال حرص الدولة على ترتيب شؤون القضاة حتى في حالات ضعفها، وزاد من أهمية القضاة ولا سيما كبارهم أن صلاحياتهم كما مضى لم تقتصر على جانب الفصل في الخصومات فقد كان بأيديهم الشؤون التعليمية وشؤون الأوقاف ووكالة بيت المال، وأموال الأيتام، والأحوال الشخصية، والتوثيق في الحالات المدنية؛ الأمر الذي جعل بيد كبير القضاة سلطة واسعة على شرائح مختلفة في المجتمع المصري؛ وهو ما أكسبهم قوة معنوية كبيرة وسلطوية لا يقف فوقها إلا سلطة السلطان المملوكي.

ويظهر هذا في موقف السلطان الناصر من القضاة والخليفة الذين وقفوا إلى جانب خصمه بيبرس الجاشنكير؛ إذ عزلهم وأقصاهم عن مناصبهم، ولكن لمؤهلاتهم العلمية والاجتماعية تم إعادة بعضهم، بينما بقي هذا الذنب يلاحق الخليفة حتى نفاه السلطان إلى قوص بعد أن أوسعه اتهاما وسوء ظن وتلفيق تهم، وما ذلك إلا لحرص السلطان على القضاة لما تمثله وظيفتهم العملية من أهمية، بل لا يبعد أن الناصر كان يبحث عن القضاة الأقوياء الذين بهم يتحقق الاستقرار الاجتماعي والهدوء المطلوب في مملكة حاكم قوي، ويدل على ذلك حرصه على إعادتهم إلى مناصبهم رغم وقوفهم في وجه رغباته الشخصية، وكان يستبعد بعضهم ريثما يتحقق مراده فيعمل بعد ذلك على إعادته، وكان السلاطين يرون أن رجال القضاة الأقوياء هم زينة المملكة التي يحرصون عليها.

ولطبيعة وظائف القضاة العلمية ووقوعهم على رأس شرائح بيدها سلطة جزئية تنتشر أفقيا في الدولة، وللشعبية الدينية والاجتماعية حقّق القضاة هيبة وسلطة قوية مكّنت بعضا منهم أن يقف في وجه طموحات السلاطين ونزواتهم، بل حتى الأقوياء منهم؛ فقد وجد ابن بطوطة[2] أن السلطان الناصر لم يكن يهاب سوى القاضي شمس الدين الحريري الحنفي، وقد أراد مرة لساقيه بكتمر إصطبلا في أموال الأوقاف وطلب من القاضي الحريري تسويغ استبداله بموضع آخر، لكنه رفض الانصياع لرغبة السلطان، وحينها أسرع صهر القاضي السروجي سلفه، وهو القاضي سراج الدين عمر بن محمود الرازي النائب في الحسينية عارضا استعداده للحكم بحسب رغبة السلطان إن ولي القضاء، فولاه السلطان قضاء مصر حيث مكان الموضع المراد، ورُفعت صلاحيات القاضي الحريري عنها حتى مُرِّرت رغبة السلطان، وبعد مرور ٧٧ يوما عادت تحت ولايته بعد موت القاضي الرازي ولكن بعد أن قضى السلطان أيضا وطره[3].

ومع ذلك فقد ساد توازن معقول بين القضاة والسلطان طوال القرن الثامن الهجري في القاهرة بيّن حرص السلاطين على وجود القضاة واستمرارهم وتزيينهم للدولة، وعن اعتقاد القضاة أنفسهم بأهمية تعزيز سلطات السلطان مهما أمكن، ومثّلوا عند معارضتهم حتى في أكثر الحالات تطرفا معارضة داخلية، وكانت هذه الحالات دائما تنتهي بعزلهم واستبدالهم بآخرين كانوا على استعدادٍ لتمرير رغبات السلاطين وتوفير أطماعهم واحتياجاتهم.

---

[1] ابن حجر، رفع الإصر، ص٤٨٥- ٤٨٦، وقد نقله عن ابن الطوير المصري في كتابه (نزهة المقلتين في أخبار الدولتين) الذي يتحدث عن أحوال الدولة الفاطمية والأيوبية، ولم يذكر ابن حجر عن ما استجدّ في عصر المماليك؛ الأمر الذي يشير إلى استمرار ذات الصلاحيات للقضاة.

[2] تحفة النظار، ج١ ص٢٩.

[3] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص١٩٢- ١٩٣، ج٤ ص٤٠.

ومن خلال أوصاف القضاة خلال القرن الثامن الهجري في الدرر الكامنة ورفع الإصر نجد اتصاف غالبيتهم بالكفاءة الدينية والعلمية، وندر من لم يكن أهلا للقضاء، ووُجِد فيهم من كان على قدر عال من التقوى والورع وتحري الحق والتضحية بمنصبه في سبيل تطبيق ما يؤمن به، مع الشهرة بالمهابة والعفة والنزاهة وقلة مراعاة أصحاب الجاه والشفاعات[1].

لقد كان العلماء الكبار من الكثرة والتنوع واختلاف المواقف ما وفّر للجهاز القضائي ما يكفيه من الكوادر المؤهلة، وكان هناك أيضا من عفّ عن تولية مناصبه تورعا وزهدا[2]، غير أنه كان يوجد هناك غالبية من العلماء لا تمانع من تولي القضاء حتى في ظل حكام طغاة ومستبدين يتبعون شهوات أنفسهم، ولعل كثيرا منهم قبل ذلك المنصب باعتبار أن مواجهة الواقع للتأثير فيه إيجابا بما يخفف الظلم عن الرعية خير من الاعتزال والهروب[3].

وقد حرص بعضهم على إعانة السلاطين وأخلصوا لهم المشورة، وجرت العلاقة على ما يرام، وخلافا لتلك الأحداث التي سجلها المؤرخون وتفيد تناقض القضاة مع السلاطين فإن العلاقة بينهم جرت طبيعية وفيها بدا الطرفان حريصين على إقامة الدولة وفرض هيبتها وتفعيل صلاحيتها، وخير مثال على تمام المودة والصفاء بين الفريقين تلك العلاقة الطيبة والمودة الكبيرة بين السلطان الناصر والقاضي جلال الدين القزويني الذي خدم السلطان بإخلاص، وأحبه السلطان لدرجة تحمُّله المخالفات الكثيرة التي وسمت حياته القضائية واستغلال ولده لمنصب أبيه في الفساد وجمع المال والتبذير والإسراف، وحين طغت تلك المخالفات وهدّدت جناب دولة الناصر القوية في أهم أجهزتها الإدارية أوعز الناصر بطريقة غير مباشرة أن يطلب القاضي نفسه الاستقالة، حتى لا يظهر عزله له نوعا من الإهانة التي لا يتحملها السلطان لقاضيه؛ لفرط محبته له، بل لم يتحمّل السلطان مقاساة وداع صديقه الحميم وقاضيه المخلص له حين غادر إلى الشام، وفي طريقة عزله ما يشير أيضا إلى حرصه على استبقاء هيبة القاضي وجلالته في نفوس الناس[4]، في زمن كان بيد السلطة فرض الاحترام والاحتقار لدى عامة الناس، ولا غرابة في ذلك فقد أخلص القاضي للسلطان حتى في المواقف التي بدا فيها السلطان مجانبا للصواب[5].

لقد ساهمت عدة عوامل في بقاء أجواء المودة بين السلطة والقضاء، ومنها تلك الصفات المميزة التي كان عليها القضاة علما وعملا وكرما ونبلا وأخلاقا والتزاما، والتي حملت على احترامهم وتعظيمهم، كما تقدم[6]، هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد وفّر تحمُّل كثير من القضاة والعلماء للسلاطين في مخالفاتهم الشرعية، واعتبارهم فوق النقد والحساب[7] جوا من الهدوء والانسجام والثقة المتبادلة، ومن العوامل حرص السلاطين على الظهور بمظهر المحترم للدين وأهله ممثلا في العلماء؛ للنزعة الدينية لدى كثير منهم رغم إغراقهم في سفك الدماء، وتمظهر بعضهم بشعائر الإسلام وإشادته، والعناية بالعلماء والواعظين وإقامة الشعائر الإسلامية ولا سيما الصلاة[8]، وهو النصاب العقدي الذي يحفظ السلاطين الظلمة من الخروج عليهم من قبل الجماهير.

ومن العوامل وجود معادلات موروثة تجعل يد السلطان اليد المطلقة في كل شيء، وتوفر له فرصة الاستبداد من حيث اعتباره فوق المساءلة والنقد واعتبار ذلك جرما، وهو أمر جعل من قوة القضاة وحجتهم وسلطتهم الدينية مهما بلغت وتعاظمت لا ترقى إلى مستوى إخضاع رغباتهم للشرع، وكانت حالات المواجهة تنتهي بعزل القاضي

---

[1] ابن حجر، رفع الإصر، ص٢٧- ٢٨، ٢٩- ٣٠، ٣٤- ٣٥، ٤١- ٤٢، ٦٦- ٦٨، ٨١، ٩٨- ٩٩، ١٦٤- ١٦٥، ٣٦٢؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٤٧٠.
[2] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٢٥٠- ٢٥١؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٢٥٤، ٢٩٨.
[3] الحجي: حياة ناصر، صور من الحضارة العربية الإسلامية في سلطنة المماليك، ط١، الكويت، دار القلم، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، ص٨٠- ٨١.
[4] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣- ٥؛ ورفع الإصر، ص٢٤٣- ٢٤٦؛ ٣٦٦- ٣٦٩.
[5] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص١٤٢.
[6] ابن حجر، رفع الإصر، ص٢٧- ٢٨، ٢٩- ٣٠، ٣٤- ٣٥، ٤١- ٤٢، ٦٦- ٦٨، ٨١، ٩٨- ٩٩، ١٦٤- ١٦٥، ٣٦٢؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٤٧٠.
[7] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص١٤٠- ١٤١؛ وإنباء الغمر، ج١ ص١٧٨.
[8] يظهر ذلك من خلال مواقف شتى في حماية المجتمع من المخالفات الدينية وقناعتهم بضرورة وجود المسوغ الديني لكل أعمالهم واهتماماتهم بشعائر الدين كالخطبة وبناء المساجد وحضور الخطب والصلوات.

المعترض وإقصائه، كما كان لوفرة العلماء وتحاسدهم أثر في تشتيت كلمتهم واختراق صفوفهم وإمكانية ضرب بعضهم بالبعض الآخر، وتولية شخص طامح آخر بدلا من القاضي المعترض، ولما كان من حق السلطان تعيين رؤساء القضاء الذين بيدهم تعيين القضاة والمدرسين أصبح الجميع تحت تصرف السلطان وتأثيره، وحين يختلف العلماء في ما بينهم فقد كان من حق السلطان عقد اجتماع يضم كبار القضاة والعلماء مع السلطان فيسمع منهم الموضوع وما يقترحه القضاة والعلماء في حلها ثم يقرر ما يراه[١].

كل هذه العوامل شاركت في هدوء العلاقات بينهم، وفي تفوق السلطان وانتصاره عند أي مواجهة وقعت مع القضاة أو أفرادهم على ندرتها.

ففي عام٧٠٩هـ/١٣٠٩م عاد الناصر في ولايته الثالثة منتصرا ظافرا على خصمه الجاشنكير الذي كان قد حظي بفتاوى القضاة والعلماء والخليفة، ولما دخل هؤلاء على السلطان الجديد مهنئين قرّعهم مذكّرا إياهم بموقفهم السلبي تجاهه، وقد اعتذر البدر ابن جماعة بأن ما صدر عنهم من فتاوى كانت بحسب حيثيات المستفتي، وقد أراد السلطان عقوبتهم فأقصاهم عن وظائفهم، غير أنه بعد حوالي سنة أعادهم لمؤهلاتهم كما يبدو؛ لاقتناعه بأنهم أخذوا حقهم من التأديب[٢].

ولا نشهد في ما بعد للبدر ابن جماعة أي موقف مناوئ للناصر، لكن القاضي المالكي زين الدين ابن مخلوف سُجِّل له موقف قوي خالف فيه رغبة الناصر فعزله أياما قلائل سنة٧١١هـ/١٣١١م، ريثما أمضى رغبته فأعاده[٣]، فأعاده[٣]، ويتضح أن ابن مخلوف لم يكن يدِلُّ على السلطان باعتبار أنه وصي أبيه عليه فقط، بل لأنه كان أجرأ وأقوى من ابن جماعة نفسه أيضا، ولهذا سيسجّل موقفا يحمد عليه أيضا سنة٧١٤هـ/١٣١٤م[٤].

ويؤخذ على بعضهم أنهم أوغلوا أحيانا في التسطيح في القضايا لتبدو منسجمة مع ما يريده السلطان فحين أقام السلطان الناصر البينة بأن جميع مماليك بيبرس وسلار وسائر ما وقفاه من الضياع والأملاك اشتري من بيت المال، فحكم القضاة بذلك بحسب ظاهر بينة السلطان ولم يحرصوا بعد ذلك على وصول المال إلى بيت المال فعلا[٥]، ولهذا تمَّ استيلاء الناصر على هذه الثروات لنفسه وخواصه، والسبب أنه لم يكن لدى القضاة النفوذ الذي يتيح لهم تطبيق ما كانوا يرونه شرعا، ويترجَّح أن الناصر أراد من إحضار القضاة وحكمهم هذا في بداية حكمه تسويغ ما كان يريد انتهاجه في مصادرات الأموال التي طالت لاحقا عديدين من كبار رجال دولته[٦].

تشدّد الفقه الإسلامي في مجمله في الحفاظ على أموال الأوقاف[٧]، ومن المعروف اتساع العمران المدني في القاهرة خلال دولة الناصر الثالثة اتساعا كبيرا[٨]، بسبب تدفق المال وحالة الاستقرار التي شهدتها القاهرة آنذاك، كما كانت الأحباس والأوقاف قد كثرت كثرة فاحشة واتسع نطاقها[٩]؛ الأمر الذي أطمع الأمراء في الحصول على هذه الأراضي بأي ثمن، ولا بد من طرْق باب القضاة لتسويغ ذلك باعتبارهم ولاة الأوقاف ومن يفصلون في قضاياه.

---

[١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص١٤٦-١٤٧؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٤٩٢-٤٩٣؛ ورفع الإصر، ص١٦٤-١٦٥، ٣٦٢-٣٦٣.

[٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص١٥٩-١٦٠، ج٤ ص١٤٦-١٤٧؛ ورفع الإصر، ص١٦٤-١٦٥؛ والمقريزي، السلوك، ج٢ ص٤٤٤.

[٣] ابن حجر، رفع الإصر، ص٢٨٠.

[٤] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص١٤٠-١٤١.

[٥] المقريزي، السلوك، ج٢ ص٤٤٩.

[٦] الحجي، صور من الحضارة العربية الإسلامية، ص٨٢-٨٣.

[٧] يرى المالكية أنه لا يجوز استبدال الأوقاف المحبّسة ويكاد الشافعية أن يمنعوا أي تصرف فيها، وللحنفية تفصيل فهم لا يجيزون الاستبدال إذا كان الوقف عامرا ويستبدل غير العامر بما هو أدنى منه أو مساو، وتختلف الرواية عن فقهائهم فيما إذا كان عامرا ويستبدل بما يغل أفضل منه؛ فالرواية عن أبي يوسف تجويزه، وعن غيرها منعه. الموسوعة الفقهية الكويتية، ط٢، الكويت، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م. ج٦ ص٣٢٤- ٣٢٥

[٨] المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢ ص٥٢- ٥٣.

[٩] أبو زهرة: محمد، محاضرات في الوقف، جامعة الدول العربية، مركز الدراسات العربية العالية، ١٩٥٩م، ص١٧.

ورغم تشدد الشافعية في استبدال الوقف إلا أن ما ارتُكِب في عهد القاضي جلال الدين القزويني الشافعي من مخالفات بلغت حوالي٧٠٠ مخالفة[١]، ويظهر بجلاء مقدار الفساد الفادح الذي ارتكب في ولايته من خلال السماح لولده بالتدخل في شؤونه، وبيعه الولايات القضائية خارج القاهرة بالمال من المتنافسين عليها؛ الأمر الذي حدا بخلفه القاضي عز الدين ابن جماعة إلى عزلهم جميعا[٢].

ولعل عدوى بيع واستبدال الأوقاف وصلت إلى ابن قاضي الشافعية من ابن قاضي الحنابلة، والحنابلة نظريا لايتشدّدون كثيرا في هذه القضية[٣]؛ ولهذا لا يستغرب أن يتساهل ابن قاضيهم صدر الدين محمد بن أحمد بن عمر المقدسي في بيعها؛ لأنه مبدئيا تقترب الممارسة من التنظير، حتى إذا أنهى الأمير بدر الدين جنكلي ابن البابا القضية إلى مسمع السلطان عزل القاضيين معا، ولم يلبث أن حُبِس الحنبلي وولده، وأبعد الشافعي إلى قضاء الشام[٤]، وهذا يدل على أن السلطان كان لا يهتم لما غاب عن ناظريه من الرعية مثلما يهتم بمقر حكمه، وإلا فمن دخل عليه الفساد في القاهرة سيدخل عليه الفساد في دمشق. وكان أخذ الأراضي أحد أسباب نقمة بعض العلماء على الناصر واتهامه إياه صراحة بالجور[٥].

ويظهر قلق السلطان الناصر من كل أولئك الذين ظن أنهم يشكلون خطرا على سلطته ونفوذه، ولهذا لم يسلم من مصادراته كثير من أكابر معاونيه، وهو أمر يفسّر طريقة تعامله مع الخليفة الذي تبدو اتهامات الناصر ضده تحمل هاجس التفرد بالسلطة دون منازع؛ ولهذا أنزل بالخليفة أنواعا من الأذى حتى قضى نحبه طريدا في قوص، ولم يسجّل القضاة ولا حتى العلماء موقفا يستحق الإشادة في الدفاع عن الخليفة رغم اعتقادهم شرعية خلافته طبقا للعقيدة السنية بل كان بعضهم متواطئا مع السلطان ضده[٦]، ولما أوصى الخليفة بولاية العهد لابنه أحمد جاريا على سَنَن العقيدة السياسة وأثبت ذلك بمحضرٍ جامعٍ لدى قاضي قوص رفض الناصر هذا الخليفة، وعيّن هو خليفةً آخر عُرِف بسوء السيرة، وكان دور القضاة فقط تجاه هذا مجرد التنبيه على سوء سيرته وسمعته السيئة، فقطع السلطان بدوره "قول كل خطيب" بادعائه توبته بعد أن أوعز إليه سرا بأن يتظاهر بالصلاح[٧].

وكما تقدم فإن قاضي القضاة في قضية الأوقاف وقف مع الأميرين بركة وبرقوق ضد العلماء.

ورغم كثرة المفسدين من الأمراء ورغبة كثير منهم في الباطل وفي انحراف بعض القضاة بعد ضعف الدولة المملوكية بعد وفاة الناصر سنة٧٤٢هـ/١٣٤١م، وبعد طاعون٧٤٩هـ/١٣٤٨م الذي يعد فاصلا في القرن الثامن الهجري، غير أنه وُجِد قضاة بعد ذلك أخذوا على أنفسهم تحري الحق وإقامة العدل[٨]، ومن ذلك أن شكوى رُفِعت ضد يلبغا (ت٧٦٨هـ/١٣٦٦م) مدبر مملكة الأشرف شعبان أمام القاضي كمال الدين محمد بن علي الأسنوي (ت٧٨٤هـ/١٣٨٢م) نائب الحكم في القاهرة، فأصدر القاضي أوامره للأمير بالمثول أمام القضاء، ورغم غضب الأمير من هذه الجرأة لكنه لم يسعه إلا إبداء المرونة معه، واسترضاه بما يشير إلى مدى حرصه على نجاح القضاء واحترامه، وعكست احتفاظ جهاز القضاء بقوته نوعا ما أيضا[٩].

[١] السخاوي، الذيل على رفع الإصر، ص٢٨٩.
[٢] ابن حجر، رفع الإصر، ص٢٤٤.
[٣] الموسوعة الفقهية الكويتية، ج٦ ص٣٢٤- ٣٢٥.
[٤] ابن حجر، رفع الإصر، ص٦٦-٦٦.
[٥] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص١٤٠-١٤١؛ والمقريزي، السلوك، ج٢ ص٤٩٥-٤٩٦.
[٦] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص١٤٢، ج٤ ص١٤٦-١٤٧؛ والمقريزي، السلوك، ج٢ ص٤٤٤.
[٧] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٥٦؛ والمقريزي، السلوك، ج٣ ص٢٨٧-٢٨٨.
[٨] ابن حجر، رفع الإصر، ص٣٤-٣٥، ٦٤-٦٥.
[٩] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٩٨-٩٩.

ورغم ثناء بعض المؤرخين[1] على الأشرف شعبان وامتثاله للحق، فقد كان له موقف مع القاضي أبي البقاء محمد بن عبد البر السبكي، وكان هذا "يتصلّب في الأحكام، ولا يحابي أحدا من كبار رجال الدولة في ما يتصل به من الأحكام"، وقد التمس منه السلطان الأشرف حيلة في إلغاء وقفية بيت أحد الأمراء، لكنه رفض هذا الالتماس بقوة، وخرج مغضبا من لدن السلطان؛ الأمر الذي أعطى شانئيه فرصة لإيغار قلب السلطان وأدى إلى أن يلجأ إلى طريقة أسلافه في عزل القضاة حين يقفون أمام رغباتهم، لكنه مع ذلك استبدله ببرهان الدين ابن جماعة الذي هو الآخر كان قاضيا نزيها، وهو ما يبين حرص السلاطين على فعالية منصب ولاية القضاء في سلطنتهم[2].

وعلى خلاف أبيه جاء القاضي بدر الدين ابن أبي البقاء السبكي فقد كان - على رغم دماثة أخلاقه وعفته وحسن تعليمه - أنموذج القاضي الفاسد الذي وصل لمنصبه بالجاه والمال، وباع الوظائف القضائية، واستجاب للشفاعات من الأمراء، وقد ولي القضاء أربع مرات، وفي المرتين الأخيرتين عظم الخطب منه بسبب فساد ولده جلال الدين أيضا، حتى ضاق به الظاهر برقوق ذرعا وعزله[3]، ويبدو أن المدة التي ولي فيها القضاء عقيب الانقلاب على الأشرف شعبان ومقتله والتي ساد فيها البحث عن الأموال والحاجة إليها كان لها أثر في طريقة تعامله.

وخير مثال على القاضي القوي في النصف الثاني من القرن الثامن هو القاضي الشافعي برهان الدين إبراهيم بن عبد الرحيم، ابن جماعة، وكان عالما مهيبا عظيم القدر عند الملوك محببا عند الناس، ولما ولي القضاء عارضه ناظر الجيوش في قضية من القضايا، فصرف أتباعه، وعزل نفسه، وقال: "لن أكون تحت حجر كاتب"؛ الأمر الذي يشير إلى زهو القاضي بمنصبه واعتداده بهيبة القضاء وجلالته، ولم يعد إلى القضاء إلا بعد جهد بذله السلطان الأشرف نفسه، وازداد بهذا مهابة عند الأمراء والعامة[4].

ولما أطيح بالأشرف في الانقلاب عليه سنة٧٧٨هـ/١٣٧٦م أغلظ القاضي ابن جماعة في القول لقائد الانقلاب طشتمر الدوادار، ثم صُرِف عن القضاء ببدر الدين ابن أبي البقاء سنة٧٧٩هـ/١٣٧٧م، ولما شنّع العامة عليه قرّر شريكا الحكم وهما الأميران بركة وبرقوق استدعاء القاضي برهان الدين ابن جماعة سنة٧٨١هـ/١٣٧٩م للعودة إلى القضاء، ولما حضر ركب معه الأمراء وباشر عمله بهيبة وحرمة[5]، ولم تذهب السخيمة من قلب برقوق ضد العلماء والقضاة حيث وقفوا مع خصمه في الفتنة بينهما سنة٧٨٣هـ/١٣٨١م، وأساء القول في القضاة، فتسرّب الخبر إليهم، وهو ما دفع القاضي ابن جماعة للتوجه إليه مباشرة لعتابه ولومه على ذلك[6].

في سنة٧٨٤هـ/١٣٨٢م توفي تاجر وخلّف مالا كثيرا، وثبت لدى القاضي أن له وارثا شرعيا، لكن برقوق - وكان شرِها - أراد الاستيلاء على المال، فرفض ابن جماعة تسويغ ذلك له، وجاء ابن أبي البقاء ليعلن تلبية طلبات السلطان واستعداده لبذل المال ومسامحة السلطان في تلك التركة، فحظي بالمنصب وعزل ابن جماعة[7]، مضحيا بمنصبه انتصارا لمبدئه العظيم في إحقاق الحق، ومنع السلطان عن مال الرعية والأيتام، ورغم اعتراف برقوق أنه ممن تتزين بهم مملكته، إلا أنه آثر شهوته بحجة أنه لا يستجيب لإرادة السلطان، ويكثِر خلافه، وأنه لا يداري

[1] المقريزي، السلوك، ج٥ ص١٤.
[2] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص١٢؛ ورفع الإصر، ص٣٦٣.
[3] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص١٧٨، ٢٥٤، ٢٩٦؛ ورفع الإصر، ص٤١٢-٤١٤.
[4] ابن حجر، رفع الإصر، ص٢٩.
[5] المصدر السابق، ص٢٩- ٣١.
[6] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٢٣٣.
[7] المصدر السابق، ج١ ص٢٥٤.

الوقت بما يليق به[١]، وكما تقدّم فإنه كان قد أراد إزاحة أقوى الرجال أمام طموحه في التفرد بالسلطنة، وإخراجها عن ذرية قلاوون[٢].

وحدث أن كان سبب الإطاحة أيضا بقاضيين آخرين في عهد برقوق هو محاولة الحصول على مال المودع الحكمي (صندوق الأيتام)، الذي كانت ولايته تخضع لقاضي القضاة، وهما القاضي عماد الدين أحمد بن عيسى الأزرقي (ت٨٠١هـ/١٣٩٨م)، والقاضي صدر الدين محمد بن إبراهيم المناوي (ت٨٠٣هـ/١٤٠٠م)، الذي رفض أن يقرضه مال الأيتام سنة ٧٩٦هـ كمجهود حربي؛ ولهذا استدعي قاضي هذه المهمات بدر الدين ابن أبي البقاء ونصّب قاضيا[٣].

وباشر القاضي محمد بن عبد الدائم، المعروف بابن بنت الميلق الشاذلي (ت٧٩٧هـ/١٣٩٤م) القضاء بعفة ونزاهة وحرمة، لكنه بعد أن ثار منطاش ضد برقوق كتب في الفتاوى ضد برقوق، فلما عاد برقوق للحكم مقته وسلّط عليه من آذاه، وأحضر مجلس حكمه بالقلعة، فأُهين وأُلْزِم ببذل مال جليل، ومن خلال ترجمته يتبين مقدار الدعاية ضده من قبل السلطة بما يشير إلى أنه لا رحمة لمن سخط عليه السلطان[٤].

يظهر إذاً أن مؤسسة القضاء في القاهرة في القرن الثامن الهجري كانت مؤسسة قوية إلى حد ما، بحكم طبيعة وظيفتها المتعددة، واكتسب القضاة بحكم وظيفتهم هذه شعبية وهيبة محمودة، ووُجِد كثير من القضاة ممن ضحوا بمناصبهم مقابل الحفاظ على ضمائرهم ودينهم وقيمهم، وكان بإمكان هذه المؤسسة أن تصل إلى أعلى مستويات القوة والاستقلالية لولا أن تعيين القضاة وعزلهم كان بيد السلطان، ومن هذه البوابة دخل الفساد إليها، وقد أدرك شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني مكمن ضعف سلطة القضاة أمام شهوات السلاطين[٥]، وأنها تتمثّل في تعيينهم وعزلهم، بل وذكّر السلاطين بهذه الوضعية بشيء من التململ والإنكار[٦].

وتبدو أهمية علاقة القضاة من جهة والسلاطين ورجال الدولة من جهة أخرى لكون القضاة يقفون على رأس رجال العلم، وهم الذي يأخذون مساحة واسعة في الجهازين الإداري والتعليمي للدولة؛ ولهذا فمن الطبيعي أن يشكل القضاة حلقة الوصل بين السلطة المملوكية وعناصر الحركة العلمية من مدارس وعلماء وطلاب.

وبهذا يتبين أن هذه العلاقات كانت جيدة في الأوقات الطبيعية، ولكنها تصبح في خلل عند إرادة السلاطين تنفيذ رغبات لهم غير مشروعة، وتنتهي بخضوع القضاة لهذه الرغبات أو بتضحية القاضي النزيه بمنصبه ليخلفه آخر تكون أولى مهامه تنفيذ هذه الرغبة السلطانية، وتنتهي عندئذ الأزمة القائمة.

[١] ابن حجر، رفع الإصر، ص٢٩- ٣٠.
[٢] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٢٥٥.
[٣] ابن حجر، رفع الإصر، ص٦٨، ٣٣٩؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٤٦٩- ٤٧٠.
[٤] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٤٩٤؛ ورفع الإصر، ص٣٦٤- ٣٦٦.
[٥] ابن حجر، رفع الإصر، ص٢٨٨- ٢٨٩.
[٦] المقريزي، السلوك، ج٥ ص٥٧- ٥٨.

الفصل الرابع: النتاج العلمي (العلوم الشرعية)

- ❖ أولا: علوم القرآن الكريم
  - القراءات
  - التفسير
- ❖ ثانيا: علم الحديث النبوي
- ❖ ثالثا: الفقه وأصوله
  - المذهب الشافعي
  - المذهب الحنفي
  - المذهب المالكي
  - المذهب الحنبلي
  - آخرون
- ❖ رابعا: علم الكلام (أصول الدين)
- ❖ خامسا: التصوف

الفصل الرابع: النتاج العلمي (العلوم الشرعية)

شهدت القاهرة نتاجا علميا كثيفا في العلوم الشرعية واللغوية، ومن الأهمية بمكان أن تتضح صورة هذا النتاج ويتم توصيفه بالصورة التي كان عليها، ويهمنا النتاج العلمي؛ لأنه هو الذي لا زال موجودا بين أظهرنا من تلك الحياة العلمية، نتأثر به، ونتفاعل معه، وهو الدليل المادي الباقي لتلك الحياة الحافلة بالعطاء، وسيبدأ بالعلوم الشرعية، وهي العلوم التي لها علاقة مباشرة بالشارع الحكيم، وتعتبر امتدادا وثمرة لتعاليمه التي جاءتنا عن كتابه الكريم وسنة رسول صلى الله عليه وآله وسلم، وهي القرآن الكريم وعلومه، والحديث النبوي وعلومه، والفقه وأصوله.

أولا: علوم القرآن الكريم

لكونه الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكون علومه هي أشرف العلوم كان البدء بها، وهي القراءات والتجويد، ثم التفسير.

١- القراءات والتجويد

هو علم يبحث عن صور ونظْم كلام الله تعالى من حيث وجوه الاختلاف المتواترة، وقد يبحث عن صور نظم الكلام من حيث الاختلافات غير المتواترة الواصلة إلى حد الشهرة[١]. وبعبارة أخرى القراءة مذهب يذهب إليه إمام من أئمة القراء مخالفا به غيره في النطق بالقرآن الكريم، مع اتفاق الروايات والطرق عنه سواء أكانت هذه المخالفة في نطق الحروف أم في نطق هيئاتها[٢].

وصلت القراءات إلى القراء السبعة[٣]، الذين تخصصوا وانقطعوا للقراءات يضبطونها، ويُعْنَون بها[٤]، وينشرونها، كما اشتهرت أيضا ثلاث قراءات أخرى[٥]، وسميت بإضافتها إلى السبع القراءات العشر[٦]، ورويت أيضا أربع قراءات أخرى أضيفت إلى السابقة فصارت أربع عشرة[٧].

وتعود حياة القراءات في القاهرة في القرن الثامن إلى الإمام الأندلسي من أصل يمني، المشهور بالشاطبي، وهو القاسم بن فرّه الرعيني (ت٥٩٠هـ/ ١١٩٤م) الذي أخذ عن شيوخ بلده الأندلس، ورحل للحج، فلما دخل مصر أكرمه القاضي الفاضل البيساني[٨]، وجعله شيخ مدرسته التي بناها بالقاهرة بدرب الملوخية، وجلس هناك للإقراء، فتتلمذ عليه الخلائق من الأقطار، ونظَم أروع قصيدتين هما اللامية والرائية[٩]، وأخراهما دون الأولى في الشهرة، سماها (ناظمة الزهر في عد آيات المثاني)[١٠].

---

[١] القنوجي: صديق بن حسن، (ت١٣٠٧هـ)، أبجد العلوم، ت. عبدالجبار زكار، دمشق، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٧٨م، ج٢ ص٤٢٨.

[٢] الزرقاني: محمد بن عبد العظيم، (ت١٣٦٧هـ)، مناهل العرفان، ت. مكتب البحوث والدراسات، ط١، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٦م، ج١ ص٢٨٤.

[٣] هم: ابن عامر، عبد الله اليحصبي (ت١١٨هـ)، وعبد الله بن كثير الداري (ت١٢٠هـ)، وعاصم بن أبي النجود الكوفي (ت١٢٧هـ)، وأبو عمرو بن العلاء (ت١٥٤هـ)، وحمزة بن حبيب الزيات (ت١٥٦هـ)، ونافع بن عبد الرحمن المدني (ت١٦٩هـ)، وعلي بن حمزة الكسائي (ت١٨٩هـ).

[٤] الزرقاني، مناهل العرفان، ج١ ص٢٨٥.

[٥] هي قراءة يعقوب بن إسحاق الحضرمي (ت٢٠٥هـ)، وقراءة خلف بن هشام (ت٢٢٩هـ)، وقراءة أبي جعفر يزيد بن القعقاع القارئ (ت١٣٠هـ).

[٦] الزرقاني، مناهل العرفان، ج١ ص٣٢٠- ٣٢١.

[٧] هي قراءة الحسن بن أبي الحسن البصري (ت١١٠هـ)، وقراءة ابن محيصن، محمد بن عبد الرحمن السهمي (ت١٢٣هـ)، وقراءة اليزيدي، يحيى بن المبارك العدوي البصري (ت٢٠٢هـ)، وقراءة الشنبوذي، محمد بن أحمد بن إبراهيم الشطوي البغدادي (ت٣٨٨هـ)، ينظر الزرقاني، مناهل العرفان، ج١ ص٣٢١، ٣٢٢.

[٨] عبد الرحيم بن علي، محيي الدين اللخمي العسقلاني المولد، المصري، وزير السلطان صلاح الدين الأيوبي، كان له عناية خاصة بالعلماء والطلاب، توفي سنة ٥٩٦هـ. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٨ ص٢٠١.

[٩] الجزري، غاية النهاية، ج٢ ص٢٠، ٢١، ٢٢.

[١٠] وموضوعها حول عدد آيات القرآن، وفواصلها، ومبادئها، والخلاف حول ذلك. المخللاتي: رضوان بن محمد بن سليمان، (ت١٣١١هـ)، القول الوجيز في فواصل الكتاب العزيز (شرح على ناظمة الزهر)، ت. عبد الرزاق بن علي، ط٢، المدينة المنورة، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، ص٩٠.

وأما اللامية وهي المعروفة بـ(حرز الأماني ووجه التهاني) فقد رُزِقَت من القبول ما لم يحصل لكتاب آخر[١]، وتأتي أهمية هذه القصيدة لكونها قاهرية، وكون منشئها قاهريا بالاستيطان، وبهذا تمّ اعتماد القاهرة منارة علم القراءات، ودار أئمتها، وهجرة طلابها، وهي التي حملت لواء هذا العلم آخر القرن السادس وخلال القرنين السابع والثامن من الهجرة، بعد أن ألقت الأندلس إليها بالشاطبي ابتداءا، ثم شفعته بأبي حيان لاحقا.

خلفه أئمة كبار في الأمصار، وفي القاهرة أصبح مسند الآفاق في القراءات صهره وتلميذه الكمال الضرير، علي بن شجاع الهاشمي العباسي (ت٦٦١هـ/١٢٦٢م)[٢]، وكذلك الإمام علي بن ظهير، نور الدين الكفتي (ت٦٨٩هـ/١٢٩٠م)[٣].

نلتقي في أول القرن الثامن الهجري بسبط زيادة، الحسن بن عبد الكريم الغماري المغربي (ت٧١٢هـ/١٣١٢م)، سمع قصيدتي الشاطبي من تلميذه القرطبي، محمد بن يوسف بن عمر (ت٦٣١هـ/١٢٣٣م)، الذي أقرأ بالمدرسة الفاضلية خلفا لشيخه الشاطبي[٤]، وقد تتلمذ على سبط زيادة كبار أئمة القراءات، وتفرد بكثير من مروياته، ومن الكتب التي رواها التيسير[٥].

وأبرز قراء القاهرة، والذين لهم أثر واضح من خلال كثرة الطلاب هو تقي الدين الصائغ، محمد بن أحمد بن عبد الخالق (ت٧٢٥هـ/١٣٢٤م)، قرأ على الكمال الضرير، ومهر في القراءات، واشتهر بها، وكان كيسا طويل الروح، وصفه أبو حيان بـ"الإمام العلامة شيخ المقرئين، ورئيس المتصدرين"، وارتحل إليه الطلاب من الأقطار لعلو إسناده ودرايته، وجلس للإقراء في المدرسة الطيبرسية، والجامع العتيق ولازمه ليلا ونهارا[٦]. ثم يأتي قاضي الكرك عز الدين محمد بن أحمد بن إبراهيم الأميوطي[٧] (ت٧٢٥هـ/١٣٢٤م)، قرأ السبع على نور الدين الكفتي، وتصدّر للإقراء بالقاهرة، وتخرّج به جماعة، وكان من أجلاء العلماء[٨].

رفد الإمام الأندلسي أبو حيان الغرناطي (ت٧٤٥هـ/١٣٤٤م) علم القراءات بقصيدة على وزن الشاطبية، سماها (عقد اللآلي في القراءات العشر العوالي)، ولم يستخدم الرموز للأسماء مثل الشاطبي، وتميزت عن منظومة الشاطبي بأنها أكثر اختصارا وفوائد، وفيها اعتمد المؤلف على مصادر وطرق كثيرة جدا، واختار لها ألفاظا واضحة، ثم شرحها بنفسه حتى لا يذهب الفهم فيها بعيدا[٩]، إلا أنها لم ترزق حظ الشاطبية، وله رسائل عديدة في القراءات، منها (الأثير في قراءة ابن كثير)، و(تقريب النائي في قراءة الكسائي)، و(الحلل الغالية في القراءات العالية)، و(الرمزة في قراءة حمزة)، و(الروض الباسم في قراءة عاصم)، و(غاية المطلوب في قراءة يعقوب)، و(المزن الهامر في قراءة ابن عامر)، و(المنافع في قراءة نافع)، و(المورد الغمر في قراءة أبي عمرو)[١٠]، وأبرز

---

[١] الجزري، غاية النهاية، ج٢ ص٢١، ٢٢. ولا تزال مدْرَس الطلاب من ذلك الزمان حتى يومنا هذا في الأقطار الإسلامية، وحظيت بعدد ضخم من الشروح والتعليقات والمختصرات في مختلف الأقطار الإسلامية في القرون التالية لها. حاجي خليفة، كشف الظنون، مج ١ ص٦٤٦- ٦٤٩.

[٢] الذهبي: محمد بن أحمد بن عثمان، (ت٧٤٨هـ)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ت. بشار عواد معروف، ط١، دار الغرب الإسلامي، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، ج١٥ ص٤٢، ٤٣.

[٣] الجزري، غاية النهاية، ج١ ص٣٨٣.

[٤] ولم يسمع القصيدة الرائية كاملة أحدٌ غيرُه. الجزري، غاية النهاية، ج٢ ص١٩٣.

[٥] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص١٩؛ والجزري، غاية النهاية، ج١ ص١٩٧-١٩٨. والتيسير في القراءات تأليف أبي عمرو عثمان بن سعيد الداني (ت٤٤٤هـ)، وتسببت قصيدة (حرز الأماني) لتلميذه الشاطبي في شهرته؛ لكونها كانت نظما وعقدا لمعانيه. حاجي خليفة، كشف الظنون، مج١ ص٥٢٠.

[٦] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٣٢٠، ٣٢١؛ والجزري، غاية النهاية، ج٢ ص٦٠، ٦١.

[٧] ورد في الدرر أنه الأسيوطي، والصحيح ما أثبته كما سيأتي في المنطق.

[٨] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٣١٨.

[٩] أبو حيان: محمد بن يوسف الغرناطي، (ت٧٤٥هـ)، عقد اللآلي في القراءات السبع العوالي، ت. حسين بن محمد العواجي، مجلة البحوث والدراسات القرآنية، القرآنية، المدينة المنورة، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، العدد ٨، السنة الرابعة، ص٦٥، ٦٦، ٦٧.

[١٠] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٠٢-٣٠٧؛ والبغدادي: إسماعيل باشا، (ت١٣٣٩هـ)، هدية العارفين أسماء المؤلفين والمصنفين، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٥١م، مج١ ص١٥٢-١٥٣.

مميزات إسهام أبي حيان الأندلسي هو رسالته الجديدة في مجالها، وهي (النيّر[1] الجلي في قراءة زيد بن علي)، والتي يبدو أنه بحكم اطلاعه الواسع قد اطلع على إضافات لم يطلع عليها المقرئ الحسن بن علي الأهوازي (ت٤٤٦هـ/١٠٥٥م) الذي نُسِب إليه مؤلَّف في قراءة الإمام زيد بن علي[2].

وعاصره منتصبا للإقراء أيضا ابن السراج، محمد بن محمد بن نمير (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، قرأ على الكفتي، وروى (الشاطبية) عن سبط زيادة، وانتهت إليه رئاسة الإقراء بالديار المصرية، وكانت له حلقة بالأزهر، كما أقرأ أيضا بجامع الفاكهانيين[3].

أقرأ أيضا في القاهرة العلامة الأندلسي التونسي الرحالة، محمد بن جابر الوادي آشي (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، ولد ومات بتونس، ورحل إلى المشرق، فسمع الحديث في الشام ومصر والحجاز، وأقرأ بالقاهرة والشام، وحدّث بكتاب (التيسير) عنه طلابٌ كثيرون بالمغرب والمشرق[4]. كما اشتهر برهان الدين، إبراهيم بن عبد الله الحكري (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، وقد تلى على النور الكفتي، والتقي الصائغ، ولازم درس أبي حيان، وأخذ عنه الطلاب في القراءات، وكان حسن التعليم[5]. وشرح الشيخ حسن بن قاسم بن عبد الله المرادي المراكشي المصري (ت٧٥٥هـ/١٣٥٤م) (الشاطبية)، وكان إماما في العربية أيضا[6].

وبرز السمين الحلبي، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم (ت٧٥٦هـ/١٣٥٥م) من تلامذة أبي حيان والتقي الصائغ، واشتهر مقرئا ومفسرا، فتصدّر للإقراء بجامع ابن طولون، وشرح الشاطبية[7]، قال الجزري[8] عنه: "شرحا لم يسبق يسبق إلى مثله"، وشرحه بما يوفي المقصود، واجتهد في بيان الرموز وإعراب الأبيات، وسماه (العقد النضيد في شرح القصيد)[9]، وهو شرح موسوعي يسهب في كل بيت بمقدمة مطولة، ويبين الاشتقاق اللغوي للمفردات، ويتعرض لما فيها من بلاغة، وإعراب تفصيلي، وما اختلف فيه النحاة، ويتعقب بعض الشراح السابقين بالنقد أحيانا، ويوجه القراءات ويعللها، ويورد بعض الشبه ويرد عليها[10]، وهو بهذا يريد توظيف وحشر علوم أخرى في هذا الكتاب، وهي ظاهرة شائعة في نتاج ذلك العصر العلمي.

انتهت مشيخة الإقراء بعد ذلك إلى إسماعيل بن يوسف الكفتي المصري (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م)، وكان مقرئا حاذقا، قرأ العشر على الصائغ، وابن السراج، وغيرهما[11]. وبرع أحد أولاد الجند معاصرا له فصار شيخ القراء بمصر، وهو أبو بكر بن آيدغدي الشهير بابن الجندي (ت٧٦٩هـ/١٣٦٧م) وقد تلى على الصائغ، وأبي حيان، وابن السراج بالقاهرة والدلاصي[12] بمكة، والجعبري[13] بالخليل، وألّف شرحا فاضلا تضمّن إيضاح شرح الجعبري

[1] في الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٠٤:(التبر)، وفي هامشها: (النير)، وفي الوافي للصفدي ج٥ ص١٨٤: (النير)، وفي هدية العارفين للبغدادي، مج٢ ص١٥٢: (البر)، ويترجح ما ورد في الوافي لأقدميته، ولموافقة بعض نسخ الدرر الكامنة له.

[2] البغدادي، هدية العارفين، مج١ ص٢٧٥، ٢٧٦.

[3] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٢٣٢-٢٣٣؛ والجزري، غاية النهاية، ج٢ ص٢٢٤-٢٢٥.

[4] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٤١٣-٤١٤؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٥٠٤؛ والجزري، غاية النهاية، ج٢ ص٩٥.

[5] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٢٩.

[6] المصدر السابق، ج٢ ص٣٢-٣٣.

[7] المصدر السابق، ج١ ص٣٣٩.

[8] غاية النهاية، ج١ ص١٣٨.

[9] حاجي خليفة، كشف الظنون، مج١ ص٦٤٨؛ والبغدادي، هدية العارفين، مج١ ص١١١.

[10] السمين الحلبي: أحمد بن يوسف بن عبد الدائم، (ت٧٥٦هـ)، العقد النضيد في شرح القصيد (من أول الكتاب إلى أول باب الفتح والإمالة)، ت. أيمن رشدي سويد، ط١، جدة، دار نور المكتبات، ١٤٢٢هـ -٢٠٠١م، ج١ ص٧٠- ٧١.

[11] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٣٨٤؛ والجزري، غاية النهاية، ج١ ص١٥٤.

[12] عبد الله بن عبد الحق المخزومي المصري الدلاصي، تعلم القراءات، وأقرأ بمكة حوالي ستين سنة، توفي سنة ٧٢١. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٢٦٥، ٢٦٦.

[13] برهان الدين إبراهيم بن عمر الجعبري (ت٧٣٢هـ)، ألف أحسن شروح الشاطبية، وسماه كنز المعاني. حاجي خليفة، كشف الظنون، مج١ ص٦٤٦.

اسمه (الجوهر النضيد في شرح القصيد)[١]، كما ألّف كتاب (البستان) في الثلاث عشرة قراءة، قرأه عليه ابن الجزري، وهي الأربع عشرة ما عدا قراءة الحسن البصري[٢].

ومن تلامذة الصائغ أيضا الشيخ تقي الدين عبد الرحمن بن أحمد الواسطي البغدادي نزيل القاهرة (ت٧٨١هـ/١٣٧٩م) وقد سمع عليه الشاطبية والقراءات، كما قرأ الحديث، واقتعد كرسي الإقراء، وشرح الشاطبية بشرحين، وممن تتلمذ عليه الجزري[٣]. أما آخر تلامذة التقي الصائغ ممن تصدروا الإقراء بالقاهرة هو من حاز لقب "رُحلة الديار المصرية"، وهو محمد بن أحمد العسقلاني (ت٧٩٣هـ/١٣٩٠م) إمام الجامع الطولوني[٤].

وممن أبدع في علوم القرآن إجمالا محمد بن بهادر بن عبد الله[٥] التركي الزركشي (ت٧٩٤هـ/١٣٩١م)، أخذ عن الشيخ جمال الدين الأسنوي، وسراج الدين البلقيني، ورحل إلى دمشق، وأخذ عن ابن كثير في الحديث، وولي مشيخة كريم الدين، وكان منقطعا لا يتردد إلا إلى حانوت الكتبيين، فيقمش المعلومات في أوراق معه معدة لذلك، ويعود إلى بيته. تضمن كتابه (البرهان في علوم القرآن) نيفا وأربعين علما من علوم القرآن[٦]، جمع فيه عصارة أقوال المتقدمين، وصفوة آراء المحققين حول القرآن الكريم في علومه المختلفة، وحاول في كل موضوع من مواضيعه أن يجمع شتات المسائل، ويضم أقوال المفسرين والمحدثين، إلى مباحث الفقهاء والأصوليين، إلى قضايا المتكلمين وأصحاب الجدل، إلى مسائل العربية وآراء أرباب الفصاحة والبيان[٧]، وهو بهذا لا يخرج عن الظاهرة الشائعة في مؤلفات هذا القرن، وهو حشر علوم أخرى في العلم المبحوث فيه، والاستطراد والتوسع فيها.

ورحل إبراهيم بن أحمد بن عبد الواحد التنوخي البعلي (ت٨٠٠هـ/١٣٩٧م) من الشام بلده إلى القاهرة، وكان قد أخذ على شيوخ القراءات والحديث بالشام، وفي القاهرة أخذ عن أبي حيان، وابن السراج، وابن أم عبد المرادي، فمهر في القراءات، وانقطع أخيرا بالجامع الأقمر لإقراء العشر القراءات[٨].

وصنّف نور الدين علي بن عثمان بن محمد البغدادي المعروف بابن القاصح[٩](ت٨٠١هـ/١٣٩٨م)، تعلّم على المجد إسماعيل الكفتي، وأقرأ بالجامع المرواني، وقد صنّف ونظم في القراءات، ومن ذلك منظومته (القصيدة العلوية في القراءات السبع المروية)، وشرحها بـ(الأمالي المرضية)، و(تحفة الأنام في الوقف على الهمزة لحمزة وهشام)، و(قرة العين في الفتح والإمالة بين اللفظين) ، وألف (مصطلح الإشارات في القراءات الست الزائدة عن السبع المرويات عن الثقات)[١٠]، وفي هذا الكتاب اختصر المسافة في المطولات لطلاب القراءات الست الزائدة وهي قراءة الحسن البصري، وأبي جعفر المدني، وابن محيصن المكي، ويعقوب بن إسحاق البصري، وسليمان بن مهران الأعمش، وخلف بن هشام البزار، ليسهل الوصول إلى قراءتها بأقل وقت[١١].

---

[١] أجريت على تحقيقه دراسات عديدة علمية حديثة في الماجستير والدكتوراة.
[٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص١٤٩؛ والجزري، غاية النهاية، ج١ ص١٦٣-١٦٤.
[٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣٢٣-٣٢٤؛ والجزري، غاية النهاية، ج١ ص٣٢٩-٣٣٠.
[٤] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٣٥٢.
[٥] هكذا ورد في كتابي ابن حجر، الدرر الكامنة وإنباء الغمر، وقد ورد في مصادر أخرى هكذا (محمد بن عبد الله بن بهادر)، ولكن أثبتنا ما في الأصل اعتمادا على ابن حجر؛ لأقدميته على من سواه، ولترجيح بعض الباحثين لذلك بمرجحات مقنعة. ينظر الزركشي: محمد بن بهادر بن عبدالله، (ت٧٩٤هـ)، تشنيف المسامع شرح جمع الجوامع لتاج الدين السبكي، ت. سيد عبد العزيز، وعبد الله ربيع، ط٢، القاهرة، مكتبة قرطبة، ٢٠٠٦م، مقدمة المحققين، ج١ ص٢٤- ٢٦.
[٦] يقصد بالعلوم هنا المباحث العديدة المتعلقة بالقرآن الكريم.
[٧] الزركشي: محمد بن عبدالله الزركشي، (ت٧٩٤هـ)، البرهان في علوم القرآن، ت. محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، مكتبة التراث، مقدمة المحقق، ج١ ص١٣. هكذا اسمه في الكتاب، والصحيح أنه محمد بن بهادر بن عبدالله الزركشي.
[٨] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص١١؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص٢٢-٢٣؛ والمجمع المؤسس، مج١ ص٧٩- ٨٢.
[٩] وقع في إنباء الغمر، ج٢ ص٧٧: الناصح، وهو تصحيف عن (القاصح) كما ورد في المصادر الأخرى.
[١٠] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٧٧؛ والسخاوي، الضوء اللامع، ج٥ ص٢٦؛ والبغدادي، هدية العارفين، مج١ ص٧٢٧.
[١١] ابن القاصح: علي بن عثمان، (ت٨٠١هـ)، مصطلح الإشارات في القراءات الزوائد المروية عن الثقات، دراسة وتحقيق عبد الله بن حامد السليماني، جامعة أم القرى،١٤٢٢هـ، (رسالة ماجستير غير منشورة، موقع ملتقى أهل اللغة على النت)، ص١٠٣-١٠٤.

ويبدو من نظمه قصيدة في القراءات السبع أنه أراد مضاهاة الشاطبية ومن قبله حاول الإمام أبو حيان، لكن ذلك لم يحُل بينه وبين شرح الشاطبية ذات القبول الواسع والشهرة فقد شرحها بـ(سراج القارئ المبتدي وتذكار القارئ المنتهي)، وهو اعتراف بتميز الشاطبية عن سواها، ورغم اشتهار هذا الشرح في أوساط الطلبة إلا أنه اعترف أنه اختصره من شروح مطولة أخرى سبقته، وأنه أضاف إليه بعض الفوائد، حتى يناسب المبتدئ والمنتهي[١]، كما شرح منظومة الشاطبي الأخرى وهي الرائية المسماة (عقيلة أتراب القصائد في أسنى المقاصد) في رسم المصحف بـ(تلخيص الفوائد)[٢]، وفيه جرى على سنن شرحه على (حرز الأماني) من الاختصار، وتخليص القدر المحتاج إليه إليه في معرفة رسم المصحف بدون ذكر للخلافات[٣]. وله (نزهة المشتغلين في أحكام النون الساكنة والتنوين) وتكمن أهميته في كونه من أقدم ما كتب عن هذا الموضوع في تأليف مستقل، وبحسن الترتيب[٤]. وله كتاب (تذكرة الأصحاب في تقدير الإعراب) في النحو[٥] مما يشير إلى توجهه النحوي، إلى جانب القراءات.

وعاصره المقرئ المعروف بالمشبّب خليل بن عثمان المصري (ت٨٠١هـ/١٣٩٨م) وقد سمع البدر ابن جماعة، وأقرأ الناس بالقرافة طويلا، وكان منقطعا بسفح جبل، وكان يتمتع بسلطة روحية على السلطان الظاهر برقوق وغيره، ذا صوت حسن[٦]، وقد ألّف كراسا في التجويد[٧]. وانتهت رئاسة الإقراء بعد ذلك إلى فخر الدين عثمان بن عبد الرحمن البلبيسي المصري (ت٨٠٤هـ/١٤٠١م)، الذي أصبح أمة وحده في إتقان السبع، وأمّ الناس بالأزهر، وقرأ عليه خلقٌ كثير[٨].

وهناك شيخ آخر كان ماهرا في القراءات والعربية والحساب، وهو شمس الدين محمد بن علي القطان المصري (ت٨١٣هـ/١٤١٠م) وقد لازم الشيخ بهاء الدين ابن عقيل وصاهره[٩]، وله كتاب في القراءات السبع سماه (السهل)، (السهل)، سمع بعضه منه ابن حجر تلميذه[١٠].

وبهذا يتبين حمل القاهرة للواء علم القراءات، ويتبين أن (الشاطبية) أخذت حيزا كبيرا في هذا العلم خلال القرن الثامن الهجري، واكتفى بها القراء القاهريون، ورغم محاولات بعضهم نظم بديل لها، لكنها لم تؤثر على مستوى قبول الشاطبية، كما أن الكثيرين اهتموا فقط بالقراءات السبع، وهناك من اعتنى بالعشر، وهناك من اعتنى بالثلاث عشرة، وبالأربع عشرة.

ومما يلاحظ أيضا أن هناك أئمة متصدرين للقراءات لم يؤْثَرْ عنهم تأليفٌ في القراءات، ولعل السبب هو أن القراءات سماعية لا مجال للتجديد والإضافة فيها، ففيما تقدّم يوجد حوالي ٢٠ مقرئا من المشاهير، ٨ منهم فقط كتبوا نتاجا علميا، ومجموع ما خلّفوه في هذا الموضوع ٢٨ عملا، منها ما كان عملا عاديا، ومنها ما هو عمل مبتكر، وهو قليل جدا، ومنه كتاب النير الجلي لأبي حيان، وكتاب البرهان للزركشي من حيث موسوعيته لعلوم القرآن المختلفة، وكان ما نسبته ٣٦% عبارة عن شروح واختصارات، حوالي الثلثان منها كانت شروحا على

---

[١] ابن القاصح: علي بن عثمان، (ت٨٠١هـ)، سراج القارئ المبتدي ونهاية القارئ المنتهي، ت. محمد عبدالقادر شاهين، ط٢، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٥هـ -٢٠٠٤م، ص٥.

[٢] حاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ص١١٥٩؛ والبغدادي، هدية العارفين، مج١ ص٧٢٧.

[٣] ابن القاصح: علي بن عثمان، (ت٨٠١هـ)، تلخيص الفوائد وتقريب المتباعد شرح عقيلة القصائد، ت. عبد الفتاح القاضي، ط١، القاهرة، مطبعة البابي الحلبي، الحلبي، ١٣٦٨هـ -١٩٤٩م، ص٣.

[٤] ابن القاصح: علي بن عثمان، (ت٨٠١هـ)، نزهة المشتغلين في أحكام النون الساكنة والتنوين، تحقيق غانم قدوري الحمد، مجلة البحوث والدراسات القرآنية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، العدد ٣، السنة الثانية، ص٢٨٤.

[٥] السخاوي، الضوء اللامع، ج٥ ص٢٦؛ والبغدادي، هدية العارفين، مج١ ص٧٢٧.

[٦] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٧١.

[٧] الجزري، غاية النهاية، ج٣ ص٣٣١.

[٨] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٢١٤.

[٩] المصدر السابق، ج٢ ص٤٧٦.

[١٠] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٣ ص٣٣١.

الشاطبية، كما يتبين أن ٦٤% من تلك الأعمال كانت لاثنين من علماء القاهرة، وهما أبو حيان، وابن القاصح، وتبين أن جُل علماء القاهرة في هذا المجال من أصول غير قاهرية، وكان ٨٢% من ذلك النتاج في علم القراءات، و١٨% في التجويد ورسم المصحف؛ الأمر الذي يشير إلى اهتمام العلماء بالقراءات أكثر من غيرها؛ كونها الأهم وكونها تشمل التجويد، وكان في الشاطبية غنية عن سواها، فدارت عليها دوائر الشروح في القاهرة وخارجها.

٢- التفسير

عرفه الزركشي[١] بأنه: علم يُعْرَف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ.

وهو نوعان الأول نقلي روائي، يهتم بالمرويات التي تفسِّر القرآن، أو تبيِّن مجمله، وناسخه ومنسوخه، سواء كانت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو عن صحابته، أو التابعين أو تابعيهم، وقد دخل فيه مرويات إسرائيلية، والثاني هو الذي يعتمد على معرفة اللغة والإعراب والبلاغة في تأدية المعنى، ولا يستغني هذا النوع عن النوع الأول، ومنه تفسير الكشاف لجار الله الزمخشري (ت٥٣٨هـ/١١٤٣م) والذي أعجِبَ به كثير من علماء الأمة، وعكفوا على دراسته[٢]، ونجد الاهتمام به حتى في القاهرة في القرن الثامن الهجري.

يأتي في مقدمة مفسري القاهرة في القرن الثامن الهجري علم الدين ابن بنت العراقي، عبد الكريم بن علي الوادي آشي الأنصاري (ت٧٠٤هـ/١٣٠٤م)، اعتنى بالعلوم الشرعية، وكان له اقتدار على التعليم؛ ولذا فإن معظم من كان في مصر كانوا ممن قرأ عليه، ومنهم أبو حيان الأندلسي وتقي الدين السبكي، ودرّس التفسير بالمنصورية[٣]، وقد أملى مختصرا في التفسير، احتوى على فوائد[٤]. وفي اتجاه الأثر الذي فرضه الكشاف بسلطته بسلطته البيانية يتضح أن أحمد بن المنير الإسكندري (ت٦٨٣هـ/١٢٨٤م) تصدّى للرد على معتزليات الإمام الزمخشري فيه، وكان في جوابه حِدَّة حملته عليها حميته لنصرة مذهبه السني، فجاء ابن بنت العراقي هذا وهو سني أيضا ووضع كتاب (الانتصار) للزمخشري من ابن المنير، وعوتب على ذلك فأجاب بأنه رد الرد[٥]، وهو كتاب ذو أهمية بالغة؛ إذ يسلّط الضوء على توجهٍ متحرر عن المحيط الأشعري نوعا ما، ويدل على إمكانية المخالفة، مع أن بعضا من تلامذته وهو القاضي تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي انكفّ عن تدريس ودراسة الكشاف، ودعا إلى الانكفاف؛ وألف في ذلك رسالة[٦].

جاء بعده سليمان بن عبد القوي الطوفي (ت٧١٦هـ/١٣١٦م) المولود بطوفا جوار بغداد، وزار الشام ثم قدم القاهرة، وحظي بصداقة شيخ الحنابلة سعد الدين مسعود الحارثي العراقي، فولاه عدة وظائف، وما لبث أن احتدم النقاش بينها في أحد الدروس، فأُلقِيَ به في السجن، ونفي إلى الشام، وكانت التهمة ضده هي التشيع والرفض، ويظهر من خلال ترجمته مقدار التحامل والخلط ضده، حتى استغربه هو في بيت له:

حنبلي رافضي ظاهري   أشعري!! إنها إحدى الكبر[٧]

---

[١] البرهان في علوم القرآن، ج١ ص١٣.
[٢] ابن خلدون، المقدمة، ص٥٥٣- ٥٥٥.
[٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣٩٩-٤٠٠.
[٤] الصفدي، أعيان العصر، ج٣ ص١٣٩.
[٥] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣٩٩-٤٠٠.
[٦] اسمها (الانكفاف عن إقراء الكشاف). حاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ص٩٧٥.
[٧] أورد ابن حجر نفسه بيتا نقله عنه واستدل به على ترفُّضه وهو قوله في أبي بكر وعلي: كم بين من شك في خلافته   وبين من قيل إنه الله ، غير أن هذا البيت البيت لا يدل على ترفض، وغاية ما فيه لو صح أنه يفضل عليا على أبي بكر.

ويبدو أنه كان لديه قَدْرٌ قليل من التشيع كالتشيع الذي وُصِف به الإمام أبو حيان نفسه[1]، وقد ذكروا له نشاطا تأليفيا واسعا في العلوم، وكان قوي الحافظة شديد الذكاء[2]. وقد فسّر آيات من القرآن[3]، وسمى بعضهم[4] مؤلفاته في في التفسير، وهي (تفسير سورة ق)، و(تفسير سورة النبأ)، و(إيضاح البيان عن معنى أم القرآن)، ودراسة حول العدد في القرآن، وهي عناوين تشير إلى المنحى الجزئي للتفسير في ذلك العصر.

وقدم من تونس محمد بن محمد بن عبد الرحمن، الشهير بابن القوبع المالكي (ت٧٣٨هـ/١٣٣٧م) إلى دمشق سنة ٦٩٠هـ، بعد أن أخذ على شيوخ بلده، ثم استقر به النوى في مصر، وكان عالما موسوعيا، مهر في جميع الفنون. كتب على تفسير سورة (ق) مجلدة لطيفة، وكتب أيضا تفسيرا على عدة آيات[5].

ونصل إلى أفضل علماء التفسير في ذلك العصر وهو أثير الدين محمد بن يوسف بن علي، أبو حيان الغرناطي (ت٧٤٥هـ/١٣٤٤م)، قدم من غرناطة سنة ٦٧٨هـ، والتقى عدد كبيرا من الشيوخ، وأقر له العلماء بالسبق والفضل في العلوم، فأما النحو والتفسير "فهو الإمام المطلق ... حتى صار لا يذكر أحد في أقطار الأرض فيهما غيره، وله اليد الطولى في التفسير والحديث وتراجم العلماء وطبقاتهم ولا سيما المغاربة، وله التصانيف التي سارت في آفاق الأرض، واشتهرت في حياته، أقرأ الناس قديما وحديثا حتى ألحق الصغار بالكبار، وصارت تلامذته أئمة وأشياخا"، وكان موسوعي المعرفة ذا عقلية فذّة متحررة، ومؤلفاته اشتملت علوم القرآن، والعربية، والفقه، والتاريخ، وبعض اللغات الأجنبية وقواعدها، واقتعد للتدريس والتصنيف في القاهرة، وتولى تدريس التفسير بالقبة المنصورية والإقراء بالجامع الأقمر[6].

صنّف تفسيرا عظيما سماه (البحر المحيط)[7]، ويعتبر المرجع الأول والأهم لمن يريد أن يقف على وجوه الإعراب لألفاظ القرآن الكريم، كما أنه يتكلم على المعاني اللغوية للمفردات وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ والقراءات مع توجيهها، ولا يُغْفِل الناحية البلاغية في القرآن، ولا الأحكام الفقهية عندما يمر بآياتها[8]، كما بيّن منهجه فيه هو بنفسه في مقدمة كتابه[9]. ولما أدرك أن أبناء زمانه عجزوا عن الإبحار في بحره المحيط اختصره لهم في كتاب سماه (النهر الماد)[10]، وأما كتابه (تحفة الأريب) فهو من أشد الكتب اختصارا في غريب القرآن، ومع ذلك كان وافيا بالمعنى بأوجز عبارة مستوعبا للكلمات الغريبة في القرآن[11]، وستأتي كلمة عنه لاحقا.

كما قدم مصر سنة٧٢٢هـ/١٣٢٢م من تبريز تاج الدين علي بن عبد الله بن أبي الحسن الأردبيلي الشافعي (ت٧٤٦هـ/١٣٤٥م)، وكان من علماء زمانه في أكثر الفنون، وانتفع الناس به، وعُيِّن مدرسا في الحسامية، وكان كثير التلامذة، وصنّف في التفسير وعلم الحديث والأصول[12]، ولم يتسنّ معرفة أسماء مؤلفاته.

---

[1] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٠٦-٣٠٧.

[2] المصدر السابق، ج٢ ص١٥٤-١٥٧.

[3] أعيان العصر، ج٢ ص٤٤٧.

[4] النهار: عمار محمد، العصر المفترى عليه عصر المماليك البحرية دراسة فكرية، ط١، دمشق، دار النهضة ومجموعة الكمال المتحدة،٢٠٠٧م، ص٣٢٢، نقلا نقلا عن بروكلمان ج٦ ص٤٤٤، ٤٤٥، وهي طبعة تختلف عن المعتمدة في هذا البحث.

[5] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص١٨١-١٨٢.

[6] المصدر السابق، ج٤ ص٣٠٢-٣٠٩؛ والصفدي، الوافي، ج٥ ص١٧٥-١٧٦.

[7] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٠٤؛ والبغدادي، هدية العارفين، مج٢ ص١٥٢-١٥٣.

[8] الذهبي: محمد حسين، التفسير والمفسرون، ط٧، القاهرة، مكتبة وهبة، ٢٠٠٠م، ج١ ص٢٢٦.

[9] أبو حيان: محمد بن يوسف الغرناطي، (ت٧٤٥هـ)، البحر المحيط، ت. عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، ج١ ص١٠٣- ١٠٤.

[10] طبع بتحقيق عمر الأسعد، بيروت، دار الجيل، ط١، ١٩٩٥م، ج١ ص٢٣ نقلا عن النهار، العصر المفترى عليه، ص٣٢٣.

[11] ينظر تحفة الأريب، وقد طبع بتحقيق سمير المجذوب، بيروت، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٩٨٨م، المقدمة ص٥ نقلا عن النهار، العصر المفترى عليه، ص٣٢٣.

[12] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٧٢-٧٣.

عاصر أبا حيان عالمٌ آخر قدم من تبريز أيضا، وهو العلامة محمود بن عبد الرحمن الأصفهاني (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، تعلم في بلاده، ومهر وتقدم في الفنون جميعا ولا سيما في العقليات، وقدم دمشق، أعجب به ابنُ تيمية، وبنى له قوصون بالقاهرة خانقاة رتّبه فيها شيخا، وانتفع الناس به، وأذن لجماعة بالإفتاء في مصر والشام[١]، وكتب تفسير آيات متفرقات، و(تفسير سورة الكهف)، ثم أزمع وهو بمصر على كتابة تفسير مستقل[٢]، هو هو (أنوار الحقائق الربانية في تفسير الآيات القرآنية)[٣]، ورغم أنه كان سريع القلم إلا أنه مات ولم يكمله[٤]، ومن العجيب أنه كان يعتقد أهمية وجود كتابه "خوفا من ضياع الزمان بلا كتابة في التفسير"[٥]، ويبدو أنه لم يعجبه ما كان موجودا من التفاسير.

وهناك دمشقي نزل القاهرة وهو محمد بن أحمد بن عبد المؤمن الأسعردي، شمس الدين ابن اللبان (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، تفقه وبرع في الفنون، ودرس بزاوية الشافعي في جامع عمرو بن العاص، ثم في مشهد الإمام الشافعي بالقرافة، ووعظ الناس على طريقة الشاذلية[٦] من الصوفية، فطار صيته، وضبطت عليه كلمات على على طريقة الصوفية الاتحادية، فقام ضده الفقهاء، ودعي للمحاكمة، لكن بعضا من أصدقائه من كبار موظفي الدولة أنقذه من مخالب القاضي المالكي شرف الدين الزواوي، ومنع بعدها من الوعظ[٧]. ألف كتاب متشابه القرآن والحديث سماه (إزالة الشبهات عن الآيات والأحاديث المتشابهات)[٨]، وهو مختصر حسن تكلم فيه على بعض الآيات والأحاديث المتشابهات بكلام على طريقة الصوفية[٩]، ويأخذ الكتاب منزلة متميزة في موضوعه؛ إذ يكاد يكون الكتاب الأول في بيان منهج الصوفية وموقفهم من الأسماء والصفات، بذل فيه المؤلف جهدا لتأويل الآيات والأحاديث بحيث توافق منهجه الفكري، ولم يُعرَف هناك كتاب يدانيه في موضوعه[١٠].

جاء بعد ذلك تلامذة أبي حيان، ومنهم المفسر المعروف بالسمين الحلبي (ت٧٥٦هـ/١٣٥٥م)، ومن أهم مصنفاته تفسير القرآن في عشرين مجلدة رآها ابن حجر بخطه، كما جمع كتابا في أحكام القرآن سماه (القول الوجيز في أحكام الكتاب العزيز)[١١]، ويعتبر من تفسير الفقهاء الشافعية[١٢]، وله أيضا (الدر المصون في علوم الكتاب المكنون) صنّفه في حياة شيخه أبي حيان، وناقشه فيه مناقشات كثيرة[١٣]، وهو من أجل ما صُنّف في إعراب القرآن[١٤]، وقد جعله مؤلفه سلة علمية استوعبت الجهود التاريخية المبذولة في إعراب القرآن، وفيه أيضا تحليل مفصل لكلمات القرآن من حيث أصولها واشتقاقاتها وتطورها واستعمالاتها، وهو كعصره يستطرد في المباحث النحوية أثناء الكتاب كلما عنّت له فرصة[١٥].

---

[١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٢٧- ٣٢٨.
[٢] الصفدي، أعيان العصر، ج٥ ص٤٠٣- ٤٠٤.
[٣] البغدادي، هدية العارفين، مج٢ ص٤٠٩.
[٤] ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، ج٣ ص٧٢.
[٥] الصفدي، أعيان العصر، ج٥ ص٤٠٣- ٤٠٤.
[٦] طريقة صوفية تنسب إلى الشيخ المغربي علي بن عبد الله الشاذلي المتوفي سنة ٦٥٦هـ، ولد في (شاذلة) بالمغرب، ثم قدم الإسكندرية، واستوطنها، وكتب مؤلفات فيها بعض العبارات المستشكلة. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢١ ص١٤١- ١٤٢.
[٧] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٣٣٠-٣٣١؛ والصفدي، أعيان العصر، ج٤ ص٣٠٠؛ والأسنوي: عبدالرحيم بن الحسن، (ت٧٧٣هـ)، طبقات الشافعية، ت. ت. كمال الحوت، ط١، بيروت، دارالكتب العلمية، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ص١٩٤.
[٨] طبع بتحقيق مزيد سليمان، الرياض، دار طويق، ط١، ١٩٩٥م.
[٩] السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج٧ ص٩٤.
[١٠] النهار، العصر المفترى عليه، ص٣٢٤.
[١١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٣٣٩؛ والبغدادي، هدية العارفين، مج١ ص١١١.
[١٢] الذهبي، التفسير والمفسرون، ج٢ ص٣٢٢.
[١٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٣٣٩.
[١٤] القنوجي، أبجد العلوم، ج٢ ص٨٠.
[١٥] السمين الحلبي: أحمد بن يوسف بن عبد الدائم، (ت٧٥٦هـ)، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، ت. أحمد محمد الخراط، دمشق، دار القلم، مقدمة المحقق ج١ ص٣١- ٣٤.

ومنهم الإمام تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي (ت٧٥٦هـ/١٣٥٥م) ولد بسبك العبيد سنة٦٨٣هـ/١٢٨٤م، وتفقه على والده، ودخل القاهرة، فتلقى العلم على أعلامها، حتى أصبح من المبرزين بها، وولي التدريس بمدارسها، وكان كبار دولة الناصر يعظمونه ويقضون شفاعته، ثم ولي قضاء الشام بعد موت جلال الدين القزويني سنة٧٣٩هـ/١٣٣٨م، فباشره بهمة وصرامة وعفة، ولم يحفظ عنه ما يعاب فيه، وكان متقشفا في أموره، لا تقع مشكلة ولا مسألة مستغربة إلا ويتصدى للتصنيف فيها[١]، وكان له بأخرة موقف معترض على دراسة (الكشاف) للزمخشري، وألف تصنيفا يعلل فيه سبب انكفافه عن قراءته، وهو متعلق بالخلاف العقائدي باعتباره هو أشعريا، والزمخشري معتزليا[٢]، وله كتاب (الدر النظيم في تفسير القرآن العظيم) لم يكمله[٣]. وقد ذكر ولده تاج الدين السبكي[٤] أنه لم تر عيناه أعلم بالتفسير والقراءات والفقه والمعقولات من أبيه.

ومنهم المفسر محمد بن علي بن عبد الواحد الدكالي ثم المصري، أبو أمامة ابن النقاش (ت٧٦٣هـ/١٣٦١م)، كان واعظا مفوها، تقدّم في الفنون، وصنف في الفقه والحديث والعربية، كما صنّف في التفسير كتابا مطولا جدا سماه (السابق اللاحق)، وذكر في أوله الحامل له على تأليفه، وهو الرد على من اتهمه بالقصور في التفسير، فشرع في تفسير الفاتحة، وأقام فيها مدة طويلة، ثم شرع في كتابة تفسيره هذا ملتزما أن لا ينقل حرفا فيه عن كتاب سابق[٥]. وهو بهذا تفسير لا يلبي حاجة ولكنه فقط لمجرد إثبات المعرفة لمن أنكرها.

ومنهم القاضي عبد الله بن عبد الرحمن بن عقيل البالسي الأصل نزيل القاهرة (ت٧٦٦هـ/١٣٦٤م)، وتفقه على جماعة، وناب في الحكم، وولي رئاسة القضاء مدة، ولازم أبا حيان وكان من أجل تلامذته، ودرّس بمدارس القاهرة، ودرّس التفسير بالجامع الطولوني، ختم القرآن تفسيرا خلال ٢٣ سنة، ثم شرع من أوله ومات في أثناء ذلك، قال الأسنوي: "كان إماما في العربية والمعاني والبيان والتفسير"، وصنّف في الفقه والعربية والتفسير[٦]، وشرع في تفسير مطول وصل فيه إلى أثناء سورة النساء، وله آخر مختصر لم يكمله سماه (التعليق الوجيز على الكتاب العزيز)[٧].

وكتب قاضي القضاة الحنفية عمر بن إسحاق الغزنوي (ت٧٧٣هـ/١٣٧١م) تفسيرا للقرآن بحجم متوسط مثل تفسير الزمخشري والبغوي والنسفي[٨]. ومن تلامذة أبي حيان ممن عنوا بالقرآن الكريم الشيخ شمس الدين محمد بن بن عبد الرحمن بن علي الزمردي، ابن الصائغ الحنفي النحوي (ت٧٧٦هـ/١٣٧٤م)، مهر في العربية، وله كتاب (المنهج القويم في القرآن العظيم)[٩].

ويأتي بعد هؤلاء الشيخ أكمل الدين محمد بن محمود البابرتي الحنفي (ت٧٨٦هـ/١٣٨٤م) الذي قدم القاهرة من الشام سنة٧٤٠هـ/١٣٣٩م، فأخذ عن شمس الدين الأصبهاني وأبي حيان وآخرين، وصحب الأمير شيخو فقرره شيخا بالخانقاة التي بناها وفوّض إليه أمورها، وأخلص حياته للعلم، فعُرض عليه القضاء فامتنع، وكان حسن المعرفة بالفقه والعربية والأصول والتفسير، وارتفعت منزلته في دولة الظاهر برقوق وعظّمه جدا[١٠]، وقد كتب

---

[١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٦٣-٦٤.
[٢] اسم التصنيف (الانكفاف عن قراءة الكشاف). ينظر ولده تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج١٠ ص٣١٤.
[٣] السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج١٠ ص٣٠٧.
[٤] طبقات الشافعية الكبرى، ج١٠ ص٢٢٣-٢٢٤.
[٥] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٧١-٧٢.
[٦] المصدر السابق، ج٢ ص٢٦٨؛ ورفع الإصر، ص١٩٠.
[٧] ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، ج٣ ص٩٦-٩٧.
[٨] البغدادي، أبجد العلوم، ج٢ ص١٨٥.
[٩] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٩٥-٩٦.
[١٠] المصدر السابق، ج١ ص٢٩٨.

(تفسيرا) حسنا، وفي صدد الأثر الذي أحدثه الكشاف ذو التوجه الاعتزالي في البيئة الأشعرية كالقاهرة كتب أكمل الدين عليه حاشية[١].

وختام المفسرين هو محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي (ت٧٩٤هـ/١٣٩١م)، صنّف في الأصول وعلوم الحديث وعلوم القرآن والتفسير، وألّف تفسيرا للقرآن وصل فيه إلى سورة مريم[٢]، كما ألف كتابه (البرهان في علوم القرآن) الذي هو بمثابة دائرة معارف قرآنية كما مر شاهدا على علمه بالقرآن.

ومن خلال ما سبق وبصورة تقريبية يتضح أن علماء القاهرة في القرن الثامن الهجري تركوا ٢٥عملا تفسيريا لـ١٦ مفسر، كان للشافعية منهم حوالي ٦٠% منه، وللحنفية ١٦%، وللظاهرية ١٢%، وللحنبلية ٨%، وللمالكية ٤%، غير أن المحسوب للظاهرية كان جميعه للإمام أبي حيان، وهو قد اعتزى للشافعية بعد وصوله للقاهرة، وبهذا يظهر أن الشافعية ذهبوا بالحظ الأكبر من النتاج، كما أن جميع المؤلفين كانوا من أصول غير قاهرية، ويبدو أن دراسات كلٍّ من الطوفي حول العدد، وتفسير البحر المحيط لأبي حيان، وتفسير ابن اللبان الأسعردي الدمشقي باعتباره من تفاسير الصوفية التي تعكس اهتمامهم بالتفسير هي ما يمكن وصفها بالجدة والابتكار، وما سوى ذلك يترجح أنها كانت من الأعمال العادية.

ثانيا: علم الحديث النبوي

هو علم يعرف به أقوال النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأفعاله وأحواله، وينقسم إلى العلم بروايته، ويبحث عن كيفية اتصال الأحاديث به صلى الله عليه وآله وسلم من حيث أحوال رواتها ضبطا وعدالة، ومن حيث كيفية السند اتصالا وانقطاعا، وإلى العلم بدرايته ويبحث عن المعنى المفهوم من ألفاظ الحديث، وعن المراد منها مبنيا على قواعد العربية وضوابط الشريعة، ومطابقا لأحوال النبي صلى الله عليه وآله وسلم[٣].

تفوقت مصر وبلاد الشام في القرن الثامن الهجري في الدراسات الحديثية على ما سواهما من البلدان، ومن خلال تتبع طبقات الحفاظ ممن ينتمون إلى القرن الثامن الهجري يتضح أن معظمهم مصريون أو شاميون[٤].

وأول محدثي القاهرة في القرن الثامن الهجري هو الإمام ابن دقيق العيد محمد بن علي بن وهب القشيري، المنفلوطي الأصل القوصي المنشأ، القاهري المنزل (ت٧٠٢هـ/١٣٠٢م)، ضرب به المثل في غزارة علمه، درّس الحديث بدار الحديث بالكاملية، وصنّف كتاب (الإلمام بأحاديث الأحكام)[٥]، جمع فيه أحاديث الأحكام المتعلقة بالعبادات والمعاملات حتى آخر أبواب الفقه، ثم شرع في شرحه، وخرّج منه أحاديث يسيرة في مجلدين أبان فيهما عن سعة دائرته في العلوم خصوصا في الاستنباط الفقهي، وهي قطعة من أول كتاب الطهارة[٦]. وألف كتاب (الإمام (الإمام في أحاديث الأحكام)[٧] على الأبواب، ولا يذكر فيه إلا علل الحديث كثيرا وبدون استنباط أحكام منه ولا ذكر ذكر لدلالاته[٨]، ويعتقد بعض المؤرخين[٩] أن (الإمام) هذا هو (شرح الإلمام)، وليس كذلك، بل هو كتاب آخر[١٠]. وله

[١] البغدادي، هدية العارفين، مج٢ ص١٢١.
[٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٣٩٧-٣٩٨؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٤٤٦-٤٤٧ والسيوطي، حسن المحاضرة، ج١ ص٤٣٧.
[٣] القنوجي، أبجد العلوم، ج٢ ص٢١٩-٢٢٠.
[٤] ينظر من الطبقة العشرين والحادية والعشرين في تذكرة الحفاظ للذهبي، إلى أوائل الطبقة الرابعة والعشرين في ذيول التذكرة لكل من الحافظ أبي المحاسن الحسيني الدمشقي، وابن فهد المكي، وجلال الدين السيوطي.
[٥] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٩١- ٩٤، وقد طبع (الإلمام).
[٦] المصدر السابق، ج٤ ص٩١-٩٤؛ ورفع الإصر ٣٩٤- ٣٩٦.
[٧] ذكر الحافظ زين الدين العراقي أن الحافظ مسعود بن أحمد الحارثي الحنبلي هو الذي أعدم كتاب (الإمام) هذا حسدا بوضعه في فسقية المدرسة الصالحية بعد وفاة المؤلف، ولم تبق منه إلا قطعة نحو الربع مفرقة في العبادات. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٤٧- ٣٤٨؛ ورفع الإصر، ص٣٩٤- ٣٩٦.
[٨] ابن حجر، رفع الإصر، ص٣٩٤، ٣٩٥.
[٩] الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٤ ص١٣٨؛ والبغدادي، هدية العارفين، مج٢ ص١٤٠.
[١٠] ابن حجر، رفع الإصر، ص٣٩٥.

وله (إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام)[١]، وقد أملاه على أحد طلبته، حين قرأ عليه (عمدة الأحكام)، وهو شرح جمُّ الفوائد[٢].

صنّف في مصطلح الحديث (الاقتراح في بيان الاصطلاح)، وهو عبارة عن نُبَذ يستعان بها على فهم مصطلحات أهل الحديث ومراتبهم على سبيل الاختصار والإيجاز لتكون كالمدخل لمن أراد التوسع[٣]، وضمّنه ملاحظات وآراء على كتاب ابن الصلاح، ومعظم من ألف بعده أخذ هذه الملاحظات والآراء بعين الاعتبار[٤]، كما جمع أسماء من وُصِف في الأسانيد بالحفظ[٥] ويبدو أن ذلك كان ملهِما للذهبي لوضع كتابه في طبقات الحفاظ.

ثم يأتي بعده الحافظ مسعود بن أحمد الحارثي الحنبلي العراقي ثم المصري (ت٧١١هـ/١٣١١م)، وكان قوي المعرفة بالمتون والأسانيد، درّس بالصالحية وجامع ابن طولون، وكان ابن دقيق العيد ينفر منه ويتهمه بالتجسيم، وقد شرح جزءا كبيرا من سنن أبي داود، أجاد فيها، وخرّج معجم الأبرقوهي فأجاد فيه[٦].

وعاصرته المسندة موفقية بنت أحمد، الملقبة ست الأجناس (ت٧١١هـ/١٣١١م)، وكانت قد تفرّدت بسماع أجزاء حديثية، وأخذ عنها الحافظ ابن سيد الناس، والقاضي عز الدين ابن جماعة، والقاضي تقي الدين السبكي[٧]. وحدّثت بالقاهرة ست الوزراء بنت عمر التنوخية الدمشقية (ت٧١٦هـ/١٣١٦م) بمسند الشافعي، وصحيح البخاري، وهي آخر من حدّث بمسند الشافعي بسند عال[٨]، وكان قد استقدمها أرغون النائب (ت٧٣١هـ/١٣٣٠م)[٩]. (ت٧٣١هـ/١٣٣٠م)[٩]. ومن محدثي القاهرة عمر بن حسن الدمشقي ثم الحلبي (ت٧٢٦هـ/١٣٢٥م) وقد سمع الكثير بدمشق، وخرّج له الذهبي معجما عن نحو ٥٠٠ شيخ، وعمل هو لنفسه فهرسة[١٠] مروياته في مجلد[١١].

وصنّف القاضي بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله ابن جماعة (ت٧٣٣هـ/١٣٣٢م) (المنهل الروي في مختصر علوم الحديث النبوي)، اختصره من علوم الحديث لابن الصلاح، وأعاد ترتيبه وتنسيقه بنحو يرضاه، وحذف حشوه، وأضاف بعض ما خلي عنه مما يرى إثباته، ولحسن عبارته نجد السيوطي يستعير عبارته بذاتها في كتابه (تدريب الراوي)[١٢]، وهو يبين معنى الاختصار في ذلك الوقت أنه ليس فقط تجاوز الحشو وما لا فائدة فيه، بل هو إعادة ترتيب وتنسيق، وزيادة إضافات، كما خرّج لنفسه (أربعين تساعية)[١٣]، وخرّج له البرزالي (ت٧٣٨هـ/١٣٣٧م) مشيخة في مجلدة[١٤].

---

[١] (عمدة الأحكام) تأليف الحافظ عبد الغني المقدسي (ت٦٠٠هـ)، وقد طبع كتاب (إحكام الأحكام).
[٢] ابن حجر، رفع الإصر، ص٣٩٥.
[٣] ابن دقيق العيد: محمد بن علي القشيري، (ت٧٠٢هـ)، الاقتراح في بيان الاصطلاح وما أضيف إلى ذلك من الأحاديث الصحاح، ت. قحطان عبدالرحمن الدوري، ط١، عمّان، دار العلوم، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٧م، ص٢١٣-٢١٤.
[٤] ابن دقيق العيد، الاقتراح في بيان الاصطلاح، (مقدمة المحقق) ص١٠.
[٥] ابن حجر، رفع الإصر، ص٣٩٦.
[٦] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٤٧، ٣٤٨.
[٧] المصدر السابق، ج٤ ص٣٨٤.
[٨] المصدر السابق، ج٢ ص١٢٩. والسند العالي هو الذي يكون رجاله أقل من سواه.
[٩] أرغون الدوادار، نائب السلطان الناصر ابن قلاوون، سار سيرة حسنة، وكان يخلّص الناس من شدائد الناصر التي يريد إنزالها بهم، وكان له حنو ببعض مشاهير العلماء، واعتُبِر في أهل الفتوى منهم. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٣٥١- ٣٥٢.
[١٠] الفهرس في اصطلاح المحدثين هو الكتاب الذي يجمع فيه الشيوخ وأسانيد المرويات. ينظر عبد القادر، علم الأثبات ومعاجم الشيوخ والمشيخات وفن كتابة التراجم، ص١٩.
[١١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص١٥٨.
[١٢] ابن جماعة: محمد بن إبراهيم الحموي، (ت٧٣٣هـ)، المنهل الروي في مختصر علوم الحديث النبوي، ت. محيي الدين رمضان، ط٢، بيروت، دار الفكر، مقدمة المحقق ص١٧، ١٨، ١٩.
[١٣] أي أربعين حديثا عدد رجال سند كل حديث من الرواي إلى رسول الله تسعة رواة فقط.
[١٤] ابن حجر، رفع الإصر، ص٣٤٢. والبرزالي هو الحافظ علم الدين القاسم بن محمد البرزالي الدمشقي (ت٧٣٨هـ)، كتب في الوفيات كتابا، انتفع به المحدثون والمؤرخون. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٢٣٧، ٢٣٨. والمشيخة هي الكراريس التي تشتمل على ذكر الشيوخ الذين لقيهم المؤلف وأخذ عنهم أو أجازوه وإن لم يلقهم، وعادة يتم تخريجها من الإجازات والطباق والأثبات التي حصل عليها الطالب.

ويأتي بعد ذلك أحد تلامذة ابن دقيق العيد، وهو فتح الدين محمد بن محمد بن محمد، ابن سيد الناس الأندلسي اليعمري (ت٧٣٤هـ/١٣٣٣م)، بلغ شيوخه عددا كبيرا، وكان إماما في الحديث، ولو تفرّغ له كما ينبغي لشُدّت إليه الرحال، ومع ذلك فقد درّس الحديث في المدرسة الظاهرية، وشرع في شرح الترمذي في عشرة أجزاء، وأراد أن يجاري شيخه ابن دقيق العيد في شرح الإلمام، ولكنه لم يكمله[١].

وعاصره قطب الدين عبد الكريم بن عبد النور الحلبي ثم المصري (ت٧٣٥هـ/١٣٣٤م)، وقد استكثر من الشيوخ، وكتب العالي والنازل، وخرّج لنفسه التساعيات والمتباينات، والبلدانيات[٢]، وشرع في شرح مطوّل للبخاري، بيّض أوائله إلى قريب النصف[٣]

وساهم مفتي المالكية وقاضيها شرف الدين عيسى بن مسعود بن منصور المنجلاتي الحميري (ت٧٤٣هـ/١٣٤٢م) بشرحه على صحيح مسلم في اثني عشر مجلدا، وسماه (إكمال الكمال) جمع فيه بين المعلم وإكماله وشرح النووي[٤]، وزاد فيه مسائل وفوائد، وأبدى فيه سؤالات مفيدة وأجوبة عليها[٥].

وهناك الحافظ محمد بن علي بن أيبك السروجي (ت٧٤٤هـ/١٣٤٣م)، وقد لازم ابن سيد الناس وغيره من المصريين ومهر حتى بلغ الغاية في الحفظ، وكان حُفَظَة، لا يغيب عنه شيء من التراجم والأمصار والوفيات، اطّلع ابن حجر على ثبْت روايته في مجلد بخطه، وفيه من الكتب والأجزاء ما لا يحصى، وقرأ الكتب المطولة، وشرع في جمع كتابٍ للثقات، رأى ابن حجر منه مجلدا فيه أسماء الأحمدين خاصة، لو كمل لكان أكثر من ٢٠ مجلدة، كما خرّج لنفسه مئة حديث متباينة الأسانيد أجاد فيها[٦].

وشرح الأمير المملوكي سنجر بن عبد الله الجاولي (ت٧٤٥هـ/١٣٤٤م) مسند الشافعي بشرح حافل وبترتيب جيد على أبواب الفقه، وجلب فيه من نصوص الشافعي شيئا كثيرا، وأعانه عليه جماعة من الأكابر في عصره[٧]. وعاصره أبو الحسين ابن أيبك، أحمد بن أيبك الحسامي الدمياطي (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م) محدث مصر، الذي قرأ وانتقى وذيّل على ذيل الوفيات التي جمعها المنذري[٨]، وخرّج لبعض المحدثين معاجم شيوخ[٩].

ولا يمكن إغفال إمام الحديث والتاريخ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت٧٤٨هـ/ ١٣٤٨م) تعلم في الشام، ورحل إلى مصر وأخذ عن شيوخها، ثم عاد إلى بلده، ثم أسهم بتصانيف كثيرة في مجال علوم الحديث والتاريخ، حتى كان أكثر الناس فيها تصنيفا، ألف (ميزان الاعتدال في نقد الرجال)، واختصر (تهذيب الكمال) لشيخه المزي، ورغب الناس في مؤلفاته، وتداولوها قراءة ونسخا وسماعا[١٠]، وسيأتي بعضها في التاريخ.

---

[١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٢٠٨- ٢١٠؛ وبروكلمان: كارل، تاريخ الأدب العربي، تر. عبدالحليم النجار، ط٣، القاهرة، دار المعارف، ج٣ ص١٩٠.
[٢] أحاديث يرويها الراوي عن شيوخ من بلدان متفرقة.
[٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣٩٨؛ وبروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج٣ ص١٦٨.
[٤] المُعْلِم بفوائد كتاب مسلم لأبي عبد الله محمد بن علي المازري (ت٥٣٦هـ). وشرح مسلم للقاضي عياض بن موسى اليحصبي (ت٥٤٤هـ). والمنهاج شرح صحيح مسلم للحافظ الفقيه يحيى بن شرف النووي الشافعي (٦٧٦هـ).
[٥] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٢١-٢١١.
[٦] المصدر السابق، ج٢ ص٥٨- ٥٩.
[٧] المصدر السابق، ج٢ ص١٧٠، ١٧١- ١٧٢؛ وسزكين: فؤاد، تاريخ التراث العربي، تر. محمود حجازي، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود ١٤١١هـ - ١٩٩١م، مج١ ج٣ ص١٨٨.
[٨] هو الحافظ زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي، توفي سنة ٦٥٦هـ، وكتابه هو (التكملة لوفيات النقلة)، في ثلاثة مجلدات، ثم جاء تلميذه عز الدين أحمد بن محمد الحسيني الحلبي ثم المصري (ت٦٧٤هـ) فذيّل على كتابه، ثم أبو الحسين ابن أيبك هذا ذيّل بذكر الوفيات من سنة ٦٧٤هـ إلى سنة وفاته ٧٤٩هـ، ثم جاء الحافظ زين الدين العراقي (ت٨٠٥هـ) فذيّل الوفيات حتى زمنه. حاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ص٢٠١٩-٢٠٢٠.
[٩] ابن حجر: الدرر الكافية ج١ ص١٠٨، ج٣ ص٩٠؛ والبغدادي، هدية العارفين، مج١ ص١١٠.
[١٠] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٣٣٧- ٣٣٨.

وممن ساهم في هذا المجال القاضي الحنفي علي بن عثمان بن إبراهيم بن مصطفى المارديني التركماني (ت٧٥٠هـ/١٣٤٩م) وهو الفقيه المفتي والمدرس وقاضي الحنفية، اختصر علوم الحديث لابن الصلاح اختصارا حسنا، في كتابه (المنتخب في علوم الحديث) حتى قال الحافظ زين الدين العراقي: إنه أوفى بمقصوده، ولا يعلم أحدا ساواه في ذلك، وصنّف في الضعفاء والمتروكين، وخدم كتاب (الهداية)[١] بثلاثة كتب في الحديث، وهي (الكفاية في مختصر الهداية)، و(تخريج أحاديث الهداية)، و(شرح الهداية) لم يكمله[٢]. وجمع الحافظ أحمد بن أحمد الهكاري الكردي (ت٧٦٣هـ/١٣٦١م) والد المحدثة المصرية جويرية كتابا في رجال الصحيحين البخاري ومسلم، وكان أحد الحفاظ[٣].

وأسدى الحافظ عبد الله بن يوسف الزيلعي الحنفي (ت٧٦٢هـ/١٣٦٠م) خدمة جليلة للحديث النبوي في تأليفه كتاب (نصب الراية تخريج أحاديث الهداية)، وقد تعاون هو والحافظ العراقي حيث ساعد العراقي في تخريج أحاديث الإحياء، والأحاديث المشار إليها من الترمذي، وساعده العراقي في هذا التخريج وتخريج أحاديث الكشاف[٤]، ويتميز (نصب الراية) بأنه دائرة معارف عامة لأدلة الفقهاء، ويفيد المحدّث والفقيه والحنفية وغيرهم في في آن، واشتمل على نقول وبحوث كان من العسير الوصول إليها[٥].

وفي (سنة٧٦٢هـ/١٣٦٠م) توفي الحافظ مغلطاي بن قليج البكجري الحنفي، أخذ عن كثير من العلماء ولازمهم، وتولى تدريس الحديث بالظاهرية بعد وفاة شيخه ابن سيد الناس، وله مؤلفات كثيرة، منها شرح على البخاري، وشرح قطعة من (سنن أبي داود)، وشرح قطعة من (سنن ابن ماجه)، وصنف (زوائد ابن حبان على الصحيحين)، وذيّل على كتاب (الإكمال) لابن نقطة ومن بعده[٦] في المشتبه في أسماء الرجال، وله ذيل على (تهذيب الكمال) للمزي بقدر الأصل حجما[٧]، تميز هذا الذيل بكونه حفظ نصوصا عن أصول لم يُعْثَر عليها، واستدرك على المزي استدراكات جيدة، لكنه أُوْلِع بالتشغيب عليه، ووقع في أوهام ومجازفات[٨]. وساهم أبو أمامة ابن النقاش، محمد بن علي الدكالي ثم المصري (ت٧٦٣هـ/١٣٦١م) بـ(تخريج أحاديث الرافعي)[٩].

يأتي بعد ذلك الحافظ ابن رافع، تقي الدين محمد بن رافع السلامي الحوراني الأصل المصري نزيل دمشق (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م) أخذ عن شيوخ مصر والشام، وجمع معجمه في أربعة مجلدات، وهو في غاية الإتقان والضبط مشحون الفوائد، ويشتمل على ما يزيد على ألف شيخ، كما جمع ذيلا على (تاريخ بغداد) لابن النجار[١٠]. ومنهم محيي الدين عبد القادر بن محمد، ابن أبي الوفاء القرشي الحنفي (ت٧٧٥هـ/١٣٧٣م) برع في الفقه والحديث والتاريخ، وصنف في علوم الحديث (الغاية بمعرفة أحاديث الهداية)، و(مختصر في علم الحديث)،

[١] الهداية من أشهر الكتب في الفقه الحنفي لعلي بن أبي بكر الفرغاني الحنفي (ت٥٩٣هـ/١١٩٦م)، وكثرت أعمال علماء القاهرة عليها.
[٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٨٤- ٨٥؛ ورفع الإصر، ص٢٧٧- ٢٧٨.
[٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٩٨؛ وسزكين، تاريخ التراث العربي، مج١ ج١ ص٢٧٤.
[٤] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣١٠؛ والتميمي، الطبقات السنية، ج٤ ص٢٥٢ ـ ٢٥٣.
[٥] الزيلعي: عبدالله بن يوسف الحنفي، (٧٦٢هـ)، نصب الراية تخريج أحادث الهداية، ت. المجلس العلمي ومحمد عوامة، دار القبلة للثقافة الإسلامية، مؤسسة الريان، المكتبة المكية، ج١ ص٩، ١٠، ١١.
[٦] ألف ابن نقطة محمد بن عبد الغني الحنبلي (ت٦٢٩هـ) في المشتبه كتابه (الإكمال)، ثم تلاه الحافظ أبو حامد محمد بن علي الدمشقي الصابوني (ت٦٨٠هـ)، والحافظ وجيه الدين منصور بن سليم الهمداني الإسكندري (ت٦٧٣هـ)، وذيّل كل منهما على إكمال ابن نقطة، ثم جاء الحافظ مغلطاي ووضع ذيله هذا. الكتاني: محمد بن جعفر، (ت١٣٤٥هـ)، الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المصنفة، ت. محمد المنتصر الكتاني، ط٤، بيروت، دار البشائر، ١٣٠٦هـ - ١٩٨٦م، ص١١٤.
[٧] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٥٢- ٣٥٤.
[٨] البكجري: مغلطاي بن قليج، (ت٧٦٢هـ)، إكمال تهذيب الكمال في أسماء الرجال، ت. عادل بن محمد، وأسامة بن إبراهيم، ط١، القاهرة، الفاروق الحديثة، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، مج١ ص٣٣، ٣٤، ٤٠، ٤١، ٤٢.
[٩] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٧١- ٧٢.
[١٠] المصدر السابق، ج٣ ص٤٣٩- ٤٤٠. وابن النجار هو الحافظ محب الدين محمد بن محمود (ت٦٤٣هـ)، له ذيل كبير على تاريخ بغداد للخطيب، جمع فيه وأوعى. حاجي خليفة، كشف الظنون، مج١ ص٢٨٨.

و(الوسائل في تخريج أحاديث خلاصة الدلائل)، من شروح مختصر القدّوري[١]، كما جمع الوفيات من سنة مولده إلى سنة٧٦٠هـ/١٣٥٨م[٢].

ومنهم المحدث شهاب الدين أحمد بن علي العرياني (ت٧٧٨هـ/١٣٧٦م) أخذ العلم والحديث في مصر والشام، ورافق الشيخ زين الدين العراقي كثيرا، ودرّس الحديث في المنكوتمرية، وكان محمود الخصال، وصنّف (لغات مسلم) و(شرح الإلمام) لابن دقيق العيد[٣]. ومنهم المحدثة جويرية بنت أحمد الهكاري (ت٧٨٣هـ/١٣٨١م) سمعت الحديث وعمّرت، وحدّثت بسموعاتها مرارا، وأكثر الطلاب عنها الرواية[٤]، ابتغاء علو سندها. وجمع ركن الدين أحمد بن محمد بن عبد المؤمن القرمي الحنفي (ت٧٨٣هـ/١٣٨١م) شرحا على البخاري، لكنه استمدّه من شرح الشيخ سراج الدين ابن الملقن، ورأى ابن حجر بعضه[٥].

وألّف العلامة بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي (ت٧٩٤هـ/١٣٩١م) (تخريج أحاديث الرافعي) في خمسة مجلدات، و(التنقيح لألفاظ الجامع الصحيح) شرح به البخاري باختصار في اللفظ ووضوح في المعنى، وتناول غريب ألفاظه، ومسائل نحوية، وتوجيهات إعرابية، ومسائل صوتية، وصرفية، وضبط الأعلام، وتكمن أهميته في كونه حفظ نصوصا عن أعلام لم تصل كتبهم إلينا، كما له أثر بالغ في من شرح البخاري بعد، ومنهم ابن حجر في (فتح الباري)[٦]، وشرع الزركشي أيضا في شرح مطوّل للبخاري لخّصه من شرح ابن الملقن، وزاد فيه كثيرا، وألف (النكت) على مقدمة ابن الصلاح، أراد أن تكون كما ذكر في مقدمته: لمستغلق المقدمة كالفتح، ولمستبهمه كالشرح، وأضاف بعضا من الأمور التي أغفلها ابن الصلاح وهي مهمة، والتنبيه على أوهام وقع فيها، وأراد أن يعود إليها وقت المراجعة[٧]، وهو منهج يكشف نوعا من الشروح التي سادت، كما أنها حاجة شخصية أراد المؤلف منها المران لذهنه وحفظ المعلومات التي يرتضيها لنفسه خلال الكتابة والتأليف.

وإضافة إلى ما سبق أبدع بتأليف كتاب فريد في موضوعه، وهو (اللآلي المنثورة في الأحاديث المشهورة)[٨]، صدّره بمقدمة ذكر فيها أن تبيين الأحاديث المشتهرة على ألسنة العوام وكثير من الفقهاء الذين لا معرفة لهم في الحديث من الأمور المهمة، حيث لا أصل لتلك الأحاديث، أو لها أصل يخفى على بعض المحدثين فينفونها، ونفيها نفي لموضوع ديني، وموضوع الكتاب جديد، وما سبقه كان عبارة عن نُتَفٍ وإشارات عابرة، وقد بلغت خطوة الزركشي هذه درجة متقدّمة لدى السخاوي القاهري أيضا (ت٩٠٢هـ/١٤٩٦م) في كتابه (المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة)، ونقل عنه المؤلفون الذين أتوا بعده[٩]؛ وقد أخطأ العجلوني[١٠] في نسبة

---

[١] هو (المختصر في الفروع) في الفقه الحنفي، لمؤلفه أبي الحسين أحمد بن محمد القدوري البغدادي (ت٤٢٨هـ)، من مشاهير المختصرات، ويتبرك الحنفية بقراءته أيام الوباء تعظيما له، وعليه شروح كثيرة، ومنها (خلاصة الدلائل في تنقيح المسائل) لحسام الدين علي بن أحمد المكي الرازي (ت٥٩٨هـ)، وجاء ابن أبي الوفاء القرشي هذا فخرّج أحاديثه. حاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ص١٦٣١-١٦٣٤.

[٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٦٦؛ والبغدادي، هدية العارفين، مج١ ص٥٩٦- ٥٩٧.

[٣] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص١٣٥.

[٤] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٥٤٤.

[٥] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٢٤٢- ٢٤٣.

[٦] الزركشي: محمد بن بهادر بن عبدالله، (ت٧٩٤هـ)، التنقيح لألفاظ الجامع الصحيح، دراسة وتحقيق يحيى محمد الحكمي، ط١، الرياض، مكتبة الرشد، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، مقدمة المحقق ج١ ص١٩، ٢٢، ٢٣.

[٧] الزركشي: محمد بن بهادر بن عبدالله، (ت٧٩٤هـ)، النكت على مقدمة ابن الصلاح، ت. زين العابدين بن محمد بلا فريج، ط١، الرياض، مكتبة أضواء السلف، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، ج١، ص١١.

[٨] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٣٩٧- ٣٩٨؛ وإنباء الغمر (طبعة أخرى، ت. محمد عبد المعيد خان، ط٢، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ١٩٨٦م، ج٣ ص١٤٠)؛ والبغدادي، هدية العارفين، مج٢ ص١٧٤-١٧٥؛ وبروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج٣ ص١٦٨.

[٩] الزركشي: محمد بن بهادر بن عبدالله، (ت٧٩٤هـ)، اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة، ت. مصطفى عبد القادر عطا، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ص٨، ١٢، ٢٥.

[١٠] العجلوني: إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، (ت١١٦٢هـ)، كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، ط٣، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ج١ ص٧.

كتاب الزركشي هذا إلى ابن حجر العسقلاني[1].

وممن ساهم بجهد كبير في الدراسات الحديثية الثلاثة الشيوخ المشاهير لابن حجر: وأولهم سراج الدين عمر بن علي الأنصاري الأندلسي ثم المصري، المعروف بابن الملقن (ت٨٠٤هـ/١٤٠١م)، وقد صنّف كثيرا، ومهر في الفنون[2]، وشرح البخاري بشرح سماه (التوضيح لشرح الجامع الصحيح)[3]، ورغم أهميته في كونه حفظ نصوصا وفوائد لم تصل إلينا أصولها، واجتهاد مؤلفه في ترتيبه ومراجعته[4]، إلا أن تلميذه ابن حجر وشارح البخاري أيضا يذكر أنه اعتمد فيه على شرح شيخيه قطب الدين الحلبي، وشرح مغلطاي أيضا، وزاد عليهما قليلا، وهو في أوائله أفضل منه في أواخره، بل – على حد قول ابن حجر – لا جدوى من نصفه الثاني[5]، ولم يتردد في القول[6] بأنه لم يجده حافظا، رغم وصف المتقدمين له بالحفظ. وشرح أيضا زوائد مسلم على البخاري، ثم زوائد أبي داود عليهما، ثم زوائد الترمذي على الثلاثة، ثم زوائد النسائي كذلك، ثم زوائد ابن ماجه[7]، بحيث لم يكرر شرح الأحاديث المشتركة بينها جميعا، وصنف (إكمال تهذيب الكمال)[8]. لقد ألف في مجالات كثيرة، ووصفه تلميذه أنه يكتب في كل فن أتقنه أم لم يتقنه، ولهذا صنّف في علوم الحديث مختصرا سماه (المقنع)[9]، و"لم يكن فيه بالمتقن، ولا له ذوق ذوق أهل الفن" على حد قول تلميذه ابن حجر[10].

وثانيهم شيخ الإسلام سراج الدين عمر بن رسلان البلقيني (ت٨٠٥هـ/١٤٠٢م)[11]، ولم يكن ذا مهارة في التصنيف؛ حيث كانت تغلب عليه الاستطرادات، كتب على عشرين حديثا فقط من البخاري نحو مجلدين ولو كمل لصار في مئة مجلد[12]، كما شرع في شرح للترمذي في مجلد[13]، وله شرح على سنن أبي داود[14]. ومن تصانيفه (محاسن الاصطلاح) اختصر فيه مقدمة ابن الصلاح، وزاد فيه أشياء من (إصلاح ابن الصلاح) لمغلطاي، فنبّه على بعض أوهام مغلطاي، وقلّده في بعضها، ولم يكن هذا الكتاب على قدر رتبته في العلم، يقول ابن حجر[15]: "وهذا دأب من صنّف في غير الفن الذي فاق فيه".

وثالثهم من أقر ابن حجر بتفوقه في الحديث على من سواه، وهو الشيخ الحافظ زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي الكردي (ت٨٠٦هـ/١٤٠٣م). صنّف تخريجا لأحاديث (إحياء علوم الدين) للغزالي[16]، سماه (إخبار الأحياء بأخبار الإحياء) في أربعة مجلدات، ثم اختصره في مجلد ضخم، وسماه (المغني عن حمل الأسفار

---

[1] لكون ابن حجر نفسه نسب الكتاب إلى الزركشي، ولأن السخاوي لم يذكره بين مؤلفات ابن حجر في (الجواهر والدرر)، وكذلك لم يذكر أن شيخه ابن حجر قد سبقه في كتابه في هذا الموضوع (السخاوي: محمد بن عبدالرحمن، (ت٩٠٢هـ)، المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، ت. عبد الله بن محمد الصديق، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، ص٣) رغم أنه نص على الزركشي بكونه ألّف فيها؛ كل هذا يدل على خطأ العجلوني في هذه النسبة.

[2] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٢٤٥- ٢٤٧.

[3] طبع في ٣٦ مجلدا.

[4] ابن الملقن: عمر بن علي الأنصاري، (ت٨٠٤هـ)، طبقات الأولياء، ت. نور الدين شريبة، ط١، القاهرة، دار ومكتبة الخانجي، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م، ج١ ص٣٦٦- ٣٦٧.

[5] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٢ ص٣١٥.

[6] المجمع المؤسس، مج٢ ص٣١٧.

[7] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٢١٦- ٢١٨؛ والمجمع المؤسس، مج٢ ص٣١٩.

[8] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٢ ص٣٢٠.

[9] اختصره من مقدمة ابن الصلاح وزاد عليها، وقد حقق رسالة ماجستير بجامعة أم القرى، كما اختصره أيضا في رسالة صغيرة سماها (التذكرة في علوم الحديث) طبعت محققة. ينظر هامش المجمع المؤسس، مج٢ ص٣١٥.

[10] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٢ ص٣١٥.

[11] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٢٤٥- ٢٤٧.

[12] سماه (فيض الباري على صحيح البخاري). ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٢ ص٣٠١، وهامشه.

[13] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٢ ص٢٩٧.

[14] سزكين، تاريخ التراث العربي، مج١ ج١ ص٢٩٣.

[15] المجمع المؤسس، مج٢ ص٣٠١ وهامشه.

[16] من أشهر كتب الموعظة والأخلاق، ومؤلفه الشيخ محمد بن محمد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥هـ.

لمعرفة ما في الإحياء من الأخبار)[١]، وشرع في تكملة شرح الترمذي لشيخه ابن سيد الناس، وكان قد أكمله أو كاد كاد في المسودة[٢]، ونظم مقدمة ابن الصلاح في ألفية، سماها (تبصرة المبتدي وتذكرة المنتهي) وشرحها[٣]، وكتب أيضا على مقدمة ابن الصلاح نكتا سماها (التقييد والإيضاح لما أُغلق وأُطلِق من كتاب ابن الصلاح)[٤]، ولم ير ابن حجر أتقن منه في علم الحديث، وعليه تخرّج غالب أهل عصره في الحديث، وقد أحيى سنة إملاء الحديث منذ سنة ٧٩٥هـ/١٣٩٢م إلى أن مات، وأملى نحو أربع مئة و ستة عشر مجلسا[٥].

وتخرّج على العراقي صهره الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (ت٨٠٧هـ/١٤٠٤م)، وقرأ عليه أكثر تصانيفه، وكتب عنه جميع مجالس إملائه، وأنجز تخريج زوائد الكتب الستة مفردات، وهي مسند أحمد، ومسند البزار، وأبي يعلى، ومعاجم الطبراني الثلاثة، ثم جمعها في كتاب واحد سماه (مجمع الزوائد ومنبع الفوائد)، ورتّب ثقات ابن حبان (ترتيب ثقات ابن حبان)، وثقات العجلي (ترتيب ثقات العجلي) على حروف المعجم[٦]، وله أيضا (بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث)[٧]، وآخر عمَلٍ له هو (ترتيب حلية الأولياء) اقتصر فيه على الأحاديث المسندة فمات وهو مسودّة[٨].

ومن خلال هذا العرض المطوّل يتبين أن جهد القوم انصبّ على الشرح والاختصار والتذييل وإعادة الترتيب، والتوثيق للكتب الفقهية بتخريج أحاديثها، وشرح المقفلات، وتبيين الغامضات، وحملهم على هذا طبيعة هذا العلم، الذي خاضوا فيه كونه غير قابل للتطوير الذاتي، أي غير قابل لزيادة ذات الأحاديث ولكن في عوارضه، ومن مظاهر تفننهم في أشكاله وعوارضه تخريجهم للتساعيات والبلدانيات والمتباينات والعوالي وغير ذلك، وأعطى عامل الزمن أهمية كبيرة للمعمرين من المحدثين، لأنه يصيرهم ذوي سند عال، فيصير أحدهم قِبلة طلاب الرواية، وحينئذ يتفرّد ببعض المرويات بسند عال[٩]، وقد يرحلون لمسافات بعيدة ابتغاء ذلك[١٠]. وقد غالى بعضهم بإحضار أولادهم في السنة الأولى أو الثانية أو الثالثة من أعمارهم لحلقات الحديث[١١]، ويبدو أن الغرض كان تربويا ومعنويا، وهو تعويد التلميذ على مثل هذه المجالس، ومنهم من أُحْضِر في الرابعة أو الخامسة ثم حدّث بما حضره وسمعه[١٢]، وربما أصبح هذا الصغير مميّزا، وهو الشرط الذي يشترطه المحققون في شروط التحمل للحديث[١٣].

ولعل أهم أمر ميّز علم الحديث أنه عمّق الوعي التاريخي والتوثيقي للحالة العلمية؛ ولهذا اتصف الحفاظ بكونهم مؤرخين كبارا، وندر منهم من لم يكتب في التاريخ، على أن من شروط الحافظ أن يكون على وعي به، وحافظا لحملة العلم المرتبطين ارتباطا وثيقا بالتاريخ، ولهذا فإن كلا من التاريخ والحديث مدينان لبعضهما في القوة والاستمرار والتألق. ولكونه (علم الحديث) علما مرتبطا بالزمن ارتبط بالتاريخ وصار علما تراكميا يبني فيه المتأخرُ على ما قد شاده المتقدم اكتفاءا، ومن ثَمَّ ظهرت الذيول التاريخية التي تعتبر امتداد لما تقدم. ومن الناحية

[١] وهذا هو الذي بُيِّض، وكتب منه نسخ عديدة، وطبع. ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٢ ص١٨١- ١٨٢ والهامش.

[٢] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٢ ص١٨٢؛ وتنظر مخطوطاته في بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج٣ ص١٩١.

[٣] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٢ ض١٨٠، وسمى شرحه (فتح المغيث بشرح ألفية الحديث)، وهو الاسم الذي تلقفه السخاوي في كتابه الذي شرح به هذه الألفية.

[٤] المصدر السابق، مج٢ ص١٨١. وقد طبع.

[٥] المصدر السابق، مج٢ ص١٨٤- ١٨٥، ١٨٦.

[٦] المصدر السابق، مج٢ ص٢٦٤، ٢٦٥ والهامش.

[٧] حققه الطالب حسين أحمد صالح الباكري رسالة دكتوراه بالمدينة المنورة عام ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، وطبع أيضا. ينظر هامش المجمع المؤسس، مج٢ ص٢٦٥. ص٢٦٥.

[٨] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٣٠٩- ٣١٠؛ والمجمع المؤسس، مج٢ ص٢٦٤- ٢٦٥.

[٩] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص١١٧، ج٣ ص٩٢، ج٤ ص٢٢٥.

[١٠] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص١١٤.

[١١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٢٩٥.

[١٢] المصدر السابق، ج١ ص١٩٢، ١٩٤، ج٢ ص٣٢٧، ج٤ ص٢١٦- ٢١٧؛ ورفع الإصر، ص٢٧.

[١٣] ابن حجر: أحمد بن علي العسقلاني، (ت٨٥٢هـ)، نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، ت. عبد الله الرحيلي، ط١، الرياض، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م، ص١٨٩.

التوثيقية اهتم المحدثون بالأثبات ومعاجم الشيوخ ومحاضر الطباق والمشيخات وفهارس الشيوخ والمرويات والإجازات والاستجازات بصورة ملفتة[١].

ومن اللافت كثرة الشيوخ بالسماع وبالإجازة في مجال الحديث، بما يشير إلى جهود مضنية بذلها طلاب الحديث عن طريق الرحلات والمراسلات؛ ولهذا بلغ عدد شيوخ بعضهم أكثر من ألف شيخ[٢]، ومن ذلك يتضح عمليا أن علماء الحديث كانوا عالَميين إذا صح التعبير، ويحملون روح الأمة بطريقة عملية، وعكسوا ما كان عليه المجتمع من وحدة اجتماعية، ومع ذلك تجد روح المبالغة وحب الاستكثار واضحة في بلوغ عدد شيوخ بعضهم عدة آلاف، سماعا وإجازة، وكأنه مقصود لذاته، وهم في هذه الحالة لا يخرجون عن السياق التاريخي لمختلف المعارف حيث شهدت حالة من الاستكثار.

لقد تركز الاهتمام بهذا العلم في مصر وبلاد الشام والحجاز[٣]، بل إن الذهبي[٤] ينعى انغلاق باب هذا العلم وانقطاع خطابه في المشرق وأقاليمه، كما ندر الاهتمام به في ما بقي من جزيرة الأندلس، حتى إذا جاء السيوطي[٥] السيوطي[٥] في القرن العاشر فإنه يذكر أن المحدثين في القرن الثامن كانوا عالة على أربعة؛ اثنان شاميان، وهما الذهبي والمزي، واثنان قاهريان، وهما زين الدين العراقي وتلميذه ابن حجر. وممن حاول نشر علوم الحديث في المشرق بعد أن أخذ في مصر والشام علي بن مبارك شاه النساوي الشيرازي المولود عام٧٠٩هـ/١٣٠٩م ولم يعرف تاريخ وفاته[٦]، وكان قد عاد إلى بلده ونشر الحديث فيها[٧].

لقد كان الاشتغال بالحديث وقراءته ولا سيما (البخاري) هو الثقافة العامة التي تنتشر في عامة الناس، وحتى لدى الأمراء المماليك الذين أحبوا المشاركة في سماعه[٨]، وكانت طريق اكتساب هذا العلم وتبوأ كرسي التحديث فيه فيه طريقا سهلة، فبمجرد سماعه كتابا يحق له روايته حتى لو كان أميا[٩]، وقد سخِر أحد أعلام القاهرة وهو المؤرخ المؤرخ أبو الفضل جعفر بن ثعلب الأدفوي من أولئك المحدثين الذين لا هم لهم سوى رواية الأجزاء عن بعض الشيوخ وملاحقة الأسانيد العالية[١٠]، ومن ثَمَّ رأينا ابن حجر ذكر كثيرا منهم في الدرر الكامنة.

ومما يلاحظ في هذا السبيل عناية المرأة بالحديث وروايته وحرص بعض الأسر والشيوخ على إكساب بناتهم الحديث، ومنهن من حدّثن في الأمصار[١١]، ومنهن من تفرّدن بسماع أجزاء فأخذ عنهن مشاهير المحدثين[١٢]، ومع ذلك لا نجد في ما لدي من مصادر لأي منهن نتاجا علميا خلفنه من بعدهن، رغم أن الحديث هو أكبر علم شاركن فيه. كما يلفت اهتمام الحنفية بالحديث اهتماما بالغا رغم ندرة استدلال الإمام أبي حنيفة بالحديث وعدوله عن كثير

---

[١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٥٨- ٥٩، ص١١٧، ٣٧٨- ٣٧٩، ٤٣٦، ج٣ ص١٥٨، ٢٩٥، ٤٣٩- ٤٤٠، ج٤ ص١٨، ص٢٢٩، ٢٤٦- ٢٤٧؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص٢٢- ٢٣. كان للطالب منذ ذهابه لسماع الحديث ثبته الذي يثبت فيه شيوخه ومروياته فذلك هو الثبت أو المشيخة، ومنهم من يجمع أولياته وأثباته ليخرج منها هو أو غيره معجما، أو فهرسة، أومشيخة . والطباق أن يكتب أحد أهل العلم أسماء من حضر سماع كتابٍ ما في أوله أو في آخره، ويسمى أيضا بالسماعات ، وكانت أحد أدلة التوثيق المهمة للحالة العلمية، ومثلها الإجازات من الشيوخ للطلاب، وقد تتجاوز الأمصار، وبلغ المجيزون عددا كبيرا عند الطلاب المجتهدين. عبد القادر، علم الأثبات ومعاجم الشيوخ والمشيخات وفن كتابة التراجم، ص٥١.

[٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣٧٨- ٣٧٩، ٤٣٦، ج٣ ص١٥٨، ج٤ ص٢٢٩، ٣٤٢- ٣٤٣.

[٣] المصدر السابق، ج٢ ص١٧٥، ٣٤٢- ٣٤٣.

[٤] تذكرة الحفاظ، ج٤ ص١٤٨٥.

[٥] ذيل طبقات الحفاظ، ٣٥٨.

[٦] لعل غياب التاريخ في بلاد المشرق له علاقة بغياب الحديث وعلومه.

[٧] ابن حجر، الدرر الكامنة، ٣ ص٩٧.

[٨] المصدر السابق، ج١ ص١٥٨، ١٦٥، ج٤ ص١٤٨- ١٤٩.

[٩] المصدر السابق، ج٢ ص١٩٥.

[١٠] قال: إن الدروس بمصرنا في عصرنا # طُبعت على لغط وفرط عياط ، إلى أن قال: وفلانة تروي حديثا عاليا # وفلان يروي ذاك عن أسباط ومحدث قد صار غاية علمه # أجزاء يرويها عن الدمياطي. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٥٣٦.

[١١] المصدر السابق، ج٢ ص١١٨، ١٢٩، ٤٢٦، ج٣ ص٢٢٦- ٢٢٧؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٢٤٥، ج٢ ص٢٤٣.

[١٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٨٤.

منه إلى القياس، لكنهم في هذا القرن توجهوا إلى الحديث واستدلوا به على مسائل الفقه التي يقتنعون بها، وخرّجوا أحاديث كتبهم الفقهية تقوية لموقفهم، ومنهم القاضي شمس الدين أحمد بن إبراهيم السروجي الذي كان حنبليا فتحنّف، وأتقن الخلاف، وحفظ الهداية وشرحها بشرح أطال فيه، وتكلم فيه على الأحاديث وعللها[١].

ومن خلال ما سبق وينبغي أخذه بصورة تقريبية[٢] يتبين أن ٤٨% ممن خلفوا ذلك النتاج كانوا من الشافعية، و٢٨% كانوا من الحنفية، و٤% مالكية، وأقل من ١% حنابلة، وحوالي ٢٤% غير معروفي الانتماء، وتشير هذه الإحصاءات إلى تفوق الشافعية عددا ونتاجا، كما تشير إلى منافسة الحنفية لهم، وتأخر المالكية في هذا المجال، وقلة الحنابلة المفرط، كما يتبين أن فئة من المحدثين لم يكونوا معنيين كثيرا بإظهار انتماءاتهم المذهبية بقدر ما يُعْنَون بنشر الحديث وروايته. وكان حوالي ٨٢% من النتاج عبارة عن أعمالٍ بُنِيَت على هياكل سابقة[٣]؛ فـ٤٠% منها كان شروحا وتحشيات، و٢١% كان تخاريج، والبقية إعادة ترتيب، واختصار، ونظم، وغيره، وكان القليل منه مبتكرا من حيث كونه مستقلا في هيكله، ومع ذلك فقد نالت بعض هذه الكتب التي بنيت على هياكل سابقة رضا أهل ذلك العصر، ومنها نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية للزيلعي.

ثالثا: الفقه وأصوله

عُرف الفقه بأنه استنباط الأحكام الشرعية العملية عن أدلتها التفصيلية، وموضوعه فعل المكلف من حيث الوجوب والندب والحل والحرمة والإباحة[٤]. وقد تطور الفقه من بعد عصر النبوة والصحابة على يد فقهاء المسلمين عبر القرون الكثيرة، وانتهى إلى مذاهب عديدة، ثم عني أتباع كل مذهب بتحرير أدلته، والرد على منتقديه.

أما القاهرة في القرن الثامن الهجري فقد كانت محصورة على المذاهب الأربعة رسميا.

١- الفقه الشافعي

تبنّى السلطان صلاح الدين الأيوبي المذهبَ الشافعيَّ مذهبا رسميا له بعد القضاء على الفاطميين ومذهبهم في القاهرة، وقد حظي المذهب الشافعي بدعم السلاطين الأيوبيين ثم بدعم المماليك بعدهم[٥]، وكانت لقضاته في القاهرة القاهرة امتيازات خاصة، تخوِّلهم التصرف في شؤون الحياة العلمية في القاهرة، وما يعنينا عنهم هنا هو النتاج العلمي كما ذكرنا سابقا.

يفتتح القرن الثامن الهجري بالإمام الشهير الماهر في الفقه والحديث، محمد بن علي بن وهب القشيري، ابن دقيق العيد (ت٧٠٢هـ/١٣٠٢م) ولد ونشأ مع أسرته في قوص، وقد تفقه على مذهب الإمام مالكٍ ومهر فيه، ثم تمذهب للشافعي، وهاجر إلى القاهرة للتتلمذ على الشيخ عزالدين بن عبد السلام، وكان إماماً في الأصولين (أصول الدين وأصول الفقه)، وحافظاً في الحديث، وشرح في أصول الفقه (مختصر السؤل والأمل) لابن الحاجب، ولم يكمله، كما شرح كتاب (العنوان) للمطرزي[٦] في أصول الفقه، ونقل عنه الزركشي محمد بن عبدالله بن بهادر في كتابه (البحر المحيط) وغيره، كما شرح في الفقه كلاً من مختصر التبريزي[٧]، ومختصر أبي شجاع[٨]،

---

[١] ابن حجر، رفع الإصر، ص٤١- ٤٢.
[٢] لأنه تم إحصاء أبرز النتاج العلمي فقط في القاهرة وليس جميعه.
[٣] يؤخذ بعين الاعتبار أن بعض تلك الأعمال كان عبارة عن تذييل على عمل سابق، وتكون المدة الزمنية مختلفة عن مدة العمل السابق.
[٤] القنوجي، أبجد العلوم، ج٢ ص٣٩٩- ٤٠٠.
[٥] المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣ ص٣٨٩- ٣٩٠، ٤٢٦.
[٦] لم أهتد لترجمته.
[٧] مختصر التبريزي في فروع الشافعية لمظفر بن أحمد التبريزي (ت٦٢١هـ) لخصه من الوجيز.

شجاع[1]، كما شرح العمدة في الفروع[2]، وكان أيضاً قد شرح مختصر ابن الحاجب في الفقه المالكي[3] ولم يكمله[4].

تبعه تلميذه إمام الشافعية في عصره، وهو نجم الدين أحمد بن محمد بن علي الأنصاري، المعروف بابن الرفعة (ت٧١٠هـ/١٣١٠م)، أخذ عن كبار فقهاء عصره، وولي حسبة مصر، ودرّس بالمعزية والطبرسية، وناب في القضاء، ووُصِف بـ"شافعي زمانه، وإمام أوانه"، وصار إذا أطلق اسم الفقيه انصرف إليه، وقد صنف شرحاً على التنبيه، سماه (كفاية النبيه في شرح التنبيه)[5]، وشرح كتاب (الوسيط)[6] بكتابٍ سماه (المطلب العالي في شرح الوسيط للغزالي) شرحاً حافلاً مشتملاً على نقولٍ كثيرة وتخريجات واعتراضات وإلزامات تشهد بغزارة علمه وسعة مادته، وهو في أربعين مجلداً، وله (التبيان في المكيال والميزان)، كما وضع رسالةً اسمها (النفائس في هدم الكنائس)[7]، في وقت ظهر فيه اختلافٌ حول بناء الكنائس في القاهرة.

عاصر ابنَ الرفعة الفقيه شمسُ الدين محمدُ بن يوسف بن عبدالله الجزري، ابنُ الخطيب، سكن (قوص)، وأتقن الفنون بها، ثم قدم القاهرة، وقرأ عليه المسلمون واليهود والنصارى بالمعزية والشريفية، وأعاد بالصاحبية، وصنّف (شرح التحصيل)[8]، في ثلاثة مجلدات في أصول الفقه، كما أجاب عن بعض مسائل المحصول، وشرح (منهاج الوصول) للبيضاوي في مجلدةٍ لطيفة[9].

ومنهم الإمام علاء الدين علي بن محمد بن خطاب الباجي (ت٧١٤هـ/١٣١٤م) الذي فاق في الأصول، ومهر في الفنون، وعظّمه ابن دقيق العيد على جلالته، وكان يناديه دون سواه بـ(يا إمام)، وصنف في الفرائض والحساب، وكان عمدةً في الفتوى، ومن مصنفاته (اختصار المحرر في الفقه)، و(اختصار المحصول) في أصول الفقه[10]، ووضع مختصرات في علومٍ متعددة، وحُفِظت في حياته وعقب موته، ثم لم يعد أحد يهتم بها[11].

ومنهم الشيخ عز الدين عمر بن أحمد النشائي المدلجي (ت٧١٦هـ/١٣١٦م)، تفقّه وبرع في الفقه والحساب والأصول، ودرَس في عدد من مدارس القاهرة وجوامعها، صنّف شرح مشكلات (الوسيط) في مجلدين ولم يكمله[12]، وله أيضاً (المنتقى في المذهب) خمسة مجلدات "أجاد فيه"، و(جامع المختصرات، ومختصر الجوامع) وشرحه في ثلاثة مجلدات، أتى فيه "بالعلم الكثير الغزير في الألفاظ اليسيرة"، و(الإبريز في الجمع بين الحاوي والوجيز)، وكلها في الفقه[13].

[1] هو مختصر القاضي أبي شجاع أحمد بن الحسين الأصفهاني (ت٥٩٣ هـ) ، وقد طبع طبعات كثيرة، وترجم إلى بعض اللغات. سركيس: يوسف إليان، معجم المطبوعات، (بدون رقم طبعة ولا تاريخ ولا دار ولا مكان نشر)، ج١ ص٣١٨.

[2] العمدة في فروع الشافعية للإمام أبي بكر محمد بن أحمد الشاشي العراقي (ت٧٠٥هـ).

[3] للإمام أبي عمرو عثمان بن عمر الإسكندري (ت٦٤٦هـ)، استخرجه من ستين كتاباً. الزركلي، الأعلام، ج٤ ص٢١١.

[4] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٩١ـ ٩٤؛ ورفع الإصر، ص٣٩٤ـ ٣٩٦؛ والبغدادي، هدية العارفين، مج٢ ص١٤٠؛ وابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، ج٢ ص٢٣١ـ ٢٣٢.

[5] التنبيه تأليف أبي إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي (ت٤٧٦هـ)، وهو أحد الكتب الخمسة المشهورة والمتداولة في الفقه الشافعي، وأكثرها تداولا، وهو مطبوع مطبوع . سركيس، معجم المطبوعات، ج٢ ص١١٧٢ـ ١١٧٣.

[6] الوسيط للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي (ت٥٠٥هـ)، وهو أحد الكتب الخمسة المتداولة بين الشافعية. حاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ص٢٠٠٨.

[7] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٢٨٤ـ ٢٨٧؛ وابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، ج٢ ص٣١١ـ ٣١٢؛ والبغدادي: هدية العارفين مج١ ص١٠٣.

[8] (التحصيل) تأليف سراج الدين أبي الثناء محمود بن أبي بكر الأرموي (ت٤٧٦هـ)، اختصره من المحصول لفخر الدين محمد بن عمر الرازي (ت٦٠٦هـ). حاجي خليفة، كشف الظنون، مج١ ص٦٢٥.

[9] مخطوط في دار الكتب، القاهرة. ينظر ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٢٩٩ـ ٣٠٠؛ والزركلي، الأعلام، ج٧ ص١٥١.

[10] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص١٠١ـ ١٠٢؛ وابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، ج٢ ص٢٢٤ـ ٢٢٥؛ والصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢١ ص٢٩٩.

[11] ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، ج٢ ص٢٢٤ـ ٢٢٥.

[12] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص١٤٩.

[13] الزركلي، الأعلام، ج١ ص١٨٦ـ ١٨٧.

وأتى بعد ابن الرفعة، معيدُ دروسه في مدرسة ابن زين التجار بالقاهرة[١]، وهو الفقيه يونس بن عبد المجيد الأرمنتي (ت٧٢٥هـ/١٤٢٤م)، تعلم في الصعيد ثم في القاهرة، وبلغ في فقهه أنه لم يبق قبل وفاته أحد في الديار المصرية أقدمُ منه في الفتوى، ومن تصانيفه كتاب (الجمع والفرق) في الفقه الشافعي، و(المسائل المهمة في اختلاف الأئمة)[٢].

ومنهم الفقيه زين الدين أحمد بن محمد بن مكي المخزومي القمولي[٣] (ت٧٢٧هـ/١٣٢٦م)، مهر في الفقه، وكان صدر الدين ابن الوكيل (ت٧١٦هـ/١٣١٦م) يقول: ما في مصر أفقه منه، وناب في الحكم بالصعيد وبالوجه البحري ثم بالقاهرة وأحيائها، وقد صنّف شرحاً على (الوسيط)، سماه (البحر المحيط) في أربعين مجلدة، وفيه نقُولٌ عزيزة، ومباحث مفيدة، ثم جرّد نقوله في مجلدات وسماها (جواهر البحر)[٤].

وتبعهم الشيخ الصوفي القاضي علاء الدين علي بن إسماعيل القونوي (ت٧٢٩هـ/١٣٢٨م)، قدم الشام ثم مصر، وتقدم في العلم والمعرفة، وولي تدريس الشريفية، وتخرّج به جمع كثير في أنواع العلوم، وشرح الحاوي[٥]، وأخذ شرحه هذا من شرحين لمؤلفين سابقين فجعله وسطاً بينهما[٦]، ويظهر أنه إنما تخفف من إطناب أحدهما وإيجاز الآخر، كما اختصر (المعالم في أصول الفقه) لفخر الدين الرازي مع أن المعالم كان مختصراً، ويشمل خمسة أنواعٍ من العلوم، هي أصول الدين، وأصول الفقه، والفقه، وأصول معتبرة في الخلاف، وأصول آداب النظر والجدل[٧].

ونحى القاضي العلامة بدر الدين ابن جماعة الحموي المصري (ت٧٣٣هـ/١٣٣٤م) منحى حُرًّا في التأليف الفقهي، فلم يَبْنِ مشاركاته على كتب سابقةٍ شرحاً أو اختصاراً، بل ألّف رسائل في موضوعاتٍ مختلفة، وكانت له مشاركات في كثير من العلوم، ومن تأليفه (تجنيد الأجناد وجهات الجهاد)، و(تحرير الأحكام في تدبير جيش الإسلام)، و(تنقيح المناظرة في تصحيح المخابرة)، و(حجة السلوك في مهاداة الملوك)، و(كشف الغمة في أحكام أهل الذمة)، وغيرها[٨]، وهي موضوعات تعلقت بالدولة وأجهزتها، ولعل وظيفته وقربه من الدولة جعله يكتب في هذه الموضوعات الواقعية، وسيقف البحث عند بعضها لاحقا.

وتبعه العلامة الفقيه زين الدين عمر بن أبي الحرم الكتناني (ت٧٣٨هـ/١٣٣٧م)، وكان ماهراً في الفقه محققاً مدققاً، كثير النقل، مستحضراً للنظائر والأشباه، حتى قيل: "ما في زمانه مثله في الفقه"، لكنه لم يصنف شيئاً يعتد به، بل كتب على الروضة للنووي حواشيَ غالبُها تعنتٌ، وهو يتناسب وأخلاقه الاجتماعية المتمردة على وضع العلماء الرسميين؛ ولهذا جاء تأليفه ليعكس نفسيته، وكان قد ولي القضاء في بعض الجهات، ودرّس بالجامع الحاكمي، والمدرسة المنكوتمرية، وأعاد بالقراسنقرية[٩].

---

[١] هو أبو العباس أحمد بن المظفر بن الحسين الدمشقي (ت٥٩١هـ)، أحد أعيان الشافعية، درّس بها مدة طويلة، وتعرف المدرسة بالناصرية أيضا. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣ ص٤٣٨.

[٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٤٨٦ـ ٤٨٧؛ والأدفوي، الطالع السعيد، ص٧٢٩ـ ٧٣٣.

[٣] نسبةً إلى قمولا من أعمال قوص. الأدفوي، الطالع السعيد، ص١٢٧.

[٤] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٣٠٤، والأدفوي، الطالع السعيد، ص١٢٥ـ ١٢٦؛ وجواهر البحر ـ خ ـ منه مجلدات في المكتبة الأزهرية. الزركلي، الأعلام، ج١ ص٢٢٢.

[٥] (الحاوي الصغير) في الفروع للشيخ نجم الدين بن عبد الغفار القزويني (ت٦٦٥هـ)، وهو من الكتب المعتبرة لدى الشافعية، شرحه من الشافعية القاهريين في القرن الثامن الهجري عدد لا بأس به منهم. حاجي خليفة، كشف الظنون، مج١ ص٦٢٥.

[٦] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٢٤ـ ٢٨؛ وحاجي خليفة، كشف الظنون، مج١ ص٦٢٥.

[٧] ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، ج٢ ص٢٧٢؛ وحاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ص١٧٢٦.

[٨] ابن حجر، رفع الإصر، ص٣٤٢ــ ٣٤٥؛ والبغدادي، هدية العارفين، مج٢ ص١٤٨.

[٩] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص١٦١ـ ١٦٤.

وهناك الفقيه شمس الدين محمد بن أحمد بن إبراهيم ، ابن القماح (ت٧٤١هـ/١٣٤٠م)، مهر في الفقه، وأفتى وحدّث، وناب في الحكم بجامع الصالح، ودرّس في مشهد الشافعي، وأعاد بالطولوني وأقرأ به، وكان موسوعيا مشاركا في علومٍ شتى، معظّماً عند رجال الدولة، وله مجاميع كثيرة اشتملت على فوائد غزيرة، ومن مشاركاته أنه اختصر كتباً في الفقه[١].

وهناك تاج الدين أبو الحسن علي بن عبدالله التبريزي الأردبيلي (ت٧٤٦هـ/١٣٤٥م) الذي كان من خيار العلماء، وانتفع به الناس، وتقرر في تدريس الحسامية والسكن بها، وأقرأ الحاوي للقزويني في الفقه الشافعي مرات كثيرة، وصنف في الأصول ، كما وضع في الفقه حاشية على (شرح الحاوي الصغير) تأليف قطب الدين محمد بن محمود الرازي (ت٧٦٦هـ/١٣٦٤م)[٢].

ومنهم العلامة شمس الدين محمود بن عبد الرحمن الأصفهاني (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، تعلم في بلده، ومهر في الفنون، ثم قدم الشام، ثم طُلِب رسميا من الدولة على البريد إلى القاهرة سنة (٧٣٢هـ/١٣٣١م)، فبنى له قوصون خانقاه، ورتّبه بها شيخاً، وكان بارعاً في العقليات، كتب في أصول الفقه شرحاً على مختصر ابن الحاجب (منتهى السؤل والأمل)، وكتب شرحا أيضاً على (منهاج الوصول) للبيضاوي، كما شرح البديع لابن الساعاتي(ت٦٩٤هـ/١٢٩٤م)[٣] شرحاً تفسيرياً، اسمه (بيان المعاني البديع في شرح كتاب البديع)[٤].

ثم يأتي الإمام تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي (ت٧٥٦هـ/١٢٥٥م)، تفقه ببلده، ثم هاجر إلى القاهرة، ودرس على أبرز شيوخها، ومنهم ابن الرفعة في الفقه، والباجي في الأصلين[٥]، ودرّس بالمنصورية وغيرها من المدارس، وكان من أنظر أهل العلم وأجمعهم للعلوم[٦]، ومن مؤلفاته في أصول الفقه: (الإبهاج في شرح المنهاج)[٧]، أي منهاج البيضاوي، بدأ بقطعةٍ يسيرةٍ فيه، ثم أكمله ولده تاج الدين، وكذلك بدأ في شرح (مختصر ابن الحاجب) في الأصول، وأما في الفقه فقد كتب رسائل كثيرة، ولم يشأ أن يتقيد بشرحٍ أو اختصار لمن سبقه، وقد عدّ له ولدُه عناوين كثيرة لرسائل شتى في أبواب الفقه، وهو بهذا يخالف اتجاه معاصريه في البناء على هياكل سابقة، حتى أنه بدأ بوضع شرحين على المنهاج للنووي ولكنه لم يكملهما، وجمع له ولده (كتاب الفتاوى) في أربعة مجلدات[٨]، ومما يجدر بالذكر أنه كان مجتهداً في آرائه الفقهية ويخالف حتى الإمام الشافعي نفسه في بعض المسائل[٩]، ولعله بذلك كسر الناموس الذي ألِفَه كثير من العلماء آنذاك في التقليد لأحد الأئمة الأربعة.

ثم يأتي الفقيه الأصولي عماد الدين محمد بن الحسن الأسنائي (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م)، وكان فقيهاً نظّاراً محققاً في الأصلين، شرع في شرح (منهاج الوصول) للبيضاوي، وقيل إنه الشرح نفسه الذي أكمله لاحقا أخوه الشيخ جمال الدين عبد الرحيم بن الحسن (ت٧٢٢هـ/١٣٢٢م)[١٠].

بعد ذلك يأتي الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الآمدي الحلبي الطالبي العقيلي[١١] (ت٧٦٩هـ/١٣٦٧م)، تفقّه على أعلام فقه القاهرة، ولازم أبا حيانٍ، وناب في الحكم وولي قضاء الشافعية، ومن مصنفاته في الفقه (الجامع النفيس

[١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٣٠٣- ٣٠٤؛ وابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، ج٣ ص٥١- ٥٢.
[٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٧٢- ٧٣؛ وحاجي خليفة، كشف الظنون، مج١ ص٦٢٦.
[٣] واسمه (بديع النظام والجامع بين كتابي البزدوي والأحكام) لأحمد بن علي الساعاتي البغدادي الحنفي.
[٤] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٢٧- ٣٢٨؛ وحاجي خليفة، كشف الظنون، مج١ ص٢٣٥- ٢٣٦؛ والبغدادي، هدية العارفين، مج١ ص٤٠٩.
[٥] أصول الفقه وأصول الدين.
[٦] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٦٣- ٦٥.
[٧] طبع ط١، ١٩٨٤م، دار الكتب العلمية – بيروت.
[٨] السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج١٠ ص٣٠٧- ٣١٥.
[٩] المصدر السابق، ج١٠ ص٢٢٦- ٢٣٤.
[١٠] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٤٢١- ٤٢٢.
[١١] من ذرية عقيل بن أبي طالب.

على مذهب الإمام محمد بن إدريس)، أطال فيه، ثم لخصه في كتاب سماه (تيسير الاستعداد لرتبة الاجتهاد)[1]، والعنوان وإن كان يشير إلى إمكانية الاجتهاد وأنه ييسر عملية الاستعداد له؛ فإن كونه ملخصا عن كتاب فقهي شافعي يصرفنا عن افتراض ذلك[2]، كما له كتاب مطول في مسألة رفع اليدين، وكتب أيضاً رسالة تحت عنوان (الأوهام الواقعة للنووي وابن الرفعة وغيرهما)، وجعله مبسوطاً في مجلدات[3]. وهذا المبحث الأخير يعكس العقلية العقلية الفقهية التي لم تخضع للتسليم لكبار العلماء، بل كلٌّ منهم مهما عظم شأنه يخضع للنقاش والنقد.

وأكمل القاضي الشهير تاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي (ت٧٧١هـ/١٣٦٩م) مسيرة والده العلمية، وكان قد تتلمذ عليه، وقرأ في السنين الأولى بالقاهرة، ثم أخذ عن شيوخ العلم في الشام، ومنهم الذهبي وابن رافع وغيرهما، ودرّس بمدارس مصر والشام، وصنف في أصول الفقه مصنفاتٍ فائقة، فشرح الكتب المشهورة، وهي مختصر ابن الحاجب[4]، وسماه (رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب)[5]، وهو شرح في غاية الإجادة والاستقصاء، كان يذكر فيه نص ابن الحاجب ضمن شرحه مُدْمِجاً إياه فيه، بحيث يظن القارئ أنه كتاب مستقل[6]، واعتز به مؤلفه بأنه لا يُبْقِي لمتعنت مسألة استيعابا، وأنه حصيلة إعمال نظره وفكره في الليالي، وأنه ضمّنه فيه آراءه واختياراته[7].

ثم جمع كتابه الشهير (جمع الجوامع) من زهاء مئة مصنف اشتمل على زبدة ما في شرحيه على (منهاج البيضاوي) و(مختصر ابن الحاجب)، ويعتبر هذا الكتاب استثنائيا بين كتب أهل العلم، ومخالفا للسائد في عصره، من الشروح والاختصارات، فهو كتابٌ برأسه، مزج فيه بين الأصلين، أصول الفقه وأصول الدين، وتخفف قليلا من الجدل والمنطق فيه، ومع ذلك فقد فتح به لمن بعده بابا جديدا لعشرات الشروح والذيول والحواشي والاستشكالات، واتُّخذ كتاباً دراسياً في المعاهد الإسلامية كالأزهر[8]، ولما أرسل العلامة محمد بن محمد الأسدي الغزي مناقشاته على المتن وأرسل بها إليه تحت عنوان (البروق اللوامع فيما أورد على جمع الجوامع) أثنى عليه السبكي، وأجابه عنها في مؤلفه (منع الموانع في جمع الجوامع)[9]. كما وضع القواعد الفقهية المشتملة على الأشباه الأشباه والنظائر[10]، الذي ألهم فيما بعد العلامة الحنفي ابن نجيم (ت٩٧٠هـ/١٥٦٢م) أن يضع مثله قواعد للحنفية على سنن كتاب السبكي هذا الذي وضعه للشافعية، تقيد الضوابط والاستثناءات في أبواب الفقه[11].

ومنهم الفقيه المؤرخ جمال الدين عبد الرحيم بن الحسن الأسنائي نزيل القاهرة (ت٧٧٢هـ/١٣٧٠م) الذي وصفه الحافظ العراقي (٨٠٦هـ/١٣٠٣م) بأنه "أوحد زمانه، وشيخ الشافعية في أوانه"، صنف التصانيف النافعة، ودرّس بعدد من مدارس القاهرة، وتخرج عليه طلبتها، وكتب في أصول الفقه شرحاً على المنهاج للبيضاوي[12]، سماه (نهاية السول في شرح منهاج الأصول)، ونبّه في شرحه هذا على أشياء، منها الإجابة عما أُورِد عليه من

---

[1] مخطوط في دار الكتب المصرية، وفي معهد المخطوطات. الزركلي، الأعلام، ج٤ ص٩٦.

[2] وقد ألف العلامة اليمني الشهير محمد بن علي الموزعي الشافعي (ت٨٢٥هـ) كتابا في أصول الفقه بنفس هذا العنوان، ولا نعلم إن كان أخذه من هذا العنوان أم لا. الحبشي: عبد الله محمد، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن، أبو ظبي، المجمع الثقافي، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م، ص١٨١.

[3] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٢٦٧ـ ٢٦٨؛ ورفع الإصر، ص١٩٠؛ والجزري، غاية النهاية، ج١ ص٣٨٣؛ وحاجي خليفة، كشف الظنون، مج١ ص٢٠٣.

[4] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٤٢٥ـ ٤٢٨؛ وابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، ج٣ ص١٠٦.

[5] وكثرت الشروح على هذا المختصر بصورة ملفتة وقد عد بعض الباحثين ٤٥ شارحا، ينظر السبكي: عبد الوهاب بن علي، (ت٧٧١هـ)، رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب، ت. علي معوض، وعادل عبد الواحد، ط ١، بيروت، عالم الكتب، ١٩٩٩م، مقدمة المحقق، ج١ ص١٩١- ٢٢٤.

[6] ينظر السبكي، رفع الحاجب (مباحث الكتاب)؛ وينظر النهار، العصر المفترى عليه، ص٣٠٦.

[7] رفع الحاجب، ج١ ص٢٣٠.

[8] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٤٢٦؛ والسبكي: عبدالوهاب بن علي، (ت٧٧١هـ)، جمع الجوامع، ت. عبدالمنعم خليل إبراهيم، ط٢، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، ص١١.

[9] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٤٢٦؛ وحاجي خليفة، كشف الظنون، مج١ ص٥٩٥ـ ٥٩٦.

[10] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٤٢٦.

[11] ابن نجيم: زين العابدين بن إبراهيم بن نجيم، الأشباه والنظائر على مذهب أبي حنيفة النعمان، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، ص١٥.

[12] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣٥٤ـ ٣٥٥؛ وحاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ص١٨٧٩.

الإشكالات ولا جواب عنها، والتنبيه على ما وقع فيه من الغلط في النقل، والثالث تبيين مذهب الشافعي بخصوصه، والرابع ذكر فائدة القاعدة من فروع مذهب الشافعي، والخامس التنبيه على المواضع التي خالف فيها المصنف كلام بعض مشاهير المصنفين في هذا الفن[١]، وبه يتبين أن مفهوم الشروح كان أوسع مفهوما من ظاهر العبارة التي تعني التوضيح والتبيين، ومع ذلك فإنه قد بقي لمن أتى بعد الأسنوي من يدّعي أن في كتابه إشكالات تحتاج إلى الجواب عنها[٢].

وله كتاب (التمهيد في تخريج الفروع على الأصول)، وأهميته في كون مؤلفه عالما محيطا بالأصول، وكون الكتاب اشتمل على تطبيق أغلب القواعد الأصولية، والتي ربطت التنظيرات الأصولية بالتفريعات الفقهية، وساعدت طلاب الاجتهاد على المران والممارسة، ومع ذلك يؤخذ عليه أنه جعل ٨٠% من الأمثلة فيه تدور حول الطلاق فقط، ويؤخذ عليه خروجه عن المقصود باستطرادات كان ينبغي له الانصراف عنها[٣]، ويشبهه أيضاً كتابه كتابه الآخر (الكوكب الدري في تخريج مسائل الفقه على النحو)[٤]، وهما كتابان لا علاقة لهما بكتاب سابق ليشرحاه ليشرحاه أو يختصراه كما كان سائدا.

ومن تصانيفه في الفقه (المهمات) وضعه شرحا على (روضة الطالبين) للشيخ النووي (ت٦٧٦هـ/١٣٧٤م)، كما شرح كتاب النووي الآخر وهو (منهاج الطالبين) بكتاب سماه (كافي المحتاج في شرح المنهاج) وهو في ثلاثة مجلدات، وهو أنفع شروح المنهاج على كثرتها[٥]، وله أيضاً على (تصحيح التنبيه) للنووي كتاب سماه (التنقيح فيما فيما يرد على التصحيح)، وكذلك صنف (الهداية إلى أوهام الكفاية)، والكفاية لأبي حامد محمد بن إبراهيم السهيلي (ت٦٢٣هـ/١٢٢٦م)، في الفقه الشافعي أيضاً، وهما يدلان على نزعة التحرر التي ظهرت في بعض فقهاء القاهرة، وأن اجتهادات الأئمة السابقين لم تكن محل قبول دائما، فهناك من الأوهام ما يجب تبيينه، وهناك مؤلفات أخرى أيضاً تدل على تبحره الفقهي[٦]. ولأخيه الفقيه نور الدين علي بن الحسن الأسنوي (ت٧٧٥هـ/١٣٧٣م) (شرح التعجيز في مختصر الوجيز)[٧]، وكان فقيهاً فاضلاً[٨].

ويأتي بعد ذلك الفقيه محمد بن شرف بن عادي، شمس الدين الكلائي (ت٧٧٧هـ/١٣٧٥م)، مهر في الفرائض والحساب، وتدريس العربية، ودرّس في المدرسة القطبية، صنف في الفرائض التصانيف الواسعة، ومنها (القواعد الكبرى) في الفرائض على المذاهب الأربعة ـ خ ـ، وله (المجموع) في الفرائض أيضاً[٩].

ومنهم القاضي بهاء الدين محمد بن عبد البر السبكي، أبو البقاء (ت٧٧٧هـ/١٣٧٥م)، الذي أخذ عن علماء القاهرة وغيرهم، ومهر في العربية والفقه وأصوله والتفسير والكلام، وكان موسوعياً يعرف علوماً كثيرة، وكان

---

[١] الأسنوي: عبد الرحيم بن الحسن، (ت٧٧٣هـ)، نهاية السول في شرح منهاج الأصول، القاهرة، جمعية نشر الكتب العربية، ١٣٤٣هـ، ج١ ص٣- ٤.

[٢] طبع بهامش كتابه نهاية السول كتاب (سلم الوصول لشرح نهاية الوصول) للشيخ محمد بخيت المطيعي مفتي مصر، وذكر في مقدمته (ج١ ص٣) أن هناك في (نهاية السول) ما يحتاج إلى شرح وإجابة.

[٣] الأسنوي: عبد الرحيم بن الحسن، (ت٧٧٣هـ)، التمهيد في تخريج الفروع على الأصول، ت. محمد حسن هيتو، ط٢، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ-١٩٨١م، ص٣٤، ٣٥، ٣٦، ٤٦، ٤٧.

[٤] الأسنوي، التمهيد، ص٤٧؛ وحاجي خليفة، كشف الظنون، مج١ ص٤٨٤ـ ٤٨٥، مج ٢ ص١٥٢٣.

[٥] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣٥٤- ٣٥٥؛ وينظر ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، مج٣ ص٩٨ـ ١٠١.

[٦] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣٥٤- ٣٥٥؛ وابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، مج٣ ص٩٨- ١٠١؛ وحاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ص١١٠٩، ١٤٩٨.

[٧] التعجيز للشيخ تاج الدين عبد الرحمن بن محمد بن يونس الموصلي (ت٦٧١هـ).

[٨] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٦٧.

[٩] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٤٥٢- ٤٥٣؛ وإنباء الغمر، ج١ ص١٢٠- ١٢١؛ والزركلي، الأعلام، ج٦ ص١٥٧.

حسن التدريس للفقه، ومع ذلك لم يظهر له من التصانيف شيء مع أنه كتب على (الروضة) للنووي، و(مختصر ابن الحاجب) في الأصول، وعلى (المطلب) لابن الرفعة[١]، ولعله لم يظهر له تأليف لانشغاله بالتدريس والقضاء.

وكتب أيضاً الفقيه محمد بن علي بن يوسف الأسنوي الأطروش (ت٧٨٤هـ/١٣٨٢م)، شرحاً حسناً على (التعجيز)، وكان يحفظه، وكان قد ناب في الحكم طويلاً بالقاهرة، وهو الذي استدعَى بأمر قضائي الأميرَ يلبغا مدبرَ أمر المملكة للمثول أمام القضاء[٢].

ومن المؤلفين الذين اشتهروا في آخر القرن الثامن الشيخ محمد بن بهادر الزركشي (ت٧٩٤هـ/١٣٩١م) درس الفقه على يد جمال الدين الأسنوي، وسراج الدين البلقيني، صنف في أصول الفقه (تشنيف المسامع بشرح جمع الجوامع) للسبكي[٣]، وتميز فيه بأنه كان يحرّر محل النزاع في المسألة، ويورد الفقرة ويشرحها بعبارات سهلة، مصورا للمسائل بالأمثلة، ومستدلا لها ومعللا، يعزو الأقوال إلى أصحابها في الغالب، ويعقّب على الأقوال برأيه[٤]، برأيه[٤]، وألف أيضاً (البحر المحيط) في أصول الفقه[٥]، وهو كاسمه لفظاً ومعنى، وأراد المؤلف أن يجمع فيه أقوال أقوال علماء الأصول ممن سبقوه أو عاصروه في مدونة واحدة، واختار الأقوال فيه عن تمحيص وتدقيق وعودة إلى المصادر الأصلية لها، عازيا إياها إلى أصحابها[٦]، ويبدو أنه كان عندهم الاستعداد لعرض العلم بأي صورة فجرى في هذه الموسوعة الأصولية على النفَس الطويل الذي رأيناه في علوم شتى لدى آخرين، وفي الوقت نفسه ألف مختصرا للمتعجلين أيضاً هو (لقطة العجلان) في أصول الفقه والحكمة والمنطق[٧].

وفي الفقه أكمل شرح (منهاج الطالبين) الذي كان قد ابتدأه شيخه جمال الدين الأسنائي، واختصره في مجلدين، وفيه فوائد وأبحاث حسنة[٨]، وجمع (خادم الرافعي والروضة)، شرح فيه مشكلات (روضة المتقين)، و(فتح العزيز) للرافعي، وهو شرحه على (الوجيز)، وشحنه بالفوائد[٩]، وله مختصر عليه سماه (تحرير الخادم)، أو (لب الخادم)، وله (الفتاوى الزركشية)، و(حواشي الروضة)، و(أحكام المساجد)، و(الديباج على المنهاج)[١٠]، ولعله اختصار الشرح المذكور سابقا. ومن مؤلفاته كتابه (خبايا الزوايا) حيث أن هناك كثيرا من المسائل الفقهية ذكرت في غير أبوابها فتتبعها من (الوجيز) للرافعي و(روضة المتقين) للنووي وأرجعها إلى أبوابها[١١]، وهو اتجاه فريد لم يعلم أن أحدا سبقه إليه.

---

[١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٤٩٠ـ ٤٩١؛ وإنباء الغمر، ج١ ص١٢١ـ ١٢٣.
[٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٩٨ـ ٩٩.
[٣] وهم الباحث النهار في كتابه (العصر المفترى عليه) ص٣٠٧ حين عد هذا المصنف في الفقه، رغم أنه قد ذكر في ص٣٠٦ (جمع الجوامع) في كتب السبكي الأصولية.
[٤] الزركشي، تشنيف المسامع، ج١ ص٤٣، ٤٤، ٤٥.
[٥] ابن حجر: الدرر ج٣ ص٣٩٨؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٧٩٤.
[٦] الزركشي: محمد بن بهادر بن عبدالله، (٧٩٤هـ)، البحر المحيط في أصول الفقه، ت. عبد القادر العاني، ط٢، الكويت، دار الصفوة، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م، ج١ ص٢٠، ٢١، ٢٢.
[٧] ذكر في مقدمتها أنه جمعها تلبية لأحد الإخوان، تعين عند المناظرة في علوم المعقول في زمن قصير، ينظر الزركشي: محمد بن بهادر بن عبدالله، (٧٩٤هـ)، (٧٩٤هـ)، لقطة العجلان، شرح محمد جمال الدين القاسمي، ط١، القاهرة، مطبعة مدرسة والدة عباس الأول، ١٣٢٦هـ ـ ١٩٠٨م، ص٤.
[٨] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٣٩٧ـ ٣٩٨؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٤٤٦؛ وابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، ج٣ ص١٦٨.
[٩] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٣٩٧؛ وحاجي خليفة، كشف الظنون، مج١ ص٦٩٨.
[١٠] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٤٤٦؛ ولوجود نقص ظاهر في الطبعة المعتمدة من إنباء الغمر ينظر النسخة الأخرى (تحقيق محمد خان) ج٣ ص١٣٩ـ ١٤٠.
[١١] الزركشي: محمد بن بهادر بن عبدالله، (٧٩٤هـ)، خبايا الزوايا، ت. أيمن صالح شعبان، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ ـ ١٩٢٦م، ص١٩، ٢٠.

ثم عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن لاجين الرشيدي ثم المصري (ت٨٠٣هـ/١٤٠٠م)، وكان بارعاً في الفرائض والحساب والميقات، وله مجاميع حسنة، وشرح القصيدة الياسمينية في الفرائض لأبي محمد عبد الله بن الحجاج الأدريني الياسميني (ت٦٠٠هـ/١٢٠٣م)[١].

ومنهم الشيخ عمر بن علي ابن الملقن الأنصاري الأندلسي ثم المصري (ت٨٠٤هـ/١٤٠١م)، كثرت مصنفاته في مختلف العلوم، وشرح كثيراً من كتب الفقه المشهورة، فوضع على المنهاج للنووي عدة شروح، أكبرها في ثماني مجلدات، وأصغرها في مجلد، وتنوعت موضوعاتها بين شرح واستدراك وترجمة لأسماء وأماكن، واعتراض واستدلال وغير ذلك[٢]، ووضع على كلٍّ من (التنبيه) و(الحاوي) عدة شروح أيضاً، كما خرج أحاديث الكتب الفقهية التي كانت محط اهتمام الطلاب[٣].

وانتهت رئاسة الفقه في الربع الأخير من القرن الثامن وبداية القرن التاسع الهجريين إلى شيخ الإسلام سراج الدين عمر بن رسلان البلقيني (ت٨٠٥هـ/١٤٠٢م)، وكان لا يجتمع به أحد من العلماء إلا ويعترف بفضله، حتى أن الأسنوي كان يتوقى الإفتاء في أيامه مهابةً له، وكان يكتب على الفتاوى ارتجالاً، ومع قلة مهارته في التصنيف، فقد أعاد (ترتيب كتاب الأم) للشافعي[٤]، ولم يبذل فيه جهداً يذكر على قدر علمه، ومن مؤلفاته (الفوائد المحضة على الرافعي والروضة)، و(تصحيح المنهاج) لم يكمله، واختصر (اللباب) للمحاملي أبي الحسن أحمد بن محمد (ت٤١٥هـ/١٠٢٤م)، لكنه زاد عليه بتصحيح مسائل، واستدراك ضوابط، ولم يكمله[٥]، وهو أمر يشير إلى حقيقة أنه لم يكن مصطلح الاختصار دقيقاً في ذلك الوقت، و له رسائل عديدة في أبواب مختلفة في الفقه[٦].

وعاصره الإمام الحافظ عبد الرحيم بن الحسن العراقي، زين الدين الكردي (ت٨٠٦هـ/١٤٠٣م)، الذي مهر في الحديث، وكان أبرز معاصريه فيه، كما كان فقيهاً، وصنف فيه رسائل منها في منع جمعتين في مكان واحد، وفي تاريخ تحريم الربا، وتكملة لـ(شرح المهذب) للنووي بناه على كتاب شيخه تقي الدين السبكي، واستدرك على المهمات للأسنوي بكتاب سماه (تتمات المهمات)، وفي أصول الفقه نظم (منهاج الوصول) للبيضاوي[٧].

وهناك العلامة كمال الدين محمد بن موسى الدميري ثم المصري (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، صاحب كتاب (حياة الحيوان الكبرى)، لازم الشيخ أبا البقاء السبكي، ومهر في الفقه والأدب والحديث، وصنف في الفقه (شرح المنهاج) للنووي وسماه (المنهج الوهاج)[٨]، في أربعة مجلدات لخصه من كلام السبكي، والأسنوي وغيرهما، وطرّزه بفوائد كثيرة من لديه، وهي التتمات والخاتمات والنكت البديعة التي وضعها عليه، كما نظم في الفقه أرجوزة طويلة فيها فروع غريبة وفوائد حسنة[٩].

وأخيرا كان هناك عالم الرياضيات أحمد بن محمد بن عماد القرافي المصري المقدسي المعروف بابن الهائم (ت٨١٥هـ/١٤١٢م)، والذي ولد في القاهرة[١٠]، ونشأ بها وبرع في الفقه والعربية، وارتحل إلى بيت المقدس،

---

١ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص١٧٨؛ وسركيس، معجم المطبوعات، ج٢ ص١٩٤٠.
٢ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٢١٦- ٢١٨؛ والمجمع المؤسس، مج٢ ص٣١٣ وهامشه.
٣ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٢١٦- ٢١٨؛ والمجمع المؤسس، مج٢ ص٣١٣- ٣١٤.
٤ طبع (كتاب الأم) على ذلك الترتيب. ينظر هامش المجمع المؤسس، مج٢ ص٣٠٠.
٥ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٢٤٥- ٢٤٧؛ والمجمع المؤسس، مج٢ ص٣٠٠- ٣٠٤.
٦ ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٢ ص٣٠٢ وهامشه.
٧ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٢٧٥- ٢٧٧؛ والسخاوي، الضوء اللامع، ج٤ ص١٧٣- ١٧٤.
٨ مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٤٦، ٥٠٥، ١٠٥٧، ١٤٧٥. ينظر فهرس الكتب العربية الموجودة بالدار لغاية ١٩٢١، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٣٤٢هـ - ١٩٢٤م، ص٥٤٤.
٩ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٣٤٨؛ والمجمع المؤسس، مج٣ ص٣٤٠- ٣٤١؛ والسخاوي، الضوء اللامع، ج١٠ ص٦٠.
١٠ جزم ابن حجر في إنباء الغمر أنه ولد سنة ٧٥٣هـ، ولكنه تردد في المعجم المؤسس، وجزم الفاسي وابن موسى وغيرهما بأنه ولد في سنة ٧٦٥هـ. السخاوي، الضوء اللامع، ج٢ ص١٥٧.

وانقطع للتدريس بها، ورحل للدراسة لديه الناسُ من الآفاق المختلفة، وانتهت إليه رئاسة الحساب والفرائض، وجمع فيها مؤلفات كثيرة كانت معوّل من جاء بعده[1]، وألف في الفرائض كتبا منها: (ترغيب الرائض في علم الفرائض)، و(الجمل الوجيزة)، والألفية المسماة بـ(الكفاية)، والأرجوزة الصغرى المسماة (النفحة المقدسية في اختصار الرحبية)، و(الفصول المهمة في علم مواريث الأمة)[2].

وبالنظر إلى ما سبق من النتاج العلمي، وبأخذ عين الاعتبار أنها إحصاءات تقريبية إذ نجزم بوجود نتاج كثير للشافعية لم نستطرد له، وكثير منه رسائل في مسائل خاصة، إلا أنه يمكن الخروج ببعض المؤشرات التي تبين أن علماء القاهرة من الشافعية الذين تركوا نتاجا علميا في الفقه الشافعي كان منهم حوالي ١١% فقط من أصلٍ قاهري، بينما كان حوالي ٥٠% من أصول مصرية متفرقة من أنحاء مصر الأخرى شمالا وجنوبا، وحوالي ١١% من أصل شامي، وحوالي ١١% أيضا من أصول شرقية، و٧% من أصل عراقي، و٧% من أصل مغربي، وهذا يشير إلى التعدد المكاني للشافعية، كما يبين استئثار مصر من غير القاهرة بهذه الخلفية.

وأما النتاج فبصورة تقريبية وبحسب ما تقدم يتبين أن ٢٢% منه كان في أصول الفقه، قلة قليلة منه كانت مبتكرة وغير معتمِدة على هياكل سابقة، وأهم ذلك المبتكر هو كتاب (جمع الجوامع) للسبكي، وكتاب البحر المحيط للزركشي الذي يعتبر موسوعة متكاملة في أصول الفقه، ويعبِّر عن ذلك العصر أيما تعبير، وكان حوالي ٦٥% منه عبارة عن شروح، و١٧% اختصارات، وكان حوالي ٢٦% من الشروح شروحا على كتاب (منهاج الوصول) للبيضاوي، و١٧% شروحا على (مختصر ابن الحاجب الأصولي).

وأما الفقه فكان بنسبة ٧٨% من مجمل النتاج تقريبا، نصفها أي ٥٠% عبارة عن شروح، وحوالي ١٥% اختصارات، وكان على (منهاج الطالبين) منها حوالي ٢٣%، وحظ كتابه الآخر (روضة المتقين) حوالي ١٥%، وعلى كتاب (الحاوي الصغير) حوالي ١٣%، وبذلك يظهر رجحان كفة النووي وكتبه الفقهية لدى الشافعية على الكتب السابقة التقليدية، كما يلاحظ ندرة كتب الفقه المقارن وهو يشير إلى تمسك الفقهاء الشافعية بمذهبهم تمسكا شديدا لا يخضع للمقارنة؛ لما كان عليه من امتيازات وقبول، وظهر الإبداع في تلك الكتب التطبيقية مثل كتابي الأسنوي (التمهيد) و(الكوكب الدري)، ويلفت النظر ما وضعه بعضهم من شرح على المختصرات، وكأن الفقيه المدلجي قد أراد أن لا يفوته الشرح والاختصار في آن واحد حين كتب كتاب (جامع المختصرات ومختصر الجوامع). والأهم أنه ظهر النقد الفقهي بين الفقهاء الشافعية ذاته، بل ونجد عند بعضهم كالسبكي اجتهادات خالف بها ما كان عليه الشافعي نفسه.

٢- الفقه الحنفي

وجد المذهب الحنفي في مصر بعد المالكي والشافعي، وكان هو المذهب الرسمي فيها قبيل مجيء الفاطميين، وتبنى الأيوبيون المذهب الشافعي، لكن المماليك أتاحوا للقضاة أن يحكموا على المذاهب الأربعة[3]، وكان كثير من الأمراء والجنود في الأصل حنفية.

يبتدئ الفقه الحنفي في القرن الثامن في القاهرة بالفقيه علم الدين علي بن محمد الخلاطي القادوسي الركابي (ت٧٠٨هـ/١٣٠٨م) أول إمام بالمدرسة الظاهرية، ناب عن القاضي معز الدولة النعمان بن الحسن الحطيني (من

---

[1] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج١ ص٧٢- ٧٣؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص٥٢٥.
[2] السخاوي، الضوء اللامع، ج٢ ص١٥٧.
[3] أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، ص٣٦٥.

القرن ٧هـ)، بالحسينية، وضع على (الهداية) شرحاً[١]، غير أنه لم يكن ذا طائل[٢].

وعاصره القاضي شمس الدين أحمد بن إبراهيم العباسي السروجي (ت٧١٠هـ/١٣١٠م) برع في المذهب وصار من أعيان الفقهاء، وولي قضاء الحنفية من٦٩١هـ حتى سنة وفاته، وشرح (الهداية) بـ(الغاية) انتهى إلى كتاب الأيمان في ستة مجلدات ضخمة، أطاله وتكلم فيه عن الأحاديث وعللها، وله (الفتاوى السروجية)، و(مناسك الحج)، وغيرها[٣].

ومنهم الفقيه المتأدب الألسني فخر الدين محمد بن مصطفى الدوركي التركي (ت٧٢٨هـ/١٣٢٧م)، اشتغل بالعلم وأدّب الملك الناصر محمد بن قلاوون، ودرّس في الحسامية، ونظم في عدة فنون، منها أنه نظم (مختصر القدوري) في فقه الحنفية نظماً سهلاً جامعاً فصيحاً[٤]، وهو بهذا يشير إلى اتجاه تأليفي خاص، وهو عَقْدُ المسائل الفقهية في نظم شِعْرٍ بغرض الحفظ كما يبدو.

ويأتي بعده القاضي شمس الدين محمد بن عثمان الحريري (ت٧٢٨هـ/١٣٢٧م)، مهر في الفقه والنحو، وولي قضاء الشام، ثم قضاء ديار مصر سنة٧١٠هـ/١٣١١م، وكان حميد الأحكام، قوي الشخصية، له شرح على كتاب (الهداية)، كما ألف رسالة لطيفة في منع استبدال أموال الأوقاف[٥]، وهي رسالة ألفها تأييدا لموقفه المناهض لإرادة السلطان الناصر ابن قلاوون في استبدال أموال الأوقاف لأحد أمرائه كما تقدم.

ويلقانا بعد ذلك العلامة الفقيه عثمان بن إبراهيم بن مصطفى الماريديني التركماني (ت٧٣١هـ/١٣٣١م)، الذي برع في مذهب الحنفية حتى شرح (الجامع الكبير) لمحمد بن الحسن الشيباني (ت١٨٧هـ/٨٠٢م) في عدة مجلدات، وأقرأه دروساً بالمنصورية[٦]، وله حاشية على (الوجيز للجامع الكبير) تأليف سليمان بن وهب (ت٦٧٧هـ/١٢٧٨م)[٧].

وفي زمنه كان هناك الأمير الفقيه النحوي علي بن بلبان الفارسي ثم المصري (ت٧٣٩هـ/١٣٣٨م)، تفقه على السروجي وفخر الدين ابن التركماني الماريديني، وصحب أرغون النائب، وعظمت منزلته أيام الجاشنكير، وصنف (تحفة الحريص في شرح التلخيص)، شرح به (تلخيص الجامع الكبير) لمحمد بن عباد الخلاطي (ت٦٥٢هـ/١٣٥٤م) شرحاً مطولاً أبدع فيه وأجاد[٨].

وقدم إلى القاهرة سنة (٧٠٥هـ) الفقيه عثمان بن علي بن يحيى الزيلعي البارعي (ت بها ٧٤٣هـ/١٣٤٢م)، ودرّس وأفتى، وولي مشيخة الطقزدمرية بالقرافة، واشتهر بالفقه والنحو والفرائض[٩]، وألف (تبيين الحقائق في شرح كنز الدقائق)، في فروع الحنفية للشيخ حافظ الدين عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي (ت٧١٠هـ/١٣١٠م)،

---

[١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص١٠١؛ والقرشي: عبد القادر بن محمد، (ت٧٧٥هـ)، الجواهر المضية في طبقات الحنفية، ت. عبدالفتاح الحلو، ط٢، الجيزة، هجر للطباعة والنشر، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، ج٢ ص٦٢٦ - ٦٢٧؛ والبغدادي، هدية العارفين، مج١ ص٧١٦، وقد ذكر صاحب كشف الظنون (مج٢ ص١٤١١) أن لشخص يدعى محمد بن علي الخلاطي (ت٧٠٨هـ) كتاباً في الحدود في أصول الفقه، فجاء صاحب هدية العارفين ليجعل علي بن محمد الخلاطي شخصا آخر، بجانب الركابي هذا، ثم أتى الزركلي (٤/ ٣٣٤)، ليعترض بأنهما شخص واحد، ويترجح أن محمد بن علي الخلاطي صاحب (كتاب الحدود) ليس كما ذكروه جميعاً، بل صاحب كتاب الحدود شخص آخر وهو محمد بن علي الخلاطي، ولكن وفاته في حدود الست مئة كما ذكر ذلك ابن قطلوبغا: زين الدين قاسم الحنفي، (ت٨٧٩هـ)، تاج التراجم في طبقات الحنفية ، Leipzig، ١٨٦٢م، ص١٤٨.

[٢] القرشي، الجواهر المضية، ج٢ ص٦٢٦.

[٣] ابن حجر، رفع الإصر، ص٤١- ٤٢؛ والقرشي، الجواهر المضية، ج١ ص١٢٤؛ والبغدادي، هدية العارفين، مج١ ص١٠٤.

[٤] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٢٥٩؛ والصفدي، الوافي بالوفيات، ج٥ ص٢١- ٢٢.

[٥] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٩- ٤٠؛ والبغدادي، هدية العارفين، مج١ ص١٠٤.

[٦] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٤٣٦.

[٧] بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج٣ ص٢٥٢.

[٨] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٣٢؛ والقرشي، الجواهر المضية، ج٢ ص٥٤٨؛ وابن قطلوبغا، تاج التراجم، ص٣١ - ٣٢؛ وحاجي خليفة، كشف الظنون، مج١ ص٤٧٢.

[٩] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٤٤٦- ٤٤٧؛ والبغدادي، هدية العارفين، مج١ ص٦٥٥.

قال الزيلعي في مقدمته: "فإني لما رأيت هذا المختصر المسمى بكنز الدقائق أحسن مختصراً في الفقه حاوياً ما يحتاج إليه من الواقعات، مع لطافة حجمه، لاختصار نظمه، أحببت أن يكون له شرح متوسط يحل ألفاظه، ويعلل أحكامه، ويزيد عليه يسيراً من الفروع مناسباً له، مسمى بـ(تبيين الحقائق)؛ لما فيه من تبيين ما اكتنز من الدقائق، وزيادة ما يحتاج إليه من اللواحق"،[1] وفي هذا النص المقتبس ما يشير إلى طبيعة الشروح آنذاك، وأنها لم تقتصر على توضيح الألفاظ وتبيينها، بل أضيف فيها التعليل للأحكام والزيادات فيها، وقد وصفه ابن قطلوبغا[2] بأنه فيه: "أجاد وأفاد، وحرّر وانتقد، وصحح ما اعتمد"، وهو يدل دلالة واضحة على تفاعل حنفية القاهرة بحنفية المشرق ووصول مؤلفاتهم سريعا إلى القاهرة.

ويأتي بعد ذلك القاضي برهان الدين إبراهيم بن علي الواسطي، المشهور بابن عبد الحق (ت بدمشق٧٤٤هـ/١٣٤٣م)، وتلقى علومه بدمشق والقاهرة وأخذ عن أبيه، وأذن له الصفي الهندي بتدريس الأصول، وابن دقيق العبد بالإفتاء سنة (٦٩٦هـ/١٢٩٦م)، واستدعي للقضاء سنة (٧٢٨هـ/١٣٢٧م) بمصر، واستمر عشر سنين، وانتهت رئاسة المذهب إليه، ودرّس بالقاهرة، ثم عاد إلى دمشق ومات بها، وقد وضع شرحاً على (الهداية) ضمّنه الآثار، ومذاهب السلف، واختصر (السنن الكبرى) للبيهقي، وصنف (المنتقى في الفروع الفقهية)، و(كتاب نوازل الوقائع) في مجلدة، و(إجارة الإقطاع) في مجلد، و(مسألة قتل المسلم بالكافر)، و(مسألة إجارة الأوقاف)، وكان يقرِّر الهداية تقريراً بليغاً[3]، وفي بعض مؤلفاته استجابة لما واجهه القضاء في عصره في ما يتعلق بالإقطاع وإجارة الأوقاف، وقد عيب عليه تفريطه في الأوقاف كما تقدم.

ومات في طاعون (٧٤٩هـ/١٣٤٨م) القاضي علاء الدين علي بن عثمان المارديني الأصل، تفقه ومهر وأفتى ودرّس وصنف التصانيف الحافلة، وولي القضاء، وله شرح على (الهداية) للمرغيناني، و(الكفاية مختصر الهداية)، وله (مقدمة في أصول الفقه)[4].

وقدم قوام الدين أمير كاتب بن أمير عمر الأتقاني (ت٧٥٨هـ/١٣٥٦م)، المولود في (أتقان) في (فاراب)[5] سنة (٦٨٥هـ/١٢٨٦م) وقد مهر في بلده، وشرح هناك (المنتخب في أصول المذهب)، لحسام الدين محمد بن محمد الأخسيكتي (ت٦٤٤هـ/١٢٤٦م)، بشرح سماه (التبيين)[6]، ثم تنقل بين بلدان العالم الإسلامي، وولي قضاء بغداد، والتدريس بمشهد الإمام أبي حنيفة، ثم في دمشق، ثم استدعي إلى مصر، وجعله الأمير صرغتمش شيخ مدرسته التي بناها، وعظّمه، وتصدّر للتدريس بها والإفتاء، وكان رأساً في مذهب الحنفية، بارعاً في الفقه واللغة العربية. شرح (الهداية) "شرحاً حافلاً" كما وصفه ابن حجر، واشترط على نفسه حل مشكلاتها لفظاً ومعنى، وسماه (غاية البيان ونادرة الزمان في آخر الأوان)، وتميز باعتماده على مصادر أصلية، وبكونه في بعض الأحيان كان يبدو وكأنه من كتب الفقه المقارن، وبترجيحه بين الأقوال، وبتجنبه الإسهاب والمحسنات اللفظية، وبعنايته بتخريج

---

[1] الزيلعي: عثمان بن علي بن يحيى البارعي، (ت٧٤٣هـ)، تبيين الحقائق في شرح كنز الحقائق، ترقيم آلي، المكتبة الشاملة، الإصدار الثاني، موقع الإسلام على على شبكة النت، ج١ ص١.

[2] تاج التراجم، ص٣٠.

[3] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٤٦ ـ ٤٧؛ ورفع الإصر، ص٣٢؛ وابن قطلوبغا، تاج التراجم، ص٣؛ والقرشي، الجواهر المضية، ج١ ص٩٣ ـ ٩٤.

[4] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٨٤ـ ٨٥؛ ورفع الإصر، ص٢٧٧ـ ٢٧٨.

[5] من ولاية وراء نهر سيحون (أموردرايا)، خرج منها جماعة من الفضلاء منهم: الجوهري صاحب الصحاح، والفيلسوف الفارابي. الحموي، معجم البلدان، ج٤ ج٤ ص٢٢٥؛ وأبو خليل، أطلس دول العالم الإسلامي، ص٢٠.

[6] ذكر في مقدمته أن سبب تأليفه ليس إلا ليكون له غرس في بساتين السابقين من الحنفية، أي يريد المشاركة لأجلها. ينظر التبيين الورقة ١/أ، ـ خ- بخط محمد بن أحمد الحكري المقيم بالمدرسة الشريفية الفخرية سنة ٧٨٥هـ، موجودة لدي نسخة إلكترونية منها. ولم أجد في مقدمة هذه النسخة القديمة ما نسبه إليها ابن حجر من أنه وضع فيها كلاما يشير لبأو نفسه وتعاظمها.

الأحاديث التي يستدل بها، وله رسالتان في مسألة رفع اليدين عند تكبير النقل، وفي عدم صحة الجمعة في موضعين في البلد[١].

ثم يأتي القاضي جمال الدين عبد الله بن علي بن عثمان الماريديني (ت٧٦٩هـ/١٣٦٧م)، من بيت مكرمة وعلم، تعلّم وأفتى، وحدّث بالقاهرة، ودرّس بالكاملية، ودرّس التفسير بالجامع الطولوني، وولي القضاء، حيث رشّحه أعيان الحنفية لهذا المنصب بعد أبيه، واستمر حتى مات، ولم يحدث بينه وبين رفيقيه القاضيين الشافعي والحنبلي شيءٌ من المخالفة، وكان يسرد (الهداية) حفظاً، وأكمل شرح والده عليها[٢].

ومنهم المحدث المخرّج عبد الله بن يوسف الزيلعي (ت٧٧٢هـ/١٣٧٠م)، وقد أخذ عن الزيلعي السابق شارح الكنز، وعن القاضي علاء الدين ابن التركماني وغيرهما، ثم تصدى لتخريج أحاديث الهداية، وأثمر بتلك الموسوعة (نصب الرواية في تخريج أحاديث الهداية)، التي غدت معوّل الحنفية وغيرهم[٣].

وقدم من الهند القاضي سراج الدين عمر بن إسحاق الغزنوي (ت٧٧٣هـ/١٣٧١م)، وقد تعلم في بلاده، وساح في الأرض، وقدم مصر سنة (٧٤٠هـ/١٣٣٩م)، ونزل في مدارسها، وأخذ عن شمس الدين الأصفهاني، والعلماء بني التركماني وغيرهم، وولي قضاء العسكر ثم قضاء الحنفية سنة٧٦٩هـ/١٣٦٧م، وشارك مشاركة واسعة في التصنيف الأصولي والفقهي المبسوط، ومن مؤلفاته في الأصول (كاشف معاني البديع وبيان مشكله المنيع)، شرح به البديع لأحمد بن علي الساعاتي (ت٦٩٤هـ/١٢٩٤م)، وهو شرح بدون زيادات، و(المنير الزاهر) شرح (المغني) لعمر بن محمد الخبازي الدمشقي (ت٦٩١هـ/١٢٩١م)، وألف في الفقه (الشامل) في الفروع مجرداً عن الأدلة، وشرح (الهداية) للمرغيناني بشرحين كبير سماه (التوشيح)، وصغير في ستة أجزاء على طريقة الجدل، وشرح (الزيادات) و(الجامع) لمحمد بن الحسن الشيباني (ت١٨٩هـ/٨٠٤م).

وله (زبدة الأحكام في اختلاف الأئمة الأعلام)، وله (الغرة المنيفة في ترجيح مذهب أبي حنيفة)[٤]، طلب منه الأمير صرغتمش أن يترجم كتاب (الطريقة البهائية) الذي صنفه فخرالدين الرازي الشافعي للسلطان بهاء الدين (ت٦٠٢هـ/١٢٠٥م) بالفارسية، ويزيد فيه بعض الأدلة والأجوبة التي تنقض حجج الرازي في نصرة المذهب الشافعي، وتؤيد مذهب أبي حنيفة[٥]، وطريقته في هذا الكتاب أن يسرد حجج الرازي باستيفاء، ثم يكر عليها بالرد، فيفيد بذلك المتفقه حيث يتدرّب على طرق الأخذ والرد[٦]، ويدل على وجود تنافس مذهبي بين الشافعية والحنفية في القاهرة أيام صرغتمش ومحاولة الحنفية مساواة الشافعية في بعض الامتيازات.

ونأتي إلى المؤرخ الفقيه محيي الدين عبد القادر بن محمد، ابن أبي الوفاء القرشي (ت٧٧٥هـ/١٧٧٣م)، وقد عني بالفقه ومهر فيه، ودرّس وأفاد وصنف، وشرح (الهداية) بكتاب سماه (الغاية)، وشرح (معاني الآثار) لأحمد

---

[١] الأتقاني: أمير كاتب بن أمير عمر، (ت٧٥٨هـ)، غاية البيان ونادرة الزمان في آخر الأوان (من باب حد القذف إلى نهاية كتاب الحدود)، ت. عبد الله محمد هنانو، لدى معهد الدعوة الجامعي للدراسات الإسلامية – بيروت، لعام ٢٠١٠/ ٢٠١١م. (رسالة ماجستير على النت)، ص٣٩، ٤٠، ٤١؛ وابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٤١٤ ـ ٤١٦؛ وابن قطلوبغا، تاج التراجم، ص١٣ـ ١٤؛ وحاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ص٢٠٣٣ ـ ٢٠٣٤.

[٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٢٧٦؛ ورفع الإصر، ص١٩١؛ والتميمي، الطبقات السنية، ج٤ ص١٧٤ ـ ١٧٥.

[٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣١٠؛ والغزي، الطبقات السنية، ج٤ ص٢٥٢ ـ ٢٥٣.

[٤] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص١٥٤ـ ١٥٥؛ ورفع الإصر ٢٨٨؛ وابن قطلوبغا، تاج التراجم، ص٣٦، وحاجي خليفة، كشف الظنون، مج١ ص١٠٢٥، ١١٩٨، ٢٠٣٤ـ ٢٠٣٥؛ والبغدادي، هدية العارفين، مج١ ص٧٩٠؛ والزركلي، الأعلام، ج٥ ص٤٢.

[٥] الهندي: عمر بن إسحاق الغزنوي، (ت٧٧٣هـ)، الغرة المنيفة في تحقيق بعض مسائل الإمام أبي حنيفة، ط١، مؤسسة الكتب الثقافية، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م، ص١٣؛ وعنوانه في المطبوع كما ترى مخالف لما ورد في المصادر السابقة.

[٦] الكوثري: محمد زاهد، كلمة عن الغرة المنيفة، من مجموعه (الفقه وأصوله من أعمال الإمام محمد بن زاهد الكوثري)، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م، ص٢٩٧.

بن محمد المصري الطحاوي (ت٣٢١هـ/٩٣٢م)، ويبدو أن المقصود بالشرح هو تخريج الأحاديث التي وردت فيه[١].

ومنهم الشيخ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، ابن الصائغ الزمردي النحوي (ت٧٧٦هـ/١٣٧٤م)، درَس عدة فنون، ولازم أبا حيان، فمهر في العربية وغيرها، ومن تصانيفه الفقهية (الغمز على الكنز)[٢]؛ وشرحه هذا على كتاب أُلِّف في المشرق يدل على التفاعل السريع بين مختلف المراكز الحضارية الموجودة، وعلى وجود رؤى فقهية مختلفة بين بعض حنفية القاهرة وحنفية المشرق.

وهناك القاضي شرف الدين أحمد بن علي بن منصور الدمشقي المعروف بابن الكشك الدمشقي (٧٨٢هـ/١٣٨٠م)، ولي القضاء بمصر وكان من قضاة العدل، وانتصب للتدريس في الفقه وأصوله بالقاهرة في المنصورية، ومن مشاركاته أنه اختصر (المختار للفتوى)، لمجد الدين عبد الله بن محمود الموصلي (ت٦٨٣هـ/١٢٨٤م)، وسماه (التحرير)، ثم شرحه، ولم يكمله[٣]. وهو أمر مثير للاستغراب، فكيف يختصر ثم يقوم بشرح ما اختصره.

ثم يأتي "إمام المتأخرين وخاتمة المحققين" على حد وصف ابن قطلوبغا وهو العلامة أكمل الدين محمد بن محمد بن محمود البابرتي (ت٧٨٦هـ/١٣٨٧م)، والمولود ببابرت بأرضروم[٤]، واشتغل بالعلم ورحل إلى حلب، ثم قدم إلى القاهرة سنة (٧٤٠هـ)، وكان حسن المعرفة بالفقه والعربية والأصول، وصنف في أصول الفقه شرحاً على مختصر ابن الحاجب (منتهى السؤل والأمل) في ثلاث مجلدات، سمي بـ(الردود والنقود)، وكان غرضه من تأليف الكتاب هو الدفاع عن مذهب أصحابه الأحناف أمام نقد شراح (المختصر) السابقين للحنفية، وكان أيضا كثيرا ما ينتقد ألفاظ ابن الحاجب نفسه في المختصر[٥].

وشرَحَ(أصول فخر الإسلام) علي بن محمد البزودي الحنفي (ت٤٨٢هـ/١٠٨٩م)، بـ(التقرير)، كما شرح (منار الأنوار) للشيخ حافظ الدين النسفي (ت٧١٠هـ/١٣١٠م) بكتاب (الأنوار شرح المنار)، وألف في الفقه شرحاً على الهداية سماه (العناية) في مجلدين "أحسن فيه وأجاد"، وتأليفه إياه كان تلبية لاقتراح طلابه الذين طال عليهم أحد شروح الهداية، فاقترحوا اختصاره بما يكفل توضيح معاني (الهداية) فقط، فلبى طِلْبَتهم، وانصبّ جهده في التنقيح والتهذيب، وأضاف كما ذكر مباحث من خاطره[٦]. وشرح الجامع الكبير للخلاطي المتقدم. وكتب رسالة لتقوية أهل أهل الاعتقاد الضعيف من الحنفية في اعتقاد أرجحية مذهب إمامهم أسماها (النكت الظريفة في ترجيح مذهب أبي حنيفة)[٧]، وشرح فرائض السراجية[٨].

وبذلك يظهر مدى الجهد الذي بذله الحنفية في سبيل لحاق الشافعية في امتيازاتهم، بل وحتى ترجيح مذهبهم عليه بإظهار مزاياه ومزايا إمامه، كما يبين أن نوعية رغبات الطلاب كانت سببا في وجود بعض هذا النتاج.

---

[١] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٦٦؛ وابن قطلوبغا، تاج التراجم، ص٢٨؛ وابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٧ ص٣٢٥، ٣٢٦.

[٢] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٩٥- ٩٦. والكنز هو (كنز الدقائق) للشيخ أبي البركات عبد الله بن أحمد المعروف بحافظ الدين النسفي(ت٧١٠هـ).

[٣] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٢٢١؛ ورفع الإصر، ص٦٤- ٦٥؛ وابن قطلوبغا، تاج التراجم، ص١٠.

[٤] شمال شرق تركيا حاليا.

[٥] البابرتي: محمد بن محمود بن أحمد، (ت٧٨٦هـ)، الردود والنقود، ت. ضيف الله بن صالح العمري، ط١، الرياض، مكتبة الرشد ناشرون، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، ص٦٦، ٨٨.

[٦] البابرتي: محمد بن محمود بن أحمد، (ت٧٨٦هـ)، العناية شرح الهداية، ط١، القاهرة، بولاق، ١٣١٥هـ، طبع بهامش شرح فتح القدير لابن الهمام الحنفي (ت٦٨١هـ)، ج١ ص٢.

[٧] البابرتي: محمد بن محمود بن أحمد، (ت٧٨٦هـ)، النكت الظريفة في ترجيح مذهب أبي حنيفة، دراسة وتحقيق. بلة الحسن مساعد، ط١، الرياض، كلية التربية، جامعة الملك سعود، مركز البحوث المحكمة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، ص٢٩، ٣٠.

[٨] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٢٥٠- ٢٥١؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٢٩٨؛ وابن قطلوبغا، تاج التراجم، ص٤٩؛ وحاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ص١٩٧٧، ١٨٢٤، ٢٠٣٥؛ والبغدادي، هدية العارفين، مج٢ ص١٢١.

ثم يأتي العلامة جلال بن أحمد بن يوسف الثيري (ت٧٩٣هـ/١٣٩٠م)، تفقه على القوام الأتقاني الفارابي، وقرأ النحو على الشيخ ابن هشام النحوي، وابن عقيل، وسمع الحديث، وامتنع عن القضاء، وكان أصولياً فقيهاً نحوياً بارعاً، وله مشاركة في جميع العلوم، وانتصب للتدريس والفتوى، ودرس بالصرغتمشية والسيفية، ومن مصنفاته في الأصول شرح المنار (منار الأنوار) المتقدم للنسفي، وشرح (مختصر ابن الحاجب) في الأصول المسمى (الإيضاح)، وفي الفقه له (مختصر في ترجيح مذهب أبي حنيفة)، ونظم في الفقه منظومة شرحها في أربعة مجلدات، وله رسائل مختلفة في الجمعة والبسملة والفرض والواجب[1].

ومن خلال ما تقدّم عن النتاج العلمي وبصورة تقريبية فإنه يمكن القول أن جميع المؤلفين في الفقه الحنفية كانوا من أصولٍ من خارج القاهرة، وتوزعوا على مناطق مختلفة فمن الشام حوالي ١١%، ومن ماردين وما حولها بحوالي ٣٣%، ومن الروم (تركيا) بحوالي ١٧%، ومن الشرق بحوالي ١٧%، ومن (زيلع) بحوالي ١١%، وهذه الإحصائية تبين أن الحنفية في القاهرة قبل القرن الثامن الهجري لاقوا بعض الإهمال حيث تظهر ندرتهم إلى حدٍّ بعيد، وأن (تحنُّف) المماليك شجَّعهم على القدوم إلى القاهرة.

ويتبين في النتاج أن حوالي ١٦% فقط منه كان في الأصول، أغلبها كانت شروحا، منها بنسبة ٢٣% كانت شروحا على مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه، ويعتبر شرح أكمل الدين البابرتي مثيرا حيث جاء للرد على الشراح السابقين من المذاهب الأخرى الذين تعودوا الهجوم على الأصول الحنفية، كما كان مثلها أي ٢٣% شروحا على كتاب (منار الأنوار) وهو من كتب الأصول الحنفية. وأما الفقه فكان بنسبة ٨٤% من مجمل النتاج الحنفي، وكان ما نسبته ٦٧% منه مبنيا على هياكل سابقة، منها حوالي ٨٤% عبارة عن شروح، استأثرت (الهدايةُ) للمرغيناني بحوالي ٤٦% من تلك الشروح، و(الجامع الكبير) بحوالي ١٩% منها، ويلفت النظر أن يكون في القرن الثامن الهجري من يشرح كتابين في الفقه يعودان للقرن الثاني الهجري كما هو الشأن في حالة القاضي سراج الدين الهندي؛ الأمر الذي يبين اجتهاد الحنفية في التأكيد باتصالهم بإمام المذهب، ومدى جهودهم في إقناع الآخرين أنهم امتداد له

٣- الفقه المالكي

كانت المدينة المنورة مهد هذا المذهب حيث دار هجرة إمامها مالك بن أنس الأصبحي (ت١٧٩هـ/٧٩٥م)، ودخل مصر في حياته من قبل بعض طلابه، وانتشر في المغرب العربي، ثم صار المذهب الرسمي للأندلس، وخلال القرن الثامن ظلت مناطق المغرب العربي والإسكندرية وبعض مناطق مصر المختلفة تزود القاهرة برجال العلم المالكية.

من علماء الفقه المالكية في القاهرة الفقيه أبوعبد الله محمد بن محمد العبدري، المعروف بابن الحاج (ت٧٣٧هـ/١٣٣٦م)، تعلم في المغرب، ثم قدم إلى القاهرة وحدّث فيها، وألف كتابه المعروف بـ(المدخل) في الفقه، ويبدو من خلال كتابه أنه ضاق بالبيروقرطية المصرية، والتعقيدات الحياتية، ومظاهر البذخ، والإسراف في المجتمع المصري؛ الأمر الذي دعاه إلى تأليف كتابه هذا، ولابن حجر[2] رأي في هذا الكتاب وهو أنه "كثير الفوائد، الفوائد، كشف فيه عن معايب وبدع يفعلها الناس ويتساهلون فيها، وأكثرها مما ينكر، وبعضها مما يحتمل"، ومع ذلك يمكن القول بأنه لم تكن (مالكيته) في هذا الكتاب هي الهم الأكبر كما هو الشأن في تركيزه على القضايا الأخلاقية العامة.

[1] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٤٢٤؛ والمقريزي، درر العقود الفريدة، ج٢ ص٨٦؛ وابن قطلوبغا، تاج التراجم، ص١٥- ١٦.
[2] الدرر الكامنة، ج٤ ص٢٣٧.

عاصره الفقيه الطبيب ركن الدين الجعفري الهاشمي المشهور بابن القوبع (ت٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م)، كان يتكلم في كل فنٍ كأنه متخصص فيه، وكان يفتي على مذهب مالك[١]، ورغم أنه كان كذلك إلا أنه لم يظهر له مصنف فقهي يذكر.

وتميّز القاضي أبو الروح شرف الدين عيسى بن مسعود الزواوي الحميري (ت٧٤٣هـ/١٣٤٣م)، المولود بزواوة، تفقه بها، ثم بالإسكندرية، ثم دخل القاهرة يدرّس الناس بالأزهر، وحفظ (مختصر ابن الحاجب) الفروعي، و(موطأ مالك)، وناب في الحكم في دمشق والقاهرة، ثم أعرض عن الحكم، وأقبل على التصنيف، وانتهت إليه رئاسة الفتوى المالكية في مصر والشام، وفاق الأقران، ودرّس بالزاوية[٢] بالقاهرة، شرح مختصر ابن الحاجب في الفقه المالكي المسمى (جامع الأمهات) في فقه المالكية بشرح في ستة مجلدات، كما شرح (المدونة) لأبي عبد الله عبد الرحمن بن القاسم المالكي (ت١٩١هـ/٨٠٦م)، وله (مناقب الإمام مالك)، وردّ على ابن تيمية في مسألة الطلاق[٣].

وضارع القاضي نور الدين علي بن عبد النصير السخاوي المالكي (ت٧٥٦هـ/١٣٥٥م) في المالكية الشيخ تقي الدين السبكي الشافعي في الشافعية في أعلمية كل واحدٍ منهما بمذهبه، عيّنه شيخو مدرسا في مدرسته، ورغم وصف الحافظ العراقي له بأنه "شيخ المالكية، وفقيههم بالديار المصرية والشامية"، إلا أنه لم تعط المصادر شيئاً عن نتاج له مكتوب[٤].

ومنهم الفقيه ضياء الدين خليل بن إسحاق الجندي (ت٧٦٧هـ/١٣٦٥م)، قرأ على الشيخ عبد الله المنوفي في فقه المالكية، وخلفه في التدريس، كما درّس بالمدرسة الشيخونية، وأفتى، ولم يغير زي الجندية، وكان أبوه حنفياً لكنه هو تأثر بشيخه المالكي أبي عبد الله ابن الحاج العبدري (ت٧٣٧هـ/١٣٣٦م)، ومن تصانيفه (شرح مختصر ابن الحاجب) الفقهي المسمى (جامع الأمهات) شرحه في ستة مجلدات، انتقاه من بعض الشروح السابقة، وزاد فيه عزو الأقوال والاستدلال بالحديث، وإيضاح ما فيه من الإشكال، وسماه (التوضيح) كما ذكر ابن حجر، وقد عكف الطلاب على تحصيله، ولعله كان محاولة لإثبات أن المالكية لا يبعدون عن المذاهب الأخرى من العناية بالحديث في الفقه تأثرا بما كان جاريا في القاهرة، فهو "موسوعة فقهية حديثية تأصيلية" وجمع فيه مؤلفه بين الفقه والحديث[٥].

ووضع مختصراً في الفقه على غرار مختصر (الحاوي) عند الشافعية المشتهر في القاهرة أيضا، فأراد مضاهاتهم، وقد قصد فيه بيان المشهور مجرداً عن الخلاف، ولأنه كثير الجمع لمسائل الفقه، وحسن الترتيب فإن المالكية انصرفوا عن الكتب السابقة إلى العكوف عليه شرحا واختصارا وتحشية وتقريرا، حتى بلغ عدد ما كتب عليه أكثر من مئة عمل، وتميز بكونه نبّه على منهجه في عباراته[٦]، وقال بروكلمان عنه: إنه عرض مركّز كل التركيز، لا يكاد يفهم من دون شرح، يضم فقه المالكية في إطار الجمع بين مأثورات المغاربة والمصريين في

---

[١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص١٨١ ــ ١٨٢؛ وابن فرحون: إبراهيم بن علي اليعمري، (ت٧٩٩هـ)، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ت. مأمون بن محيي الدين الجنان، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م، ص٤١٤.

[٢] كأنها التي في جامع الشافعي.

[٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٢١٠ــ ٢١١؛ والبغدادي، هدية العارفين، مج١ ص٨٠٩.

[٤] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٧٩؛ ورفع الإصر، ص٢٧٧.

[٥] الجندي: خليل بن إسحاق، (ت٧٦٧هـ)، التوضيح، ت. أحمد بن عبد الكريم نجيب، ط١، القاهرة، دار نجيبويه، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م، ج١ ص٦٩، ٨٢، ٨٣؛ وابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٨٦؛ وابن فرحون، الديباج المذهب، ص١٨٦.

[٦] الجندي: خليل بن إسحاق، (ت٧٦٧هـ)، مختصر خليل، ت. الطاهر أحمد الزاوي، ط١٢، بيروت، دار المدى الإسلامي، ٢٠٠٤م، ص١، ٨؛ والأمير: محمد بن محمد السنباوي، (ت١٢٢٣هـ)، الإكليل شرح مختصر خليل، تقديم عبد الله الصديق الغماري، القاهرة، مكتبة القاهرة، ص ي؛ وابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٨٦؛ وابن فرحون، الديباج المذهب، ص١٨٦.

إطار التأثير الشافعي[1]. وبه يتبين مدى التأثير الذي أحدثته القاهرة في تاريخ الفقه المالكي وفي علاقة الحديث بالفقه، وفي كتابة المختصرات في الفقه، ومدى إفادة الفقه المالكي من بيئة القاهرة العلمية ذات الطابع الشافعي.

ومنهم شرف الدين يحيى بن عبد الله الرهوني (ت٧٧٣هـ/١٣٧١م)، مغربي الأصل، تعلم ومهر، ودرّس بالشيخونية، ودرّس الحديث في الصرغتمشية، وأفتى، وله تخاريج وتصانيف، وتخرّج به المصريون[2]. ومنهم الفقيه القاضي برهان الدين إبراهيم بن محمد بن أبي بكر الأخنائي (ت٧٧٧هـ/١٣٧٥م)، تفقّه شافعياً، ثم مهر وتميز في فقه المالكية، وولي الحسبة، ونظر البيمارستان، ونظر الخزانة السلطانية، ثم قضاء المالكية، وكان مهيباً نزيهاً، نافذ الكلمة، مُهابا، صنف مختصراً في الأحكام، وله أيضا (الهداية والإعلام فيما يترتب على قبيح القول من الأحكام)[3].

ويأتي بعد ذلك الفقيه عبد الخالق بن علي بن الحسن بن الفرات (ت٧٩٤هـ/١٣٩١م)، برع في الفقه، وأخذ عن الشيخ جمال الدين ولد الشيخ ابن هشام النحوي، وكان يوقّع على القضاة، شرح (مختصر الشيخ خليل)[4] الآنف الذكر. ومنهم عالم العربية القاضي أحمد بن محمد بن محمد بن رشيد الإسكندري الزبيري (ت٨٠١هـ/١٣٩٨م)، الذي أخذ علومه في الإسكندرية، ومهر وفاق في العربية، وولي قضاء بلده، ثم ولي قضاء القاهرة سنة (٧٩٤هـ/١٣٩١م)، عمل تعليقاً على مختصر ابن الحاجب الفروعي (جامع الأمهات)، وأيضا شرح مختصره في الأصول[5].

ونختم بالقاضي تاج الدين أبي البقاء بهرام بن عبد الله بن عبد العزيز الدميري (ت٨٠٢هـ/١٣٩٩م)، أخذ كثيراً عن علماء عصره، ومنهم شرف الدين الرهوني، والشيخ خليل بن إسحاق الجندي، وولي القضاء بالقاهرة، والتدريس بالشيخونية، ومهر في الفقه، فشرح مختصر الشيخ خليل[6] شرحاً محموداً، انتفع به طلبة العلم؛ لأنه في غاية الوضوح، يحل ألفاظه من غير تطويل بدليل أو تعليل، واعتمده من كان في زمنه بالإضافة إلى من بعده[7]، وله (الشامل) في الفقه أيضاً، ويعتبر ثالثا لأهم ثلاثة كتب في الفقه المالكي، والإثنان الأخريان هما (مختصر ابن الحاجب) و(مختصر خليل)، وأقبل عليه المالكية، وأثنى عليه علماؤهم، واعتمدوه في مصنفاتهم، ولم يبنه على هيكل سبقه[8]، وله شرح مختصر ابن الحاجب الأصولي (منتهى السؤل والأمل)[9]، و(مناسك الحج) وشرحها[10].

ويتبين مما سبق أن المؤلفين من المالكية على قلتهم الملحوظة كان أغلبهم من خارج القاهرة، توزعوا ما بين أنحاء مصر الأخرى وعلى رأسها الإسكندرية بنسبة ٤٠%، وما بين المغرب بنسبة ٥٠%، وكان نتاجهم قليلا بالنسبة للشافعية مثلا، فكان ١٠% فقط في أصول الفقه، وكان جميعها شروحا على مختصر ابن الحاجب الأصولي، ولعل نسبة المبتكر من النتاج الفقهي كان حوالي ١٠%، وكان نسبة الشروح حوالي ٣٥%، كما يتبين تأثرهم بوضع القاهرة العلمي من خلال محاولتهم كتابة نتاجِ فقهٍ مالكيٍّ على الطريقة التي كانت معروفة في القاهرة لدى الشافعية.

---

[1] بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج٦ ص٣٣٠.
[2] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٣٢؛ والبغدادي، هدية العارفين، مج٢ ص٥٢٧.
[3] ابن حجر، رفع الإصر، ص٣٤ ـ ٣٥؛ وإنباء الغمر، ج١ ص١٠٨؛ والبغدادي، هدية العارفين، ج١ ص١٧.
[4] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٤٤٣.
[5] ابن حجر، رفع الإصر، ص٧٥ ـ ٧٦؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص٦٣ ـ ٦٤؛ والسخاوي، الضوء اللامع، ج٢ ص١٩٢ ـ ١٩٣.
[6] يعمل مركز يهتم بنشر الفقه المالكي على تحقيقه، وتحقيق شرحين آخرين له على المختصر أيضا.
[7] ابن حجر، رفع الإصر، ص١٠٨؛ والسخاوي، الضوء اللامع، ج٣ ص١٩ ـ ٢٠.
[8] الدميري: بهرام بن عبد الله، (ت٨٠٢هـ)، الشامل في فقه الإمام مالك، ت. أحمد بن عبد الكريم نجيب، ط١، القاهرة، مركز نجيبويه، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م، ج١ ج١ ص٢٣، ٢٤.
[9] توجد منه نسخة في دار الكتب المصرية تحت رقم ٢٢، وفي خزانة القرويين بفاس تحت رقمي ١٠٠٨ و١٠١٣.
[10] ابن حجر، رفع الإصر، ص١٠٨؛ والسخاوي، الضوء اللامع، ج٣ ص١٩ ـ ٢٠.

ومما يلفت النظر أن أحد كبار أئمتهم وهو السخاوي لم يذكر له مؤلفات، كما ظهر من بين ذلك النتاج ما كان شرحا على كتاب (المدونة) وهو من كتب القرن الثاني الهجري، كما ظهر في بعضه الموسوعية الفقهية الحديثية التي كانت أيضا سمة القاهرة العلمية.

٤- الفقه الحنبلي

كان المذهب الحنبلي أقل انتشاراً في مصر من بقية المذاهب الأربعة، ولهذا لم تشهد القاهرة فقهاء حنابلة منتجين، وكأنهم اكتفوا بقراءة كتب من سبقوهم في الدراسة الفقهية، كما أن اشتغال كثير منهم بعلوم الحديث ولأخذهم بظواهره كان له دور في قلة النتاج الفقهي، والأخذ مباشرة منه، ويظهر أن غالبية الحنابلة بمصر كانوا وافدين من العراق وحران وغيرهما.

ويأتي في مقدمتهم الشيخ سليمان بن عبد القوي الطوفي الحنبلي (ت٧١٦هـ/١٣١٦م)، ألف (القواعد الكبرى)، و(القواعد الصغرى) في فقه الحنابلة[١]. وعاصره شيخه قاضي القضاة والمتسبب له في نكبته وطرده مسعود بن أحمد الحارثي (ت٧١١هـ/١٣١١م)، وقد شرح بعضا من (المقنع) لعبد الله بن قدامة الحنبلي (ت٦٢٠هـ/١٢٢٣م)، وقد أتى فيه بمباحث ونقول وفوائد[٢].

ورغم وجود عدد جيد من القضاة الحنابلة في مصر تضمّنهم كتاب (رفع الإصر) وصفوا بالفقه إلا أنه لم يؤثر عنهم نتاج مكتوب في مجاله، في حدود المصادر التي بين يدي الباحث.

ويعتبر الشيخ الإمام تقي الدين ابن تيمية أحمد بن عبد الحليم الحراني (ت٧٢٩هـ/١٣٢٨م) أحد رجال الحنابلة الشاميين الذين شاء لهم القدر أن يدخلوا القاهرة ويشاركوا في حياتها العلمية من خلال المناقشات والمطارحات والمنازعات الفكرية والفقهية؛ إذ استدعي من الشام إلى القاهرة سنة (٧٠٥هـ/١٣٠٥م)، وقضى في القاهرة والإسكندرية حتى سنة (٧١٢هـ/١٣١٢م) مسجونا مناقِشاً ومنتقِداً ومحاوراً[٣]، وكان له بعد ذلك تأثير واضح ليس فقط على الحنابلة في مصر، بل وحتى على بعض الشافعية؛ إذ نجد بعد ذلك من تأثر بأفكاره، وناضل من أجلها[٤].

كان ابن تيمية متحرراً في آرائه، وكانت له اختيارات فقهية مستقلة لم يكن فيها تابعاً لمذهب من المذاهب الأربعة، وإن كان في مجملها لم يخرج عن منهاج ابن حنبل في الاستنباط، ويبدو أنه كان يرجِّح هذا المذهب على غيره من المذاهب، وكانت فتاواه المخالفة للسائد وتشدّدُه وشططُه أحيانا على المخالفين مثارَ سخط العلماء عليه؛ ولهذا" قضى شطراً من عمره في السجون"[٥]، وألف كثيراً من الكتب في الفقه وغيره من العلوم، فمما كتبه في الفقه (الفتاوى) التي بلغت عشرات المجلدات[٦]، منها(الفتاوى الكبرى)، الذي يعتبر موسوعة فقهية ضخمة تعكس آراءه وتبحره. وله (الفتاوى المصرية) مجلدات، و(شرح العمدة) لأحمد بن محمد بن قدامة (ت٦٢٠هـ/١٢٢٣م)، كتبه في أربعة مجلدات[٧]، ولم يكمله، قصد فيها أن "يفسر مسائلها، ويقرب دلائلها، ويفرغ قواعدها، ويتم مقاصدها، متوسطاً بين الإيجاز والإطناب"[٨]، وله (الرد الكبير) على من اعترض عليه في مسألة

---

[١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج ٢ ص١٥٤- ١٥٧؛ وحاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ص١٣٥٩.

[٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٤٧ ـ ٢٤٨.

[٣] المصدر السابق، ج١ ص١٤٥؛ وابن رجب: عبد الرحمن بن أحمد، (٧٩٥هـ)، ذيل طبقات الحنابلة، ت. عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، ط١، الرياض، مكتبة العبيكان، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٥م، ج٤ ص٥١٤ ـ ٥١٥.

[٤] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص١٦٦ ـ ١٦٨؛ وإنباء الغمر، ج١ ص١٤٤، ٣٢٨- ٣٢٩، ٤٦٤، ٤٩٦.

[٥] أبو زهرة: محمد، ابن تيمية حياته وعصره، آراؤه وفقهه، القاهرة،، دار الفكر العرب، ١٩٩١م، ص٢٧٩، ٢٩٥.

[٦] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص١٥١، وفيه: "ولعل فتاويه في الفنون بلغت ثلاث مئة مجلد أو أكثر".

[٧] ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج٤ ص٥٢١ ـ ٥٢٢.

[٨] ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم الحراني، (ت٧٢٨هـ)، شرح العمدة، ت. سعود صالح العطيشان، ط ١، الرياض، مكتبة العبيكان، ١٤١٣هـ، ص٥٩.

الحلف بالطلاق في ثلاثة مجلدات، وله (القواعد المتوسطة) ورسائل فقهية يطول تعدداها[١]، كما ألف شرحاً على (المحصل) للرازي في أوله في مجلد[٢]، ولا يعرف له كتاب بعنوان (الفتاوى الحديثية) ولا (فتاوى النساء) كما ورد ورد عند بعض الباحثين[٣].

ومن الحنابلة القاهريين الأمير بدر الدين محمد بن جنكلي (ت٧١٤هـ/١٣١٤م)، قدم إلى القاهرة مع والده من ديار بكر سنة (٧٠٣هـ/١٣٠٣م)، وتفقه للحنفية، ثم تحنبل، وصار علامة في فقه السلف، وجمع بين فضيلتي السيف والقلم (الإمارة والعلم)[٤]، لكنه لم يترك أثراً مكتوباً في الفقه. ومنهم القاضي موفق الدين عبد الله بن محمد بن عبد الملك الربعي المقدسي الحنبلي (ت٧٦٩هـ/١٣٦٧م)، الذي تولى قضاء الحنابلة سنة (٧٣٨هـ/١٣٣٧م)، وكان واسع المعرفة بالفقه، ودرّس بالقبة المنصورية في زمن انتشر فيه مذهب الحنابلة بمصر إلى حد ما[٥]، وكان ممن يروّج آراء بن تيمية[٦].

كما لم يؤثر نتاج فقهي عن بارِزين منهم مثل قاضي القضاة عبد الغني بن يحي الحراني (ت٧٥٩هـ/١٣٥٧م)، الذي قدم مصر من حران، ودرّس في الصالحية[٧]، ولا عن قاضي القضاة ناصر الدين نصر الله بن أحمد الكتاني العسقلاني (ت٧٩٥هـ/١٣٩٢م) الذي مهر في الفقه، وكان صارماً مهيباً نزهاً عفيفاً في قضائه[٨]، ولا عن المدرّس في الظاهرية الجديدة بين القصرين صلاح الدين محمد بن محمد بن سالم، ابن الأعمى المصري المقدسي الأصل (ت٧٩٥هـ/١٣٩٢م)، الذي كان بارعاً في مذهبه، ويتعصب لابن تيمية[٩]، ويظهر أنهم اقتنعوا بدراسة الكتب السائدة لديهم وتدريسها كمختصر الخرقي لأبي القاسم عمر بن الحسن الخرقي (ت٣٣٤هـ/٩٤٥م)، وكالمقنع والعمدة لعبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الحنبلي (ت٦٢٠هـ/١٢٢٣م)، وكالمحرر لعبد السلام بن عبد الله ابن تيمية (ت٦٥٢هـ/١٢٥٤م)[١٠].

وبهذا يظهر قلة نتاجهم في القاهرة حيث كانت تتخذ منهم ولا سيما من ابن تيمية وأتباعه موقفا متشددا، ولعل حالة التشدد ضدهم وقلتهم أثّرت سلبا بيبس أيديهم وأفكارهم عن المشاركة في النتاج اكتفاء بما كتبه السابقون منهم.

٥- آخرون

اعتمد المماليك المذاهب الأربعة (الشافعية والحنفية والمالكية والحنبلية) مذاهب رسمية وحرّموا ما سواها، وأمر الظاهر بيبرس البندقداري (ت٦٧٦هـ/١٢٧٧م) ألا يُوَلّى قاض ولا يقبل شهادة أحد، ولا يرشح للخطابة والإمامة والتدريس أحدٌ ما لم يكن مقلداً لأحدِ هذه المذاهب، وأفتى فقهاء ذلك العصر بوجوب اتباعها، وتحريم ما سواها[١١]، وتظهر الروح العدائية من جانب سلاطين المماليك وفقهائهم ضد طوائف الشيعة في الفتوى التي أصدرها ابن تيمية

---

[١] جمع رسائله تلميذه محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي(ت٧٥١هـ)، وطبعت بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، ط٤، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، دار الكتب الجديد ـ بيروت. وقد تضمنت مئات الرسائل في مجالات عديدة.

[٢] ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج٤ ص٥٢١، ٥٢٢، ٥٢٣.

[٣] عمار النهار في كتابه (العصر المفترى عليه) ص٣١٤. فلم يعرف له كتاب بعنوان (الفتاوى الحديثية)، بل هذا العنوان لابن حجر الهيثمي، ونسب له الباحث النهار أيضا كتاب (فتاوى النساء)، وأشاد به واعتبره فتحاً حديثاً، وأنه من الإبداع الذي تميّز به ذلك العصر، حيث خصص فتاوى النساء في كتاب واحد، ولكن الواضح أنه لم يُجْمَع تحت ذلك العنوان على يد ابن تيمية، بل استخلصت أحكام النساء في العصر الحديث من قبل بعض الباحثين من فتاواه الكبرى، وتم جمعها في كتاب واحد، وذكر الباحث نفسه أن الكتاب من جمع وتصحيح وتعليق أحمد السايح، والسيد الجميلي. ولم يذكر أيضا في كتب ابن تيمية في المصادر التي اطلعت عليها.

[٤] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٤١٦.

[٥] المصدر السابق، ج٢ ص٢٩٧ـ ٢٩٨.

[٦] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص١٤٤.

[٧] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣٨٩.

[٨] المصدر السابق، ج٤ ص٣٩٠.

[٩] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٤٦٤.

[١٠] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣٠٨، ج٤ ص٤٦، ١٢٨؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص٣٤٩.

[١١] المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣ ص٣٨٩ـ ٣٩٠.

التي وصف فيه بعض طوائف الشيعة بأنهم أكفر من اليهود والنصارى، وأفتى بالقضاء عليهم ومحاربتهم[١]. وكان لافتاً أن تهمة التشيع هي التهمة المفضلة لدى المتحاسدين والمتنافسين والتي كانت كفيلة بأن يصادر ويهان صاحبها ويطرد[٢]، وقتلت السلطة المملوكية بعض الشيعة لاتهامهم بعقيدة الرفض[٣]، وقد أشار المقريزي[٤] إلى تشدد تشدد الدولة المملوكية ضد المخالف للتدين الرسمي السني بأن من خالفه ضُرِبَت عنقه. ومن الطبيعي أن يغيب عن القاهرة أي نتاج فقهي لأي من المذاهب الشيعية في مثل هذا الجو الخانق وفي ظل الأفول الذي لحق مذهبهم منذ زوال الدولة الفاطمية، ومع ذلك فلم يكن الشيعة هم فقط الذين غاب نتاجهم، فهناك الظاهرية، فهذا الإمام أبو حيان محمد بن يوسف الغرناطي قدم مصر ظاهرياً، فلما لم يجد لمذهبه الفقهي أثرا في القاهرة انتمى إلى الشافعية، واختصر (المنهاج) في فقههم، غير أن ابن حجر[٥] أشار إلى احتمال بقائه على ظاهريته سرا، وذكر له أنه اختصر اختصر (كتاب المحلّى) للإمام علي بن أحمد بن سعيد، ابن حزم (ت٥٤٦هـ/١١٥١م).

انتهت رئاستهم إلى علي بن إبراهيم الأنصاري الأوسي (ت٧٧٤هـ/١٣٤٢م)، الذي تعانى النظر في كتب الكيمياء والسيمياء، ومهر في المذهب الظاهري، ونسخ بخطه غالب تصانيف ابن حزم الظاهري، وتظاهر بالتمذهب به وناظر عنه وجادل، وأخذه عنه الشيخ أحمد بن علي القصار[٦]، ومع ذلك فلم أعثر له على مشاركة في في المجال الفقهي.

ويبدو أن هناك تقارباً بين منهج الشيخ ابن تيمية وأتباعه من جهة والظاهرية من جهة أخرى، كما يجمعهم أيضاً أنهم لم يكونوا مرغوبين لدى الدولة المملوكية بدرجة فقهاء المذاهب السنية الأخرى[٧]، ويتضح أن السلاطين كانت ترميهم عن قوسٍ واحدة كما في الخطاب الذي بعثه السلطان المملوكي إلى الشام سنة٧٨٤هـ/١٣٨٢م[٨]؛ لهذا لا نشهد لهم نشاطا كبيرا.

رابعا: علم الكلام (أصول الدين)

هو علم إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج عليها، ودفع الشبه عنها[٩]، وقد اعتبروه (أصول الدين) من أشرف العلوم لشرف معلومه وهو الله عز وجل، وهو الفقه الأكبر بالنسبة إلى فقه الفروع[١٠]. وقد شرح ابن خلدون اختلاف العلماء حول الآيات القرآنية المتعلقة بصفات الله والتي توهم التشبيه، فيقول: "فأما السلف فغلّبوا أدلة التنزيه لكثرتها ووضوح أدلتها، وعلموا استحالة التشبيه على الله، وقضوا بأن الآيات من كلام الله، فآمنوا بها ولم يتعرضوا لمعناها"، ثم قال: "وشذّ لعصرهم مبتدعة اتبعوا ما تشابه من الآيات، وتوغلوا في التشبيه، ففريق شبّهوا في الذات باعتقاد اليد والقدم والوجه، فوقعوا في التجسيم الصريح، ثم يفرون من شناعة ذلك بقولهم: جسم لا كالأجسام، وفريق منهم ذهبوا إلى التشبيه في الصفات كإثبات الجهة والاستواء والنزول والصوت والحرف، وآل قولهم أيضا إلى التجسيم"[١١].

---

[١] القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣ ص٢٥٢؛ وعاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص١٧١.
[٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٤٦، ١٥٤ـ ١٥٧.
[٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣٤، ج٤ ص٣٢١.
[٤] المواعظ والاعتبار، ج٣ ص٣٩٠.
[٥] الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٠٣، ٣٠٦.
[٦] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٥؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٤٥.
[٧] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص١٦٦ـ ١٦٧؛ والمجمع المؤسس، مج٣ ص٥٨.
[٨] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٢٥٨ــ ٢٦٠.
[٩] القنوجي، أبجد العلوم، ج٢ ص٦٧.
[١٠] ابن أبي العز: علي بن علي الحنفي، (ت٧٩٢هـ)، شرح العقيدة الطحاوية، ط٤، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٣٩١هـ، ص٦١.
[١١] ابن خلدون، المقدمة، ص٥٨٦- ٥٨٧.

لقد كان الكثير من علماء القاهرة ومعظم أرجاء الدولة المملوكية على عقيدة الإمام أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (ت٣٢٤هـ/٩٣٥م)؛ إذ حمل السلطان صلاح الدين الأيوبي الكافة على هذه العقيدة، وشرط ذلك في أوقافه، واستمر ذلك طوال عهد الأيوبيين والمماليك، فكان ذلك التبني الرسمي للمذهب الأشعري سببا في انتشاره واشتهاره، بحيث نُسيَ غيره من المذاهب[١]. وقد جاء الشيخ تقي الدين ابن تيمية ليقرر مذهب بعض الحنابلة القدامى، في عقيدة التجسيم والتشبيه[٢].

من اللافت أنه لا يوجد نتاج تأليفي كثير في هذا المجال في القاهرة مدة الدراسة، ولعل السبب هو أن الغالبية كانوا على مذهب واحد، ولا يوجد هناك خصومهم التقليديون (المعتزلة) وكانت مشاركتهم فيه تكاد تنحصر في الرد على ابن تيمية لارتباط القاهرة بالشام علميا وسياسيا.

ألّف ابن تيمية رسائل ومؤلفات كثيرة جدا؛ فقد ردّ على الفلاسفة في عدة كتب، منها (نصيحة ذوي الإيمان في الرد على منطق اليونان)، و(الرد على الفلاسفة)، و(إثبات المعاد) في الرد على بعض الفلاسفة المسلمين، كما ردّ على بعض الفرق الإسلامية التي اعتقد انحرافها عن الطريق القويم، وكتب في ذلك كتابه (بيان تلبيس الجهمية) في ستة مجلدات، وله (منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية)، ورسائل مختلفة ضد الفلاسفة، والقرامطة، والباطنية، والصوفية، كما ردّ على اليهود والمسيحيين[٣]. وألّف كتابي (العقيدة الحموية) و(الواسطية)[٤]، وفيهما يذكر أن اليد والقدم والساق والوجه صفات حقيقية لله تعالى، وأنه مستوٍ على العرش بذاته، ولما قيل له: إن ذلك يلزم منه التحيز والانقسام لم يُسَلّم أن التحيّز والانقسام من خواص الأجسام، وكان يتعصّب لآرائه لدرجة وقوعه في الأشاعرة، وسبّ أبا حامد الغزالي، وقد لاقى في سبيل صراحته ومجاهرته بآرائه هذه اضطهادا شديدا، ونكب نكبات عديدة[٥].

شهده الرحالة ابن بطوطة وهو على منبر الجامع الأموي بدمشق سنة٧٢٦هـ، وكان من جملة كلامه في الخطبة: "إن الله ينزل سماء الدنيا كنزولي هذا"[٦]. وفي القاهرة كان هناك أيضا الحافظ مسعود بن أحمد الحارثي العراقي ثم المصري (ت٧١١هـ/١٣١١م) وكان ابن دقيق العيد الأشعري ينفر عنه ويمتنع عن الاجتماع به؛ لاعتقاده وقوع الجهة في حق الله سبحانه وتعالى، وكان يتهمه بالدعوة إلى مذهبه[٧].

ردّ على ابن تيمية كثيرون منهم قاضي القضاة الحنفية شمس الدين أحمد بن إبراهيم السروجي (ت٧١٠هـ/١٣١٠م) كان فيه منصفا متأدّبا صحيح المباحث، ولما بلغ ابن تيمية تصدّى هو الآخر للرد عليه[٨]. وكان أعلم الأشاعرة في أصول الدين هو الإمام علي بن محمد بن خطاب الباجي (ت٧١٤هـ/١٣١٤م) وكان أذكى قريحة وأقدر على المناظرة، وعنه أخذ تقي الدين السبكي علمي الأصولين، غير أنه مع اتساع باعه في المباحث لم يترك أثرا مكتوبا ينسجم ومستواه العلمي غير كتاب (الرد على اليهود والنصارى)، كما اختير لمناظرة ابن تيمية ممثلا للأشاعرة لكن ابن تيمية اعترف له بالفضل ورفض مناظرته[٩].

---

[١] المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣ ص٣٨٩- ٣٩٠، ٤٢٦.
[٢] أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، ص١٨٢- ١٨٤.
[٣] النهار، العصر المفترى عليه، ص٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦.
[٤] طبعا طبعات كثيرة.
[٥] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٤.
[٦] ابن بطوطة، تحفة النظار، ج١ ص٦٨؛ وابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص١٤٩.
[٧] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٤٧- ٣٤٨.
[٨] ابن حجر، رفع الإصر، ص٤١- ٤٢.
[٩] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص١١، ١٠٢؛ والسبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج١٠ ص٣٣٩ -٣٤٢.

ويحضر الفقيه الشافعي صفي الدين محمد بن عبد الرحيم الأرموي الهندي (ت٧١٥هـ/١٣١٥م) باعتباره أبرز الاشاعرة الذين تصدّوا لمناظرة الشيخ ابن تيمية في دمشق، وهو الذي قال لابن تيمية لما رآه يخرج من موضوع إلى آخر أثناء المناظرة: أنت مثل العصفور تنط من هنا إلى هنا، وكان قد أقام في القاهرة أربع سنوات قبل استقراره في الشام، وصنّف في أصول الدين (الفائق)، و(الزبدة)، و(الرسالة التسعينية في الأصول الدينية)[١]، وفي وفي هذا الكتاب جمع تسعين مسألة في العقائد كانت عبارة عن إيضاح رأي الأشاعرة في كثير من القضايا التي أثارها الشيخ ابن تيمية في الشام بلفظ مختصر، ووضعت ليحفظها الطلاب عن ظهر قلب[٢].

ثم أتى قاضي القضاة بدر الدين محمد بن إبراهيم ابن جماعة (٧٣٣هـ/١٣٣٢م) فكتب رسائل عديدة في العقيدة تصب في هذا الإطار، وهو الرد على الحنابلة المتهمين بالتجسيم والتشبيه من قبل خصومهم الأشاعرة، فكتب (التنزيه في إبطال حجج التشبيه)، و(الرد على المشبّه في قوله تعالى الرحمن على العرش استوى)[٣]، كما ألّف كتاب (إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل) ذكر فيها "معاني ما تمسّك به المشبّهة من الآيات الكريمة والأخبار الصحيحة والحسنة والسقيمة، وما يجب رد معانيها إليه، ويتعين حملها عليه، مما يليق بجلال عظمته، وكمال صفاته، حملا لها على معانيها الصحيحة الموافقة لمدلولاتها اللغوية[٤].

أثنى أبو حيان محمدُ بن يوسف (ت٧٤٥هـ/١٣٤٤م) على الشيخ ابن تيمية أول الأمر، ثم ما لبث أن انحرف عنه بسبب مخالفته له في المذهب، فذكره في تفسيره الصغير بكل سوء، ونسبه إلى التجسيم[٥].

وردّ الشيخ تقي الدين علي بن عبد الوهاب السبكي (ت٧٥٦هـ/١٣٥٥م) على ابن تيمية وهو لا يزال في القاهرة قبل توليه قضاء دمشق سنة ٧٣٩هـ/١٣٣٨م؛ إذ له كتاب (الرد الكبير) و(الرد الصغير) على ابن تيمية في مسألة الطلاق، وله (شفاء السقام في زيارة خير الأنام) في الرد عليه حين استنكر زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم[٦]، كما ردّ عليه وعلى تلميذه ابن قيم الجوزية محمد بن أبي بكر (ت٧٥١هـ/١٣٥٠م) برسالة (الاعتبار ببقاء الجنة والنار)، أورد فيها حوالي مئة آية استدل بها على بقاء الجنة والنار من غير فناء[٧]، وله رسالة في (فناء الأرواح)، وأخرى في (التقليد في أصول الدين)[٨].

وألف قاضي الحنفية سراج الدين عمر بن إسحاق الهندي (ت٧٧٣هـ/١٣٧١م) شرحا على عقيدة الطحاوي المسماة (بيان أهل السنة والجماعة) لمؤلفها الإمام أحمد بن سلامة الطحاوي الحنفي (٣٢١هـ/٩٣٣م)[٩]، ومتن الطحاوية هذا هو الذي شرحه أحد الحنفية المتأثرين بفكر الإمام ابن تيمية الحنبلي، وهو الشيخ صدر الدين علي بن علي ابن أبي العز الحنفي (ت٧٩٢هـ/١٣٨٩م)، وهو الذي صدر بحقه مرسوم سلطاني مملوكي سنة٧٨٤هـ إلى نائب الشام يأمر باستتابته في تلك المسائل التي كان قد أثارها الشيخ ابن تيمية، وقد كشف ذلك الخطابُ استمرارَ

---

[١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص١٤؛ وابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، ج٢ ص٢٢٨؛ والزركلي، الأعلام، ج٦ ص٢٠٠.
[٢] الأرموي: محمد بن عبدالرحيم الهندي، (ت٧١٥هـ)، الرسالة التسعينية، ت. جلال علي عامر، وعبد الملك أحمد أحمد، (بدون رقم طبعة ولا مكان نشر، ولا تاريخ)، ص٧.
[٣] ابن حجر، رفع الإصر، ص٣٤٢؛ والبغدادي، هدية العارفين، مج٢ ص١٤٨.
[٤] ابن جماعة: محمد بن إبراهيم الحموي، (ت٧٣٣هـ)، إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل، ت. وهبي سليمان الألباني، ط١، دمشق، دار إقرأ، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م، ص١١٤.
[٥] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٠٨.
[٦] السبكي: علي بن عبدالكافي، (ت٧٥٦هـ)، شفاء السقام بزيارة خير الأنام، ت. حسين علي شكري، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م، ص٨٥، ٨٦.
[٧] صنفها سنة ٧٤٨هـ. السبكي: عبدالوهاب بن علي، (ت٧٧١هـ)، الاعتبار ببقاء الجنة والنار، ضمن مجموع لأربع رسائل في الرد على ابن تيمية، ت. محمد زاهد الكوثري، دمشق، مطبعة الترقي، ١٣٤٧هـ، ص٦٠، ٦٨.
[٨] السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج١٠ ص١٦٧، ٣٠٨- ٣١٠؛ وينظر النهار، العصر المفترى عليه، ص٣٤٨- ٣٤٩.
[٩] ابن حجر، رفع الإصر، ص٢٨٨؛ وسركيس، معجم المطبوعات، ج٢ ص١٢٣٢- ١٢٣٣.

خصومةِ الدولة لفكر ابن تيمية بشأن علاقته بالأشاعرة[1]، وكتاب ابن أبي العز (شرح العقيدة الطحاوية) هو معتمد الجامعات والمعاهد الدينية السلفية اليوم.

ونأتي إلى العلامة أكمل الدين البابرتي (ت٧٨٦هـ/١٣٨٤م) الذي شرح عقيدة نصير الدين الطوسي أبي جعفر محمد بن محمد (ت٦٧٢هـ/١٣٧٠م) المسماة بـ(تجريد الكلام)[2].

وهناك وجود لأتباع المذهب الماتريدي[3] في القاهرة متمثلا في العلامة ضياء الدين بن سعد الله بن محمد القزويني القرمي (ت٧٨٠هـ/١٣٧٨م)، أخذ عن القاضي عضد الدين وغيره، وتقدم في العلم، حتى أن الشيخ سعد الدين التفتازاني كان أحد من قرأ عليه، وكان ماهرا في الفقه والأصول والمعاني والبيان، وكان يقول: (أنا حنفي الأصول، شافعي الفروع)[4]، والمعروف أن حنفية الأصول هم الماتريدية وهم حنفية ما وراء النهر، وليس معروفا أنه كتب في الموضوع مؤلفا.

وهناك العلامة سليمان الياسوفي (ت٧٨٩هـ/١٣٨٧م) ممن تأثر بثورة ابن البرهان الظاهري (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، وانخرط فيها ضد السلطان برقوق، صنف كتابا في حرمة الخروج على السلطان، لكنه في نهاية المطاف خرج هو عليه؛ لأنه كان يؤمن بوجوب أن يكون الإمام من قريش كما يظهر من محاورته للسلطان برقوق كما مر[5].

ونحى الشيخ الحنبلي المثير نجم الدين سليمان بن عبد القوي الطوفي (ت٧١٦هـ/١٣١٦م) منحى آخر فصنّف في الرد على النصارى كتابا سماه (الانتصارات الإسلامية في دفع شبه النصرانية)، أجاب به على نصراني متمكّن أورد طعونا ضد نبوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ويتميز كتاب الطوفي هذا بغزارة المادة العلمية وسعة الاطلاع، وبأنه من الردود البالغة ضد النصارى الطاعنين في الإسلام، كما تميّز بالدقة وحسن الترتيب ووضوح المعاني، وفيه قدر جيد من الأجوبة الكافية على الإشكالات المثارة بين المسلمين والنصارى حتى عصرنا هذا[6]. والكتاب وسببه يشيران إلى حالة الحوار التي كانت تشغل حياة المجتمع الفكرية والاجتماعية بين أفراده المختلفين في العقيدة.

خامسا: التصوف

عرّفه صاحب أبجد العلوم[7] بأنه "علم يعرف به كيفية ترقي أهل الكمال من النوع الإنساني في مدارج سعادتهم والأمور العارضة لهم في درجاتهم بقدر الطاقة البشرية". وأصله قديم منذ الصحابة والتابعين في العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله والإعراض عن زخارف الدنيا والزهد فيما يُقْبِل عليه الناس، والانفراد والخلوة للعبادة، ولما فشا الإقبال على الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية في القرن الثاني الهجري، ولما كتبت العلوم ودُوِّنَتْ كَتَبَ رجالٌ من أهل هذه الطريقة في طريقتهم[8].

---

[1] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٢٥٨- ٢٦٠.
[2] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٢٥٠- ٢٥١؛ وحاجي خليفة، كشف الظنون، مج١ ص٣٥١.
[3] نسبة إلى الشيخ أبي منصور محمد بن محمد الماتريدي (ت٣٣٣هـ)، حيث يقرر الكثير من حنفية ما وراء النهر أن ما توصل إليه الماتريدي هو عقيدة أبي حنيفة ذاتها، ويقفون في كثير من آرائهم وسطا بين الأشاعرة والمعتزلة، وأهم ما يميزهم عن الأشاعرة أنهم يقولون بحجية العقل بخلاف الأشاعرة. أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، ص١٧١، ١٧٢.
[4] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٢٠٩، ٢١٠؛ وإنباء الغمر، ج١ ص١٨٣، ١٨٤.
[5] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٣٤٠- ٣٤١؛ والمقريزي، السلوك، ج١ ص٩٨.
[6] الطوفي: سليمان بن عبد القوي، (ت٧١٦هـ)، الانتصارات الإسلامية، تحقيق ودراسة سالم بن محمد القرني، ط١، الرياض، مكتبة العبيكان، ١٤١٩هـ - ٢٠٠٩م، ج١ ص١٩٥، ٢٠١، ٢٠٢ (مقدمة المحقق)، ص٢٢٧ (الكتاب).
[7] القنوجي، ج٢ ص١٥٢.
[8] ابن خلدون، المقدمة، ص٦١١، ٦١٢.

في العصور المتأخرة أحاطت بالعالم الإسلامي بوجه عام أحوالٌ قاسية منها هجوم التتار من المشرق والمسيحيين في الأندلس، ولم تبذل حكومات المسلمين آنذاك جهدا كافيا لتخفيف الأحوال القاسية، وظل المماليك في مصر مستأثِرين بالسلطة والثروة بعيدا عن بقية السكان، في حين وفَد إلى مصر في هذا القرن كثير من شيوخ الصوفية، مثل أبي الحسن الشاذلي علي بن عبد الله المغربي (ت٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، وأبي العباس المرسي أحمد بن عمر (ت٦٨٦هـ/١٢٨٧م) والسيد أحمد بن علي الحسيني البدوي (ت٦٧٥هـ/١٢٧٦م)، فوجدوا عامة الشعب المصري في ضيق ونكد، علاوة على كثرة المجاعات والأوبئة التي أصابتهم[١].

تعدّدت الآراء في التصوف والصوفية مدحا وقدحا، ولعل السبب الأهم في ذلك يعود لتنوع المدارس والتيارات الصوفية، ومن المفيد الإشارة إلى أن ذلك النوع من التصوف والذي يعود إلى تصوف القرون الأولى المتمثل في الزهد والعبادة والانقطاع إلى الله، والذي لم تَشِبْهُ الفلسفات التي ظهرت في العصر المتأخر - كان محل إجماع العلماء على اختلاف اتجاهاتهم، وأوصى أئمة العلم بنيهم وذويهم به، وأحبوه ورضوه لأنفسهم[٢].

لقد ظهرت قبل القرن الثامن نظريات صوفية كانت محل خلاف، ومنها **نظرية الحلول**، التي ترى أن الإله يحل في جسم عبد من عباده، كقول بعض المسيحيين عن حلول الله في عيسى (ع)[٣]. **ونظرية الاتحاد**، وهو امتزاج شيئين أو أكثر في كلٍّ متصلِ الأجزاء، وهو أعلى مقامات النفس لدى القائلين بهذه الفلسفة، ويصبح الواصل معه كأنه والباري شيء واحد، فيخترق الحجب، ويرى ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ومن القائلين بهذه الفلسفة الشيخ عمر بن علي، ابن الفارض، ولد وعاش وتوفي (سنة٦٣٢هـ/١٢٣٤م) في القاهرة، وشعره "ينعق بالاتحاد الصريح"، واختلف حوله الفقهاء؛ فمنهم من كفره، ومنهم من تولاه، ومنهم من وقف فيه، وله القصيدة (التائية في نظم السلوك)، وانتقدوا عليه فيها إطلاقه ضمير المؤنث على الله تعالى فيها، والقول بالاتحاد، وكفّره الشيخ نجم الدين أحمد بن حمدان الحنبلي الحراني (٦٩٥هـ/١٢٩٥م)، والشيخ سراج الدين البلقيني[٤]. وهناك **نظرية وحدة الوجود**، وهو مذهب يقول: إن الله والعالم حقيقة واحدة، ولا حقيقة موجودة إلا الله، وهذا العالم بما فيه من مخلوقات إنما هو أعراض ومظاهر لوجوده تعالى، أو مجرد تجليات وفيوضات مستمدة منه[٥]، وتبنّى هذه المقولة الشيخ محيي الدين محمد بن علي الحاتمي الطائي الأندلسي المشهور بابن عربي (ت٦٣٨هـ/١٢٤٠م) في دمشق، وكان قد دخل القاهرة، وجاور بمكة، وخلّف تراثا هائلا من المؤلفات، ومنها كتاب (فصوص الحكم)، و(الفتوحات المكية)، ومن يقرأهما قراءة مستفيضة يجد أن الرجل لا يعترف بالوجود الحقيقي إلا لله تعالى، وهذا الخلق كله ظلٌّ للوجود الحق، ولا وجود له بذاته[٦].

أرجع أبو حيان هذه الفلسفة إلى تأثّرٍ بـ"بعض اعتقادات النصارى"، وذهب إلى وصف أصحاب القول بالاتحاد والوحدة بـ(الملاحدة)، ونصّ على ابن الفارض، وابن عربي، وابن سبعين، والأيكي الآملي العجمي معاصره، شيخ خانقاه سعيد السعداء، وأورد أسماء كثيرٍ منهم تحذيرا على حد قوله، باعتبارهم شرا من الفلاسفة الذين "يكذّبون الله تعالى ورسله، ويقولون بقدم العالم، وينكرون البعث"، ويذكر أن زمنه (القرن الثامن) حفل بكثير من مشايخ الصوفية والفقراء[٧]، وروى أن شيخه المحدّث والصوفي قطب الدين أبا بكر محمد بن أحمد القسطلاني

[١] عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص١٧٩- ١٨٠.
[٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٦٨- ٦٩؛ والسبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج١٠ ص٢١٩؛ ومعيد النعم، ص١٢٣.
[٣] المعجم الفلسفي، إعداد مجموعة من الباحثين، وإصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة، القاهرة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ص٧٦.
[٤] ابن حجر، لسان الميزان، ج٦ ص١٢٣، ١٢٤، ١٢٥؛ وحاجي خليفة، كشف الظنون، مج١ ص٣٨٢، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٧.
[٥] المعجم الفلسفي، ص٢١٢.
[٦] ابن حجر، لسان الميزان، ج٧ ص٣٩١- ٣٩٢؛ وفتاح: عرفان عبد الحميد، نشأة الصوفية وتطورها، ط١، بيروت، دار الجيل، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، ص٢٥٨، ص٢٥٨، ٢٦٦.
[٧] أبو حيان، البحر المحيط، ج٣ ص٤٦٤- ٤٦٥.

(ت٦٨٦هـ/١٢٨٧م) صنّف كتابا فيهم، وذكر فيه أحوالهم وكلامهم وأشعارهم، وفيها ما يدل على اعتقادهم هذا المذهب[١].

ألّف الشيخ الحنبلي أحمد بن حمدان الحنبلي الحراني القاهري (٦٩٦هـ/١٢٩٦م) مصنفا حافلا شرح فيه تائية ابن الفارض شرح نقد، وخلُص فيه إلى تكفيره[٢]، ومن المعروف تلك الحملات العنيفة للشيخ ابن تيمية ضد الصوفية، ولا سيما أهل الحلول والاتحاد.

وكثر من أهل القرن الثامن المُعْتَقَدون والمجاذيب الذين مارسوا بعض الممارسات المخالفة لشرائع الإسلام وتقاليده[٣]، ومنهم من اتخذ الخوانق والزوايا أسبابا للحصول على الدنيا التي من المفترض أنه زهد فيها، كما اتخذوا اتخذوا من الدلوق المرقّعة طرائق للدنيا[٤]. وفي القاهرة وجد التصوف بتياراته المختلفة، فهناك التصوف العادي الذي يعني العبادة وكثرة الذكر والزهد، وهذا يكثر في جانب الفقهاء المتعلمين، وهناك من تأثر بالتصوف ذي النظريات الغريبة.

كتب الشيخ ابن تيمية إلى الشيخ الصوفي نصر المنبجي ينكر عليه اعتقاده استقامة الشيخ محيي الدين ابن عربي وولايته، ونسبه إلى القول بالاتحاد "الذي هو حقيقة الإلحاد" على حد وصفه؛ الأمر الذي أثار الشيخ نصر ليلقي بثقله على سلطان مصر بيبرس الجاشنكير الذي أمر بحبس ابن تيمية[٥]، وكما تكلم في شيوخ الصوفية في القاهرة وأنكر عليهم أضاف أنه لا يستغاث بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، فاجتمع جمْعٌ منهم إلى الشيخ الصوفي تاج الدين ابن عطاء الله الإسكندري (ت٧٠٩هـ/١٣٠٩م) لاتخاذ موقف ضده[٦].

ورغم اختلافهم مع ابن تيمية فإن خير من يمثل الصوفية غير الفلسفية هو هذا الشيخ ابن عطاء الله أحمد بن محمد بن عبد الكريم الإسكندري، وكان قد صحب الشيخ أبا العباس أحمد بن عمر المرسي (ت٦٨٧هـ/١٢٨٨م) الذي ورث عنه معارف عظيمة جعلت منه حكيما من حكماء عصره، ثم سكن القاهرة، وأنتج بعض المؤلفات التي تعكس موهبته الحِكْمية الرائعة، وأعظمها ما عرف بـ(الحكم العطائية)[٧]، وهي حكم منثورة على لسان أهل الطريقة، كثُر شراحها[٨]، حتى عصرنا الحاضر، وتنقسم إلى ثلاثة أقسام: قسم حول التوحيد وحمايته من تسرّب شيء من المعاني الخفية للشرك، وقسم يدور على محور الأخلاق وإلى تزكية النفس، وقسم يدور حول السلوك وأحكامه المختلفة[٩]. ومن مؤلفاته أيضا (التنوير في إسقاط التدبير)، ويدور حول رفض التدبير والتخطيط للمعيشة والحياة، وأن هذا الرفض أهمُّ سبب يوصل المريد إلى الحضرة الإلهية، والمتلوّث به لا يصلح لتلك الحضرة القدسية[١٠]، وله أيضا رسالة (تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس)، وتدور مباحثه حول الموضوعات الوعظية

---

[١] أبو حيان، البحر المحيط، ج٥ ص٣٢.
[٢] حاجي خليفة، كشف الظنون، مج١ ص٢٦٧.
[٣] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص١٢٥، ٣٥٠- ٣٥١، ٤٤٢، ج٤ ص١٢- ١٤.
[٤] السبكي، معيد النعم، ص١٢٥.
[٥] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص١٥٤.
[٦] المصدر السابق، ج١ ص٢٧٣- ٢٧٤.
[٧] طبع مفردا ومشروحا.
[٨] حاجي خليفة، كشف الظنون، مج١ ص٦٧٥.
[٩] البوطي: محمد سعيد رمضان، شرح الحكم العطائية، دمشق، دار الفكر، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، ج١ ص١٠.
[١٠] ابن عطاء الله: أحمد بن محمد الإسكندري، (ت٧٠٩هـ)، التنوير بإسقاط التدبير، مصر، ١٣٠٠هـ، ص٣، ٤، ٥؛ وحاجي خليفة، كشف الظنون، مج١ ص٥٠٢.

الصوفية المعروفة أيضا[١]، وله أيضا (مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح)، وتدور موضوعاته حول الذكر لله عز وجل ومعانيه وفوائده[٢]، وله (لطائف المنن)، وله أيضا (المرقى إلى القدس الأنقى)[٣].

ومنهم الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد الغني بن سرور الحسني (ت٧٠٣هـ/١٣٠٣م)، أخذ التصوف عن أبي الحجاج يوسف بن عبد الرحيم الأقصري (ت٦٤٢هـ/١٢٤٤م)، ومحيي الدين ابن العربي، وصنّف (النظم الكاشف للفهم عن المعارف)[٤]، وله قصيدة تسمى (اليعسوبة)، وخلف ديوان شعر، وفي ديوانه هذا ترتيب هيكل الصوفية الداخلي، والغريب أن أحد صوفية زبيد، وهو حسن بن يوسف الزبيدي أخذ مكانة مرموقة فيه باعتباره (الخضر) في ذلك الزمان، وهو أمر يشير إلى الارتباط الروحي الصوفي بين مدينة القاهرة ومدينة زبيد اليمنية في القرن الثامن الهجري، لقي ابن سرور الحسني أبا حيان في جامع عمرو بن العاص بالقاهرة، وأنشده شعرا فيه نفَس الاتحادية[٥]، وكان أبو حيان يعتبره من أتباع ابن عربي[٦]، وهو أمر يشير إلى وجود هذه النظرية في القاهرة منذ وقت مبكر في أول القرن.

ومنهم تلميذه عبد الغفار بن أحمد القوصي الأقصري (٧٠٧هـ/١٣٠٤م)، بنى رباطا حسنا بظاهر قوص في سنة٧٠٠هـ/١٣٠٠م، وهاجم هو وأتباعه كنائس النصارى فيها، ففرضت عليه السلطة المملوكية مغادرة قوص إلى القاهرة، صنّف كتابا هو (الوحيد في سلوك أهل التوحيد)[٧]، اشتمل على حكايات الصالحين من الصوفية من رآه منهم، ومن بلغه عنهم، من "الأقطاب والأوتاد" في كل إقليم[٨]، ونقل فيه كلاما وقصصا عن شيخه السابق ابن سرور الحسني[٩]، وهو كتاب مهم يكشف كثيرا من الثقافة السائدة لدى الصوفية في مصر والقاهرة.

وهناك كريم الدين بن الحسين الآملي الطبري (ت٧١٠هـ/١٣١٠م) شيخ خانقاه (سعيد السعداء)، الذي كان ابن تيمية كثير الحط عليه، وطعن أبو حيان فيه، تكلّم مرّة بحضرة الشيخ ابن دقيق العيد فلم يفهم تراكيب ألفاظه رغم فهمه للمفردات[١٠].

وبعد ذلك نأتي إلى علي بن يوسف بن حريز الشطنوفي اللخمي (ت٧١٣هـ/١٣١٣م)، ولد في القاهرة، وأخذ القراءات والحديث عن شيوخها، وولي تدريس التفسير في الجامع الطولوني والإقراء بالحاكم، وكان الناس يكرمونه وينسبونه إلى الصلاح، كتب (بهجة الأسرار ومعدن الأبرار في مناقب السادة الأخيار من المشايخ الأبرار) خصّص ما يقارب نصفه في مناقب الشيخ عبد القادر الجيلاني (ت٥٦١هـ/١١٦٥م)، وذكر آخرين من الأولياء، غير أنه ذكر فيه عجائب وغرائب طعن الناس في كثير منها[١١].

[١] ابن عطاء الله: أحمد بن محمد الإسكندري، (ت٧٠٩هـ)، تاج العروس، القاهرة، دار جوامع الكلم، فهرس الموضوعات.
[٢] ابن عطاء الله: أحمد بن محمد الإسكندري، (ت٧٠٩هـ)، مفتاح الفلاح، ت. محمد عبد السلام إبراهيم، بيروت، دار الكتب العلمية.
[٣] حاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ص١٦٥٨.
[٤] القوصي: عبد الغفار بن أحمد، (ت٧٠٧هـ)، الوحيد في سلوك أهل التوحيد، مخطوط بجامعة الملك سعود، تحت رقم ٥٨٩٢، المكتبة المركزية، قسم المخطوطات، موجود في مكتبة المصطفى الإلكترونية على النت، ق٣٠/ أ- ٣٠/ ب.
[٥] تعبّر بعض المصادر عن فلسفة الوحدة بالاتحاد كما ورد هنا، وفي مواضع أخرى.
[٦] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣٧٣- ٣٧٤.
[٧] المصدر السابق، ج٢ ص٣٨٥، ٣٨٦.
[٨] حاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ص٢٠٠٥.
[٩] الوحيد –خ- في مواضع كثيرة ومتفرقة.
[١٠] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ص٣٧٩.
[١١] المصدر السابق، ج٣ ص١٤٦- ١٤٧، وحاجي خليفة، كشف الظنون، مج١ ص٢٥٦- ٢٥٧.

ثم يأتي محمد بن عبد الرحيم بن عمير الجزري الباجربقي (ت٧٢٤هـ/١٤٢٣م) الذي كثر أتباعه، وكان يُظْهِر لهم من الخوارق ما يخلب به عقولهم، حتى انصاع له صدر الدين ابن الوكيل مع سعة علمه، وأورد له ابن حجر غرائب عجز عن تفسيرها[١].

ثم يأتي القاضي علاء الدين علي بن إسماعيل بن يوسف القونوي (ت٧٢٩هـ/١٤٢٨م) من الصوفية المعتدلين الذي "ملأ بالسيادة والرئاسة أرجاء شامه ومصره" على حد قول الأسنوي، تخرّج به أكثر علماء المصريين، ثم ولي قضاء الشام، ورغم مخالفته للشيخ ابن تيمية في مسائل إلا أنه اتصف بالإنصاف والشهامة في التعامل معه، وكان يتشدد ضد (الفصوص) لابن عربي، ومع ذلك فقد شرح كتاب (التعرُّف لمذهب التصوف) للشيخ أبي بكر محمد بن إبراهيم الكلاباذي (ت٣٨٠هـ) في كتابه (التصرُّف في شرح التعرُّف)[٢].

وعاصره في القاهرة الصوفي الأديب شرف الدين عيسى بن محمد بن قراجا السهروردي الواعظ (ت٧٢٩هـ/١٣٢٨م) وله أدب كثير ومعرفة بالألحان والأنغام[٣]، صنّف (معلم الطرفين بما حوته ساداتنا العلماء من من الشرفين) في العقيدة والتصوف[٤].

ومنهم أحمد بن عبدالله الأزدي المراكشي نزيل القاهرة (ت٧٣٠هـ/١٣٢٩م) نحوي، جنح للتصوف الفلسفي، ونسخ بعض كتب ابن عربي، ولذلك اتهمه أبو حيان بالزندقة، واتهم هو أبا حيان بكونه ظاهريا حتى في النحو، وألّف كتبا[٥] لا نعرف عنها شيئا. وهناك عبد اللطيف بن بلبان السعودي (ت٧٣٦هـ/١٣٣٥م)، وكان خيّرا متدينا، وله شعر على طريقة الصوفية، وهو من أتباع الطريقة السعودية المنسوبة إلى الشيخ أبي السعود[٦]، وليس من المعروف إن كان على علاقة بالتصوف الفلسفي.

وكتب المؤرخ كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب الأدفوي (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م) كتاب (الموفي في معرفة التصوف والصوفي)، ويعتبر كتابا مهما في معرفة التصوف الحقيقي والزائف من خلال ما شاهده مؤلفه من أحوال متصوفي عصره وأعمالهم وتصرفاتهم، وعرّف فيه الصوفي الحقيقي، وذكر أهم ضوابطه، ليجيب على التساؤل الفقهي حول مشروعية الوقف على الصوفية، الذي هو جوهر هذه الرسالة، حيث رأى بأم عينيه الانحراف لدى كثير من هؤلاء المتصوفة والذي أثّر سلبا في هذا الجانب الاجتماعي والاقتصادي[٧].

ونلتقي بالشيخ شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد المؤمن الأسعردي، ابن اللبان (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م) تفقّه وبرع في الفنون، وكان شاذلي الطريقة، وعظ الناس، وضُبِطت عليه كلمات على طريقة الاتحادية، فثار عليه الفقهاء، وأنقذه ابن فضل الله من يد القاضي المالكي، ومن مصنفاته كتاب على لسان الصوفية، قال فيه ابن حجر: "وفيه من إشارات أهل الوحدة، وهو في غاية الحلاوة لفظا، وفي المعنى سم ناقع"[٨]، ولعله يقصد كتابه في الآيات المتشابهات المتشابهات المتقدم في التفسير. ويجيء بعد ذلك الشيخ عماد الدين محمد بن الحسن الأسنوي ثم المصري

---

[١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص١٢- ١٤.
[٢] المصدر السابق، ج٣ ص٢٤، ٢٥، ٢٦؛ وحاجي خليفة، كشف الظنون، مج١ ص٤١٩.
[٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٢٠٩- ٢١٠.
[٤] البغدادي: إسماعيل باشا، (ت١٣٣٩هـ)، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ج٢ ص٥١٣؛ وينظر النهار، العصر المفترى عليه، ص٣٥٥.
[٥] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص١٨٥.
[٦] المصدر السابق، ج٢ ص٤٠٦، وله ترجمة أخرى فيها (ج١ ص٣٩٢) باسم بلبان بن عبد الله السعودي، ويترجّح أن اسمه (عبد اللطيف بن بلبان) كونه ورد كذلك في أعيان العصر ج٣ ص١٥٤.
[٧] الأدفوي: جعفر بن ثعلب، (ت٧٤٨هـ)، الموفي بمعرفة التصوف والصوفي، ت. محمد عيسى صالحية، ط١، الكويت، مكتبة دار العروبة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، مقدمة المحقق ص٢١، ٢٢، ٢٣.
[٨] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٣٣٠- ٣٣١.

(ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م) أخذ عن شيوخ القاهرة والشام، وكان نظّارا بحاثا، صنّف في التصوف (حياة القلوب في كيفية الوصول إلى المحبوب)[١].

وعاصره الشيخ محمد وفاء بن محمد الشاذلي الإسكندري (ت٧٦٥هـ/١٣٦٤م) مغربي الأصل، استقر في القاهرة في الروضة، وأنشأ قصائد على طريقة ابن الفارض، وكان واعظا مفوها له تأثير واسع على القلوب، وله أتباع يغالون فيه[٢]، واستمرت مشيخة الصوفية في ذريته من بعده[٣]، صنّف (تأصيل الزمان وتفصيل الأكوان)، و(ترجمان الأشواق وروضة العشاق)، و(حزب السادات في جميع العبادات)، و(شعائر العرفان في ألواح الكتمان)، و(نفائس العرفان في أنفاس الرحمن)[٤]. قال محقق كتابه[٥] (شعائر العرفان): "وله رموز في منظوماته ومنثوراته مطلسمة، لا يعلمها إلا آحاد أفراد من الكمل، لم يقع الإنكار عليهم مثلما حدث مع الشيخ ابن العربي قدس سره، رغم عظمة وفخامة ما تكلموا به؛ لدقة كلامهم، وغرابة وعلو لسانهم، فإن كلامهم تعقل مفرداته، ولا تعقل جمله".

وهناك الشيخ يوسف بن عبد الله بن عمر العجمي الكردي الكوراني (ت٧٦٨هـ/١٣٦٦م) كان أعجوبة زمانه في تسليك المريدين[٦]، وكان له أتباع ومريدون، وألف رسالة (ريحان القلوب في الوصل إلى المحبوب)، تتضمن شرائط التوبة، ولبس الخرقة، وتلقين الذكر، واشتهر عنه ذكر ملأ الآفاق[٧]، وله رسالة بعنوان (بيان أسرار الطالبين) في التصوف أيضا[٨].

وهناك الشيخ الواعظ شهاب الدين أحمد المقدسي ثم المصري (ت٧٦٩هـ/١٣٦٧م) ولي الوعظ في خانقاه سرياقوس حتى مات، وصنّف كتابا في التصوف[٩]، وهو (اختيار الرفيق لطلاب الطريق)[١٠]. وكان الشيخ سراج الدين الهندي (ت٧٧٣هـ/١٣٧١م) متأثرا بفلسفة ابن الفارض، وقد شرح تائيته، ولما هاجمه الأديب ابن أبي حجلة التلمساني عاقبه القاضي الهندي بالسجن، وللهندي أيضا (لوائح الأنوار في الرد على من أنكر على العارفين لطائف الأسرار)[١١].

ومنهم الشيخ بهاء الدين محمد بن عبد الله الصوفي الكازروني (ت٧٧٣هـ/١٣٧١م)، قدم من بلاده متصوفا، وسكن الروضة، وكانت لديه قدرة تأثيرية عالية على صغار السن والمردان، فاجتمعوا حوله، ولم يستطع أهاليهم استرجاعهم، وكان يأمر بعضهم بنسخ كتب ابن عربي له، وهو شخصية مثيرة وغريبة[١٢].

ثم نأتي إلى ولي الدين محمد بن أحمد بن إبراهيم الديباجي المعروف بالمنفلوطي (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، تفقّه، وكانت له معرفة قوية بالمنطق والأصلين، والفقه، والتصوف، وصل بلاد الروم (تركيا حاليا)، وخدم بها جماعة

---

[١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٤٢١- ٤٢٢؛ وسركيس، معجم المطبوعات، ج١ ص٤٤٧.
[٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٢٢٩؛ وينظر الزركلي، الأعلام، ج٧ ص٣٧- ٣٨.
[٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٢٧٩.
[٤] البغدادي، إيضاح المكنون، ج١ ص١٦١، ٢١٩، ٤٠١، ج٢ ص٤٩؛ وهدية العارفين مج٢ ص١٦١، وكثير من هذه الرسائل مطبوع، وديوانه أيضا طبع باعتباره رسالة جامعية قدمت في جامعة الجزائر سنة١٩٩٥- ١٩٩٦م.
[٥] الشاذلي: محمد وفاء بن محمد الإسكندري، (ت٧٦٥هـ)، شعائر العرفان في ألواح الكتمان، ت. أحمد فريد المريدي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م ، مقدمة المحقق، ص٣- ٤.
[٦] المسلك بتشديد اللام المكسورة من ألقاب الصوفية، وهو اسم فاعل من تسليك الطريق وهو تعريفها، والمراد تعريف المريدين الطريق إلى الله تعالى. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٦ ص٢٨.
[٧] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٤٦٣.
[٨] حاجي خليفة، كشف الظنون، مج١ ص٢٦٠.
[٩] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص١٤٠.
[١٠] كحالة: عمر رضا، معجم المؤلفين، ط١، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤١٤هـ - ١٩٨٤م، ج١ ص١٤٧.
[١١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص١٥٤- ١٥٥؛ والبغدادي، هدية العارفين، مج١ ص٧٩٠.
[١٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٤٨٨.

من الصوفية، ورجع إلى دمشق، وقدم القاهرة مرارا ثم استوطنها، ودرّس بالقبة المنصورية وغيرها، وكان يميل إلى مقالة ابن عربي، ويدندن حولها في مصنفاته، ولا يكاد يفصح، وكان يحضر السماع (مجالس الغناء)، ويرقص أحيانا[1]، ومؤلفاته بديعة التركيب[2]، ومنها (إرشاد الطائف إلى علم اللطائف)[3].

وقد نَسَب ابن خلدون الشيخ أكمل الدين البابرتي إلى مذهب ابن عربي، مذهب أهل الوحدة[4]. وممن أفصح بعقيدة بعقيدة الاتحاد وصرّح بها الشيخ بدر الدين أحمد بن محمد، ابن الصاحب المصري (ت٧٨٨هـ/١٣٨٦م)، وكان يتعصّب لابن عربي، ويكثر الشطح[5].

ثم نأتي إلى من فاق أهل زمانه في حسن الوعظ وإنشاء الخطب البليغة، وهو القاضي محمد بن عبد الدائم الشاذلي المعروف بابن بنت الميلق (ت٧٩٧هـ/١٣٩٤م) سلك طريقة التصوف، وعني بالعلم، ولحسن خطابته ضُمّ إلى الفقهاء[6]، وصنّف كتبا في الوعظ والرقائق[7]، منها (جواب من استفهم عن اسم الله الأعظم)، و(حادي القلوب إلى لقاء المحبوب)، و(الوجوه المسفرة عن تيسير أسباب المغفرة)[8].

ثم إلى الشيخ أبي عبد الله محمد بن سلامة التوزري المغربي (ت٨٠٠هـ/١٣٩٧م) نزيل القاهرة، وكان مستحضرا لكثير من الأصول والفقه، وصحب السلطان برقوق واعتقده، ولما قدم عليه عظّمه، وكان يدعو إلى مقالة ابن عربي، ويناضل عنها ويناظر عليها، وقع له مع الشيخ البلقيني مقامات، وكتب عليه الفقهاء محضرا بتكفيره، لكنهم لم ينجحوا في قتله أو إبعاده بسبب علاقته القوية بالسلطان[9].

ونختم بأبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن وفاء الشاذلي، ولد المتقدم ذكره (ت٨٠٧هـ/١٤٠٣م)، اشتغل بالأدب والوعظ، وأحدث ذكرا بألحان وأوزان يجمع الناس عليه، ونظم شعرا كثيرا، أنكر عليه ابن حجر مرةً إيماءَ أتباعِه إلى جهته بالسجود، وله من التصانيف (الباعث على الخلاص في أحوال الخواص)، وشعره ينعق بعقيدة الاتحاد مثل نظم والده، وله ديوان شعر، وموشحات[10]، وله أيضا (مفاتيح الخزائن العالية) في التصوف[11]، و(المسامع واردات إلهية فيضية)، وفيه إشارات من تلك الفلسفة[12].

وبهذا يتبين أن القاهرة جمعت أنواعا مختلفة من الصوفية، وتفاعل المجتمع مع هذه الفئة إيجابا وسلبا، وجاء النتاج الصوفي ليطرق تلك المواضيع التي طالما دعوا إليها، وجاء بعضها ممثلا للصوفية الفلسفية مثل صوفية ابن عربي، وابن الفارض، ومع ذلك فقد كان هناك نتاجٌ يحاول أن يعود بالتصوف إلى عصوره الأولى، وتعرّض بعض هؤلاء الصوفية بسبب عباراتهم المثيرة والمشكلة لمحاكمات أمام القضاة الفقهاء، ولكنهم لقوة وجودهم كانوا ينجون من مخالب القضاة.

---

[1] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٣٠٦- ٣٠٧.
[2] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٤٧.
[3] حاجي خليفة، كشف الظنون، مج١ ص٦٤- ٦٥.
[4] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٢٥٠.
[5] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٣٢١.
[6] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٤٩٤.
[7] ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، ج٣ ص١٦٩.
[8] البغدادي، هدية العارفين، مج٢ ص١٧٥- ١٧٦.
[9] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٢٩، ٣٠.
[10] المصدر السابق، ج٢ ص٣٠٨- ٣٠٩.
[11] البغدادي، إيضاح المكنون، ج٢ ص٥٢٠.
[12] ابن وفاء: علي بن محمد الشاذلي، (ت٨٠٧هـ)، المسامع واردات إلهية فيضية، ت. أحمد فريد المريدي، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م، ص٨٥، ١٢٦.



الفصل الخامس: النتاج العلمي (العلوم اللغوية والعقلية والطبيعية)

❖ **أولا: العلوم اللغوية**

١- النحو والصرف ٢- البلاغة ٣- اللغة

٤- الأدب ٥- الخط

٥- اللغات الأجنبية

٧- علم المعمى (التشفير)

❖ **ثانيا: العلوم العقلية**

١- العلوم العددية (علوم الرياضيات)

٢- علم الهندسة

٣- علم المنطق

٤- علم الشطرنج

❖ **ثالثا: العلوم الطبيعية**

١- علم الفلك

٢- علم الطب والصيدلة

٣- علم الكيمياء

٤- علم الجواهر (المعادن والأحجار الكريمة)

٥- علوم الأحياء:

أ- علم الحيوان ب- علم النبات

الفصل الخامس: النتاج العلمي (العلوم اللغوية والعقلية والطبيعية)

أولا: العلوم اللغوية

تبرز علوم اللغة العربية في مقدمة العلوم التي عرفها المجتمع الإسلامي، وهي أربعة أنواع: النحو، واللغة، والبيان، والأدب، ويرى ابن خلدون وجوب معرفتها على الفقيه، وأن أهمها والمقدم منها هو علم النحو[١]. ومن المسلّم به أن بالنحو يتيسّر الفهم السليم للقرآن الكريم والسنة النبوية مصدري التشريع في الإسلام[٢].

١- النحو والصرف

النحو علم يراد منه الاحترازُ عن الخطأ في تأليف الكلام والاقتدار على فهمه والإفهام به[٣]، وأما الصرف فهو علمٌ بأصولٍ يعْرَف بها أحوالُ أبنية الكلم التي ليست بإعراب[٤]. ولم يكن أحدهما مستقلا عن الآخر في بداية ظهورهما[٥].

لما احتُلّ العراق سنة٦٥٦هـ/١٢٥٨م، واحتُضِرَت الأندلس نزح كثير من العلماء إلى مصر والشام، ومن الإنصاف القول بأن عماد هذه الحركة النحوية في مصر بعدئذ كانوا من جالية الأندلس والمغرب، فقد اتخذوا مصر والشام وطنا بنوا فيها علومهم، وأذاعوا مصنفاتهم، ومن هنا تغلّب على البلدين (مصر والشام) المذهب النحوي الأندلسي، وتغلغل في الدراسة والتصنيف والمنهج والآراء[٦]. ومن أشهرهم وأكثرهم أثرا على الحياة النحوية في القاهرة هو العلامة أبو عبد الله جمال الدين محمد بن عبد الله الطائي، المشهور بابن مالك (ت٦٧٢هـ/١٢٧٣م)، وَرَدَ المشرق حاجا، ثم استوطن الشام، وصنّف مؤلفات نحوية نظما ونثرا، تشهد له بالتفوق والفرادة، ومن نظمه (الكافية الشافية) استوعب فيها كل ما سمعه، وشرحها، و(الألفية) وهي ملخص (الكافية الشافية)، طَبَّقَتْ شهرتُها الآفاق، وعليها شروح كثيرة، ومن النثر كتاب (الفوائد)، و(تسهيل الفوائد، وتكميل المقاصد)[٧].

ومن علماء القاهرة الإمام بهاء الدين محمد بن إبراهيم بن محمد، المشهور بابن النحاس (ت٦٩٨هـ/١٢٩٨م) انتهت إليه علوم العربية في الديار وتتلمذ عليه كثير من أعلامها، ومنهم الإمام أبو حيان، وقرأ عليه إملاءً أهمَّ مصادر العربية، وله إملاء على كتاب (المغرب) لابن عصفور[٨].

أقبل بعض علماء القاهرة على ألفية ابن مالك شرحا، ومنهم العلامة محمد بن يوسف بن عبد الله الجزري (٧١١هـ/١٣١١م)[٩]، وهناك العلامة الألسني الفقيه فخر الدين محمد بن مصطفى بن زكريا التركي الأصل الدوركي المولد الحنفي (ت٧١٣هـ/١٣١٣م)، وولي الحسبة بغزة، أنشأ قصيدة في العربية استوعب فيها (الكافية) لابن الحاجب نظما[١٠]. ويأتي بعد ذلك نجم الدين محمد بن أبي الحزم مكي المخزومي القمولي (ت٧٢٧هـ/١٣٢٦م) تفقّه ومهر وناب في الحكم بمصر، وولي الحسبة، ودرّس بالفخرية، شَرَحَ كافية ابن الحاجب في مجلدين[١١].

---

[١] المقدمة، ص٧٥٣.
[٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٦٨- ٦٩.
[٣] القنوجي، أبجد العلوم، ج٢ ص٥٦٠.
[٤] ابن الحاجب، عثمان بن عمر، (ت٦٤٦هـ)، الشافية، ت. حسن أحمد العثمان، ط١، مكة، المكتبة المكية، ١٩٩٥م، ص٦.
[٥] السيوطي، بغية الوعاة، ج٢ ص٢٩١.
[٦] الطنطاوي: محمد، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، ت. سعيد اللحام، بيروت، عالم الكتب، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م ، ص١٥٩.
[٧] المرجع السابق، ص١٥٤- ١٥٥.
[٨] الجزري، غاية النهاية، ج٢ ص٤٣؛ والزركلي، الأعلام، ج٥ ص٢٩٧.
[٩] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٢٩٩- ٣٠٠.
[١٠] المصدر السابق، ج٤ ص٢٥٩.
[١١] المصدر السابق، ج١ ص٣٠٤.

وأبرز النحاة بالقاهرة بحق هو الإمام أبو حيان أثير الدين محمد بن يوسف بن علي الغرناطي (ت٧٤٥هـ/١٣٤٤م)، تلقّى علومه في الأندلس، ثم بمصر، ووُصِف بأنه الإمام المطلق في النحو، وله اليد الطولى في التفسير والحديث، وتراجم الناس، ومعرفة طبقاتهم، وله التصانيف التي سرت في آفاق الأرض، واشتهرت في حياته، وهو الذي جسّر الناس على قراءة كتب ابن مالك النحوية، ورغّبهم فيها، وكان يتخذ موقفا مناوئا لـ(كافية ابن الحاجب) ويعتبرها من نحو الفقهاء، وشدّد على الناس أن لا يقرؤوا إلا كتب ابن مالك أو كتاب سيبويه[١].

كتب أبوحيان قائمة طويلة من المؤلفات، منها ما هو مطبوع، ومنها ما هو مخطوط، ومنها ما هو مفقود[٢]، ففي النحو كتب (التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل) أضخم كتاب في موضوعه، شرح به التسهيل لابن مالك صرفا ونحوا، ويتصف الكتاب بغزارة مادته العلمية، واستقصاء الأوجه الواردة في المسألة، وعزْوِ الأقوال إلى أصحابها[٣]. ثم جرّد أحكام التذييل عن الاستدلال والتعليل في كتابه (ارتشاف الضرَب من لسان العرب) ركّز فيه على سلامة اللفظ وبيان التمثيل، وقصد تسهيل ما عسر إدراكه على الطلاب، وتميّز (ارتشاف الضرَب) بأنه جمع فيه ما يزيد على ألف بناء من أبنية الأفعال والأسماء، بحيث أن الكتب المتخصصة في الصرف لم تبلغ ما بلغ منها، ويقوم منهجه فيه على براعة التبويب والتفصيل والتقسيم[٤]. ويتضح منهجه في هذه الكتابين أنه قائم على اعتبار أن النحو علم واحد، يشمل الإعراب والصرف معا؛ ولهذا دمجهما فيهما، كما يتضح أيضا من تعريفه للنحو في كتابه الآخر (غاية الإحسان)[٥]، قال السيوطي[٦] عن كتابيه (التذييل)، و(ارتشاف الضرَب): "لم يُؤلَّف في العربية العربية أعظم من هذين الكتابين، ولا أجمع ولا أحصى للخلاف والأحوال"، وذكر أنهما معتمده في كتابه (جمع الجوامع).

وله أيضا (تذكرة النحاة)، وهو كتاب هام، لكنه مفقود، سوى المجلد الثاني من مجلداته الأربعة، وقد جرى فيه على مذهب البصريين، وبلغ من إعجاب تلميذه المؤرخ الصفدي به أن نسج على منواله كتابا سماه (التذكرة الصفدية) ويقع في أكثر من خمسين مجلدا، ويتميز هذا الكتاب بأنه يضم بين دفتيه نقولا من كتب كثيرة ضلّت طريقها إلينا[٧]، ويظهر من عنوانه أنه أعده مرجعا يتذكر به الجهود النحوية لكل من صح إطلاق وصفهم بالنحاة.

ووضع للمبتدئين مقدمة في الإعراب والصرف، سماها (غاية الإحسان)، ثم شرحها بـ(النكت الحسان في شرح غاية الإحسان)، ضمّنها آراء مختلف المدارس النحوية، والنحاة السابقين والمعاصرين، واعتمد كثيرا من آراء نحاة الأندلس لا سيما شيوخه، وذكر في شرحه أنه فتح "مقفل تلك المقدمة، وأوضح مشكلها"[٨]، وهو قول يبين أنه وقع في ما وقع فيه أهل عصره من وضع المختصرات المقفلة التي تتطلب شرحا، وكان بالإمكان وضعها واضحة من أول الأمر.

وفي إطار بنائه على هياكل سابقة فقد لخّص كتابَ ابن عصفور الإشبيلي (ت٦٦٩هـ/١٢٧٠م) المسمى بـ(الممتع في التصريف)، فقصد ذكر ما تضمّنه من الأحكام "بألخص عبارة، وأبدع إشارة"؛ لإسعاف الناظر في الصرف

---

[١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٠٣- ٣٠٤.

[٢] أبو حيان: محمد بن يوسف الغرناطي، (ت٧٤٥هـ)، تذكرة النحاة، ت. عفيف عبد الر حمن، ط١، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م، مقدمة التحقيق ص١٩- ٢٠.

[٣] أبو حيان: محمد بن يوسف الغرناطي، (ت٧٤٥هـ)، التذييل والتكميل، ت. حسن هنداوي، بيروت، دار القلم، المقدمة ج١ ص٩- ١١.

[٤] أبو حيان: محمد بن يوسف الغرناطي، (ت٧٤٥هـ)، ارتشاف الضرب من لسان العرب، ت. رجب عثمان محمد، ط١، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، ص٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢.

[٥] أبو حيان: محمد بن يوسف الغرناطي، (ت٧٤٥هـ)، النكت الحسان في شرح غاية الإحسان، ت. عبد الحسين القيلي، ط١، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، ص٣١.

[٦] السيوطي، بغية الوعاة، ج١ ص٢٨٢.

[٧] أبو حيان، تذكرة النحاة ص٥٢، ١٨٢، ٣٢٢.

[٨] النكت الحسان، ص٩، ١٠، ١٤، ٣١.

بما فيه في أقرب زمان[١]. ووضع للمبتدئين في النحو في معرفة الحقائق النحوية دون توسُّعٍ في ما وراءها من خلافات أو تفصيلات كتاب (اللمحة البدرية)[٢]. وله مؤلفات أخرى أيضا[٣]. وبهذا يتبين أن أبا حيان حاول جاهدا أن أن يثري المكتبة النحوية بما تحتاجه جميع الفئات التي تريد تعلم النحو والصرف.

وشرَحَ تاجُ الدين أبو الحسن علي بن عبد الله التبريزي الأردبيلي (ت٧٤٦هـ/١٣٤٥م) (كافية ابن الحاجب)، في كتابه (مبسوط الأحكام في ما يتعلق بالكلم والكلام)، وهو شرح كبير يشبه شرح الرضي محمد بن الحسن الإستراباذي (ت٦٨٦هـ/١٢٨٧م)[٤].

ثم يأتي إمام العربية بالقاهرة أيضا حسن بن قاسم بن عبد الله المرادي المراكشي الأصل، المعروف بابن أم قاسم (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، أخذ عن أبي حيان، وشرح كتب ابن مالك النحوية، وهي (الكافية الشافية)، و(الألفية)[٥]، و(التسهيل) وفيه تميّز بعمق في الفهم، واستيعابٍ للجزئيات وتحليلها، والدقة في التعريفات والحدود، وبشدة التحري في نسخ المصادر وضبطها، وإبداء رأيه بعد عرض الآراء قبولا ورفضا، كل ذلك مع ميله إلى الاختصار[٦]. كما شرح الجزولية، المسماة بـ(القانون)، تأليف أبي موسى عيسى بن عبد العزيز الجزولي (ت٦٠٧هـ/١٢١٠م)، و(الفصول) لابن معطي المتقدم (ت٦٢٨هـ/١٢٣٠م)، وشرح (الكافية) لابن الحاجب[٧]، كما شرح (المفصّل) لجار الله الزمخشري[٨].

وألّف (الجنى الداني في حروف المعاني)[٩]، وقد أدرك أهميته حاجي خليفة في تطور النحو حيث قال[١٠]: "وهو مصدر ابن هشام في المغني"، ويظهر أن هذا العالم قد غُمِط حقُّه في الحياة العلمية، حيث يترجح أن كتابه هذا هو أصل أحد قسمي (مغني اللبيب) لابن هشام، وهو الكتاب الذي اكتسب شهرة واسعة، وأنه - كما وصفه مؤلفه ابن هشام - فريد في نوعه، ولم تسمح قريحة بمثاله، ولم ينسج على منواله[١١]. غير أنه بمقابلة كتاب (الجنى الداني) بـ(مغني اللبيب) نجد لقاء واضحا في تقسيم معاني الأدوات والشواهد والمذاهب والتوجيهات النحوية والاستدراكات والتعقيبات، ولقاء ظاهرا في العبارات والجمل والمفردات[١٢]؛ الأمر الذي يدل على أن ابن هشام المتوفى سنة ٧٦١هـ/١٣٥٩م أخذ كتاب ابن أم قاسم المرادي هذا، المتوفى سنة٧٤٩هـ/١٣٤٨م، على أن ابن هشام ذكر في مقدمته[١٣] أنه ألّف كتابه سنة٧٤٩هـ/١٣٤٨م، لكنه نُكِب به، ثم عاود تأليفه مرة أخرى سنة٧٥٦هـ/١٣٥٥م، ومن الغريب أن ابن هشام لم يعز ولم يشر لا من قريب ولا من بعيد إلى كتاب ابن أم قاسم المرادي هذا في كتابه

---

[١] أبو حيان: محمد بن يوسف الغرناطي، (ت٧٤٥هـ)، المبدع في التصريف، ط١، بيروت، مكتبة دار العروبة، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، ص٤٦- ٤٧.
[٢] البرماوي: محمد بن عبد الدائم، (ت٨٣١هـ)، شرح لمحة أبي حيان النحوي، ت. عبد الحميد محمود الوكيل، ط١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م. ص٣، ٥.
[٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٠٤- ٣٠٥.
[٤] المصدر السابق، ج٣ ص٧٢؛ وحاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ص١٣٧٥؛ والبغدادي، هدية العارفين، مج١ ص٧١٩.
[٥] حققه الدكتور عبد الرحمن علي سليمان، ونشرته الكليات الأزهرية.
[٦] المرادي: حسن بن قاسم، ابن أم عبد المراكشي، (٧٤٩هـ)، شرح التسهيل، ت. محمد عبد النبي عبيد، ط١، المنصورة، مكتبة الإيمان، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، مقدمة المحقق، ص١١، ١٣، ١٧، الكتاب، ص٦٤.
[٧] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٠٤- ٣٠٥.
[٨] البغدادي، هدية العارفين، مج١ ص٢٨٦.
[٩] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣٢- ٣٣.
[١٠] كشف الظنون، مج١ ص٦٠٧.
[١١] ابن هشام: عبد الله بن يوسف الأنصاري، (ت٧٦١هـ)، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ت. مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، ط٦، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٥م، ص١٢.
[١٢] المرادي: حسن بن قاسم، ابن أم عبد المراكشي، (٧٤٩هـ)، الجنى الداني في حروف المعاني، ت. فخر الدين قباوة، ومحمد نديم واصل، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م، مقدمة المحقق ص٥.
[١٣] مغني اللبيب، ص١٣.

(المغني) ولا في موضع واحد، رغم ذكره لكثير من العلماء والمصادر[١]. وله أيضا (رسالة في الجمل التي لا يكون يكون لها محل من الإعراب)[٢].

والتقط تلميذ أبي حيان القاهري وهو أحمدُ بن عبد القادر القيسي (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م) المباحثات النحوية التي أجراها أبو حيان في كتابه (البحر المحيط) مع الزمخشري في الكشاف وابن عطية عبد الحق بن أبي بكر الغرناطي (ت٥٤٦هـ/١١٥١م) في تفسيره (المحرر الوجيز)، ووضعها في مجلد سماه (الدر اللقيط من البحر المحيط)[٣]. ثم يأتي المفسر النحوي السمين الحلبي (ت٧٥٦هـ/١٣٥٥م)، فاق وتصدّر للإقراء بجامع ابن طولون، وناب في الحكم، وألّف إعراب القرآن المسمى (الدر المصون) كما تقدم، وشرح (التسهيل) لابن مالك[٤].

ثم نجد الفقيه الشافعي والموسوعي عبد الرحيم بن الحسن الأسنوي (ت٧٧٢هـ/١٣٧٠م) الذي تتلمذ على أبي حيان وعلى أبي الحسن النحوي والد سراج الدين ابن الملقن[٥]، صنّف شرحا على ألفية ابن مالك[٦]، كما وضع (الكوكب الدري في ما يتخرّج على الأصول النحوية من الفروع الفقية)[٧]، وهو كتاب ذو أهمية خاصة لكونه أول كتاب يجمع بين دفتيه الفروع والأحكام الفقهية بمقتضى القواعد النحوية[٨].

بعد ذلك يأتي إمام العربية جمال الدين عبد الله بن يوسف، ابن هشام الأنصاري (ت٧٦١هـ/١٣٥٩م) تتلمذ على الشيخ عبد اللطيف بن عبد العزيز الحراني، المعروف بابن ذؤالة وابن المرحل (ت٧٤٤هـ/١٣٤٣م)، الذي كان ابن هشام يفضّله على أبي حيان. لقد أتقن ابن هشام العربية وحذقها، وذهب صيته إلى الآفاق فسمع به ابن خلدون وهو لا يزال في المغرب، وأنه أنحى من سيبويه، "وتصدّر في القاهرة للطالبين، وانفرد بالفوائد الغريبة، والمباحث الدقيقة، والاستدراكات العجيبة، والتحقيق البالغ، والاطلاع المفرط، والاقتدار على التصرف في الكلام".

صنّف ابن هشام تصانيف كثيرة، يأتي في مقدمتها (مغني اللبيب)، الذي اشتهر في حياته وأقبل الناس عليه[٩]، وأشاد به مؤلفه، كما أثنى عليه العلماء قديما وحديثا[١٠]، وهو وإن لم يكن فيه سباقا ولم ينبّه على مصدر استفادة منهجيته وهيكلته وكثير من مباحثه من كتاب (الجنى الداني) لابن أم قاسم على ذلك النحو الذي سلف، وبما يشير إلى أنه سطى عليه؛ فإنه أضاف فيه مباحث جديدة، كما برزت فيه وفي غيره من الكتب شخصيته العلمية النحوية الفذّة، التي جعلته في مصافّ الأئمة المجتهدين، وقد بحث فيه الحروف وما تضمّن معناها، والجمل، وكيفية الإعراب، والتحذير مما وقع فيه المعربون من الأخطاء وغير ذلك[١١].

وصنّف قبل ذلك (الإعراب عن قواعد الإعراب)[١٢]، في الجملة والجار والمجرور، وفي بعض المفردات[١٣]، وله ذانك المؤلفان الشهيران اللذان وضع متنهما ثم شرَحَهما، وهما (قطر الندى)، و(شذور الذهب)، وهما كتابان مفيدان لا يزالان مدْرَس الطلاب في المعاهد والمساجد. وله الكثير من الشروح التي وضعها على مؤلفات غيره،

---

١ المرادي، الجنى الداني، المقدمة ص٦.

٢ مخطوطة في مكتبة الأزهر برقم ١٧٩٠. (مقدمة كتابه شرح التسهيل ص١٠).

٣ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص١٧٥-١٧٦، وقد طبع على هامش البحر المحيط.

٤ المصدر السابق، ج١ ص٣٣٩- ٣٤٠.

٥ المصدر السابق، ج٢ ص٣٥٥- ٣٥٦.

٦ حاجي خليفة، كشف الظنون، مج١ ص١٥٣.

٧ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣٥٤.

٨ النهار، العصر المفترى عليه، ص٣٧٢- ٣٧٣.

٩ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣٠٨- ٣٠٩.

١٠ قال ابن خلدون (المقدمة، ص٧٥٥) عن المغني لما وصلهم إلى الغرب، "فوقفنا منه على علم جم، يشهد بعلو قدره في هذه الصناعة، ووفور بضاعته منها"، وبالغ الدكتور يوسف الضبع في الإشادة بالمغني في كتابه (ابن هشام وأثره في النحو العربي).

١١ ابن هشام، مغني اللبيب، ص١٤.

١٢ ابن حجر: الدرر الكامنة ح٢ ص٣٠٨- ٣٠٩؛ وابن هشام، مغني اللبيب ص١٤.

١٣ الضبع: يوسف بن عبد الرحمن، ابن هشام وأثره في النحو العربي، ط١، القاهرة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، ص٦٤.

وأهمها على الإطلاق (أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك)[1]، حلَّ ألفاظ الألفية، ووضَّح معانيها، وحلل تراكيبها، ونقّح مبانيها، وقصد به التوضيح، والتهذيب، وربما أعاد تفصيل بعض المعلومات وترتيبها[2].

خدم أيضا كتبَ ابن مالك بكتابه (تخليص الشواهد وتلخيص الفوائد) فسّر فيه لفظ شواهد (شرح الخلاصة الألفية) لبدر الدين محمد، ابن صاحب الألفية (ت٦٨٦هـ/١٢٨٧م) وحرّر ضبطها، وبيّن محل الشاهد، وأضاف معلومات وشواهد أخرى متعلقة بالشاهد[3]. كما شرح (التسهيل) لابن مالك أيضا[4]، وله أيضا (التحصيل والتفصيل لكتاب التذييل والتكميل) عدة مجلدات، و(الكواكب الدرية في شرح اللمحة البدرية) لأبي حيان أيضا، و(رفع الخصاصة عن قراء الخلاصة) أربعة مجلدات[5]، و(نزهة الطرف في علم الصرف)، و(موقد الأذهان في الألغاز النحوية)، وهما مطبوعان[6].

ويرى بعض الباحثين[7] أنه كان ذا أثر حميد على من جاء بعده، وأن طريقته هي الطريقة المثلى في كتبه التي اقتفاها من جاء بعده، وأنه نقّى النحو مما تراكم عليه وشوّه جماله، وأنه كان أحد أئمة النحو المجتهدين، وكان بالبصريين أشبه، وإلى مدرستهم أقرب، وأنه نحّى عن النحو الأساليب المنطقية والبحوث الفلسفية.

وتبع هؤلاء أبو أمامة ابن النقاش، محمد بن علي الدكالي ثم المصري (ت٧٦٣هـ/١٣٦١م)، أخذ عن أبي حيان، ومحب الدين ابن الصائغ، ووضع شرحا على التسهيل، وشرحا على الألفية[8].

ثم جاء القاضي عبد الله بن عبد الرحمن، ابن عقيل (ت٧٦٩هـ/١٣٦٧م) كان إماما في العربية والبلاغة، وتكلّم عن الفقه والأصول، ولازم أبا حيان، فتفوق لديه حتى أثنى عليه قائلا: "ما تحت أديم السماء أنحى من ابن عقيل"، شَرَح (التسهيل) بـ(المساعد)، كما وضع شرحا متوسطا على (الألفية)، وهو المشهور بـ(شرح ابن عقيل)[9]، قال ابن حجر عنه: "إنه ليس على قدر رتبته في العلم"[10]، ومع ذلك فإنه يمتاز بوضوح ألفاظه وسهولة معانيه؛ فلا يحتاج الطالب فيه ضرورة إلى معلم، وليس من المبالغة القول فيه إنه هو الذي أرشد المتعلمين إلى معرفة المراد من الألفية[11]، وسبق كتب النحو المعاصرة بوضعه في نهاية كل أبياتٍ مشروحةٍ ملخصا لأهم عناصر الشرح بصورة تقريرية؛ الأمر الذي جعله جديرا بالثقة لأن يكون مقرَّرَ المدارس العلمية حتى يومنا هذا.

ويأتي بعد ذلك النحوي شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن علي الزمردي، ابن الصائغ النحوي الحنفي (ت٧٧٦هـ/١٣٧٤م) الذي أخذ عدة علوم، وأخلص لشيخه أبي حيان، وصنّف (شرح الألفية) رآه ابن حجر في مجلدين بخطه، و(التذكرة النحوية) مجلدات، و(المباني في المعاني)، و(الاستدراك على المغني) لابن هشام، واستفتحه بقوله: "الحمدلله الذي لا مغني سواه"[12]، وله أيضا (تنزيه السلف عن تمويه الخلف) في الرد على مغني

---

[1] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣٠٩.
[2] ابن هشام: عبدالله بن يوسف الأنصاري، (ت٧٧٦١هـ)، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، ط٥، بيروت، دار الجيل، ١٩٧٩م، ج١ ص١٠.
[3] ابن هشام: عبدالله بن يوسف الأنصاري، (ت٧٧٦١هـ)، تخليص الشواهد وتلخيص الفوائد، ت. عباس مصطفى الصالحي، ط١، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ص٣٩- ٤٠.
[4] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣٠٩.
[5] المصدر السابق، ج٢ ص٣٠٩.
[6] الزركلي، الأعلام، ج٤ ص١٤٧.
[7] الضبع، ابن هشام وأثره في النحو العربي، ص٦١، ١٠٠، ١٠٩، ٢٣٩.
[8] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٧١- ٧٢.
[9] طبع طبعات كثيرة، وقد قرأته وأقرأته والحمدلله.
[10] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٢٦٦- ٢٦٨؛ ورفع الإصر، ص١٩٠؛ وابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، ج٣ ص٩٦- ٩٧.
[11] الطنطاوي، نشأة النحو، ص١٦٦.
[12] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٩٥- ٩٦؛ والبغدادي، هدية العارفين، مج٢ ص١٦٩.

اللبيب[١]، ولعله هو الاستدراك السابق، ولأن ابن هشام كان شديد الانحراف عن أبي حيان[٢] فإن هذا الزمردي حبا في شيخه أبي حيان حسِب أن الوفاء لشيخه هو الرد على ابن هشام.

وممن اعتنى بالتسهيل لابن مالك ناظر الجيوش محب الدين، محمد بن يوسف بن أحمد بن عبد الدائم الحلبي الأصل المصري (٧٧٨هـ/١٣٧٦م) تلقى علومه عن شيوخ القاهرة، ومنهم أبو حيان، والجلال القزويني، والتقي السبكي، والتاج التبريزي، وكان محسنا لطلاب العلم، وشرح (التسهيل) شرحا حسنا[٣]، ويسمى (تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد)، ويعتبر موسوعة نحوية جمعت آراء النحاة المتقدمين منهم والمتأخرين، وتميز من بين سائر الشروح أنه عني بالرد على اعتراضات أبي حيان، وحسبك أن مؤلفه نَصَب نفسه حكما بين إمامين من أئمة النحو، فيحكم لهذا مرة ولذلك أخرى، وتميّز أسلوبه بالسهولة والعذوبة والرقة والبعد عن المعقدات اللفظية، والتأثر بالأساليب المنطقية[٤].

وشارك العلامة أكمل الدين البابرتي (ت٧٨٦هـ/١٣٨٤م) بوضع شرح على (ألفية ابن معطي[٥]) سماها (الصدفة (الصدفة الملية بالدرة الألفية)[٦].

ومنهم القاضي أحمد بن محمد بن محمد الزبيري الإسكندراني المالكي، المعروف بابن التنسي (ت٨٠١هـ/١٣٩٧م) مهر في العربية والفنون، وولي قضاء المالكية بالقاهرة سنة٧٩٤هـ/١٣٩١م، وشرح (التسهيل) فوصل فيه إلى التصريف[٧]، واعتمد فيه (شرح التسهيل) لابن مالك و(كتاب سيبويه) مصدرين أساسيين، أساسيين، ويتبين من ذلك استجابة علماء القاهرة لدعوة أبي حيان في العناية بكتب ابن مالك أو كتاب سيبويه، وفيه ظهرت شخصيته العلمية المستقلة من خلال إدلائه برأيه في كثير من المسائل النحوية، واستخدم أسلوب التقسيمات والتنظيمات لضبط المسائل وتسهيل فهمها[٨]، كما وضع شرحا على الكافية[٩].

ثم محمد بن محمد بن علي بن عبد الرزاق الغماري ثم المصري المالكي (ت٨٠٢هـ/١٣٩٩م)، سمع العلم بمكة والإسكندرية، وأخذ عن أبي حيان وغيره، وكان أحفظ الناس لشواهد العربية وأحسنهم كلاما عليها، وصار شيخ النحاة بلا مدافع، واستقر أخيرا في مشيخة القراء بالشيخونية، ولم يذكر له تصنيف[١٠]. وهناك القاضي المالكي بهرام بن عبد الله بن عبد العزيز، تاج الدين أبو البقاء الدميري (ت٨٠٢هـ/١٣٩٩م) ولد سنة ٧٣٤هـ/١٣٣٣م، وأخذ عن شيوخ عصره، ومهر في الفقه، وصنّف في النحو أيضا شرحا على ألفية ابن مالك[١١].

كما وضع العلامة محمد بن محمد الزبيري العيزري الغزي (ت٨٠٨هـ/١٤٠٤) تعلّم بالقاهرة، وله تصانيف ومناقشات عديدة، ونظم في العربية أرجوزة سماها (قضم الضرَب في نظم كلام العرب)[١٢]، ووضع شرحا على

---

[١] البغدادي، هدية العارفين، مج٢ ص١٦٩.
[٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣٠٨.
[٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٢٩٠- ٢٩١.
[٤] الحلبي: محمد بن يوسف ناظر الجيش، (ت٧٧٨هـ)، شرح التسهيل (تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد)، ت. علي محمد فاخر وآخرين، ط١، دار السلام، القاهرة، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م، المقدمة، ج١ ص٤٤، ٤٥، ٥٨، ٥٩.
[٥] هو أبو الحسين يحيى بن زين الدين بن عبدالمعطي الزواوي المغربي (ت٦٢٨هـ)، قطن القاهرة، ونظم ألفية في النحو هي التي ذكرها ابن مالك في ديباجة ألفيته. الطنطاوي، نشأة النحو، ص١٢٧.
[٦] البغدادي، هدية العارفين، مج٢ ص١٢١.
[٧] ابن حجر، رفع الإصر، ص٧٥- ٧٦.
[٨] التنسي: أحمد بن محمد الزبيري، (ت٨٠١هـ)، شرح التسهيل، دراسة وتحقيق فريدة حسن معاجيني (رسالة دكتوراه)، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ -١٩٩٣م، ج١ ص٢٩، ٣١، ٤٧، ٥٣.
[٩] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٦٣- ٦٤؛ والسخاوي، الضوء اللامع، ج٢ ص١٩٢- ١٩٣.
[١٠] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص١٢٨؛ والسخاوي، الضوء اللامع، ج٩ ص١٤٩- ١٥٠.
[١١] ابن حجر، رفع الإصر، ص٧٥- ٧٦.
[١٢] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٣٤٧- ٣٤٨.

الألفية لابن مالك سماه (بلغة ذوي الخصاصة في حل الخلاصة)، وألّف أيضا شرحا على كافية ابن الحاجب سماه (المناهل الصافية في حل الكافية)[١].

ومن خلال ما تقدم يتبين بصورة تقريبية أن نسبة الشافعية والذين خلفوا أثرا في النحو ومنهم أبو حيان كانت٥٠%، ونسبة الحنفية ١٧%، ونسبة المالكية ٢٢%، وكان القاهريون أصلا منهم حوالي ١٦%، والمصريون ٢١%، والشاميون ٧٨%، والجزيرة والروم (تركيا)١٠%، والمغرب والأندلس ٢١%، والشرق حوالي ٥%، وكان نسبة المبتكر فيها وغير المبني على هياكل سابقة حوالي ٢٢%، وما سواه كان مجمله مبنيا على هياكل سابقة، وقد استأثرت ألفية ابن مالك بحوالي ٢٠% من مجمل النتاج شروحا عليها، يليها كتاب التسهيل لابن مالك أيضا بنسبة ١٧%، ثم كافية ابن الحاجب بنسبة ٩%.

هذه البيانات تبين إلى أيٍّ حدٍّ نجعت دعوة أبي حيان للاهتمام بكتب ابن مالك، وتبين مدى شعبيتها في أوساط النحاة المصريين، وتبين الحط من شأن كافية ابن الحاجب، كما يتبين أن القاهرة حظيت بأعلام أئمة النحاة في القرن الثامن والذين كتبوا نتاجا علميا مبتكرا بنسبة جيدة ومرضية.

٢- علم البلاغة

يراد بعلم البلاغة العلوم الثلاثة: علم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع، ويوصف بالبلاغة الكلام والمتكلم، وهي في الكلام: مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته[٢]، وعلم المعاني: علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق يطابق مقتضى الحال، وعلم البيان يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه، وعلم البديع يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعايته تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة[٣].

يعتبر قاضي القضاة جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني (ت٧٣٩هـ/١٣٣٨م) أشهر علماء البلاغة القاهريين بل والمسلمين في القرن الثامن الهجري، صنّف فيها (تلخيص المفتاح) للسكاكي[٤]، وتلقاه العلماء بالقبول في الأقطار الإسلامية، وشرحوه في المشرق والمغرب، وقرأه عليه جماعة بالقاهرة، وكان يحث الناس على قراءة المعاني والبيان[٥].

لقد لخّص في كتابه هذا القسم الثالث من المفتاح للسكاكي، ولم يقف فيه موقف الملتزم به، بل تصرّف فترك ما لم يستحسنه، وأضاف إليه من آرائه وآراء من سبقوه، وسمح لنفسه في إعادة ترتيبه على نحو يجعله أيسر منالا، وصاغه في صياغة حسنة العبارة، واضحة الدلالة، ولعل ذلك هو سبب شهرته في الأمصار[٦].

ويبدو أنه أحس بقلة رضاه عن تلخيصه هذا؛ لذا عاد ليشرحه في كتابه الآخر المسمى (الإيضاح)[٧] على أنهم كانوا يختصرون الكتب تيسيرا لحفظها، وبالتالي فلا يغني ذلك المختصر عن شرحها، قال في مقدمته[٨]: "وجعلته على ترتيب مختصري الذي سميته (تلخيص المفتاح)، وبسطت فيه القول ليكون كالشرح له، فأوضحت مواضعه

---

[١] السخاوي، الضوء اللامع، ج٩ ص٢١٨- ٢١٩.
[٢] القزويني: محمد بن عبدالرحمن، (٧٣٩هـ)، الإيضاح في علوم البلاغة، ت. بهيج غزاوي، ط١، بيروت، دار إحياء العلوم، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ص١٣.
[٣] المصدر السابق، ص١٦، ٢٠١، ٣١٧.
[٤] أبو يعقوب يوسف السكاكي (ت٦٢٦هـ)، ألف كتابه مفتاح العلوم، وفي قسمه الثالث جمع زبدة ما كتبه أئمة البلاغة السابقون. المراغي: أحمد مصطفى، علوم البلاغة، بيروت، دار القلم، ص٨- ١٠.
[٥] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٥؛ ورفع الإصر، ص٣٦٦- ٣٦٧.
[٦] عتيق: عبدالعزيز، علم البيان، ط١، بيروت، دار النهضة، ١٩٨٥م، ص٤٨، ٤٩.
[٧] ابن حجر، رفع الإصر، ص٣٦٧.
[٨] الإيضاح، ص٥- ٦.

المشكلة، وفصّلت معانيه المجملة"، وذكر أنه أضاف إليه زوائد مما استوحاه من كتابات عبد القاهر الجرجاني، والزمخشري، والسكاكي، وكذلك مما هداه إليه تفكيره، ولم يجد لغيره فيه قولا.

يعتبر القزويني ممن تأثّر بالسكاكي ونحى منحاه في تلخيص قواعد اللغة، وضبطها بالقواعد المنطقية، المنحى الذي أدّى الالتزام به والاسترسال فيه فيما بعد إلى جفاف الدراسات البلاغية وجمودها[١].

ويبدو أن العلامة تاج الدين علي بن عبد الله التبريزي حاول أن ينقّح أيضا (مفتاح السكاكي) كالقاضي القزويني، فوضع كتابه (تنقيح المفتاح)[٢]، لكنه لم يحظ بما حظي به تلخيص المفتاح للقزويني من اهتمام.

واشتهر أيضا إمام الأدب والتاريخ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م) تلقّى العلم في الشام والقاهرة، وولي وظيفة الكتابة فيهما، وكان مؤرخا بارعا، وأديبا مفوها، كتب في البلاغة (التنبيه على التشبيه)، و(جنان الجناس)[٣]، و(فض الختام عن التورية والاستخدام[٤])[٥]، وتتميز هذه المشاركات بأنها بحثت موضوعات محدّدة في البلاغة وليس جميعها.

ونلتقي بعد ذلك بأبي حامد بهاء الدين أحمد بن علي بن عبد الكافي السبكي (ت٧٧٣هـ/١٣٧١م)، أخذ عن ألمع شيوخ القاهرة، وتعلم مختلف العلوم، ومهر فيها وأفتى ودرّس وله عشرون سنة، وولي القضاء والإفتاء والتدريس والخطابة والوعظ الرسمي (الميعاد)، وكانت له اليد الطولى في علوم اللسان العربي والمعاني والبيان، وصنّف (عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح)[٦] أبان فيه عن سعة دائرته في هذا الفن[٧].

وممن أخذ عن مؤلف التلخيص مباشرة ناظر الجيوش محب الدين محمد بن يوسف بن أحمد الحلبي الأصل المصري (ت٧٧٨هـ/١٣٧٦م)، حيث قرأه على مؤلفه، ثم شرحه شرحا حسنا[٨]. ومثله الشيخ أكمل الدين البابرتي (ت٧٨٦هـ/١٣٨٤م) صنّف في مجالات عديدة، وشرح أيضا (تلخيص المفتاح)[٩]، وكذلك الأمر بالنسبة للشيخ جلال الدين أحمد بن يوسف الثيري التباني الذي تتلمذ للشيخين ابن هشام وابن عقيل وغيرهما، كتب هو الآخر تعليقا على التلخيص[١٠].

أقبل كثيرون على تلخيص القزويني درسا وحفظا وتلخيصا وشرحا ونظما، ولعل مما يلاحظ على من شرحوه سواء كانوا قاهريين أو من خارجها أن معظمهم كانوا على اطلاع واسع بعلوم الفلسفة والمنطق وأصول الفقه والنحو والبلاغة، ويبدو من شروحهم أنهم لم يكونوا يهدفون لتوضيح ما فيه من إبهام وغموض وتعقيد بمقدار ما كانوا يهدفون إلى الإعلان عن مدى إلمامهم بتلك العلوم؛ ذلك أنهم أقحموا الكثير من قضايا تلك العلوم على البلاغة إقحاما[١١].

---

[١] عتيق، علم البيان، ص٥٦.
[٢] البغدادي، هدية العارفين، مج١ ص٧١٩.
[٣] طبع بمطبعة الجوائب ١٢٩٩هـ. سركيس، معجم المطبوعات، ج١ ص٥٦٥.
[٤] طبع بتحقيق المحمدي عبد العزيز الحناوي، ط١، ١٩٧٩م، دار الطباعة المحمدية – القاهرة.
[٥] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٨٧- ٨٨.
[٦] طبع بتحقيق عبد الحميد الهنداوي، ط١، ٢٠٠٣م، المكتبة العصرية – بيروت.
[٧] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٢١١؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٢١- ٢٢.
[٨] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٢٩٠- ٢٩١؛ وإنباء الغمر، ج١ ص١٤٧.
[٩] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٢٥٠- ٢٥١؛ والبغدادي، هدية العارفين، مج٢ ص١٢١.
[١٠] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٤٢٤.
[١١] عتيق، علم البيان، ص٥٦، ٥٧.

ومن خلال ما سبق يتبين أن الأعمال التي كتبت في القاهرة، ومنها ما اعتبره البلاغيون أفضل ما كتب في ذلك القرن، وهو تلخيص القزويني، جميعها كانت مبنية على هياكل سابقة، وكأن الذوق العربي البياني مسّه نوع من العجز والقصور عن أن يبني بناء جديدا.

٣- علم اللغة

لقد غابت بعض معاني الألفاظ عن العرب الذين عاشوا في عصور الاحتجاج، وقد توفّر حشدٌ هائل من الروايات اللغوية لدى اللغويين والرواة والنحاة، وكانوا يشعرون بالحاجة إلى تسجيلها وتدوين كل حركاتها، وانتصب الخوف من انقراض اللغة بانقراض الحافظين لها، ومن هنا نشأت الحاجة لظهور المعاجم والكتب اللغوية، ويعتبر الإمام المبدع الخليل بن أحمد الفراهيدي أول من ابتدأ بتأليف المعاجم اللغوية كما ظهر في كتابه (العين)[١].

والمعجم عبارة عن كتاب يضم أكبر عدد من مفردات اللغة مقرونة بشرحها وتفسير معانيها على أن تكون المواد مرتَّبة ترتيبا خاصا إما على حروف الهجاء أو الموضوع[٢]، والمدارس المعجمية هي: ١- مدرسة التقليبات الصوتية التي تضع الكلمة وجميع تقليباتها تحت أبعد المخارج حرفا. ٢- مدرسة التقليبات الهجائية، وتضع الكلمة وجميع تقليباتها تحت أول الحروف في الترتيب الهجائي العادي. ٣- مدرسة القافية وتنظر للحرف الأخير من الكلمة فتجعله بابا والأول فصلا. ٤- مدرسة المعاني الهجائية العادية، وقد أخذت بأبسط النظم المعجمية وهو نظام الأبجدية العادية. ٥- مدرسة المعاني والموضوعات، وهذا النوع يجعل المعنى والموضوع محور هيكلية الكتاب[٣].

وأبرز لغويي القاهرة هو العلامة محمد بن مكرم بن علي الأنصاري الأفريقي ثم المصري (ت٧١١هـ/١٣١١م) ولد في القاهرة، وتعلم بها، وولع باختصار المطوّلات في الأدب واللغة، ويعتبر كتابه (لسان العرب)[٤] من أبرز المعاجم المتداولة بين أيدي الخاصة والعامة منذ جمعه وإلى يومنا هذا، ويتميّز باستقصائه للصيغ والمعاني واتساع موادِّه التي بلغت زهاء ٨٠ ألف مادة، وبسهولة ترتيب أبوابه وفصوله، وانتظامه الداخلي إلى حدٍّ ما، وإكثاره من الشواهد، وكثرة الأحكام والتفسيرات النحوية والصرفية[٥]، ويؤخذ عليه تركه بعض الصيغ والمعاني التي توردها مصادره التي اعتمد عليها، وإهماله مراجع كبيرة وهامة كان يمكنه الحصول عليها[٦]؛ وبسبب ذلك فاته كثير من الصيغ والشواهد والنقود التي ذكرتها هذه المصادر الهامة، كما يظهر كونه مجرد ناقل ومجمّع لما سبقه الأوائل؛ ولهذا يتبرأ في مقدمته من عهدة أي خطأ ويدعو إلى تحميل مسؤوليتها على من نقَلَ عنه.

ومهما يكن من مأخذ على (لسان العرب) إلا أنه يأتي ثاني اثنين في دنيا المعاجم العربية، وهو من أشملها للألفاظ ومعانيها[٧]، وقد حظي بالتقريض والمدح والثناء من قبل أئمة العربية، ومنهم الإمام أبو حيان الأندلسي الغرناطي[٨]، وينتمي هذا المعجم إلى المدرسة المعجمية القافية[٩]. وبهذا فقد ظفرت القاهرة بهذه المفخرة اللغوية على على شيء من النقص فيها.

---

[١] أبو سكين: عبد الحميد بن محمد، المعاجم العربية مدارسها ومناهجها، ط٢، القاهرة، الفاروق الحرفية، ١٤٠٢هـ - ١٩٨١م. ص٧، ١٧، ٢٠.
[٢] المرجع السابق، ص٨.
[٣] المرجع السابق، ص١٦- ٢٧.
[٤] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ٢٦٢- ٢٦٣.
[٥] نصار: حسين، المعجم العربي نشأته وتطوره، ط٤، القاهرة، دار مصر، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ج٢ ص٤٥١؛ وأبو سكين، المعاجم العربية ص١٠٣.
[٦] مثل الجمهرة لابن دريد، ورغم أن ابن حجر (الدرر الكامنة، ج٤ ص٢٦٣) جعلها من مصادر لسان العرب، لكنه قول لم يثبت علميا. ينظر نصار، المعجم العربي، ج٢ ص٤٥١- ٤٥٢.
[٧] نصار، المعجم العربي، ج٢ ص٤٥١- ٤٥٢.
[٨] الصفدي، أعيان العصر، ج٥ ص٢٧٣- ٢٧٤.
[٩] ينظر ابن منظور: محمد بن مكرم الإفريقي، (ت٧١١هـ)، لسان العرب، ط١، بيروت، دار صادر.

ثم يأتي بعد ذلك صفي الدين أبو الثناء محمود بن أبي بكر بن حامد الأرموي (ت٧٢٣هـ/١٣٢٣م)، تعلم بالقاهرة وغيرها، وله (تهذيب المحكم والمحيط الأعظم) لابن سيده (ت٤٥٨هـ/١٠٦٥م)، جمع فيه بين المحكم والصحاح للجوهري (ت٣٩٣هـ/٩٠٥م)، وتهذيب الأزهري (ت٣٧٠هـ/٩٨٠م)[١]، ويوصف بأنه أفضل معجم أُلِّف بعد (لسان (لسان العرب) و(تهذيب اللغة) للأزهري[٢].

وفي القاهرة ألّف أبو حيان الغرناطي (تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب)[٣]، وخصّصه كما هو ظاهر من عنوانه لنوع الغريب في القرآن، ورتّبه وفقا للحرف الأول فالأخير، أي بمنهج المدرسة القافية، لكنه لم يراع الحشو، واقتصر فيه على الشرح اللغوي السريع للفظ[٤].

وجاء تلميذه السمين الحلبي (ت٧٥٦هـ/١٣٥٥م) الذي لازمه في القراءات والعربية[٥]، فصنّف معجما لغويا لألفاظ القرآن الكريم، سماه (عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ)، رتّبه على حروف المعجم، قال: "فأذكر الحرف الذي هو أول الكلمة مع ما بعده من حروف المعجم إلى أن ينتهي ذلك الحرف مع ما بعده، وهلُمّ جرّا"[٦]. وأهميته هي أن طالب المفردات يجد فيه تحليلا مفصلا لكلمات القرآن وأصولها واشتقاقاتها وتطورها واستعمالاتها، كما أنه غني بغريب الحديث والشواهد وبحوث النحو والكثير من الإرشادات البلاغية، ويؤخذ عليه أنه أغفل موادَّ وردت في القرآن الكريم، كما أنه ذكر موادّ لم ترد فيه، وهو عين ما عابه على من تقدّمه من المؤلفين[٧].

وألّف صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت٧٦٤هـ/١٣٦٤م) معجما سماه (غوامض الصحاح) للجوهري، والغموض هنا لا يتجه إلى غريب اللغة أو حوشيها، وإنما يتجه إلى غموض الاشتقاق بصعوبة رد الكلمة المذكورة إلى أصلها؛ ولذلك كان يذكر بعض تلك الغوامض، ولا يذكر معناها اكتفاءا بوضعها في أصولها، والجديد في الكتاب ليس في مادته ولكن في ترتيبه على نحو مختلف، وهو ترتيبه على طريقة المدرسة الهجائية العادية بحسب أوائل الكلمة مع مراعاة الثواني والثوالث وما يليها، الطريقة التي لم يُعثر عليها قبل الصفدي، وأخذت بها بعض المعجمات المعاصرة[٨].

وللقاضي علاء الدين علي بن عثمان التركماني المارديني الأصل (ت٧٥٠هـ/١٣٤٩م) كتاب (بهجة الأريب في بيان ما في كتاب الله من الغريب)[٩]، أراد مؤلفه فيه الإحاطة مع الاختصار، ورتّبه على السور، وأهم ظواهره الإيجاز، وغلبة الناحية اللغوية على التفسيرية، وقلة الاستشهاد[١٠].

وأخيرا نلتقي مع أحمد بن محمد الفيومي، ثم الحموي (عاش ربما إلى ما بعد٧٧٠هـ/بعد١٣٦٨م) أخذ العلم في القاهرة، ومن شيوخه أبو حيان، فمهر وتميّز، ثم انتقل إلى حماة، وصنّف سنة٧٣٤هـ كتاب (المصباح المنير في غريب الشرح الكبير) للرافعي على الوجيز في الفقه الشافعي للغزالي، قال ابن حجر: "وهو كثير الفائدة حسن

---

[١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٤٢- ٣٤٣؛ والزركلي، الأعلام، ج٧ ص١٨٢.
[٢] النهار، العصر المفترى عليه، ص٣٨١.
[٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٠٤.
[٤] أبو حيان: محمد بن يوسف الغرناطي، (ت٧٤٥هـ)، تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب، ت. سمير المجذوب، بيروت ودمشق، ط١، المكتب الإسلامي، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ص٣٥، ٤٠- ٤١.
[٥] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٣٤٠.
[٦] السمين الحلبي: أحمد بن يوسف بن عبد الدائم، (ت٧٥٦هـ)، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، ت. محمد باسل عيون السود، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٦م، ج١ ص٣٩.
[٧] المصدر السابق، مقدمة المحقق، ج١ ص١٠، ١١.
[٨] الصفدي: خليل بن أيبك، (ت٧٦٤هـ)، غوامض الصحاح، ت. عبد الإله نبهان، ط١، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٩٦م، المقدمة ص٣١، ٣٢.
[٩] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٨٤.
[١٠] نصار، المعجم العربي، ج١ ص٣٨.

الإيراد"، وقد جمع أصله من نحو ٧٠ مصنفا[1]، وهو نوع من المعجمات التي اتخذت كتابا فقهيا أساسا لها، وتشرح وتشرح الكلمات الغامضة التي وردت فيها، وتكثر من الاستشهاد والاعتناء بأسماء الفقهاء والمحدثين والأماكن والألفاظ الواردة في ذلك الكتاب، وقد رتّبه الفيومي وفقا لحروفه الأصول على الألفباء مبتدئا من حرفها الأول فالثاني فالأخير[2]، وهو بهذا يكون منتميا للمدرسة الهجائية العادية، والتي تسمى بالحديثة ككتاب الصفدي، وسبقهما وسبقهما الزمخشري في أساس البلاغة.

وبهذا يتبين أن القاهرة سجّلت سبعة أعمال لسبعة أعلام في اللغة والمعاجم، ومن أشهرها (لسان العرب) الذي أوعب فيه المادة اللغوية بصورة تعكس حياة القاهرة العلمية التي تتسم في طابعها العام بالتوسع وكأنها السلة الكبرى التي يجب أن تحتوي على جميع الجهود السابقة.

٤- علم الأدب

يذكر ابن خلدون[3] عن الأدب أن المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته، وهي الإجادة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم، فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الكلمة من شعر عالي الطبقة، وسجع متساو في الإجادة، ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة أثناء ذلك متفرقة، يستقري الناظر منها معظم قوانين العربية، مع ذكر بعضٍ من أيام العرب، يفهم به ما يقع في أشعارهم منها، وكذلك ذكر المهم من الأنساب الشهيرة والأخبار العامة، وهو يشير هنا إلى سعة ثقافة الأديب التي تمكنه من إجادة النظم (الشعر) والنثر، وعليه فالأدب يشملهما. وسيكون الحديث أولا عن الكتابة.

-الكتابة: نضِرت الكتابة الإنشائية وأينعت في عصر المماليك، وشاركت مشاركة جليلة في تأدية حاجة الدولة في التعبير عن شؤونها الرسمية، وكانت دواوين الدولة متعددة؛ فمنها ما هو للجيش، ومنها ما هو للأموال، غير أنها كانت في ما عدا ديوان الإنشاء بعيدة في الجملة عن السمت الأدبي والجزالة العربية، أما في ديوان الإنشاء فقد بدت الكتابة فيه ناظرة الإهاب، مزدانة كثيرة النتاج[4].

من أشهر الكتاب الأدباء في مدة الدراسة شهاب الدين محمود بن سلمان الحلبي (ت٧٢٥هـ/١٣٢٤م) ولد عام ٦٤٤هـ/١٢٤٦م، وتأدّب لدى ابن مالك النحوي، وتميّز في الكتابة، وكتَبَ الإنشاء أولا بدمشق، ثم نقل إلى مصر، فكتب في ديوان الإنشاء، وبلغ نثره ٣٠ مجلدة، كان يكتب التقاليد الكبار والتواقيع من غير مسودة، وألف كتاب (حسن التوسّل إلى صناعة الترسُّل)[5]، وفيه وضع تأصيلا لمن يمارس كتابة الإنشاء بحكم كونه رأسا فيه، طبّق فيه فيه موضوعات علم البيان والمعاني والبديع للأغراض الإنشائية، كما أودعه نماذج للمراسلات والتقاليد والتواقيع والكتب الإخوانية[6].

ومن محاسن نثره (كتاب في وصف الخيل)، ورسالة في وصف البندق[7]، وله (مقامات العشاق)، و(منازل الأحباب ومنازه الألباب)[8]، عني في هذا الأخير بحكايات الحب والمحبين وأشعارهم، لينفي عن الأشعار الغزلية

[1] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٣١٤؛ وحاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ص١٧١٠.
[2] نصار، المعجم العربي، ج١ ص٥٥، ٥٦.
[3] المقدمة، ص٧٦٣.
[4] سليم، الأدب العربي، ص٢٧.
[5] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٢٤.
[6] الحلبي: شهاب الدين محمود بن سلمان، (ت٧٢٥هـ)، حسن التوسل إلى صناعة الترسل، القاهرة، مطبعة أمين أفندي، ١٣١٥هـ، ص٢، ١٧٤- ١٧٦.
[7] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٢٦.
[8] البغدادي، هدية العارفين، مج٢ ص٤٠٧.

المنبعثة عن الحب الصادق ما قد يعلق بها من شبهة الفجور والفحش، ويثبت خلال سرده لحكايات العاشقين أن هذا الشعر الجميل صادر عن سجايا عفيفة[١].

ومن أدباء القاهرة أيضا شافع بن علي بن عباس الكناني العسقلاني ثم المصري (ت٧٣٠هـ/١٣٢٩م) أخذ عن ابن مالك، ودرس الأدب، وأتقن الخط والنظم والنثر، وكتب في الديوان، وولع بجمع الكتب النفيسة، وصنّف كتبا في التاريخ والأدب، ومن مصنفاته الأدبية (قلائد الفرائد في ما للعصر من الفوائد)، و(الدر المنتظم في مفاخرة السيف والقلم)، و(أفاضل الحلل على جامع قلعة الجبل)، و(مخالفة الرسوم في الوشي المرقوم)[٢].

بعد ذلك يأتي (نهاية الأرب في فنون الأدب) للأديب شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت٧٣٣هـ/١٣٣٣م)[٣]، الذي يعتبر عرضا عاما للمعرفة الإنسانية من خلال خمسة موضوعات رئيسية، هي السماء، والأرض، والإنسان، والحيوان، والنبات، والتاريخ، وجاءت من السعة والتنوع والغزارة بالصورة التي استوعبت معارف العصر كلها، هدف مؤلفه من خلاله تثقيف الكتبة والموظفين بديوان الإنشاء بالثقافة المطلوبة لمن يتبوأ تلك المناصب[٤].

ثم القاضي شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري العدوي (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، تتلمذ على شهاب الدين محمود وغيره، وسمع الحديث، وكان يتوقَّد ذكاء مع حافظة قوية، وكان يكتب من رأس القلم ما يعجز عنه غيره، كتب الإنشاء بالقاهرة ودمشق، وله تصانيف أدبية كثيرة، وباع طويل في النظم والنثر[٥]، وصنّف هو الآخر كتابا في أصول صناعة الإنشاء، سماه (التعريف بالمصطلح الشريف)، والمقصود مصطلح الكتابة الديوانية والقوانين والألفاظ والمصطلحات التي يجب مراعاتها عند الكتابة في ديوان الإنشاء[٦].

ومن الأدباء المؤرخ الصفدي (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م) ولع بالأدب، وقال الشعر، وأكثر جدا من النظم والنثر والترسل والتواقيع، وأخذ عن شهاب الدين محمود، وابن سيد الناس، وابن نباتة، وأبي حيان، وكتب مؤلفات جليلة في التاريخ[٧]، ومن كتبه (لوعة الشاكي ودمعة الباكي) وهو من الكتب الرائعة في الأدب، دار موضوعه حول العشق والغرام من خلال قصة بينه وبين غلام تركي جميل عشقه وتولّع به[٨]. ومن كتبه (كشف الحال في وصف الخال)[٩]، وصف فيه الخال[١٠] أدبا وشعرا، وبحث ذلك أدبا في اللغة والفلسفة والطب والجمال[١١]، وله (شرح لامية العجم) كثيرة الفوائد، و(ألحان السواجع بين المبادي والمراجع) مجلدان، و(جر الذيل في أوصاف الخيل)، و(جلوة المذاكرة)، و(الروض الباسم)[١٢].

ومن كتبه الأدبية (تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون)، وهي الرسالة التي كتبها أحمد بن عبد الله القرطبي (ت٤٦٣هـ/١٠٧٠م) على لسان ولّادة بنت المستكفي بالله، ومنها (نصرة الثائر على المثل السائر) كتبه نقدا للأديب

---

[١] النهار، العصر المفترى عليه، ص٣٨٥.
[٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص١٨٤- ١٨٦.
[٣] المصدر السابق، ج١ ص١٩٧.
[٤] كراتشكوفسكي: اغناطيوس يوليانوفتش، تاريخ الأدب الجغرافي، تر. صلاح الدين عثمان هاشم، عن طبعة لينينجراد عام ١٩٥٧م، جامعة الدول العربية، الإدارة الثقافية، ج١ ص٤٠٥، ٤٠٨.
[٥] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٣٣١.
[٦] العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص٢، ٣، ٤.
[٧] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٨٧.
[٨] ينظر الصفدي: خليل بن أيبك، (ت٧٦٤هـ)، لوعة الشاكي ودمعة الباكي، ت. محمد أبو الفضل هارون، ط١، مصر، المطبعة الرحمانية، ١٤٣١هـ -١٩٢٢م، (فهرس الكتاب).
[٩] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٨٧.
[١٠] وهي نقطة سوداء تكون في الوجه أو في البدن.
[١١] الصفدي: خليل بن أيبك، (ت٧٦٤هـ)، كشف الحال في وصف الخال، ت. جميل عبد الله عويضة، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م، ص٢٣، وموضوعات الكتاب.
[١٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٨٧، ٨٨.

الكاتب محمد بن عبد الكريم، ابن الأثير (ت٦٣٧هـ/١٢٣٩م) في كتابه (المثل السائر) ويستشف من هذا الكتاب مسائل النقد ومجمل مسائله، ويشبهه كتاب آخر له هو (تصحيح التصحيف وتحرير التحريف) جمع فيه بين خلاصة الجهود التصويبية التي وردت في أبرز الكتب المؤلفة قبله في لحن العوام والتصحيف والتحريف[١].

ومنهم الشاعر أبو بكر جمال الدين محمد بن محمد، ابن نباتة المصري (ت٧٦٨هـ/١٣٦٦م) ولد ونشأ في القاهرة، وعني بالأدب، ومهر في النظم والنثر، ففاق الأقران، وصار شاعرا مشهورا، وكان لا يزال يشكو قلة ذات يده، ثم عُيّن موظفا في ديوان الإنشاء، وكتب التوقيع، وله تصانيف رائقة، منها (مطلع الفوائد) وهو نفيس في الأدب، وله (الفاضل من إنشاء الفاضل)، و(زهر المنثور)، و(شرح رسالة ابن زيدون)[٢].

نلتقي بعد ذلك بالأديب شهاب الدين أحمد بن يحيى بن أبي بكر التلمساني، ابن أبي حجلة (ت٧٧٦هـ/١٣٧٤م)، قدم دمشق، ثم نزل القاهرة، وولع بالأدب ومهر فيه، وولي مشيخة الصوفية بصهريج منجك، وأنشأ مقامات أجاد فيها، وجمع مجاميع حسنة في الأدب، منها (ديوان الصبابة)، و(منطق الطير)، و(السجع الجليل في ما جرى في النيل)، و(سكردان السلطان)، و(الأدب الغض)، و(النعمة الشاملة في العشرة الكاملة)، و(حاطب ليل)[٣].

تناول في كتابه (سكردان السلطان) في معظمه العدد (٧) وأهميته في تاريخ مصر وأحداثها، وخاصيته، وعلاقة السلاطين وبعض الأحداث والملوك به[٤]، وله أيضا كتاب قيم هو (سلوة الحزين في موت البنين) يدور حول رثاء الأبناء الذين يموتون في حياة آبائهم شعرا ونثرا، واعتُبِر أقدمَ كتاب خُصِّص في موضوعه، واعتمدت الكتب التي جاءت من بعده عليه اعتمادا واضحا[٥].

ونلتقي أخيرا بالأديب الموسوعي أحمد بن علي القلقشندي، نزيل القاهرة (ت٨٢١هـ/١٤١٨م) وولد سنة ٧٥٦هـ/١٣٥٥م، تفقّه ومهر وعني بالأدب، وعُيّن في طاقم ديوان الإنشاء، وناب في الحكم، وصنّف (صبح الأعشى في صناعة الإنشاء)[٦]، ونبذ في كتابه الأسلوب الأدبي ذا الصَّنعة البديعية، وترسّل فيه من غير قيود، ويعد ويعد مفخرة من مفاخر التأليف المصري في القاهرة[٧]، تحدّث فيه عن صناعة الإنشاء بصورة تأصيلية وموسوعية وموسوعية وتفصيلية. وله أيضا (حلية الفضل وزينة الكرم) موازنة ما بين السيف والقلم[٨].

الشعر: بلغ الشعر العربي في العصرين الأموي والعباسي شأوا عاليا في الفصاحة والبلاغة والرونق والبهاء، فكان دولة تخضع لها الرقاب، وجنانا يستبق إليها الملوك، ثم دالت دولته هذه في ما بعد لا سيما في عصر المماليك، وقصر شأنه لعجمة لسانهم، وخلوهم عن الاستعداد الفطري لتذوق جماله.

---

[١] النهار، العصر المفترى عليه، ٣٨٧، ٣٨٨.
[٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٢١٦- ٢١٨.
[٣] المصدر السابق، ج١ ص٣٢٩- ٣٣٠.
[٤] ابن أبي حجلة: أحمد بن يحيى بن أبي بكر التلمساني، (ت٧٧٦هـ)، سكردان السلطان، طبع بهامش كتاب المخلاة لبهاء الدين محمد بن حسين العاملي، مصر، مطبعة البابي الحلبي، الفهرس.
[٥] النهار، العصر المفترى عليه، ص٣٨٩.
[٦] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص١٧٨- ١٧٩.
[٧] سليم، الأدب العربي، ص٥٦.
[٨] المرجع السابق، ص٥٦.

ومن شعراء القاهرة في مدة الدراسة النصير بن أحمد بن علي بن المناوي (ت٧٠٨هـ/١٣٠٨م)، استعطى بشعره، وعرض منتخباته الشعرية الخاصة للبيع، وكانت بينه وبين شعراء عصره من المصريين مداعبات ومكاتبات، وكان شعره ينتشر بين الناس على عاميته[١].

ومنهم طبيب العيون شمس الدين محمد بن دانيال المراغي الموصلي (ت٧١٠هـ/١٣١٠م) ولد سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م في الموصل، وعايش الاجتياح المغولي المدمر للعراق، فرحل إلى مصر على إثره، وعني بالأدب، وفاق في الشعر، وصنّف (طيف الخيال) الشاهد له بالمهارة في هذا الفن[٢]، وهو أحد مسرحياتٍ ثلاث[٣] من من فن (خيال الظل)[٤] ألّفها ابن دانيال، واعترف له المؤرخون المعاصرون ومن بعدهم أنه أبدع فيها شيئا غريبا، لم يصنف مثله[٥].

لقد أنشأ هذه المسرحية بطريقة هزلية، حيث جعلها قصة بشخوص مفترضين، خلط فيها النثر بالشعر، واستنادا إلى خفة روحه، وغلبة الظرف والمجون عليه فإن هناك أيضا ما يشير إلى أنه نفّذ هذا العمل المسرحي بنفسه، فلبس ثياب التمثيل ورقص بآلاته جريا على ما كان عليه المصريون حكاما ومحكومين من تشجيع ومشاهدة لهذه المسرحيات، التي عُرِضت في المواسم والموالد والأعياد وحفلات الأفراح[٦]. وهي ميزة تميّزت بها القاهرة في آخر القرن السابع وأول القرن الثامن الهجريين.

ثم نلتقي بصدر الدين محمد بن عمر بن مكي العثماني الدمشقي المعروف بابن الوكيل وابن المرحل (ت٧١٦هـ/١٣١٦م)، تقدّم في الفنون، وفاق الأقران، وقال الشعر فلم يتقدمه فيه أحد من أبناء جنسه، وأتى فيه "بالمرقِّص والمطرِب" على حد وصف ابن حجر، وكان أعجوبة في الذكاء وسرعة الحفظ، وكان لا يقوم أحد بمناظرة الشيخ ابن تيمية سواه، ودرّس بمدارس دمشق والقاهرة، وكان مطبوعا على النظم، غواصا على المعاني، وجمع موشحاته، وسماها (طراز الدار)[٧]، وقد كتب قصائد شعرية بكل الأشكال، بما فيها الأشكال الشعبية مثل الموشحات، والدوبيت، والمخمّس، والزجل، والبليق[٨]، ووصف شعره أحد مؤرخي الشعر بكونه جيدا وفي مستوى مستوى كبار شعراء عصره[٩].

وللكاتب شهاب الدين محمود بن سلمان الحلبي (ت٧٢٥هـ/١٣٢٤م) (أهنى المنائح في أسنى المدائح)[١٠]، أفرد فيه المدائح النبوية من شعره[١١]، ووصف الصفدي[١٢] نظمه بأنه أرفع طبقة من نثره. ثم يأتي بعد ذلك شافع بن علي

---

[١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٩٣- ٣٩٤؛ و Huort: Clement, A history of Arabic Literature, New York, D. Appleton and company, 1903, p335.

[٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٤٣٤.

[٣] والأخريان هما (عجيب وغريب) و(المتيم).

[٤] مسرحيات خيال الظل نمط خاص من عروض الدمى المتحركة، يجمع بين أنواع من الدمى، يقوم محرك الدمى بتحريكها خلف ستارة شفافة من الحرير أو القطن، ويتم تسليط إضاءة ساطعة من خلف الستارة ومن فوقها، ويجلس المتفرجون على الجانب الآخر، فلا يشاهدون غير الظلال المتحركة للدمى، وهي تسقط على سطح الستارة. نصار: لطفي أحمد، وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك في مصر، مصر، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٩م، ص٣٣٥، ٣٣٦.

[٥] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٣٤٣؛ والصفدي، الوافي بالوفيات، ج٣ ص٤٣؛ والمقريزي، السلوك، ج٢ ص٤٦٢.

[٦] الصفدي، أعيان العصر، ج٤ ص٤٢٤؛ ونصار، وسائل الترفيه، ص٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥٠؛ والقطوري: الصفصافي أحمد، من تراثنا الثقافي المشترك خيال الظل، مجلة حراء، العدد ١٣، السنة الرابعة، ٢٠٠٨م، ص٣٣- ٣٤.

[٧] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص١١٥، ١١٦، ١١٨، ١٢٠، ١٢١.

[٨] Huort, A history of Arabic Literature, p328. وقد وهم المؤلف (Hourt) حين ذكر أن ابن الوكيل جمع نتاجه الشعري في منتخب سماه (الشبه والنظير)، والصحيح أنه كتب كتابا في الفقه سماه (الأشباه والنظائر)، وأما موشحاته فهي (طراز الدار). وما ذكر في المتن أسماء لأنواع شعرية كانت موجودة في ذلك العصر.

[٩] سليم، الأدب العربي، ص٢٠٩.

[١٠] طبع.

[١١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٢٤- ٣٢٥.

[١٢] أعيان العصر، ج٥ ص٣٧٣.

الكناني العسقلاني ثم المصري (ت٧٣٠هـ/١٣٢٩م) أخذ عن ابن مالك، وعني بالأدب، وكتب في الديوان زمانا، وولع بجمع الكتب، وله ديوان شعر[١].

وزار القاهرة الشاعر صفي الدين عبد العزيز بن سرايا الحلي (ت٧٥٠هـ/١٣٤٩م) سنة٧٢٦هـ، وكان ماهرا في فنون الشعر كلها، وفي القاهرة التقى ابن سيد الناس، وأبا حيان، وفضلاء ذلك العصر، وهو من أشهر شعراء عصره، ويشتمل ديوان شعره على فنون كثيرة وعلى بديعيته المشهورة[٢].

ومن أشهر شعراء القاهرة جمال الدين محمد بن محمد، ابن نباتة الفارقي الأصل (ت٧٦٨هـ/١٣٦٦م)، وصفه ابن حجر بـ"شاعر الوقت"[٣]، ولد ونشأ وتعلّم بالقاهرة، ومهر في النظم والنثر والكتابة فتقدّم على معاصريه، مدح رؤساء حلب وحماة، وكان سيء الحال، كثير العيال، فعُيّن كاتبا بديوان الإنشاء، ودواوينه هي (القطر النباتي) اقتصر فيه على مقاطيع شعره، و(سوق الرقيق) وضع فيه قصائده الغزلية[٤]، وشعره في ذروة شعر ذلك العصر، ويبدو كومضة حفظت على الشعر رمقه بين غثاء كثير، فقد حافظ فيه على لمسات من الشاعرية، وبراعة التعبير، جعلته جديرا بما أتيح له من الشهرة والتقدير[٥].

وأخيرا شهاب الدين ابن أبي حجلة التلمساني (ت٧٧٦هـ/١٣٧٤م)[٦]، ترك مجاميع حسنة في الأدب[٧] كما تقدم، وله خمسة دواوين في مدح الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وسبع أراجيز هي سبعة آلاف بيت[٨].

وبهذا يتبين أن الشعر في القاهرة وُجِد فيه ما يستحق الإشادة به والتنويه، رغم وجود ركام هائل من الضعف، وأشهر أولئك الشعراء صدر الدين ابن الوكيل، وابن نباتة، وابن أبي حجلة التلمساني، كما أبدعت القاهرة باحتضان أدب (خيال الظل) من خلال الأديب ابن دانيال الموصلي.

٥- علم الخط

حملت بغداد لواء هذا العلم، ورحل إليها المصريون يتعلمون الخط فيها، استمر نهج الرحلات في القرن الثامن الهجري، وممن رحلوا شرف الدين محمد بن شريف الزرعي ثم المصري، الشهير بابن الوحيد (ت٧١١هـ/١٣١١م) الذي سافر إلى بغداد[٩]، وأخذ عن ياقوت المستعصمي[١٠] وغيره، فأتقن الخط المنسوب، وبلغ الغاية، ولم يُرَ أحسن منه كتابة في النسخ والمحقق والريحان[١١]، وكان ألْسُنيا يتكلم بعدة لغات، ويبيع المصحف الذي ينسخه بألف دينار بدون تذهيب ولا تجليد، ومن روائعه ذلك المصحف الذي استكتبه إياه السلطان بيبرس الجاشنكير الذي أدهش الصفدي عند رؤيته له، وقد أثابه السلطان بتوظيفه في ديوان الإنشاء[١٢]. وكان مع ذلك صاحب طريقة

---

١ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص١٨٤- ١٨٦.
٢ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣٦٩- ٣٧٠.
٣ تبصير المنتبه، ص١٧٢.
٤ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٢١٦- ٢١٧.
٥ سليم، الأدب العربي، ج٢ ص٢٣٣.
٦ أنشأ الأمير منجك سنة٧٥١هـ جامعا تحت القلعة، وأنشأ فيه صهريجا، ورتّب فيه صوفية لهم كل يوم طعام ولحم وخبز ومرتبات. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣ ص٣٣١.
٧ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٣٢٩.
٨ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٢ ص٢٥٩- ٢٦٠.
٩ وقع في نسخة الدرر تصحيف لكلمة (بغداد) إلى بعلبك، وكون ياقوت في بغداد، ورحلة الطلاب إليه فيها، وكون مصدري ابن حجر وهما (الوافي بالوفيات) و(أعيان العصر) للصفدي ذكرا (بغداد) وليس (بعلبك)، كل ذلك يرجح تصحفها إلى (بعلبك) عند ابن حجر.
١٠ ياقوت بن عبدالله المستعصمي (ت٦٩٨هـ)، من أعظم الخطاطين. المنجد: صلاح الدين، ياقوت المستعصمي، بيروت، دار الكتاب الجديد، ص١٨.
١١ النسخ معروف، والمحقَّق وهو خط جميل، منضبط الحروف، والشكل، يخلو من الالتفافات والتداخلات، والريحاني نسبة إلى أعواد زهر الريحان للطافته التي تشبه الزهر. الألوسي: عادل، الخط العربي نشأته وتطوره، ط١، القاهرة، مكتبة الدار العربية للكتاب، ١٤٣٠هـ -٢٠٠٩م، ص٤٤.
١٢ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٤٥٣؛ والصفدي، الوافي بالوفيات، ج٣ ص١٢٥.

حسنة في تعليم الخط فقصده الطلاب من عدة جهات، وله في تعليم الخط قصيدة جيدة[١]، كما كتب شرحاً على القصيدة الرائية لابن البواب في الخط[٢].

ويلاحظ بكثرة وصف ابن حجر للخطاطين والكتاب بأنهم اعتنوا أو اهتموا بالخط المنسوب، وهو يقصد بذلك المنسوب من أنواع الخطوط المختلفة؛ لأن المنسوب هو الخط الذي أرسيت قواعده على أسس معينة وتكونت شخصية الحرف فيه بعيداً عن التكوين الهندسي النمطي، وهو يعتمد على النسبة الأفضل[٣].

وهناك شرف الدين عيسى بن محب النابلسي (ت حوالي٧٣٢هـ/١٣٣١م)، قدم القاهرة، وكتب الخط المنسوب، واتخذ تزوير الخطوط والتوقيعات مهنة فكان يحاكي خط كاتب السر، فاكتُشِف أمره وعوقب على ذلك[٤].

وممن تتلمذ على ياقوت ولي الدين العجمي، علي بن زنكي، الذي ضُرِبَ المثل بحسن خطه، وكان له طريقة معينة في الخط تميَّزَ بها[٥]، فضّله الصفدي على ابن البواب نفسه، ومن روائعه نسخة بخانقاه سرياقوس لكتاب (قوت القلوب) تأليف ابن عطية الحارثي (ت٣٨٦هـ/٩٩٦م) ودّ الصفدي لو اشتراها حتى بـ٣ آلاف درهم لحسنها[٦].

وبحسب ترجمة البهنسي لولي الدين العجمي فإنه كان بغدادياً، إلا أنه في نفس الوقت كان هناك رجل في الروم (تركيا) يطلق عليه (الولي العجمي) توفي سنة٦٩٦هـ/١٢٩٦م. وعليه (أي ولي الدين العجمي) أخذ الخطَّ المنسوبَ جلالُ الدين أحمد بن الحسن ابن أبي شروان (ت٧٤٥هـ/١٣٤٤م)[٧] الذي سيأتي. كما تتلمذ عليه عفيف الدين الحلبي محمد بن الحسن الكاتب، وتتلمذ على عفيف الدين ولدُه عمادُ الدين الآتي[٨]، ونقل عنه ولده شيئاً في طرق كتابة الأحرف[٩].

وانتصب لتعليم الخط الكاتب المجوِّد محمد بن نجيب المعروف بابن الخلاطي (ت٧٢٧هـ/١٣٢٦م)، وفاق في الخط المنسوب، وكان إمام القيمرية بدمشق، ثم أقام بالقاهرة مدة[١٠]. ثم يأتي بعد ذلك الحافظ الأديب محمد بن محمد بن محمد اليعمري، ابن سيد الناس (ت٧٣٤هـ/١٣٣٣م) صاحب (عيون الأثر) وهو من أصل أندلسي قدم أبوه إلى القاهرة، وكان مع كثرة علمه وسعة معارفه حَسَنَ الخط، أتقن الخط المغربي والخط المصري معاً[١١]، وهذا يبين أن خطاً مصرياً تبلور وله مميزاته.

ثم نلتقي بالكاتب المجوِّد المحرِّر شيخ الديار المصرية عماد الدين محمد بن محمد بن الحسن الحلبي

---

١ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٤٥٦، أورد الطيبي منها مقتطفات منها في (جامع محاسن كتابة الكتاب). ابن الوحيد: محمد بن شريف الزرعي المصري، (ت٧١١هـ)، وابن البصيصي: (عاش ق القرن العاشر الهجري)، شرح المنظومة المستطابة في علم الكتابة، ت. هلال ناجي، مجلة المورد، وزارة الثقافة والإعلام العراقية، عدد٤، مج ١٥، ١٤٠٧هـ -١٩٨٦م، مقدمة المحقق، ص٢٦٢.

٢ البغدادي، هدية العارفين، مج٢ ص١٤٢. وقد حققه الدكتور هلال ناجي، ونشره في تونس عام ١٩٦٧. ينظر عواد: كوركيس، الخط العربي في آثار الدارسين قديماً وحديثاً، مجلة المورد، وزارة الثقافة والاعلام العراقية، مج١٥، عدد٤، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م، ص٣٩١. وابن البواب علي بن هلال (ت٤١٣هـ)، طوّر خط المنسُوب، وخط التوقيعات، والنسخ، وركّز على ترشيق الحروف وتليينها. الألوسي، الخط العربي، ص٣٥، ٣٦، ٣٧.

٣ البهنسي: عفيف، معجم مصطلحات الخط العربي والخطاطين ، ط١، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٩٥م، ص١٤٣.

٤ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٢٠٨-٢٠٩.

٥ المصدر السابق، ج٣ ص٢١٥؛ وإنباء الغمر، ج٤ ص١٩١، وفيه وقع تصحيف للولي العجمي إلى الزكي العجمي؛ ومنصور: نصار، نظام الإجازة في فن الخط، ضمن مجموع دراسات مهداة إلى يوسف ايبس، تحت عنوان (صفحات من تاريخ دمشق)، تحرير الدكتور عدنان البخيت، لندن، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، ص٣٦٦.

٦ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢٢ ص١٧٩، ج٤ ص٨٧، ورغم عظيم أثر هذا الرجل إلا أن المصادر ومنها كتب ابن حجر بخسته حقه، وكذلك فعلت مع كثير كثير من الخطاطين المبدعين، وكل ما وقعت عليه من معلومات عنه جاءت عرضاً في تراجم الآخرين للأسف، وأما ترجمته لدى البهنسي، معجم مصطلحات الخط العربي والخطاطين، ص١٦٢ فقد ذكر أنه تتلمذ على ياقوت المستعصمي المتوفى سنة٦٩٨هـ، وأن (العجمي) توفي سنة٦١٨هـ، أي أن التلميذ قد مات قبل أن يوجد المعلم تقريباً، وهو خطأ فظيع.

٧ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص١١٧- ١١٨.

٨ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣ ص١٩.

٩ المصدر السابق، ج٣ ص١٤٠، ج٢ ص٤٩٧.

١٠ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٢٧٣.

١١ المصدر السابق، ج٤ ص٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠.

(ت٧٣٦هـ/١٣٣٥م)، قرأ العربية على بهاء الدين ابن النحاس[١]، وكان صاحب طريقة مصرية في الخط المنسوب نُسِبَت إليه، تضاهي طريقة ياقوت المستعصمي، وابن البواب، وله فيها مقلدون[٢]، ويبدو أنه خلّف كتاباً في الخط كان مصدراً للقلقشندي في مواضع عديدة حول القلم وصفاته وآلة بَرْيِه أو قطِّه، وكيفية إمساكه، واستمداده، وقوانينه، وضوابط تناسب الحروب ووجوه تجويد الكتابة[٣]، وهو الكتاب الذي يجهل الباحث إن كان له وجود اليوم، ولم يُوَفَّق في العثور عليه في ما بين يديه من كتب الببيلوجرافيا العربية.

ثم يأتي شهاب الدين أحمد بن يوسف بن هلال الحلبي الشغري ثم الصفدي (ت٧٣٧هـ/١٣٣٦م)، مهر في الطب والأدب، وخدم في البيمارستان المنصوري، وكتب الخط الحسن، وكان فناناً يضع الأوضاع العجيبة من النقش، وأُولِع بوضعها في أوراق مذهبة من صنعته[٤]، وكانت له مقدرة فنية في نظم مدائح للأعيان في أشكال طيور، وعمائر، ومآذن، وعقد، وخيوط، وصورة مقاتل، ونفَّاط[٥]، وبه يتبين مدى ما كان عليه الرسم آنذاك أيضا.

ومنهم عزالدين عبدالمؤمن بن عبدالرحمن الحلبي ابن العجمي (ت٧٤١هـ/١٣٤٠م) وعرف بـ"الكاتب صاحب الخط المنسوب"، قدم القاهرة، وحظي بها، واتجر بالكتب[٦]. ومنهم بهاء الدين موسى بن عبدالرحمن المدلجي (ت٧٤٤هـ/١٣٤٣م) ولي كتابة الإنشاء بالقاهرة، ثم ولي خطابة المدينة المنورة سنة٧٢٦هـ/١٣٢٥م، وكان ذا خطٍّ حسن، كتب به عددا من المصاحف[٧].

وهناك رئيس الحنفية في الشام ومصر جلال الدين أحمد بن الحسن أنو شروان الرازي الأصل ثم الرومي الحنفي (ت٧٤٥هـ/١٣٤٤م) قدم مصر سنة٧٣٠هـ/١٣٢٩م، وكان يكتب الخط المنسوب الذي تعلمه ببلدة الروم (تركيا) على يد الولي العجمي المتوفى سنة٦٩١هـ/١٢٩١م[٨].

ثم نلتقي بأحد معلمي الخط وهو شمس الدين محمد بن محمد بن محمد بن نمير، ابن السراج الكاتب المجود والمقرئ (ت٧٤٧هـ/١٣٤٦م) تصدّى لإقراء القرآن، وتعليم الخط المنسوب، وانتفع به جماعة، وممن تعلم لديه أبو بكر بن أيدغدي، وكان لديه طلاب كثيرون يتعلمون الخط[٩].

ومنهم أمين الدين محمد بن علي بن المهتار الملقب درويش (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م) عمل أولاً بواباً بمدرسة في دمشق، وكان خطه حسناً فجوّد على الكتّاب، ثم رحل إلى بغداد وتعلم على يد تلامذة ياقوت فيها، وبعد حينٍ سكن القاهرة، وناب في الحسبة، وكان خطه معروفاً بالصفاء الذي لا مثيل له[١٠]، وبه يظهر أن بغداد ظلت تؤدي دوراً مهماً بما مثله ياقوت لتلامذته فيها من مرجعية في الخط آنذاك.

ومنهم الطبيب المشهور محمد بن إبراهيم السنجاري المعروف بابن الأكفاني (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، الذي ذكر ابن حجر أن له كلاماً جيداً في الخط المنسوب رغم أنه لم يكن ماهراً في الكتابة[١١]، ولا يوجد في حد علم الباحث كتاب معروف لابن الأكفاني حول هذا الموضوع، وليس أيضاً في كتابه (إرشاد القاصد إلى أحسن المقاصد) ذكر للخط

---

١ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١ ص١٨٧، ولم يترجمه ابن حجر في الدرر إلا عرضاً وبكلمات قليلة، وأورد أنه توفي سنة٧٣٧هـ (الدرر الكامنة، ج٣ ص١٣٩).

٢ ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص١١٨، ج٢ ص٣٤١؛ والقلقشندي، صبح الأعشى، ج٣ ص٢٠، ١١٣.

٣ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢ ص٤٩٣، ٤٩٧، ج٣ ص٤١، ٤٢، ٤٥، ٤٧، ٤٩، ٥١، ٨٩، ١٠٠، ١٣١، ١٤٠، ١٤٢، ١٤٣، ١٦١، ١٦٧.

٤ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٣٤١.

٥ الصفدي، أعيان العصر، ج١ ص٤٣٥.

٦ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٤١٩.

٧ المصدر السابق، ج٤ ص٣٧٥-٣٧٦.

٨ المصدر السابق، ج١ ص١١٧-١١٨.

٩ المصدر السابق، ج٤ ص٢٣٢-٢٣٣.

١٠ المصدر السابق، ج٤ ص٩٠.

١١ المصدر السابق، ج٣ ص٢٧٩-٢٨٠.

المنسوب، رغم أنه أورد فيه أسماء وتعريفات حوالي ستين نوعاً من العلوم المعروفة آنذاك، ولعله في كتابه (الدر النظيم)، أو في رسالة مستقلة ضلت طريقها إلينا.

ومنهم فخر الدين عثمان بن محمد السنباطي الكاتب الحنفي (عاش في النصف الأول من القرن الثامن) سمع الحديث من شرف الدين الدمياطي وحدّث، وكتب المنسوب، وعلّم الخط، وممن تعلم منه الخطاط أيبك بن عبدالله التركي الآتي[١].

ثم نلتقي بالشيخ المجود المحرِّر والمتقن، شيخ الكتابة في عصره، جمال الدين عمر بن محمد بن عثمان الدمشقي (ت٧٥٩هـ/١٣٥٧م) الذي "كتَّبَ عليه الناس"[٢] بمصر والشام، وتخرج به جماعة من أولاد الأعيان والأعلام، ونال أموالاً طائلة من الكتابة، وفي مصر علّم الطلاب الكتابة في المدرسة الظاهرية بين القصرين[٣]، وكان يعلّم أحمد بن بكتمر ابن ساقي الناصر وأحد كبار أعيان القاهرة كلَّ شهر بمائتي درهم[٤]؛ الأمر الذي يشير إلى حرص الأعيان على تعليم أبنائهم الخط.

ثم يأتي كاتب سر السلطان علاء الدين علي بن يحيى بن فضل الله العدوي (ت٧٦٩هـ/١٣٦٧م) فقد كان حسن الخط جداً، ولا يلحق به أحد ولا سيما في خط الثلث، فلم يكتبه "بعد الولي العجمي أحد مثله"، وكان يعتّق الورق والحبر ويحاكي خطوط مشاهير الخطاطين كابن البواب، والولي العجمي وغيرهما، فكانوا لا يشكُّون أنها خطوطهم، إلا ابن أبي رقيبة رئيس الخط المنسوب في القاهرة فلم تنطل عليه محاولته[٥].

ومنهم بغدادي أيضاً قدم القاهرة وهو الكحال والموسيقار نظام الدين يحيى بن عبدالرحمن الجعبري المعروف بابن النور الحكيم (ت٧٧٠هـ/١٣٦٨م)، كتب الخط الجيد، وجوّد الكتابة والإنشاء، وكان فناناً أيضاً يضع بخطه النقوش لتزيين البيوت والدروج في غاية الإتقان والروعة لكنه عاد إلى بغداد ومات بها[٦].

ومنهم عز الدين أيبك بن عبدالله التركي (ت٧٧٦هـ/١٣٧٤م) الكاتب المجوِّد، وشيخ كتاب المنسوب كان مملوكا فأُعْتِق، وتخصص في الخط فتعلمه لدى فخر الدين السنباطي فتميز، وبرع في المنسوب وتصدّر لتعليمه في الأزهر، وانتفع به جماعة، ثم عُيِّن مدرساً في مدرسة أم السلطان الأشرف بالتبانة[٧].

ثم يأتي شرف الدين غازي بن قطلوبغا التركي المكتِّب (ت٧٧٧هـ/١٣٧٥م) جوَّد الخط على رئيس الخطاطين بالقاهرة شمس الدين ابن أبي رقيبة الآتي، ثم نبغ في زمانه، وخالفه في طريقته، واخترع طريقة، ولّدها من طريقة عماد الدين ابن العفيف وابن خطيب بعلبك[٨]، ومهر فيها، وذهب يعلّم الناس مجّاناً في المدرسة الظاهرية بين القصرين لمدة طويلة، وتوفي قبل شيخه ابن أبي رقيبة[٩]، وبهذا يظهر أن الخطاطين لم يكونوا مقلدين فحسب، بل كانت لهم توليدات لطرق جديدة في الخط.

وأما شيخه شمس الدين محمد بن علي بن أحمد بن أبي رقيبة المصري (ت٧٧٨هـ/١٣٧٦م) الذي أخذ المنسوب عن ابن العفيف فقد حمل لواء الخط خلفاً له، وانتهت رياسته إليه، وولي حسبة مصر (الفسطاط) والوجه القبلي

١ المصدر السابق، ج١ ص٤٢١، ج٢ ص٤٥٠.
٢ أي علّمهم الخط.
٣ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص١٨٨؛ والصفدي، أعيان العصر، ج٣ ص٦٦١.
٤ الصفدي، أعيان العصر، ج٣ ص٦٦١.
٥ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص١٣٨-١٣٩.
٦ المصدر السابق، ج٤ ص٤١٧-٤١٨.
٧ المصدر السابق، ج١ ص٤٢١؛ والمقريزي، السلوك، ج٤ ص٣٨٤.
٨ بهاء الدين محمود بن محمد السلمي، عني بالخط فجوّده إلى الغاية، ودرّب جماعة من أهل دمشق، أوقع به تنكز ظلماً، وتوفي سنة ٧٣٥هـ. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٣٥-٣٣٦.
٩ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص١١٨، ولم يترجمه فيها مفردا بل عرضا؛ والمقريزي، السلوك، ج٤ ص٣٩٤.

سنة٧٦٦هـ، ومن تلامذته الملك الكامل شعبان بن الناصر[١]، ومن طلابه أيضاً الشيخ أبو علي الزفتاوي الآتي.

وتتلمذ على ابن أبي رقيبة ايضاً الخطاط حسين بن ياسين الكاتب (كان حياً ٧٨١هـ/١٣٧٩م)، وأجازه في الكتابة والتدريس للخط[٢]، و(حسين بن ياسين) هذا هو مؤلف كتاب (لمحة المختطِف في صناعة الخط الصلِف)[٣]، وقد أجاز أجاز حسين بن ياسين هو الآخر لطلابه في دمشق سنة٧٨١هـ/١٣٧٩م وهم الشيخ عماد الدين إسماعيل بن عبدالله الزمكحل الآتي، وإبراهيم بن علي بن داود الحمصي الحنبلي[٤].

وفي هذه الإجازة، وكذلك في كون الشيخ الزفتاوي (ت٨٠٦هـ/١٤٠٣م) أجاز تلميذه شعبان الآثاري (ت٨٢٨هـ/١٤٢٤م) في الخط[٥]، يتبين بوضوح أن نظام الإجازة في الخط (منح الشهادات) كان معروفاً قبل التاريخ الذي عرضه أحد الباحثين المحدثين[٦] لاستحداث الإجازة، حيث ذكر أنها بدأت مع الخطاط عبدالرحمن بن يوسف القاهري (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م) ، ومهما يكن من أمر فإن منح الشهادات في الخط ميزة ذهبت القاهرة بفضلها.

ومنهم إسماعيل بن عبدالله المعروف بابن الزمكحل (ت٧٨٨هـ/١٣٨٦م) كان أعجوبة دهره في الكتابة بقلم الغبار[٧]، مع أنه كان لا يطمس عيْنَ واوٍ ولا ميم، وكتب من المصاحف الصغيرة المحمولة ما لا يحصى[٨].

ومنهم شيخ ابن حجر، محمد بن أحمد بن علي الزفتاوي الجيزي (ت٨٠٦هـ/١٤٠٣م) تخصّص في الخط، وأخذه عن ابن أبي رقيبة، وتفوّق في معرفة الخطوط المنسوبة، وانتفع به المصريون في تجويد الخط[٩]، وكان يقتفي طريقة طريقة ابن العفيف بينما كان معاصره الملقب (عصفور) يمثّل طريقة ياقوت المستعصمي في القاهرة[١٠].

ولكن الزفتاوي لم يكن نابهاً مثل معاصره نور الدين الوسمي كونه أي الزفتاوي سكن القسطاط[١١]، وإذا كان الوسمي قد نَبُه في عصره لسكناه القاهرة الفاطمية وتدريسه الخط لأولاد الأعيان فإنه قد أخملته المصادر ومنهم ابن حجر، الذي لم يترجمه، ولهذا لا نعرف شيئاً عنه سوى لقبه (نور الدين) وأما اللقب النسبي فإنه، ورد لديه هكذا (الوسمي) بينما لدى تلميذه السخاوي (الوسيمي) كما سيأتي.

صنف الزفتاوي كما ذكر معاصره القلقشندي (مختصراً في قلم الثلث) مع قواعد ضمّها اليه في صنعة الكتابة أحسن فيها الصنع[١٢]، والثابت أنه صنّف أيضاً (منهاج الإصابة في أوضاع الكتابة)[١٣]، وبمقارنة موضوعات هذا الأخير مع المختصر الذي ذكره القلقشندي يترجح أنه مصنف آخر.

ذكر الزفتاوي سبب تصنيفه (منهاج الإصابة) بأنه رأى هذه الصناعة "قد درست معاهدها، وطمست معالمها، وفسدت آلاتها، وتغيرت حالاتها"[١٤]، وقد رتَّبه على أبوابٍ حول القلم، والدواة، والبري، والاستمداد، والتسوية،

---

١ ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص١٤٥، وذكره في الدرر الكامنة عرضاً ج٣ ص١٣٨-١٣٩؛ وينظر المقريزي، السلوك، ج٤ ص٢٧٧.

٢ منصور، نظام الإجازة في الخط العربي، ص٣٦٥-٣٦٦.

٣ طبع بتحقيق هيا محمد الدوسري، ط١، ١٩٩٢م- مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، سلسلة التراث العلمي - الكويت.

٤ منصور، نظام الإجازة في فن الخط، ص٣٦٥-٣٦٦.

٥ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص٣٥٣.

٦ ينظر ابن الصائغ: عبدالرحمن بن يوسف، (ت٨٤٥هـ)، تحفة أولي الألباب في صناعة الخط والكتاب، ت. هلال ناجي، ط٢، تونس، دار أبو سلامة، ١٩٩٢م، ١٩٩٢م، مقدمة المحقق، ص٢٢.

٧ هو قلم ضئيل مولّد من الرقعة والنسخ مفتح العقد من غير ترويس فيه، وسمي كذلك لدقته، كأن النظر يضعف عن رؤيته لدقته كما يضعف عن رؤية الشيء عند ثوران الغبار، وبه تكتب بطائق الحمام التي تحملها على أجنحتها. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣ ص١٢٥-١٢٦.

٨ ابن حجر، إبناء الغمر، ج١ ص٣٢٢؛ والكردي، تاريخ الخط الغربي وآدابه، ص٣٠٨-٣٠٩.

٩ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص٢٥٥.

١٠ المصدر السابق، ج٢ ص٣٤١.

١١ المصدر السابق، ج٤ ص١٩١.

١٢ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣ ص٢٠.

١٣ ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٣ ص٢٥٥.

١٤ الزفتاوي: محمد بن أحمد، (ت٨٠٦هـ)، منهاج الإصابة في أوضاع الكتابة، ت. هلال ناجي، مجلة المورد، وزارة الثقافة والإعلام العراقية، عدد٤، مج ١٥، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م، ص١٩٢.

والمط، والشكل، والنقط، وحروف المعجم بأشكالها، ولحن الخط، وما يجوز ومالا يجوز، وفوائد حول الخط سمعها من شيخه ابن أبي رقيبة، وأبواب أخرى[١].

ويضيف المصنف فيه الكثير إلى آراء أعلام الخط العربي، وقسماً لا يستهان به لا وجود له في المصادر الأخرى، ويكشف حقيقة مهمة وهي أن القلقشندي أدرج فصولا مهمة منها في موسوعة (صبح الأعشى) بدون أن ينسبها إلى صاحبها، وأن الطيبي مصنف جامع (محاسن الكتاب) قد انتحل لنفسه مقدمته مع تغيير طفيف، كما نقل الزبيدي فصولاً مهمة وصنع منها كتابه (حكمة الإشراق)[٢].

وعاصره الشيخ علاء الدين علي بن محمد بن علي بن عصفور المالكي السنجاري الأصل الدمشقي المولد والدار (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م) الكاتب الموقع، ولي توقي الدست بالقاهرة، ووقّع عن جماعة من الأكابر، وأخذ عنه جماعة من الأعيان طريقة ياقوت التي قدم بها من الشام بينما كان صديقه الزفتاوي يعلِّم طريقة ابن العفيف المصري[٣].

وأما المعاصر الآخر لهما والذي نبُه ذكره في عصره لسكناه القاهرة[٤] ولكن أخملت المصادر شأنه فهو نور الدين الوسمي كما ورد عند ابن حجر، والوسيمي كما ورد عند تلميذه السخاوي، وقد تتلمذ عليه جماعة من أعيان القرن التاسع في الثلث الآخر للقرن الثامن تقريباً[٥]، وبعد ذلك لا نعرف عنه شيئاً ولا حتى اسمه.

وقد جمع القلقشندي (ت٨٢١هـ/١٤١٨م) فأوعى في كتابه (صبح الأعشى) في علم الخط، باعتباره صنعة لا بد أن يكون الكاتب على علم بها، وقد أخذ هذا مساحة واسعة من كتابه في الجزء الثاني والثالث[٦]، وهو الباب الثاني من من المقالة الأولى الذي اشتمل على فصلين الفصل الأول في ذكر آلات الخط ومبادئه وصوره وأشكاله، والفصل الثاني في الخط في فضله، وحقيقته، وأصل وضعه، وعدد الحروف، وتحسينه، وقواعد كتابته، ومقدمات متعلقة بأوضاعه، وقوانينه التي يعتمدها الكاتب، ومباحث أخرى استقصى فيها هذا العلم بشكل كامل.

وممن لمع نجمه من تلامذة الزفتاوي الشيخ شعبان بن محمد الآثاري الموصلي ثم المصري (ت٨٢٨هـ/١٤٢٤م)، وكان قد لازمه فجاد خطه، وصار رأس تلامذته وأجازه، فعلّم الناس[٧]، وولي حسبة مصر أيام أيام برقوق، نظم في صناعة الخط ألفية سماها (العناية الربانية في الطريقة الشعبانية)، "لم يسبق إلى مثلها"[٨]، أثنى عليه معاصره القلقشندي ونقل عن ألفيته آراءه في مسائل هذا العلم وترجيحاته[٩]، واختلف ابن حجر فيه؛ ففي كتابه (إنباء الغمر) جاءت ترجمته له ساخنة لشخصية غريبة ومتقلبة وغير ملتزمة[١٠]، بينما أورد له ترجمة مختصرة وهادئة في المجمع المؤسس[١١].

نص الناظم الآثاري أنه نظم ألفيته سنة٧٩٠هـ/١٣٨٨م، في الآثار على شاطئ النيل، ويتضح من عنوانها أن له إبداعاً خاصاً فيها، وقد وصفها أحد الباحثين بأنها "موسوعة لقواعد الخط العربي لا نظير لها على الإطلاق"، واستطاع "أن يبتكر نظرية في الخط أساسها الدوائر"، وأنها أي الألفية تمثل النص الجامع المانع الذي افتقدته

---

١ المصدر السابق، مقدمة المحقق، ص١٨٦-١٨٧.
٢ المصدر السابق، مقدمة المحقق هلال ناجي، ص١٨٧.
٣ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٣٤١؛ والمقريزي، السلوك، ج٦ ص١٦٤؛ والسخاوي، الضوء اللامع، ج٥ ص٣١٦.
٤ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤ ص١٩١.
٥ على سبيل المثال انظر: السخاوي، الضوء اللامع، ج٢ ص٧١، ج٨ ص٢١١، ج١٠ ص٥٤، ج١١ ص٥٣.
٦ صبح الأعشى، ج٢ ص٤٦٩-٥١٧، ج٣ ص٣-٢٢٧.
٧ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص٣٥٣-٣٥٤.
٨ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣ ص٢.
٩ المصدر السابق، ج٢ ص٥١٢، ج٣ ص٢٠، ٢٩، ٤٧، ٥٣، ٥٦، ٦١، ٦٤، ١٠٥، ١٤١ .
١٠ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص٣٥٣-٣٥٤.
١١ المصدر السابق، ج٣ ص١٢٢- ١٢٣.

العربية منذ قرون[١].

وممن تعلّم على النور الوسمي (أو الوسيمي) زين الدين عبدالرحمن بن يوسف[٢] القاهري (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م)، وولد (قبل٧٧٠هـ/١٣٦٨م)، وتعلم الخط المنسوب على الوسيمي الذي كان يختار طريقة غازي بن قطلوبغا، ومع ذلك استفاد طريقة ابن العفيف من شيخه الآخر الزفتاوي، ثم ابتدع له طريقة خاصة من طريقتي ابن العفيف وغازي، وقد مهر في الخط ونسخ عدة مصاحف، وصار شيخ الخطاطين في وقته بدون مدافع، وعين مدرساً للخط في عدة مدارس، وألف (تحفة أولي الألباب في صناعة الخط والكتاب)[٣].

وهناك آخرون عُرِفوا بإجادة الخط المنسوب، وكانوا من علماء القاهرة، وهم كثيرون[٤].

ومن خلال ما تقدم يتبين أنه كان لخطاطي بغداد أثر جيد في نهضة الخط في القاهرة، وبلغ خطاطوها طوال مدة الدراسة ممن أمكن التعرف عليهم أكثر من ٤٥ خطاطا، لم تعط المصادر لكثير منهم حقهم في التعريف بهم وبآثارهم، وأنه بلغ ما خلفوه من نتاج علمي ١٢ عملا، وبلغت طرق الكتابة التي تولّدت في القاهرة لبعضهم حوالي ٤ طرق، وبعض ذلك النتاج كما هو حالة الخطاط الآثاري كان عبارة عن ممثل القاهرة الحقيقي من حيث كونه الوعاء الكبير الذي استوعب الجهود العلمية والمعرفية السابقة.

وبهذا يتبين مصداقية إشادة ابن خلدون بمستوى إجادة المصريين للخط وعنايتهم به، وأنهم "يلقون على المتعلم قوانين وأحكاماً في وضع كل حرف، ويزيدون إلى ذلك المباشرة بتعليم وضعه، فتعتضد لديه رتبة العلم والحس في التعليم"[٥]، ويتبين كونهم اختصوا بطريقة تخالف طريقة ياقوت المستعصمي والولي العجمي، كما يشيد بمستوى التعليم للخط وطريقته البديعة[٦]، وهي أمور تؤكد ما عرضناه سابقا عن تطور الخط في القاهرة وتألقه وإبداعه، كما يتبين تقصير كتب التاريخ والتراجم ومنها كتب ابن حجر عن التعريف بهؤلاء الأعلام.

٦- اللغات الأجنبية

فرض كون حكام القاهرة أعاجم أن يتعلّم المقربون منهم لغتهم، وكانوا يميلون لمن يتكلم لغتهم من العلماء والكُتّاب[٧]، ودفع الانفتاح الواسع بين أنحاء الأمة الواحدة وحرية التنقلات أن يختلط أبناء لغات متعددة تحت رابطة الدين الإسلامي، ولكون المحكومين عربا كان دافعا لهؤلاء أو لبعضهم لتعلم العربية، كما أن ازدهار التجارة مع الشرق والغرب والشمال والجنوب، وتحوّل القاهرة ومصر إلى مركز تجاري عالمي؛ وما كان للدولة المملوكية من علاقات واسعة مع مختلف دول العالم المعروف آنذاك، اقتضى إتقان لغاتهم للقيام معهم بالعلاقات الديبلوماسية اللازمة من مراسلات ومعاهدات واتفاقيات.

لقد قام بمهمة الترجمة لدى السلطان كتاب السر، الذين يفترض بهم أن يتعلموا تلك اللغات التي تتعلق بمعرفتها الحاجة الرسمية[٨]، وممن تولى هذه المهمة ترجمان الدولة شيرزاد بن ممدود بن شيرزاد الرومي

---

١ الآثاري: شعبان بن محمد الموصلي، (ت٨٢٦هـ)، العناية الربانية في الطريقة الشعبانية، ت. هلال ناجي، مجلة المورد، وزارة الثقافة والإعلام العراقية، العدد ٢، مج٨، ١٩٧٩م، ص ٢٢٦، ٢٢٧.

٢ ورد في إنباء الغمر، ج٣ ص٣٥٣: عبدالرحمن بن علي، والصواب ما أثبته كما بينه السخاوي في الضوء اللامع ج٤ ص١٦١-١٦٢.

٣ حققه الدكتور هلال ناجي، وطبع.

٤ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٣٠١، ٣٠٦، ج٢ ص٣٩٤، ٣٩٩- ٤٠٠، ٤٧٨، ج٣ ص٢٦٤- ٢٦٥، ٣٢٨، ج٤ ص٢٨٧؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٣٦١، ص٣٦١، ٤٤٣، ج٢ ص١١٦، ١٢٣، ١٢٩، ١٧٠، ج٣ ص٢٣٢.

٥ المقدمة، ص٥٢٤.

٦ المصدر السابق، ص٥٢٨.

٧ القلقشندي، صبح الأعشى، ج١ ص٢٠٣.

٨ المصدر السابق، ج١ ص٢٠٣.

(ت٧٠٧هـ/١٣٠٧م) حيث بقي ترجمانا للدولة المملوكية يترجم الكتب التي ترد من بلاد العجم من أيام السلطان قطز حتى وفاته سنة٧٠٧هـ/١٣٠٧م[١].

ومنهم الكاتب شهاب الدين غازي بن أحمد الواسطي (ت٧١٢هـ/١٣١٢م)، ولد بحلب، وخدم بديوان الاستيفاء بها، ثم كتب الإنشاء بالقاهرة، وولي نظر الدولة بها أيضا، وكان يعرف اللسان التركي[٢].

ومن شيوخ أبي حيان الألسنيين الفقيه الأديب فخر الدين محمد بن مصطفى بن زكريا التركي الأصل الدوركي (ت٧١٣هـ/١٣١٣م)، وكان يعرف التركية والفارسية إفرادا وتركيبا، وأعانه على ذلك معرفته الجيدة بالعربية، وأخذ عنه أبو حيان اللغتين الفارسية والتركية، وأنشأ قصيدة في قواعد اللسان التركي[٣]، تسمى (أمهات المتكلمين)[٤].

ومنهم الكاتب الشهير علاء الدين علي بن أحمد بن سعيد، ابن الأثير الحلبي الأصل المصري (ت٧٣٠هـ/١٣٢٩م)، كان ذكيا نبيها حسن الكتابة، وولي دار الإنشاء، وعظُم قدره، وكان يعتز بلغة الحكام المماليك ويفضلها على العربية؛ إذ كان يرتّب في مجلسه ١٦ مملوكا يقفون صفين، ولا يتكلم مع أحد إلا معهم بالتركية، وهم الذين يترجمون كلامه لعامة الناس[٥].

وأبرز القاهريين إثارة للإعجاب بموسوعيته وكثرة لغاته التي أتقنها هو الإمام النحوي والمفسّر أبو حيان الأندلسي، الذي أخذ عن الدوركي اللغتين المذكورتين، وكما وضع قواعد للنحو العربي، كذلك صنّف في اللغة التركية (الإدراك للسان الأتراك)، و(زهو الملك في نحو الترك)، و(الأفعال في لسان الترك)، كما صنّف في الفارسية (منطق الخرس في لسان الفرس)، وألّف حتى في الحبشية كتابا هو (نور الغبش في لسان الحبش)[٦]، وهي وهي كتب مفقودة[٧] ما عدا (الإدراك للسان الأتراك). وبقدر ما تشير هذه التأليفات إلى عقلية أبي حيان الواسعة وذاكرته الفياضة فإنها تشير إلى الحاجة إلى تعلم هذه اللغات في القاهرة للتعامل مع هؤلاء الأجناس الذين يتكلمونها.

أبان الإمام أبو حيان في مقدمة كتابه (الإدراك) غرضه وهو "ضبط جملة غالبة من لسان الترك لغة وتصريفا ونحوا"؛ لأنه كان متأهّلا للقيام بهذه المهمة العلمية حيث أتقن اللسان التركي حرفا حرفا على حد وصفه، وأوضح مصادره بقوله: "فأذكر اللفظة التركية، وأتبعها بمرادفها من اللغة العربية، ... فما كان فيه من علم اللغة فمأخوذ عن من أثق به في باب النقل، ولي فيه الترتيب الغريب والتخليص العجيب، وما كان فيه من علم التصريف ومن علم النحو فهو مما لم أنسج فيه على منوال، بل استخرجته من القوة إلى الفعل بالتطلُّب والتسآل، فبلغت بلطيف الإدراك إلى أحسن مراد .... وحزت فيه قصب الرهان"، وانتهى منه مؤلفه سنة٧١٢هـ بالمدرسة الصالحية[٨]. وحُق له كل هذا الاعتزاز بما أنتج من معرفة ألسنية كانت من ترتيبه ومن خلال منهجه الاستقرائي.

---

[١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص١٩٧.
[٢] المصدر السابق، ج٣ ص٢١٤- ٢١٥.
[٣] المصدر السابق، ج٤ ص٢٥٩.
[٤] البغدادي، هدية العارفين، مج٢ ص١٤٢- ١٤٣.
[٥] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص١٤- ١٥.
[٦] المصدر السابق، ج٤ ص٣٠٥.
[٧] أبو حيان، تذكرة النحاة، مقدمة التحقيق ص٢٢.
[٨] أبو حيان: محمد بن يوسف الغرناطي، (ت٧٤٥هـ)، الإدراك للسان الأتراك، الأستانة، ١٣٠٩هـ، ص٨، ٩.

وممن أتقن اللسان التركي إبراهيم الملقب جمال الكفاة (ت٧٤٥هـ/١٣٤٤م) وهو أول من جُمِع له بين نظر الجيش والخاص، وكانت منزلته عالية في الدولة، لكنه مات أخيرا تحت سياط التعذيب من قبل السلطة[١].

نلتقي آخر القرن بالقاضي جمال الدين محمد بن علي القيصري الرومي (ت٧٩٩هـ/١٣٩٧م) ولي بالقاهرة الحسبة وأوقاف الشافعية، ونظر بعض المدارس، والتدريس بها، وكان فصيحا بالعربية والتركية والفارسية[٢].

وأخيرا فتح الله بن معتصم الداودي التبريزي (ت٨١٦هـ/١٤١٣هـ) وقد ولد سنة ٧٥٩هـ/١٣٥٧م، وقدم مع أبيه القاهرة صغيرا، ومهر في الطب، وتفقّه حنفيا، وباشر رئاسة الطب بعفة ونزاهة، ثم تقرّر في كتابة السر، وكان يتقن كثيرا من اللغات، وكان هذا سبب تقريب السلطان برقوق له وتأثره به[٣].

يمثل هؤلاء كما يبدو جزءا بسيطا من المترجمين والألسنيين الموجودين في القاهرة، ممن كانت لهم علاقة ما بالسلطة أو كانوا من كبار العلماء؛ الأمر الذي يشير إلى وجود ألسنيين آخرين من الذين انحسرت عنهم الأضواء، وأغفلهم المترجمون ومنهم ابن حجر، كانت تعج بهم القاهرة حيث ضرورة الحاجة إليهم تفرض ذلك؛ كونها مدينة جمعت أناسا من مختلف الأجناس واللغات.

٧- علم المُعَمّى (التشفير)

تطوّر في العصر المملوكي ما يسمى اليوم بـ(علم التشفير)، وكان يسمى (المعمَّى) على يد تاج الدين علي بن محمد بن عبد العزيز الثعلبي الموصلي المعروف بابن الدريهم (ت٧٦٢هـ/١٣٦٠م) الذي أخذ العلم، وقدم القاهرة فقرأ على أبي حيان بعض تصانيفه، وزاول العمل التجاري، وكان مع ذلك موسوعي المعرفة، غير أنه تميز بمهارته في الأحاجي والألغاز وعلم المعمّى الذي كان يطلق عليه أيضا (المُتَرْجَم)، وصنّف في ذلك (المبهم في حل المترْجَم) وله (غاية الإعجاز في الأحاجي والألغاز)، و(إقناع الحذاق في أنواع الأوفاق)[٤].

عدّد القلقشندي[٥] ما تعارف عليه أهل عصره في التعمية (التشفير)، وأن من أهم أنواعها هو أن تكون بقلم اصطلح عليه المرسِل والمرسَل إليه لا يعرفه غيرهما ممن لعله يقف عليه، وأن لهم فيها مذهبين: إما بالكتابة بأقلام (لغات) قديمة غير متداولة، أو أن يصطلح الإنسان مع نفسه على قلم يبتكره وحروف يصورها، ونقل عن ابن الدريهم هذا أن من الناس من يكتب حرفا معينا من الحروف بآخر معين، ومنهم من يعكس حروف الكلمة، ومنهم من يبدّل الحروف بأعدادها في الجمل، إلى آخر ما هنالك من مناهج وطرائق للتعمية.

لقد أبدع ابن الدريهم الموصلي في هذا الفن؛ الأمر الذي جعل (دافيد كهن) أحد مؤرخي هذا العلم يقول: "إن ابن الدريهم العربي هو أبو التعمية في العالم"[٦]، على أنه وإن كان قد كتب فيه وأصّله وبينه وأبدع فيه كما يبدو من عناوين مؤلفاته ومما نقل عنه القلقشندي وشهد له بعض الباحثين لكنه لم يكن أولَ من مارس هذا الفن، بل سبقه آخرون، ومنهم شمس الدين ابن المشد، محمد بن داود بن علي (ت٧٣٤هـ/١٣٣٣م) الذي شارك في العربية، وأتقن الرياضي وآلات المواقيت، وكان في فك شفرة المترجم (المعمى) ماهرا جدا[٧]. ومن الذين تفوقوا في فك شفرة

---

[١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٧٩.
[٢] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٥٤١، ٥٤٢.
[٣] المصدر السابق، ج٣ ص٢٩، ٣٠.
[٤] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص١٠٧، ١٠٨.
[٥] صبح الأعشى، ج٩ ص٢٢٩ وما بعدها.
[٦] النهار، العصر المفترى عليه، ص٤٠٢، نقلا عن أباظة، موسوعة الأوائل والمبدعين، ج٥، ص٨٨٢، ٨٨٣.
[٧] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٤٣٧.

المترجم أيضا عبد الحق بن أبي علي بن عمرو الحموي (ت٧١١هـ/١٣١١م) من أقارب القاضي بدر الدين ابن جماعة، كان كثير الأدب فاضلا عاقلا[١].

وفي هذا ما يشير إلى تقدم القاهرة بشكل ملحوظ في علم التشفير من بين سائر المدن في ذلك العصر.

وبهذا العرض يتبين أن القاهرة في العلوم اللغوية حظيت بنتاج جيد في النحو، وبأفضل ما كتب في البلاغة في العالم الإسلامي رغم تراجعه عن الابتكار، وبحظ جيد في المعاجم اللغوية الموعبة للمواد الضخمة، وبوجود شعر يستحق الإشادة، وأدبٍ بديع كأدب (خيال الظل)، وتبيّن تأثير بغداد في القاهرة في علم الخط، وتوليد علماء القاهرة لطرق جديدة، وتأليفهم نتاجا استوعب الجهود السابقة فيه، ووجود حركة ترجمة جيدة داخل القاهرة، غير أن كتب ابن حجر قصّرت في التعريف بعلماء الخط والترجمة.

ثانيا: العلوم العقلية

أقصد بالعلوم العقلية تلك العلوم التي يكون للعقل فيها مجال واسع ونشط، مثل المنطق، والرياضيات، والهندسة، والشطرنج. لقد كرم الله عز وجل الإنسان بالعقل، وجعله مناط تكليفه؛ ودعاه إلى استخدامه في التدبر والتفكير والتأمل في السنن والنواميس الكونية التي تعود بالنفع على الإنسان، وقد شهد العقل القاهري نشاطا علميا في بعض العلوم العقلية، والتي منها العلوم العددية، والهندسة، والمنطق.

١- العلوم العددية (علوم الرياضيات)

يقسمها ابن خلدون إلى أقسام منها: (الأرتماطيقي) وهو معرفة خواص الأعداد من حيث التأليف، إما على التوالي أو بالتضعيف، وهي قواعد تقررت مسائلها، وألّف فيها المتقدمون، لكن المتأخرين هجروها؛ لأنهم استخلصوا ما توصّل إليه الأقدمون واكتفوا بذلك[٢]، وتعتبر دراسة المتواليات الهندسية من صلب علم الأرتماطيقي[٣]. ومنها علم الحساب وهي صناعة علمية في حسبان الأعداد بالضم والتفريق، ويشتمل على مسائل الجمع، والطرح، والضرب، والقسمة، والكسر، والجذور[٤]. ومنها علم الجبر والمقابلة[٥]، وهو علم يتعرف منه كيفية كيفية استخراج المجهولات العددية بمعادلتها لمعلومات تخصها[٦]. ومنها حساب الفرائض، وهي صناعة حسابية في في تصحيح السهام لذوي الفروض[٧]، والمقصود فيما يتعلق بالجانب الحسابي في الفرائض، وإلا فالفرائض من فروع الفقه. ومن فروع علم الحساب حساب التحت والميل، وهو علم يتعرف منه كيفية مزاولة الأعمال الحسابية برقوم تدل على الآحاد، وتغني عما عداها بالمراتب لتسهيل عملية الحساب وسرعتها[٨]. ومنها علم حساب الهواء وهو علم يتعرف منه كيفية حساب الأموال العظيمة من الخيال بلا كتابة[٩]. ومنها علم حساب العقود، وهي عقود الأصابع، وقد وضعوا كلا منها بإزاء أعداد مخصوصة، ثم رتّبوا لأوضاع الأصابع آحادا وعشرات ومئات وألوفا، حتى وضعوا قواعد يُتَعَرَّف بها حسابٌ يمكن به معرفة عشرة آلاف بيد واحدة، وهذا العلم يسّر التعامل التجاري

---

[١] المصدر السابق، ج٢ ص٣١٨.
[٢] ابن خلدون، المقدمة، ص٦٣٤، ٦٣٥.
[٣] حبش: محمد، المسلمون وعلوم الحضارة، ط١، دمشق، دار المعرفة، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، ص٥١.
[٤] ابن خلدون، المقدمة، ص٦٣٤، ٦٣٥.
[٥] المصدر السابق، ص٦٣٦.
[٦] طاش كبري زادة: أحمد بن مصطفى، (ت٩٦٨هـ)، مفتاح السعادة ومصباح السيادة، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، مج١ ص٣٦٩.
[٧] ابن خلدون، المقدمة، ص٦٣٨.
[٨] طاش كبري زادة، مفتاح السعادة، ج١ ص٣٦٨.
[٩] المصدر السابق، ج١ ص٣٧١.

بين مختلفي اللغات[١]. وقسّم العرب الحساب إلى غباري، وهو الذي يحتاج فيه إلى استعمال أدوات كالقلم والورق، وهوائي وهو الحساب الذهني، الذي لا يحتاج فيه إلى أدوات[٢].

في العصر المملوكي في القاهرة كثر الرياضيون كثرة ملحوظة، وذلك يعود لحاجة الدولة إلى من يملأ دواوينها الإدارية، ولا سيما في الجانب المالي الحسابي، وتلبية لحاجة الفرائض ومسائل الميراث، ولازدهار التجارة في ذلك العصر، ولقيام السلطات بمسح وقياس الأراضي المصرية لإعادة توزيعها على السلطة المملوكية وجيشها، فيما سمي بالروك، ولارتباط الرياضيات بعلوم أخرى ومنها الفلك[٣]. وكان من الطبيعي أن يتعلم الطفل مبادئ الحساب مع مبادئ القراءة والكتابة، بل إن بعضا من الأسر القاهرية أخرجت أولادها من مكاتب تعلم القرآن وذهبت بهم إلى كتاتيب تعليم الحساب، التي كان النصارى يتولون وظيفة المؤدب فيها؛ فأثار حفيظة بعض علماء الدين آنذاك[٤].

ويبدو أن أهل الذمة وجدوا في العلوم الثلاثة وهي الطب، والتكحيل (طب العيون)، والحساب، التي زهد فيها بعض المسلمين فرصة لإثبات جدارتهم العلمية التي تتناسب ووضعهم الديني، ومع ذلك فلم يسلموا من التحذير من خطورة إمساكهم بها[٥]، ومن الطبيعي أن نجد كثيرا منهم سواء بقوا على دينهم أو أسلموا يمسكون الوظائف المالية والحسابية في الدولة، وتولوا الشؤون التجارية للملوك والأمراء. وخلال القرن الثامن الهجري ظلوا يدرسون كتبا من القرون السابقة[٦]. ويلاحظ أن أغلب من اتصفوا بمعرفة الحساب كانوا إما فرضيين أو موظفين في الشؤون المالية أو التجارية، ومنهم من كان موسوعي المعرفة أو كان من علماء الفلك الذي يعتمد أساسا في جزء كبير منه على الحساب.

ومنهم محمود بن أبي بكر بن أبي العلاء السنجاري الكلاباذي الصوفي الحنفي (ت٧٠٠هـ/١٣٠٠م) وكان إماما فقيها بارعا في الفرائض، وله شرح السراجية، المسمى (ضوء السراج)، وهو كثير الفوائد[٧]. ومنهم شمس الدين محمد بن يوسف بن عبد الله الجزري (ت٧١١هـ/١٣١١م)، وأتقن العلوم وصنّف فيها، وكان عالما بالرياضيات[٨]. ومنهم الإمام علاء الدين علي بن محمد بن خطاب الباجي (ت٧١٤هـ/١٣١٤م)، الذي صنّف في الفرائض والحساب[٩]، ووضع كتابا في الجبر والمقابلة[١٠]. ومنهم الشيخ عز الدين عمر بن أحمد المدلجي النشائي (ت٧١٦هـ/١٣١٦م)، وكان إماما بارعا في الفقه والنحو والحساب والأصول[١١]. ومنهم شرف الدين محمد بن مختار الحنفي (ت٧٣٧هـ/١٣٣٦م) وكان عارفا بالمنطق والهيئة والحساب[١٢].

---

[١] المصدر السابق، ج١ ص٣٧٢.
[٢] الملا: أحمد علي، أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية، ط٢، دمشق، دار الفكر، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، ص١٥٢.
[٣] النهار، العصر المفترى عليه، ص٤٦٧.
[٤] العبدري، المدخل، ج٢ ص٣٢٦، ٣٢٨.
[٥] المصدر السابق، ج٤ ص١١٣- ١١٤.
[٦] القلقشندي، صبح الأعشى، ج١ ص٥٦٢، ٥٦٣.
[٧] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٤٢، ٣٤٣.
[٨] المصدر السابق، ج٤ ص٢٩٩، ٣٠٠.
[٩] المصدر السابق، ج٣ ص١٠١، ١٠٢.
[١٠] الصفدي، أعيان العصر، ج٥ ص٣١٠.
[١١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص١٤٩.
[١٢] المصدر السابق، ج٤ ص٢٥٤.

ومنهم الطبيب الشهير السديد الدمياطي كان عالما بالطب، ويستحضر أشياء كثيرة من إقليدس[١] والحساب[٢]، وإقليدس كان أحد الكتب التي تدرس في القاهرة لتعلم الحساب[٣].

ومنهم القاضي أحمد بن عثمان بن إبراهيم المارديني الأصل، ابن التركماني الحنفي (ت٧٤٤هـ/١٣٤٣م)، وصنّف في علوم عديدة[٤]، وله كتابان في الفرائض مبسوط ومتوسط[٥]. ومنهم فخر الدين عثمان بن علي بن عمر الطائي الحلبي الأصل، القاهري مولدا ووفاة (ت٧٣٨هـ/١٣٣٧م) مهر في الفنون، ودرّس كل من قصده في أي كتاب أراده، ومنها في أنواع الحساب[٦]، حضره الصفدي وهو يدرّس مختلف العلوم، وكان يدرّس الفرائض والجبر والجبر والمقابلة وأنواعا مختلفة من الرياضيات[٧].

وهناك تاج الدين أبو الحسن علي بن عبد الله الأردبيلي التبريزي (ت٧٤٦هـ/١٣٤٥م)، صنّف في التفسير والحديث والأصول، وكان قد قرأ الحساب والهندسة في المشرق على يد فيلسوف وقته جمال الدين حسن الشيرازي، كما قرأ الفرائض والحساب على الصلاح موسى الصفدي[٨]، وألّف في الرياضيات (رسالة في علم الحساب)[٩]، وهو بهذا يظهر أنه أحد قنوات الاتصال بين مصر ومراكز العلم في الدولة المغولية الإلخانية.

ثم يأتي الطبيب الشهير محمد بن إبراهيم بن ساعد السنجاري، المعروف بابن الأكفاني (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م) الذي كان قد أتقن العلوم الرياضية، وصنّف فيها تصانيف كثيرة، وكان يشرح (إقليدس) بلا كلفة، فكأنه كان يتمثله بين عينيه، ومن مؤلفاته (اللباب في الحساب)[١٠]. وقد قرأه عليه المؤرخ الصفدي، وهو الذي وصفه عن معرفة بأنه "تفرّد بإتقان الرياضي، فإنه كان إماما في الهندسة والحساب والهيئة"[١١]، ومع ذلك فلم يذكر كتابه هذا حين تحدث عن علوم العدد (الحساب) في كتابه (إرشاد القاصد).

ومنهم ابن الدريهم علي بن محمد بن عبد العزيز الثعلبي الشافعي الموصلي (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م) وكان مشاركا في علوم كثيرة، ومنها الحساب، وكان تاجرا ثريا[١٢]. ومنهم نور الدين إبراهيم بن هبة الله الحميري الأسنائي الشافعي (ت٧٢١هـ/١٣٢١م) ناب في الحكم بالصعيد، وأخذ الجبر والمقابلة عن نجم الدين عبد الرحمن بن يوسف الأصفوني (ت٧٥٠هـ/١٣٤٩م) حينما كان قاضيا بقوص[١٣].

ومنهم الشيخ الفرضي شمس الدين محمد بن شرف بن عادي الكلائي (ت٧٧٧هـ/١٣٧٥م) مهر في الفرائض والحساب، وفاق زملاءه، وصنّف التصانيف الواسعة النافعة في الفرائض والحساب في الفقه الشافعي[١٤]. ومنهم

---

[١] إقليدس في أصول الهندسة والحساب، كتاب عرف في الحضارة العربية الإسلامية، سمي باسم مؤلفه الذي يعتبر من أشهر رياضيي اليونان، وجد قبل المسيح بعدة قرون، ونقله إلى العربية حنين بن إسحاق، ثم جاء ثابت بن قرة حوالي سنة٢١١هـ ونقحه. حاجي خليفة، كشف الظنون، مج١ ص٨١؛ ووجدي: محمد فريد، دائرة معارف القرن العشرين، ط٣، بيروت، دار المعرفة، ١٩٧١م، ج١ ص٤٣٣.

[٢] الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٥ ص٨.

[٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٢٧٩؛ والصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢ ص٢٠.

[٤] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص١٩٨.

[٥] الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٧ ص١٢١- ١٢٢.

[٦] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٤٤٣- ٤٤٤.

[٧] الصفدي، أعيان العصر، ج٣ ص٢٢٣.

[٨] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٧٢- ٧٣.

[٩] النهار، العصر المفترى عليه، ص٤٧٠.

[١٠] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٢٧٩- ٢٨٠.

[١١] أعيان العصر، ج٤ ص٢٢٧، ٢٢٩.

[١٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص١٠٧- ١٠٨.

[١٣] المصدر السابق، ج١ ص٧٤.

[١٤] المصدر السابق، ج٣ ص٤٥٢- ٤٥٣؛ وإنباء الغمر، ج١ ص١٢٠- ١٢١؛ وحاجي خليفة، كشف الظنون، مج٣ ص١٦٠٥، وفيه أسماء مؤلفاته.

عالم الفلك الشهير ابن الشاطر[1] لارتباط الفلك وهو تخصصه بمعرفة الرياضيات، وله مصنف اسمه (كتاب في الجبر والمقابلة)[2].

وكان لناظر الجيوش المفسر والمقرئ والنحوي محمد بن يوسف بن أحمد الحلبي (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م) يد طولى في الحساب[3]، وهي معرفة تتطلبها وظيفته الرسمية. ومنهم الوزير إبراهيم بن عبد الله القبطي المعروف بكاتب أرنان (ت٧٨٩هـ/١٣٨٧م) كان نصرانيا وأسلم، وخدم الأمراء، وولاه برقوق الوزراة، ونهض فيها نهوضا تاما على حد قول ابن حجر، واستطاع توفير مبلغ ضخم لميزانية الدولة بعد أن كان قد دخل فيها وهي خاوية[4].

ومنهم القاضي مجد الدين إسماعيل بن إبراهيم الكناني البلبيسي (ت٨٠٢هـ/١٣٩٩م)، الذي مهر في الشروط (السجلات الإدارية)، وصنّف في الفرائض والحساب[5]، ومنهم إبراهيم بن أبي بكر بن محمد الفرضي صاحب الكلائي السابق (ت٨٠٢هـ/١٣٩٩م)، وقد انتفع به المكيون في الفرائض[6].

ومنهم عبد الرحمن بن محمد بن إبراهيم الرشيدي المصري (ت٨٠٣هـ/١٤٠٠م)، برع في الفرائض والحساب والمقابلة والميقات، وله مجاميع حسنة، منها (شرح الكفاية)، وهي مختصر في الفرائض تأليف أبي الفضل عبد العزيز بن علي الأشنهي (ت٥٥٠هـ/١١٥٥م)، وله أيضا (شرح الياسمينية) في الجبر والمقابلة لأبي محمد عبد الله بن الحجاج، ابن الياسميني (ت٦٠٠هـ/١٢٠٣م)[7].

وأعظم من أنجبت القاهرة في علم الرياضيات هو أحمد بن محمد بن عماد القرافي المصري المقدسي المعروف بابن الهائم (ت٨١٥هـ/١٤١٢م)، والذي ولد في القاهرة سنة٧٥٦هـ[8]، ونشأ بها وبرع في الفقه والعربية، وارتحل إلى بيت المقدس، وانقطع للتدريس بها، ورحل للدراسة لديه الناسُ من الآفاق المختلفة، وانتهت إليه رئاسة الحساب والفرائض، وجمع فيها مؤلفات كثيرة كانت معوّل من جاء بعده[9]، بعضها في الفرائض[10]، وبعضها في الحساب والجبر، وهي (المعونة في صناعة الحساب الهوائي)[11]، وهو كتاب في تعليم الحساب بالفكر من غير قلم، وقد وصفه مؤلفه بأنه "فاق كتب هذا الفن"، لكنه لما رأى أن كتابه هذا "كثر علمه، وكبر على همم أهل العصر حجمه؛ لتقاصر هممهم عن إتقان العلوم"، رأى مؤلفه أن يختصره بحجم ربعه، في مختصره (الوسيلة)[12]، كما اختصر المعونة أيضا في كتاب آخر سماه (المبدع)[13].

وألّف أيضا (اللمع المرشدة في صناعة الغبار)[14]، أي الحساب، ثم اختصره في مقدمة وبابين وخاتمة، سماها (نزهة النظار)[1]، المقدمة في أسماء العدد وأشكاله، والباب الأول في الجمع والطرح والضرب والقسمة والتجذير،

[1] أشهر علماء الفلك، وسيأتي التعريف بنتاجه.
[2] النهار، العصر المفترى عليه، ص٤٧١.
[3] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص١٤٨.
[4] المصدر السابق، ج١ ص٣٣٨.
[5] ابن حجر، رفع الإصر، ص٨١- ٨٣.
[6] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص١١١.
[7] المصدر السابق، ج٢ ص١٧٨؛ وحاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ص١٣٣٧، ١٢٤٥؛ وابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، ج٤ ص٢٨؛ وسركيس، معجم المطبوعات، ج٢ ص١٩٤٠.
[8] جزم ابن حجر في إنباء الغمر أنه ولد سنة٧٥٣هـ، ولكنه تردد في المعجم المؤسس، وجزم الفاسي وابن موسى وغيرهما بأنه ولد في سنة٧٦٥هـ. ابن حجر، المجمع المؤسس، مج١ ص٧٢- ٧٣؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص٥٢٥؛ والسخاوي، الضوء اللامع، ج٢ ص١٥٧.
[9] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج١ ص٧٢- ٧٣؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص٥٢٥.
[10] السخاوي، الضوء اللامع، ج٢ ص١٥٧.
[11] المصدر السابق، ج٢ ص١٥٧.
[12] وشرحها سبط المارديني: محمد بن محمد، (ت٩٠٣هـ)، إرشاد الطلاب إلى وسيلة الحساب، مقدمة الشارح، - خ -، في معهد الثقافة والدراسات الشرقية، جامعة طوكيو برقم٢٢٤٩، موقع مكتبة المصطفى الإلكترونية.
[13] السخاوي، الضوء اللامع، ج٢ ص١٥٧.
[14] المصدر السابق، ج٢ ص١٥٧.

والباب الثاني في الكسور، وتضمنت الخاتمة فصولا في المقادير الأربعة المتناسبة، والعمل بالكفات، وفي ذكر مسائل مجهولة تستخرج بالأعداد المتناسبة ليحصل بها التدرب[2].

وله أيضا (متن اللمع في علم الحساب)، وضعها لإسعاف المبتدئ في قراءة الفرائض في ما يحتاجه من الرياضيات في مسائل تقسيم الإرث[3]، كما نظم قصيدة لامية في الجبر من بحر البسيط، وأخرى من بحر الطويل سماها (المقنع)[4]، وشرحها بشرح كبير سماه (الممتع في شرح المقنع)، واختصره في المسمى بـ(المشرع)[5]، وهي تآليف متعددة ومتنوعة تدل على شغف الرجل بهذا العلم ومحاولة تقديم المعرفة لمختلف مستويات الناس.

وكتب شرحا على الياسمينية، وكتب أوله ديباجة شرح فيها إسهامات علماء العرب والمسلمين في علم الجبر، ثم أشاد بالياسمينية التي "لعذوبة ألفاظها كثر حفاظها"[6]، وأنه لما كان سنة ٧٨٩هـ عند مجاورته للحرم طُلِب منه أن يشرحها فامتثل لذلك الطلب[7]. وألّف (غاية السؤول في الإقرار بالدين المجهول)[8]، وفيه حاول الفقيه الحاسب أن يوجد علاقة تطبيقية بين الفقه والحساب في باب الإقرار، ويغلب على مسائله الطابع الافتراضي نادر الوقوع[9]، وأبدع أيضا في وضع جداول رياضية لمسائل المناسخات في الفرائض، التي تعتبر من أصعب مسائلها، وقد سماها (شباك المناسخات)، وهو فصل من فصولِ شرحِه على كتابه (كفاية الحافظ في الفرائض)، يذكر فيه أنه من الصناعات البديعة التي تلقاها عن أستاذه أبي الحسن علي الحلاوي، وأنه لم يرها مسطورة في مؤلف، وكان يشرحها هو لطلبته فطلبوا تحريرها في مؤلف[10]، والحلاوي هو نور الدين علي بن عبد الصمد الحلاوي المالكي الفرائضي (ت٧٨٢هـ/١٣٨٠م)، شارك في العلوم، وكان عالما بالمعاني والبيان والحساب والهندسة[11].

ويفاخِر بابن الهائم بعضُ الباحثين وأنه أول من وضع قاعدة مختصرة، وهي أن كل عدد يضرب بالعدد (١٥) فإنه يزاد عليه نصفه ثم يضرب بعشرة[12]، وقد وضع كثيرا من التطبيقات في كتابه (اللمع في الحساب)[13]، لكنه ومع ذلك فإننا بعد هذا العرض نجد أن القاهرة في القرن الثامن الهجري لم تأت بشيء يستحق الفخر سوى تطبيق وإعادة نتاجٍ للكتابات السابقة في هذا المضمار، أي أنه ومع تميُّز ابن الهائم الذي يعتبر عالما كبيرا في الرياضيات وأكثر العلماء نتاجا؛ فإنه لم يقدّم شيئا جديدا إلى مسيرة الحضارة العلمية.

---

[1] المصدر السابق، ج٢ ص١٥٧.

[2] ابن الهائم: أحمد بن محمد القرافي، (ت٨١٥هـ)، اللمع المرشدة –خ-، برقم ٢/ ١٠٣٤ OR في المكتبة البريطانية، قسم المجموعات الشرقية، والمكتبة الهندسية، موقع الدكتور يوسف زيدان للتراث والمخطوطات على النت، وقد شرحها الغزي، محمد بن أحمد، (ت٩٨٣هـ) بـ(شرح النزهة في الحساب)، وهي مخطوطة بخط جميل موجودة بمكتبة جامعة الملك سعود تحت رقم٦٢٠٣، وعلى النت.

[3] مخطوطة في موقع الدكتور يوسف زيدان للتراث والمخطوطات، ومكتبة المصطفى الإلكترونية على النت.

[4] السخاوي، الضوء اللامع، ج٢ ص١٥٧. قال فيها بعد المقدمة: وبعد فعلم الجبر علم معظّمٌ # يميل إليه المتقون الأفاضل وإني لحاوٍ لبَّه في قصيدة # بها يكتفي ذو فطنة ويطاول. ابن الهائم: أحمد بن محمد القرافي، (ت٨١٥هـ)، المقنع في علم الجبر والمقابلة –خ- ، في ثلاث صفحات بخط جميل، في مكتبة جامعة الرياض، تحت رقم٧٦٥، وموجودة بمكتبة المصطفى الإلكترونية.

[5] السخاوي، الضوء اللامع، ج٢ ص١٥٧.

[6] والياسيمينية هي الأرجوزة المبدوءة بقوله: الحمدلله على ما أنعما # ومنّ من تعليمه وفهّما ،،،،، إلى أن قال: والشكر للحبر الزكي العالم # أستاذنا محمد بن قاسم فهو الذي بيّن ما قد أشكلا # وقرّب القاصي عليّ سهّلا ثم قال: على ثلاثة يدور الجبْرُ # المال والأعداد ثم الجذْرُ. ابن الهائم: أحمد بن محمد القرافي، (ت٨١٥هـ)، شرح الياسمينية، مكتبة جامعة الرياض – قسم المخطوطات، تحت رقم٢٦٢٩، وكاتبها يوسف الحلبي (ت٩٨٦هـ)، ص٢، ٣ – خ-.

[7] ابن الهائم، شرح الياسمينة ص٢، ٣ – خ-.

[8] السخاوي، الضوء اللامع، ج٢ ص١٥٧.

[9] ابن الهائم: أحمد بن محمد القرافي، (ت٨١٥هـ)، غاية السؤول، - خ- ، معهد الثقافة والدراسات الشرقية – جامعة طوكيو، بخط أحمد بن عيسى بن قاسم الشافعي كتبها بتاريخ ١٠٥٦، موجود في مكتبة المصطفى الإلكترونية، ورقة١.

[10] ابن الهائم: أحمد بن محمد القرافي، (ت٨١٥هـ)، شباك المناسخات، مقدمة المؤلف –خ- بمكتبة جامعة الملك سعود تحت رقم ١٧٠٧، مخطوط بتاريخ ١١٦٨هـ.

[11] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٢٢٦.

[12] النهار، العصر المفترى عليه، ص٤٦٨.

[13] ابن الهائم: أحمد بن محمد القرافي، (ت٨١٥هـ)، اللمع في الحساب –خ-، وموجود في موقع الدكتور يوسف زيدان، ومكتبة المصطفى الإلكترونية.

ومما سبق يتبين بصورة تقريبية وجود حوالي ٢٢ رياضيا، ٩ فقط منهم من خلفوا نتاجا علميا، بلغ هذا النتاج أكثر من ٢٤ عملا، نصفه لابن الهائم المقدسي المصري، منه ما كان مبتدعا غير مبني على هيكل سابق، ومنه ما كان شروحا ومبنيا على هياكل سابقة، ورغم اشتهار أهل الذمة من سكان أهل القاهرة بالحساب وتعليمه كما تقدم لكن المصادر ومنها بالتأكيد كتب ابن حجر لم تمدّنا بآثارهم بشكلٍ جيد. وهو يشير إلى القطيعة بين المؤرخين المسلمين وتلك الفئة المجتمعية من الناس.

٢- علم الهندسة

يعرِّفها ابن الأكفاني[١] بأنها علم يعلم منه أحوال المقادير ولواحقها، وأوضاع بعضها عند بعض ونسبه، وخواص وخواص أشكالها، والطرق إلى عمل ما سبيله أن يعمل بها، واستخراج ما يحتاج إلى استخراجه بالبراهين اليقينية. وموضوعها المقادير كالجسم والسطح والخط، ولواحقها كالزاوية والنقطة والشكل.

تشحُّ المعلومات عن المهندسين في القاهرة، وممن ذكر بالهندسة فيها القاضي بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة (ت٧٣٣هـ/١٣٣٢م)، وله تصانيف في فنون عديدة ومنها الهندسة[٢]. كما عُرف شرف الدين محمد بن مختار الحنفي بأنه كان جيد المعرفة بالهندسة والمنطق والهيئة، وكان يصنع ما ورد في كتاب (الحيل) لبني موسى بن شاكر[٣] من آلات بشكل مدهش؛ لأنه كان ميكانيكيا بارعا[٤].

ووصل إلى القاهرة من الشرق من تبريز ومراغة العالم الموسوعي علي بن عبد الله الأردبيلي التبريزي (ت٧٤٦هـ/١٣٤٥م) وكان قد أخذ الحساب والهندسة عن فيلسوف وقته جمال الدين حسن الشيرازي، وطاف مراكز الشرق العلمية[٥]، ومن المعروف أن العلوم العقلية ومنها الهندسة كانت نشطة هناك. وكان الطبيب اليهودي المسمى السديد الدمياطي (ت٧٤٣هـ/١٣٤٢م) على ذهنه شيء كثير من (إقليدس) وما يحتاج إليه المهندس[٦].

كما كان ابن الأكفاني المتقدم (٧٤٩هـ/١٣٤٨م) إماما في الهندسة والحساب والهيئة، وشرح للصفدي المؤرخ قطعة جيدة من كتاب (إقليدس) بالتطبيق العملي، كما قرأ عليه رسالة (الاستبصار في ما يدرك بالأبصار) في علم المناظر (الهندسة الضوئية)، تصنيف الشيخ شهاب الدين أحمد بن إدريس البهنسي القرافي (ت٦٨٤هـ/١٢٨٥م)[٧]، وكان يحل شرح الخواجة نصير الدين الطوسي (ت٦٧٢هـ/١٢٧٣م)[٨] على (إقليدس) بأجلى عبارة، وأحلى إشارة[٩]، إشارة[٩]، وكونه من علماء الهيئة يتطلب أن يكون من علماء الهندسة.

لقد عدد ابن الأكفاني في (إرشاد القاصد)[١٠] الكتب الهندسية المشهورة في الهندسة، وكانت جميعها لكتاب ليسوا من القاهرة، ونقدها نقدا إيجابيا يدل على إحاطته بموضوعاتها.

ومن المهندسين الإمام الفلكي المخترع ابن الشاطر (ت٧٧٧هـ/١٣٧٥م) الذي كان قد تعلّم علم الهيئة والحساب والهندسة، وأبدع في اختراعه آلات مختلفة، ووضع أوضاعا غريبة مشهورة[١١]، وهو أول من أبدع ساعة ميكانيكية، فأخرجها من دائرة الماء إلى دائرة الميكانيك، ومن دائرة الخشب إلى دائرة المعدن، وجعلها صغيرة بعد

---

[١] إرشاد القاصد، ص١٨٩.
[٢] ابن حجر، رفع الإصر، ص٣٤٥.
[٣] وهم محمد، وأحمد، والحسن، عاشوا في القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد، من أشهر ميكانيكيي العرب. أحمد، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ص٧١.
[٤] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٢٥٤.
[٥] المصدر السابق، ج٣ ص٧٢- ٧٣.
[٦] الصفدي، أعيان العصر، ج٢ ص٤٠٤.
[٧] برع في الهندسة الميكانيكية، وصنع الساعات، والتماثيل المتحركة، والآلات الفلكية. النهار، العصر المفترى عليه، ص٤٧٤، ٤٧٥.
[٨] كبير فلكيي مرصد مراغة، عاصمة الدولة المغولية الإلخانية. مورلون: ريجيس، علم الفلك العربي، مقالة ضمن موسوعة تاريخ العلوم العربية، إشراف رشدي راشد، ط٢، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥م، ج١ ص٤٠، ٤١.
[٩] الصفدي، أعيان العصر، ج٤ ص٣٢٥، ٣٢٧.
[١٠] ص١٨٩- ٢٠١.
[١١] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص١١٦.

أن كانت تبلغ عدة أمتار، فصارت بمقدار ٣٠ سنتمتر، وأدخل فيها الآلات المعدنية مستغنيا عن الماء والآلات الخشبية الطويلة العريضة[١]. ومع ذلك فإن النتاج العلمي كما تعكسه المصادر ومنها كتب ابن حجر لفئة المهندسين ليس شيئا يستحق الإشادة به.

أما الهندسة المدنية فإن القرن الثامن في القاهرة لا سيما في نصفه الأول تزامنا مع قوة الدولة لا سيما في عهد السلطان الناصر قد تطلّبت جهودا هندسية في مجالات مختلفة.

أوضح المقريزي أن المهندسين مسؤولون عن تخطيط الأحياء[٢]، وعن التخطيط والإشراف على حفر الخلجان، ومنه حفر الخليج الناصري سنة٧٢٦هـ/١٣٢٥م[٣]، وعلى إنشاء الجسور على نهر النيل، ومنه الجسر من بولاق إلى منية الشرج، الذي بني سنة٧٢٣هـ، وكذلك على قياس الأرض وتقدير النفقات على المستفيدين منه[٤]، وإنشاء ممرات للماء من النهر إلى الأحياء[٥]، وبناء المدارس والجوامع ومآذنها، والخوانق، والقصور الفاخرة[٦].

لقد ازدهرت الهندسة المعمارية ازدهارا كبيرا حتى لِيُعْتَبَر العصر المماليكي العصرَ الذهبي للعمارة الإسلامية في تاريخها الإسلامي في مصر، وكان الإقبال عظيما على تشييد العمائر من جوامع، ومدارس، وأضرحة، وحمامات، ووكالات، وأسبلة، كما ظهر التنوع والأناقة في شتى العناصر المعمارية من واجهات ومنارات وقباب وزخارف جصية ورخامية[٧]. ومن أهم تلك العمائر مدرسة وجامع[٨] السلطان حسن التي لم يُبْن مثلها في الإسلام، والتي استغرقت عمارتها ثلاثة أعوام، وأرصد السلطان لمصروفها كل يوم عشرين ألف درهم، أي نحو ألف مثقال ذهبا[٩].

وعلى الرغم من كثرة المعالم الأثرية المعمارية في العصر المملوكي؛ الأمر الذي يدل على كثرة المهندسين القائمين عليها، إلا أنه لم يصلنا من أسمائهم سوى بضعة أسماء ذُكروا عرضاً، أو لكون بعضهم تميزوا بعلاقات ما مع السلطان، أو لأنهم وردوا في سياق له علاقة به، بل إن صاحب (الدرر الكامنة) مثلا ندر أن يترجم لأيهم لكونه مهندساً، اللهم إلا إذا توفرت فيه صفة أو علاقة أخرى تؤهله لأن يكون جديرا بالذكر، ويحار المرء حين يجد أربعة مهندسين فقط ينتمون إلى القاهرة خلال القرن الثامن الهجري كله قد ضمّهم كتاب (أعلام المهندسين في الإسلام) للعلامة أحمد تيمور.

ويبدو أن السلطة المملوكية والمجتمع تعامل مع هذه الفئة كفئة مهنة شأنهم شأن العمال والأجراء الذين يُعْتَبَرُون من الفئات التي لا تستحق الذكر والتوثيق مهما علا شأنها؛ لأنهم لا تتوفر فيهم الثقافة اللازمة كالفقه واللغة والحديث، كما كان للقبضة العسكرية دورها حيث نسب تخطيط بعض تلك العمارات إلى المسمى بـ (شادّ العمائر)، والذي عادة ما كان أحد المقربين من السلطان ومن الأمراء، أوعُيِّن من قبلهم مشرفا على العمارة، وهم الذين نقشوا أسماءهم على تلك الأبنية، كما هو الحال في والي القاهرة ناصر الدين محمد بن بيليك المحسني الذي كان مجرد مشرف ووالٍ[١٠]، لكن بعض المؤرخين[١١] اعتبروه المهندس الفنان الذي «استطاع أن يجمع بين الأساليب الشائعة في فن العمارة والزخرفة في عصره..... إلخ».

وممن وصلنا ذكرهم من مهندسي القاهرة في هذا المضمار المهندس ابن السيوفي الذي لم تفصح المصادر عن ذكر اسمه كاملاً، وكان رئيس المهندسين في أيام الناصر ابن قلاوون، وقد بنى المدرسة الأقبغاوية ومنارتها

[١] النهار، العصر المفترى عليه، ص٤٧٦.
[٢] المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢ ص٤٠٨.
[٣] المصدر السابق، ج٢ ص٧٢٠، ٧٢١.
[٤] المصدر السابق، ج٢ ص٧٥٩، ٧٦٠، ٧٦٢.
[٥] المصدر السابق، ج٣ ص١٠٥، ١٠٦.
[٦] المصدر السابق، ج٢ ص٧٢٠، ٧٢١.
[٧] عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص٣٨٥.
[٨] يختلط مفهوم المدرسة والجامع كثيرا في العصر المملوكي بسبب ازدواجية الوظيفة لكليهما وتشابههما.
[٩] المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣ ص٣٢٠.
[١٠] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٤١١.
[١١] على سبيل المثال عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص٣٨٥-٣٨٦.

الحجرية، كما تولى بناء جامع المارداني ومئذنته[1].

ومن القلة الذين اشتُهِرُوا كبير المهندسين الملقب بالمعلم شهاب الدين أحمد بن محمد الطولوني (ت٨٠١هـ/١٣٩٨م) الذي تقدّم في صناعته، وعظمت منزلته لدى الظاهر برقوق فصاهره، وأمَّره، وكان المشرف العام في العمائر على جميع الصناع ما بين بناءٍ ونجّار وحجار، وتردد إلى مكة للإشراف على عمارة الحرم الشريف بها[2]. ومنهم علامة بغداد صفي الدين عبدالمؤمن بن عبدالحق بن عبدالله الحنبلي (ت٧٣٩هـ/١٣٣٨م)، رحل في طلب العلم إلى أماكن كثيرة ومنها مصر، وكان علاّمة في الحديث والفرائض والحساب والجبر والمقابلة[3]، والمقابلة[3]، وخلف بالهندسة كتاباً سماه (صنعة البناء والهندسة)[4].

وممن ورد ذكرهم عرضا من المهندسين المهندس (أبجيج) الذي أشرف على قصور الدهيشة المطلة على الحوش بقلعة الجبل، وقد أوفده السلطان الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاوون، (عام٧٤٥هـ/١٣٤٤م) إلى دهيشة (حماة) للاطلاع عليها وبناء مثلها في القاهرة[5]، وهناك المهندس بكر بن قيسون، وعلي بن الرسول، وإبراهيم بن عبدالله بن يوسف وقد عُرِفوا من خلال أسمائهم المنقوشة على عمائرهم[6].

ورغم غمط التاريخ لهذه الفئة من المهندسين فإن ما وضعته أيديهم في مدينة القاهرة قد خلّد ذكر بعضهم، ودل على مستواهم المعرفي والمهني، وبفضلهم تحولت القاهرة في عصر المماليك إلى متحف عظيم تتيه بما فيها من مساجد وقصور، ولا يحد إعجاب المشاهد ما فيها من زخارف دقيقة، وفسيفساء بديعة، ورخام متنوع الألوان، وشرفات مسننة، وأبواب ضخمة، ومآذن رشيقة، وقباب منمقة، وحسنة النسب، وأتقن الفنانون المسلمون في مصر الزخارف النباتية والهندسية على الأحجار والأخشاب والأقمشة والمعادن[7].

وتضمنت الزخرفة الإسلامية عناصر مهمة إلى جانب الرسوم الهندسية ومنها الصور الآدمية، والحيوانية، والزخارف النباتية، والزخارف الخطية[8]، وقد ذاعت في مصر المماليك تلك التراكيبُ الهندسية ذات الأشكال النجمية النجمية المتعددة الاضلاع، واستخدمت في زخارف التحف الخشبية، والنحاسية، والصفحات الأولى المذهّبة في المصاحف والكتب، وفي زخارف السقوف، ويظهر أن براعة المسلمين في الزخارف الهندسية لم يكن أساسها الشعور والموهبة الطبيعية فحسب، بل كانت تقوم على علم وافر بالهندسة العلمية، والمشاهد أن الزخارف الهندسية أكثر ذيوعاً في الطراز المصري السوري (الفاطمي والمملوكي) منها إلى سائر الطُّرُز الإسلاميه[9]، واتسمت العمارة العمارة في مصر والشام بالفخامة مع البساطة في الشكل، والهيبة في المظهر[10].

ويمكن تقسيم العمائر إلى دينية ومدنية؛ فالدينية أهمها المآذن والمساجد والمدافن والقباب والمدارس.

عُرِف عن المآذن المملوكية تميزها بالرشاقة وجمال النِّسَب بين قاعدتها المكعبة، وبَدَنها المثمن، وطبقتها العلوية الأسطوانية إلى جانب ما دَخَلها من العناصر التي بعثت فيها الحيوية من الحنايا والدهاليز المقرنصة والحليات الهندسية[11].

وكان الجامع مربع الشكل عادة، يتألف من صحن يحيط به أربع إيوانات تبدو كأنها حنيات في الجدران، وأكبرها

[1] المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣ ص٤٩٠.
٢ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٥٨-٥٩، ١١٦.
٣ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٤١٨-٤١٩.
٤ النهار، العصر المفترى عليه، ص٤٨٠.
٥ المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣ ص٦١.
٦ النهار، العصر المفترى عليه، ص٤٨٠.
٧ حسن: زكي محمد، في الفنون الإسلامية، مصر، مطبعة الاعتماد، ص١٩ ،٢٠.
٨ المرجع السابق، ص٢٥-٤٩.
٩ المرجع السابق، ص٣٢، ٣٤.
١٠ النهار، العصر المفترى عليه، ص٤٨٠.
١١ المرجع السابق، ص٤٨١.

إيوان القبلة، وفي عصر المماليك الجراكسة ظهر تصميم جديد للجامع أهم معالمه صغر ساحة المبنى واختفاء الصحن المكشوف[1].

ومن نماذج الجوامع جامع السلطان حسن، وهو الجامع والمدرسة الذي يبلغ طوله (١٥٠) متراً، وعرضه (٧٨) متراً، ومساحته ٧٩٠٦ أمتار مربعة، وارتفاعه عند بابه ٣٧.٧٠ متراً، وعلى جوانب صحن المسجد أربعة إيوانات معدة لإقامة الشعائر الدينية، وفي كل زاوية من زواياه باب يوصل إلى إحدى المدارس الأربع التي شيِّدت لتدريس المذاهب الأربعة، وإيوانه الشرقي من أكبر الإيوانات، سقفه معقود عقداً ستينياً فوق نصف دائرة، وهو أكبر عقد بني على إيوان في مصر، والثلاثة الإيوانات الأخرى سقف كل واحد منها على شكل نصف إسطوانة من الحجر، ومساحتها متقاربة، وفي وسط الإيوان الشرقي محراب جميل، وعلى يمينه منبر من الرخام الأبيض، وبجانبي القبلة التي في الوجهة الشرقية بابان يوصلان إلى القبة العظيمة، ومساحتها ٧٥١ متراً مربعاً، وبالجانب الشرقي المنارتان العظيمتان التي يبلغ ارتفاع كبراهما ٨١.٦٠ متراً.

إن هذا الجامع من أحسن الآثار العربية الإسلامية؛ فجميع الزخارف وآثار الصناعة في داخله وخارجه تستدعي النظر، وخاصة باب الدخول العام، والواجهة القبلية الشرقية التي تعلوها المنارتان، والرفرف الكبير المركب من ستة مداميك مقرنصات، والعلو الشامخ في سائر الواجهات مع ما فيها من النوافذ على ثمان طبقات[2].

وفي العمائر المماليكية مدرسة السلطان المنصور قلاوون التي تقع ضمن مجموع إنشاءاته وهي البيمارستان والقبة والمدرسة، وتتكون المدرسة من صحن مكشوف مستطيل الشكل تتوسطه فسقية، وتحيط به الأروقة من جهاته الأربع، ويتقدم الإيوان الشرقي عقد كبير يتوسطه عمودان يقسمانه إلى ثلاثة عقود صغيرة، والإيوان كبير العمود، ويحتوي على صفين من الأعمدة يحتوي كل صف منهما على ثلاثة أعمدة، وإيوانها فريد في نوعه؛ ولهذا يسمي بعض علماء الآثار هذا المدرسة بالمدرسة الجامع؛ لأنها جمعت بين طراز الجامع باحتوائها على أعمدة وأروقة، وبين المدرسة باشتمالها على إيوانات متعددة. وقد حُلِّيت واجهات عقود الإيوان بزخارف جصية جميلة، كما زخرفت واجهة الإيوان بعقدين كبيرين يكتنف كلاً منهما فتحتان معقودتان مستطيلتان، يعلو ذلك شباك مستدير يكتنفه كتفان بكل منهما ثلاثة شبابيك بعضها فوق بعض[3].

وتشبه الخانقاه المدرسة من حيث التخطيط والبنيان؛ ففيها صحن مركزي تحيط به الأواوين ثم الغرف مع وجود المصلى، وكذلك الضريح[4].

وأحسن القباب الإسلامية موجود في مصر، حيث امتازت بارتفاعها وتناسق أبعادها وبالزخارف التي تزين سطوحها الخارجية[5].

لم يبق من العمائر المدنية إلا مداخل بعضها وأجزاء من البعض الأخر، ومن البقايا قصر الأمير بشتاك الذي يرجع إلى سنة٧٣٤هـ/١٣٣٣م، وبقي منه جزء من الواجهة، ثم المدخل، والقاعة الكبرى وما يحف به من حجرات، وتمتاز هذه القاعة بجمال سقوفها المذهبة، وبالفسقية الرخامية التي تتوسطها؛ فضلاً عن وزرتها الرخامية الدقيقة، وإبداع ما فيها من التحف والأدوات الخشبية ذات الزخارف المخروطة أو المحفورة أو المطعمة. وهناك بقايا قصر الأمير قوصون وبقايا وكالته، وبقايا قصر الأمير طاز، ومدخل وكالة قايتباي، وجميع هذه البقايا وغيرها تشهد بسمو الذوق الفني وروعة البناء وحنكة التخطيط والهندسة[6].

وبالنسبة لمهندسي المساحة ويطلق عليهم (القياسين)، فقد كان يوجد منهم فِرَق كثيرة، يغطون حاجة الدولة لمسح

---

١ عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص٣٨٥.

٢ سعاد ماهر، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، ج٣ ص٢٨٠-٢٨١؛ وعبدالحميد: سعد زغلول، العمارة والفنون في دولة الإسلام، الإسكندرية، منشأة المعارف، ص٤٧٢.

٣ المرجع السابق، ج٣ ص٦٩-٧١.

٤ النهار، العصر المفترى عليه، ص٤٨٣.

٥ حسن، في الفنون الإسلامية، ص٤٨.

٦ عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص٣٨٧.

الأراضي المصرية، ومنها الروك في أيام الناصر سنة٧١٥هـ/١٣١٥م حين راك البلاد (مسحها)، وقد أخرج وكلف في هذه العملية فرقاً كثيرة وزّعها على أرجاء مملكته، وكان من بينهم (العدول) و(القياسون) الذين بهم تقاس الأرض وتقدر أحوالها ومساحتها[١].

وبهذا يتضح غمط المؤرخين لهذه الفئة بشكل لافت، وبالتالي غمط نتاجهم العلمي المكتوب الذي بدا قليلا ونادرا إلى حد كبير.

٣- علم المنطق

عرفه ابن خلدون[٢] بأنه قوانين يعرف بها الصحيح من الفاسد في الحدود المعرّفة للماهيات، والحجج المفيدة للتصديقات والماهيات، وتصور الماهيات هو إدراك للأشياء من غير حكم عليها، مثل تصور ماهية الإنسان، بينما التصديقات تكون بإدراك حكمي يحكم فيه بثبوت أمر لأمر، مثل (زيد قائم)، فيه إثبات القيام لزيد.

يرى البعض أن القرن الثامن والقرنين التاليين له شهدت انحدارا في الاجتهاد والإبداع المنطقي لصالح التقليد الأعمى والمحاكاة، بحيث كان نتاج هذه المدة في المنطق نوعا من المحاكاة لما كتبه الأقدمون، وبعبارة أخرى كان عبارة عن شروحات وتعليقات وإضافات على كتب هؤلاء المتقدمين، ومن الكتب التي لقيت رواجا فيها كتاب (الرسالة الشمسية)[٣].

من المنطقيين في القاهرة البغدادي سيف الدين عيسى بن داوود المنطقي (ت٧٠٥هـ/١٣٠٥مم)، ولد بخوارزم، وتعلم ببغداد، ثم ارتحل إلى القاهرة، ودرّس المنطق في المدرسة الظاهرية بين القصرين، وأخذ عنه تقي الدين السبكي، وابن الأكفاني، وعز الدين محمد بن أحمد بن إبراهيم الأسيوطي (ت٧٢٥هـ/١٣٢٤م)[٤]، وإبراهيم بن لاجين الرشيدي (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م)[٥]. وقد أملى على (الموجز) لابن نامور الخونجي[٦] شرحا[٧]. واختصر الإمام الإمام الأشعري علي بن محمد بن خطاب الباجي (ت٧١٤هـ/١٣١٤م) (كشف الحقائق في المنطق)[٨].

وهناك المقرئ إسماعيل بن سعيد الكردي (ت٧٢٠هـ/١٣٢٠م) مهر في القراءات والفقه والعربية، واتُّهم بالزندقة، فحكم القاضي المالكي الأخنائي بقتله، وعلل بعض المؤرخين[٩] ذلك بأنه نظر في المنطق، فدخل في كلام "لا فائدة فيه"، ولعله كان كثير التماجن والمزاح في ظل قضاة لا يرحمون[١٠]، وبتعليل ذلك المؤرخ المحدث وهو مع ذلك ممن له نتاج في المنطق يتبين الإشارة إلى تحميل المنطق مسؤولية زندقته المدَّعاة، كما يعكس مدى خوف من أنتجوا في هذا المجال وغيره، والذي سيؤثر سلبا على الحالة الإبداعية عموما.

وقدم القاهرة بدر الدين أحمد بن علي الموصلي الإربلي (ت بعد٧٢٩هـ/١٣٢٨م)، وبقي فيها مدة موفدا من قبل ملك الموصل، وكان من محفوظاته (الشمسية) في المنطق[١١]. وجاء إلى القاهرة شمس الدين عبد اللطيف بن خليقة

---

١ المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج١ص٢٥٥، ٥٥٦.

٢ المقدمة، ص٦٤٤.

٣ الكاتبي: عمر بن علي القزويني، (ت٤٩٣هـ)، الشمسية في القواعد المنطقية، ت. مهدي فضل الله، ط١، بيروت، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٨م، مقدمة المحقق، ص١٧- ١٨.

٤ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٣٠٨.

٥ المصدر السابق، ج١ ص٧٥.

٦ القاضي أفضل الدين محمد بن نامور بن عبد الملك الخونجي الشافعي (ت٦٤٦هـ)، مهر في العلوم العقلية بجانب الفقه، ووضع كتاب (كشف الأسرار)، و(الموجز في المنطق). ابن حجر، لسان الميزان، ج٦ ص٣٢١؛ وطاش كبري زادة، مفتاح السعادة، ج١ ص٢٧٤.

٧ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٢٠٣- ٢٠٤؛ والصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢٣ ص١٣٥.

٨ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص١٠١- ١٠٢.

٩ قطب الدين الحلبي، عبد الكريم بن عبد النور الحنفي.

١٠ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٣٦٧.

١١ المصدر السابق، ج٤ ص٥٧.

(ت٧٣١هـ/١٣٣٠م)، وكان من أكابر المغول الإيلخانيين، وطبيب العيون الخاص لدى غازان، وحظي لدى الناصر بمنزلة محترمة[١]. وكان هذا وأمثاله همزة الوصل بين القاهرة وبين المراكز الحضارية العلمية في الشرق.

الشرق.

ومثله بدر الدين محمد بن أسعد التستري (قدم مصر سنة٧٢٧هـ/١٣٢٦م)، كان فاضلا متفوقا في الأصلين، والمنطق، والحكمة، ثم عاد إلى الشرق يصيف في همذان، ويشتي ببغداد، وله (حل عقد مطالع الأنوار) للأرموي[٢]. وللحافظ المؤرخ عبد الكريم بن عبد النور الحلبي الحنفي (ت٧٣٥هـ/١٣٣٤م) شَرْحٌ على القسم الأول من (هداية الحكمة) لأثير الدين الأبهري[٣]، واشتمل على حل ألفاظه وتركيبه مع زيادات مهمة لا توجد في غيره[٤].

غيره[٤].

وصنّف القاضي أحمد بن عثمان المارديني، ابن التركماني الحنفي ١٧ تصنيفا في مختلف العلوم، وفي المنطق شرح (الرسالة الشمسية)[٥]، وأخذ تاج الدين علي بن عبد الله التبريزي (ت٧٤٦هـ) في بلده مختلف العلوم، ومنها المنطق على أبرز شيوخ بلده في الشرق (إيران الإلخانية)، وفي القاهرة درّس في مختلف العلوم[٦]، وأصنافه من تفسير، وفقه، وأصول، ونحو، وبيان، ومنطق، وحساب، وجبر، ومقابلة، ومعقول، ومنقول[٧].

ومنهم الشيخ شمس الدين محمود بن عبد الرحمن الأصبهاني (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، ودرس بالشام ومصر، واستقر بها، وله (شرح مطالع الأنوار) للأرموي، و(ناظرة العين)، وشرحه، كلها في المنطق[٨]. ومثله أرشد الدين محمود بن قطلوشاه السرائي الحنفي (ت٧٧٥هـ/١٣٧٣م)، وكان غاية في العلوم العقلية، والأصول، والعربية، والطب[٩]، والعلوم العقلية تعني المنطق بالدرجة الأولى.

ويظهر تأثير المنطق في العلوم الأخرى من خلال (شرح التسهيل) في النحو الذي ألّفه محب الدين محمد بن يوسف بن أحمد بن عبد الدائم (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م) ناظر الجيش[١٠]، وصفه الصفدي[١١] بأنه "غاية في الحسن، مباحث جيدة دقيقة مشحونة بالمنطق والأصول"، ووصف مؤلفه بأنه "محاسن الديار المصرية لكمال أدواته وعلومه فقها وأصولا ومنطقا وعربية".

ومنهم محمد بن يوسف الكرماني ثم البغدادي (ت٧٨٦هـ/١٣٨٤م) تعلّم ببلده كرمان، ومن شيوخه القاضي عضد الدين عبدالرحمن بن أحمد الأيجي (ت٧٥٦هـ/١٣٥٥م) بشيراز، ولازمه ١٢ سنة، وقرأ عليه تصانيفه، سمع العلم بالجامع الأزهر أيضا، ثم استقر ببغداد، وصنف في العربية والحديث والمنطق[١٢]. ومنهم شهاب الدين أحمد

---

[١] المصدر السابق، ج٢ ص٤٠٦.
[٢] المصدر السابق، ج٣ ص٣٨٣، ٣٨٤.
[٣] المفضل بن عمر السمرقندي، منطقي له اشتغال بالحكمة والطبيعيات والفلك، وصنف في ذلك. الزركلي، الأعلام، ج٧ ص٢٧٩؛ والبغدادي، إيضاح المكنون، ج٢ ص٧١٩.
[٤] حاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ص٢٠٢٩.
[٥] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص١٩٨؛ والصفدي، الوافي بالوفيات، ج٧ ص١٢١- ١٢٢.
[٦] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٧٢- ٧٣.
[٧] ابن رافع، الوفيات، ج٢ ص١٦- ١٧.
[٨] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٢٧- ٣٢٨؛ والزركلي، الأعلام، ج٧ ص١٧٦، وفيه: أن (ناظرة العين) وشرحها لأحمد بن عمر المالكي (ت٧٩٥هـ) في معهد المخطوطات.
[٩] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٧٠؛ والسيوطي، حسن المحاضرة، ج١ ص٥٣٥- ٥٤٦.
[١٠] ابن حجر، الدرر الكامنة، ٤ ص٢٩٠.
[١١] الوافي بالوفيات، ج٥ ص١٩٢.
[١٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣١٠- ٣١١.

بن عمر بن علي الربعي المالكي الإسكندراني مولدا، والقاهري دارا، نزيل دمشق (ت٧٩٥هـ/١٣٩٢م) تتلمذ على الشمس الأصبهاني[١]، وشرح كتابه (ناظرة العين) في المنطق[٢].

وهناك من اشتهر بالتدريس للمنطق، وهو مبارك شاه المنطقي (عاش في القرن الثامن الهجري)، ولا نعرف عنه سوى أنه درّس العلوم العقلية والمنطق بالقاهرة، وتتلمذ عليه كلٌّ من الشريف الجرجاني[٣]، وحاجي (خضر) بن علي بن الخطاب الرومي الأيديني، وبدر الدين محمود بن إسرائيل (أو: إسماعيل)، ابن قاضي سماونة[٤]، وكان مبارك شاه عبدا لقطب الدين الرازي التحتاني (ت٧٧٦هـ/١٣٧٤م بدمشق)، فرباه وعلّمه حتى صار مدرسا فاضلا في كل العلوم، فأخذ عنه الشريف الجرجاني (شرح مطالع الأنوار)[٥]، وله حاشية عليه[٦].

وممن عرفوا بالمهارة في العلوم العقلية الشيخ قنبر بن عبد الله العجمي الأزهري الشافعي (ت٨٠٢هـ/١٣٩٩م)[٧]، ومحمد بن محمد الزبيري الغزي (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م) تعلم بالقاهرة، وعاد إلى غزة، وصنّف في علوم مختلفة[٨]، وفي المنطق ألف (الكوكب المشرق في المنطق)[٩].

ومنهم الشيخ زادة الخرزباني العجمي الحنفي (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، استدعاه السلطان من بغداد إلى القاهرة، وكان عالما بالعربية والمنطق والفلسفة وتفسير الكشاف، وله اقتدار على حل المشكلات من هذه العلوم، وولي تدريس الشيخونية ومشيختها، ومات بعد أن أخذت وظيفته فيها بقليل[١٠]. وهناك شهاب الدين أحمد بن إسماعيل بن عبد الله الحريري (ت٨٠٩هـ/١٤٠٦م) لبس زي العجم، وكان فقيرا ثم أيسر، ومهر في الطب والهيئة والمعقولات[١١]، ونظر في المنطق خاصة[١٢].

وهاجر الشريف علي بن محمد الحسيني الجرجاني (ت٨١٦هـ/١٤١٣م) عالم الشرق، وأبرز رجال العلم في عصره إلى القاهرة في آخر القرن الثامن، وأقام بها أربع سنين، وأخذ عن الشيخ أكمل الدين البابرتي، وعن الشيخ مبارك شاه المنطقي، وقد روي أن ذلك بإشارة من الشيخ قطب الدين الرازي التحتاني لمّا رأى شوقه وقوة إدراكه في المنطق، وألّف حاشية على مطالع الأنوار، وعلى شرح الشمسية لقطب الدين الرازي[١٣]، و(شرح هداية الحكمة) لأثير الدين الأبهري، وله (الرسالة الكبرى)، و(الرسالة الصغرى) في المنطق[١٤].

وتميز عز الدين محمد بن أبي بكر ابن جماعة (ت٨١٩هـ/١٤١٦م) في العلوم العقلية من بين سائر المصريين، فصار الطلبة في القاهرة عالة عليه، وكان وحده دائرة معارف واسعة في سائر العلوم، ولم يترك علما إلا وصنّف فيه[١٥]، وقد فاخر به المصريون العجمَ في المنطق والعلوم العقلية بعد أن ظلت حكرا عليهم.

---

[١] المصدر السابق، ج١ ص٢٣٢؛ وابن فرحون، الديباج المذهب، ص١٣٩.
[٢] حاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ص١٩٢١، وهو مخطوط في معهد المخطوطات. الزركلي، الأعلام، ج١ ص١٨٧.
[٣] حاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ص١٧١٥.
[٤] وسماونة قلعة في بلاد الروم. سركيس، معجم المطبوعات، ج١ ص٢١٠.
[٥] للعلامة الشيخ محمود بن أبي بكر الأرموي (ت٦٨٢هـ). القنوجي، أبجد العلوم، ج٣ ص١٠٦.
[٦] حاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ص١٧١٥.
[٧] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٨٠، ٨١.
[٨] المصدر السابق، ج٢ ص٣٤٧، ١٤٨.
[٩] السخاوي، الضوء اللامع، ج٩ ص٢١٩.
[١٠] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٣٣٥، ٣٣٦؛ والسخاوي، الضوء اللامع، ج٣ ص٢٣١، ٢٣٢.
[١١] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٣٦٠.
[١٢] السخاوي، الضوء اللامع، ج١ ص٢٤٠.
[١٣] طبعت هذه الحاشية مع شرح الرسالة الشمسية لقطب الدين الرازي بتحقيق مهدي فضل الله.
[١٤] السخاوي، الضوء اللامع، ج٥ ص٣٢٨- ٣٢٩. وقد أغفله ابن حجر من الترجمة في إنباء الغمر رغم ترجمته لبعض طلابه.
[١٥] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص١١٦، ١١٧.

وهاجر حاجي باشا، خضر بن علي القونوي الرومي الإيديني (ت٨٢٠هـ/١٤١٧م) من بلده إلى القاهرة، وأخذ عن شيوخها، وقرأ العلوم العقلية، عن العلامة مبارك شاه المنطقي، وتعلم الطب حتى مهر فيه، وزامل الشريف الجرجاني، حتى شهد له بالفضل، ثم رأس بيمارستان القاهرة، فأداره بكفاءة جيدة[١]، وقد ترك حاشية على (لوامع الأسرار شرح مطالع الأنوار)[٢].

وهناك آخرون من علماء القاهرة عرفوا بالمهارة في المنطق أو الدراسة أو التدريس له[٣].

ومن خلال ما سبق يتضح أن القاهرة كان بها أكثر من ٣٣ منطقيا على أقل حال، ويعود جل هؤلاء إلى أصول غير قاهرية، خلف ١٢ منهم فقط نتاجا علميا بلغ ١٨ عملا، خمسة منهم أي بنسبة ٤٢% قدموا من الشرق من بلاد العجم، و٣ أي بنسبة ٢٥% من الروم (تركيا) بما فيها ماردين، و٢ من بلاد الشام، و١ من كل من العراق، والإسكندرية، والمغرب، وهناك قاهري من أصل مقدسي هو ابن جماعة فاخر به المصريون العجمَ في العلوم العقلية، وأما النتاج فقد كان عبارة عن حوالي ٧١% شروحا، و٦% اختصارا، و١٧% ليس مبنيا على هياكل سابقة، وهناك ظاهرة الشرح والتحشية على الشروح، وقد أخذت من مجمل النتاج نسبة ٢٩%.

وبهذا يتبين أن علماء القاهرة اكتفوا في المنطق بدراسة ما كتبه السابقون، والشرح عليه، ولعل ذلك الوضع كان وضع العالم الإسلامي جميعا.

٤- علم الشطرنج

رغم الاختلاف حول الشطرنج وميل جمهور الفقهاء إلى القول بتحريمه، ومنهم ابن تيمية الذي ألف رسالة (تحريم الشطرنج)[٤]، إلا أن هذه اللعبة كانت ذات شأن كبير في عصر المماليك، وانتشرت بين مختلف الطبقات الاجتماعية، ولعبها السلاطين والأمراء والتجار والفقهاء وغيرهم[٥].

وممن أجاد اللعب بها أحمد بن محمد الشطرنجي (ت حوالي٧٤٠هـ/١٣٣٩م) ولغلوه ومهارته الفائقة في لعب الشطرنج نسب إليه[٦]، والأمير محمد بن جنكلي الحنبلي الذي كان أيضا يجيد اللعب بالنرد، وله معرفة في الموسيقى[٧].

ومن أبرز علماء القاهرة الذين خلّفوا نتاجا في هذا هو الموسوعي تاج الدين علي بن محمد بن عبدالعزيز الشافعي الموصلي المعروف بابن الدريهم (ت٧٦٢هـ/١٣٦٠م)، وقد ألف (إيقاظ المصيب في الشطرنج من المناصيب)[٨]. والأديب ابن أبي حجلة أحمد بن يحيى المالكي التلمساني (ت٧٧٦هـ/١٣٧٤م)[٩]، ومصنفاته تبلغ الستين مصنفاً[١٠]، ومنها (أنموذج القتال في نقل العوال) ذكر فيه منصوبات الشطرنج[١١].

وممن فاق في لعبة الشطرنج الشيخ بدر الدين أحمد بن محمد المعروف بابن الصاحب

---

[١] الغزي، الطبقات السنية، ج٢ ص٦٢٧.
[٢] البغدادي، هدية العارفين، مج١ ص٣٤٥.
[٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص١٢٣، ج٢ ص١٩٢، ٢٩١، ٢٩٢، ٤٤٣- ٤٤٤، ج٣ ص٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٨، ج٤ ص٢٥٤، ٢٩٩- ٣٠٠؛ وحاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ص١٩٩٥؛ والزركلي، الأعلام، ج٧ ص١٦٥، ١٦٦.
٤ الصفدي، أعيان العصر، ج١ ص٢٤٤.
٥عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص١٢٠.
٦ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٢٥٣.
٧ المصدر السابق، ج٣ ص٤١٦-٤١٧.
٨ المصدر السابق، ج٣ ص١٠٦-١٠٨.
٩ المصدر السابق، ج١ ص٣٢٩-٣٣٠.
١٠ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٢ ص٢٥٩.
١١ البغدادي، هدية العارفين، مج١ ص١١٣.

(ت٧٨٨هـ/١٣٨٦م)[١]. ومنهم صدر الدين مرتضى بن إبراهيم الحسني العراقي (ت٧٩٨هـ/١٣٩٥م)، ولي نقابة الأشراف مرة، ونظر القدس مرة والخليل أخرى، وكان فصيحاً بالعربية والتركية، رآه ابن حجر يجيد لعب الشطرنج[٢].

وأخيرا وضع الموسوعي ذو الشخصية المثيرة برهان الدين الغزي، المعروف بابن زُقَّاعة (ت٨١٦هـ/١٤١٣م) كتاباً في النرد، هو (دوحة الورد في معرفة النرد)[٣].

ويبدو أن هؤلاء لم تذكر علاقتهم بالشطرنج إلا لأنه كان لهم معارفُ أخرى يسلِّطُ التاريخُ الضوءَ عليها، وهذا يوضح أن هناك من كانوا يعرفون الشطرنج ويجيدونه ولكن لم يذكرهم المؤرخون.

وبهذا يتبين الجهد العقلي الذي مارسه علماء القاهرة في مجالات العلوم المختلفة.

ثالثا: العلوم الطبيعية

العلوم الطبيعية هي التي تتعلق بعلم الطبيعة بمختلف مظاهرها، وهي الفلك، والطب، والكيمياء، والمعادن، والأحياء، والنبات والزراعة، وقد تعامل الإنسان مع الطبيعة من حوله في ما يعود عليه بالنفع، فحلق بالنظر في السماء وما يجري فيها وربطها بأحواله ومعيشته وأوقاته، وتعرف على ما يسد حاجته من العيش من عناصر الأرض، وما يحفظ صحته، وانتفع بما أودع الله في هذا الكون من معادن مختلفة وطوّعها بما يفيده، وأوجد علاقة مختلفة مع الأحياء التي توجد معه في هذا العالم، وبسبب تعامله مع مختلف هذه العناصر الطبيعية كان لا بد أن تنشأ وتتطور معارفه حولها.

١- علم الفلك

يعرّفه ابن الأكفاني[٤]: بأنه علم يُعْلَمُ منه أحوال الأجرام العلوية والسفلية، وأشكالها، وأوضاعها، ومقاديرها، وأبعاد ما بينها، وحركات الأفلاك، والكواكب، ومقاديرها. ويُستدل من تلك الحركات على أشكال وأوضاع لزمته عنها هذه الحركات المحسوسة بطرائق هندسية[٥].

شيّد هولاكو سنة٦٥٧هـ/١٢٥٩م في مراغة بإشارة من الخواجة نصير الدين الطوسي (ت٦٧٢هـ/١٣٧٣م) أكبرَ المراصد وأشهرها، وسجّل هذا المرصد منعطفا هاما في تاريخ علم الفلك في الحضارة الإسلامية، وكان له تأثير كبير ليس فقط بسبب أهمية الأعمال العلمية التي أُنْجِزَت في إطاره، بل ولأنه ظهر كنموذج للمراصد الكبرى اللاحقة[٦]، لكنه يتبين أن القاهرة لم تحظ بمرصد ذي شأن كبير في عصر المماليك. ويعتبر بعض الباحثين أن بإنشاء هذا المرصد كانت ثورة حقيقية في البحوث الفلكية، كما نستطيع القول بأن نضج هذا التيار العلمي الذي نشأ في القرن الحادي عشر تكامل خلال القرن الثالث عشر، وبلغ أوجه في أعمال ابن الشاطر القاهري الدمشقي الآتي ذكره في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي[٧].

---

١ وهو القائل: لي في الشطرنج علم   أتقن الإدمان حفظه. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٢٤٨؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٣٢١.

٢ ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٥٢١.

٣ المصدر السابق، ج٣ ص١٧؛ والمجمع المؤسس، مج٣ ص١٩، ج١ ص١٣١؛ والبغدادي، إيضاح المكنون، ج١ ص٤٨٢؛ وهدية العارفين، مج١ ص١٩.

٤ إرشاد القاصد، ص٢٠٢.

٥ ابن خلدون، المقدمة، ص٦٤١.

٦ مورلون، علم الفلك العربي، ج١ ص٤٠، ٤١.

٧ صليبا: جورج، نظريات حركات الكواكب في علم الفلك العربي بعد القرن الحادي عشر مقالة ضمن موسوعة تاريخ العلوم العربية، إشراف رشدي راشد، ط٢، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥م، ج١ ص٩٥

إن وجود مؤشرات إلى انصراف السلطة المملوكية عن تبني مشاريع فلكية عملاقة كمشروع مراغة يعود إلى تضاؤل العامل الدافع حيث هذا النوع من العلم لا يضفي على حكمهم الشرعية المطلوبة مثل العلوم الشرعية، ويعود أيضا إلى غياب الدور المشجِّع من قبل العلماء قادة الرأي في المجتمع، حيث كان هناك إعراض عن تعلم علوم الفلك أصلا بسبب استحواذ المدرسة الحديثية، ووجود موقف إسلامي مناوئ لعلم التنجيم الذي يريد تنبؤ المستقبل من خلال علم الفلك، وكذلك كان هناك موقف رافض لتعلم الفلك لذاته يظهر من خلال تخوّف بعضهم من التظاهر بقراءة هذا العلم وتسميتهم الإسطرلاب (آلة الزندقة)[١]، ولعله بسبب الخلط بين استخدامه لمعرفة الأوقات والأشياء المشروعة واستخدامه لصناعة التنجيم، ويظهر أيضا من خلال التراجم القصيرة للذين بلغوا شأوا عاليا فيه، وبعضها ملئ تنقيصا واتهاما[٢].

ظفر البحث بحوالي٣٠ عينا من أعيان القاهرة في المئة الثامنة لهم معرفة بعلم الفلك، غير أن الترجمات تغمط المتخصصين منهم إجمالا، اللهم إلا إذا كانت لأحدهم معرفة علمية رائجة اقترنت به كالفقه والقضاء، بل إن اثنين من أكثرهم أهمية وهما ابن الشاطر والمزي فهم وإن أخذوا في القاهرة فقد استقر بهم المقام في الشام، وأكثر من تواجد في القاهرة هم من المؤذنين الذين كانوا على معرفة بعلم الميقات.

يأتي في البداية الوزير الغرناطي محمد بن محمد بن سهل الأزدي الظاهري (٧٣٠هـ/١٣٢٩م)، كان فاضلا وبرع في معرفة الإسطرلاب[٣]، ورحل إلى المشرق سنة٧٢١هـ، ثم توفي بمصر[٤]. ومنهم القاضي الشهير بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله، ابن جماعة (ت٧٣٣هـ/١٣٣٢م) وله مشاركات في أكثر العلوم، وتصانيف لطاف فيها[٥]، وله (رسالة الإسطرلاب) قرأها عليه تلميذه الآتي محمد بن داود بن علي بن عمر بن قزل[٦]، ومنهم شرف الدين محمد بن مختار الحنفي (ت٧٣٧هـ/١٣٣٦م)، وكان عارفا بالمنطق والهيئة والحساب، وكان يصنع بيده أشياء غريبة، وراج بذلك لدى بعض الأمراء المماليك، لكن بعض الفقهاء نال منه وكفّره[٧].

ومن فلكيي ذلك العصر زكريا بن يحيى المخزومي القرشي البلبيسي (كان حيا عام٧٤٠هـ/١٣٣٩م) صاحب مخطوطة (غنية الطلاب في العمل بربع الإسطرلاب)، يقول ناسخها: "وفرغت منها في صفر عام ٧٣٥هـ/١٣٣٤م، بالقاهرة، فجزت على يد مصنفها زكريا بن يحيى بن زكريا في الثالث والعشرين من المحرم عام ٧٤٠هـ"، وله أيضا (رسالة في عمل ربع المقنطر)، و(مختصر غنية الطلاب في العمل بربع الإسطرلاب)[٨]، وعدم ذكر الدرر الكامنة له، وقلة المعلومات عنه يدل على انصراف ابن حجر إلى حدٍّ ما عن علماء هذا العلم، كما سلف القول.

---

[١] الصفدي، أعيان العصر، ج٤ ص٤٣٩.

[٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٧٩، ج٣ ص٣٢٥- ٣٢٦؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٣٣٠، ج٢ ص٧٧؛ ورفع الإصر، ص٤٣١.

[٣] آلة دقيقة تُصوّر عليها حركة النجوم في السماء حول القطب السماوي، ووجهه يحتوي على خريطة القبة السماوية كما يحتوي على أداة تشير إلى الجزء المنظور من القبة السماوية في وقت معين، وقد رسمت القبة المنظورة على وجهه المسطح بطريقة حسابية دقيقة، ووجه الإسطرلاب والشبكة التي تدور بحرية حول محور، وتحتها صفائح مركبة بعرض معين رسمت عليها خطوط الطول أو السموت، وخطوط العرض أو المقنطرات، وكذلك مدارات القبة السماوية. الموسوعة العربية العالمية، ط٢، الرياض، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، ج١ ص٧٦٥.

[٤] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص١٧٨، ١٧٩.

[٥] ابن حجر، رفع الإصر، ص٣٤٢، ٣٤٥.

[٦] الصفدي، أعيان العصر، ج٤ ص٤٣٩.

[٧] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٤٥٢.

[٨] البغدادي، هدية العارفين، ج١ ص٣٢٥، وسماه (بغية الطلاب)؛ والنهار، العصر المفترى عليه، ص٣٦٢- ٣٦٣.

ومنهم أحمد بن عثمان بن إبراهيم الماRديني الأصل، ابن التركماني الحنفي (ت٧٤٤هـ/١٣٤٣م) الذي صنَّف ١٧ مصنفا في سائر العلوم، ومنها الهيئة[١]، وله فيها (شرح التبصرة)[٢]، ومنهم أيضا سنقر الرومي (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، وكان عالما بالفلك[٣].

ومن أشهرهم محمد بن أحمد بن عبد الرحيم المزي المالكي (ت٧٥٠هـ/١٣٤٩م)، الذي أخذ في القاهرة على يد ابن الأكفاني، وعني بالقراءات والعربية، وبرع في الهيئة والحساب، وسكن دمشق، وكان يصنع بها أوضاعا فلكية غريبة من الإسطرلابات والأرباع، فلم يلحق به أحد، فكان (إسطرلابه) يباع في حياته بعشرة دنانير، والربع بدينارين[٤]، وكانت مصنوعاته هذه أحسن الموضوعات الفلكية وأظرفها[٥].

ألف رسالة (كشف الريب في العمل بالجيب)[٦] ذكر في مقدمته أنه ليس في الآلات الفلكية ما يعمل به جميع الأعمال في كل عرض بأوضح طريق غير المجيّب، وأن رسالته هذه توضح العمل به، حيث أهمل الناس العمل به لأنهم لم يجدوا من يوضح مشكله، وهذه الرسالة كفيلة بذلك[٧]، وألف رسائل في الإسطرلاب[٨]، وله (الروضات الزاهرات في العمل بربع المقنطرات)[٩]، و(رسالة في العمل بالآلة المجنحة)، و(نظم اللؤلؤ المهذب في العمل بالربع المجيب)، و(مختصر في العمل بربع الدائرة)[١٠].

ومنهم إبراهيم ابن الصوفي (ت٧٧٢هـ/١٣٧٠م) الذي كان رئيس المؤذنين بالجامع الحاكمي وكان عارفا بوضع الأرباع[١١]، وتقي الدين محمد أبو الطاهر المغربي (ت٧٧٢هـ/١٣٧٠م) رئيس مؤذني جامع شيخو، الذي كان "أوحد زمانه في الأوضاع الهيئية"[١٢]، ومحمد بن محمد الزفتاوي (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م) رئيس الوقت بالجامع الأزهر[١٣]، وعثمان بن أحمد الرصدي (ت٧٨٥هـ/١٣٨٣م) رئيس المؤذنين بجامع ابن طولون[١٤]، وشمس الدين الغزولي المصري، وزميله شمس الدين ابن الجندي الخطائي المصري، (ت٧٨٨هـ/١٣٨٦م)، وانتهت إليهما الرياسة في حل التقاويم ومعرفة الميقات[١٥]، وللغزولي رسالة في العمل بثمن الدائرة[١٦]، ومنهم أحمد بن محمد البكتمري الميقاتي (ت٨٠٠هـ/١٣٩٧م) وكان رئيس المؤذنين[١٧].

ومنهم نور الدين علي بن محمد الميقاتي، المعروف بابن الشاهد المنجم (ت٨٠١هـ/١٣٩٨م) انتهت إليه الرياسة في عمل الزيج وكتابة التقاويم، قرّبه الظاهر برقوق منه[١٨]، ونسب المتأخرون[١٩] إلى ابن القاصح علي بن محمد

[١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص١٩٨.
[٢] الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٧ ص١٢١- ١٢٢. والتبصرة لأبي بكر محمد بن أحمد المروزي المعروف بالخرقي (ت٥٣٣هـ/١١٣٨م).
[٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص١٧٦.
[٤] المصدر السابق، ج٣ ص٣٢٥- ٣٢٦.
[٥] الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢ ص١٢٠.
[٦] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٣٢٦.
[٧] ينظر المزي: محمد بن أحمد المالكي، (ت٧٥٠هـ)، كشف الريب، -خ-، في دار المخطوطات المصرية، موجود على النت في مكتبة المصطفى الإلكترونية، لدي منه نسخة.
[٨] الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢ ص١٢٠.
[٩] مخطوط بالمتحف العراقي.
[١٠] الزركلي، الأعلام، ج٥ ص٣٢٧.
[١١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٩٧، ويلاحظ عدم معرفة اسمه كاملا.
[١٢] المصدر السابق، ج٤ ص٣١٩.
[١٣] المصدر السابق، ج٤ ص٢٤٩.
[١٤] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٢٨٤.
[١٥] المصدر السابق، ج١ ص٣٣٠.
[١٦] كحالة، معجم المؤلفين، ج٣ ص٥٧٨.
[١٧] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٢٥.
[١٨] المصدر السابق، ج٢ ص٧٧.
[١٩] صاحب كشف الظنون ومن جاء بعده.

المقرئ المتقدم (ت٨٠١هـ/١٣٩٨م) رسائل في هذا المجال، منها (تحفة الطلاب في العمل بالإسطرلاب)، و(درة الأفكار في معرفة أوقات الليل والنهار)، و(هداية المبتدي في معرفة الأوقات بربع الدائرة الذي عليه المقنطرات)[١]، المقنطرات)[١]، رغم أنه لم يذكر ابن حجر في إنبائه ولا السخاوي تلميذه في الضوء اللامع أن لابن القاصح المقرئ المقرئ هذا مؤلفات في الفلك، ويساورني الشك أنها لابن الشاهد المذكور هنا، وليست لابن القاصح، والتبس بذاك بسبب تشابه الأسماء.

ونأتي إلى الفلكي عبد الله بن خليل بن يوسف المارداني[٢] (ت٨٠٩هـ/١٤٠٦م)، وانتهت إليه رئاسة علم الميقات في زمانه، وله أوضاع ومؤلفات انتفع بها أهل زمانه[٣]، وصنّف في ذلك رسائل منها (رسالة في ربع الدستور وتعريف رسومه)، و(غاية الانتفاع بالبخش الذي في قوس الارتفاع)، و(رسالة في معرفة الربع المجيب)، و(رسالة مختصرة في العمل بالربع المجيب)، و(رسالة في العمل بربع الدائرة الموضوع عليه المقنطرات المطوية)[٤].

لقد ذهبت دمشق بفضل احتضان أبرز علماء الفلك في القرن الثامن الهجري، وهو ابن الشاطر واحتضنت إبداعاته وإنجازاته، ولكن وإن كان لها فضل الاحتضان، فإن للقاهرة فضل التعليم؛ فقد ولد علاء الدين علي بن إبراهيم بن محمد الأنصاري الدمشقي المعروف بابن الشاطر سنة٧٠٤هـ/١٣٠٤م، وتتلمذ لعلي بن إبراهيم بن يوسف الشاطر زوج خالته وابن عم أبيه فعلّمه تطعيم العاج، وتعلّم علم الهيئة والحساب والهندسة، ورحل من أجل ذلك إلى القاهرة والإسكندرية سنة٧١٩هـ، فبرع في تلك العلوم براعة فائقة، وأنجز إبداعات مذهلة، لكن مما يؤسف له أنه لم يقم بمهمة التعليم ونقل العلم إلى الجيل الذي خلفه[٥]؛ الأمر الذي حرم العلم دفعة متميزة في مسيرته مسيرته الفلكية.

قدّم ابن الشاطر مؤلفات كثيرة في هذا المجال، وتدل كثرتها وتعددها على تفوقه، وكعادته مع النتاج العلمي من غير العلوم الشرعية فلم يكلِّف ابن حجر نفسَه بتعداد ولو بعض كتبه، سوى زيجه الشهير، لقد ذكروا له كثيرا من المؤلفات، ومنها (جداول التعاديل للكواكب الخمسة السيارة)[٦]، وهو (الزيج) الشهير على حد وصف ابن حجر[٧]، وله (نزهة السامع في العمل بالربع الجامع)، و(الأشعة اللامعة في العمل بالجامعة) في علم المواقيت، و(الربع التام لمواقيت الإسلام)، ذكر فيه أنه أمعن النظر في الآلات الفلكية فلم يجد ما يعنى بجميع الأعمال الفلكية، فوُفّق لاستنباط هذه الآلة المسماة بـ(الربع التام)[٨]، وكتب (رسالة في الإسطرلاب)، وصنف في هيئة أفلاك الكواكب كتابا كتابا سماه (نهاية السؤل في تصحيح الأصول)، وأنجز كتابا عن ميل الشمس وكوكب الأرض وسماه (جدول ميل الشمس لكل عرض وجدول طول البلاد وعرضها)، ومن مؤلفاته في فن أدوات علم الفلك (ربع الأوتار)، وله أيضا (الربع الكامل)، و(الروضات المزهرات في العمل بربع المقنطرات)، و(رسالة في العمل بالربع المجيب)[٩].

لقد صنع ابن الشاطر في بيته إسطرلابا أبدع في وضعه، وراق للزائرين منظره وشكله، ووُصِف بأنه كان يدور على الدوام ليلا ونهارا من غير رحى ولا ماء على حركات الفلك، لكونه رتّبه على أوضاع مخصوصة تُعْلَم منه

[١] حاجي خليفة، كشف الظنون، مج١ ص٣٦٩، ٧٣٨، مج٢ ص٢٠٤١.
[٢] نسبة للجامع المارداني بالقاهرة.
[٣] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٣٦٨.
[٤] النهار، العصر المفترى عليه، ص٤٦٤، وفي هامشه أماكن وجود هذه الرسائل.
[٥] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٩؛ وإنباء الغمر، ج١ ص١١٦.
[٦] مخطوط بمكتبة الأسد الوطنية.
[٧] إنباء الغمر، ج١ ص١١٦؛ وهو مخطوط أيضا بمكتبة الاسد الوطنية.
[٨] هذه الرسائل مخطوطة في مكتبة الأسد الوطنية، وينظر عنها النهار، العصر المفترى عليه، ص٤٦٠.
[٩] كل ما ذكر من الرسائل موجود في مكتبة الأسد الوطنية. ينظر النهار، العصر المفترى عليه، ص٤٦٠- ٤٦١.

الساعات المستوية والساعات الزمنية[1]. ومن إنجازاته أنه وضع (البسيط) فوق منارة العروس بجامع دمشق[2]، وهي وهي نوع من الآلات الظلية التي يعرف بها الوقت من خلال ظلالها، ولعلها هي المسماة بـ(المزولة)، كما اخترع مِزْوَلة أفقية رائعة قوامها متران، وتعتبر مزولته هذه تحفة في الإبداع والاختراع، ومثالا يدل على براعة تقنية استثنائية، وهي كما يقول أحد الباحثين أجمل مزولة في العصر الوسيط[3].

استفاد ابن الشاطر من النتائج المهمة التي توصّل إليها فلكيو مرصد مراغة، وبهذا كان وريثا حقيقيا لتقليد فلكي عربي إسلامي عريق، أعطاه نتائج عديدة، وقد اقترح عدة هيئات جديدة للقمر كانت في بعض الأحيان مطابقة لهيئة القمر التي ارتآها كوبرنيكوس بعد قرنين من الزمان، واتضح أن ابن الشاطر كان على معرفة بأعمال علماء مراغة في القرن السابع الهجري[4]، كما كانت الهيئة المقترحة للشمس من قبل ابن الشاطر فريدة في نوعها، وكانت وكانت الهيئة البديلة والوحيدة للشمس عن هيئة بطليموس، ويظهر في اقتراحه هذا أنه كان يعود إلى الأرصاد التي قام هو بها[5].

ووجّه اهتمامه الشديد أيضا إلى قياس زاوية انحراف دائرة البروج، فانتهى إلى نتيجة مفرطة الدقة، وهي ٢٣ درجة، و٣١ دقيقة علما أن القيمة المضبوطة التي توصّل إليها علماء القرن العشرين بواسطة الآلات الحاسبة هي ٢٣ درجة و٣١ دقيقة و٨ ثوان، كما برهنت أرصاده الفلكية على أمرين رئيسين: هما تطوير الآلات الفلكية، ونظرية حركة الكواكب[6].

تحتفظ مكتبة الأوقاف في حلب بـ(صندوق اليواقيت)، وهي آلة فلكية اخترعها ابن الشاطر، وأهم أجزائها إبرة مغناطيسية لها امتداد في الجهات الأربع، ثم رسوم لمعرفة القبلة في بعض البلدان، ثم ساعة شمسية كلية تمال إلى الأفق بقدر عرض البلد، ثم دائرة استوائية كلية يقاس بها الوقت ليلا ونهارا، ثم أقواس لعروض مختلفة لقياس المطالع الفلكية[7].

ومع ذلك كله فإن ترجمة ابن حجر لابن الشاطر لم تتجاوز ثلاثة سطور[8]؛ الأمر الذي يعكس تهاون المؤرخين بهذا الصنف من العلماء، وهو ما يفسر تدهور الحالة البيئية المناسبة لهذه العلوم التطبيقية شيئا فشيئا.

ومن خلال ما سبق يتبين أن ثمانية فلكيين قاهريين خلفوا نتاجا علميا في الفلك، بلغ أكثر من ٤٠ عملا، وتكاد الشروح تختفي من عناوين تلك الأعمال، كما أن هناك كثيرا من الآلات الفلكية التي كانت تباع للجماهير، بما يشير إلى وتيرة فلكية علمية وعملية جيدة مضى عليها القرن الثامن في القاهرة ودمشق، أبدع فيها ابن الشاطر بجهده الذاتي، وحقق بعض الإنجازات المحمودة رغم تقصير ابن حجر في إظهار ما كان عليه أهل هذا العلم، واتضح قصورُ وتقصيرُ السلطة المملوكية عن دعم هذا العلم وتشجيعه أسوة بمعاصريها من المغول.

---

[1] النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج٢ ص٢٩٨- ٢٩٩.
[2] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص١١٦.
[3] كينغ: دافيد، علم الفلك والمجتمع الإسلامي، مقالة ضمن موسوعة تاريخ العلوم العربية، إشراف رشدي راشد، ط٢، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥م، ج١ ص٢١٣، ٢١٦.
[4] صليبا، نظريات حركات الكواكب في علم الفلك العربي، ص١٥٦، ١٥٧، ١٦٧.
[5] المرجع السابق، ص١٢٨، ١٣٠.
[6] مراد: بركات محمد، ابن الشاطر عالم الفلك وصانع أدوات الرصد والقياس، مجلة حراء، عدد٢١، أكتوبر، ديسمبر، ٢٠١٠م، ص٢٦.
[7] المرجع السابق، ص٢٥.
[8] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٩.

٢- علما الطب والصيدلة

أ- علم الطب

برز في عصور الحضارة الإسلامية أطباء عظماء ساهموا في النهضة الطبية العالمية، وتخصّص هؤلاء فهناك الطبيب العام، وهناك الجراح، وهناك الفاصد (الحجام)، وهناك الكحال (طبيب العيون)، وغيرهم[١]، وفي العصر المملوكي ظهر الطبيب الشهير علاء الدين علي بن أبي الحزم القرشي المعروف بابن النفيس (ت٦٨٧هـ/١٢٨٨م) الذي بدأ حياته الطبية بدمشق، ثم انتقل إلى القاهرة طبيبا في البيمارستان المنصوري، واستقر فيها، ومن كتبه (الموجز) في الطب، اختصر به قانون ابن سينا، وله (الشامل)، و(بغية الفطن في علم البدن) في الطب، وكانت طريقته في التأليف أن يكتب من حفظه وتجاربه ومشاهداته ومستنبطاته، ولم يكن يتقبل كلام الأطباء السابقين إلا بعد بحث وتجربة، ولهذا بعد تجارب طويلة واستقصاء دقيق وقف على أخطاء جالينوس، فانتقده، وقد أسدى إلى المسيرة الطبية كثيرا من الجهود والكشوف الطبية البارزة، ومن حسن حظ القاهرة أنها استضافت هذا الطبيب، وفي المدرسة المنصورية سكن، وصنّف تصانيفه المشهورة في الطب والفقه والعربية، وفي آخر أيامه أهدى مكتبته العامرة بشتى أنواع العلوم للبيمارستان المنصوري الذي مارس التطبيب فيه في القاهرة[٢].

ومن أعظم المآثر الطبية التي تفرّدت بها القاهرة آنذاك البيمارستان المنصوري، أطنب المؤرخون والرحالة في وصفه والإعجاب به، قال ابن بطوطة[٣]: "يعجز الواصف عن محاسنه، وقد أعد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر، ويذكر أن حاصلات أملاكه ألف دينار كل يوم"، وقال العمري في وصفه[٤]: "المعدوم النظير لعظمة بنائه، بنائه، وكثرة أوقافه، وسعة إنفاقه، وكثرة الأطباء وأهل الكحل والجراح به، وهو جليل المقدار، جميل الآثار، جزيل الإيثار". ووصفه القلقشندي[٥] بأنه: "من المعروف العظيم، الذي ليس له نظير في الدنيا، ونظره رتبة سنية، يتولاها الوزراء ومن في معناهم".

وتذكر وثيقة الوقفية من منشئه السلطان المنصور قلاوون[٦] أنه أنشئ لمداواة مرضى المسلمين الرجال والنساء، من الأغنياء والفقراء، من القاهرة وضواحيها، من المقيمين بها والواردين إليها، من دون فرق، وأنه يقيم به المرضى رجالا ونساء حتى شفائهم، وذكرت أصناف العاملين به، وهم الأطباء، والكحالون، والجرائحيون، وطباخو الشراب، والطعوم، وصانعو المعاجين، والأكحال، والأدوية، والمسهّلات المفردة والمركبة، والقَوَمة[٧]، والفراشون، والخُزّان، والأمناء، والمباشرون، غير أنها نصّت على حرمان اليهود والنصارى من أن يزاول أحدهم عملا فيه؛ الأمر الذي حرم (البيمارستان) من دور طبي يمكنهم المساهمة به؛ إذ كان هناك منهم أطباء مهرة، كما أنه حَرَم مرضاهم من التداوي فيه.

جُهِّز البيمارستان بشكل متخصّص فجعل على أربعة أواوين عديدة، قسم للمرضى بالحميات ونحوها، وأفرد قاعة للرمدى، وقاعة للجرحى، وقاعة لمن به إسهال، وقاعة للنساء، ومكانا للمبرودين[٨]، ينقسم قسمين قسم للرجال للرجال وقسم للنساء، وأُجري الماء في جميع هذه الأماكن، وأُفرد مكان لطبخ الطعام والأدوية والأشربة، وخصص

---

[١] ابن الأخوة، معالم القربة، ١٠٦/أ -١٠٩/أ، - خ -؛ وأبو خليل: شوقي، الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة، ط١، دمشق، دار الفكر، ١٩٩٤م، ص٥١٠.

[٢] النهار، العصر المفترى عليه، ص٤٣٣، ٤٣٤.

[٣] تحفة النظار، ج١ ص٢٣.

[٤] مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ت. كامل الجبوري، ومهدي النجم، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠١٠م، ج٣ ص٢٨٢.

[٥] صبح الأعشى، ج٣ ص٤١٨.

[٦] نشرها الدكتور أحمد عيسى بك في كتابه تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ط٢، بيروت، دار الرائد العربي، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، ص١٣٨، ١٣٩، ١٤١، ١٤٦.

[٧] لعلهم الممرضون من يقومون بالمريض.

[٨] من أصابهم البرد، كمرضى الزكام وما شاكل ذلك.

مكان لتركيب العلاجات والمعاجين، ومواضع لتخزين حواصل أملاك المستشفى، وجعل فيه مكان لتوزيع الأشربة والأدوية، كما أرفق به كلية يلقي فيها رئيس الأطباء دروس الطب على طلابه الأطباء[١].

ويفترض أنه كان للأطباء في القاهرة رئيس يمتحن من يريد ممارسة الطب بعد الدراسة فمن وجده مقصرا أمره بالعودة للدراسة وقراءة كتب العلم، ومنعه عن ممارسة الطب، كما يجب أن يمتحن المحتسب الكحالين (أطباء العيون) بكتاب حنين بن إسحاق (أعين العشر المقالات)، وأن يمتحن المجبّرين (أطباء العظام) بمعرفة المقالة السادسة من (كناش فوليس[٢]) في الجبر، ويجب على الجرائحيين معرفة كتاب (جالينوس) في الجراحات والمراهم وأن يعرفوا التشريح وأعضاء الإنسان[٣]، وكانت تُصْدَر إجازات (شهادات) لأولئك الذين قرأوا المقررات الدراسية الطبية[٤].

نعى ابن الأخوة وهو من علماء القاهرة على المسلمين في عصره (القرن الثامن) ترْكَهم لتعلم الطب وتهافتهم على فروض الكفاية مثل علم الفقه لا سيما في الخلافيات والجدليات، رغم أن البلد مشحون بالفقهاء والمفتين، وأعاد السبب إلى أن الطب لا يتوصل به إلى تولي القضاء والتقدم على الأقران، وفي الوقت نفسه كم من بلد ليس فيه طبيب إلا من أهل الذمة، ومثله حذّر أيضا ابن الحاج العبدري من استئثار أهل الكتاب بهذا العلم[٥]؛ الأمر الذي يبين أن أهل الذمة من اليهود والنصارى كانوا قد شاركوا مشاركة فعالة في هذا المجال، رغم ما كانوا يُتَّهَمون به من بعض المسلمين من الغش في عملهم[٦]، ويبين العلوم الرائجة والتي كان يتنافس عليها النابهون والأذكياء كعلم الفقه، بينما يبين أن علم الطب كان لديهم شأنا علميا ثانويا، وهذا هو أحد أسباب تراجعه في بلدان العالم الإسلامي آنذاك.

كما كان يدرّس الطب في جامع ابن طولون[٧]، ولعله كان في ما تبقى من البيمارستان الطولوني، كما كان يدرّس يدرّس في بيوت بعض الأطباء.

ومن الطبيعي أن يكون في القاهرة أطباء كثيرون، ومن خلال حصر لمن كانوا في القرن الثامن اتضح ذكر بعض المصادر التاريخية[٨] لـ٤٨ طبيبا من أعيان الأطباء، معظمهم أطباء طبيعيون[٩]، ولوحظ إغفال ابن حجر لجميع فئات الكحالين والجرائحيين والمجبّرين، كما أغفلت ذكرهم المصادر الأخرى أيضا، ومن ذكر منهم فقد ورد في سياق علاقة خدمة طبية للسلطان، وهو أمر يشير بوضوح إلى صدق ما نعاه ابن الأخوة في (معالم القربة) على أهل عصره من عزوفهم عن العلوم الطبية، والتهافت على علم الفقه والجدل.

اتضح أيضا أن حوالي٤٢ طبيبا منهم كانوا مسلمين، و٣ يهودا، ولم نجد اسما لطبيب نصراني، رغم وجود عدد منهم قطعا[١٠]، ومن ذكر من اليهود كانت لهم جهود تتصل بخدمة السلطان والمقربين منه ولهذا ذكرهم المؤرخون، وبالتالي فإن من المرجح أن المؤرخين المسلمين ومنهم بالطبع ابن حجر أغفلوا ذكر عدد من هؤلاء الأطباء الذميين ممن لم تتوفر له علاقة كافية بأحد محاورهم في كتابة التاريخ من السلاطين والأمراء، وقد تقدم انعدام ثقة

---

[١] المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣ ص٤٥٨، ٤٥٩.
[٢] فوليس الأجانيطي الإسكندري، يبدو أنه وجد بعد الإسلام، وكان طبيب نساء وولادة، وله السبع المقالات التي ترجمها حنين بن إسحاق. القفطي: علي بن يوسف، (ت٦٤٦هـ)، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ت. محمد أمين الخانجي، القاهرة، مطبعة دار السعادة، ١٣٢٦هـ، ص١٧٣.
[٣] ابن الأخوة، معالم القربة، ق١٠٧/ أ- ١٠٩/ أ.
[٤] العبدري، المدخل، ج٤ ص١١١.
[٥] ابن الأخوة، معالم القربة، ق١٠٧/ أ؛ والعبدري، المدخل، ج٤ ص١٠٩، ١١١، ١١٣- ١١٤.
[٦] العبدري، المدخل، ج٤ ص١٠٧، ١١٠، ١٢٤- ١٣٢.
[٧] الصفدي، أعيان العصر، ج٢ ص١٤٤- ١٤٥.
[٨] ذكروا في الدرر الكامنة وإنباء الغمر ما عدا تسعة أطباء فقد ذكروا في مصادر أخرى.
[٩] هذا المصطلح هو الذي كان يسمى به الطبيب العام المعالج تمييزا له عن الكحال والجرائحي والمجبر.
[١٠] العبدري، المدخل، ج٤ ص١١٠.

ابن حجر نفسه في أطبائهم، ويبدو أن هذا كان كافيا في إسقاطهم من رتبة الأعيان الذين يجب ترجمتهم، ويشير إلى ثانوية علمهم ومهنتهم، وهو أمر له دلالة في تراجع هذا العلم في القاهرة.

جدير بالذكر أن قاعدة بيانات هؤلاء الأطباء تبين أن بعضا من هؤلاء الأطباء كانوا هم أو سلفهم قادمين من الشرق الإسلامي، لا سيما من تبريز، وبعضهم من أصول يهودية، وبعضهم أُجْبِر على الإسلام حتى يمكنه أن يأخذ مكانته الاجتماعية اللائقة، ويتأهل لخدمة السلطان أو الأمراء.

قليلٌ هم من كانوا متخصصين في الطب فقط، بل إن المسلمين من هؤلاء الأطباء كثر منهم من كان يجمع بين علم الطب وعلوم أخرى، اختلفت ما بين الحديث والفقه واللغة، وأما من ذكرت له مؤلفات طبية فلا يتجاوزون ٣% ممن عثرنا عليهم دون أولئك الذين تقصّد التاريخُ إغفالهم، وهي مشكلة تعني أن أعظم مشفى عالمي، ومؤلفات ابن النفيس ونتاجه لم يلقيا الاستجابة المطلوبة في القرن الثامن.

وباستثناء ابن الأكفاني وجهوده الطبية يبدو أن القرن الثامن الهجري كان صدى باهتا ومتضائلا لإنجازات القرن السابع وما سبقه.

ومن أطباء هذا القرن جمال الدين عثمان بن أحمد بن عثمان، ابن أبي الحوافر الحلبي (ت٧٠١هـ/١٣٠١م) وكان رئيس الأطباء في القاهرة، وله اهتمام حديثي أيضا[١]، وهو رأس أسرة طبية خلفه منها أطباء فاضلون من أبنائه، كان لجميعهم أيضا اهتمامات في علم الحديث[٢].

واختصر العلامة اللغوي ابن منظور، محمد بن مكرم (ت٧١١هـ/١٣١١م) كتاب (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية) تأليف ابن البيطار عبد الله بن أحمد (ت٦٤٦هـ/١٢٤٨م) وهو من أجل كتب الصيدلة في الأدوية والأغذية، ذكر فيه المئات منها وفوائدها بتفاصيل مفيدة جدا[٣].

ومن الكحالين الأديب الشهير شمس الدين محمد بن دانيال المراغي الموصلي (ت٧١٠هـ/١٣١٠م)[٤]. ومنهم علم علم الدين إبراهيم بن أبي الوحش بن أبي حليقة (ت٧٠٨هـ/١٣٠٨م) رئيس الأطباء بمصر والشام، وكان نصرانيا كاد أن يُعَيّن للبطركية فرفض وأسلم، ومن إنجازاته أنه أول من عمل شراب الورد الطري، وعالج الظاهر بيبرس فعوفي، فأجزل له الأمراء العطايا[٥].

ومن الأطباء أبو الحسن علي بن الشقراء، وكان قد استقر باليمن سنة٧١٥هـ/١٣١٥م وكان معظما لدى أهل مصر في الطب وغيره، وخدم الرسوليين، ولم يطب له المقام فاستأذن المؤيد الرسولي وعاد إلى مصر[٦]. ومنهم النعمان بن دولات شاه الخوارزمي فاق في المعقولات، وأقام بمصر مدة، ثم رجع إلى بلاده سنة٧٢١هـ/١٣٢١م[٧]، سنة٧٢١هـ/١٣٢١م[٧]، وقد استصحب معه كتبا كثيرة في الطب من دمشق، وعُيّن رئيس الأطباء في بيمارستان خوارزم[٨].

---

[١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٤٣٦؛ والمقريزي، السلوك، ج٢ ص٣٥١.
[٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٢٤٥، ج٣ ص٨١، ج٤ ص٣٨.
[٣] النهار، العصر المفترى عليه، ص٤٤٨.
[٤] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٤٣٤.
[٥] المصدر السابق، ج١ ص٧٥.
[٦] عيسى بك: أحمد، معجم الأطباء، ط١، القاهرة، مطبعة فتح الله، ١٣٦١هـ - ١٩٤٢م، ص٣٠٦- ٣٠٧.
[٧] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٩٥.
[٨] الصفدي، أعيان العصر، ج٥ ص٥٢٢. وخوارزم ناحية تقع شرق بحر الخزر، وجنوب بحيرة خوارزم المسماة اليوم (آرال). مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص٢٢١.

ومنهم توما بن إبراهيم الشوبكي (ت٧٢٤هـ/١٣٢٣م) وكان من أطباء السلطان، ويدرس الطب في جامع ابن طولون، وقد اختصر مسائل حنين بن إسحاق العبادي (ت٢٦٠هـ/٨٧٤م)[١]. ومنهم إسماعيل بن إبراهيم المقدسي، ابن الحراني، ثم المصري (ت٧٣١هـ/١٣٣٠م) مهر في الطب، وكان حسن المعالجة، وله اهتمام بالحديث[٢].

ويأتي العالم الموسوعي ركن الدين محمد بن محمد الجعفري التونسي، الشهير بابن القوبع (ت٧٣٨هـ/١٣٣٧م) والمولود في تونس٦٦٤هـ/١٢٦٥م، وكان عالما محققا في الفنون جميعا، وشيخ الفقهاء المالكية، ودرّس الطب في البيمارستان المنصوري، وكان يواصل المطالعة في كتاب الشفاء لابن سينا كل ليلة[٣]. ومنهم شهاب الدين أحمد بن يوسف الحلبي ثم الصفدي (ت٧٣٨هـ/١٣٣٧م) مهر في الطب والأدب، وخدم طبيبا لدى السلطان وفي البيمارستان المنصوري في القاهرة[٤].

وممن تتلمذ على ابن النفيس الشيخ صلاح الدين محمد بن إبراهيم بن عبد الله الشهير بابن البرهان (ت٧٤٣هـ/١٣٤٢م)، مهر أولا في طب العيون، ثم تصرّف في الطب، وكان مشاركا في الحكمة والنجوم، ولازم الشيخ شمس الدين الأصبهاني في قراءة كتاب الشفاء لابن سينا، وشارك في الآداب، وخدم طبيبا للسلطان، وكان علمه بالطب أحسن من ممارسته[٥].

ومنهم طبيب السلطان الناصر وهو المسمى السديد الدمياطي (ت٧٤٣هـ/١٣٤٢م) وكان يهوديا، قرأ على ابن النفيس، وكان فاضلا في الطب ولم يكن مثله في العلاج والسعادة فيه، ولا يدخل طبيب السلطان الآخر، ابن المغربي إلا وهو معه[٦].

ومنهم نور الدين علي بن عبد الرحمن بن شبيب الحنبلي الحراني الشيخ الإمام المتطبب (ت٧٤٧هـ/١٣٤٦م) وله كتاب (جامع الفنون)[٧]. ومنهم ناصر الدين محمد بن محمد بن عبد الله بن صغير (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م) قرأ الطب على والده، وكان من أطباء السلطان، لا يمارس الطب إلا للسلطان ولأصدقائه فقط، وكان ظريفا مرحا[٨].

ونأتي إلى أعظم أطباء القاهرة في القرن الثامن الهجري وخاتمتهم بعد ابن النفيس في القرن السابع، ألا وهو محمد بن إبراهيم بن ساعد السنجاري الأصل، المصري المعروف بابن الأكفاني (ت٧٤٩هـ/١٤٤٨م) الذي كان آخر الأطباء العمالقة في القاهرة، وفاق في عدة فنون، وأتقن الرياضيات، وحفظ الأشعار والتواريخ، ومارس الطب في البيمارستان المنصوري، وكان صيدلانيا أيضا فكان لا يسمح بدخول عقار إلى المشفى إلا بعد عرضه عليه، فما أجازه دخل، وإلا أُعيد.

كتَبَ عدة مؤلفات، فمنها:

-(غنية اللبيب عند غيبة الطبيب)[٩]، ورتّبه على أربعة أركان: الأول في حفظ الصحة، والثاني في تدبير المرض، والثالث وصايا نافعة، والرابع خواص مختبرة[١٠].

---

[١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٥٢٨؛ والصفدي، أعيان العصر، ج٢ ص١٤٤- ١٤٥.
[٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٣٦٣.
[٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص١٨١- ١٨٢؛ وابن فرحون، الديباج المذهب، ص٤١٤.
[٤] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٣٤١؛ والصفدي، الوافي بالوفيات، ج٨ ص١٩٢.
[٥] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٢٨٨.
[٦] المصدر السابق، ج٤ ص١٩٠- ١٩١؛ والصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٥ ص٨.
[٧] ابن حجر، الدرر الكامنة، ٣ ص٥٩- ٦٠.
[٨] المصدر السابق، ج٤ ص١٩٠- ١٩١.
[٩] المصدر السابق، ج٣ ص٢٧٩- ٢٨٠. وقد نشره صالح مهدي عباس في بغداد سنة ١٩٨٩م.
[١٠] حاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ص١٢١١- ١٢١٢.

-(كشف الرين في أحوال العين)، ورتّبه على ثلاث مقالات الأولى في كليات أحوال العين، والثانية في أمراض العين الجزئية، والثالثة في ذكر الأدوية البسيطة، ثم اختصره في (تجريد كشف الرين في أحوال العين)[١]. ويوازي هذا الكتاب في إبداعاته وأهميته كتاب شيخه ابن النفيس (المهذّب في الكحل المجرّب)، وقد تضمّن هذا الكتاب أسبقيات مهمة في أمراض العيون تُسَجَّل لابن الأكفاني، ومنها أنه:

-أول مؤلف يذكر (النار الفارسية) كمرض من أمراض الجفن، وهي الحرارة التي تنجم عن إصابة المريض بما يسمى بالجمرة الخبيثة. - وأول من وصف الظفرة (زيادة عصبية تبدأ من أحد المآقين أو من كليهما) تشريحيا ونسيجيا، وذكر أنها مؤلفة من ظهارة وبطانة. - وأول مؤلف يذكر الوردينج (وهو ورم يحدث في الجفن عبارة عن مادة دموية أو مخالطة للصفراء) ضمن أمراض الشبكية. - وأول مؤلف يذكر مرض الخفش (وهو ضعف البصر الناتج عن رقة الأهداب أو قلتها)[٢].

وله كتاب (نهاية القصد في نهاية الفصد)[٣]، وينقسم الكتاب إلى قسمين: الباب الأول علم الفصد، ويذكر فيه دواعي إجرائه واستطباباته وشروطه، والأوقات المناسبة للقيام به، وإمكانية تكراره، والباب الثاني يعدّد فيه العروق التي تفصد، ويصف الطريقة المتبعة، ويذكر منافعه في كل حالة، وأخطاره، واختلاطاته، وطرق التوقي منها وكيفية معالجتها[٤].

ثم نلتقي بعد ذلك بالطبيب زين الدين علي بن عبيد الله ابن أبي المفاخر المشهور بـ(زين العرب)، (كان حيا سنة٧٥١هـ/١٣٥٠م)[٥]، وفي الطب أنجز (شرح كليات القانون) لابن سينا، وفرغ منه سنة٧٥١هـ/١٣٥٠م، وذكر فيه أن العلامة الشيرازي شرحها شرحا كثيرا من دون انتقاء، ولم يكمله حيث أنقصه موضوعين أحدهما: التشريح، الذي هو من جملة مشكلات الكتاب، وأوائل الفصل السابع؛ لذا قام زين العرب بشرحه وليسد ذلك النقص[٦].

وبعد ذلك الرئيس جمال الدين إبراهيم بن أحمد، ابن المغربي (ت٧٥٦هـ/١٣٥٥م)، وكان رئيس الأطباء بالديار المصرية، وكانت له مكانة بارزة لدى السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وكان يدخل عليه كل يوم، وكانت إشارته مقبولة لديه[٧]. ومنهم أوحد الدين محمود بن قطلوشاه السراي الحنفي (ت٧٧٥هـ/١٣٧٣م) أقدمه الأمير صرغتمش من الشام، وكان قد أقام بها مدة يدرّس ويفيد، وكان غاية في العلوم العقلية والأصول والطب[٨].

ويأتي بعد ذلك مدرس الأطباء في الجامع الطولوني شمس الدين محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن المصري (ت٧٧٦هـ/١٣٧٤م)[٩]، ومنهم محمد بن أبي محمد التبريزي الشافعي (ت٧٧٦هـ/١٣٧٤م) قدم من تبريز، وأخذ عن القطب التحتاني، وقرّر له منكلي بغا بالقاهرة راتبا ماليا على التدريس بالبيمارستان المنصوري، ودرّس بالقبة

---

[١] المصدر السابق، مج٢ ص١٤٩٠.
[٢] النهار، العصر المفترى عليه، ص٤٤٥- ٤٤٦، نقلا عن كشف الرين عن أحوال العين لابن الأكفاني، تحقيق محمد ظافر الوفائين ومحمد رواس قلعجةجي، ط١،الرياض، مركز الملك فيصل، ١٩٩٣م، ص٣.
[٣] حاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ص١٩٩٠.
[٤] حمارنة: نشأت، ابن الأكفاني ومؤلفاته، بحث منشور في مجلة التراث العربي، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، السنة ٢٥، العدد ٩٨، جمادى الأولى ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م. ص٢٠٧.
[٥] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٨٠؛ والزركلي، الأعلام، ج٤ ص٣١٠.
[٦] حاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ص١٣١٢.
[٧] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص١٦.
[٨] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٧٠.
[٩] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٤٧٥؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٩٤، وما ورد في الدرر من كونه (ت٧٧٢هـ) فهو سهو، حيث ورد ما يؤيد إنباء الغمر في السيوطي، حسن المحاضرة، ج١ ص٥٤٦.

المنصورية[1]. ومنهم جار الله أبو الثناء القاضي محمد بن عبد الله الحنفي (ت٧٨٢هـ/١٣٨٠م) قدم من بلاد الشرق، الشرق، وقد تأهّل في عدة علوم، ولي قضاء الحنفية، وكان بارعا في العلوم العقلية كالطب وغيره، وعالج السلطان الأشرف فعوفي، ودرّس في المدرسة المنصورية، وجامع ابن طولون[2].

ومنهم الرئيس علاء الدين علي بن عبد الواحد بن محمد بن صغير (ت٧٩٦هـ/١٣٩٣م) رئيس الأطباء بمصر، وانتهت إليه المعرفة في العلاج ومهر فيها، وكان يراعي حالة الفقراء في وصفات العلاج[3]. ومنهم شريكه في رئاسة الطب صدر الدين بديع بن نفيس التبريزي الداودي (ت٧٩٧هـ/١٣٩٤م) الذي قدم القاهرة من تبريز، وخدم الظاهر برقوق فقدّمه، وشرّكه مع علاء الدين ابن صغير في رئاسة الطب[4]، وله تصانيف في الطب، لم تُذْكَرْ أسماؤها. وكان يحفظ متونا في علم الطب[5]؛ وهو الأمر الذي يكشف أن الطب أيضا لم يكن بعيدا عن المتون وحفظها كسائر العلوم، والذي ربما كان فيه خطورة على العقلية الإبداعية؛ إذ يتحول المرء إلى مقلِّد ومحاكٍ مردّدٍ لا يفكِّر ولا يتأمَّل.

وأخيرا نأتي إلى الطبيب علي بن أحمد ابن الأمير بيبرس الحاجب، المعروف بأمير علي ابن الحاجب (ت٨٠١هـ/١٣٩٨م) كان أحد مشايخ القراءات، وكان جده أحد أمراء مصر وحجابها، واشتهر بالمهارة في العلاج حتى أنه عالج بكميات كثيرة من الأدوية، فاقت ما عالج به الأطباء الآخرون[6].

وهكذا يتبين أن القاهرة في القرن الثامن نكصت على عقبها في مجال الطب، ورغم جهود ابن الأكفاني وإنجازاته إلا أنها لم تكن بمستوى جهود ابن النفيس، فضلا أن تكون متطورة عنها.

ب- الصيدلة

يطلق علم الصيدلة أو علم العقاقير على الأدوية المفردة، وهي العقاقير الأصلية، فإذا رُكبت سميت (الأقراباذين)[7].

يبدو أن صيادلة القرن الثامن في القاهرة اكتفوا بما وضعه السابقون في هذا ولا سيما أهل القرن السابع[8] ودندنوا حوله، ولهذا قلّ التأليف حول هذا الموضوع، إن لم تكن ندرت بحسب الدرر الكامنة وما اطلعنا عليه من مصادر أخرى.

لقد أرشد ابن الأخوة – وهو أحد علماء القاهرة في القرن الثامن الهجري - في كتابه (معالم القربة) المحتسبَ أن يختبر شراب الشرابيين، وهم يحضّرون الأشربة للتداوي بدستور الطب، كما أرشد الصيادلة (العطارين) باستعمال (عقاقير دستور ابن البيان، أو ابن التلميذ)[9]، أي أن القاهرة توقفت عند هؤلاء الكتاب السابقين بحسب ظاهر كلام ابن الأخوة، وربما كانت هذه هي اتجاهاته وقناعاته ولا تعكس الواقع كما كان؛ لكن ندرة المؤلفات فيها يوحي بأن

---

[1] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص١٠٣؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٣٣.

[2] ابن حجر، رفع الإصر، ص٣٧٩- ٣٨٠؛ وابن العماد، شذرات الذهب، ج٨ ص٤٧٧.

[3] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٧٩- ٨٠.

[4] المصدر السابق، ج١ ص١٥٩؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٤٩٧.

[5] ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٣ ص٢٤٤.

٦ بلغت ١١٠ أرطال كما في إنباء الغمر، ج٢ ص٧٥، وقيل ٢١٨ رطلا كما عند المقريزي، درر العقود الفريدة، ج٢ ص٤٧٩.

[7] أبو خليل، الحضارة العربية الإسلامية، ص٥٢٠.

[8] ففيه وضع ابن البيطار كتاب (الجامع في الأدوية المفردة والأغذية)، وقد ضمنه شرحاً وافياً لـ ١٤٠٠ دواء ما بين معدني ونباتي وحيواني رتبها على حروف المعجم لم يسبقه إليه أحد، وله كتاب أخر في الصيدلة، وهو كتاب (المغني في الأدوية) يتناول فيه الأدوية الخاصة بعلاج الأعضاء البشرية عضواً عضواً. كما ألف أبو المنى داوود بن أبي نصر المصري الإسرائيلي المعروف بالكوهين العطار (منهاج الدكان ودستور الأعيان في تراكيب الأدوية النافعة للأبدان) فرغ منه سنة ٦٥٨هـ، وقد أراد أن يكون أوسع من الدستور البيمارستاني، وتضمّن نصائح قيمة لمن يمارس الصيدلة مع قائمة بالأدوية المفردة مرتبة معجمياً ومجموعة مختارة من الأقراباذينات المستخدمة في زمانه. أحمد، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ص٣١٣-٣١٤؛ والبغدادي، هدية العارفين، مج١ ص٣٦٠.

[9] ابن الأخوة، معالم القربة، ق ٧٧/أ ، ٧٨/ب. وابن التلميذ هو أمين الدولة ابن التلميذ (ت٥٦٠هـ/١١٦٤م) وضع أقراباذينا، عمل به الصيادلة، ثم وضع الشيخ السديد داوود بن أبي البيان المصري (ت٦٣٦هـ/١٢٣٨م) أقراباذينه المعروف بـ(الدستور البيمارستاني)، اقتصر فيه على الأدوية المركبة المستعملة والمتداولة في بيمارستان مصر والشام والعراق، وكان خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة. أحمد، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ص٢١١، ٢١٢، ٢١٣.

كلامه معبر عن الواقع.

ويترجح أن جميع الأطباء السابقين كانوا على معرفة بالصيدلة وتحضير العقاقير، كما تقدم أن بعضهم كان قد عالج بكمية كبيرة من الأرطال.

وممن عُرِفوا بالمعرفة في العقاقير سنقر الرومي المستأمن (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م) الذي قدم رسولاً في أيام الناصر وأسلم وأُعْطِيَ رتبة عسكرية، وكان عارفاً بعلم بالنبات أيضاً[١].

ومن صيادلة القاهرة العطار سعيد بن منصور الحراني الأصل ثم المصري (ت٧٢٩هـ/١٣٢٨م)، وكان أديباً أيضاً ويلقب بـ(أفلاطون)[٢]، ومنهم رشيد الدين عبدالله بن علي المخزومي المكي الأصل المعروف بابن الكبلج (ت٧٧٧هـ/١٣٧٥م) وكان طبيباً أيضاً[٣]، وجمال الدين يوسف بن محمد بن عبدالرحمن المصري (ت٧٨٥هـ/١٣٨٣م)[٤].

وبهذا تتبين الصورة الضعيفة التي كانت عليها الصيدلة القاهرة.

٣- علم الكيمياء

يعرّف علم الكيمياء اليوم بأنه الذي يهتم بدراسة المادة وتركيبها وخواصها والتغيرات المختلفة التي تطرأ عليها عند حدود التفاعلات مع المواد الأخرى، أو عند حدوث تغيرات في الطاقة[٥]، بينما عرّفه ابن خلدون[٦] في مدة الدراسة بأنه علم ينظر في المادة التي يتم بها تكوين الذهب والفضة بالصناعة، وفي مفتاح السعادة[٧]: هو علم يراد به به سلب الجواهر المعدنية خواصها، وإفادتها خواصاً لم تكن لها. ولا فرق بين تعريف مفتاح السعادة وابن خلدون بل تعريف ابن خلدون بمثابة مثال توضيحي لتعريف مفتاح السعادة، بينما لا نجد في التعريف الحديث ما يفيد سلب الخواص عن المعادن أو إعطاءها خواص أخرى.

يشير تعريف ابن خلدون إلى الثقافة السائدة بإمكانية تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب، وقد روّجت هذه الشائعة العلمية لعلم الكيمياء بقدر ما أساءت إليه[٨]، حيث مثّلت جانباً من الحماس العلمي للدفع به ليكون ظاهرة علمية تخضع تخضع للتجربة العلمية أدّت إلى تقدمه وتطوره.

في القرن الثامن الهجري تعرّض علم الكيمياء لحملة شعواء من قبل بعض رجال الدين، ومن ذلك رسالة العلامة الحنبلي ابن تيمية في إبطالها وتحريمها حتى لو صحت وراجت، ليس لأنها خرافة، ولكن لأنها تزوير للذهب المطبوع بالذهب المصنوع[٩]، وصوَّر هو ذاته في مقام التشفي من الكيميائيين مدى الخوف الذي أصاب أحدهم[١٠]، وفخر بأنه استطاع إقناع أحد الولاة بتغريق كتب كثيرة من كتب الكيمياء[١١]، غير أنه كان هناك من علماء القاهرة من كان مغرى بها، ومنهم الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد[١٢]، وردَّ بعضهم على ابن تيميه في ذلك[١٣]. ويترجح أن

١ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص١٧٦.
٢ المصدر السابق، ج٢ ص١٣٦-١٣٧.
٣ المصدر السابق، ج٢ ص٢٧٥.
٤ ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٢٨٧.
٥ الحدابي، داود عبدالملك وآخرون، الكيمياء للصف الأول الثانوي، الطبعة الأولى التجريبية للعام الدراسي ١٤٢٣-١٤٢٤هـ /٢٠٠٢م-٢٠٠٣م، صنعاء، وزارة وزارة التربية والتعليم، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م، ص١٠.
٦ المقدمة، ص٧١٩، ٧٢٠.
٧ طاش كبري زادة، مفتاح السعادة، ج١ص٣١٧.
٨ حبش، المسلمون وعلوم الحضارة، ص ٤١.
٩ ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم الحراني، (ت٧٢٨هـ)، مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية، جمع ترتيب عبدالرحمن الحنبلي، ط١، الرياض، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، ج٢٩ ص ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧٢، ٣٨٧.
١٠ المصدر السابق، ج٢٩ ص٣٧٠، ٣٧١.
١١ المصدر السابق، ج٢٩ ص ٣٧٨.
١٢ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٤ ص١٤٤؛ وطاش كبري زادة، مفتاح السعادة، ج١ ص٣١٧.
١٣ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣٧٥، ٣٧٦.

الصواب جانب المثبتين للكيمياء الخرافية، ولكنه أيضاً جانب المحرّمين لقراءتها بتاتا، لا سيما الذين تكلفوا حتى إغراق كتبها؛ إذ لو أن الإنسانية سلكت سبيلهم لحرمت من تلك الإنجازات التي وصلتها المسيرة الحضارية في هذا العلم، بعد تطهره من الخرافة باستخدام المناهج التجريبية.

هذا العرض للوضع الكيميائي المقموع يفسر تجاهل المصادر التاريخية، ومنها كتب ابن حجر التاريخية أي إشارة إلى أعظم كيميائي في مدينة القاهرة في القرن الثامن، وهو الكيميائي الجلدكي[١]، والذي لولا ما خلفه من ثروة علمية توزعت بين مكتبات العالم ومتاحفه لما عرفنا عنه شيئاً، فلا نكاد نجد ذكرا أو ترجمة في كتب التراجم لهؤلاء العلماء ويُشكلّ إغفالُهم إدانة ضمنية لعملهم ومجالهم العلمي، ومع ذلك فقد تولت آثارهم في كتب البيبلوجرافيا التعريف بهم؛ كحال الجلدكي أبرز علماء القاهرة في الكيمياء والذي جهله ابن حجر أو أغفله، لكن مؤلفاته ملأت كتاب كشف الظنون مثلاً[٢]، وقد طبع بعضها[٣].

يترجح أن اسمه أيدمر بن علي الجلدكي[٤]، كما يترجح أنه توفي سنة٧٦٢هـ/١٣٦٠م[٥].

أثنى عليه كثير من علماء الكيمياء الحديثة، ومنهم (م. الميان جينما)[٦]، ووصفه هولميارد بكونه موسوعياً وبمعرفته العميقة لأدب الكيمياء الإسلامي، وأن جهوده استوعبت شيئاً كثيراً في جمع الكتب الكيميائية وشرحها، وأنه أنجز أعمالاً تجريبية بنفسه، وأن كتبه مستودعاتٌ غنية للمعلومات عن الكيمياء الإسلامية، وأنه كان حيّ الضمير موثوق الرواية في ما ينقله[٧]. وتدل إنجازاته الكثيرة على تميزه العلمي ومن أهمها أنه:

-توصّل إلى قانون النسب الثابتة في الاتحاد الكيميائي وقرّر بذلك أن المواد لا تتفاعل إلا بأوزان متعددة ومحددة، وهو إبداع لم يسبقه أحد إليه. - وتوصّل إلى فصل الذهب عن الفضة باستخدام حمض النتريك الذي يذيب الفضة تاركاً الذهب الخالص، وهذه الطريقة ماتزال تستعمل إلى يومنا هذا. - وهو أول من أبدع فكرة استخدامات الكمامات في مخابر الكيمياء لاتقاء خطر استنشاق الغازات الناتجة عن التفاعلات الكيميائية. - وطوّر طريقة التقطير. - وهو أول من قال: إن المادة تعطي لوناً خاصاً بها عند احتراقها. - وقدّم بعض التحسينات على طريقة صناعة الصابون آنذاك، وذلك بإضافة المواد الكيميائية التي تقلّل من مفعول الصودا الكاوية التي تحرق الغسيل[٨].

ومن أبرز كشوفاته الكيميائية قانونه الشهير الذي حدّد فيه الأوزان الثابتة في تفاعل المواد، وقد نسب هذا الكشف فيما بعد إلى العالم الأوربي (براوست)؛ الأمر الذي جعل الكيميائي الأمريكي (برنارد جافي) يكشف هذا السبق

---

١ الجلدكي نسبة إلى (جلدك) قرية من قرى خراسان على فرسخين من مشهد الإمام الرضا علي بن موسى. الطائي: فاضل أحمد، أعلام العرب في الكيمياء، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، وبغداد، دار الشؤون الثقافية، ١٩٨٦م، ص٣٥٨.

٢ منها كتاب (أنوار الدرر في إيضاح الحجر)، و(البدر المنير في خواص الإكسير) أو (البدر المنير في ينبوع الإكسير) ألّفه في دمشق، و(البرهان في أسرار علم الميزان) شرح فيه كتاب بليناس، و(كتب الموازين)، و(بغية الخبير في قانون طلب الإكسير)، ثم صنف (الشمس المنير في تحقيق الإكسير)، ثم (نهاية المطلب)، وهذه الثلاثة وضعها في دمشق، و(التقريب في أسرار التركيب)، و(الدرة المضية في شرح مخمس الماء الورقي والأرض النجمية)، و(الدرر في إيضاح الحجر) ألفها بالإسكندرية، و(شرح الرحمة في الكيمياء)، و(السر المصون شرح رسالة بيون) البرهمي المسماة (الإكسير)، وصنفه في القاهرة سنة٧٤٤هـ، و(غاية السرور) شرح تخميس شذور الذهب في الإكسير لأبي الحسن علي بن موسى الأندلسي (ت٥٠٠هـ) ألّفه بمدينة القاهرة سنة٧٤٢هـ، و(شمس المنير في تحقيق الإكسير) صنفه بالقاهرة أيضاً، و(شرح الصحيفة العظمى في الإكسير) لهرمس، و(القانون الكبير في صبغ الإكسير) ألفه بدمشق، و(الدر المكنون شرح رسالة ذي النون) في الصنعة (الكيمياء)، وضعها بالقاهرة سنة٧٤٢هـ، وشرح قصيد عبدالعزيز بن تمام سماها (كشف الأسرار للأفهام)، و(كنز الاختصاص ودرة الغواص في معرفة الخواص) صنفه بدمشق، و(لوامع الأفكار) صنفه بدمشق، و(مدخل التدبير وعنوان الإكسير) ألفه بصفد، و(المصباح في علم المفتاح)، و(نهاية الطلب شرح المكتسب في زراعة الذهب)، وهو شرح كتاب أبي القاسم العراقي آنف الذكر، و(نتائج الفكر في أحوال الحجر). حاجي خليفة، كشف الظنون، مج١ ص ١٩٤، ٢٣٠، ٢٤١، ٢٤٨، ٤٦٥، ٧٤٣، ٧٥١،٨٣٦، ٨٥٢، مج٢ ص٩٨٩، ١٠٢٩، ١٠٦٢، ١٠٧٦، ١٣١٤، ١٣٣٨، ١٣٤١، ١٥١٢، ١٥٦٨، ١٧٠٧، ١٨١١، ١٩٢٤، وذكر بعضاً منها في مقدمة كتابه المخطوط (المصباح في علم المفتاح)، بومباي، ١٣٠٢هـ، ص٣، ٤-خ-.

٣ الزركلي، الأعلام، ج٥ ص٥.

٤ لأكثرية وروده هكذا في كشف الظنون، كما ورد هكذا في النسخة المخطوطة من كتاب المصباح التي في متناول الباحث.

٥ ورد في كشف الظنون، مج٢ ص٩٨٩، ١٥١٢، أنه صنف بعض مصنفاته سنة٧٤٢هـ، و٧٤٤هـ، كما ورد فيه أنه توفي سنة ٧٦٢هـ، ولعله بتنصيصه على ذلك يترجح الأخذ به.

٦ الدفاع: علي عبدالله، علامة الكيمياء الجلدكي، مجلة البحوث الإسلامية، الرياض، الهيئة العلمية للبحوث والإفتاء، العدد ٦، سنة ١٤٠٢هـ، ص ٢١٨.

٧ Holmyard: Eric John, Makers of Chemistry, Braitain, Oxford at the Clawendon Press, 1931, p81- 82.

٨ النهار، العصر المفترى عليه، ص٤٨٧-٤٨٩، نقلاً عن مصادر ومراجع عديدة.

للجلدكي واصفاً إياه بأنه (كيميائي قاهري قديم)[١].

ورغم اتهام بعض الكيميائين له بأنه لم يكن يمثل عقلاً خلاقا، وهو اتهام داحض، يرده ما سبق له من إنجازات، على أنه قد اعتُرِف له بمأثرة جمع عدد ضخم من كتابات أسلافه في أعماله العديدة، حيث مثلا يشكل مؤلفه (نهاية الطلب) شرحاً ضخماً مليئاً بنصوص كُتَّاب قدامى[٢]، وهو أمر يشير إلى كونه ابن زمنه وجيله الذي كان يمثل القرن الثامن السلة الضخمة للجهود العلمية السابقة، وهناك نوع من الإجماع على أن كتبه عبارة عن موسوعات علمية تحتوي على معلومات نابغة وثمينة في علم الكيمياء للعلماء الكيميائيين المسلمين وغيرهم[٣].

وكان الأمير بدر الدين بكتوت القرماني (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م) مغرى بالكيمياء، وقد مارسها حتى وهو تحت الاعتقال[٤]، واعتنى عناية بالغة رئيس الظاهرية بالقاهرة علي بن إبراهيم الأنصاري الأوسي (٧٧٧هـ/١٣٧٥م)، وكتب بخطه منها شيئاً كثيراً[٥]. واشتهر بحلب الشريف إبراهيم بن عبدالله الخلاطي (ت٧٩٩هـ/١٣٩٦م) بالطب ونسب إليه عمل الكيمياء، فاستحضره الظاهر برقوق وعظّمه أرباب الدولة، والمشهور أنه كان ينفذ تحضير اللازورد، ولما مات ظهرت في تركته بعض آلات الكيمياء[٦].

وأفنى إمام الجامع الطيبرسي محمد بن علي الطيبرسي (ت٨٠٠هـ/١٣٩٧م) عمره في صناعة الكيمياء ولم يحصل على طائل[٧]، كما أن إمام السلطان ناصر الدين الطناحي (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م) تعاناها وأفسد ماله فيها[٨]، ومواقع هؤلاء في الدولة يشير إلى توجُّهٍ بالانفتاح على أهل هذا العلم.

وأول ذكر لمسحوق البارود في كتب العرب والمسلمين في كتاب ابن البيطار، عبد الله بن أحمد (ت٦٤٦هـ/١٢٤٨م)، (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية)، وذكر أن أطباء مصر يسمونه (ثلج الصين)[٩]، ووجد في في بعض المصادر ذكر البارود فقد ورد لدى ابن فضل الله العمري (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م) والمقريزي (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م)، في أحداث سنة٧٢٧هـ/١٣٢٦م، والصفدي (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م) والقلقشندي (ت٨٢١هـ/١٤١٨)[١٠]؛ وهذا يثبت معرفة علماء العرب القاهريين له في وقت مبكر سبقوا به سواهم.

وبهذا يتبين أن جهوداً علمية جيدة بذلت في علم الكيمياء، وهي وإن كان من مقاصدها تحصيل المعادن الكريمة من الخسيسة إلا أنها أثمرت وأدّت إلى إنجازات علمية مهمة أخذت القاهرة وذلك العصر حظّهما من العلوم، ولم يكن ذلك العصر عصراً مظلماً بالنسبة للكيمياء.

ومن العلوم التي عرفت آنذاك علم السيمياء، وهو علم السحر والطلسمات، وممن له معرفة به قطب الدين محمد بن أبي الثناء بن ماضي الملقب الهرماس (ت٧٦٩هـ/١٣٦٧م)[١١]، واعتنى به أيضا شيخ الظاهرية بالقاهرة أبو

---

١ حبش، المسلمون وعلوم الحضارة، ص٤٣؛ والنهار، العصر المفترى عليه، ص٤٨٩.

٢ قنواتي: جورج، الخيمياء العربية، مقالة ضمن موسوعة تاريخ العلوم العربية، إشراف رشدي راشد، ط٢، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥م، ج٣ ص١١١٦-١١١٧.

٣ الدفاع، علامة الكيمياء الجلدكي، ص٢٣؛ و الشكيل: علي جمعان، الكيمياء في الحضارة الإسلامية القاهرة، دار الشروق، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، ص٩٠- ٩١. ٩١.

٤ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٤٩٠؛ والصفدي، أعيان العصر، ج١ ص٧١٦-٧١٧.

٥ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٥؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٤٥.

٦ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٣٢؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٥٣١.

٧ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٣٠.

٨ المصدر السابق، ج٢ ص٢٥٣.

٩ ابن البيطار: عبد الله بن أحمد، (ت٦٤٦هـ)، الجامع لمفردات الأغذية والأدوية، مخطوط مصور بخط جيد، بدون بيانات، ويوجد في مكتبة المصطفى الإلكترونية على النت، ج١ ص١٥١، ج٢ ص١٢؛ والنهار، العصر المفترى عليه، ص٤٩٣.

١٠ العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص٢٠٨؛ والمقريزي، السلوك، ج٣ ص١٠١؛ والصفدي، أعيان العصر، ج١ ص٦٣٠؛ والقلقشندي، صبح الأعشى، ج٢ ص١٥٣.

١١ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٤١٢-٤١٣.

الحسن علي بن إبراهيم الأوسي (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م)[١].

وهو من العلوم التي لا شك أنها لها ضررا بالغا على المجتمع وتصيبه بالشلل والاتكالية وهو مظهر شر لا مظهر خير في حياة القاهرة العلمية، ولكن لارتباطه بالكيمياء التي علق بها شيء من الخرافة ناسب ذكره هنا.

٤- علم الجواهر (المعادن والأحجار الكريمة)

هو علم يبحث عن كيفية الجواهر المعدنية البرية والبحرية، ومعرفة جيدها من رديئها بعلامات تختص بكل نوع منها، ومعرفة خواص كل منها، وغايته[٢]. وقد أدى تهافت السلاطين والأمراء المماليك على ادخار الأحجار الكريمة كما تدل عليه أخبارهم إلى الاهتمام بها؛ الأمر الذي استدعى حضور الخبراء بها.

في القرن الثامن الهجري كان ابن الأكفاني الطبيب له معرفة بالجواهر، حيث ألف (نخب الذخائر في معرفة الجواهر)[٣]، وكان غرضه "تلخيص كلام الأقدمين والمتأخرين.... في ذكر الجواهر النفيسة بأصنافها وصفاتها ومعادنها المعروفة وقيمتها،.. وخواصها ومنافعها"، وأتى على ذكر (١٤) جوهراً ودرسها دراسة وافية، ونقل معلوماته عن من سبقه[٤]، وبذلك يتبين أنه كان ناقلاً للمعلومة وحافظاً لها.

وتحدث ابن فضل الله العمري (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م) في موسوعة (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) عن المعادن والأحجار، وخصص لذلك جزءا بأكمله، وقسمه إلى مقدمة وثلاثة أنواع وخاتمة، وتحدث في الفرع الأول عن الفلزات، وفي الثاني عن الأحجار، وفي الثالث عن الأجسام الدهنية[٥].

وكما اهتم الجلدكي (ت٧٦٢هـ/١٣٦٠م) بالكيمياء اهتم أيضاً بمعرفة أنواع المعادن، وألف في ذلك عدة كتب وهي (درة الغواص وكنز الاختصاص في معرفة أسرار علم الخواص)، وذكر فيه الأجرام السماوية وما على الأرض من نبات وحيوان ومعادن، وله أيضا (أنواع الدرر في إيضاح الحجر)، و(نتائج الفكر في الفحص عن أحوال الحجر) و(البرهان وأسرار علم الميزان)، واشتمل هذا الأخير على كتاب الأسرب (الرصاص)، وكتاب الحديد، وكتاب الذهب[٦].

وبهذا يظهر أن القاهرة في قرنها الثامن الهجري لم تُخْلِ ساحتها من كتابة في هذا العلم، وإن كانت كما يظهر مجرد ناقلة للمعلومة وحافظة لها.

٥- علوم الأحياء

بحث المسلمون علوم الأحياء في فروع عديدة، منها علم الطب، وعلم البيطرة ويراد به طب الحيوان، وعلم البيزرة ويراد به طب الطيور، وعلم الحيوان، وعلم النبات، وعلم الزراعة والفلاحة[٧]. وسبق الحديث عن الطب البشري، وسأجمل ما بقي في فرعين؛ هما: علم الحيون، وعلم النبات.

---

١ المصدر السابق، ج٣ ص٥.
٢ حاجي خليفة، كشف الظنون، مج١ ص٦١١.
٣ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٢٨٠.
٤ حمارنة، ابن الاكفاني ومؤلفاته، ص٢٠٣.
٥ العمري، مسالك الأبصار، ج٢٢ ص٩٧- ٢٤٠.
٦ حاجي خليفة، كشف الظنون، مج١ ص٧٤٢، ١٩٤، ٢٤١، مج٢ ص١٩٢٤؛ والنهار، العصر المفترى عليه، ص٤٩٧.
٧ حبش، المسلمون وعلوم الحضارة، ص٣٦.

أ- علم الحيوان

ألف الطبيب جمال الدين عثمان بن أحمد بن عثمان ابن أبي الحوافر (ت٧٠١هـ/١٣٠١م)[١] كتاب (بدائع الأكوان في منافع الحيوان)[٢]، وألف الحافظ عبدالمؤمن بن خلف الدمياطي (ت٧٠٥هـ/١٣٠٥م) في القاهرة، كتاباً في الخيل[٣]، الخيل[٣]، وهو المعروف بـ(فضل الخيل) اشتمل على أجناسها، وأوصافها، ومحاسنها، وفضائلها[٤]، ولكنه كان على طريقة المحدثين، ويبحث عنها في مروياتهم[٥]. وكتب بدر الدين بكتوت الرماح (ت٧١١هـ/١٣١١م) كتابه (الفروسية (الفروسية وعلاج الخيل)[٦].

وهناك أبو بكر عبدالله بن المنذر، بدر الدين البيطار (كان حياً٧٤١هـ/١٣٤٠م) ألف كتاب (كاشف الويل في أمراض الخيل) المعروف بـ(كامل الصناعتين البيطرة والزرطقة)، وقد ألفه للناصر محمد بن قلاوون وكان أحد بياطرته، والبيطرة هي النظر في أحوال الخيل، والزرطقة عبارة عن تربية الخيل وتعليمها والعناية بسائر لوازمها، وقد أودع في كتابه هذا خبراته وخبرات والده في مصر والشام[٧]، وتحدث فيه عن فضائل الخيل وأنسابها وألوانها وأعمارها وأخلاقها وعاداتها وأعلافها وكسوتها وتربيتها وأمراضها وكل ما يتعلق بها، مع بعض الأبواب في الفلاحة، ويتألف الكتاب من عشر مقالات مطولة ومبوبة[٨].

وألف صلاح الدين الصفدي رسالة بعنوان (جر الذيل في أوصاف الخيل)[٩]، وهناك محمد بن منكلي الخبير العسكري المملوكي[١٠]، الذي كتب (أنس الملا بوحش الفلا)[١١]، تحدّث فيه عن الحيوانات، وخصص أبواباً لما يحل وما يحرم من الصيد، وآداب القانص، وباباً لصيد السمك بالشبكة، وباباً في كيفية قتل الحيوانات المؤذية وزجرها بضروب من الحيل[١٢] .

واختصر الشيخ سراج الدين البلقيني (ت٨٠٥هـ/١٤٠٢م) كتاب الحافظ الدمياطي (فضل الخيل)، وأضاف إليه أشياء ورتبه ليسهل التعاطي معه تحت عنوان (قطر السيل في أمر الخيل) وجعله في فصول سبعة؛ هي الأول: في ارتباطها وأسمائها وألوانها المستحبة، وصفاتها وما يكره من شياتها، والثاني: في فضل ما اتخذ للجهاد منه. والثالث في محبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لها، والرابع في التماس نسلها ونمائها والمواضع التي يختار فيها الإناث أو الذكور في الجهاد، وفضل إطراقها، والخامس: في النهي عن قطعها وخصائها، وجز نواصيها وأذنابها، وإهانتها، وتعذيبها، وهل تؤكل أم لا[١٣]، وهو بهذا يبين أنه يتناول الجانب العلمي من زاوية فقهية، ولا أهمية للكتاب سوى كونه نقل من كتب لم تصل إلينا[١٤].

---

١ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٤٣٦.
٢ مخطوط في مكتبة شستربتي تحت رقم٤٣٥٢؛ والزركلي، الأعلام، ج٤ ص٢٠٢.
٣ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٤١٧.
٤ النهار، العصر المفترى عليه، ص٥٠٣، نقلاً عن كتاب فضل الخيل، تحقيق محمد البادي، أطروحة ماجستير، بيروت، الجامعة اللبنانية ١٩٨٨م.
٥حاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ص١٢٧٩.
٦ موجودة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٤ فنون حربية.
٧ حاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ص١٣٨٠،١٣٦٨-١٣٨١، ومنه نسخ ميكروفيلم في مكتبة مخطوطات جامعة الكويت تحت أرقام ٣٨٢، ٣٦٨٠، ٢٣٧٧، ٢٣٧٧، ٤٦٣١، موقع فهرس مكتبة المخطوطات على النت.
٨ النهار، العصر المفترى عليه، ص٥٠٤، نقلاً عن البيطار: كاشف هم الويل في معرفة أمراض الخيل، ت. عبدالرحمن الدقاق، بيروت، دار النفائس، ط١، ١٩٩١م (الفهرس).
٩ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٥ ص٢٤٣.
١٠ نقيب الجيوش، كتب في العلوم العسكرية عددا من المؤلفات. حاجي خليفة، كشف الظنون، مج١ ص٣٨٢، مج٢ ص١٨٨٥؛ والبغدادي، هدية العارفين، مج٢ ص١٧٢، ١٧٨.
١١ البغدادي، إيضاح المكنون، ج١ ص١٣٣.
١٢ النهار، العصر المفترى عليه، ص٥٠٤- ٥٠٥، نقلاً عن ابن منكلي: أنس الملا، تحقيق محمد عيسى صالحية، عمان، الأردن، دار البشير، ط١، ١٩٩٣، وانظر بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج٦ ص٥٦٢، ٥٦٣.
١٣ البلقيني: سراج الدين عمر بن رسلان، (ت٨٠٥هـ)، قطر السيل في أمر الخيل، ت. حاتم الضامن، ط ٢، دمشق، دار البشائر، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م، ص٣٠-٣٢.
١٤ البلقيني، قطر السيل، مقدمة المحقق ص١٧.

وأبرز عمل علمي آنذاك هو كتاب حياة الحيوان الكبرى لكمال الدين محمد بن عيسى بن علي الدميري (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م) الذي ولد وعاش وتوفي في القاهرة، وتلقى العلوم فيها، وبرز في التفسير والفقه والأدب والحديث، وشارك في الفنون، ودرّس الحديث بقبة بيبرس، وكان عابداً ورعاً، وكان يتكسب أولاً بالخياطة، وعقد بالأزهر حلقة أسبوعيا، وكان يعظ الناس بمدرسة ابن البقري وبجامع الظاهر بالحسينية يوم الجمعة[١].

يقول السخاوي[٢] عن كتابه: "وله فيه زيادات لا توجد في جميع النسخ وأتوهم أن فيها ما هو مدخول لغيره إن لم تكن جميعها لما فيها من المناكير"، ولعله خفي عليه أن له كتابين هو الصغرى والكبرى[٣]، ورغم أن شيخه ابن حجر حجر أثنى عليه، وذكر تلك الزيادات بأنها استطرادات من المؤلف، فقال: "أجاده وأكثر فوائده مع كثرة استطراده من شيء إلى شيء"[٤]، ويرُدُّ عليه أيضاً أنه ذكر أن للفاسي محمد بن أحمد (ت٨٣٢هـ/١٤٢٨م) وآخرين أعمالا تتعلق به، ولم ينقل هو ولا غيره عنهم أنهم ظنوا وجود زيادات فيه من غيره، بل اعتبروها استطرادات خارج موضوع الكتاب[٥].

انتهى الدميري من وضع مسودة كتابه هذا سنة٧٧٣هـ[٦]، ويعتبر الكتاب أكبر موسوعة علمية عن الحيوان، حتى ذلك العصر تحدث فيه عن١٠٦٩ كائن حيواني[٧]، وجمع مادته من ٥٦٠ كتاباً، و ١٩٩ ديواناً من دواوين شعراء العرب[٨]، ورتبه حسب حروف المعجم وابتدأ بالأسد لشرفه ومنزلته بينها[٩]، وهو لا يلتزم الدقة في الترتيب، والترتيب والترتيب المعجمي لا يعني لديه الالتزام الدقيق بترتيب الحرف الأول فالثاني فالثالث، وإنما هو على الغالب.

بعثه على تأليفه الغَيْرة على اللحن في أسماء الحيوان[١٠] كما قال، واستجابته لهذا الداعي بتلك الموسوعة العظيمة لا تدل على صدق ما قال تماماً، إذ نشهد جهودا تشير إلى أن عصر الموسوعات وتجميع المعلومات يظهر هنا في كتاب الدميري أيضاً. لقد كان القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي بمثابة السلة التجميعية لكل المعارف الماضية التي جمعت الغث والسمين في إطار واحد.

يذكر الدميري في كل حيوان سواء كان طيراً أو سمكاً أو حشرة أو زاحفة وَصْفَه وسلوكَه وموطنه وما قيل بصدده من أحاديث نبوية، وأدب، وشعر، ونوادر، وحكم فقهي فيما يجوز أكله وما لا يجوز، والأدوية المستخرجة منه، وتعبير الرؤى التي تتعلق به مع حرصه الشديد على الاستشهاد والنقل عن من سبقه. وقد امتدت مصادره حتى أرسطو[١١].

ويتضح اليوم بعد أن خطى العلم خطوات جبارة أنه يمتلئ بالأوهام والأساطير التي هي ثقافة عصره وبالاستطراد الكثير، غير أن نقاطاً ثلاثا تجعل منه عملاً متقدماً في عصره على ما سواه من الأعمال وهي:

١-استيعابه الواسع لمصادر كثيرة سبقته تمتد إلى أرسطو.

٢- رسمه صورةً معبِّرة لعلم الحيوان في أذهان العلماء العرب والمسلمين والتي يجب توظيفها في سياق المسيرة العالمية الحضارية.

---

١ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٣٤٨؛ والمجمع المؤسس، مج٢ ص٣٤٠-٣٤١؛ والسخاوي، الضوء اللامع، ج١٠ ص٥٩-٦٠.

٢ الضوء اللامع، ج١٠ ص٦٠.

٣ الغزي: محمد بن عبدالرحمن، (ت١١٦٧هـ)، ديوان الإسلام، ت. سيد كسروي حسن، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية،١٤١١هـ -١٩٩٠م، ج٢ ص٢٩٠؛ والقنوجي، أبجد العلوم، ج٢ ص٢٦٠.

٤ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٣٤٨؛ والمجمع المؤسس، مج٣ ص٣٤٠.

٥ حاجي خليفة، كشف الظنون، مج١ ص٦٩٦.

٦ الدميري: كمال الدين محمد بن عيسى، (ت٨٠٨هـ)، حياة الحيوان الكبرى، ت. إبراهيم صالح، ط١، دمشق، دار البشائر، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، ج٤ ص٢٤٩. ص٢٤٩.

٧ محجوب: فاطمة، الموسوعة الذهبية، القاهرة، دار الغد العربي، ج١٥ ص١١٥.

٨ حاجي خليفة، كشف الظنون، مج١ ص٦٩٦؛ وسركيس، معجم المطبوعات، ج١ ص٨٨٨.

٩ الدميري، حياة الحيوان الكبرى، ج١ ص٣٧، ٣٨.

١٠ أحمد، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ص٢٥٩.

١١ حياة الحيوان الكبرى، ج١ ص٣٥- ٣٦.

٣- يلمس فيه الباحث لأول مرة المنهج التجريبي الذي يعتمد المشاهدة والملاحظة المباشرة والمقارنة منهجاً للحكم وهو ما أسس فيما بعد لمنهج علمي ذهب بالعلم حيث وصل اليوم.

٤- تسجيله لمعلومات دقيقة من مشاهدة ومقارنة وتأمل، جاء العلم الحديث ليؤكدها مثل إنكاره وجود الغول، والعنقاء، وبنوة الورل للتمساح، وكون الخفاش من الطيور مع التعليل والتسبيب، والقول بأن الجراد له ستة أرجل، ووصفه لدورة دودة القز حتى إنتاجه، وفرس البحر[١]، والأهم من ذلك كله أنه أشار بوضوح لعلاقة التكافل والتعايش والتعايش والمودة بين الحيوانات[٢] التي يُنْسَبُ اكتشافها إلى العالم الألماني جيته[٣].

خصص أصحاب الموسوعات حيِّزاً جيداً للحديث عن الحيوان؛ فتحدث الوطواط (ت٧١٨هـ/١٣١٨م) في موسوعة (مباهج الفكر) عن طبائع ذي الناب، والظفر، وفي طبائع الحيوان الوحشي والأهلي، والحشرات، والهوام، وسباع الطير وكلابها والطير الليلي، وحيوان البحر[٤]. وتحدث النويري في جزئين من كتابه (نهاية الأرب) عن أسماء الحيوان وأصناف كل من الأسد، والنمر، والفهد، والكلب، والذئب، والضبع، والنمس، وأصناف الحيوان الوحشي والأهلي، وعن ذوات السموم، وسباع الطير، وبهائمه والهمج كالنمل والعنكبوت والجراد والذباب[٥].

وكذلك تحدث العمري في جزء من موسوعة (مسالك الأبصار)[٦]، وجعل حديثه في أربعة أقسام عن الدواب، والطير، والهوام والحشرات، وحيوان الماء، وكذلك في كتابه (التعريف بالمصطلح الشريف) في الفصل الثاني عن أقسام الحيوان المختلفة[٧].

وبهذا العرض يتضح أن علماء القاهرة كتب منهم ٩ فقط في علوم الحيوان، وبلغ عدد أعمالهم ١٠ أعمال، ٦٠% منها تتعلق بالخيل، وهو أمر له دلالته في ظل حكم عسكري من أهم آلاته الخيل، وبلغ العلم إبداعه وذروته عند الدميري في حياة الحيوان الكبرى الذي يعتبر شاهد عصره الموسوعي المستوعب للجهود العلمية السابقة.

ب- علم النبات

ضمّن ابن منظور كتابه اللغوي (لسان العرب) جميع ما صنف في النبات في كتب الأقدمين[٨]، وهو معجم موسوعة، جمع فيه مؤلفه أكثر من ٨٠ ألف مادة، ولاستيعابه الشامل للمفردات النباتية جمعت باحثة[٩] معجماً نباتيا يتكون من ٣٢٠ صفحة تقريباً للأشجار والنباتات التي وردت فيه؛ أملاً في حل مشكلة "تسمية النباتات والأشجار عند العرب، التي بدأت تحل محل أسمائها العربية أسماء أجنبية، وبدأت أسماؤها العربية تندثر بين تراب التعريب المتعدد الألوان". كما أسهم أيضاً -كما تقدم- في ميدان الصيدلة باختصار كتاب (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية) لابن البيطار[١٠] وكان أحد مصادره في كتابه (لسان العرب)[١١].

والمفترض أن الأطباء والصيادلة في القاهرة كانوا على معرفة جيّدة بالنباتات وفوائدها الطبية، ومنهم إبراهيم بن أبي الوحش بن أبي حليقة (ت٧٠٨هـ/١٣٠٨م) الذي أبدع في تركيبه لشراب الورد الطري، وابن الأكفاني (ت٧٤٥هـ) الذي تميز في العلاج، وأمر أن لا يدخل عقار إلى المستشفى المنصوري إلا بعد عرضه عليه، وألف (غنية اللبيب عند غيبة الطبيب)، الذي يترجَّح أنه تناول فيه الأدوية المنزلية، التي عادة ما يكون فيها أعشاب،

---

١ المصدر السابق، ج١ ص٦١١، ج٢ ص٢٣٠، ٣٧٣، ج٣ ص٢٢٥، ٣٣٠، ٤٠٧، ج٤ ص٢٠٠.
٢ حياة الحيوان الكبرى، ج١ ص٥٣٧، ٧٠٥، ج٢ ص٢٦، ٧٠٥.
٣ النهار، العصر المفترى عليه، ص٥٠٦.
٤ المرجع السابق، ص٥٠٦، نقلاً عن مباهج الفكر للوطواط ص١٥٥-٥٥٥.
٥ ج٩ ص١٣١- ٢٤٠، وج١٠ كاملا .
٦ ج٢٠ ص٢١- ١٦٨.
٧ التعريف بالمصطلح الشريف ص٢١٧-٢٣١.
٨ الطائي، علم النبات والزراعة، موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، مج١ ص٤١٩.
٩ دياب: كوكب، المعجم المفصل في الأشجار والنباتات في لسان العرب، ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م، بيروت، دار الكتب العلمية، ص٦، ٨.
١٠ النهار، العصر المفترى عليه، ص٤٤٨.
١١ ابن منظور، لسان العرب، ج٣ ص٥٠، ج٦ ص١٠٧.

ومستخلصات نباتية.

وكتب العلامة اليمني الذي كان سائحاً واستقر مدة بالقاهرة عبدالله بن أسعد اليافعي (ت٧٦٨هـ/١٣٦٦م) قصيدة على مقتضى شهور الروم وما يستعمل فيها من غذاء، وما يتجنب من سائر الأشياء فيما يطرأ على أحوال هذه الأشهر من تشرين الأول إلى أيلول من تغير في أحوال الجو والنبات والإنسان وما يؤكل من الفواكه والحبوب والخضار[١].

ويعتبر أحد الباحثين[٢] كتاب (مباهج الفكر) للوطواط (ت٧١٨هـ/١٣١٨م) من أهم الكتب التي بحثت موضوع الزراعة والنبات بعد كتاب (الفلاحة النبطية)[٣].

وتشكل موسوعة النويري (نهاية الأرب) موسوعة نباتية شاملة لمعارف المسلمين، واعتبره البعض أجمع وأضخم كتاب في النبات[٤]، شمل حديثه عن النبات خمسة أقسام؛ الأول: في أصل النبات، والثاني: في الأشجار، والثالث: في الفواكه، والرابع: في الرياض والأزهار، والخامس في أصناف الطيب والبخور وغيرها[٥]. وتحدث العمري (٧٤٩هـ/١٣٤٨م) في موسوعة (مسالك الأبصار) بتفصيل مطول عن النبات والأعشاب واختلاف أشكاله، وفوائده، وتحدث فيه عن حوالي ٢٨٥ مادة منه[٦]. ومن علماء النبات كما تقدم في الصيدلة سنقر الرومي[٧].

ومنهم إبراهيم بن محمد بن بهادر الغزي، المعروف بابن زقاعة (ت٨١٦هـ/١٤١٣م)، ولد سنة ٧٤٥هـ/١٤٤١م، وكان أعجوبة زمانه في معرفة الأعشاب ومنافع النبات، وكان مشاركا في علوم كثيرة، ونال حظوة لدى السلطان برقوق وولده فرج، وكان مثيرا بمعلوماته وبشخصيته الغريبة الأطوار[٨].

ولعلماء الجغرافيا، لا سيما أهل الرحلات منهم على مر العصور مساهمة فاعلة في معطيات (علم النبات) في البلدان التي وصلوا إليها، وأبرز مثال على ذلك (ابن بطوطة) الرحالة المغربي الذي وصل القاهرة وكان له دور علمي فيها، فإنه أيضاً قدّم في رحلته كل ما يراه جيدا وغريبا ومدهشا في حقل النبات[٩].

ومما سبق يتبين أن هناك حوالي ٨ من علماء النبات القاهريين، خلف ستة منهم أعمالا في ذلك، بما فيهم الموسوعيون العمري والنويري، وهو نتاج قليل.

---

١ النهار، العصر المفترى عليه، ص٤٥١، نقلاً عن حميدان المرجع المتقدم، مج٤ ص٥٦.
٢ فهد: توفيق، علم النبات والزراعة، مقالة في موسوعة تاريخ العلوم العربية، إشراف رشدي راشد، ط٢، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥م، ج٣ ص١٧٦.
٣ لابن وحشية أبي بكر أحمد بن علي الكلداني، ويعتبره بعض الباحثين أساس دراسة علم النبات عند العرب. فهد، علم النبات والزراعة، ج٣ ص١٠٣٦.
٤ حبش، المسلمون وعلوم الحضارة، ص٣٨.
٥ النويري، نهاية الأرب، ج١١ (كاملا)، وج١٢ (كاملا).
٦ العمري، مسالك الأبصار، ج٢١ (كاملا)، وج٢٢ ص١٧- ٩٥.
٧ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص١٧٦.
٨ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص١٧؛ والسخاوي، الضوء اللامع، ج١ ص١٣٠- ١٣٢.
٩ فهد، علم النبات والزراعة، ج٣ ص١٠٤٤-١٠٤٥.



الفصل السادس: النتاج العلمي (العلوم الاجتماعية والجغرافية)

- أولا: العلوم الاجتماعية

١- علم التاريخ:

أ- التاريخ العام

ب-تاريخ الأقاليم والدول والمدن

ت-الأعيان

ث-السير

٢- علوم الدولة

٣- علم الأخلاق والتربية

٤- علم الجيش والحرب

٥- علم الموسيقى والغناء

- ثانيا: الجغرافيا

الفصل السادس: النتاج العلمي (العلوم الاجتماعية والجغرافية)

يحدث بين بني الإنسان مجموعةٌ من العلاقات فيما بينهم، ومع أسرهم ومجتمعاتهم وأحبائهم وأعدائهم، لقد لاحظ الإنسان هذه العلاقات، وتطورت وصارت معارفَ يوثّقها، ويُعْنَى بفهمها وصناعتها، ويدرس الأسباب المؤثرة فيها، ومن تلك العلاقات جاء علم التاريخ، وعلوم الدولة، وعلم الأخلاق والتربية، والموسيقى وغير ذلك من العلوم الاجتماعية، ومن المعلوم بالضرورة أنه لا بد لهذا الإنسان من عنصر المكان وهو هذا الكون الذي استخلفه الله عليه، وقد حدّق الإنسان ببصره فيه، وتأمل سماءه وأرضه وليله ونهاره، وتقلّب في أحواله المختلفة؛ الأمر الذي دعاه للتعرف عليه بصورة أقرب فجاء من ذلك علم الجغرافيا.

أولا: العلوم الاجتماعية

أهم تلك العلوم التي ازدهرت في القاهرة هو التاريخ، بل أصبح التاريخ هواية يجتذب كثيرا من العامة والجند، فضلا عن العلماء، وقد بلغ شأوا يستحق الإشادة، ويثير الإعجاب؛ ولهذا كان البدء به.

١- علم التاريخ

في مكان الدراسة وزمانها وُجِد نتاج تاريخي ضخم، توزّع على الاتجاهات التاريخية المختلفة، ووقفت وراءه إلى جانب الأسباب العامة للاهتمام بالتاريخ ما حققه المماليك من انتصارات ضخمة صدّت الجموح المغولي وطردت الصليبيين، وقد حرصوا على تسجيلها طلبا للحصول على الشرعية التي حاولوها من خلال ما يقدمونه من خدمات عسكرية عامة، تعوّضهم ما ظلوا يشعرون به من نقص حادٍّ في الشرعية السياسية والدينية، وكونهم غرباء مرّوا بظروف قاسية ومهينة فأمسكوا بزمام الأمور في العالم الإسلامي، ولعلهم رأوا في تسجيل هذه الخدمات ما يمكن به إلحاق تاريخهم بتاريخ الخلفاء والملوك المسلمين السابقين.

وبشكل عام يجب التنبه إلى ما شاب كثيرا من النتاج التاريخي في العصر المملوكي من ملق الحكام ومحاباتهم والتقرب إليهم، وكتابة التاريخ على أنهم محوره، وأنه كتب كثيرا بلغة المنتصر في الصراعات التاريخية.

أ- التاريخ العام

إن كون المماليك عبيدا وأغرابا وصلوا إلى الحكم في بلد ليس بلدهم كان مدينا لعالمية الإسلام التي صهرت الأعراق والأجناس المختلفة في بوتقة واحدة، لقد كان شعورهم بهذا سببا كما تقدّم في فكرة إحياء الخلافة الإسلامية في القاهرة على أيديهم، ورغم أنها كانت صورية، إلا أنها ظلّت ترمز إلى الشمولية الإسلامية للأجناس المختلفة، ولما كانت القاهرة مستقر العلماء المسلمين من الأقطار الإسلامية المختلفة من المشرق والمغرب والشمال والجنوب؛ فقد كان له أثره في تثبيت الأفق التاريخي الواسع لدى مؤرخيها، ومما زاد الرابطة الإسلامية عمقا ما كانت تتعرض له الأمة من أخطار أجنبية معادية.

شاعت أيضا فكرة الإنسانية العامة التي يعبَّر عنها بـ(البشر) وبـ(الأمم)، ووضحت وحدة الجنس البشري في أذهانهم، ولهذا بدأت مؤلفات تاريخية بآدم وانتهت بعهود مؤلفيها، متناولة كل الأمم في طريقها في جو من التسوية حتى بالنسبة للتتار والصين والفرنجة[١]، أوحت هذه الأسباب السابقة مجتمعة إلى الاتجاه العام العالمي والإسلامي في التاريخ.

[١] مصطفى: شاكر، التاريخ العربي والمؤرخون، ط١، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٩٠م، ج٣ ص٧٩.

ونبدأ بالأديب القاهري المشهور محمد بن إبراهيم المعروف بالوطواط (ت٧١٨هـ/١٣١٨م) وقد كتب حواشي على (الكامل) لابن الأثير، وصفها ابن حجر بكونها مفيدة[١].

ثم يظهر المؤرخ والأمير المملوكي بيبرس بن عبد الله المنصوري الخطائي الدوادار (٧٢٥هـ/١٣٢٤م)، اشتراه المنصور قلاوون، ورباه حتى صار من كبار رجال الدولة، وتنقّل بين وظائف عديدة، إلى أن صار نائبا للسلطنة على القاهرة، وأجيز بالإفتاء والتدريس، وكان ملازما لسماع الحديث، والبحث في العلوم، ألّف كتابه المشهور في التاريخ في ٢٥ مجلدا[٢]، سماه (زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة)[٣] كتب فيه التاريخ الإسلامي منذ الهجرة حتى عام ٧٢٤هـ/١٣٢٤م[٤].

وهناك عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، المشهور بأبي الفداء (ت٧٣٢هـ/١٣٣١م) اتصل بالناصر ابن قلاوون وهو في الكرك وخدمه، فكافأه بولاية (حماة) سنة٧١٠هـ/١٣١٠م، وسلطنه عليها سنة٧٢٠هـ/١٣١٩م، وكان شجاعاً عالماً في فنون عديدة فكان أيضا فقيها طبيباً فيلسوفاً، وتفوق في علم الفلك، وكان يحب أهل العلم ويقرّبهم إليه، وكان يزور القاهرة كل سنة لزيارة السلطان الناصر بهدايا ضخمة، ألف تاريخه المشهور (المختصر في تاريخ البشر)[٥]، وقد لفتت دقته التاريخية وربطه بين حوادث سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأحداث التاريخ العالمي نظر بعض المستشرقين الذين كانوا ينكرون حقيقة وجود الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وحملتهم على الاعتراف بها وأن يغيروا مواقفهم من السيرة والإسلام، وقيمته الجيدة في التاريخ الإسلامي، ولا يحظى الكتاب في فترة ما قبل الإسلام بقيمة تذكر، كما يتبين أنه رجع إلى الأصول اليهودية والنصرانية عند كتابة تاريخهم، ويبدو أنه كان يستعين في دراسته للتاريخ بمذكرات وملاحظات مدونة في بطاقات، وبشكل عام فمعلوماته متقنة مضبوطة[٦].

ثم نلتقي بالمؤرخ الموسوعي شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت٧٣٣هـ/١٣٣٣م) حظي لدى السلطان الناصر، وولي نظر الجيش بطرابلس، وجمع موسوعته الحافلة التي كتبها بخطه في ٣٠ مجلدا، وباعها بألفي درهم[٧]، وسماها (نهاية الأرب في فنون الأدب)[٨]، وتعتبر عرضا عاما للمعرفة الإنسانية من خلال خمسة فنون عظيمة هي السماء، والأرض، والإنسان، والحيوان، والنبات، والتاريخ، وتحوي المعارف اللازمة لكاتب ناجح في الديوان، وجاءت من السعة والتنوع والغزارة بالصورة التي استوعبت معارف العصر كله، ومع أنه لم يبتكر مُخَطَّطها؛ لأنه اقتبسه مع بعض التصرف من مؤلف قاهري معاصر له، هو محمد بن إبراهيم الكتبي المعروف بابن الوطواط (ت٧١٨هـ/١٣١٨م)، والذي وضع موسوعة صغيرة عنوانها (مباهج الفكر ومناهج العبر)، وأقسام (نهاية الأرب) الأربعة الأولى هي أقسام (مباهج الفكر)، وأضاف النويري القسم الخامس (التاريخ).

نظم المؤلف هذا القسم (التاريخ) على أساس الأقاليم الجغرافية أولا، ثم على الأساس الزمني للأسرات الحاكمة، وتوسّع خاصة في السيرة النبوية، وفي تاريخ مصر والشام خصوصا في العصر المملوكي[٩]، ورغم أنه جمع مادته مادته عن العصور السابقة من مختلف المؤرخين الكبار، إلا أنه يحوي أخبارا في غاية الأهمية عن صقلية؛ لأنه

[١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٢٩٨- ٢٩٩.
[٢] المصدر السابق، ج١ ص٥٠٩- ٥١٠، وتوجد أجزاء منه. الزركلي، الأعلام، ج٢ ص٨٠.
[٣] حاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ص٩٥٢.
[٤] المنصوري: بيبرس بن عبد الله الخطائي، (ت٧٢٥هـ)، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ت. رونالد ريتشاردز، ط١، بيروت، الشركة المتحدة، ١٩٩٨م، ص١.
[٥] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٣.
[٦] أبو الفداء، المختصر، مقدمة حسين مؤنس، ج١ ص٨، ٩.
[٧] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٥٠٩- ٥١٠.
[٨] حاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ص١٩٨٥.
[٩] مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ج٣ ص١٢٠، ١٢١.

نقلها عن مؤرخين سابقين لم تصل إلينا كتبهم[1]، حتى إذا أرّخ لعصره فإننا نجد فيه المؤرّخ الحقيقي؛ إذ لا يكتفي بما يأخذ عن الآخرين، بل ويضيف إلى الأحداث رأيه وخبراته ومعلوماته الخاصة، وهو من مطلع القرن الثامن شاهد عصره، وفيه تظهر أصالته[2].

وتشكل موسوعة (نهاية الأرب) هذه، و(مسالك الأبصار) للعمري، و(صبح الأعشى) للقلقشندي أهم ملامح القاهرة في هذا العصر، الذي حظي بها كأول ظهور موسوعي في المؤلفات، وربما كان هاجس الخوف الذي طغى على العالم الإسلامي عقيب احتلال العراق وتدمير المكتبات العلمية فيه، وقتل العلماء، وتقلص وجود المسلمين في الأندلس سببا في إثارة مخاوف علماء القاهرة عن ذهاب العلم واندراسه، فأرادوا جمعه في مكان واحد، كما يشير أيضا إلى العقلية القاهرية الاستيعابية والموسوعية التي أخذت نفسا طويلا في التعامل مع غزارة هذه المعلومات، وأرادت تسجيل حضورها في مختلف المجالات العلمية، ولا يبعد القول بأن الثرثرة العلمية هي التي طغت على الحياة العلمية آنذاك، إذ ليس في هذه الموسوعات إبداع وابتكار من حيث المضمون، بل الأمر كان متعلقا بالحرص على جمع المعلومات السابقة في إطار واحد.

ثم نأتي إلى أبي بكر بن عبد الله بن أيبك المعظمي، ابن الدواداري[3] (كان حيا سنة٧٣٦هـ/١٣٣٥م) وقد وُلِد ونشأ في القاهرة، وانتقل مع أبيه إلى دمشق سنة٧١٠هـ/١٣١٠م، ابتدأ تاريخه (كنز الدرر وجامع الغرر) سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م، واستمر في كتابته حتى سنة ٧٣٥هـ/١٣٣٤م، ولا أهمية لكتابه عن التاريخ السابق على عصره إلا في ما نقله عن المصادر المفقودة والمجهولة، وهو فيها وفي جزئيه الأخيرين من كتابه الذي قوامه تسعة أجزاء يقدّم خدمة جليلة للتاريخ، ويدلي في ما عاصره بمعلوماته الشخصية[4].

لقد حاول أن يأتي بجديد في شكل كتابه؛ إذ قال في مقدمته: "أظن أني لم أسبق إليه، يظهر صحة الدعوى لكل واقف عليه، وذلك أني خصَّصت كل جزء من أجزائه التسعة بدولة من الدول، ... وجعلت أجزاءه مقسومة على هذه الأفلاك التسع لعلو قدرها"، فمثلا كتب الجزء الأول بعنوان (نزهة البشر، من تسمية فلك القمر المسمى بالدرة العليا في أخبار بدء الدنيا)، وكتب الجزء الثامن بعنوان (زهر المروج، من قسمة فلك البروج، المسمى الدرة الزكية في أخبار دولة الملوك التركية)، والجزء التاسع بعنوان (الجوهر الأنفَس من قسمة الفلك الأطلس، المسمى بالدر الفاخر في سيرة الملك الناصر)[5]، وما ذكره من الجِدَّة لا يعدو أمرا شكليا لا يسمن ولا يغني من جوع.

وكتب الفقيه المالكي شرف الدين عيسى بن مسعود بن منصور المنجلاتي الزواوي الحميري (ت٧٤٣هـ/١٣٤٢م) تاريخا عاما شرع في جمعه، وكتب منه عشرة أسفار[6].

ومن أبرز مؤرخي القرن الثامن الحافظ والمؤرخ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، التركماني الأصل، سمع الحديث في القاهرة، وجمع (تاريخ الإسلام)، واختصر منه كتبه الأخيرة، وهي ملخصه (ملخص التاريخ) بقدر نصفه، و(العبر)، و(سير أعلام النبلاء)، و(طبقات الحفاظ)، و(طبقات القراء)، كما وضع في تاريخ رجال الحديث كتبا مختلفة[7]، ويعتبر من أعاظم المؤرخين، وكتاباته التاريخية معول المؤرخين والمحدثين حتى

---

[1] فازيليف، العرب والروم ، تر. محمد عبد الهادي شعيرة، دار الفكر العربي، ص٣٢٨.
[2] مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ج٣ ص١٢١، ١٢٢.
[3] لم يترجمه ابن حجر في الدرر الكامنة.
[4] مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ج٣ ص١٢٣، ١٢٤؛ والزركلي، الأعلام، ج٢ ص١٢١، ١٢٢.
[5] الدواداري: أبو بكر بن عبدالله بن أيبك المعظمي، (كان حيا سنة٧٥٦هـ)، كنز الدرر وجامع الغرر، ت. بيرند راتكة، القاهرة، المعهد الألماني للآثار، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، ج١ ص٨، ١٠، ١١.
[6] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٢١٠ ، ٢١١.
[7] المصدر السابق، ج٣ ص٣٣٦- ٣٣٧.

عصرنا الحاضر، وهو بها يبين أن علاقة التاريخ بالحديث علاقة حميمية، ويَظْهَرُ التاريخ من خلال كتابه (تاريخ الإسلام) وكأنه حركة الإسلام، أو أن حركة الإسلام هي التاريخ.

وهناك الأمير صلاح الدين يوسف بن أسعد الدمشقي، دوادار القاهرة (ت٧٤٥هـ/١٣٤٢م) ولي الكتابة، وله مشاركة في استحضار التواريخ، وتراجم الناس[١].

وعاصره العلامة اليمني الصوفي عبد الله بن أسعد اليمني المكي المشهور باليافعي (ت٧٥٠هـ/١٣٤٩م) تعلم باليمن ونشأ بها، ثم جاور بمكة، وتزوج بها، وأخذ عن شيوخها، دخل دمشق والقاهرة، وأقام بها مدة، وعاد إلى مكة، وكان كثير التصانيف[٢]، كتب (مرآة الجنان وعبرة اليقظان) رتّبه على سني الهجرة النبوية، وذكر فيه تاريخ الإسلام حتى سنة٧٥٠هـ/١٣٤٩م، مقتصرا على أهم الحوادث فيه، وأضاف إليه من تاريخ اليمن ورجاله ما نقله عن ابن سمرة الجعدي (ت بعد٥٨٦هـ/١١٩٠م) في تاريخه، وما وقع من الحوادث في عصره؛ لهذا تكمن أهميته في هذه الناحية فقط[٣]، وباعتباره صوفيا فقد أطنب في ذكر الصوفية، والتزم الجواب على الذهبي بشأنهم[٤].

وبعد هؤلاء يأتي الأديب والشاعر أبو بكر محمد بن محمد بن محمد، الفارقي الأصل المصري، المشهور بابن نباتة (ت٧٦٨هـ/١٣٦٦م)، كان شاعرا مجيدا، وله مشاركة حسنة في فنون المعرفة[٥]، وله (الاكتفاء)، ذكر بروكلمان[٦] أنه أرّخ فيه للعباسيين والفاطميين.

ويأتي بعد ذلك الحسن بن عمر بن الحسن الحلبي (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م) سمع بالقاهرة والإسكندرية، وناب في القضاء، ووقّع في الإنشاء[٧]، وكتب في التاريخ العام كتابا سماه (أخبار الدول وتذكار الأول)[٨]، وهو نفسه الذي يحمل عنوان (جهينة الأخبار في ملوك الأمصار)[٩].

ثم نلتقي بالمؤرخ ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم، المعروف بابن الفرات المصري الحنفي (ت٨٠٧هـ/١٤٠٤م)، ولي خطابة المدرسة المعزية بالقاهرة، وكان لهجا بالتاريخ، وكتب في التاريخ العام كتابا ضخما منذ مبدأ الخليقة حتى سنة٨٠٣هـ/١٤٠٠م، وبيّض منه المئة الثامنة، ثم السابعة، ثم السادسة في نحو ٢٠ مجلدا، وأدركته الوفاة ولمّا ينجز المئة الخامسة والرابعة، وتاريخه كثير الفائدة، ولا يعيبه سوى عبارته العامية ولحنه الفاحش[١٠]، و يعتبر من أهم المصادر للحوادث المعاصرة، وتتضاءل القيمة التاريخية في غيرها، سوى أنه حفظ لنا أقساما من بعض الكتب الضائعة[١١]، كما يعتبر من أهم مصادر تاريخ الحروب الصليبية[١٢].

وهو في الجزء المعاصر له انتظم كثيرا من الحوادث التي عاشها، وسجّلها تسجيلا مفصّلا؛ ولهذا يعد مصدرا رئيسا اكتسب سمة الأصالة فيها[١٣]، ويعتمد فيها على ما يسمع ويقرأ ويشاهد، كما يتخير النصوص الأقدم

[١] المصدر السابق، ج٤ ص٤٤٩.

[٢] المصدر السابق، ج٢ ص٢٤٧، ٢٤٨.

[٣] اليافعي: عبدالله بن أسعد اليمني (ت٧٥٠هـ)، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ت. خليل المنصور، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، مقدمة المحقق، ج١ ص٣، ٧، ٨.

[٤] حاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ص١٦٤٧.

[٥] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٢١٦- ٢١٧.

[٦] وسماه (الاكتفاء). ينظر النهار، العصر المفترى عليه، ص٤٠٥، نقلا عن بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج٦ ص١٨٠.

[٧] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٢٩.

[٨] ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٥ ص١١٧.

[٩] النهار، العصر المفترى عليه، ص٤٠٦.

[١٠] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٣١٣؛ والمجمع المؤسس، مج٢ ص٥١٥، ٥١٦.

[١١] مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ج٢ ص١٢٨.

[١٢] Hourt, A history of Arabic Literature, p347.

[١٣] علي: محمد كمال الدين عز الدين، أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٧م، ص٩٦.

والمعاصرة للأحداث حين ينقل عن المصادر[١]، ونوّع منهجه فيه فعمد إلى المنهج الموضوعي فيما قبل الإسلام، ثم ثم عمد إلى التاريخ الحولي الهجري حسب القرون لما بعد الإسلام فاصلا في الأجزاء الأولى بين الحوادث والترجمات، جامعا بينهما في الأجزاء المتأخرة، وأما الحوادث المعاصرة فقد جاء بها حسب وقوعها زمنيا[٢].

وعلى غِرّةٍ من ذلك الزمن جاء المؤرخ الفيلسوف عبد الرحمن بن محمد، ابن خلدون الحضرمي الإشبيلي المالكي (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م) وفد إلى القاهرة ورحّب به المصريون سنة٧٨٤هـ/١٣٨٢م، وولي القضاء بها، وتعرّض فيها للاتهامات والإشاعات والدسائس والعزل مرات[٣]، وقد كتب قبل مجيئه إلى القاهرة ما بين سنتي ٧٧٦هـ/١٣٧٤م - و٧٨٠هـ/١٣٧٨م في غربي الجزائر مقدمة تاريخه المعروف بـ(ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر)[٤]، والتي تجاهلها بعض معاصريه ومنهم للأسف ابن حجر[٥] حجر[٥] نفسه حيث غمط فضلها، لكنه أشاد بها بعض معاصريه كالمقريزي[٦] وكذلك المُحْدَثون من الباحثين أيما إشادة[٧]، واعتبره بعضهم[٨] من أعاظم المؤرخين العرب؛ لكونه استنبط الفلسفة الكاملة للتاريخ الإسلامي، ولوضعه ولوضعه القواعد السليمة لكتابة التاريخ. غير أنه من المؤسف كما هو معروف أنه هو نفسه لم يلتزم بتلك المعايير والقواعد في كتابه التاريخ.

في مقدمته أكّد على أهمية تحليل الحوادث التاريخية، ودراسة طبائع البشر والعمران، وأنظمة الحكم، والسلطان، واستقصاء عللها، وأسبابها لفهم التاريخ واستخلاص العبر. ويبدو أنه أول من أدخل العلوم السياسية إلى علم التاريخ، كما أنه حاول استخدام العلوم الاجتماعية والسياسة وتسخيرها لدراسة التاريخ[٩].

وأخيرا من وصفه ابن حجر بـ"مؤرخ الديار المصرية في زمانه"، إبراهيم بن محمد بن دقماق (ت٨٠٩هـ/١٤٠٦م) سليل (دقماق) أحد الأمراء الناصرية، نشأ محبا للتاريخ، فكتب بخطه ما لا يحصى منه، وجمع تواريخ مختلفة، ومال إلى الأدب، رغم قلة بضاعته في العربية واللغة[١٠]، وكانت مشاريعه التاريخية طموحة وضخمة لكنه عالجها بالدأب والصبر[١١]، وقد كتب في التاريخ الإسلامي (نزهة الأنام في تاريخ الإسلام)[١٢]، وهو تاريخ نظّمه على السنين، وكتبه في عدة مجلدات، وانتهى به إلى سنة٧٧٩هـ/١٣٧٧م[١٣]، وألّف كتابه (الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين) جمع فيه أخبار الخلفاء الراشدين والملوك والسلاطين مبتدئا بالخليفة أبي بكر ومنتهيا بالسلطان برقوق، الذي كان تأليف الكتاب عن إشارته[١٤]. ويعتبر مادة أساسية في قسمه الأخير الذي رتّبه على الحوليات المتعاقبة في ثنايا ترجمات السلاطين استقى منها عمداء التاريخ في القرنين الثامن والتاسع الهجريين كابن حجر، والمقريزي، وابن قاضي شهبة، ومع ذلك أغفل فيه تاريخ الممالك الإسلامية المستقلة في المشرق والمغرب والأندلس، ولا يتوغّل في حوادث التاريخ لمعرفة أسبابها، وكان يميل إلى سلطان عصره

---

[١] مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ج٣ ص١٢٨.
[٢] علي، أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات، ص٥٥.
[٣] ابن حجر، رفع الإصر، ص٢٣٤- ٢٣٧؛ والمجمع المؤسس، مج٣ ص١٥٧- ١٦٠؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص٣٣٩- ٣٤٠.
[٤] ابن خلدون، المقدمة، مقدمة المحقق ص٢.
[٥] رفع الإصر، ٢٣٦.
[٦] كالمقريزي. ينظر ابن حجر، رفع الإصر، ص٢٣٦.
[٧] صبحي: أحمد محمود، في فلسفة التاريخ، الإسكندرية، مؤسسة الثقافة الجامعية، ١٩٧٥م، ص١٣٣- ١٣٥.
[٨] Hourt, A history of Arabic Literature, p349.
[٩] روزنثال: فرانز، علم التاريخ عند المسلمين، تر. صالح العلي، ط٢، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ص١٦٢- ١٦٣، ١٦٥.
[١٠] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٣٦٠.
[١١] مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ج٣ ص١٣١.
[١٢] مخطوط في دار الكتب المصرية برقم ١٧٤٠. تاريخ. هامش المجمع المؤسس، مج٣ ص١٧.
[١٣] ابن دقماق: إبراهيم بن محمد، (ت٨٠٩هـ)، نزهة الأنام في تاريخ الإسلام (الجزء المتضمن أحداث ٦٢٨هـ - ٦٥٩هـ)، ت. سمير طبارة، ط١، صيدا وبيروت، المكتبة العصرية، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، مقدمة التحقيق، ص١٦.
[١٤] مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ج٣ ص١٣٢.

برقوق[1]. ويعتبر السلطان برقوق نموذج الحاكم القاهري المملوكي الذي يشجع على كتابة التاريخ، وفيه الإشارة إلى اعتبارهم دولتهم هذه امتدادا للتاريخ الإسلامي جلبا للشرعية السياسية.

ب- تاريخ الأقاليم والدول والمدن

عني المؤرخون القاهريون بهذا النوع من التاريخ، واتجه كثير منهم للتاريخ الخاص المتمثل في الدولة المملوكية والتي كان بعض ملوكها يشجع على مثل هذه الكتابة التي تعطيهم امتدادا متصلا بالتاريخ الإسلامي وحكام المسلمين السابقين قبلهم، كما عنوا بتاريخ مصر، باعتبارها دار السلطنة وعقر الخلافة الإسلامية، وانتشرت النزعة الشخصية التي تجعل من صاحبها إطارا للتاريخ، فيكتب أحدهم التاريخ الذي عاصره من يوم مولده حتى قرب وفاته، إلى جهود تاريخية لا يستهان بها في هذا الصدد.

فقد اختصر العلامة ابن منظور كلا من (تاريخ دمشق) لابن عساكر، و(ذيل تاريخ بغداد) لأبي سعد عبد الكريم بن محمد التميمي السمعاني (ت٥٦٢هـ/١١٦٦م)، ويأتي ذلك في إطار ولَع ابن منظور في اختصار الكتب الكبيرة[2].

ويطالعنا بعده الحسن بن أبي محمد عبد الله العباسي الهاشمي الصفدي (كان حيا قبل سنة٧١٦هـ/١٣١٦م) كان مملوكا للسلطان الناصر ابن قلاوون، وكتب مصنفه الذي سماه (نزهة المالك والمملوك في مختصر سيرة من ولي مصر من الملوك)[3]، ويؤرّخ فيه لمصر منذ زمن الفراعنة والأنبياء حتى عام٧١٧هـ/١٣١٧م، واحتوى الكتاب على ذكر فضل مصر، وأسمائها وملوكها، وخيراتها، ووفرة سكانها، وتنوع ثرواتها، وكمية غذائهم، وحضارتها، وولاتها، والخلفاء الذين جرت أحداثها في عهودهم، وأوجز بشدة الفترات التي تبعد زمنا عنه، بينما بسط في الفترات القريبة العهد به، وتحدث بكثير من التفصيل والمحاباة عن عهد الناصر ابن قلاوون[4].

ويأتي بعد ذلك كتاب (التحفة المملوكية في الدولة التركية) للمؤرخ المملوكي بيبرس الخطائي الدواداري (ت٧٢٥هـ/١٣٢٤م) وقد سجّل فيه تاريخ المماليك في المدة ما بين ٦٤٨هـ -١٢٥٠م و٧١١هـ -١٣١١م[5]. وهناك المؤرخ محمد بن عبد الوهاب بن المتوج المصري (٧٣٠هـ/١٣٢٩م)[6]، الذي ألّف كتابا في تاريخ مصر وأحوالها وخططها حتى سنة٧٢٥هـ/١٣٢٤م، سماه (إيقاظ المتغفل واتعاظ المتأمل)[7]. وسيأتي في الجغرافيا أيضا.

وألّف الأديب والمؤرخ شافع بن علي العسقلاني المصري (ت٧٣٠هـ/١٣٢٩م)[8] عن أخبار المدينتين الشاميتين اللتين نكبتا بالاحتلال الصليبي كتابه (ما يشرح الصدور من أخبار عكا وصور)[9]، ولعله تحدث فيه عن أخبار حروب الأشرف خليل مع الصليبيين.

---

[1] ابن دقماق: إبراهيم بن محمد، (ت٨٠٩هـ)، الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، ت. محمد كمال الدين علي، ط١، بيروت، عالم الكتب، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م، ص١١، ١٤، ١٥.

[2] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٢٦٣؛ والسيوطي، حسن المحاضرة، ج١ ص٣٨٨؛ والخطيب: أحمد بن علي البغدادي، (ت٤٦٣هـ)، تاريخ مدينة السلام، ت. بشار معروف، ط١، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، مقدمة المحقق، ج١ ص١٢٤.

[3] لم يترجم له ابن حجر في الدرر الكامنة.

[4] الصفدي: الحسن بن أبي محمد عبدالله العباسي، (كان حيا سنة٧١٧هـ)، نزهة المالك والمملوك في مختصر سيرة من ولي مصر من الملوك، ت. السيد محمد سيد، القاهرة، دار الحديث، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م، مقدمة المحقق، ص٢٢، ٢٤- ٣٠، ص١٢٧- ١٣٤، ٥٠٣- ٥٠٨.

[5] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٥٠٩، ٥١٠؛ ولم يذكر الكتاب؛ ومصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ج٣ ص١١٦، وقد طبع كتاب التحفة بتحقيق عبد الحميد صالح حمدان، ط٢، ١٩٩٨م، الدار المصرين اللبنانية.

[6] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٦.

[7] المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج١ ص١٣، ج٢ ص١١.

[8] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص١٨٤؛ والبغدادي، هدية العارفين، مج١ ص٤١٤.

[9] البغدادي، هدية العارفين، مج١ ص٤١٤.

وجمع الحافظ الحلبي ثم المصري عبد الكريم بن عبد النور (ت٧٣٥هـ/١٣٣٤م) لمصر تاريخا حافلا لو كمل لبلغ ٢٠ مجلدا، رتّبه على الأسماء، وبيّض منه المحمدين في أربعة مجلدات[١]، ويمكن إدخاله أيضا في التراجم؛ لأنه اعتمد منهج الأسماء كمحور لكتابة التاريخ.

ثم المؤرّخ المصري القبطي المفضل بن أبي الفضائل (ت بعد٧٥٩هـ/١٣٥٨م) كتب ذيلا بعنوان (النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد)، وابن العميد هو أبو المكارم جرجس بن أبي إلياس، ويلقب بالمكين (ت٦٧٢هـ/١٢٧٣م) له تاريخ يعرف بـ(تاريخ ابن العميد)، وقد كتب ابن أبي الفضائل هذا في تاريخه ما حدث من أواخر سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م من ابتداء دولة الظاهر بيبرس، إلى شوال سنة٧٥٩هـ/١٣٥٧م[٢]، وإغفال ابن حجر لمثل هذا المؤرخ فيه إشارة إلى القطيعة التي كانت بين فئة المؤرخين ذوي الميول الحديثية مثل ابن حجر وبين الأقباط.

ثم يأتي المؤرخ تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد المخزومي (ت٧٤٤هـ/١٣٤٣م) دخل اليمن وعمل بها كاتبا للدرج، ثم وزيرا، وقدم مصر وولي بها التدريس بالمشهد النفيسي وشهد على البيمارستان، وقد كتب تاريخا لليمن[٣] بعنوان (بهجة الزمن في تاريخ اليمن) ضمّنه المؤرّخ شهاب الدين النويري (ت٧٣٣هـ/١٣٣٢م) ضمن موسوعته الكبرى (نهاية الأرب) في السفر الحادي والثلاثين، وتبدو أهمية الكتاب أنه يلم بتاريخ اليمن في مساحة زمنية تزيد على سبعة قرون منذ ظهور الإسلام إلى سنة٧٢٥هـ/١٣٢٤م، وهي مدة لم تكن واضحة المعالم لدى المؤرخين المعاصرين خارج اليمن، لا سيما بعد الاستقلال عن الدولة العباسية[٤].

وعاصره العلامة تقي الدين أبو الفتح محمد بن عبد اللطيف السبكي (ت٧٤٤هـ/١٣٤٣م) لازم أبا حيان، وأخذ عن قريبه تقي الدين السبكي، وأعاد بالمشهد الحسيني، وتصدّر بالجامع الطولوني، ودرّس بالركنية بدمشق، وكتب تاريخا علّق فيه على حوادث زمنه[٥].

ومنهم أبو الحسين أحمد بن أيبك بن عبد الله الحسامي، المعروف بابن الدمياطي (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م) انتقى كتابه (المستفاد) من (ذيل تاريخ بغداد) للمؤرخ المحدث ابن النجار البغدادي (ت٦٤٣هـ/١٢٤٥م)، وهو مجرد انتقاء لبعض التراجم، وله أهمية جيدة بعد أن فقد كتاب ابن النجار إلا قليلا منه[٦].

وأرّخ أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م) في موسوعته (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) لعدة دول، فقد خصص أجزاءه من الـ٢٣ حتى الـ٢٧ للتاريخ الذي بدأه من مبدإ العالم ونشوء الخليقة إلى أن وصل سنة٧٤٤هـ/١٣٤٣م، واستعرض السيرة النبوية، والخلافة، وبني أمية في الشام والأندلس، والعباسيين، والفاطميين، والطالبيين في الحجاز واليمن، والأيوبيين والمماليك، وغيرهم[٧].

---

[١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣٩٨؛ وهو أحد مصادرها، كما نص عليه في المقدمة؛ والبغدادي، هدية العارفين، مج١ ص٦١٠.

[٢] مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ج٣ ص١٠٩، ١١١، وفيه وفاة ابن أبي الفضائل سنة٧٤١هـ، ولعل الأصح ما أثبتّه استنادا إلى أن تاريخه بلغ سنة ٧٥٩هـ؛ وينظر الزركلي، الأعلام، ج٧ ص٢٧٩، وقد طبع كتابه (النهج السديد) ضمن مجموعة الآباء الشرقيين في باريس. سركيس، معجم المطبوعات، ج١ ص١٩٣.

[٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣١٥.

[٤] اليماني: عبد الباقي بن عبد المجيد، (ت٧٤٤هـ)، بهجة الزمن في تاريخ اليمن، ت. مصطفى حجازي، ط٢، صنعاء، دار الكلمة، ١٩٨٥م، مقدمة التحقيق ص١٣، ١٤، ١٥.

[٥] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٢٥، ٢٦.

[٦] المصدر السابق، ج١ ص١٠٨؛ والدمياطي: أحمد بن أيبك الحسامي، (ت٧٤٩هـ)، المستفاد من ذيل تاريخ بغداد، ت. مصطفى عبد القادر عطا، ط١، بيروت، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، ج١ ص٣.

[٧] ينظر الأجزاء من ٢٣ حتى ٢٧ من موسوعته مسالك الأبصار.

وأغرب بكتابه (ممالك عباد الصليب) حيث وصف فيه ملوك فرنسا وألمانيا وأهل جنوة والبنادقة في عصره، وتحدث عن أحوالهم السياسية والاجتماعية وعلاقاتهم بالمسلمين[١]، وهو تاريخ مهم وفريد النوع حيث يؤرخ مؤرخٌ لأعدائه التقليديين، ويبدو أن موقعه في كتابة السر بديوان الإنشاء الذي كان بمثابة وزارة الخارجية وفّر له معلومات كثيرة عن هذه الممالك.

وألف الأمير بدر الدين بكداش الفاخري (ت٧٥٤هـ/١٣٤٤م) القائد العام للجيش المصري كتابه (تاريخ مصر والشام وحلب وبيت المقدس وأمرائها)[٢].

وهناك عماد الدين موسى بن محمد اليوسفي (ت٧٥٩هـ/١٣٥٨م)، وكان أحد مقدّمي الحلقة بالقاهرة (قادة الجيش)، عني بالتاريخ على عزوفه عن العربية، وجمع تاريخا كبيرا في نحو ١٥ مجلدا، سماه (نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر)، بدأ بدولة المنصور قلاوون، وانتهى بسنة٧٥٥هـ/١٣٥٤م، وأفاد فيه كثيرا من الوقائع والتراجم التي كان شاهد عيان فيها، وكان كثير التحري في النقل، فما تيقن من صحته نقله، وما لم يتيقّن من صحته أضافه إلى قائله، وربما تبرّأ من عهدته[٣]، ولا تعود أهمية كتابه إلى دقته فحسب، بل أيضا لما تضمنه من الكتب والتوقيعات والمناشير التي لا توجد في المصادر الأخرى، وانتهج فيه طريقة الحوليات في إطار وحدة الموضوع المتمثلة في السيرة السلطانية[٤].

ووضع الصفدي (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م) كتاب (أمراء دمشق في الإسلام) ذكر فيه من وليها ودخلها من الخلفاء، وغيرهم مرتبين على حروف المعجم[٥].

وذيّل العلامة المحدث تقي الدين محمد بن رافع السلامي المصري نزيل دمشق (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م) على (ذيل تاريخ بغداد) لمحمد بن محمود النجار (ت٦٤٣هـ/١٢٤٥م) في ثلاثة مجلدات أو أربعة، رأى ابن حجر بعضه بخطه[٦]، و(تاريخ بغداد) في الأصل كتاب للحافظ أحمد بن علي المعروف بالخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ/١٠٧٠م) جعل موضوعه حول بناء بغداد وكبار نزالها، وواردها، وتسمية علمائها[٧]، ونقل السخاوي عن تقي الدين ابن رافع رافع السلامي خطبته التي يقول فيها أول ذيله: "أذكر فيه من دخل بغداد من العلماء والفقهاء والمحدثين والوزراء والأدباء ومن فاتهما أو أحدهما ذِكْرُه ذكَرْتُه"[٨]، وهو أمر يدل على أن بغداد لم تستسلم للاحتلال المغولي تماما، وظلّت تنزع إلى ماضيها العلمي، ويتضح ذلك بكثرة علمائها الذين دخلوها، بعد حادثة احتلالها من قبل المغول، والتي حملت المؤرخ ابن رافع ليذيّل بهم كتابا.

ونأتي إلى الحسن بن عمر بن حبيب الحلبي (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م) سمع بالقاهرة والإسكندرية، وكتب في هذا المضمار (درة الأسلاك في دولة الأتراك)[٩]، أرّخ فيه أخبار المماليك من سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م إلى

[١] النهار، العصر المفترى عليه، ص٤١٢؛ والزركلي، الأعلام، ج١ ص٢٦٨.
[٢] النهار، العصر المفترى عليه، ص٤١٢، نقلا عن بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج٦ ص١٣٤.
[٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٨١.
[٤] اليوسفي: موسى بن محمد، (ت٧٥٩هـ)، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، ت. أحمد حطيط، ط١، بيروت، عالم الكتب، ١٤٠٦هـ - ١٠٨٦م، ص٥٢، ٥٥.
[٥] الصفدي: خليل بن أيبك، (ت٧٦٤هـ)، أمراء دمشق في الإسلام، ت. صلاح الدين المنجد، ط٢، بيروت، دار الكتاب الجديد، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ص٢١.
[٦] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٤٣٩.
[٧] الخطيب، تاريخ مدينة السلام، ج١ ص٢٩١- ٢٩٢.
[٨] السخاوي: محمد بن عبدالرحمن، (ت٩٠٢هـ)، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ، ت. فرانز روزنثال، ترجمة صالح أحمد العلي، ط١، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م، ص٢١٠.
[٩] طبع ونشرته مكتبة تشستربيتي.

سنة٧٧٧هـ/١٣٧٦م[١]، يقول Hourt[٢] : "إنه لما كانت مؤلفاته مسجوعة فإنه سبّب إعاقة للدقة التاريخية في تأليفه، تأليفه، ومع ذلك فقد استلّ المقريزي كثيرا من معلوماته من كتابه هذا". كما ألّف كتابا آخر هو (تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه)[٣]، جمع فيه أخبار السلطان قلاوون وأبنائه[٤].

وكما تقدّم فقد وضع الأديب ابن أبي حجلة كتابه (سكردان السلطان)[٥]، وهو عمل أدبي تاريخي جغرافي لمصر يتضمن سيرة السلطان الناصر، وكان متمحورا حول الرقم (٧)، لكن هذه الفكرة المتصلة بالرقم المصيري (٧) أفقدت الكتاب كثيرا من قيمته التاريخية[٦].

ويأتي بعد ذلك الأمير صلاح الدين خليل بن علي بن عرام الإسكندراني، نائب الإسكندرية (ت٧٨٢هـ/١٣٨٠م) وقد بنى مدرسة بظاهر القاهرة، وانتهت حياته بصورة مأساوية في خضم الصراعات العسكرية بين الأمراء المماليك، وقد كتب في تاريخ مصر، رآه ابن حجر في عشرة مجلدات، جمع فيه فأوعى في التراجم والحوادث[٧].

ومنهم الشاهد كمال الدين عبد الرزاق بن عبد الله المصري المعروف بابن المطوع (ت٧٩٦هـ/١٣٩٣م)، عني بالشروط، وكتب الخط الحسن، وأرّخ الوقائع التي شاهدها[٨].

ج- الأعيان

تنوعت المؤلفات وكثرت في هذا المجال، فظهرت المؤلفات التي أوعبت تراجم مختلف الأعيان من جميع الفئات، كما أُلِّف في أعيان مخصوصين، فمثلا حفلت القاهرة بكتب رجال الحديث، كما ظهرت كتب رجال الفقه والطبقات والقراء والصوفية، وكان رجال الدين (العلماء) هم أبرز من اعتنوا بالتراجم، لا سيما في الحديث، وكأنه شهد صحوة جيدة في هذا القرن، وظهر عندئذ محدثون نابهون، وكذلك ظهرت كتب تراجم تعنى بأعيان مدينة مخصوصة، أو زمان مخصوص.

ظهرت الكتابة التاريخية للأعيان من المؤسسة الدينية جنبا إلى جنب للأعيان من السلاطين والأمراء وتراجمهم، وقد شكلوا ثنائيا حكم الدولة المملوكية، ويصل الأمر ذروته لدى ابن حجر في كتابه الدرر الكامنة حيث جمع فيها فأوعى من أعيان المؤسستين الدينية والعسكرية الحاكمة.

إن الكتابة التاريخية في مجال تراجم الأعيان بهذا الشكل المتنوع عموما وخصوصا يشير إلى خصب الحقل التاريخي في القاهرة وإلى سعة أفق الوعي الذي يريد تسجيل حركة الإنسان وأدائه ومن مختلف الزوايا.

-الأعيان العامة: ونبدأ بمجال كتب الأعيان العامة ومما لا مراء فيه أنه كان لكتاب ابن خلكان (ت٦٨١هـ/١٢٨١م) (وفيات الأعيان) الذي ترجم فيه لمشاهير أعيان العصور الإسلامية، ولم يقصره على فئة العلماء أو الملوك أو الوزراء أو الشعراء، بل لكل من كان يقع السؤال عنه، ويحتاج إلى معرفته[٩]، وكان هذا الكتاب دافعا لمؤرخي القرن الثامن في النسج على منواله باعتماده منهج الأبجدية في ترتيب التراجم، والتركيز على وفياتهم، والإحاطة بمختلف الفئات.

---

[١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٢٩.

[٢] Huort, A history of Arabic Literature, p347.

[٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٢٩.

[٤] طبع منه الجزء الثاني الذي يغطي المدة (٧٠٩هـ - ٧٤١هـ) بتحقيق محمد محمد أمين، ومراجعة سعيد عاشور، ط١٩٨٢م، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

[٥] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٣٢٩- ٣٣٠.

[٦] Hourt, A history of Arabic Literature, p345- 346.

[٧] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٢٢٣- ٢٢٤.

[٨] المصدر السابق، ج١ ص٤٨١.

[٩] ابن خلكان: أحمد بن محمد بن أبي بكر، (ت٦٨١هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ت. إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ج١ ص٢٠.

كما يظهر أن من أهم خصائص القاهرة المملوكية محاولة مؤرخيها جَعْل ذلك العصر امتدادا للعصور السابقة، باعتبار واحدية التاريخ الإسلامي، ومن هنا جاءت فكرة الذيول على المصنفات السابقة؛ ومن هؤلاء المذيِّلين الكاتب شهاب الدين محمود الحلبي ثم الدمشقي (ت٧٢٥هـ/١٣٢٤م) الذي كتب ذيلا على ذيل قطب الدين موسى بن محمد اليونيني البعلبكي (ت٧٢٦هـ/١٣٢م)، وذيّل اليونيني أيضا هو الآخر على كتاب (مرآة الزمان في تاريخ الأعيان) للشيخ أبي المظفر يوسف المعروف بسبط ابن الجوزي (ت٦٥٤هـ/١٢٥٦م)[١].

وهناك الأمير صلاح الدين يوسف بن أسعد الدمشقي، دوادار القاهرة (ت٧٤٥هـ/١٣٤٤م) ولي الكتابة، وله مشاركة في استحضار التواريخ، وتراجم الناس[٢].

واختصر الشيخ عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني (ت٧٤٤هـ/١٣٤٣م) (الوفيات) لابن خلكان، وسماه (لقطة العجلان في مختصر وفيات الأعيان)[٣]، وقد أضاف فيه تراجم لحوالي ٣٢ شخصا من أهل اليمن وغيرهم[٤].

ولأبي حيان الأندلسي كتاب (مجاني الهصر في آداب وتواريخ لأهل العصر)[٥]، ولعله بهذا هو من ألهم تلميذ الصفدي الذي سيؤلف (أعيان العصر) بصورة أكثر نضجا.

وألّف تلميذه كمال الدين جعفر بن ثعلب الأدفوي (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م) (البدر السافر في تحفة المسافر)[٦]، وهو في مجلدين جرى فيه على أسلوب (وفيات ابن خلكان)، وأغلب من فيه تراجم لمن كان في المئة السابعة، وفيه تراجم من المئة السادسة، وبعض ممن كان في المئة الخامسة[٧]، واشتهر بكتابه الآخر (الطالع السعيد الجامع أسماء أسماء نجباء الصعيد)[٨]، الذي ألّفه بإشارة من شيخه أبي حيان، ويؤكّد الأدفوي أنه ابتكر التصنيف في تاريخ الصعيد، ورتّبه على الأسماء، فذكر فيه من تقدّم وله علم أو صلاح، أو أدب، أو سمع حديثا، ولم يذكر فيه الأحياء المعاصرين إلا لغرض أو لأمر عرض، وقد أخلّ كثيرا في ترتيبهم بحسب أسمائهم أو أسماء آبائهم، ومع ذلك يعتبر الكتاب سجلا حافلا لما تميّز به من الأصالة في بعض التراجم؛ حيث لا توجد في غيره، وحسبك أنه كما يبدو المصدر الوحيد لابن حجر ومؤرخين آخرين[٩].

وكتب ابن فضل الله العمري (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م) كتابين هما (ذهبية العصر) و(مختصر قلائد العقيان)، والأول ألّفه لتخليد ذكرى أعيان عصره من العلماء والشعراء والكتاب، قسمه إلى قسمين جغرافيين، هما المشرق وهو جزيرة العرب وما وراءها نحو الشرق، والقسم الغربي مصر والقاهرة وما وراءها إلى أفريقيا والأندلس، ويمتاز ابن فضل الله العمري عن من ترجموا لأعيان عصورهم بسعة اطلاعه على أحوال الممالك الإسلامية، وقوة ارتباطه بحكام القاهرة ووثائقهم بحكم عمله الذي مكّنه على الاطلاع على رجال العالم الإسلامي بصورة أقوى، ويضاف إلى ذلك اهتمامه بجزيرة العرب اهتماما جيدا، يوضّحه ابتداؤه بذكر مشاهيرها، وهو فيه يسمي كثيرا من العلماء والشعراء ممن لا يجد الباحث لهم ذكرا عند غيره، لم يصل إلينا منه سوى خمس صفحات من أوله تضمّنت المقدمة، بالإضافة إلى الجزء الثالث منه، قام بنشرها العلامة الجاسر الذي ذكر أن أول ذكر لهذا الكتاب

---

[١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٨٢؛ وحاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ص١٦٤٧.
[٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٤٤٩.
[٣] مخطوط في جامعة أكسفورد. الزركلي، الأعلام، ج٣ ص٢٧٢.
[٤] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣١٥؛ والزركلي، الأعلام، ج٣ ص٢٧٢.
[٥] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٠٥؛ والصفدي، الوافي بالوفيات، ج٥ ص١٨٥.
[٦] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٥٣٥.
[٧] ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، ج٣ ص٢١.
[٨] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٥٣٥، وسماه فيها (الطالع السعيد في تاريخ الصعيد).
[٩] الأدفوي، الطالع السعيد، ص ن المقدمة، و ص٣، ٤، ٦.

وجده عند صاحبي (كشف الظنون) و(هدية العارفين)[1]؛ غير أنه خفي عليه أن ابن حجر نفسه كان قد نصّ على ذكر هذا الكتاب، وكان أحد مصادره في الدرر الكامنة[2]، وهو على شاكلة كتاب الصفدي (أعيان العصر)، وكتاب أبي حيان (مجاني الهصر).

وكتابه الآخر هو (مختصر قلائد العقيان)[3]، و(قلائد العقيان) للمؤرخ أبي النصر الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان القيسي (٥٣٥هـ/١١٤٠م) جمع فيه تراجم أعيان أهل المغرب، وجعله على أربعة أقسام في الملوك، والوزراء، والقضاة والعلماء والأدباء والشعراء[4].

ويعتبر كتاب (سير أعلام النبلاء) للمؤرخ والمحدّث شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م) أول كتاب وُضِع متناولا لجميع العصور السابقة لعصر مؤلفه، واشتملت تراجمه على أعلام منتخبة من جميع العالم الإسلامي، وشملت كل فئات الناس من الخلفاء، والملوك، والأمراء، والوزراء، والقضاة، والقراء، والمحدثين، والفقهاء، والأدباء، واللغويين، والنحاة، والشعراء، والزهاد، والفلاسفة، والمتكلمين، غير أنه آثر أهل الحديث منهم على من سواهم[5].

وكتب الأديب المؤرخ خليل بن أيبك الصفدي كتابه الشهير (الوافي بالوفيات) في نحو ثلاثين مجلدا[6]، ويمثّل الكتاب ثروة عظيمة ودائرة معارف تاريخية؛ إذ ترجم لأكثر من (١٢٠٠٠) شخصية مرتبة على حروف المعجم، ومتوزعة على من عاصرهم ومن سبقوه منذ أول الإسلام، من الملوك، والقادة، والشيوخ، والقضاة، وأعيان كل فن، وتعود أهميته لاستقصائه جميع الأعيان، وشموليته النوعية والمكانية[7]، إلا أن ما ينتقص من قيمته التاريخية هو أنه كتبه بأسلوب أدبي مغرق في الجناس والمحسنات البديعية.

وجرى أيضا على منوال كتاب شيخه أبي حيان (مجاني الهصر) فوضع كتابا لترجمة أعيان عصره سماه (أعيان العصر وأعوان النصر)، وهو من أهم مصادر آخر القرن السابع والنصف الأول من القرن الثامن الهجريين على الإطلاق، وشمل كل من كان موجودا في سنة٦٩٦هـ/١٣٩٦م وخلال حياة المؤلف، ويشير ابن حجر[8] أنه اختصره من كتابه الوافي، وليس كذلك؛ لأن فيه تراجم ليست في الوافي، كما يلاحظ توسع كبير في بعض ترجماته مقارنة بما في الوافي[9]، وربما جرى ابن حجر كما في قوله عن الذهبي: إنه اختصر بعض كتبه من من كتابه الضخم (تاريخ الإسلام) على مفهوم الاختصار الفضفاض حينذاك الذي قد يعني هنا اختصار زمن موضوع التراجم وليس التراجم نفسها.

وله كتاب (نَكْت الهميان في نُكَت العميان)، وهو دائرة معارف كاملة حول مادة العمى، لغويا وشرعيا، واجتماعيا، وبشريا، وهو أيضا أول كتاب متخصص في هذا الموضوع وصلنا، رغم تأليف الخطيب البغدادي جزءا في العميان كما حكى ذلك الصفدي نفسه في المقدمة، لكنه لم يصل إليه، جمع الصفدي فيه أكثر من ٣٠٠

---

[1] العمري: أحمد بن يحيى ابن فضل الله، (ت٧٤٩هـ)، ذهبية العصر، ت. حمد بن محمد الجاسر، مجلة جامعة الملك سعود، كلية الآداب، العدد٢، مج١١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، مقدمة المحقق، ص١٩٤، ١٩٧.

[2] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٧١، ١٩١، ٢٥٩، ٣٤٥- ٣٤٦، ٤٣١، ٤٧٥، ٥٣١، ج٢ ص٩، ٢٢، ٤٠، ج٣ ص١٢٩، وهي تراجم لأعيان من اليمن والحجاز والشام، أي من القسم الشرقي من كتابه.

[3] الزركي، الأعلام، ج١ ص٢٦٨.

[4] حاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ص١٣٥٤؛ والزركلي، الأعلام، ج٥ ص١٣٤.

[5] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٣٣٧؛ والذهبي: محمد بن أحمد بن عثمان، (ت٧٤٨هـ)، سير أعلام النبلاء، ت. حسين الأسد، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، ج١ ص١٤٣.

[6] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٨٧.

[7] الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١ ص٧، ١٨، المقدمة.

[8] الدرر الكامنة، ج٢ ص٧٨.

[9] الصفدي، أعيان العصر، المقدمة ج١ ص١٢، ١٣(مقدمة المحقق) ص٣٨ (الكتاب).

شخصية من الأعيان أصابهم العمى، ويكفيه أنه خلّد ذكر العالم العربي والشيخ الألسني الموهوب علي بن أحمد بن يوسف الآمدي الحنبلي (ت٧١٢هـ/١٣١٢م) الذي اخترع طريقة تنبيت حروفٍ تسهّل للعميان قراءة معلومات مهمة، بما يؤكّد أنه سبق (برايل) الذي ينسب إليه ذلك الاختراع[١].

ويأتي بعد ذلك المحدث والمؤرخ المصري نزيل دمشق تقي الدين محمد بن رافع السلامي (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م) الذي أكثر جدا عن شيوخ مصر والشام، وجمع كتابا في الوفيات، كثير الفوائد جعله ذيلا لوفيات البرزالي، القاسم بن محمد[٢].

ثم نلتقي بالفقيه الحنفي محيي الدين عبد القادر بن محمد القرشي (ت٧٧٥هـ/١٣٧٣م) وقد ولد سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م، ولكونه فقيها فقد كتب التاريخ الذي يخدم الفقه، ومن كتبه العامة للأعيان (الوفيات) التي بدأها من سنة مولده إلى سنة٧٦٠هـ[٣]. ومثله كتب الشيخ المحدّث نور الدين علي بن محمد بن علي التميمي الهمداني (ق٨هـ/١٤م) وفيات أيضا[٤].

وأخيرا وضع مؤرخ "مؤرخ الديار المصرية" ابن دقماق تاريخا للأعيان سماه (ترجمان الزمان في تراجم الأعيان)[٥].

-أعيان الحديث: ومن كتب التراجم للأعيان تلك المختصة بعلم الحديث، وقد شهدت القاهرة حراكا تاريخيا مهما في هذا السبيل على يد المحدّثين الذين لا يمكن الفصل بينهم وبين المؤرخين، وهم حين يترجمون لأعيان المحدثين إنما يمضون حيث مضى السابقون، ولأن علم الحديث يرتكز في جانب منه على علم الجرح والتعديل وعلم الرجال، حيث ينبني على ذلك صحة الحديث وضعفه، ومن ثم قبوله ورفضه؛ ولهذا فمن الواجب أن يكتب المحدثون تراجمهم وأحوالهم. ويلاحظ أنهم كانوا مدفوعين إلى تسجيل نشاطهم الحديثي بصورة خاصة من خلال توثيقه في المعاجم والأثبات والفهارس التي تعتبر مادة مهمة يستعين بها المحدث على حفظ مروياته وتوثيقها، ومن ثَمَّ نقلها إلى الجيل اللاحق بصورة موثقة.

جمع النسابة المؤرخ والحافظ شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدمياطي (ت٧٠٥هـ/١٣٠٥م) معجما لشيوخه الذين بلغ عددهم ألف شيخ وخمسين شيخا[٦]. وعمل المحدّث عمر بن حسن بن عمر الدمشقي ثم الحلبي (ت٧٢٦هـ/١٣٢٥م) – وقد أخذ الحديث في القاهرة - لنفسه فهرسا حافلا، وقف عليه ابن حجر، كما خرّج له الذهبي معجما عن نحو ٥٠٠ شيخ[٧].

ومنهم الحافظ علم الدين القاسم بن محمد البرزالي الدمشقي (ت٧٣٨هـ/١٣٣٧م) رحل إلى القاهرة أيضا، وجمع شيوخه في معجم ضخم بلغ بضعا وعشرين مجلدا، وبلغ عدد شيوخه عددا كبيرا، انتفع به المحدثون من زمنه إلى

---

[١] الصفدي: خليل بن أيبك، (ت٧٦٤هـ)، نَكْت الهميان في نُكت العميان، القاهرة، المطبعة الجمالية، ١٣٢٩هـ - ١٩١١م، ص٢٠٦، ٢٠٨، والفهرس أيضا. ولويس برايل مخترع فرنسي اخترع طريقة كتابة للمكفوفين حوالي عام ١٨٠٥م. الزركلي، الأعلام، ج٤ ص٢٥٧.

[٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٤٤٩.

[٣] المصدر السابق، ج٢ ص٣٩٢؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٦٦؛ والقرشي، الجواهر المضية، المقدمة ج١ ص٥٥.

[٤] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص١١٢.

[٥] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٣ ص١٧، ١٨؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص٣٦٠، وتوجد منه أجزاء من نسخة بخط المؤلف بمكتبة أحمد الثالث تركيا برقم٢٩٦٧. برقم٢٩٦٧. ينظر علي، أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات، ص١٠٩.

[٦] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٤١٧.

[٧] المصدر السابق، ج٣ ص١٥٨.

آخر القرن الثامن[١]، وجمع وفيات مختصة بالمحدثين ممن له سماع منهم، بدأه من عام مولده وهو العام الذي مات فيه المؤرخ أبو شامة فجعله ذيلا على كتابه في الوفيات[٢].

ومنهم الحافظ محمد بن علي بن أيبك (ت٧٤٤هـ/١٣٤٢م) الذي شرع في كتابة (الثقات)، فكتب من الأحمدين خاصة مجلدا[٣]، وبلغ الأمر ذروته لدى الذهبي الذي خرّج لنفسه معاجم لشيوخه وهي (المعجم الكبير)، و(المعجم الصغير) و(المعجم المختص) بالمحدثين[٤]، كما ألّف (تذكرة الحفاظ) الذين يُرْجَع إلى اجتهادهم في التوثيق والتضعيف والتصحيح والتزييف[٥]، وصنّف (ميزان الاعتدال في نقد الرجال) ضمّنه المجروحين والمجهولين ومن لا تقبل روايتهم ومن جرحت عدالتهم وهو يرى أنهم موثوقون[٦].

وخرّج أبو الحسين أحمد بن أيبك، ابن الدمياطي (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م) لكل من الدبوسي، والواني معجما[٧]، كما ذيّل على كتاب (صلة التكملة لوفيات النقلة) الذي يختص كما يظهر بالمحدثين نقلة الحديث[٨]، ولا غرابة في أن يكون كتاب في القرن الثامن الهجري امتدادا لكتاب في القرن الرابع؛ لأن الموضوع وهو (وفيات النقلة) ثابت في ذاته ومتحرك في إطاره التاريخي عبر الأجيال المتلاحقة.

وأكثر ابنُ رافع (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م) عن شيوخ مصر والشام فجمع معجمه لهم في ٤ مجلدات، ويشتمل على أكثر من ألف شيخ[٩]، كما جمع كتابه (الوفيات) المذيّل به على كتاب البرزالي[١٠]، ويتضمّن أكثر من ٩٥٠ ترجمة ممن كانت وفياتهم ما بين٧٣٧هـ و٧٧٤هـ، وفيهم طائفة كبيرة من أهل العلم نجدهم في كتابه الآخر، وهو المصدر الوحيد لطائفة كبيرة فيهم، وقلّما ترك أحدا من المشهورين أو المغمورين إلا ذكره في كتابه هذا[١١]، وهو أحد المصادر الرئيسة لابن حجر.

وجمع الشيخ شهاب الدين أحمد بن أحمد بن الحسن الكردي الأصل الهكاري (ت٧٦٣هـ/١٣٦١م) كتابا في تراجم رجال البخاري ومسلم[١٢]. وله (رجال السنن الأربع) الترمذي والنسائي وأبي داود وابن ماجه[١٣].

وكتب ضمن نتاجه الكثير الشيخ سراج الدين عمر بن علي، ابن الملقن (ت٨٠٤هـ/١٤٠١م) في هذا المجال عدة كتب، ومنها (إكمال تهذيب الكمال في أسماء الرجال)، و(فهرس ابن الملقن)، و(طبقات المحدثين)[١٤]، وأعاد شيخ ابن حجر الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (ت٨٠٧هـ/١٤٠٤م) ترتيب (كتاب ثقات ابن حبان) على

---

[١] حتى أن الذهبي أشاد بهذا المعجم قائلا: إن رمت تفتيش الخزائن كلها # وظهور أجزاء بدت وعوالي ونعوت أشياخ الوجود وما رووا # طالِعْ أو اسمَعْ معجم البرزالي. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٢٣٧، ٢٣٨.

[٢] المصدر السابق، ج٣ ص٢٣٨؛ وحاجي خليفة، كشف الظنون، مج١ ص٢٨٧.

[٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٥٨- ٥٩.

[٤] المصدر السابق، ج٣ ص٣٣٧.

[٥] المصدر السابق، ج٣ ص٣٣٧؛ والذهبي، تذكرة الحفاظ، ج١ ص١.

[٦] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٣٣٧؛ والذهبي: محمد بن أحمد بن عثمان، (ت٧٤٨هـ)، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، ت. علي محمد البجاوي، بيروت، دار المعرفة، ج١ ص٢، ٣.

[٧] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص١٠٨، ج٣ ص٩٠.

[٨] صلة التكملة هو للشريف أبي العباس أحمد بن محمد الحسيني الحلبي ثم المصري (ت٦٩٥هـ)، والتكملة ذيل كبير في ثلاثة مجلدات لزكي الدين عبدالعظيم بن بن عبدالقوي المنذري (٦٥٦هـ)، ذيّل به على سلسلة ذيول كلها تعود إلى كتاب (وفيات النقلة) للحافظ أبي سليمان محمد بن عبدالله وصل فيه إلى سنة٣٣٨هـ. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص١٠٨؛ وحاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ص٢٠١٩.

[٩] اقتبس منه ابن حجر في الدرر الكامنة تصريحا في أكثر من ١٦٠ موضعا؛ ولهذا وصفه ابن حجر بأنه "في غاية الإتقان والضبط مشحون الفوائد". ابن حجر، حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٤٣٩؛ وابن رافع، الوفيات، المقدمة ج١ ص٤٣.

[١٠] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٤٣٩.

[١١] ابن رافع، الوفيات، المقدمة ج١ ص٩٧.

[١٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٩٨.

[١٣] مخطوط برقم (٣٣م) بدار الكتب المصرية. ينظر فهرس الكتب العربية الموجودة بالدار، ج١ ص٧٣، مصطلح الحديث.

[١٤] البغدادي، هدية العارفين، مج١ ص٧٩١؛ ومصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ج٣ ص١٢٦.

حروف المعجم ترتيبا حسنا[١]، كما أعاد ترتيب (ثقات العجلي)[٢]، وهو نتاج ضخم يدل على انتعاش الحركة الحديثية الحديثية في مصر والشام.

-أعيان القراء: وأفرد الذهبي كتابا لصنف القراء سماه (معرفة القراء الكبار)[٣]، وقد انتقد بعضهم[٤] قول ابن حجر عن هذا الكتاب وغيره من مؤلفات الذهبي بكونها مختصرة عن تاريخه الكبير (تاريخ الإسلام)، لكون (معرفة القراء) تضمّن تراجم لا توجد في (تاريخ الإسلام) ولسعة المعلومات فيه مقارنة بما في (تاريخ الإسلام)، وهو انتقاد لم يدرك معنى الاختصار في ذلك العصر الذي أخذ معنى الاختصار في الموضوع أو زمنه وليس في المادة.

يعتبر كتاب الذهبي أول مصدرين رئيسين في هذا المجال، والثاني هو كتاب (غاية النهاية في طبقات القراء) لابن الجزري، الذي سيجعل كتاب الذهبي هذا أهم مصادره[٥]، وقد تمنى الذهبي[٦] لو أن أبا حيان وهو من أئمة القراء أضاف إلى كتابه تراجم من القراء الكبار، وأصلح فيه خطأه، ويلاحظ أنه نقل عنه معلومات كثيرة في كثير من التراجم. وفي هذا الصدد كتب ابن الملقن (ت٨٠٤هـ/١٤٠١م) كتاب (طبقات القراء)[٧].

وأخيرا نلتقي بالإمام المقرئ محمد بن محمد الجزري الشافعي (ت٨٣٣هـ/١٤٢٩م)، وقد ولد سنة ٧٥١هـ/١٣٥٠م، وكتب كتابه الشهير (غاية النهاية في طبقات القراء)، الذي ابتدأ تأليفه سنة٧٧٢هـ/١٣٧٢م بدمشق، لكنه أكمله في القاهرة سنة٧٩٥هـ/١٣٩٢م[٨].

-أعيان الفقه: وفي أعيان الفقه وطبقات الفقهاء ترك محيي الدين سليمان بن جعفر الأسنوي (ت٧٥٦هـ/١٣٥٥م) كتاب (طبقات فقهاء الشافعية)، وغادرها مسودةً لا يُنْتَفَع بها على حد قول قريبه الشيخ جمال الدين الأسنوي، وكان قد درّس بالمشهد النفيسي والمدرسة الفخرية، وولي المواريث الحشرية[٩]، ويعتبر أول من كتب في هذا المجال من علماء القاهرة، وإن كان الشافعية أنفسهم هم أول من سبق غيرهم من المذاهب لتدوين تراجم فقهائهم منذ ألّف أبو جعفر عمر بن علي المطوعي (ت نحو ٤٤٠هـ/١٠٤٨م) كتابا في هذا[١٠].

وهناك من الحنفية صلاح الدين عبد الله بن محمد بن إبراهيم، ابن المهندس (ت٧٦٩هـ/١٣٦٧م) قدم القاهرة سنة٧٣١هـ/١٣٣٠م، وتعلّم، وجمع (طبقات الحنفية)، وصفه ابن حجر بأنه تاريخ كبير، وأن مؤلفه تعب عليه، وعاد فيه إلى مصادر كثيرة في بلاد متفرقة[١١]، وتعتبر هذه المحاولة أول محاولة للحنفية في القاهرة لتدوين تراجم فقهائهم، وتنم عن حرص شديد على معرفة أعيانهم بالبحث عنهم في الأمصار المختلفة، وعن استيقاظ حنفي بدافع الشعور بالقوة والمنافسة.

---

[١] مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم (٣٧) مصطلح الحديث. فهرس الكتب العربية الموجودة بالدار، ج١ ص٧٠.
[٢] ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٣٠٩، ٣١٠. وقد طبع (ترتيب ثقات العجلي) بتحقيق عبد المعطي القلعجي، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، دار الكتب العلمية – بيروت.
[٣] ذكره ابن حجر باسم (طبقات القراء)، كما ذكره الذهبي نفسه كذلك، لكن ما أثبته الذهبي في غلاف النسخ المدققة والمصححة من قبله هو اسم (معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار). ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٣٣٧؛ والذهبي: محمد بن أحمد بن عثمان، (ت٧٤٨هـ)، معرفة القراء الكبار، ت. طيار آلتي قولاج، استانبول، ١٤١٦هـ - ١٩٨٥م، ج١ ص٦٥، ٦٦.
[٤] الذهبي، معرفة القراء الكبار، مقدمة المحقق ص٧١، ٧٢.
[٥] غاية النهاية، ج١ ص٩.
[٦] معرفة القراء الكبار، ص١٥٧٢.
[٧] مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ج٣ ص١٢٦.
[٨] الجزري، غاية النهاية، ج٢ ص٣٥٤.
[٩] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص١٤٥؛ والأسنوي، طبقات الشافعية، ج١ ص٨٩.
[١٠] حاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ص١٠٩٩.
[١١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٢٨٢؛ والبغدادي، هدية العارفين، مج١ ص٤٦٦.

وكأن الحاجة إلى تسجيل تراجم الفقهاء المذهبيين استيقظت في آن واحد، وهو أمر له دلالة إيجابية حين يكون التنافس مجرد مباراة توثيقية تستشهد بالتاريخ في المناقب والرجال وآثارهم، وقد كان التنافس كذلك في القاهرة، حيث لم يكن هناك صراع مذهبي عنيف بين المذاهب الأربعة؛ وقد كتب تاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي (ت٧٧١هـ/١٣٦٩م) ثلاثة كتب في هذا الصدد، طبقات الشافعية الكبرى، والوسطى، والصغرى[١]، واشتملت (الكبرى) على مقدمة وسبع طبقات، ترجم لكل طبقة منها لأعلام مئة سنة، واتخذ لنفسه منهجا بأن يطرق الوجه المسكوت عنه في علم المترجم ونتاجه، وهو يرى أن كتابه ليس كتاب تراجم فحسب، بل هو أيضا كتاب حديث وفقه وتاريخ وأدب ومجموع فوائد[٢].

وجاء معاصره الشيخ عبد الرحيم بن الحسن الأسنوي (ت٧٧٢هـ/١٣٧٠م) وكان فقيها شهيرا، وعالما متوسع المدارك، فكتب (طبقات الشافعية)[٣]، وقد ذكر الأسنوي أن الرغبة في ترجمة فقهاء الشافعية ظلّت تراوده منذ حداثته، وظلّ يجمع مادته لعشرين سنة، كما ذكر أنه أكمله سنة٧٦٩هـ/١٣٦٧م[٤]؛ الأمر الذي يوضح أن هذه الفكرة الفكرة كانت مقارِنة زمنيا لفكرة الأسنوي السابق في التأليف في هذا المضمار، وكذلك لفكرة السبكي.

وشرح الأسنوي مبررات ودواعي تأليفه الكتاب، ولم يتعرض لكتابي السبكي والأسنوي، ويبدو أن الحاجة لمعرفة تراجم الفقهاء - الذين وردت أسماؤهم في الشرح الكبير للرافعي والروضة للنووي، وهو الفقيه المتضلع - دعته إلى التعريف بهم، كما أن صعوبة الحصول على المعلومات من الكتب التي صُنّفت قبلُ كانت داعيا آخر، وقد اختار منهجا مختلفا في ترتيب تراجم طبقاته، حيث رتّبهم على حروف المعجم المعتمد على أول حرف من اللفظ الذي يشتهر به المترجم اسما كان أو لقبا أو نسبة أو صفة[٥]، وهي منهجية تشبه إلى حدٍّ ما منهج بعض المُحْدَثين في ترتيب قوائم المصادر بناء على الاسم الشهرة، غير أنه منهج قد يلبي حاجة الفقهاء المعاصرين الذين يشتهر لديهم الاسم المطلوب، فإذا تغير الاسم الشهرة في من جاء بعدهم فإن الأمر قد يختلف.

ثم نلتقي بمؤرخ الحنفية محيي الدين عبد القادر بن محمد القرشي (ت٧٧٥هـ/١٣٧٣م) الذي برع في الفقه، ودرّس وأفاد، وسمع الحديث، وله نتاج فقهي وحديثي، وإضافة إلى ذلك فإنه وضع كتابه (الجواهر المضية في طبقات الحنفية)[٦]، وكان أحد دواعي المؤلف إلى تأليفه أنه لم ير أحدا جمع طبقاتهم وهم أمم[٧]، ويبدو أنه لم يطلع على كتاب ابن المهندس القاهري السابق، ولا كتاب (وفيات الأعيان من مذهب النعمان) لنجم الدين إبراهيم بن علي الطرسوسي الدمشقي (ت٧٥٨هـ/١٣٥٦م)[٨]، بل ذكر أن أول من حثّه على التأليف فيه شيخه المحدث قطب الدين عبد الكريم الحلبي (ت٧٣٥هـ/١٣٣٤م) وشيخه تقي الدين علي بن عبد الوهاب السبكي (ت٧٥٦هـ/١٣٥٥م)، ودعمه بقوة الشيخ أبو الحسن المارديني (٧٤٩هـ/١٣٤٨م) وولده جمال الدين (٧٦٩هـ/١٣٦٧م)[٩]؛ الأمر الذي يشير إلى الحاجة العلمية التاريخية والفقهية لهذا الكتاب وتبكيرها.

ويتميز الكتاب بأنه ضمّ (٢١٢٤) ترجمة، مع أنه لم يستعن بكتاب سابق، بينما مثلا ضمّت طبقات السبكي معاصره من الشافعية فقط (١٤١٩) ترجمة، مع سبق السابقين عليه في التأليف من أهل مذهبه، وكذلك لكونه

[١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٤٢٦.
[٢] السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج ص٢٣، ٢٥ ، ٢٧.
[٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣٥٤، ٣٥٥.
[٤] طبقات الشافعية، ج١ ص١٦، ج٢ ص٣٣٣.
[٥] المصدر السابق، ج١ ص١٦.
[٦] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٢ ص٦٢٠، ٦٢١؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٦٦.
[٧] القرشي، الجواهر المضية، ج١ ص٥.
[٨] مخطوط في الظاهرية برقم ٩٦٢٥. الزركلي، الأعلام، ج١ ص٥١.
[٩] القرشي، الجواهر المضية، ج١ ص٥.

اعتمد على مصادر كثيرة فما صرّح به منها فهو حوالي ١٦٨ مصدرا[١]، وله كتاب آخر هو (تهذيب الأسماء الواقعة في الهداية والخلاصة)[٢].

والقاهرة بهذا تكون أول مدينة ظهر فيها مؤلف في طبقات الحنفية أولا عند ابن المهندس ثم عند القرشي هذا.

وجاء الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب البغدادي الدمشقي الحنبلي (ت٧٩٥هـ/١٣٩٢م) الذي أخذ بعض علومه في القاهرة، ووضع ذيلا على طبقات الحنابلة لأبي يعلى، محمد بن محمد الفراء (ت٥٢٦هـ/١١٣١م)[٣]، ويعتبر من الكتب المهمة؛ لأنه المصدر الوحيد لكثير من الحنابلة، وعليه اعتمد الآخرون في الطبقات والتراجم، كما احتفظ أيضا بنصوص كثيرة عن كتب مفقودة، ويؤخذ عليه أنه وقف عند وفيات سنة ٧٥١هـ/١٣٥٠م رغم بقائه حيا حتى سنة٧٩٥هـ/١٣٩٢م، وأن تراجمه المتأخرة كانت خفيفة جدا في غالبها؛ الأمر الذي حرمنا معرفة معاصريه من الحنابلة حسب معلوماته الشخصية المباشرة، أو القريبة منه، وهو أحد مصادر ابن حجر[٤].

وجرى على هذا المنوال الشيخ ابن الملقن (ت٨٠٤هـ/١٤٠١م) إذ ألّف في طبقات الشافعية (عقد المذهب في طبقات المذهب)[٥]، لكن تلميذه ابن حجر وجّه له نقدا لاذعا، حيث اتهمه بالإغارة على كتاب (الطبقات الوسطى) للسبكي، وأنه كان ينقلها بحروفها[٦].

وجمع أيضا المؤرخ ابن دقماق الحنفي (ت٨٠٩هـ/١٤٠٦م) في طبقات الحنفية كتابا سماه (نظم الجمان في طبقات أصحاب إمامنا النعمان)[٧]، وقد أضاف فيه تراجم زيادة على ما أورد القرشي، ولكن لابتكار القرشي، وللدعاية المغرضة التي شُنّت على ابن دقماق واتهامه بالإساءة إلى الإمام الشافعي قلّل بعضهم من شأن كتابه هذا[٨].

هذا[٨].

ورحل ابن فرحون إبراهيم بن علي اليعمري المالكي المدني (ت٧٩٩هـ/١٣٩٦م) إلى مصر سنة ٧٩٢هـ/١٣٨٩م، وكان مدني المنشأ والمسكن، وولي القضاء بها، وقد كتب كتابا في طبقات المالكية[٩]، سماه (الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب) ذكر فيه مشاهير الرواة وأعيان الناقلين للمذهب والمؤلفين فيه، وشيوخ المشاهير، وجملة من حفاظ الحديث، وأضرب الذكر صفحا عن من لم يكن مشهورا[١٠]، وهو بذلك أضاع علينا فرصة التعرف على كثيرين لم يشتهروا.

-الأنساب: يضمحل التأليف في الأنساب بشكل ملفت ويشير إلى بضاعته البائرة في قاهرة المماليك؛ الذين لا يعرف لهم نسب، بل وجدوا أنفسهم يغالبون على أمرها ونهيها وهم من غير جنس العرب، فلا يعنون بالأنساب ولا بالمفاخر، ومع ذلك ألف الحافظ النسابة عبد المؤمن بن خلف الدمياطي (ت٧٠٥هـ/١٣٠٥م) كتابا في (قبائل الخزرج)، و(قبائل الأوس)، وكان قد أربى في علم النسب على المتقدمين[١١]. وألّف الذهبي كتاب (المشتبه في

---

[١] القرشي، الجواهر المضية، المقدمة ج١ ص٦٠، ٧٣.
[٢] و(الهداية) و(الخلاصة) من كتب الفقه المعتبرة عند الحنفية. القرشي، الجواهر المضية، المقدمة ج١ ص٥٦.
[٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣٢١، ٣٢٢.
[٤] ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، المقدمة ج١ ص٨٣، ٨٦، ٩٤.
[٥] البغدادي، هدية العارفين، مج١ ص٧٩١.
[٦] السخاوي، الجواهر والدرر، ص٣٩٠- ٣٩١.
[٧] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٣ ص١٨.
[٨] حاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ص١٠٩٨.
[٩] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٤٨؛ وابن فرحون، الديباج المذهب، المقدمة ص٩.
[١٠] ابن فرحون، الديباج المذهب، ص١١، ١٢.
[١١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٤١٧.

الأسماء والكنى والألقاب) كما تقدم، ولكن وجهته لم تكن حول النسب بقدر ما كانت حول الاشتباه في أسماء الرجال وأنسابهم. وهناك عز الدين إسماعيل بن هبة الله العلوي الحميري الأسنائي المصري (٧٥٥هـ/١٣٥٤م) وكان إماما في العلوم العقلية، وضع (كتاب الأنساب)[١].

وكان الحافظ مغلطاي بن كيلج البكجري (ت٧٦١هـ/١٣٥٩م) نسابة، وله ذيل على كتاب ابن نقطة[٢]، أبو بكر محمد بن عبد الغني الحنبلي (ت٦٢٩هـ/١٢٣١م) الذي كان قد ذيّل هو الآخر على (المختلف والمؤتلف من أسماء الرجال) للحافظ أبي الحسن علي بن عمرالدارقطني (ت٣٨٥هـ/٩٩٥م)، وذيل الحافظ مغلطاي كبير الحجم، وأكثره عن أسماء الشعراء وأنساب العرب[٣].

واختصر القاضي مجد الدين إسماعيل بن إبراهيم البليسي ثم القاهري (ت٨٠٢هـ/١٣٩٩م) كتاب (اقتباس الأنوار والتماس الآثار في أنساب الصحابة ورواة الآثار) المعروف بـ(الأنساب) للرشاطي، أبي محمد عبد الله بن علي اللخمي (ت٥٤٢هـ/١١٤٧م) وسمى البلبيسي مختصره (القبس)[٤]. وللشيخ ابن الملقن (إيضاح الارتياب في معرفة ما يشتبه ويتصحّف من الأسماء والأنساب)[٥].

وأخيرا يأتي الكاتب المنشئ أحمد بن علي القلقشندي ويكتب بحثا مفيدا في صبح الأعشى في الأنساب مما يحتاج إلى معرفتها الكاتب، ثم يتهيّأ له أن يفرد ذلك البحث في كتاب سماه (نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب) أوضح في مقدمته أن علم الأنساب قد درس وانقرض بانقراض علمائه، مع مسيس الحاجة إليه، وألحق فيه كل قبيلة بأصلها مرتبا إياه على حروف المعجم، ومع ذلك يعترف أنه لم يحص فيه قبائل العرب جميعا[٦]، ثم أردفه بكتاب (قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان) ذكر أن بعضا من القبائل التي ضمّها كتابه الأول (نهاية الأرب) لم يعد يُعْرَف لهم مكان، وأراد أن يضع القدْر المحتاج إليه الكاتب فقط من أنساب العرب وأخبارهم الذين ضمّتهم مصر، ومن لهم علاقة بالسلطان أو سبب[٧].

-أنواع أخرى: ونأتي إلى أنواع أخرى من التراجم الخاصة، فقد كتب الحافظ النسابة عبد المؤمن بن خلف الدمياطي (٧٠٥هـ/١٣٠٥م) (العقد المثمن في من اسمه عبد المؤمن)[٨]. وجمع محمد بن أحمد بن أمين الأقشهري (ت٧٣١هـ/١٣٣٠م) - وقد تعلّم في القاهرة – كتابا فيه أسماء من دفن بالبقيع، وسماه (روضة الفردوس)[٩]. ونظم ابن فضل الله العمري قصيدة في مشاهير الخلفاء بعنوان (حسن الوفاء بمشاهير الخلفاء)[١٠]، كما ترجم في موسوعته الضخمة (مسالك الأبصار) لكل من القراء والمحدثين[١١]، والفقهاء وأصحاب المذاهب الإسلامية[١٢]،

[١] البغدادي، هدية العارفين، مج١ ص٢١٤.
[٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٥٣، ٣٥٤.
[٣] حاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ص١٦٣٧.
[٤] ابن حجر، رفع الإصر، ص٨١؛ وحاجي خليفة، كشف الظنون، مج١ ص٨١.
[٥] مخطوط في شستربيتي. الزركلي، الأعلام، ج٥ ص٥٧.
[٦] القلقشندي: أحمد بن علي، (٨٢١هـ)، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ت. إبراهيم الأنباري، ط٢، بيروت، دار الكتاب العربي،١٤٠٠هـ -١٩٨٠م، ص١، ٢.
[٧] القلقشندي: أحمد بن علي، (٨٢١هـ)، قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، ت. إبراهيم الأنباري، ط٢، القاهرة، دار الكتاب المصري، وبيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، ص١، ٢.
[٨] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٤١٧.
[٩] المصدر السابق، ج٣ ص٣٠٩؛ وحاجي خليفة، كشف الظنون، مج١ ص٩٢٨.
[١٠] السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢ ص٧٩.
[١١] في الجزء الخامس.
[١٢] في الجزء السادس.

والنحاة وأهل اللغة[١]، والمتصوفة[٢]، ومشاهير الحكماء والأطباء والفلاسفة[٣]، والمغنين والمغنيات[٤]، والوزراء[٥]، والوزراء[٥]، والكتاب المشارقة[٦] والمغاربة[٧]، وشعراء العصر الجاهلي، والأموي، والعباسي[٨]، وشعراء مصر[٩].

مصر[٩].

وكتب عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني كتابا في تراجم اللغويين[١٠] والنحاة سماه (إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين)، ورغم أن المؤلف كان متعدد الأوطان فمن حسن الحظ أنه ألّف كتابه هذا في القاهرة سنة٧٣٣هـ/١٣٣٢م[١١]، وقد رتّب كتابه على حروف المعجم ليسهل البحث فيه، كما تميّز بنظرته الناقدة للمعلومات التي ينقلها[١٢].

ولعل الإمام أبا حيان الغرناطي لبّى طلبات تلقّاها في القاهرة بشأن التعريف بنحاة الأندلس، أو هو أراد تبيان ذخيرة الأندلس من أولئك؛ ولهذا ورد في قائمة مصنفاته (تحفة النُّدُس[١٣] في نحاة الأندلس).

وقد وضع المؤرخ الحافظ شمس الدين الذهبي في توضيح الأسماء المشتبهة من التراجم كتاب (مشتبه النسبة)[١٤]، وذيّل عليه تقي الدين ابن رافع لما ظفر بأسماء مشتبهة لم يرها في كتاب الذهبي[١٥]، ولما جاء ابن حجر وضع كتابه (تبصير المنتبه بتحرير المشتبه) استدرك فيه ما فات الذهبي من تحقيق الضبط بالحروف، والإجحاف في الاختصار، وتراجم غفل عنها[١٦].

وللشيخ ابن الملقن (إيضاح الارتياب في معرفة ما يشتبه ويتصحف من الأسماء والأنساب والألفاظ والكنى والألقاب) الواقعة في كتاب (تحفة المحتاج إلى أحاديث المنهاج)، وله أيضا (العدة في معرفة رجال العمدة)، وهي تراجم تسعف دارسي الفقه بتراجم رجاله[١٧].

وكتب الأديب القاهري شمس الدين محمد بن دانيال الكحال رجزا بأسماء القضاة الذين ولوا قضاء مصر استجابة لدعوة قاضي القضاة بدر الدين محمد بن إبراهيم، ابن جماعة[١٨]، والذي كان محور كتاب (رفع الإصر)

---

[١] في الجزء السابع.
[٢] في الجزء الثامن.
[٣] في الجزء التاسع.
[٤] في الجزء العاشر.
[٥] في الجزء الحادي عشر.
[٦] في الجزء الثاني عشر.
[٧] في الجزء الثالث عشر.
[٨] في الأجزاء الرابع عشر، والخامس عشر، والسادس عشر، والسابع عشر.
[٩] في الجزئين الثامن عشر والتاسع عشر.
[١٠] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣١٥.
[١١] اليماني: عبد الباقي بن عبد المجيد، (ت٧٤٤هـ)، إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين، ت.عبد المجيد دياب، ط١، الرياض، مركز الملك فيصل، ١٤٠٦هـ، ص٩٨٣.
[١٢] اليماني، إشارة التعيين، مقدمة المحقق، وص٣ من الكتاب.
[١٣] الندس: الرجل سريع الفهم.
[١٤] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٤٣٤.
[١٥] ابن رافع، الوفيات، مقدمة المحقق ج١ ص٤٨.
[١٦] ابن حجر، تبصير المنتبه، ص١.
[١٧] البغدادي، هدية العارفين، مج١ ص٧٩١؛ والزركلي، الأعلام، ج٥ ص٥٧.
[١٨] ابن حجر، رفع الإصر، ص٣.

لابن حجر، وألّف الشيخ سراج الدين ابن الملقن (أخبار قضاة مصر)[1]، وهو من مصادر ابن حجر في رفع الإصر الإصر ولو أنه ذكر أنه لم يشف له غليلا[2]، إلا أن له فضل السبق.

ولا يُعثَر على مؤلف ذي شأن متخصص في تراجم الصوفية ورجالهم غير ما ورد عنهم في (مسالك الأبصار) للعمري، رغم وصول التصوف آنذاك عصره الذهبي، بلى كتب سراج الدين ابن الملقن الذي وضع كتاب (طبقات الأولياء)، وكان هدفه من ذلك الاهتداء بمآثرهم والاقتفاء بأثارهم، وتعود أهميته إلى أنه في تراجم رجالهم في القرنين السابع والثامن؛ إذ ينقل عنهم مباشرة أوعن الجيل الذي عاصرهم، وقد اتبع في ترتيب التراجم نظاما جمع فيه بين طريقة الأبجدية في التراجم الرئيسة، ثم يستطرد في ذكر تراجم فرعية لها علاقة بالترجمة الأصلية[3].

وممن كتب في رجال النحو تاج الدين أحمد بن عبد القادر القيسي الحنفي النحوي (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م) وقد أخذ عن بهاء الدين ابن النحاس، ولازم أبا حيان دهرا طويلا، وسمع الحديث أيضا، وجمع كتابا حافلا سماه (الجمع المتناه في أخبار النحاة) رأى ابن حجر أكثره بخطه، منه فقط في المحمدين خاصة مجلدة، وقلّ ما وقف ابن حجر على مؤلف في الأدب إلا ووجد عليه ترجمة مؤلفه بخط القيسي هذا، كما شرع في جمع كتاب في اللغة جمع فيه بين (العباب) و(المحكم)[4].

ولا يكاد يعثر على كتاب متخصص في الشعراء وطبقاتهم سوى ما كتبه العمري في موسوعته (مسالك الأبصار)؛ وذلك لأفول نجمهم في هذا العصر في القاهرة.

ورغم وجود مشافٍ وأطباء ومشفى تعليمي بالقاهرة إلا أنه أيضا لم تسعفنا القاهرة ولا غيرها بكتاب مختص بتراجم الأطباء سوى ما كتبه ابن فضل الله فقد غرب نجم هذا الموضوع وسط القرن السابع مع ابن أبي أصيبعة في كتابه الشهير (عيون الأنباء في طبقات الأطباء)؛ وذلك يعطي إشارة سلبية على الأقل من التاريخ تجاه هذه الفئة من العلماء.

ولا نعثر على كتاب واحد متخصص في تراجم الفلاسفة سوى أيضا ما كتبه ابن فضل الله في موسوعته لاندثار الموضوع نفسه.

كما لا نعثر أيضا على سيرة لأي الخلفاء العباسيين في القاهرة وهو أمر يشير إلى اضمحلال شأن الخلافة، وأنها أصبحت صورية أمام سلطات السلطان المملوكي، الذي جُعِل هو لا غير محور الأحداث التاريخية، وتقرّب إليه المؤرخون بتسجيل أحداثه وسيرته.

د- السير

أُطلق لفظ السير على نوعين: سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وسير أعلامٍ آخرين لهم مكانة تاريخية في قلوب المؤلفين.

في سيرة الرسول (ص) ظهر نتاج جيد في القاهرة؛ فقد ألّف الحافظ فتح الدين محمد بن محمد اليعمري الشافعي (ت٧٣٤هـ/١٣٣٣م) العديد من المؤلفات في سيرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فله (عيون الأثر في فنون

---

[1] مخطوط بالمكتبة التيمورية تحت رقم (٢٥٥٦- تاريخ).

[2] ابن حجر، رفع الإصر، ص٣؛ والبغدادي، هدية العارفين، مج١ ص٧٩١.

[3] ابن الملقن: عمر بن علي الأنصاري، (ت٨٠٤هـ)، طبقات الأولياء، ت. نور الدين شريبة، ط١، القاهرة، دار ومكتبة الخانجي، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م، مقدمة المحقق ص٦٨، ٦٩، ص٢٣٩، ٢٤١.

[4] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص١٧٥. والعباب الزاهر للإمام حسن بن محمد الصغاني (ت٦٥٠هـ)، والمحكم والمحيط الأعظم لأبي الحسن علي بن إسماعيل، المعروف بابن سيدة (ت٤٥٨هـ). حاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ص١١٢٢، ١٦١٦.

المغازي والشمائل والسير)، وهو جيد في بابه[١]، وهي سيرة عُنِيت بتطبيق منهج المحدثين على أحداث السيرة، وتميَّزت بوسطيتها بين الإطناب والاختصار، ويؤخذ عليه تفضيله أخبار الأسانيد العالية مثلا، ولو أحيانا على حساب قيمة وثاقتها العلمية[٢]، واختصر منه (نور العيون)، وله أيضا (بشرى اللبيب بذكرى الحبيب) في مدح الرسول صلى الله عليه وآله وسلم[٣].

شرح الحافظ قطب الدين عبد الكريم بن عبد النور الحلبي ثم المصري (السيرة النبوية)، التي ألّفها الحافظ عبد الغني المقدسي (ت٤٠٤هـ/١٠١٣م) وسماه (المورد العذب الهني في الكلام على سيرة عبد الغني)[٤]، ويتميز هذا المؤلف بكون مؤلفه موسوعيا حافظا، وبتنوع مادته العلمية المأخوذة عن مختلف مصادر المعرفة مع تفضيل المصادر الحديثية، لكون خلفية المؤلف حديثية قبل كل شيء، ونقل عن كتب لم تعد موجودة، واعتمده مشاهير المؤرخين لمدة النبوة، ومنهم ابن حجر في كتابه الإصابة[٥].

وهناك الحافظ مغلطاي بن قليج البكجري الحنفي (ت٧٦٢هـ/١٣٦٠م) مدرس المدرسة الظاهرية، ألف في السيرة النبوية كتاب (الزهر الباسم)[٦]، كما صنف القاضي عز الدين عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم، المعروف بابن جماعة (ت٧٦٧هـ/١٣٦٥م) (السيرة الكبرى)، و(السيرة الصغرى)[٧]، كما كتب (المختصر الكبير في سيرة الرسول)، الذي جمعه مما سلف من السير، ونقل فيه عن مصادر لم تصل إلينا، وله (المختصر الندي في سيرة النبي)، وهو مختصر كتب فيه باختصار عن حياة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم[٨].

وبعد ذلك ألّف المحدث الحسن بن عمر بن الحسن بن حبيب الحلبي كتابين هما (المقتفى في سيرة المصطفى)، و(النجم الثاقب في أشرف المناقب)، فذكر في (المقتفى) سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يتعرض لمناقبه؛ لأنه أفردها بكتاب خاص، وهو (النجم الثاقب)[٩].

وجاء جمال الدين محمد (أو عبد الله) بن علي بن أحمد، المعروف بابن حديدة المصري (ت بعد٧٧٩هـ/١٣٧٧م) بكتاب جديد في السيرة بشكل لم يُسْبَق إلى مثله؛ إذ خصّصه لكتب رسول الله ورسائله ورسله إلى ملوك الأرض، وسماه (المصباح المضيّ في كتاب النبي الأمي ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي)[١٠]، وفي هذا الكتاب يظفر الباحث بوثائق كثيرة من مكاتبات النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولا يبعد أن يكون بذلك أول من جمع الوثائق النبوية، وقد جعله على قسمين: القسم الأول في كتابه، أي كتبه التي هي بمثابة الوثائق الرسمية التي أنشأها في المدينة مثل وثيقة المدينة المنورة، والقسم الثاني في رسله ومكاتباته إلى الملوك[١١].

---

[١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٢٠٨، ٢٠٩.
[٢] ابن سيد الناس: فتح الدين محمد بن محمد اليعمري، (ت٧٣٤هـ)، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، ت. محمد العيد الخطرواي، ومحيي الدين متو، المدينة، مكتبة دار التراث، مقدمة التحقيق، ص٦، ٧.
[٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٢٠٨، ٢٠٩؛ والزركلي، الأعلام، ج٧ ص٣٤.
[٤] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣٩٨؛ وحاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ص١٠١٢.
[٥] الحلبي: عبدالكريم بن عبدالنور، (ت٧٣٥هـ)، المورد العذب الهني في الكلام على سيرة عبد الغني، (من سرية الطفيل بن عمرو إلى نهاية أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم)، دراسة وتحقيق: صالحة بنت رشيد القثامي، مكة المكرمة، جامعة أم القرى، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، (رسالة ماجستير غير منشورة، مركز تحميل مكتبتنا العربية على النت)، المقدمة ص٩٧، ٩٨.
[٦] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٥٢، ٣٥٣؛ وحاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ص٩٥٨.
[٧] ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، ج٣ ص١٠٢، ١٠٣.
[٨] النهار، العصر المفترى عليه، ص٤٢٠.
[٩] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٢٩، ٣٠؛ والنهار، العصر المفترى عليه، ص٤٢٠.
[١٠] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٢٧٣؛ وذكر اسمه في من اسمه (عبدالله) ثم أحاله إلى (المحمدين) ولم أره فيهم؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٢٤٦. ويختلفون في اسمه، ولعل له اسمين. الزركلي، الأعلام، ج٦ ص٢٨٦.
[١١] ابن حديدة: محمد (أو عبد الله) بن علي بن أحمد المصري، (ت بعد٧٧٩هـ)، المصباح المضي في كتاب النبي الأمي ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي، ت. محمد عظيم الدين، بيروت، عالم الكتب، ١٤٠٥هـ، ص٣.

ونظم فتح الدين محمد بن إبراهيم النابلسي، ابن الشهيد (ت٧٩٣هـ/١٣٩٠م) السيرة النبوية في بضع عشرة ألف بيت، قال ابن حجر: "دلت على سعة علمه"، وقرأها عليه بعض الطلاب في القاهرة[١].

وفي السير الخاصة نشطت الكتابات التراجمية؛ فهناك من كتب عن السلاطين بدافع التقرّب إليهم والتزلُّف لما في أيديهم، وكان هناك العامل الديني الذي يبعث على التأليف في سير القدوات الدينية والعلمية أو المذهبية أيضا، ويلاحظ الغياب الكامل عن سير الخلفاء العباسيين في القاهرة، وهو مؤشر واضح لتلاشي مؤسسة الخلافة في صناعة الأحداث التاريخية والاجتماعية، وهو أمر لم تعرفه الدولة الإسلامية سابقا؛ إذ حتى في ظل الخلفاء العباسيين المغلوب على أمرهم في بغداد فقد كان هناك من يكتب سِيَرا لهم، والشيء ذاته ينطبق على غياب السير الخاصة بالوزراء والعمال[٢]؛ إذ لم يكن نظام الوزارة موجودا بشكل فاعل، كما كان العمال مجرد مأمورين ينفذون الأوامر، ولا يُجْرَؤ على التأليف في سيرهم.

تشير كتابة السير حين تتبناها السلطة إلى محاولة الحكام إقناع العامة من الناس أنهم يمثلون القائد والحاكم الأول في الإسلام، وهو الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ومثل ما كانت له سيرة فلهؤلاء القائمين مقامه سير أيضا.

ففي القاهرة ألّف الأديب محيي الدين عبدالله بن عبد الظاهر سيرا لكل من السلطان الظاهر بيبرس البندقداري، والسلطان المنصور قلاوون، والسلطان الأشرف خليل[٣].

وألّف الصوفي أحمد بن محمد، ابن عطاء الله الإسكندري (ت٧٠٩هـ/١٣٠٩م) كتاب (لطائف المنن) في مناقب شيخه أبي العباس المرسي أحمد بن عمر الإسكندري (ت٦٨٦هـ/١٢٨٧م)، ومناقب شيخ شيخه أبي الحسن علي بن عبد الله الشاذلي (ت٦٥٦هـ/١٢٥٨م)[٤]، وقد قسمه إلى مقدمة وعشرة أبواب وخاتمة، تمحورت حول التعريف بالشاذلي، وشهادته للمرسي، ثم في أخبار المرسي، وصفاته، وأخلاقه، وتفسيراته للآيات والأحاديث، ولما أشكل من كلام الصوفيين، وكلامه في الحقائق والمقامات، وما قاله من الشعر أو قيل في حضرته، وقصد من وراء ذلك نفع الصوفية بتقديم تجربة شيخه خصوصا، وغيرهم عموما[٥].

وأغرب ابن منظور (ت٧١١هـ/١٣١١م) قليلا حين ألّف كتابا عن أبي نواس الحسن بن هانئ (ت٢٩٥هـ/٩٠٧م)[٦]، وهو بهذا خرج عن السائد في عصره.

وخصص الكاتب شافع بن علي العسقلاني المصري (ت٧٣٠هـ/١٣٢٩م) في سير السلاطين المماليك، كتبا منها (كتاب الفصل المأثور في سيرة الملك المنصور قلاوون)، و(سيرة الملك الأشرف خليل)، وسيرة الناصر (نظم الجواهر في سيرة الملك الناصر)، و(المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية) لابن عبد الظاهر عن الظاهر بيبرس[٧]، ويكتسب كتابه (سيرة المنصور) أهمية كبيرة من حيث كونه مصدرا أساسيا لحقبة من أخطر حقب الصراع بين الشرق والغرب، وهي حقبة الحروب الصليبية، وقد بدأه منذ كان قلاوون مملوكا للصالح نجم الدين أيوب، ومر يؤرّخ للسلاطين الذين جاؤوا قبله، ثم أطاله حتى عهد ولده الأشرف خليل عند تحريره بلاد الشام من

---

[١] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٢٩٦.
[٢] الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١ ص٦٠.
[٣] الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١ ص٦٠؛ والنهار، العصر المفترى عليه، ص٤٢١.
[٤] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٢٧٣.
[٥] ابن عطاء الله: أحمد بن محمد الإسكندري، (ت٧٠٩هـ)، لطائف المنن، ت. عبد الحليم محمود، ط٢، القاهرة، دار المعارف، ص٢٤، ٢٥، ٢٦.
[٦] ابن منظور: محمد بن مكرم الإفريقي، (ت٧١١هـ)، أخبار أبي نواس، ت. محمد عبد الرسول، وعباس شربيني، مطبعة الاعتماد، ١٩٢٤م، (الكتاب).
[٧] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص١٨٤؛ والبغدادي، هدية العارفين، مج١ ص٤١٤.

بقايا الصليبيين، وتضمّن وثائق تاريخية غاية في الأهمية وبعضها مما انفرد به[1]، وأرجّح أن تكون الكتب الأخرى بذات المنهج والفائدة[2].

ووضع القاضي عيسى بن مسعود الحميري الزواوي المالكي (ت٧٤٣هـ/١٣٤٢م) في مناقب الإمام مالك بن أنس كتاباً[3]، هو (تاريخ ومناقب مالك) أراد أن ينبّه على بعض فضائله، ويعرّف بعظيم منزلته[4].

وجاء بعد هؤلاء عماد الدين موسى بن محمد بن يحيى اليوسفي (ت٧٥٩هـ/١٣٥٧م) وألّف كتابا كبيرا سماه (نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر) محمد بن قلاوون، وهو وإن خصّصه للناصر فقد ابتدأ بدولة المنصور قلاوون وانتهى إلى سنة٧٥٥هـ، أي بعد وفاة الناصر، وتكمن أهميته في كونه حكى كثيرا من الوقائع عن مشاهدة، وكون منهجه كان إثبات ما يتحققه، وما لم يتحققه ألقى العهدة فيه على مصدره[5]، ويعتني كثيرا بذكر تراجم أعلام تلك المدة التي أرّخ لها، وما يرفع من قيمة كتابه التاريخي الوثائقي أنه ضمّنه عددا من الكتب والتوقيعات والمناشير التي لا توجد في المصادر الأخرى[6].

وكتب الفقيه ضياء الدين خليل بن إسحاق المالكي الجندي (ت٧٦٧هـ/١٣٦٥م) ترجمة لشيخه المنوفي، استدل بها ابن حجر على معرفته في الأصول[7]. وهو يشير إلى أنها طرقت مواضيع علمية أصولية. وصنّف محيي الدين عبد القادر بن محمد القرشي الحنفي (ت٧٧٥هـ/١٣٧٣م) (البستان في فضائل النعمان)[8]، والنعمان هو الإمام أبو حنيفة.

ونحى الإمام أبو حيان منحى مهما في كتابة السيرة الذاتية حين تأثّر لموت ابنته (نضار) التي أحبها، وكانت إحدى أعيان عصرها علما، فتوفيت صغيرة، فكتب يسلي نفسه (النضار في المسلاة عن نضار) وقف عليه ابن حجر في مجلد ضخم، ذكر فيه أوائل عمره، وصفة رحلته إلى الشرق، وتراجم الكثير من أشياخه، وأحواله المختلفة، واستطرد في أشياء اشتملت على فوائد غزيرة لخصها ابن حجر في كتابه (التذكرة)[9]. ومثله فعل العلامة العلامة محمد بن أبي بكر، ابن جماعة، شيخ ابن حجر، عمل في أحوال نفسه جزءا سماه (ضوء الشمس في أحوال النفس)[10].

ومن خلال ما سبق وبطريقة إحصائية تقريبية يظهر أن هناك نتاجا علميا غزيرا في مجال التاريخ في القاهرة، شاركت فيه مختلف الفئات القاهرية ومن وفد عليها، وكانت نسبة الشاميين الذين كتبوا في هذا النتاج ٢٩% من مجمل المشاركين، وهي أكبر نسبة لأنهم كثيرا ما درسوا أو درّسوا في القاهرة، ولهم علاقة علمية متداخلة بالقاهرة، ويليهم المصريون من غير أهل القاهرة بنسبة ٢١%، ويليهم القاهريون[11] بنسبة ١٣%، وهي نسبة مرتفعة نوعا ما قياسا بنتاجهم العلمي في مجالات أخرى، ومن الذين ارتفعت نسبتهم في النتاج التاريخي أبناء الأتراك المماليك الذين أحبوا الثقافة الإسلامية وانخرطوا فيها، وكان التاريخ هو المجال الذي تفاعلوا معه، وهو

[1] العسقلاني: شافع بن علي المصري، (ت٧٣٠هـ)، كتاب الفصل المأثور من سيرة السلطان المنصور، ت. عمر تدمري، ط١، صيدا وبيروت، المكتبة العصرية، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، مقدمة المحقق، ص١١، ١٢.
[2] لكونها قريبة العهد ومتشابهة المواضيع.
[3] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٢١١.
[4] النهار، العصر المفترى عليه، ص٤٢٣.
[5] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٤٨١.
[6] اليوسفي، نزهة الناظر، ص٥٥، ١١٣، ٣٩٣. والجزء المطبوع منه من سنة ٧٣٣هـ إلى سنة ٧٣٨هـ.
[7] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٨٦.
[8] ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٦٦.
[9] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٠٧.
[10] ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٣ ص٢٩٢؛ والسخاوي، الضوء اللامع، ج٧ ص١٧٤.
[11] هذه النسبة تقريبية حيث اشتبه بعضهم بين قاهريتهم ومكان آخر، فرجحت قاهريتهم ببعض الترجيحات كإطلاق نسبة (المصري) على أحدهم.

مؤشر لنهضته وتطوره، ومؤشر على محبة أهل السلطة منهم لأن يُخَلّد ذكرهم أو ذكر بني قومهم، وقد بلغت نسبتهم حوالي ١٣%، يليهم العراقيون وأهل الجزيرة بنسبة ٦%، ومثلهم المغاربة، ثم الأندلسيون بنسبة ٤%، ثم اليمنيون بنسبة ٢%، ومع ذلك فإن هذه البيانات تفيد تفاعل القاهرة مع مختلف بلدان العالم الإسلامي.

ويظهر بوضوح غياب ذوي الأصول الشرقية مما وراء العراق عن التاريخ والذين حضروا في مجالات علمية مختلفة؛ وذلك لأنهم لا يعتنون بالتاريخ في أوطانهم، ولا أهمية لديهم بالمقوِّم الآخر للتاريخ وهو علم الحديث، وهو ما انعكس على نتاجهم سلبا.

وبالعودة إلى هذه الفئة التركية (المملوكية) التي ظهرت بقوة في النتاج التاريخي، يتبين أن نتاجهم يتوزع بين أنواع التاريخ المختلفة بحسب النسب التالية، ففي التاريخ العام بنسبة ٢٥% من مجمل مؤرخي هذه الفئة، وفي تاريخ الأقاليم والمدن بنسبة ٢٥%، وفي كل من السيرة النبوية والتراجم العامة وتراجم الفقهاء بنسبة ٨%، وفي السير الخاصة بنسبة ١٧%، والأغرب أن منهم من شارك في الأنساب بنسبة ٨%، ولكن من شارك فيها في الواقع كان له توجهات حديثية، وهي التي حملته على الخوض في الأنساب، ويظهر رجحان كفة التاريخ العام والتاريخ الخاص لديهم؛ ويفسره رغبتهم في كتابة التاريخ حيث أصبح جنسهم هم الحكام ويرغبون في أن يربطوا عصورهم بالعصور الإسلامية تعبيرا عن واحدية التاريخ الإسلامي بغض النظر عن جنس الحاكم وأملا في إظهار أمجاد قومهم.

ويأخذ التاريخ العام من مجمل النتاج في التاريخ بشكل عام نسبة ١٤%، والتاريخ الخاص ١٧%، والتراجم العامة ١١%، وتراجم المحدثين ١٨%، وتراجم القراء ٢%، وتراجم الفقهاء ٨%، وتراجم النحاة واللغويين ٣%، وكتب الأنساب ٧%، والسيرة النبوية ٩%، والسير الخاصة ٧%، وأخيرا السير الذاتية ١%. وهي نسب معقولة وتعكس مدى الاهتمام بتلك المجالات التي كتب فيها التاريخ، فعلى سبيل المثال أخذت تراجم المحدثين النسبة الأعلى وهو أمر يظهر جليا حيث نشطت الحياة الحديثية في القاهرة ومصر وبلاد الشام.

وفي التاريخ الخاص استقطبت مصر والقاهرة وحكامها نسبة ٥٧% من مجمل النتاج الخاص فيه، وهو أمر طبيعي باعتبار أن القاهرة أصبحت البلد الذي تتوجه إليه الأنظار باعتبارها كرسي السلطنة ودار العلم، وحاملة لواء الإسلام، ورغم وقوع بغداد تحت حكم الإلخانيين والجلائريين؛ إلا أنها حظيت بنتاج القاهريين؛ ولو في صور تذييلات على تاريخها؛ الأمر الذي يبين حضورها في الوسط العلمي رغم ظروفها الصعبة، ومثلها دمشق حظيت بما يقارب ذلك النتاج، ويجدر بالذكر أن حوالي ٢٠% منه صرَّح بكونه في تاريخ الدولة التركية.

يتضح آخر المطاف أن حوالي ٢٢% من مجمل ذلك النتاج في التاريخ بشكل عام كان متحررا عن هياكل سابقة، وكان بعضه بديعا في موضوعه الذاتي كالسير الذاتية والاعتناء بالوثائق النبوية كما فعل ابن حديدة المصري في (المصباح المضي)، أوفي موضوعه المكاني كـ(ممالك عباد الصليب) للعمري، وتاريخ الصعيد للأدفوي، أو الفئوي كتاريخ العميان للصفدي و(طبقات الحنفية) لابن المهندس التي تعتبر أول كتاب في ذلك، وقد علّلت ذلك في العرض التفصيلي السابق، وهو مؤشر على انتعاش التاريخ في القاهرة ولو بشكل محدود.

٢- علوم الدولة

هي الأحكام السلطانية، والعلوم القضائية، والإدارية، ويمكن تعريفها بأنها علم يعرف به أنواع الرياسات والسياسات والاجتماعات المدنية وأحوالها من أحوال السلاطين والملوك والأمراء وأهل الاحتساب والقضاة والعلماء وزعماء الأموال ووكلاء المال ومن يجري مجراهم. ولعلّ هذا التعريف يشمل علوم الدولة المعروفة آنذاك؛ كما أن بعضاً من النتاج العلمي كان يشمل كثيراً منها، وما يختص منه ببعضها قد يدخل في البعض الآخر، وزيادةً في

التوضيح لا باس أن تُسْتَعْرَض التعريفات الخاصة.

فالأحكام السلطانية ويعالج قضايا الحاكم (خليفة أو سلطانا)، ومنها آداب الوزراء، وما الذي يجب أن يكونوا عليه، ومنها علم القضاء، وهو يبحث في آداب القضاة وأحوالهم وقضاياهم[١]، ويندرج تحته علم تردد كثيراً في كتب ابن حجر وهو علم الشروط والسجلات، وكان صفة لازمة لمن يتولى القضاء، وهو علم يبحث في كيفية توثيق الأحكام الثابتة عند القاضي في السجلات على وجه يصح الاحتجاج به لاحقاً[٢].وهو يشبه علم التوثيق في عصرنا وإن كان محصوراً بالمجال القضائي. والحسبة وظيفةُ مَنْ يحمِل الناسَ على ترك المنكرات، واتباع المصالح العامة، مما لا مجال أولا داعي للفصل فيها من قبل القاضي، مثل المنع من مضايقة الطرقات، ومنع الحمالين وأهل السفن من الإكثار في الحمل، والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها، ومراقبة المعلمين، والباعة، والصيارفة وما شاكل ذلك[٣].

-الأحكام السلطانية: بداية يجب الاعتراف أن نتاج المسلمين حول الأحكام السلطانية ضعيف مقارنة بنتاجه في موضوعات أخرى، وأنه في غالب الأحيان كان يأتي استجابة متسقة وانعكاسا لواقع سياسي موجود. ولعل حساسية الموضوع والخوف من الحكام، وتعصب الخلف للسلف الذين اختلفوا في صدر الإسلام حول الخلافة ومن هو أحق بها كانت أسبابا لذلك الضعف أيضا.

إن التدوين للفكر السياسي قد وجد أرضية فكرية وفقهية كوّنها الصراع السياسي على السلطة بعد الانقلاب على الخلافة الراشدة، وما نتج عنه من تأثيرات في ميادين العلوم المختلفة بعضها لها أصل في الشرع، وبعضها لا أصل له فيها، وساهمت هذه الأوضاع والمفاهيم والمصطلحات والتقاليد والأعراف المقحمة في الشرع في تعطيل نمو الفقه السياسي الإسلامي وتوقفه عن التطور والنضج[٤].

ولعل أبرز وأول من كتب في الفكر السياسي بصورة خاصة هو الماوردي أبو الحسين علي بن محمد بن حبيب (ت٤٥٠هـ/١٠٥٨م) في كتبه (الأحكام السلطانية والولايات الدينية)، و(درر السلوك في سياسة الملوك)، و(قوانين الوزارة وسياسة الملك)، وقد جاءت كتاباته لدعم الخلافة العباسية أمام سيطرة البويهيين باحتوائهم، ومن هنا جاء اعتراف الماوردي بإمارة الاستيلاء وإضفاء الشرعية الإسلامية عليها[٥]، ومع ذلك فإنه يرى أن الفسق بارتكاب المحظور "يمنع من انعقاد الإمامة ومن استدامتها"[٦].

وفي القاهرة وغيرها من البلدان الإسلامية في القرن السابع والثامن وتحت حكم المماليك مضى الفقه السياسي الإسلامي على ما مضى عليه سابقاً، وتحدثت كتب الفقه الإسلامي في أحد أهم أبوابها وهو (باب السير) عن الحاكم وطرق ولايته، وأدائه، كما أن كتب المتكلمين لا تكاد تخلو من مسألة الإمامة أو الخلافة وشروط الإمام أو الخليفة كتفريع للخلاف الذي حصل في صدر الإسلام.

وخصَّص بعض أعلام المئة الثامنة كتباً حول هذا الموضوع؛ فمنهم الحسن بن عبدالله العباسي الصفدي المتقدم،

---

١ القنوجي، أبجد العلوم، ج٢ ص٤٣٤.

٢ المصدر السابق، ج٢ ص٣٣٩.

٣ ابن خلدون، المقدمة، ص٢٨٠-٢٨١.

٤ الطرسوسي: إبراهيم بن علي الحنفي، (ت٧٥٨هـ)، تحفة الترك فيما يجب أن يعمل في الملك، ت. عبد الكريم محمد الحمداوي، ط٢، (بدون بيانات أخرى)، مقدمة المحقق ص٢٥.

٥ الماوردي: علي بن محمد بن حبيب البصري، (ت٤٥٠هـ)، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ت. أحمد البغدادي، ط١، الكويت، مكتبة ابن قتيبة، ١٤٠٩هـ ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، ص٤٠، ٤٤، ٤٥؛ والماوردي أيضا، كتاب قوانين الوزارة وسياسة الملك، ت. رضوان السيد، ط١، بيروت، دار الطليعة، ١٩٧٩م، مقدمة المحقق ص٧- ٢٠.

٦ المصدر السابق، ص٢٤.

الذي ألَّف كتابه (آثار الأول في ترتيب الدول) سنة٧٠٨هـ/١٣٠٧م، وجعله في أربعة أقسام: الأول في الضوابط وقواعد المملكة، والثاني: في أحوال الملك في ذاته، والثالث: في الأمور المختصة بالملك وخواصه وحاشيته، والرابع: في الحروب[١]. يذكر بعض الباحثين[٢] أنه يمثل خطا وسطاً في الكتابات السياسية بين النمط الفقهي التبريري كالماوردي والنمط الفقهي الأخلاقي كابن رضوان (ت٧٨٢هـ/١٣٨٠م)[٣] صاحب (الشهب اللامعة في السياسة النافعة)، ويضيف أن أصحاب هذا النمط لم يتورّعوا عن حض الحاكم على ارتكاب كل محظور للوصول إلى السلطة أو البقاء فيها، والجرأة على كل محرم في سبيل ما يحقق له المتعة والرفاه.

وكتب الشيخ ابن تيمية (ت٧٣٨هـ/١٣٣٧م) كتابه (السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية) يتضمن - كما ذكر في ديباجته- "جوامع من السياسة الإلهية والإيالة النبوية، لا يستغني عنها الراعي والرعية، اقتضاها من أوجب الله نصحه من ولاة الأمور"[٤]. ولكونها رسالة نصيحة فهي تنصح القائمين بالأمر وتذكرهم بما يجب عليهم؛ ولهذا لا لا تتعرض لطرق الوصول إلى الحكم، وطرق فيها مواضع فقهية مثل تقديم الأصلح في الولاية، واجتهاد الراعي في إصلاح دين رعيته، والأموال السلطانية، والمصارف، والحكم في الحدود والحقوق، وفضائل الجهات وعقوبة المحاربين قطاع الطريق، وإقامة الحدود، وما يعين على سبل الخير ومنها وضع العيون لمراقبة المتربصين، والأمر بالشورى، وغير ذلك[٥]، وهي لا تخضع لترتيب منهجي، وكأنه كان يكتب من رأس قلمه، وانطلق في المواضيع بحسب استحضاره.

وأبرز من يمثل علماء القاهرة ممن كتب في الأحكام السلطانية تحت سلطة المماليك هو القاضي بدر الدين ابن جماعة الموسوعي المعرفة[٦]، وقد كتب في ذلك كتاب (حجة السلوك في مهاداة الملوك)، وكتاب (مستند الأجناد في آلات الجهاد)، وكتاب (تجنيد الأجناد وجهات الجهاد)[٧]، وضمّن هذا الأخير أربعة أبواب، منها في السلطان وفضله، واتخاذ الأجناد وإعداد آلات الجهاد، وعطاءهم وتقديره وبيان أنواع إقطاعاتهم[٨]، وتشكل هذه الأبواب الأربعة جزءاً بسيطاً من كتابه الأوسع (تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام) الذي غطّى على مساحات واسعة تتعلق بالحكم[٩].

استعرض ابن جماعة فيه موضوعات كثيرة بطريقة منهجية ومرتبة تيسّر للباحث الوصول إلى المعلومة، وقد طرق موضوعات الإمامة أو الخلافة وشروطها وطرق انعقادها، وما للخليفة والسلطان وما عليهما، وتقليد الوزراء، وآراء الحرب والجهاد، وحفظ الأوضاع الشرعية (الحسبة – القضاء – الفتوى – الأوقاف)، واتخاذ الأجناد، وعطاء السلطان وأمواله، وتقدير عطاء الجند، واتخاذ السلاح اللازم، والديوان وأقسامه، وفضل الجهاد، وكيفية القتال، والغنيمة، وعلاقات السلم مع العدو، وقتال المتمردين (البغاة)، وعقد الذمة، تناول كل ذلك بطريقة تأصيلية حاول قدر إمكانه أن يستدل على المسائل التي أوردها بما أمكنه.

---

١ سركيس، معجم المطبوعات، ج٢ ص١٢٦٧.

٢ الحمداوي: عبدالكريم محمد مطيع، في النظام السياسي الإسلامي، ثلاثية فقه الأحكام السلطانية رؤية نقدية للتأصيل والتطوير، ط ٣، (بدون تاريخ ولا دار نشر)، ص ٢٣٧.

٣ عبدالله بن يوسف بن رضوان النجاري المالقي، من أعيان كتاب الدولة المرينية في المغرب. الزركلي، الأعلام، ج٤ ص١٤٨؛ ولم يترجمه ابن حجر رغم كونه علما من أعلام المئة الثامنة.

٤ ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم الحراني، (ت٧٢٨هـ)، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ت. علي بن محمد العمران، جدة، دار عالم الفوائد، ص٤.

٥ السياسة الشرعية، ص٣٣٧-٣٤٥.

٦ لم يذكر ابن حجر في الدرر شيئاً من مصنفاته سوى إشارته إلى كثرتها وتنوعها، وفي رفع الإصر ذكر بعضهاً منها وهي الحديثية، وبالطبع ليس من بينها ما ما كتبه في هذا المجال.

٧ البغدادي، هدية العارفين، مج٢ ص١٤٨.

٨ الكتاب مطبوع بتحقيق ناصر النقشبندي، نشر وزارة الثقافة والإعلام بالعراق ١٩٨٣م.

٩ حاجي خليفة، كشف الظنون، مج١ ص٣٥٦.

ويظهر أن هذا النتاج تحت سلطة المماليك لم يستمد شكله من الكتب السابقة فحسب، بل وكان للوضع القائم في علاقات الخليفة والسلطان، وصلاحياتهما وتهميش الخلافة، وطرق السلاطين في الوصول إلى الحكم عبر المغالبة العسكرية، وكون بعضهم لا يحمل أهلية العدالة ولا يمنعه ذلك من الوصول إلى الحكم ولا من الاستمرار فيه، ظهر ذلك الوضع كله في كتاب ابن جماعة بصورة واضحة.

ففيه تنعقد الإمامة بطرق ثلاث، هي بيعة من تيسَّر حضوره من أهل الحل والعقد ولو كانوا نفرا قليلاً، وباستخلاف السابق، وبالبيعة القهرية من المتغلّب صاحب الشوكة، ولا يقدح في ذلك كونه جاهلاً أو فاسقاً، وإذا انعقدت بالشوكة والغلبة لواحد ثم قام آخر فقهر الأول بشوكته وجنوده انعزل الأول (المغلوب) وصار الثاني إماماً مفترض الطاعة، كل ذلك "من أجل مصلحة المسلمين وجمع كلمتهم؛ واستدل بما قاله ابن عمر في أيام الحرة: نحن مع من غلب"[١].

ويحافظ ابن جماعة على إظهار فعالية مؤسسة الخلافة رغم تأصيله لإفراغها من محتواها فيذكر أن هناك نوعين من التفويض؛ خاص وعام، فإذا كان "تفويضاً عاماً كعرف الملوك والسلاطين في زماننا –جاز له تقليد القضاة و....إلخ"، و"يعتبر في السلطان المتولي من جهة الخليفة ما يعتبر فيه خلا النسب"، "وإذا استولى ملك بالقوة والقهر والشوكة فينبغي للخليفة أن يفوض أمورها إليه استدعاءً لطاعته، ودفعاً لمشاقّته، وخوفاً من اختلاف الكلمة، وشق عصا الأمة"، فيصير بذلك التفويض "صحيح الولاية نافذ الأحكام"، ويجوز للخليفة إعطاؤه ذلك التفويض حتى ولو فقد "الصفات المعتبرة" كل ذلك لأجل "المصالح"، أي مصالح المسلمين[٢].

إنهم بذلك من وجهة نظري شرعوا الفتنة بأوسع أبوابها، وشقوا عصا الأمة حيث أضفوا حكم الإسلام للمتمردين الذين كانوا يستحقون القتل في نظرهم وبمجرد انتصارهم يتحولون إلى ولاة أمر ينفذون إرادة الله حتى ولو كانوا بشرِّ صفات؛ ولهذا شهد العصر المملوكي ما شهد من الاضطرابات السياسية؛ إنهم يعطون الضوء الأخضر ويدعون العامة باسم الإسلام للإيمان باعتقاد شرعية إمارة المخادعين والقتلة والمجرمين، ويشجع على التطاحن السياسي والانقلابات العسكرية.

لقد أظهروا بهذا استناداً إلى "فقه الضرورة والمصلحة" تساهلاً زائداً أباحوا به تسلط الجوَرة والظلمة، وتحولت بما ذهبوا إليه من "نظرية خوف الفتنة" الموهومة إلى ذريعة لإلغاء التعاليم الشرعية المتيقنة، وهم وإن أطنبوا في تفصيل شرائط الإمامة وصفات الخليفة فقد ألغوا في المجال الواقعي كل تلك الشروط والصفات عندما أقروا بإمامة الغلبة والقهر، وفتحوا بهذا الاجتهاد السائب باباً واسعاً للفتنة الحقيقية[٣]، مازالت تعاني منه الأمة إلى يومنا هذا.

ووضع ابن خلدون في مقدمته فصولاً كثيرة حول الحكم وأنواعه، والخلافة، والملك، والاختلاف حول ولاية العهد، ومراتب الملك والسلطان، والتفاوت بين مراتب السيف والقلم، وشارات الملك والحروب، والجباية والمكوس، والتجارة، وثروة السلطان، والحجاب وكون الظلم مؤذنا بالخراب، وقد تناولها في إطار نظرته الاجتماعية الفلسفية. واستخلص - ملاحظاً وضع المتغلبين في السلطة - أن العصبية هي التي توفر لطالب الإمامة القوة والقهر حتى أنه رأى أن يُعَزّر من يطلبها بدون عصبية؛ لأن ذلك حمق وسفاهة وإثارة لفتنة لا تقيم دولة[٤].

وكتب القلقشندي في موسوعته (صبح الأعشى) في العلوم السياسية والإدارية أيضاً؛ إذ تكلم في المقالة الثانية عن

١ ابن جماعة: محمد بن إبراهيم الحموي، (ت٧٣٣هـ)، تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام، ت. فؤاد عبدالمنعم أحمد، ط١، قطر، رئاسة المحاكم الشرعية، ١٤٠٥- ١٩٨٥م، ص٥١، ٥٢، ٥٤، ٥٦.
٢ ابن جماعة، تحرير الأحكام، ص٥٩، ٦٠، ٦١.
٣ الحمداوي، ثلاثية فقه الأحكام السلطانية، ص٢٣٣، ٢٣٤.
٤ ابن خلدون، المقدمة، الفصول ٢٣-٤٤؛ وقصد بالعصبية وفرة الجند ونفوذ الجاه؛ والحمداوي، ثلاثية فقه الأحكام السلطانية، ص٢٣٢.

الخلافة والأسماء والكنى والألقاب، وفي المقالة الخامسة تحدث عن الولايات وطبقاتها، ومشروعية البيعة وأسباب البيعة الموجبة، وعهود الولايات العسكرية المدنية، وفي المقالة السابعة عن الإقطاعات والمقاطعات، وفي المقالة الثامنة في علاقات السلم مع المحاربين، وعقود أهل الذمة، والمقالة العاشرة في فنون من الكتابة تتعلق بالدواوين السلطانية.

وأما كتابه (مآثر الإنافة في معالم الخلافة) فقد خصصه لهذا المجال حيث رتّبه على مقدمة وسبعة أبواب وخاتمة، فالمقدمة في معنى الخلافة ومسمياتها، وألقابها، والباب الأول في وجوب عقد الإمامة لمن يقوم بها وطرق انعقادها وحقوق الراعي وواجباته وموجبات عزله، والباب الثاني: في ذكر من وليها، والثالث: في ذكر ما يكتب للخلفاء من البيعات والعهود، والرابع: فيما يكتب عنهم من ولايات للأمراء والوزراء والقضاة وغيرهم من أهل الولايات الصغيرة، والخامس: في ما يكتب عنهم من الإقطاعات وإلزام أهل الذمة بالشرائط اللازمة عليهم، والسادس: في المكاتبات الصادرة عن الخلفاء وولاة العهد إلى من سواهم، والصادرة عن الملوك والوزراء ونحوهم إليهم، والسابع: في ذكر أوائل منسوبة إلى الخلفاء وغرائب وملح تتعلق بهم، والخاتمة في مناقب من كتب كتابه لأجله وهو خليفة عصره المعتضد بالله العباسي.

وذكر فيه أن لأهل الحل والعقد عزل الخليفة إذا حدث فيه خلل ديني[1]، وكذلك إذا ثبتت له الإمامة بالقهر والاستيلاء فيجيئ آخر ويقهره فينعزل ويصير الإمام هو الثاني، ويعترف القلقشندي[2] أن ذلك الاعتقاد أوقع الفقهاء في زمانه في علاقة سيئة مع الملوك معتذراً بأنهم (الملوك) لم يفهموا القضية إلا على أنها نوع من المحاباة الصادرة عن العلماء، وذكر أنه بالفسق لا ينعزل في الأصح عند بعض الفقهاء.

-علم القضاء وآدابه: كتب العلماء على مر القرون كثيراً من ذلك، ولا يخلو قرن من نتاج جيد حول هذا الموضوع بالإضافة إلى ما تتضمنه كتب الفقه من أبواب متعلقة بالقضاء والمرافعات، كما أسهموا إسهاماً كبيراً، في أحد فروعه **وهو علم الشروط والسجلات؛** فقد ألف القاضي شمس الدين أحمد بن إبراهيم السروجي (ت٧١٠هـ/١٣١٠م) كتابه (أدب القضاء) ضمّنه مباحث عديدة لها علاقة بالقضاء، ويصنف كثير منها عادة في كتب الفقه العادية[3].

وكثير ممن مارس التوثيق في المحاكم القاهرية وُصِفوا بأنهم تعانوا الشروط أو مهروا فيها، أو كانوا رؤوسا فيها؛ فمنهم علي بن رزق الله القدسي النابلسي (ت٧٣٣هـ/١٣٣٢م) سكن القاهرة وتعانى الشروط بدار الحكم[4]، وتقي الدين محمد بن أحمد بن الحسن، ابن الفرات الحنفي (ت٧٦٥هـ/١٣٦٢م)، وكان أبوه وعمه صلاح الدين ابن الفرات قد انتهت رئاسة معرفة الشروط إليهما[5]، وثالثهم عزالدين عبدالرحيم بن علي بن الحسين، ابن الفرات الحنفي (ت٧٤١هـ/١٣٤٠م)، درّس بالحسامية، وأعاد بالمنصورية وناب في الحكم، ومهر في الشروط[6].

وكان ابن حبيب حسن بن عمر (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م) يكتب الشروط على القضاة ويوقّع في الإنشاء، وكان رأساً في الشروط وفي الأدب[7]، وألف في الشروط كتابه (كشف المروط عن محاسن الشروط)، أورد فيه جملة من

١ القلقشندي: أحمد بن علي، (٨٢١هـ)، مآثر الإنافة في معالم الخلافة، ت. عبدالستار فراج، بيروت، عالم الكتب، ج١ ص٦٦.
٢ مآثر الإنافة، ج١ ص٧١، ٧٢.
٣ السروجي: أحمد بن إبراهيم، (٧١٠هـ)، أدب القضاء، دراسة وتحقيق شيخ شمس العارفين صديق بن محمد ياسين، مكة، جامعة أم القرى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ج٢ ص٨٦٥-٩٢٤.
٤ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٥٠.
٥ المصدر السابق، ج٣ ص٣١٣.
٦ المصدر السابق، ج٢ ص٣٥٨.
٧ ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص١٦٢-١٦٣.

السجلات على اصطلاح أهل مصر والشام[١]، كما انتهت معرفة السجلات ورئاسة الشروط إلى القاضي مجد الدين محمد بن محمد بن إبراهيم البلبيسي (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، وكان موقعاً للحكم أيضاً[٢]، ومثله كان والد القاضي بدر الدين العيني وهو شهاب الدين أحمد بن موسى (ت٧٨٤هـ/١٣٨٢م) يعرف أمور السجلات والمكاتيب، وناب في الحكم نحواً من ثلاثين سنة[٣].

ومن أبرز من كتبوا في علم القضاء ابن فرحون، إبراهيم بن علي اليعمري (ت٧٩٩هـ/١٣٩٦م) المغربي الأصل، الذي رحل إلى مصر والشام، وولي القضاء بالمدينة المنورة، وألف كتاباً نفيساً في الأحكام[٤]، وهو (تبصرة الحكام في أصول الأحكام) وقد افترض أن المقدمات التي يحتاجها القاضي لا تتوفر في فقه فروع المذهب (المالكي)، وأنه لم يقف على تأليف يستوعب الكشف عن غوامض هذا العلم ودقائقه، وتمهيد أصوله وبيان حقائقه، فألفه لذلك وجرده عن كثير من أبواب الفقه إلا ما يتعلق بالقضاء؛ فقواعد علمه هي الغرض من تأليفه[٥]، وقد وصفه ابن حجر بالنفاسة[٦].

وصنف القاضي إسماعيل بن إبراهيم الكتاني البلبيسي الحنفي الذي رحل إلى القاهرة (ت٨٠٢هـ/١٣٩٩م) في الشروط[٧]. ومنهم القاضي شرف الدين عيسى بن عثمان الغزي الشافعي (ت٧٩٩هـ/١٣٩٩م) الذي أخذ في دمشق ورحل إلى مصر، ثم عاد فتصدر بالجامع الأموي، وألّف كتاب (آداب القضاء) وصفه ابن حجر قائلاً: (جوّده وهو حسن في بابه)[٨]، واسمه (أدب الحكام في سلوك طرق الأحكام)[٩]، وله أيضاً (معين الأحكام على غوامض الأحكام)[١٠]، وجاء تركيز ابن حجر على المؤلفين في هذا الموضوع، وعلى المجيدين الممارسة والتوثيق في المحاكم الشرعية؛ لأنه كان في الأصل قاضياً وكانت هذه المواضع تثير اهتمامه أكثر من المواضيع العقلية والعلمية التطبيقية.

-الحسبة: وممن وليها في القاهرة الإمام ابن الرفعة (ت٧١٠هـ/١٣١٠م)[١١]، وألف فيها (الرتبة في الحسبة)[١٢]، لكن أبرز من كتب فيها هو ضياء الدين محمد بن محمد بن أحمد، المشهور بابن الأخوة (ت٧٢٩هـ/١٣٢٨م)، وسمع الحديث، ويفهم من كلامه في كتابه في الحسبة أنه قاهري، وقد وصف ابن حجر أخاه بـ(المصري)[١٣]، ألّف (معالم القربة في أحكام الحسبة) وجعله في حوالي سبعين باباً، أراد أن ينتفع به من يتقلد الحسبة، والنظر في مصالح الرعية، وكشف أحوال السوقة، وأمور المتعيشين، ونبّه على غش المبيعات، وتدليس أرباب الصناعات، ولم يترك

١ حاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ص١٤٩٥.
٢ ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٧٧٩.
٣ المصدر السابق، ج١ ص٢٦٤.
٤ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٤٨؛ والزركلي، الأعلام، ج١ ص٥١.
٥ ابن فرحون: إبراهيم بن علي اليعمري، (ت٧٩٩هـ)، تبصرة الحكام في أصول الأحكام، ت. جمال مرعشلي، الرياض، عالم الكتب، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م، ج١ ج١ ص٣.
٦ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٤٨.
٧ ابن حجر، رفع الإصر، ص٨١.
٨ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٢٠٥؛ وإنباء الغمر، ج١ ص٥٣٨.
٩ البغدادي، إيضاح المكنون، ج١ ص٥٠.
١٠ البغدادي، هدية العارفين، مج١ ص٨٠٩-٨١٠.
١١ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٢٨٥.
١٢ البغدادي، إيضاح المكنون، ج١ ص٥٤٩.
١٣ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٦٩١، ج٤ ص١٦٨.

شيئا يتعلق بموضوع الحسبة إلا وطرقه، وأبدى اطلاعاً عميقاً ومعرفة متقدمة في مجالات مختلفة[١].

وكتب ابن تيمية كتابه (كتاب الحسبة) ليكوّن قاعدة فيها، وهي أن جميع الولايات أمر ونهي، وأن ذلك واجب على كل مسلم، إلا أنه أوجب على القادر وهو السلطان، وبيّن مسؤولية المحتسب، وإقامة الصلاة، ومحاربة الغش، وأهل الكيمياء، ومنكرات الربا، والبيع، والزراعة، ومواضيع مختلفة تندرج في صلاحيات المحتسب[٢]، ويظهر أنه كتبه من رأس قلمه، فلا منهجيه تحكمه ولا عناوين تفصّله.

ومن خلال ما سبق وبصورة تقريبية يتبين أن هناك ٩ أعمال في الأحكام السلطانية لـ٥ علماء، جميعهم لم يكونوا قاهريين بالأصالة، بل ٣ منهم شاميون أو من أصول شامية، ويعتبر ما كتبه ابن خلدون المغربي في مقدمة تاريخه[٣] تاريخه[٣] هو المبتكر، وأن التنظير السياسي كان عبارة عن استمرار غير جيد لما سبق، وجمود غير محمود على ما مضى وله نتائج سيئة في حياة الناس العامة. كما كتب ٥ علماء - وكلهم ليسوا قاهريين أصالة - ٦ أعمال في علم القضاء والتوثيق، ٣ منهم شاميون، ومصري ومغربي، هذا ولا تخلو كتب الفقه من مباحث كثيرة تتعلق بالقضاء وآدابه، كما كتب ٣ علماء ٣ أعمال في الحسبة، ومن الغريب أن اثنين منهم كانوا قاهريين بالأصالة، ولعل ذلك يعود لخبرتهم المدنية المتوارثة في الحسبة حيث وهي من وظائف المدينة أكثر مما هي وظيفة ريفية.

٣- علم الأخلاق والتربية

هو علم بالفضائل وكيفية اقتنائها لتتحلى النفس بها، وبالرذائل وكيفية توقيها لتتخلى عنها[٤]. وفي المصادر الإسلامية المختلفة كثير من مواد تلك الأخلاق وتفاصيلها. والتربية والمراد بها التربية الإسلامية تعبير يقصد به تنشئة الفرد المسلم والمجتمع المسلم تنشئة متكاملة ومنسجمة مع تعاليم الدين الإسلامي، ومنطلقة من مبادئه.

في القرن الثامن الهجري كتب الشيخ ابن تيمية في هذا المجال كتاب (مكارم الأخلاق) تكلم فيه عن الأمراض النفسية والاجتماعية وبيّن أدواءها وكيفية معالجتها، ومن كتبه (الحسبة في الإسلام) تضمّن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأساسيات في تربية المجتمع المسلم وتهذيبه، وفي كتابه (السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية) تناول الحقوق العامة الدستورية والإدارية والدولية والمالية العامة، ومزج فيه الوعظ والإرشاد والتوجيه الأخلاقي بالأحكام الفقهية[٥].

وأبرز من كتب في هذا المجال من علماء القاهرة بروح تجديدية هو قاضي القضاة بدر الدين محمد بن إبراهيم، ابن جماعة، وكان موسوعي المعرفة صنّف في موضوعات كثيرة ومختلفة، كما تقدّم[٦]، وقد جاء كتابه (تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم) جديدا ومتخصصا في موضوعه، ورد في قدمته قولُه: "وقد جمعت فيه بحمد الله من تفاريق هذه الآداب ما لم أره مجموعا في كتاب"، واحتوى الكتاب على خمسة أبواب، فضل العلم وأهله، وفي آداب العالم في نفسه، ومع طلبته وخلال درسه، وفي آداب المتعلم في نفسه ومع شيخه، ورفقته، وفي درسه، وفي مصاحبة الكتب وما يتعلق بها من الآداب، وفي آداب سكنى المدارس[٧].

---

١ معالم القربة، ق١، ٢، ٣، ٤، ٥/ أ، -خ-

٢ ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم الحراني، (ت٧٢٨هـ)، الحسبة في الإسلام، بيروت، دار الكتب العلمية، ص ٦، ١١، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩.

٣ رغم أنه كتب مقدمته في تونس قبل مقدمة القاهرة، ولكن يترجح أنه أعاد النظر فيها مرات ومرات في القاهرة بعد مقدمه.

٤ ابن الأكفاني، إرشاد القاصد، ص٢٢٢؛ والقنوجي، أبجد العلوم، ج٢ ص٣٢.

٥ النهار، العصر المفترى عليه، ٣٥٩- ٣٦٠.

٦ ابن حجر، رفع الإصر، ص٣٤٢، ٣٤٥.

٧ ابن جماعة، تذكرة السامع والمتكلم، ص٣، ٤.

وتتضح أنها موضوعات مهمة جاءت لتعالج جانبا من الحياة العلمية في القاهرة وإشكالاتها، ويبرز فيه الكتاب والمدرسة والسكنى بها والطالب والعالم باعتبارها أهم العناصر في العملية العلمية والتعليمية في القاهرة آنذاك، ولعل آداب سكنى المدارس ومصاحبة الكتب كان من أروع ما ورد فيه وفاتحا موضوعات من المرجح أنها لم تكن معروفة بشكل مفرد في كتاب مختص.

إن أهمية الكتاب أيضا تكمن في القيمة الإرشادية والتوجيهية التي احتوى عليها، والتي لا يزال كثير منها أساسيا في العملية التربوية حتى يومنا هذا، فقد وجّه المدرّسَ للكيفية المستحسنة في جلوسه أمام تلامذته، ومكانه المناسب، وتوزيع نظراته على المتعلمين، وفي وجوب تناسب صوته عند الشرح، ودعا إلى حسن الإصغاء للسؤال من المتعلم ومساعدته في صياغته الصياغة الأفضل، كما نصح بأهمية إغلاق الدرس، وبمراعاة الفروق الفردية للطلاب، وبالتلطف في تبيين خطأ المتعلم، وبيّن أهمية التدرج في مستويات المجال المعرفي من مستويات التفكير الدنيا إلى العليا، وأهمية التقويم بعد كل مسألة (هدف)، وكذلك التقويم بالاختبار الشفهي، ومهارة وضعه وضعا صحيحا، كما ركّز على مهارة (التعزيز) والاستجابة الإيجابية لأجوبة التلاميذ والمتعلمين[١]، وهي موضوعات علماء التربية اليوم التي يحضون المعلمين على اقتفائها.

ويأتي أيضا العلامة ابن الحاج العبدري المغربي (ت٧٣٧هـ/١٣٣٦م) في كتابه (المدخل) باعتباره أهم من كتبوا في القضية التربوية والأخلاقية، حيث تتبّع فيه بحسب فهمه الشرعي المعايب والبدع التي يفعلها الناس ويتساهلون فيها، غير أنه أكثر الاستقصاء لها، فكان "أكثرها مما ينكر، وبعضها مما يحتمل" على حد توصيف ابن حجر له[٢]، وقد عالج موضوعات مختلفة وإن في بعضها بوجهة نظر متشدّدة، وهي قضايا ركّز فيها على الإنسان، والعلماء والمتعلمين، ودور العالم وأخلاقه، وممارساته وسلوكه، وعلى النساء وبعض عاداتهن المستنكرة، والتدريس وآدابه، والتأديب (التعليم الأساسي)، والأذان، والعيد، ورمضان، وما يتعلق بها من الحالات، وكذلك آداب المجاهد، والفقير المنقطع (الصوفي)، وكذلك آداب أهل الصنائع والمعايش المختلفة.

ويلفت بأهمية بالغة ورودُ عنوان مهم في قائمة مصنفات تقي الدين السبكي والذي هو (إحياء النفوس في صنعة إلقاء الدروس)[٣]، الذي كما يبدو من عنوانه أنه عالج قضية تربوية وتعليمية هامة، وهي طريقة عرض المعلم لدروسه؛ الأمر الذي يشعر بتقدم ملحوظ في هذا الجانب، وهو ما يفسّر وجود علماء امتازوا بحسن أدائهم التعليمي وعظيم تأثيرهم في تلامذتهم في ذلك العصر في القاهرة[٤].

ويحسن هنا إيراد الطريقة المقترحة من قبل القاضي بدر الدين ابن جماعة في كتابه السابق[٥]؛ إذ ذكر أن المعلم يبدأ بتصوير المسائل، ثم يوضحها بالأمثلة، وبذكر الدلائل، وأن هذا يكفي للمبتدئ، وأما غيره فيبين له معاني وأسرار حكمها وعللها وما يتعلق بها من فرع وأصل، ومن وهِم فيها، ويذكر ما يشابهها ويناسبها ويقاربها، ويبين مأخذ الحكمين المقارنين، والفرق بين المسألتين. وفي هذه الطريقة جمع القاضي أغلب مستويات التفكير الدنيا والعليا التي وضعها (بلوم)[٦] في المجال المعرفي للأهداف السلوكية التربوية[٧]. وهناك ما يشير إلى أن تنفيذ

[١] ابن جماعة، تذكرة السامع والمتكلم، ص١٨، ١٩، ٢١، ٢٢، ٢٦، ٢٧، ٢٨.
[٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٢٣٧.
[٣] السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج١٠ ص٣١٠.
[٤] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٣٨٢، ٤٥٢- ٤٥٣؛ وإنباء الغمر، ج١ ص١٢٢، ج٢ ص٨٠- ٨١، ٣٠٥، ٣٤٥.
[٥] تذكرة السامع والمتكلم، ص٢٦.
[٦] بنجامين بلوم عالم نفس تربوي أمريكي مشهور.
[٧] وهي الفهم والاستيعاب والتطبيق والتركيب والتحليل والتقويم.

الدروس كان يتم بطريقة الإلقاء إلا أنها كانت تفعّل بالحوار والمناقشة، ويفسح فيها المجال واسعا للطالب في المناقشة[١].

ووضع تاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي كتاب (معيد النعم ومبيد النقم)[٢] نقد فيه المجتمع نقدا لاذعا في مختلف الوظائف الإدارية والتعليمية والمالية والعسكرية والحرفية الموجودة آنذاك، وبيّن ما ينبغي على كل واحد منهم من فروضٍ وواجباتٍ، ونقد الممارسات الخاطئة لكلٍّ، مبينا الطريقة المثلى فيها، حتى تعود النعم وتزول النقم من المجتمع المسلم.

وبعض هذه الكتب تضمنت آراء متشددة تجاه بعض القضايا وتؤخذ بعين الاعتبار، فمثلا كتاب (معيد النعم) احتوى على حملة شرسة ضد علوم الحكمة والفلسفة والمنطق وضد الفلاسفة الأوائل مثل الفارابي وابن سينا، وحتى ضد نصير الدين الطوسي عالم الفلك المتقدم ذكره، وبلغ بهم الأمر أن حكموا ضد من يقرأ كتبهم بالضرب والتأديب[٣].

وبهذا يظهر أن هناك نوعا من الإبداع في هذا المجال العلمي وأنه كان في كتاب ابن جماعة؛ الأمر الذي جعل للقاهرة ميزة عن غيرها من المدن.

٤- علوم الجيش والحرب

تتسم الدولة المملوكية بطابعها العسكري، فقد كانت الجندية هي الطريق إلى السلطة وإدارة شؤون الدولة؛ وكما تقدم ظهرت الدولة المملوكية كحاجة تاريخية لمواجهة أكبر خطرين تهدّدا الأمة الإسلامية، وهما المغول والصليبيون؛ لذا كان لابد من ظهور مفكرين عسكريين ودراسات تعنى بهذا الجانب، وليس ذلك ببدع على تاريخ الأمة الإسلامية، بل رافق ذلك الفتوحات منذ صدر الإسلام، ولكنه بلغ ذروته في العصر المملوكي، وظهرت المؤلفات المتخصصة بالعلوم العسكرية وتحدثت عن أنواع الأسلحة والتدريب عليها، والتنظيمات الداخلية للجيش، وأساليب التعبئة العسكرية والقتال، وأحوال القادة والجنود، وما يتوجب على كلٍّ منهم، وأساليب الدفاع والهجوم، وغير ذلك من تقنيات الحرب وأحوالها.

وقد سُجِّل لهم تقنيات عسكرية فريدة في نوعها ومتطورة تتمثل في إعداد الجندي المحارب منذ طفولته، وتعليمه وتدريبه وتثقيفه، كما اكتسبوا مهارات قتالية متنوعة من السابقين أو من المعاصرين لهم كالمغول والصليبيين. ووُصِف بعضُ سلاطينهم بالفروسية، وإجادة اللعب بالرماح، ورمي النشاب، والضرب بالسيف، ونظّموا استعراضات عامة للفروسية شملت السلطان والمماليك جميعاً[٤]. بل إن طريقة وصول أيهم للسلطة كانت معتمدة على على مقدار شجاعته ومهارته القتالية، ومهارة الاستفادة من العلاقات العسكرية والاجتماعية بين القوى العسكرية المملوكية لصالحه.

ومن الملاحظ أن ابن حجر لم يُعْنَ كثيراً بكتابة هذا العلم وتفتقر كتاباته عن المعلومات الكافية حول هذا الموضوع؛ الأمر الذي يشير إلى عزوف أو قلة اعتناء بهذا الفن؛ كون الفقهاء والقضاء كانوا غير معنيين به.

لقد أكدت دراسات حديثة أن تركيب البارود المتفجر للقذائف بطريقة علمية صحيحة كان اختراعاً إسلامياً على يد نجم الدين حسن بن أيوب الرماح (ت٦٩٤هـ/١٢٩٤م)؛ إذ هو أول من دوّن الطريقة الصحيحة لتنقية ملح البارود

[١] ينظر مثلا ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص١٠١- ١٠٢.
[٢] ينظر ص٢٠١.
[٣] السبكي، معيد النعم، ص٧٧- ٨٠.
[٤] ابن حجر، إنباء العمر ج٢ ص٦٢، ج٣ ص٢٥٦؛ والمقريزي، السلوك، ج٥ ص١٩٨.

وكيفية تركيبه، رغم عدم استخدام المماليك إياه في المعارك المكشوفة بشكل فاعل[1]. وقد ألف أيضاً كتابه (الفروسية والمناصب الحربية)، و(كتاب الغزو والجهاد)، و(كتاب في عمل الرمح على الأرض والفرس)، و(اللعب بالرمح في معرفة الفروسية)[2].

وكتب بدر الدين بكتوت الرماح أمير شكار الخزنداري (ت٧١١هـ/١٣١١م) نائب الإسكندرية[3] كتاب (الفارس الكامل) الذي عالج فيه مهارة التصرف بالأسلحة المختلفة على ظهر الفرس، وأمراض الخيول، وقد وُصِف مؤلفه بأنه اشتهر بالوقوف على قرابيس السرج يلعب برمحه وسيفه، والفرس يجري في مشواره، وأنه أحد أجناد الحلقة بالقاهرة[4]، كما كتب أيضاً (السر المخزون وجامع الفنون في أمر الفروسية والحرب)[5].

وكتب الحسن بن عبدالله العباسي الصفدي سنة٧٠٨هـ/١٣٠٨م كتابه (آثار الأول بترتيب الدول) المتقدم جعله في أربعة أقسام وكان القسم الرابع في الحروب[6]. ووضع القاضي بدر الدين ابن جماعة عدة رسائل عملية في السياسة الشرعية والحربية للدولة الإسلامية ولكن بطريقة تأصيلية فقهية، ومن أهمها كتابه (تحرير الأحكام في تدبير أهل الاسلام)[7] ركز فيه على الجانب الفقهي في الموضوعات العسكرية، ولم يتطرق إلى المهارات، وهو أعم من كتب السياسة الشرعية.

وشارك المؤرخ عماد الدين موسى بن محمد اليوسفي القاهري (ت٧٥٩هـ/١٣٥٧م) في هذا المجال، وكان مؤرخاً موثوقاً كما تقدم، وأحد مقدمي الحلقة بالقاهرة، وربطته صداقة متينة ببعض كبار مسؤولي الدولة[8]، وألف[9] (كشف الكروب في معرفة الحروب)، تحدث فيه عن الحروب وآلاتها[10].

وكتب في هذا الموضوع النقيب شهاب الدين الحسين بن محمد العوكلاني الحسيني (ت٧٦٢هـ/١٣٦٠م)، وولي التوقيع بديوان إنشاء القاهرة، ونقابة الأشراف، ومهر في النظم والنثر، وبنى مدرسة بحارة بهاء الدين، وخطب بجامع ابن عبدالظاهر[11]، وقد كتب مصنفا في العلوم الحربية هو (إدراك السؤل في مسابقة الخيول)، تحدث فيه عن ألوان الخيول وسباقها بصيغة أدبية، وحمله على ذلك اهتمام السلطان الناصر ابن قلاوون بالخيول وجمعه لفصائلها[12]، وكتب الصفدي (٧٦٤هـ/١٣٦٢م) رسالتين في هذا العلم، هما (جر الذيل في أوصاف الخيل) وهو يشبه تماماً ما كتبه العوكلاني، والأخرى (غرة الصبح في اللعب بالرمح)[13].

ومن الشخصيات التي أغفلها ابن حجر وكان عالماً بشؤون الحرب نقيب الجيوش جلال الدين محمد بن منكلي

---

١ أحد أهم الاستنتاجات التي توصل إليها الباحث عبدالله بن محمد النايل في رسالته: صناعة الأسلحة الثقيلة والنارية في الدولة المملوكية (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠م-١٥١٧م)، دراسة مقدمة بها لقسم التاريخ جامعة الإمام محمد بن سعود لنيل الدكتوراه، تحت إشراف الدكتور حمود النجيدي، الرياض ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

٢ الأخير مخطوط بمكتبة الأسد الوطنية بدمشق ميكر وفيلم رقم ٢ ق م ٩٦٨. النهار، العصر المفترى عليه، ص٤٩٨.

٣ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٤٨٩.

٤ Rieu: Charles, supplement to the catalogue of the Arabic manuscripts in the British Museum, 1894, London, under number of 269- 271, p554.

٥ حاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢ ص٩٨٩؛ ومصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون ج٣ ص١٠١.

٦ سركيس، معجم المطبوعات، ج٢ ص١٢٦٧.

٧ حاجي خليفة، كشف الظنون، مج١ ص٣٥٦.

٨ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٨١..

٩ وهم الزركلي في الأعلام ج٧ ص٣٢٨ حين قال ألفه للظاهر جقمق؛ لأن اليوسفي كان قد توفي قبل أن يخلق الظاهر جقمق المتوفى سنة ٨٥٧هـ، والذي عاش عاش نيفاً وثمانين سنة.

١٠ البغدادي، هدية العارفين، مج٢ ص٤٧٩-٤٨٠؛ واليوسفي، نزهة الناظر، مقدمة المحقق ص٥٢، وتوجد منه مخطوطة- بدار الكتب المصرية رقم ٢١٠ فنون حربية.

١١ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٦٦-٦٨.

١٢ نسخة مخطوطة بخط المؤلف الجميل كتبها سنة ٧٢٩هـ، موجوده بموقع مكتبة جامعة برينستون في نيوجرسي بأمريكا على النت، واسم الموقع (Princeton University Digital Library).

١٣ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٥ ص٢٤٣.

القاهري (ت٧٨٤هـ/١٣٨٢م)[١]، كتب مؤلفات في فنون الحرب، ومنها (التدبيرات السلطانية في سياسة الصناعة الحربية)[٢]، وفيه كيفية الإعداد ووضعية إمساك الأسلحة في الحرب، وذكر فيه عرضا كتباً أخرى سابقة، منها: (المنهل العذب لورود أهل الحرب)[٣]، وله أيضاً (الرسالة المرضية في صناعة الجندية)، و(الأدلة الرسمية في التعابي الحربية)[٤].

وألف أيضا (الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب)، وتناول فيه السيوف وأجناسها والتروس، والرمي، ورمي الحصون، ورمي الليل، وتجربة النفط والأدهان، والدواليب، واستنباط المياه، وتعبئة الجيوش، والعلم بالحروب[٥].

وخلف محمد بن لاجين بن عبدالله الحسامي (ت٧٨٠هـ/١٣٧٨م) آثارا عديدة تقدمت، ومنها (الفروسية برسم الجهاد وما أعده الله للمجاهدين من العباد)، تحدث فيه عن الفروسية والمناصب الحربية وعن القتال على ظهور الخيل والنزول بالرماح، ومقارعة الفرسان، وأساليب الجولات والكر والفر، وأنواع الرمي بالرمح والنشاب والدبوس، وكيفية اتقائها، واستخدم مصطلحات عسكرية لم تعد معروفة اليوم[٦].

وأنشأ طيبغا الأشرفي البكلمشي (ت٧٩٨هـ/١٣٩٤م) في هذا المجال (بغية المرام وغاية المرام) وهي قصيدة حول تصويب السهام، أهداها للسلطان الأشرف شعبان، كما ألف كتاب (الجهاد والفروسية وفنون الآداب الحربية)[٧].

الحربية)[٧].

وخصص أصحاب الموسوعات حيزاً جيداً منها لهذا الموضوع؛ الأمر الذي يعني اهتمام السلطة بهذا الجانب؛ فالنويري (ت٧٣٣هـ/١٣٣٢م) خصّص الباب العاشر من الجزء السادس من موسوعة (نهاية الارب) للحديث عن العلوم العسكريه[٨]، ومثله فعل ابن فضل الله العمري في كتابه (التعريف بالمصطلح الشريف) فذكر أنواع آلات الحرب، وآلات الحصار، ومنها مكاحل البارود وقوارير النفط[٩].

وكتب عمر بن إبراهيم الأوسي الأنصاري (ت٨١٥هـ/١٤١٢م) كتابه (تفريج الكروب في تدبير الحروب)، وكان يشغل وظيفة قاضي العسكر، واطلع عن كثب على ما لدى المغول من نظام حرفي وخطط وفنون عسكرية حين وقع في أسر تيمور لنك، وأشار إلى أنه وضع كتابه لإفادة الطلاب الذين يتلقون الفنون العسكرية في القلعة، وتناول فيه ما ينبغي اتخاذه من الحذر من العدو، وأساليب الدفاع، واستطلاع أخبار العدو، واستخدام الحمام الزاجل والجواسيس؛ لكنه لا يشير إلى كبار المؤلفين في الفنون الحربية ممن سبقوه، وينقل عنهم[١٠].

وأخيرا يستغرب ابنُ حجر من أحد شيوخه وهو محمد بن أبي بكر بن عبدالعزيز بن جماعة حيث أتقن علوما كثيراً حتى أن منها "الأشياء الصناعية كلعب الرمح، ورمي النشاب، وضرب السيف والنفط"، وأنه "كان من العلوم بحيث يقضى له في كل فن بالجميع"[١١]، وصنف (الأمنية في علم الفروسية)، و(الأسوس في صناعة الدبوس)،

---

١ هكذا جزم بتاريخ وفاته البغدادي في هدية العارفين ج٢ ص١٧٢.

٢ حاجي خليفة، كشف الظنون، مج١ ص٣٨٢؛ والبغدادي، هدية العارفين، مج٢ ص١٧٢.

٣Rieu, supplement to the catalogue of the Arabic manuscripts in the British Museum, p557.

٤ حاجي خليفة، كشف الظنون، مج١ ص١، ٨٩٠، مج٢ ص١٨٨٥؛ والبغدادي: هدية العارفين ج٢ ص١٧٨.

٥ النهار، العصر المفترى عليه، ص ٤٩٩-٥٠٠. وقد حققه نبيل محمد عبدالعزيز، القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية عام ٢٠٠٠م.

٦ الحسامي: محمد بن لاجين، (ت٧٨٠هـ)، الفروسية برسم الجهاد وما أعد الله للمجاهدين من العباد، ت. عارف عبدالغني، دمشق، دار كنان، ١٩٩٥م، فهرسة فهرسة الكتاب.

٧ النهار، العصر المفترى عليه، ص٥٠٠.

٨ نهاية الأرب، ج٦ ص١٣٠ -٢١٠.

٩ التعريف بالمصطلح الشريف، ص٢٠٣-٢٠٩.

١٠ يسرى عبدالغني، معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثاني عشر الهجري، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ - ١٩٩١م، ص١٣٢.

١١ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص١١٦-١١٧.

و(أَوْلَى الأسباب في الرمي بالنشاب)[١].

وكأن ابن حجر يشير إلى هذه المؤلفات خارجا عن مألوفه في تجاهلها؛ لأن المقام مقام شيخه الموسوعي في العلوم، وبما سبق يتبين قصور كتب ابن حجر التاريخية مصادر البحث عن تناول هذا الموضوع، كما يظهر أن كثيراً ممن كتبوا حول الموضوع كانوا في الأصل أهل فروسية، ويتبين أن التاريخ جهلهم، لولا ما خلفوه عن طريق آثارهم، ويشير إلى إدانة ضمنية من كتبة التاريخ تجاههم، أو أنهم لم يرقوا إلى مستوى الأعيان ليستحقوا التذكير بهم، أو يشير إلى انفصام بين الفريقين، وربما كان ذلك لأن كتبة التاريخ لا يرون في هؤلاء القدر الواجب من الثقافة المطلوبة في ذلك العصر. والأهم أن كتاباتهم ذات أهمية قصوى في الجانب العسكري كونهم عسكريين ومن أهل الخبرة، وبذلك يكون التاريخ أمام صور واقعية من الفنون الحربية في ذلك العصر، ويتبين أيضاً أن القاهرة شاركت في الموضوع مشاركة فاعلة وإبداعية.

ومن خلال ما سبق وبصورة تقريبية يظهر أن هناك حوالي ١٣ عالما كتب في علوم الحرب والجيش، حوالي ٣١% من المماليك، غالبهم تم تجاهلهم من قبل ابن حجر، وهناك شاميون بنسبة ٣٦% ويبدو أن بعضهم يعود لفئة المماليك، ومنهم من تجاهلته كتب ابن حجر أيضا، كما يظهر أنهم كتبوا حوالي ٢٦ عملا، نسبة ٧٧% من هذه الأعمال عالج مباشرة الفنون القتالية والحربية، والبقية في أمور متعلقة بالجيش وأدوات الجهاد كالخيل وغيره، كانت نسبة ٤٦% من هذا النتاج من نصيب فئة المماليك؛ وهو أمر يشير إلى أنهم بلغوا في الشأن العسكري معرفيا شأوا بعيدا، ويشير إلى تركُّز هذه المعرفة لديهم؛ لأنهم حريصون على ذلك وعلى تفوقهم العسكري، ولأن من سواهم عزف عنها إلى علوم أخرى.

٥- علم الموسيقى والغناء

هو علم يعرف منه أحوال النغم والإيقاعات، وكيفية تأليف اللحون، وإيجاد الآلات الموسيقية[٢]، ولم يكن كل مغنٍّ موسيقاراً بالمعرفة، وكذلك لم يكن كل موسيقار مغنياً، وهو كما ذكر ابن خلدون من الأشياء الكمالية التي تظهر في المجتمعات المترفهة، التي خلدت للأنس والراحة[٣]، ويعتَبِرُ كلٌّ من ابن حجر والصفدي الموسيقى أحدَ العلوم التي تؤخذ بالتعلم عن الشيوخ[٤].

في القاهرة خلال القرن الثامن اهتم السلاطين والأمراء بالموسيقى والسماع، وأغدقوا الأموال على المغنين والمغنيات وأساتذة الغناء، واستدعوهم من مدن بعيده؛ وكانت القاهرة المحطة الأخيرة لبعض هؤلآء، وكانت قصورهم تعج بهم، ويُجْزَل لهم العطاءُ بأيد سخية، وتزوج السلاطين المغنيات شغفا في غنائهن[٥]. وأسرف بعضهم في إغداق الأموال على هؤلاء، حتى أن قيمة عصبة المغنية (اتفاق) التي على رأسها بلغت مبلغا خياليا[٦]، واستدعى زوجها السلطان سنة٧٤٧هـ/١٣٤٦م معلمَها الذي علمها الغناءَ، المسمى عبدعلي العواد، فأنعم عليه بإقطاعٍ زيادة على ما في يده، وأعطاه جائزة ثمينة[٧]، وكان لانتشار الأعياد الدينية والقومية في القاهرة وولع المصريين بالأنس، وميلهم إلى الاجتماع في اللهو والمرح أثر في انتشار صناعة الغناء والمسارعة إلى تعليم الجواري وذوي الأصوات الحسنة بالغناء.

ومن تلك الأعياد المولد النبوي الذي كانت الدولة تحتفل به رسمياً، وتحضره فرق الغناء وتؤدي بعض الأغاني

---

١ البغدادي، هدية العارفين، ج٢ ص١٨٢.
٢ طاش كبري زاده، مفتاح السعادة، ج١ ص٣٥٠.
٣ ابن خلدون، المقدمة، ص٥٣٨.
٤ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص١٢٨؛ وإنباء الغمر، ج٢ ص٤٦٨؛ والصفدي، الوافي بالوفيات، ج٤ ص٢١٤-٢١٥.
٥ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٨٠، ج٣ ص٧٧، ١٦٤.
٦ المصدر السابق، ج٢ ص٤.
٧ المقريزي، السلوك، ج٤ ص٤٠.

في الوقت المعدِّ لها، ويقدم المقطوعات أرباب الصناعة والذين أيضاً يستجيبون للأغنياء وذوي الأموال لإحياء الموالد النبوية الشعبية بالمقطوعات الغنائية[١].

وبلغ الشأن بالصوفية في القاهرة أن أحلوا السماع بآلات مختلفة في المساجد مع اعتقاد مشروعيته وتقربهم به إلى الله، مع ما يرافقه من التواجد والضرب والرقص، وتغزُّل بالمردان ومحاسنهم وقدودهم وأشعارهم[٢]؛ الأمر الذي استدعى علماء آخرين للرد عليهم وتحرير الفتاوى والكتب المحرمة له. ولم يقتصر الأمر على الصوفية بل كان هناك فريق من الفقهاء والأدباء من يجادل بحلية سماع الغناء.

وممن شحذ همته للرد عليهم الشيخ ابن تيمية فله رسائل في تحريم السماع وغيرها من الملهيات، ومن رسائله (تحريم السماع) و (تحريم الشبابة) ، و(تحريم الشطرنج) [٣]، ومنهم تلميذه ابن قيم الجوزية، والشيخ تقي الدين السبكي[٤]، وقاضي القضاة بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة[٥]، وكانت ردودهم تتجه في معظمها لإنكار السماع السماع على طريقة الصوفية في عصرهم، بينما لم تتجه الدولة المملوكية البتة ولا السلطان الناصر إلى منع انتشار الملاهي والموسيقى كما زعم بعض الباحثين[٦] الذي كانت قراءته للقرائن التاريخية غير موفقة[٧].

وكيف للناصر أن يمنع الغناء والموسيقى وهو الذي استدعى المغنيات والمغنين إلى بلاطه من الآفاق، وكان لهم دور كبير في أيام الأعياد والمراسم السلطانية والدينية، واستمر في عصره نظام (ضمان الأغاني) ضريبة تفرض على المغنية والمغنيات في ربوع مصر، حتى سنة٧٧٥هـ/١٣٧٢م أيام السلطان الأشرف الذي أبطلها؛ لأنها أرهقت كاهل المواطنين، وكان ذلك بطلب المغنية الشهيرة (دنيا الأقباعي) وعدد من رجال الدين في القاهرة[٨].

ويرى الصفدي أن أرباب هذا الفن في القاهرة هم أصحاب القول الفصل في الغناء، وإذا اعترفوا بمغن أو عظموه فإن ذلك شهادة كبيرة له[٩]؛ بما يشير إلى المرتبة الجيدة التي وصلها علم الموسيقى وصنعة الغناء في القاهرة، ويظهر ويظهر بذلك خطأ من قال بأن الموسيقى في عصرهم كانت حلقة مظلمة من حلقات التاريخ الموسيقي، ويبدو أن الذي حمله على قول هذا هو الظرف السياسي الذي كتب بحثه هذا فيه، والمتميز بالعداء للمماليك[١٠].

وممن كان لهم دور في هذا العلم وتلك الصنعة ابن التراكيشي، علاء الدين علي بن عبد الحميد الحنبلي (ت٧٠٩هـ/١٣٠٩م)، كان فقيهاً حنبليا ماهراً، ومدرساً مناظراً[١١]، وهو شيخ ابن كر الحنبلي أشهر موسيقاريي القاهرة الآتي[١٢]. وقالوا أيضا عن عبدالعزيز المعروف بابن الفصيح (ت٧١٠هـ/١٣١٠م) المتوفى بالقاهرة، بأنه كان أعجوبة زمانه في صناعة الغناء[١٣].

---

١ ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٣٥١؛ والمقريزي، السلوك، ج٥ ص٢٠٦.

٢ العبدري، المدخل، ج٣ ص٩٣، ٩٨، ١١٩، ١٢٢؛ وابن قيم الجوزية، الكلام على مسألة السماع، ص١٦١، وينظر الفهرس.

٣ الصفدي، أعيان العصر، ج١ ص٢٤٤.

٤ الكلام على مسألة السماع، ص١٦١.

٥ في رسالة حكم السماع، مخطوطة في خمس صفحات، من مخطوطات الأزهر رقم النسخة ٣٣٣٥٤٣.

٦ النهار، العصر المفترى عليه، ص٥٠٩.

٧ فمنع الأميرين بيبرس وسلار سنة ٧٠٦هـ دخول الشخاتير والمراكب إلى الخليج الحاكمي ليس لأجل منع الغناء ولكن لمنع المنكرات الأخرى كالزنا، وشرب وشرب الخمور، والحوادث الجنائية التي كانت تحدث، ومنع الناصر المغنية (زهرة) من الاتصال بولده لأنه بها تلهى عن زوجته بنت الأمير، وكذلك تشديده ضد المغنيات وضامنة المغاني بشأنهما كان في إطار الضغط على ولده (أنوك) وعليهن حتى لا يسلبنه عقله، وكان يريده رجل دولة ولما علم بمكيدة (أنوك) وحاشيته في إشغاله بالصراع مع أمرائه حتى يتركهم وشأنه همّ بقتل ولده، وكان معروفا بالقساوة والشدة. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢ ص٧٠٠؛ والسلوك، ج٣ ص٢٧٩؛ وابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٤١٨.

٨ ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص٥٨-٥٩، ١٢٧، ١٦٣-١٦٤؛ والمقريزي، السلوك، ج٤ ص٣٥، ج٣ ص٢٧٩.

٩ الصفدي، أعيان العصر، ج٢ ص٣٠٨.

١٠ الحفني: محمود أحمد، تاريخ الموسيقى، مقالة في كتاب مؤتمر الموسيقى العربية المنعقد عام١٩٣٢م، القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٩٣٣م ، ج١ص١٥، في أيام الملك فؤاد.

١١ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٥٨.

١٢ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٤ ص٢١٤-٢١٥.

١٣ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٣٨٤.

وهناك القاضي فخر الدين الأنصاري عثمان بن علي المصري المولود بداريا في الشام والمتوفى (٧١٧هـ/١٣١٧م) تفنن في العلوم الدينية والفقه، ودرّس بالجامع الطولوني، ثم ولي قضاء قوص، وكان مشاركاً في الأدب والموسيقى[١]. وتعلم عمر بن خضر الدشتي الأصفهاني الغناء[٢]، وكان قد نكب هو وأسرته بقتل (هولاكو) لوالده، وقدم الشام فاختصه (تنكز) ليعلم جواريه الغناء، ثم استدعاه الناصر لما بلغه خبره ورتّب له راتباً، وأعطاه خبز حلقة، وصنّف (الكنز المطلوب في الدوائر والضروب)[٣].

وعاصره الأمير محمد بن جنكلي الذي قدم مع الده من ديار بكر إلى القاهرة سنة٧١٣هـ/١٣١٣م، وتحنبل بعد ما كان حنفياً، وتعلم في عدة علوم، وتخرّج في الحديث على يد ابن سيد الناس، وحدّث، وصار علامة في فقه السلف، وأولع بالأدب، وشارك في الطب والموسيقى، وكان عارفاً بالشطرنج والنرد، ويهيم صبابة مع العفة، وجمع بين فضيلتي السيف والقلم[٤].

ومنهم كتيلة الجنكي الماردیني (ت٧٤٠هـ/١٣٣٩م تقريباً) قرأ النحو والأدب، وأبدع أصواتا في الغناء مشهورة، واستدعاه الناصر بن قلاوون من ماردين فبلغ عنده مكانة عظيمة، وعلّم جواريه الغناء حتى حذق كثير منهن، وانتهى إليه حسن الطرب بالجنك[٥] العجمي[٦].

وكانت هناك مغنيات كثيرات ومغنون كثر، لم يشتهر منهم فيصير عيناً إلا من اتفقت له علاقة بأحد رموز السلطة المملوكية ممن كانت أضواء التاريخ مسلطة عليهم، ومن أولئك المغنية (زهرة) التي شغف بها الأمير آنوك ابن الناصر، وكانت سبباً في مرضه ثم موته سنة٧٤٠هـ/١٣٣٩م[٧]. ومنهن حوبي العوّادة (ت بعد٧٤٠هـ/١٣٣٩م) التي اشتراها بكتمر الساقي بعشرة آلاف دينار مصرية، وقيل لم يدخل مصر لها نظير، ولما علمت بموت مولاها بكتمر كسرت عودها[٨]، ومنهن (دبيقه) مغنية عرب الجيزة[٩].

وكان للجارية السوداء المولدة (اتفاق) حظوة كبير لدى ثلاثة سلاطين من أولاد الناصر فتزوجوها واحداً تلو الآخر، وهم الصالح إسماعيل، وأخوه الكامل، وأنجبت لهما، ثم أخوهما المظفر، ولم يشغفوا بها لجمالها ولكن لحسن أدائها الغنائي، فأغدقوا عليها الأموال والمجوهرات بشكل عبثي، وكانت قد اشترتها ضامنة مغاني القاهرة من نظيرتها ببلبيس، وسلّمتها لعبد علي العجمي لتدريبها الغناء ثم قدمتها لبيت السلطان الناصر[١٠]. ومن الأمراء من كان عارفاً بالموسيقى وهو ملكتمر الناصري (ت حوالي٧٤٨هـ/١٣٤٧م)[١١]، والأمير ركن الدين عمر بن طقصو (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، صنّف في الموسيقى وغيرها[١٢].

وكتب المؤرخ والأديب كمال الدين جعفر بن ثعلب الأدفوي (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م) (الإمتاع في أحكام السماع)[١٣]، وصفه ابن قاضي شهبة[١٤] بأنه "كتاب نفيس"، أبان فيه عن اطلاع كثير، وأنه كان يميل إلى سماع الغناء ميلاً كبيراً

١ المصدر السابق، ج٢ ص٤٤٦.
٢ نسبة إلى دشت كانت تابعة لمدينة أصفهان. الحموي، معجم البلدان، ج٢ ص٤٥٦.
٣ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص١٦٤؛ وقد وهم الزركلي اذ وصفه قائلاً: (فقيه، أفتى) ولا تعطي المصادر التي استند إليها هذه المعلومة.
٤ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٤١٦-٤١٧.
٥ آلة وترية من جنس المعازف، تغمز أوتارها بالأنامل. الموسوعة العربية الميسرة، ط٣، بيروت وصيدا، المكتبة العصرية، ٢٠٠٩م، ج٣ ص١٢٣٣.
٦ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٢٦٤-٢٦٥.
٧ المصدر السابق، ج١ ص٤١٨.
٨ المصدر السابق، ج٢ ص٩٥.
٩ المقريزي، السلوك، ج٤ ص٥٩.
١٠ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٨٠، ج٢ ص٤؛ والمقريزي، السلوك، ج٤ ص٣٥.
١١ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٣٥٨.
١٢ المقريزي، السلوك، ج٤ ص٩٧.
١٣ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٥٣٥.
١٤ طبقات الشافعية، ج٣ ص٢٠.

ويحضره، وذكر في مقدمته اتجاهات الناس حول الغناء[1]، ومع ذلك فلا يعنينا هذا الجانب الفقهي منه بل الأهم أنه ضمّنه فوائد موسيقية من آلات العزف والضرب[2].

وممن كان يضرب العود ولكن سرا الطبيب ناصر الدين محمد بن محمد بن عبدالله ابن صغير (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م)[3]، وابن الصائغ محمد بن عبدالله بن محمد الأموي المروي (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م) الذي كان يعرف العروض معرفة تامة، ويلعب بالعود[4].

وأشهر موسيقيي القاهرة وإمام أهل عصره فيها هو محمد بن عيسى بن حسن بن كر المرواني البغدادي ثم المصري الحنبلي (ت٧٦٣هـ/١٣٦٢م)، قدم أبوه من بغداد بعد اجتياحها من المغول، وولد ونشأ الولد بالقاهرة، وتفقه حنبلياً وحفظ كتاباً فيه، وسمع الحديث وولي مشيخة زاوية بجوار المشهد الحسيني، وأخرى بشاطئ الخليج، وأخذ علم الموسيقي عن ابن التراكيشي وغيره، ففاق الأقران، وصار فرداً لا يلحق به، وحرر مذاهب القدماء، وأخذ نفسه بأن لا يمر به صوت مما ذكره أبو الفرج إلا ويجيء به على وجهه، وكان يغني فيُضْحِك الحاضرين، ثم يغني فيُبْكِيهم، ثم يغني فينوِّمهم، وادعى أنه اكتشف أخطاء للفارابي وغيره، وصنف تصنيفاً بديعاً في علم الموسيقى[5] هو (غاية المطلوب في علم الأنغام والضروب) سمع منه الصفدي مقدمته سنة٧٤٥هـ/١٣٤٤م[6].

وهناك أستاذ موسيقي بارع ومن أصل بغدادي أيضاً، وهو نظام الدين يحيى بن عبدالرحمن الجعبري المعروف بابن النور الحكيم (ت بعد٧٧٠هـ/١٣٦٩م)، كان كاتباً وفناناً (نقاشاً) وحاذقاً وموسيقاراً متقناً للألحان والأنغام، وله فيها أقوال وأعمال ينقلها عنه أرباب هذا الفن في الشام ومصر، وكان يغني في خلوة الأكابر مقطوعات غنائية مدهشة[7].

واستهدى السلطان الناصر ابن قلاوون العواد علي بن عبدالله المارديني، الملقب أمير علي (ت٧٧٢هـ/١٣٧٠م) من أمير (ماردين) لما بلغه حسن أدائه، وحظي لدى الناصر إلى الغاية وكان لا نظير له، وبمجرد أن مات الناصر تاب عن ضرب العود وكسر آلاته، وكان في الأصل يحفظ القرآن ويحفظ متنا في الفقه الحنفي، وقد ولي نيابة الشام ثم مصر إلى أن مات[8].

واشتهرت مغنية السلطان حسن المسماة دنيا الأقباعي الدمشقية (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م) بالتقدم في صناعتها، وكان السلطان قد استدعاها على البريد وأكرمها، ثم وفدت على الأشرف شعبان وحظيت عنده، وكانت سبباً في إسقاط ضريبة المغاني كما تقدم[9].

وانتهت رئاسة الموسيقى إلى عارف بن محمد العجمي (ت٧٨٠هـ/١٣٧٨م) الذي نزل في صوفية البيبرسية[10]، كما انتهت صنعة العود بعده إلى الأستاذ شمس الدين محمد بن محمد المعروف بابن السيوري العماري الموصلي العوّاد المغني (ت٧٨٣هـ/١٣٨١م) وكان عارفاً بالموسيقى حسن الخط، ونال حظوة كبيرة في الدولة، فإذا مرض عاده جميع أعيان الدولة، وأُقْطِع أعمالا تعود عليه بألف دينار سنوياً[11]، و"هو صاحب التصانيف الهائلة في

---

١ الأدفوي: جعفر بن ثعلب، (ت٧٤٨هـ)، الإمتاع في أحكام السماع، موقع المكتبة المركزية للمخطوطات الإسلامية، تحت رقم١٠٤٧، القاهرة، وزارة الأوقاف، الأوقاف، ص ٢ –خ-.

٢ الأدفوي، الطالع السعيد، مقدمة المحققين ص٥.

٣ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص١٩٠-١٩١.

٤ المصدر السابق، ج٣ ص٤٨٦؛ والصفدي، أعيان العصر، ج٤ ص٥٤٠.

٥ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص١٢٨.

٦ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٤ ص٢١٤-٢١٥.

٧ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص٤١٧-٤١٨؛ والصفدي، أعيان العصر، ج٥ ص٥٦١، ٥٦٣، ٥٦٤.

٨ اين حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٧٧.

٩ ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص١٦٣-١٦٤.

١٠ المصدر السابق، ج١ ص١٨٤.

١١ المصدر السابق، ج١ ص٢٥٢.

الموسيقى" على حد عبارة ابن تغري بردي[1].

وبلغ الحال أن كان شمس الدين محمد بن عمر المصري، المعروف بابن الجوخي (ت٧٧٨هـ/١٣٧٦م) الذي كان عالماً بالموسيقي يعلِّم أهل الوعظ الألحان[2]، وربما كانوا يدخلون مقطوعات غنائية في وعظهم، وانتهت صنعة الغناء إلى الأخوين إبراهيم وخليل المشبّب ابني الجمال توفيا سنة٧٨٩هـ/١٣٨٧م، وهما يغنيان في عيد المولد النبوي في بيت أحد الأعيان القاهريين بعد أن سقط البيت عليهم[3].

وكان اشقتمر بن عبدالله المارهين الناصري (ت٧٩١هـ/١٣٨٨م)، نائب حلب والشام يعرف ضرب العود، ويحسن الموسيقى[4]، ووصل إبراهيم بن بابى العوّاد المغني الرومي الأصل (ت٨٢١هـ/١٤١٨م) المنتهى في جودة الضرب بالعود، ولم يخلف مثله[5]، وكان رأساً في فن الموسيقى، وأعجوبة زمانه، وأحد ندماء السلطان المؤيد شيخ[6].

شيخ[6].

وعرضت موسوعات ذلك العصر للكثير من أخبار أهل الموسيقي والغناء عبر العصور فخصص النويري في (نهاية الأرب) أكثر من جزء للحديث عن الغناء والموسيقي، فذكر مواقف السابقين من الغناء واخبارهم وأخبار المغنين والقيان المغنيات، كما تناول ما يحتاج إليه المغني ويضطر إلى معرفته، وما قيل في الغناء وما وصفت به القيان مع وصف آلات الطرب[7]. وأفرد ابن فضل الله العمري جزءاً كاملاً من موسوعة (مسالك الأبصار) للحديث عن الموسيقى وأهلها وتراجم أعلامها[8].

ومن خلال ما سبق وبصورة تقريبية يتبين أن هناك ٢٤ شخصا ذكرتهم المصادر من المغنين والمغنيات، منهم ٨ فقط شاركوا في النتاج العلمي في الموسيقى والغناء، وقد كتبوا ١٠ أعمال، ٦ من هذه الأعمال كتبها عراقيون، وعملان كتبهما مصريان من أصول تعود لخارج القاهرة، وعمل واحد لتركي مملوكي، وآخر لأصفهاني، وبهذا يظهر أن بغداد الموسيقية ظلت تؤثر في القاهرة من خلال بعض من هاجر إليها في هذا المجال، كما يتبين أن بعض رجال الدين كانوا على معرفة راسخة بالموسيقى.

ثانيا: الجغرافيا

هي كلمة يونانية وتعني (وصف الأرض)[9]، وهو علم يعنى بوصف الأرض وما عليها من مظاهر طبيعية واقتصادية وسكانية[10]، وإليه تنسب علوم فرعية أخرى مثل علم مسالك البلدان والأمصار، وعلم معرفة البُرُد ومسافاتها، وعلم خواص الأقاليم[11]. وأضاف العرب والمسلمون في أبحاثهم الجغرافية حقولاً متنوعة وهي الحقل البلداني، والحقل الطبيعي، والحقل الفلكي[12]، وبحثوا هذا الموضوع الأخير (الفلكي) في علم الفلك (الهيئة) بصورة

١ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١ ص١٨٠، ولا نعلم عنها شيئاً، شأنها شأن نتاج الآخرين.
٢ ابن حجر، إنباء الغمر، ج١ ص١٤٦.
٣ المصدر السابق، ج١ ص٣٥١.
٤ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١ ص٣٢٣.
٥ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص١٧٧.
٦ السخاوي، الضوء اللامع، ج١ ص٣٢.
٧ النويري، نهاية الأرب، ج٤ ص١٣٤- ٣١٢، ج٥ ص٣- ١٢٢.
٨ الجزء العاشر.
٩ حاجي خليفة، كشف الظنون، مج١ ص٥٩٠.
١٠ حبش، المسلمون وعلوم الحضارة، ص٦١.
١١ طاش كبري زاده، مفتاح السعادة، ج١ ص٣٦١-٣٦٣.
١٢ أما الحقل البلداني أو ما يسمى بـ (الجغرافيا الإقليمية) فيشمل الكتابات الإقليمية والبشرية، وتمثل أهم الإضافات الجغرافية العربية إلى العلم الجغرافي القديم، والحقيقة أن المعلومات ذات الصفة البشرية هي أعظم قيمة في كتب الجغرافية العربية من أية معلومات طبيعية وطبوغرافية أخرى، ويمكن القول بأن المسلمين هم كانوا من أوائل من كتب في هذا الحقل، ومن المواضيع التي طرقوها وكانوا رواداً فيه ما يطلق عليه اليوم (جغرافية المدن)، ومثلها كتب الرحلات التي ضربوا فيها بسهم وافر وكلاهما ينتميان إلى الحقل البلداني. وتناولوا أيضاً الحقل الطبيعي بالبحث في النواحي المناخية وصف المياه وتشكل الأرض، وأوردوا

أكبر.

تحتل مصر المكانة الأولى في القرن الثامن الهجري فيما يتعلق بسعة النتاج الأدبي في محيط الجغرافيا، مؤكدة استمرار الأنماط الجغرافية التي هي نمط الخطط والفضائل، ونمط الموسوعات، والرحلات، والمؤلفات المتعلقة بمسح الأراضي التي جاءت من الروكات (المسوح الرسمية). ولكون الكتب الجغرافية بمختلف أنماطها تختلط بمادة كثيرة من التاريخ البشري والتاريخ الطبيعي، ومواضيع شتى فإنه من حسن الترتيب أن نراعي السياق الزمني لنتاج القاهرة ونشير إلى مميزات كل منه، وخير مثال خطط المقريزي التي هي لون جغرافي خاص، ولكنها أيضاً بتعدد موضوعاتها أعيت بعضاً من الباحثين ودفعتهم للتساؤل هل هي كتاب أخبار أم جغرافيا؟.

من المهم الإشارة إلى جغرافي قاهري خُتم به القرن السابع، وترك أثراً جغرافياً مهماً وهو الكاتب محيي الدين عبدالله بن عبدالظاهر الجذامي المصري وألّف كتاب (الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة) الذي كان إلى وقت قريب يُظَنُّ فقدانه[١]،

حتى عثر عليه أحد الباحثين[٢] المصريين، وأخرجه إلى النور، ويعتبر أول وأهم كتاب يخصص لذكر خطط مدينة القاهرة[٣]، قبل خطط المقريزي؛ "ففتح فيه - كما يقول المقريزي- باباً كانت الحاجة داعية إليه"[٤]. وتدور مباحثه حول خطط القاهرة الأولى وتطورها إلى عصره، وأغلب المعالم التي ذكرها في وصفه تعود للعصرين الفاطمي والأيوبي، فذكر خططها، وحاراتها، وقصورها، وجوامعها، ومدارسها، ومشاهدها، ومساجدها، وحماماتها، وتربها، ودورها الشهيرة، وضواحيها، وبساتينها[٥]، غير أنه للأسف لم يصف أي شيء من عمائر السلاطين الذين عاصرهم (بيبرس، وقلاوون، والأشرف خليل)[٦].

على أنه يجب القول أن ابن عبدالظاهر كان مسبوقاً في هذا المجال بكتاب آخرين بدءا من عبدالرحمن بن عبدالحكم (ت٢٥٧هـ/٨٧٠م) إلى هذا العصر[٧]. وبهذا يتبين أن نضج كتابات الخطط في القرنين الهجريين الثامن والتاسع كانت له جذور متقدمة.

ويبدو أنه قد كتب في نمط الفضائل البلدانية الحسن بن عبدالله الصفدي العباسي (كان حياً سنة ٧١٧هـ/١٣١٦م)، في كتابه (نزهة المالك والمملوك في سير من ولي مصر من الملوك)، حيث يعالج القسم الأول من القسمين الفضائل، وتحمل بعض مخطوطاته اسم (فضائل مصر)[٨]، وتم تأليف الكتاب سنة٧١٦هـ/١٣١٦م، وسنة٧١٧هـ/١٣١٧م[٩].

ويأتي بعد ذلك جمال الدين محمد بن إبراهيم الأنصاري المروي الأصل، المصري المولد والدار الملقب بالوطواط (ت٧١٨هـ/١٣١٨م) اشتهر بالأدب[١٠]، وترزّق بالوراقة، وكتب (مباهج الفكر ومناهج العبر)[١١]، "تعب

معلومات جيدة تتعلق بتوزيع الحرارة على سطح الأرض وعلاقاتها بالنبات والحيوان والإنسان وأثر أشعة الشمس على البشر، وما شاكل ذلك، وفي الحقل الفلكي أسهموا إسهاماً فعالاً. خصباك: شاكر، الجغرافية عند العرب، ط١، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٦م، ص١٢٥ ،١٢٦، ١٢٧، ١٢٨.

١ عنان: محمد عبدالله، مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية، القاهرة، مهرجان القراءة للجميع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨م، ص٥٢.

٢ أيمن فؤاد السيد الذي حققه، وطبعه الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، مكتبة الدار العربية للكتاب -القاهرة.

٣ هنا المقصود بالقاهرة المعنى الأخص الذي يقابل الفسطاط.

٤ المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج١ ص١٣.

٥ ينظر ابن عبد الظاهر: عبد الله بن عبد الظاهر الجذامي، (ت٦٩٢هـ)، الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، ت. أيمن فؤاد السيد، ط١، القاهرة، مكتبة الدار العربية للكتاب، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م، الفهرس.

٦ ابن عبد الظاهر، الروضة البهية الزاهرة، مقدمة المحقق، ص٣، ٥، ٦.

٧ عنان، مصر الإسلامية، ص٤٣، ورغم أن كتاب ابن عبدالحكم من مصادر المقريزي الرئيسة في المواعظ إلا أنه اعتبر أن أول من كتب فيها هو الكندي أبو عمر محمد بن يوسف (ت ٣٥٠هـ). المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج١ص١١، ١٢، ١٣.

٨ كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، ج١ ص٣٨٤-٣٨٥.

٩ الصفدي، نزهة المالك والمملوك، ص٥٠٣- ٥٠٨.

١٠ كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، ج١ ص٣٨٧.

١١ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٢٩٨- ٢٩٩.

عليه وجوده وما قصّر فيه"[1]، قسمه إلى أربع فنون؛ الأول: في الفلك والأجرام السماوية، والثاني: في الجغرافيا والأجناس البشرية، والثالث: في الحيوان، والرابع: في النبات، والقسم الثاني المكرس للجغرافيا يبحث في بابه الأول في خلق الأرض وهيئتها، والثاني: في الجبال والمعادن، والثالث: البحار، والرابع: في العيون والآبار، والخامس في ذكر أسباب من سكن المعمورة، والسادس: في ذكر البلاد ونواحيها وما ملك المسلمون منها، والسابع في طبائع البلاد وأخلاق من سكنها من العباد، والثامن: في فن المباني التي بقي أثرها ووعظ خبرها، والتاسع: في ما وصفت به المعاقل والمنازل[2]، وهو يمثل موسوعة في العلوم الطبيعية والجغرافية في أسلوب المصنفات الأدبية. ولأنه مصنف نقلي متأخر فهو لا يمثل خطوة هامة في تطور الأدب الجغرافي لكن أهميته في أنه يسوقنا إلى معرفة التاريخ المبكر للموسوعات[3] كما عند النويري والعمري التي تعتبر طرازاً قاهرياً صرفاً قل أن تجد له مثيلاً في أي بلد من بلدان الشرق الأخرى[4].

وفي مجال الخطط يظهر جغرافي قاهري حفظ ذكره المقريزي في خططه باعتباره مصدرا مهما من مصادره رغم جهل المصادر الأخرى قبل المقريزي بكونه كتب في الخطط شيئاً[5]، إنه القاضي المحدِّث محمد بن عبدالوهاب الزبيري، الملقب بابن المتوَّج (ت٧٣٠هـ/١٣٢٩م)، الذي كتب (إيقاظ المتغفل واتعاظ المتأمل) في تاريخ مصر وأحوالها وخططها[6]، وقد صرّح المقريزي أنه آخر ما رأى من مؤلفاتٍ في خطط مصر (الفسطاط)، وانتهى به الحديث فيها في سنة٧٢٥هـ/١٣٢٤م[7]. ذكر فيه أخطاطها، وحاراتها، وأزقتها، وخوَخها[8]، وأسواقها، ورحابها، وكيمانها[9]، وأقباءها، وبُرُكها، وسقائفها[10]، ومطابخ السكر فيها، وشوارعها، ومحارسها، وجوامعها، ومساجدها، ومدارسها، وزواياها، ورُبُطها، وأحباسها وأوقافها، وحماماتها، وكنائسها، وديارات النصارى[11] بها[12].

لقد نقل عنه المقريزي فيما يتعلق بها معلومات كثيرة، ومعلوماته تتسم بالإحصائية والدقة فيما يرويه عن مشاهداته، وحرص المقريزي أيضاً على تسمية المواضع التي تغيرت أسماؤها بذكر أسمائها في أيامه، والمقارنة في الأحوال، والتصحيح للوهم الذي يقع فيه ابن المتوّج[13].

وهناك عماد الدين إسماعيل الأيوبي، المشهور بأبي الفداء (ت٧٣٢هـ/١٣٣١م) ألف تاريخه المشهور كما تقدم كما ألف كتابه الجغرافي (تقويم البلدان)[14]، ويكشف في تبويبه لمادة كتابه (تقويم البلدان) عن مقدرة ملحوظة في التأليف، وقد قسم كتابه إلى قسمين: الأول على هيئة مقدمة في الكوزموغرافيا المعهودة عن تقسيم الأرض وخط الاستواء والأقاليم السبعة والمعمور من الأرض ومساحتها ووصف قصير للبحار والبحيرات والأنهار والجبال. وأما القسم الثاني فينقسم إلى ٢٨ قسماً بحسب البلدان التي تكلم عنها، وهو جداول مكرسة للكلام عن الأقاليم، وقد وجه اهتمامه إلى الجغرافيا الوصفية غير أن الجغرافيا الرياضية (المبنية على حسابات رياضية لتحركات الأجرام

١ الصفدي، أعيان العصر، ج٤ ص٢٠٣.
٢ كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، ج١ ص ٤٠٦.
٣ المرجع السابق، ج١ ص٤٠٧.
٤ المرجع السابق، ج١ ص٤٠٥.
٥ فلم يذكر في الدرر الكامنة إلا اسمه ونسبه وولادته ووفاته، وشيخاً من شيوخه، وأنه حدّث. ينظر الدرر ج٤ ص٣٦؛ بينما لم يذكره ابن قاضي شهبه ولا السبكي في طبقاتهما.
٦ المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج١ ص١٣، ج٢ ص١٢.
٧ المصدر السابق، ج٢ ص١٢.
٨ الخوخة: الخَوْخَةُ كُوَّة في البيت تؤَدِّي إليه الضوء والخَوْخة مُخْتَرَقٌ ما بين كل دارين لم ينصب عليها باب. ابن منظور: لسان العرب ج٣ ص١٤. والمعنى الثاني هو المقصود في المواعظ والاعتبار.
٩ جمع كوم، وهي التلال المشرفة. الزبيدي، محمد بن محمد (ت١٢٠٥هـ): تاج العروس من جواهر القاموس. مادة (كوم)، باب الميم فصل الكاف.
١٠ جمع سقيفة، وهي المكان المسقوف.
١١ محلات العبادة.
١٢ المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢ ص١٢.
١٣ المصدر السابق، ج١ ص٣٤٨، ٧٩٠، ٧٩٥، ٧٩٥، ٨٢٤، ٩١٤، ج٢ ص١٥،١٢، ١٦، ١٧، ١٩، ٢١، ٢٢، ٥٣٦، ٥٥٧، ج٣ ص١٦٢، ١٦٧، ١٦٨، ٢٣٥.
١٤ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٣.

السماوية في فلكها، وفي تعاقب الليل والنهار، والفصول الأربعة) حظيت بمكانة كبيرة في كتابه[١].

ويعتبره المؤرخون للعلوم الاجتماعية همزة الوصل بين الجغرافيا الرياضية والجغرافيا الأدبية[٢]. ومعلوماته حسنة حسنة الترتيب مستقاة من آثار مدونة، ومن قصص التجار والرحالة أحياناً، ويلاحظ لديه بعض الخلط في القسم الخاص بالهند، وبعض التخبط في معلوماته عن الصين[٣]، ومع ذلك فإن Reinaud يعتبر أن العصور الوسطى الأوربية لم تعرف كتاباً يمكن مقارنته بكتابه[٤].

ونلتقي مرة أخرى مع النويري (ت٧٣٣هـ/١٣٣٢م) بصورة أكثر نضجاً مما كان عليه لدى الوطواط في أدب الموسوعات، الأدب الذي يعتبر طرازا مصريا قاهريا صرفا، وعلى الرغم من أنها عُملت من أجل كتبة الدواوين الذين كانوا زينة الجهاز الكتابي والإداري لمصر آنذاك، إلا أن جميع المثقفين اهتموا بمطالعتها مما جعل مؤلفيها يولون اهتماما كبيراً للأسلوب الأدبي، ولا تقف أهميتها عند حد الجغرافيا وحدها بل إنها بنفس القدر تولي اهتمامها أيضاً إلى التاريخ والحضارة[٥]. وهو خير من يمثل هذا النمط الكتابي وأنضجهم، الذي ظفر بترجمة قصيرة لدى ابن حجر[٦]، لكنه لم يذكر أن اسم الكتاب (نهاية الأرب في فنون الأرب)، ولا أنه نُكِبَ من قبل الناصر وضُرِبَ بالمقارع بوشاية الموظف الذي قرَّبه إلى السلطان[٧]، ويبدو أن النويري توفّر أخيراً لكتابة هذه الموسوعة الأدبية بعد تلك النكبة النكبة كما يلوح من إشاراته في مقدمته في نهاية الأرب[٨].

لقد قسم كتابه (دائرة المعارف في عصره) إلى خمسة فنون؛ الفن الأول: في السماء والآثار العلوية والأرض والمعالم السفلية، والثاني: في الإنسان، والثالث: في الحيوان، والرابع: في النبات، والخامس: في التاريخ[٩]، وقد شغل شغل القسم الجغرافي القسمين الرابع والخامس من الفن الأول وأورد فيه تلك المعلومات المعروفة عن الأرض والجبال والبحار والجزائر والأنهار، والعيون، والغدران، وطبائع البلاد، وأخلاق سكانها، وخصائصها، والمباني القديمة والمعاقل[١٠].

ولسوء الحظ فإن القاهرة لم تظفر برحالة يمكن أن يكون من نصيبها حتى الآن، فكل من العبدري (ت حوالي٧٢٠هـ/١٣٢٠م)[١١]، وابن رشيد، أبو عبدالله محمد بن عمر السبتي الفهري (ت٧٢١هـ/١٣٢١م) الذي قام برحلة وكتبها في (ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين ومكة وطيبة)[١٢]، والتي أطلق عليها ابن حجر اسم (الرحلة المشرقية) وأنها "في ستة مجلدات، وفيه من الفوائد شيء كثير"، وذكر أنه وقف عليه وانتخب منه[١٣]، ورغم أن كليهما أنجز دورا علميا في القاهرة لكن لأنه تمت رحلة كليهما في القرن السابع الهجري فليس من موضوع هذا البحث الحديث عنهما. ويتضح أن عشرات الرحالين من القطرين الأندلسي والمغربي تقاطروا على الشرق بما جعل الرحلة أدبياً مغربياً أندلسياً بحق.

---

١ كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ج١ ص٣٩٢، ٣٩٣.
٢ الدفاع، رواد علم الجغرافيا، ص١٩٩.
٣ كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، ج١ ص٣٩٠، ٣٩٤.
٤ المرجع السابق، ج١ ص٣٨٩.
٥ كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، ج١ ص٤٠٥.
٦ ابن حجر، الدر الكامنة، ج١ ص١٩٧.
٧ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٧ ص١١١.
٨ نهاية الأرب، ج١ ص٥، ٦.
٩ المصدر السابق، ج١ ص٥-١٧.
١٠ المصدر السابق، ج١ ص١٨٧-٣٨٨.
١١ محمد بن محمد. الزركلي، الأعلام، ج٨ ص٣٠٩.
١٢ المطبوع منها اليوم الجزء الثاني (تونس عند الورود)، والجزء الخامس (الحرمان الشريفان ومصر والاسكندرية عند الصدور) تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، وقد وهم صاحب العصر المفترى عليه ص٥٢٦ حيث ذكر أن أبا عمر عبدالله بن رشيد النشريسي هو الذي قام برحلة بين ٦٧٣هـ و٧٠٠هـ، والحقيقة أنه هو أبو عبدالله بن رشيد السبتي هذا.
١٣ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤ ص١١١.

ويدخل في إطار البحث الرحالة أبو البقاء خالد بن عيسى البلوي القشوري[1] (ت بعد٧٦٧هـ/١٣٦٥م)[2]، الذي رحل رحل نحو المشرق قاصداً للحج وطالباً للعلم في صفر سنة٧٣٦هـ/١٣٣٥م[3]، وجال خلال هذه الرحلة بلدان المغرب العربي والديار المصرية والشامية والحجازية لمدة خمسة أعوام إلا شهرين وثمانية عشر يوماً، ودخل بلدته قافلاً في شهر ذي الحجة٧٤٠هـ/١٣٣٩م[4]. دخل القاهرة في ١٣ رجب ٧٣٧هـ/٢١ فبراير ١٣٣٧م في عهد الناصر ابن قلاوون، ووصفها وصفاً بديعاً، واندهش لكثرة أهلها، والتقى علماءها ولا سيما أبا حيان الأندلسي لتوشج العلاقة بينهما بسبب الأصل المكاني لكليهما، وقرأ عليه في القراءات والنحو، وفي تفسيره (البحر المحيط)، وأطنب في الثناء عليه، كما التقى بالإمام تقي الدين علي بن عبدالكافي السبكي بمنزله في القاهرة، والمحدث الشيخ محمد بن علي الأطفيحي القلعي وغيرهم، وتتلمذ عليهم في كتب ذكرها[5].

تجاهله ابن حجر رغم أنه ترجمه لسان الدين ابن الخطيب في كتابيه (الإحاطة)[6]، و(الكتيبة الثامنة)[7]، وهو من مصادره، وقد أثنى عليه في كليهما إلا أنه اتهمه في (الإحاطة) بأنه وصف في رحلته "البلاد ومن لقي بفصول جلب أكثرها من كلام بعض الأدباء"، بينما ذكر عنه في (الكتيبة) أنه "دوّن رحلته فأحسن وطرّف، وحلّى وعرّف" فالتقط أحد المُحْدَثين[8] كلام ابن الخطيب ليقول عنه: "ولكنه نقل كثيراً عن غيره من المؤلفين والرحالة، ولا سيما عن ابن جبير، فقد أخذ عنه وصف الإسكندرية والقاهرة ومكة والمدينة". غير أن هذا الاتهام الأخير كان جائراً؛ حيث أورد (البلوي) في غالب رحلته معلومات مختلفة تماماً عن معلومات ابن جبير، وبأسلوب يتناقض مع أسلوب ابن جبير، وأورد أرقاماً وإحصاءات مختلفة واعتنى بلقاء المشاهير، وتتلمذ عليهم في كتب مشهورة بخلاف ابن جبير، وكيف يمكن لظروف ابن جبير وعلماء عصره في القرن السادس الهجري أن يكونوا هم ظروف البلوي وعلماءه.

ما قصده ابن الخطيب هو أن (البلوي) أغرق في استخدام الأشعار التي وظفها في رحلته، وأخذها عن العماد الأصفهاني وغيره من الأدباء، ومع ذلك ينبغي الاعتراف أنه أخفى معلومات كثيرة تحت الركام الهائل الذي استخدمه من المحسّنات البديعية طول رحلته، كما كانت تستهويه بعض المبالغات والأساطير التي حفل بها عصره.

وبهذا يتبين أن علماء القاهرة الأصليين لم يؤلفوا في جغرافيا الرحلات؛ لأنهم كانوا ببلد يُرْحَل إليه، وليس يُرْحَلُ منه؛ لذا فلم يستهوهم أدب الرحلات.

ثم نلتقي بكتاب (جامع الفنون وسلوة المحزون)[9] الذي قطع ابن حجر بكونه من تأليف الشيخ نور الدين علي بن عبدالرحمن بن شبيب الحنبلي الحراني، الأديب المتطبب، سمع منه إبراهم بن أقوش سنة٧٤٧هـ/١٣٤٦م[10]، وهو كتاب أدبي ينتمي إلى نمط الكوزموغرافيا، ويعتبر مثالاً جيداً لما طرأ على عادتها القديمة من تبسيط وتقريب إلى أفهام الجمهور في العصور التالية حتى أصبحت تتمتع برواج كبير في أوساط القراء[11].

ويلقانا مثالٌ آخر على أدب الموسوعات القاهري ومع العمري في موسوعة (مسالك الأبصار)، وقد تعرض

---

١ نسبة إلى قشورية (من أعمال المرية في الأندلس).

٢ لم يترجم له ابن حجر في الدرر.

٣ البلوي، تاج المفرق، ج١ ص١٤٤.

٤ المصدر السابق، ج١ ص١٥٤، ١٥٥، ١٥٦.

٥ المصدر السابق، ج١ ص٢٢٧- ٢٣٨.

٦ ابن الخطيب: محمد بن عبد الله اللوشي الغرناطي، (ت٧٧٦هـ)، الإحاطة في أخبار غرناطة، ت. محمد عبدالله عنان، ط٢، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٣٩٣هـ ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م، ج١ ص٥٠٠- ٥٠٢.

٧ ابن الخطيب: محمد بن عبد الله اللوشي الغرناطي، (ت٧٧٦هـ)، الكتيبة الثامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثامنة، ت. إحسان عباس، ط١، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٣م، ص١٣٤-١٣٥.

٨ حسن: زكي محمد، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، بيروت، دار الرائد العربي، ١٤٠١هـ -١٩٨١م، ص١٣٤-١٣٥.

٩ هناك من نسبه لإمام الحنابلة بالقاهرة الشيخ أحمد بن حمدان بن شبيب (ت ٦٩٥هـ)، ومنهم صاحب كشف الظنون، مج١ ص٥٢٥، والزركلي ج١ ص١١٩، ص١١٩، ويترجح صحة ما ذكره ابن حجر لكونه أقدم مصدر، ثم لكون كل من الصفدي في الوافي وابن رجب الحنبلي في ذيل طبقات الحنابلة لم يذكراه ضمن مؤلفاته كما فعل صاحب كشف الظنون ومن بعده.

١٠ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٥٩ .

١١ كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، ج١ ص٣٨٨، ٣٨٩.

للجغرافية فيه، فذكر في القسم الأول تحت عنوان الفرع الأول المسالك، وفي الباب الأول من هذا النوع بحث في أبعاد الأرض وحالها، والثاني: في الأقاليم السبعة، والثالث: في البحار، والرابع: في القبلة، والخامس: في الطرق، والنوع الثاني منه يبحث في ذكر الممالك وهي ١٥ مملكة[١]. ويبدو أنه هدف لوضع موسوعة تاريخية جغرافية جامعة لا تقوم على أساس علمي صرف، بل على أساس أدبي عريض، وهو رجل نقالة جامع لصنوف العلم وموسوعي، ويتميز بقليل من الأصالة، لكنه يعوّض عن هذا النقص باطلاعه الواسع حيث مكّنه عمله الحكومي من الاطلاع على الوثائق، ومصادره متعددة للغاية؛ الأمر الذي مكّنه من إخراج لوحة مفصلة في وصف العالم المعاصر له، ومادته التي ينقلها عن مجريات الحوادث في حوض البحر المتوسط جيدة، ويأخذ أهمية كبرى باعتباره مصدرا لدراسة ذلك العصر[٢].

وفي الجغرافيا المحلية والاقتصادية يأتي كتاب (التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية) الذي ألَّفه يحيى بن شاكر بن عبدالغني، شرف الدين ابن الجيعان (ت ٨٨٥هـ/١٣٨٣م)[٣]، وهو عبارة عن مسح رسمي جاف للأقاليم والقرى المصرية، وذكر زماماتها[٤] وأنواع أراضيها مرتبة على حروف المعجم، اعتمد فيه كما ذكر في مقدمته "ما استقر عليه الحال في أيام الأشرف شعبان"، وإن تغيرت عبرة بلدة عما كانت عليه ذكر عبرتها كما هو في عصره[٥]، وقد ضمنه مرشد عمل لعمال الدواوين يحمل عنوان (تقويم البلدان المصرية في الأعمال السلطانية) كان مأخوذاً عن روكٍ تم وضعه كما يرى بعض المستشرقين في عهد الأشرف شعبان٧٧٧هـ/١٣٧٥م[٦].

ثم يتجدد نمط أدب الرحلات الجغرافي ويبلغ ذروته مع الرحالة ابن بطوطة (ت٧٧٧هـ/١٣٧٥م) وهو محمد بن عبدالله اللواتي الطنجي، جال في البلدان[٧]، ودخل القاهرة سنة٧٢٦هـ/١٣٢٥م، ووصف حالها ومساجدها وكثرة أهلها، وأصنافهم، حكاما وأمراء وقضاة وعلماء وصوفية[٨]، وطاف مختلف أرجاء العالم الإسلامي بالإضافة إلى أسبانيا وأواسط آسيا والقسطنطينية والأناضول وجنوب روسيا وإيران والهند وجزر المالديف وسيلان والبنغال وسومطرة وحدود الصين وأفريقيا الشرقية وجنوب الصحراء الكبرى، وقد ظهرت هذه الرحلة في كنف عالَم إسلامي متفكك؛ لذا كان أدباً يناقض التطلع إلى مملكة الإسلام التي هيمنت على الجغرافيين الأوائل، لكنه يستعيض بمملكة العالم المتعدِّد التي هي أكثر ثباتاً، وتقدر المسافة التي قطعها بحوالي (١٢٠ ألف كم)[٩].

تلقبه جامعة كمبريدج بأمير الرحالة المسلمين(Prince of Muslims Travellers)[١٠]، وتتميز رحلته بكونها لوناً نادراً عند العرب، حيث الرحالة يستهدف الرحلة لذاتها، ويضرب في مجاهل الأرض استجابة لعاطفة جياشة ورغبة عارمة في التعرف على الأقطار والشعوب، ويجمع معلوماته عن طريق التجربة الشخصية، وعن محادثاته مع شخصيات تعرَّف عليها عرضاً خلال رحلاته، وقد أصبح كتابه نسيج وحده كوصف للمجتمع المسلم والشرقي فهو خزانة تحفل بمادة غنية في مجال الجغرافيا التاريخية وجمع حضارات ذلك العهد[١١].

---

١ العمري، مسالك الأبصار، الجزء الأول والثاني والثالث والرابع.

٢ كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، ج١ ص٤١٣، ٤١٤، ٤١٥.

٣ السخاوي، الضوء اللامع، ج١٠ ص٢٢٦؛ والزركلي، الأعلام، ج٨ ص١٤٩، وفيه استدل على كون الكتاب (التحفة) ليحيى بن شاكر، وليس لولده، وقد طبع طبع سنة ١٩٧٢، مكتبة الكليات الأزهرية- القاهرة، وليس هو من رجال القرن الثامن الهجري كما توهم كل من النهار في العصر المفترى عليه ص٥٢٢، وعنان في مصر الإسلامية ص٥٤.

٤ هي الوحدات الاقتصادية المقسمة على أساس ضريبي.

٥ ابن الجيعان، التحفة السنية، ص١٢.

٦ كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، ج١ ص٣٨٥.

٧ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣ ص٤٨٠.

٨ ابن بطوطة، تحفة النظار، ج١ ص٢٧- ٣٨.

٩ ميكال: أندريه، الجغرافيا، مقالة ضمن موسوعة تاريخ العلوم العربية، إشراف رشدي راشد، ط٢، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥م، ج٣ ص١٠٣٠.

١٠ أبو خليل، الحضارة العربية الإسلامية، ص٤٩٦.

١١ كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، ج١ ص٤٣١.

ثم يأتي (مؤرخ الديار المصرية) صارم الدين إبراهيم بن محمد بن دقماق (ت٨٠٩هـ/١٤٠٦م)[١]، كتب في آخر القرن الثامن مصنفه في الجغرافيا الإدراية الإقليمية المسمى (الانتصار لواسطة عقد الأمصار) في عدة أجزاء، طُبع منه (جزءان)، تتضمن مصنفاً تعدادياً جافاً لمعالم مدن مصر لا سيما الفسطاط وكورها في الوجهين القبلي والبحري، ووقف من مصادره موقفاً أكثر جدية من المقريزي فلم تجتذبه الغرائب والعجائب كما حدث مع الأخير[٢].

وعاصره شهاب الدين أحمد بن عبدالله بن الحسن بن طوغان الأوحدي المقرئ والأديب والمؤرخ والجغرافي (ت٨١١هـ/١٣٠٨م) الذي كتب مسودة لخطط مصر والقاهرة[٣]، ومات قبل تبييضها، وكان إحدى مواد المقريزي في في خططه[٤]، وقد اعترف المقريزي بأنه انتفع بتلك المسودات ، وأنه ضمّنها كتابه المواعظ والاعتبار[٥]، وقد طوّر السخاوي قول شيخه ابن حجر: إن المقريزي انتفع بتلك المسودات[٦]، ليشن حملة شعواء ضد المقريزي متهما إياه بالانتحال والسطو، وأن كتابه (المواعظ والاعتبار) بدون مسودة الأوحدي لا طائل تحته[٧].

ومن خلال مقارنة ترجمة السخاوي للمقريزي الذي غمزه في غير مرة، وكذلك حكمه بأن لا طائل تحت كتابه من دون الأوحدي يتضح مبلغ تحامله عليه؛ فكتاب (المواعظ والاعتبار) له مصادر كثيرة وملاحظات شخصية نص عليها المقريزي تزخر بالأهمية البالغة، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن (المقريزي) نص على استفادته من مسودة (الأوحدي)، ولعل كونها (مسودة) وكونه رفيقه وجليسه الذي كان يأنس إليه ويزوره في بيته[٨] هو ما حمله على عدم الإشارة إليها في المواعظ. ومع ذلك فقد كان يجب على المقريزي ذكر المعلومات التي استفادها من الأوحدي مثل ما فعل مع غيره؛ إذ أن هذا ليس بمبرر أبداً للمقريزي في تجاهل ذكر (الأوحدي) ألبتة في كتابه (المواعظ) رغم اعترافه في كتابه الآخر (درر العقود الفريدة) بأنه ضمنه مسوداته فيه.

ونختم بشهاب الدين أحمد بن علي القلقشندي (ت٨٢١هـ/١٤١٨م) والمولود سنة (٧٥٦هـ/١٣٥٥م)، ناب في الحكم، والتحق بديوان الإنشاء[٩] منذ عام ٧٩١هـ/١٣٨٨م، وفيها ابتدأ الكتابة في نسخة أولية مختصرة من كتابه[١٠]، ويبدو أنه استغرق في تأليف الكتاب الموسوعي (صبح الأعشى) رحلة طويلة من التأليف والمراجعة ووضع اللمسات الأخيرة؛ إذ أنجز آخر الجزء الرابع عشر سنة ٨١٤هـ/١٤١١م[١١].

وعلى طول كتابه نلتقي بمعلومات جغرافية متنوعة، وقد أفرد المقالة الثانية من كتابه الجغرافيا وحدها، وتمثّلُ عرضاً تاريخياً جغرافياً مستقلاً تحل فيه مصر المملوكية مركز الصدارة، وفي الجزء الثالث والرابع عرض وصفاً مفصلاً للديار المصرية ويعتبر هذا القسم من أهم أقسام الكتاب، ولا يزال حتى الآن فريداً في نواحيه، ويلي هذا وصفه للحجاز لوقوعه آنذاك في دائرة نفوذ مصر، ثم تبرز في المكانة الأولى بعد مصر ممالك بيت جنكيرخان، ثم يعود للحديث عن بلاد العرب، ثم البلدان الواقعة إلى جنوب مصر وغربها في أفريقية، والواقعة شمالها وهي أوروبة وآسيا الصغرى. وقيمة هذا القسم الجغرافي تكمن في اعتماده على المصادر التي استند إليها؛ ورغم أنه مصنف نقلي فإنه قد ضمَّ مادة ضخمة جديرة بكل ما يليق بها من التقدير، وهو بهذا يمثل ظاهرة مبرِّزة وفريدة في نوعها، ويختتم بجدارة سلسلة موسوعات عهد المماليك التي تكاد تكون أكثر آثار ذلك العهد أصالة في محيط

---

١ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٣٦٠.
٢ عنان، مصر الإسلامية، ص٥٤؛ وكراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، ج٢ ص٤٧١، ٤٧٢، وقد طبع الكتاب ببولاق ١٣١١هـ/١٨٩٣م.
٣ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢ ص٤٠٦.
٤ ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٣ ص٣٩.
٥ المقريزي، درر العقود الفريدة، ج١ ص١٨٧.
٦ ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٣ ص٣٩.
٧ السخاوي، الضوء اللامع، ج١ ص٣٥٨، ج٢ ص٢٢.
٨ ابن حجر، المجمع المؤسس، مج٣ ص٣٩؛ والمقريزي، درر العقود الفريدة، ج١ ص١٨٨.
٩ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣ ص١٧٨-١٧٩.
١٠ القلقشندي، صبح الأعشى، ج١ ص٣٤.
١١ المصدر السابق، ج١٤ ص٤٥١.

الأدب[١].

وبهذا يتبين أن القاهرة في القرن الثامن هي التي احتضنت أدب الموسوعات التي اهتمت اهتماما متميزا بالجغرافيا، وأن علم الخطط والآثار الذي بلغ قمته في القرن التاسع كانت له جذور قوية في القرن الثامن الهجري في القاهرة أيضا، وأن هذا النتاج العلمي ظهر فيه مختلف الاتجاهات الجغرافية بصورة بديعة.

١ كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، ج١ ص٤١٨، ٤١٩، ٤٢٠.

الخاتمة

يظهر الباحث في خاتمة المطاف أهم الاستنتاجات التي توصّل إليها:

أولا: توصّل إلى نوعين من العوامل التي أثرت في الحياة العلمية في القاهرة خلال القرن الثامن الهجري؛ نوع إيجابي، ونوع سلبي، وتمثّل الإيجابي منها في: ١- العامل الديني الذي يحث المجتمع ذاتيا على تعلم العلوم.٢- وعندما تمّ إعلان القاهرة دار خلافة الإسلام من قبل المماليك، وأصبح لها ثقلٌ سياسي واقتصادي وعسكري وأمني فرض الاستقرار الذي به تحيى العلوم، واجتذب عددا كبيرا من العلماء من مختلف الأصقاع، أدخلوا معارف وآثارا مهمة. ٣- كما كان للأمن الذي نعمت به القاهرة من غزوات المغول المدمرة ضد العراق والشام أثرٌ في الدفع بعلماء البلدين إليها. ٤- وأضفى النظام العسكري المملوكي الحاكم على حكمه البعد الديني من خلال بناء المساجد والمدارس ودور العلم ووقف الأوقاف التي تدر الأموال على الحياة العلمية، بالإضافة إلى ميل بعض السلاطين والأمراء إلى العلوم ولا سيما التاريخ. ٥- كما تطلّب كون القاهرة العاصمة السياسية والعسكرية والاقتصادية الاحتياج إلى الخبرات العلمية المتنوعة للعلماء، فكانت مدينة عالمية مفتوحة أمام أي رجل من أي طبقة وأي مكان في العالم عنده المؤهلات التي تميزه في العلوم المختلفة، وكان للشعور بالأمة الواحدة وغياب الحدود الإقليمية أثرٌ في استمرار قنوات الاتصال العلمي بين أجزاء العالم الإسلامي بها، وشكّلت مدن مصر الأخرى ومدن الشام بالأخص مخزنا علميا كبيرا ورديفا مستمرا. ٦- وخصص الواقفون إعاشات دورية لأهل العلم، كما هيّأت بعض المدارس السكن المجاني والإعاشة المجانية لطلاب العلوم وشارك أهل اليسار في بناء المدارس ووقف الأوقاف عليها، وازدهرت الأوقاف التي كانت من اختصاصات قاضي القضاة في مصر المماليك؛ فيسّرت دخلا ثابتا لأهل العلم رغم ضآلته. ٧- واشتملت القاهرة على أفضل المكتبات وأوسعها والتي أنشئت ملحقة بالمدارس، وشارك الجهد الشعبي في بعضها، وكانت كافية لدرجة استغناء أئمة العلم عن الشراء للكتب، وشكّل سوق الكتبيين بؤرة علمية وثقافية يتحاور فيه العلماء، ويتبادلون معلوماتهم. ٨- كما أعطى الموقع الجغرافي للقاهرة كونها على طريق قوافل الحج الأندلسية والإفريقية مكانا علميا التقى فيه رواد العلم وتلاقحت الثقافات. ٩- كما توفّر فيها العلماء المتخصصون الكبار الذين قصدهم الطلاب من المدن والأرياف المصرية للدراسات العليا. ١٠- ونشط تدريس الطب في البيمارستان المنصوري فيها، وتوفّرت فيها الخدمات الطبية والاجتماعية التي تُرَغِّب للبقاء فيها والرحلة إليها. ١١- وبلغت التجارة المصرية الإفريقية أزهى عصورها فمارس كثير من العلماء التجارة؛ الأمر الذي يسّر لهم الاستقلال العلمي. ١٢- كما كان للخلاف الفقهي والعقدي ضمن المذاهب السنية أثر في تنشيط العلوم، وعُقِدت المجالس العلمية لامتحان العلماء والمدرسين فأدّى إلى مزيد من البحث.

وجد الباحث أيضا عوامل أثّرت سلبا، ومنها: ١- طبيعة الحكم الاستبدادي المملوكي حيث نكّل بعض سلاطينهم بالمخالفين لأهوائهم من العلماء؛ الأمر الذي خلق جوا من الرهبة. ٢- وعداء بعض الفقهاء لبعض العلوم وتحذيرهم منها، والمعاقبة على دراستها. ٣- والغياب شبه الكامل للمرأة التي هي نصف المجتمع عن العلوم وتراجع دورها العلمي بشكل مؤسف. ٤- كما أثّرت نوبات الصراع العسكري بين الأمراء الطامحين في السلطة على الاستقرار العلمي، واستدرج الأمراءُ المختلفون شريحة العلماء إلى صفوفهم؛ الأمر الذي أدى إلى انقسامهم، واستُخْدِمت المنشآت العلمية والتعليمية للأغراض العسكرية فتعطّل دورها. ٥- وحاول بعض السلاطين حرمان العلماء من مرتباتهم المالية وأوقافهم رغم ما جنوا من استقرار وإضفاءِ بُعْدٍ ديني على حكمهم عبر الثنائية التي حكمت القاهرة المتمثّلة في السلاطين والعلماء. ٦- ودفع البخلُ والفسادُ عند بعض القضاة المشرفين على توزيع المال الموقوف على العلماء والطلاب كثيرا منهم إلى الانخراط في خدمة الأمراء المماليك. ٧- وشكّلت الطواعين والأوبئة خطرا يهدد العنصر البشري في حياة العلم. ٨- ونخرت بعض الأمراض الاجتماعية في الحياة العلمية ومنها بعض أنواع التصوف. ٩- وكثرت عقوبات القتل لمن وصفوهم بالزندقة من العلماء على يد القضاة المالكية، فأعطى بيئة قلقة وخائفة لا تساعد على الإبداع؛ الأمر الذي سلب الحرية لمن فكر في الخروج عن المألوف، وهو ما غيّب الإبداع. ١٠- كما أن حصر الموجودين في بيئة واحدة وظروف متطابقة لا يشجِّع على دعم العلم وتطوره وتنوعه. ١١- وحرم التكفيرُ الذي ولع به بعض العلماء ضد بعضهم من الإبداع.

ثانيا: حظي ابن حجر بأبرز شيوخ عصره وألمعهم، بلغ عدد الذكور من مجملهم ٩٢%، والنساء حوالي٨%، لكن نسبة ضئيلة من مجموعهن ينتمين لمصر، وحوالي ٩٠% منهن ينتمين إلى الشام، بما يشير إلى تفوق العنصر

النسائي من شيخاته في الشام عليهن في مصر، ومعظم هؤلاء الشيوخ كانوا من فئة المحدثين، وهو الاتجاه الذي غلب عليه، واجتماعيا ينتمون إلى فئات وشرائح ومذاهب ووظائف مختلفة، وتنوعهم كان أمرا جيدا أكسبه تسامحا في كتاباته أفضل من سواه، وقاده تأثره بشيوخه ونزعته الحديثية إلى أن يكون من المعتنين بالحديث، ومن ثمّ قام برحلاته الحديثية إلى الصعيد والإسكندرية والحجاز والشام، وأفاد من رحلتيه إلى اليمن لقاء أبرز شيوخ العلم بها، في المهجم، وزبيد، وتعز، وعدن، واطّلع عن كثب على مجمل الوضع العلمي والاجتماعي والسياسي في اليمن.

ثالثا: كان طلابه جميعا امتدادا له في الاتجاه الحديثي والتاريخي، وكانوا أبرز علماء عصرهم، وأظهر الباحث انحسار العنصر النسائي تماما من طلابه رغم وجوده في شيوخه، كما ترجح أن مؤلفاته التي بلغت ٢٨٢مؤلفا لم يُنْجَز منها سوى النصف، وحوالي ٧٠% منها تتصل مباشرة بالحديث والتاريخ، وترجح أن فريقا من طلابه ساعدوه في تأليفها، وتبين شهرة بعضها في حياته وحياة شيوخه، وتهادتها الملوك، كما كشف الباحث عن ما عكس الثقافة السلبية منها كبعض موضوعات كتابه (بذل الماعون).

رابعا: انضوى ابن حجر تحت المذهب الأشعري في مجمل اعتقاداته، و خالفهم في بعض المواقف ضد الحنابلة، وكان يعتقد ولاية الأولياء من الصوفية ممن يلتزمون الآداب الشرعية، وإن كان يرى ضلال أهل التصوف الفلسفي الذي ينتمي لابن عربي وابن الفارض. وأما في الفقه فكان شافعيا بالتأكيد.

خامسا: كان العلماء القاهريون أصلا أقلية، وهناك قاهريون (من أمصار أخرى) انتماء وعطاء، وقليل منهم وُلِد في القاهرة، وبعضهم قدم للتعلم في القاهرة، ولكنه ذهب إلى بلدان أخرى للعطاء والتعليم، في مصر، والشام، والعراق، وأغلب علمائها هم القاهريون بالعطاء، ويكاد يكون قضاتها جميعهم من أصول غير قاهرية، وتبين أنها شكّلت منطقة جذب مركزية لكثير من المراكز الإسلامية العالمية، ومنها من مصر من الوجه القبلي والبحري، ومن الشام، من دمشق، وبيت المقدس، وحماة، وحلب، ونواحيها، ومن اليمن، ومن الحجاز من مكة المكرمة والمدينة المنورة، ومن الجزيرة، من الموصل، وماردين، ودنيسر، وحران، وسروج، وديار بكر، ومن أرضروم من قونية، وقيصرية، وثيرة، وبابرت، ومن خلاط أرمينية، ومن العراق من بغداد وضواحيها، ومن بلاد الشرق من تبريز، وأشنة، وشيراز، وتستر، وأصفهان، وسبزوار، ومن بلاد القرم (سواحل أوكرانيا)، ومن بلاد السراي، ومن بلاد خوارزم، من كاث، ومما وراء النهر من بخارى وأتقان، ومن بلاد الترك، ومن غزنة (افغانستان)، ودهلي (الهند)، ومن زيلع، ومن الغرب في أفريقية، من تونس، والمهدية، والمغرب الأوسط من بجاية وتوزر، وباجة، وتلمسان، ومن المغرب الأقصى من مراكش، وركراكة، ومن الأندلس من غرناطة، ووادي آش، وأشبيلية، وكانوا ينتمون إلى خلفيات عرقية مختلفة، ومن أصول مسلمة وهم الأغلبية الساحقة، ويهودية ونصرانية، وهم أقلية ضئيلة.

سادسا: ظهر أن عامة علماء القاهرة كانوا فقراء بصفة عامة مقارنة بغيرهم، وكان للتراتب الطبقي والمهني أثرٌ سلبي في الفقه القاهري، ولكن كانت خطوط الانتقال بين الطبقات مفتوحة صعودا وهبوطا، وكثير من فئة علماء الحديث امتهن المهن الوظيفية الدنيا، ووُجِد تصنيف العلماء العرب، والعلماء الشرقيون الذين أطلق عليهم (العجم).

سابعا: تمحور عدد كبير من علمائها حول مراكز السلطة المملوكية التي هيمنت على المال والسلطة، ومع ذلك حاول المماليك إلغاء نظام الوقف على المدارس، ولكنهم قابلوا معارضة شديدة من قبل العلماء، ونأى قليل منهم عن وظائف الدولة، وآثر البساطة والأعمال الحرة، ووُجِدت من بعضهم سلبيات نتجت عن التنافس واحتكار الوظائف للأقارب، وتقاضى العلماء مرتبات متفاوتة فكان أعلاهم من يمسكون أعلى الوظائف وكان أدناهم عامتهم ذوي المداخيل المحدودة والوظائف الصغيرة، ومع ذلك فرواتب كثير من كبارهم أقل من راتب أصغر مملوك، فحاولوا توفير مداخيل إضافية، ولهذا تعددت وظائفهم؛ الأمر الذي أدّى إلى توزعهم على أطياف المجتمع القاهري، وكان من تربطه علاقات الصداقة أو العمل بالأمراء المماليك غنيا جدا، ورغم حالة الفقر التي ضربت كثيرا منهم إلا أنهم مقارنة بالأمصار الأخرى كانوا أفضل حالا.

ثامنا: سكنت فئة العلماء الراقية أحياء خاصة، وكان لبعضهم بيوت للنزهة على النيل وتستخدم للإقراء، ونزل بعضهم بمساكن المدارس المعدة لهم، ونزل المتصوفة في الخوانق، استخدموا بيوتهم أيضا لعقد حلقات العلم ومجالس الأدب، ولم يخرج أكلهم عن موقفهم في الحياة الاجتماعية تقللا وتكثرا، واهتمت الدولة المملوكية بالزي، وكان للعلماء والطلاب زيهم الخاص، ورأوا فيه ما يحفظ للعلم هيبته، وهي نظرة لا تفارق المجتمعات المستقرة تعكس الرقي والبيروقراطية المدنية، وتميز قضاة الشافعية عن سواهم بزي معين، وتعرّض العلماء لمضايقات

بعض المماليك بسبب لبس الفاخر من الثياب وركوب الخيل.

تاسعا: شهدت علاقات العلماء خلافات حادة وسارع البعض للتكفير، وجنح البعض إلى حياة البذخ، وأخذ بعضهم الرشوة، وانكفأ الغالب على نفسه أمام مخالفات السلاطين وظلمهم، ووُصِف بعض أولئك الذين لم تكن علاقتهم حسنة بالسلطة بالزعارة وسوء الأخلاق، واتهم بعضهم اليهود والنصارى القاهريين بعدم الثقة.

عاشرا: سعى العلماء وراء الوظائف التعليمية، وشعر بعضهم بإقصاء المماليك لهم لبعدهم عن ثقافتهم، واضطلعوا بدور وظيفي واسع في الدولة المملوكية، وشكلوا داخل الدولة العسكرية مركز قوة باعتبارهم بعدا مدنيا، له تأثير على المجتمع، وظلوا مع الحكام كلاهما يستمد قوته من الآخر، وكانوا معنيين باستقرار الدولة وهدوئها؛ فحظوا باحترام السلاطين، الذين حاولوا إرضاءهم ببناء المدارس ووقف الأوقاف، ورغم عظم تأثيرهم إلا أن حق السلطان في تعيينهم وإقصائهم كان يمثِّل مأزقا. ورغم هذه العلاقة التي ارتضاها الفريقان فقد بينت حوادث الاختلاف أنه مهما كان من احترامٍ وهيبةٍ للعلماء إلا أنها لم ترْقَ لاستخدامها في الحكم الرشيد دائما، وقد تعرّضوا أحيانا لتهديدات بإلغاء نظام الأوقاف، كما نادى بعضهم بثورة ذات خلفية عقائدية سلوكية ضد السلطان برقوق حين حبس الخليفة القرشي، ونال بعضهم ممن عارض السلطان المنتصر عقوبة الإعدام، واتُّهِم بعضهم بالانحلال عن الدين فقُتِل.

حادي عشر: مارس قضاة القاهرة صلاحيات واسعة في القضاء والتعليم والإدارة، وحقق بعضهم هيبة وسلطة قوية بحكم صلاحياتهم، لكنها كانت تتلاشى عند عزلهم أو اعتزالهم، ولم يمانعوا من تولي المنصب حتى في ظل حكام طغاة، وأخلص بعضهم للسلاطين إلى درجة عالية، ومورس في عهد بعضهم مخالفات كثيرة في أموال الوقف، الذي تساهل في أمره نظريا الحنابلة، وتشدّد بعض الحنفية، وانعكس الرأي الفقهي على الواقع العملي، وكثيرا ما غابت المواقف القوية منهم ضد رغبات السلاطين غير المشروعة، ووجد مع ذلك قضاة نزيهون ضحّوا بمناصبهم حرصا على إقرار المبادئ وتطبيقها.

ثاني عشر: كان النتاج المكتوب لعلمائها في القرن الثامن الهجري في القراءات والتجويد أعمالا عادية في غالبها، وقليل منها كان مبتكرا، وكان ٣٦% من مجموع النتاج في العلمين عبارة عن شروح واختصارات، تدور حول (الشاطبية)، وحوالي ٦٤% من ذلك النتاج كان لاثنين من علماء القاهرة، وكان جل علماء القراءات من الوافدين، ومعظم نتاجهم كان في القراءات.

ثالث عشر: حاز الشافعية الحظ الأكبر من النتاج في التفسير، يليهم الحنفية، وجميع المؤلفين فيه من علماء وافدين، ولمع فيها مفسرون عظام مثل الإمام أبي حيان الأندلسي، وتفسيره (البحر المحيط) الذي يعتبر المرجع الأهم لمن يريد أن يقف على وجوه إعراب الآيات، وهناك دراسات تفسيرية قد تكون مبتكرة مثل دراسة الطوفي حول العدد في القرآن، ودراسة ابن اللبان الصوفي التي عكست اهتمام الصوفية بالتفسير على طريقتهم، وكتاب (الدر المصون) للسمين الحلبي، الذي استوعب الجهود السابقة في إعراب القرآن، وأعطى تحليلا مفصلا لكلماته أصلا واشتقاقا.

رابع عشر: نشطت حركة الحديث في مصر والشام وفي القاهرة، وظهر محدثون فقهاء مثل ابن دقيق العيد، وسراج الدين البلقيني، وزين الدين العراقي، وشاركت المرأة بمحدودية في الحديث رغم غيابها عن بقية العلوم، وانصبّ جهد المحدثين على الشرح والاختصار والتذييل وإعادة الترتيب. وعمّق علم الحديث الذهنية التاريخية للحالة العلمية، وكان المحدثون أكثر العلماء توثيقا لحياتهم العلمية من خلال كتب الأثبات والمعاجم والطباق وما شاكلها، وكان الاشتغال بسماع البخاري ومسلم وروايتهما هو الثقافة الشعبية السائدة، وبصورة تقريبية تبيّن أن ٤٨% ممن شاركوا في النتاج الحديثي كانوا من الشافعية، و٢٨% من الحنفية، و٤% من المالكية، و١% حنابلة، وحوالي ٢٤% غير معروفي الانتماء الفقهي، وهذا يشير إلى أن فئة مهمة منهم لم يكونوا معنيين بإظهار انتماءاتهم المذهبية الفقهية، وكان حوالي ٨٠% من النتاج الذي استعرضه البحث مبنيا على هياكل سابقة، منها ٤٩% عبارة عن شروح وحواشٍ، و٢١% تخاريج، والبقية توزعت ما بين إعادة ترتيب، أو اختصار، أو نظم.

خامس عشر: نشط علماء مصريون وقلة من الوافدين في الفقه الشافعي وأصوله، وظهر أن نسبة ٢٢% من مجموع نتاج الفقه وأصوله كان في أصول الفقه، قليل منه ما كان متحررا عن الهياكل السابقة، ومنه كتاب (جمع

الجوامع) للسبكي، و(البحر المحيط) للزركشي، الذي يعتبر مرجعا ضخما في موضوعه، وكان حوالي ٦٠% من النتاج في الأصول عبارة عن شروح، و١٧% اختصارات، استقطب كثيرا منها (منهاج الوصول) للبيضاوي، يليه (مختصر ابن الحاجب)، وبالنسبة للنتاج الفقهي فشكل نسبة٧٨% من مجموع نتاج الفقه والأصول نصفه كان شروحا، وحوالي ١٥% كان عبارة عن اختصارات، وظهر بوضوح اهتمام القاهريين بكتب النووي الفقهية، وندر أن كتب الشافعية في الفقه المقارن لاعتزازهم بمذهبهم، وأبدع الأسنوي في كتابيه الفقهيين (التمهيد) و(الكوكب الدري).

سادس عشر: اتضح أن من كتبوا في الفقه وأصوله من الحنفية كانوا وافدين، ويترجح أن تمذهب الأمراء المماليك بالمذهب الحنفي شجعهم على القدوم إليها من الشام وماردين والشرق والروم وزيلع (شمال غرب الصومال اليوم)، وتبيّن أن حوالي ١٦% من النتاج في هذا الحقل كان في الأصول، وكثير منه كان شروحا لكتاب (منار الأنوار) ثم لـ(مختصر ابن الحاجب)، وحوالي ٨٤% كان في الفقه، وكان ما نسبته حوالي ٦٧% مبنيا على هياكل سابقة، استأثر كتاب (الهداية) بما يقارب نصف النتاج، و(الجامع الكبير) بما يقارب خُمُسه، وفي إطار محاولة الحنفية تأصيل مذهبهم تاريخيا وسعيهم في مساواة الشافعية في بعض الامتيازات فقد وجد نتاج يشرح ما ألفه بعض أئمة الحنفية في القرن الثاني الهجري، وبيّن النتاج تفاعل حنفية القاهرة بحنفية المشرق بصورة سريعة.

سابع عشر: أمدّت مدينة الإسكندرية القاهرة برجال الفقه المالكي بنسبة ٤٠%، وبلاد المغرب مجتمعة بنسبة ٥٠%، وقلّت نسبة المبتكر في النتاج الفقهي والأصولي المالكي كما هو لدى غيرهم، ولكنه يتضح تأثير القاهرة على المالكية في طريقة تقديم الفقه، وفي اهتمامهم بالحديث الداعم للفقه، وفي كتابة المختصرات على غرار المتون الشافعية القاهرية، كما ظهر التأثر من خلال النتاج المتوسع الذي كان سمة القاهرة العلمية، ومن خلال محاولة التأصيل الفقهي والتاريخي لمذهبهم حيث شرح بعضهم كتاب (المدونة) وهي من كتب فقههم في القرن الثاني الهجري.

ثامن عشر: لا نتاج فقهي للحنابلة، سوى بعض نتاج ابن تيمية، والذي كان متحررا عن الهياكل السابقة.

تاسع عشر: قلّ النتاج في علم الكلام؛ لكون القاهرة أشعرية المعتقد في معظمها، وجاء بعض هذا النتاج على قلته ردًّا على ابن تيمية والمجسّمة واحتجاجا لنصرة عقائد الأشعرية، كما وُجِدَ تمثيلٌ محدود جدا للمذهب الماتريدي، وكتب بعضهم في الرد على أهل الكتاب من اليهود والنصارى.

عشرين: وُجِدت الصوفية في القاهرة بطرقها المختلفة، وجاء نتاجهم في مجمله بشكل حِكَمٍ ونصائح في سلوك المريدين لله وتهذيب أنفسهم، وتسببت بعض عباراتهم المشكلة في مثول بعضهم أمام محاكمات القضاة الفقهاء، ولكنهم أفلتوا من العقوبات لقوة وجودهم وتأثيرهم.

واحد وعشرين: برزت القاهرة في النحو والصرف، فظهر فيها نحاة تركوا أثرا قويا في الجهود النحوية حتى عصرنا الحاضر، ومنهم الإمام النحوي أبو حيان صاحب النتاج النحوي الكثير، وكتب لمختلف فئات دارسي النحو، ومنهم الإمام ابن أم قاسم المرادي صاحب كتاب (الجنى الداني) الذي ترجح أنه أصل كتاب (مغني اللبيب) لابن هشام الأنصاري القاهري أيضا، الذي هو الآخر أثرّ في علم النحو، وأظهر البحث أهمية كتاب الأسنوي (الكوكب الدري) لكونه أوَّلَ كتابٍ بَحَثَ أثر النحو في الأحكام الفقهية بشكل متخصص، وظهرت الكتب الضخمة المستوعبة للجهود النحوية السابقة، كما بيّن البحث استئثار النحاة الذين ينتمون للشافعية بكثير من نتاجها بنسبة ٥٠% تقريبا، يليهم المالكية ثم الحنفية، وظهر أن أغلبهم كانوا شاميين، ومنهم مصريون ومغاربة وأندلسيون، وبيّن البحث أن حوالي ٢٢% أي خمس النتاج النحوي كان متحرِّرا عن القوالب السابقة، بما يعني إعطاء مؤشر جيد بارتفاع الإبداع في الجهد النحوي مقارنة بما سواه، وأما الأعمال المبنية على هياكل سابقة فقد استأثرت كُتُب ابن مالك بمعظمها.

ثاني وعشرين: كتب علماء القاهرة في اللغة معجمات، وظهر في بعضها شيء من الإبداع إن في تحليل الكلمات وأصولها، أو في طريقة ترتيبها، ومن أشهرها (لسان العرب) الذي استوعب المادة والجهود اللغوية السابقة، وإن لم تظهر شخصية مؤلفه فيه بقوة.

ثالث وعشرين: أنتج علماء القاهرة في النثر والتعبير عن شؤون الدولة الرسمية، و وضعت في أصولها كتُبٌ مثل (التعريف بالمصطلح الشريف) للعمري، و(صبح الأعشى) للقلقشندي، وأغرقت الكتابة في المحسنات البديعية.

وفي الشعر تبيّن عزوف الحكام عن الاشتغال به، ووُجِد شعراء بارزون، منهم ابن نباتة، وابن الوكيل، وابن أبي حجلة التلمساني، وأبدع العراقي ابن دانيال الموصلي في أدب (خيال الظل).

رابع وعشرين: ظهر واضحا تأثُّر القاهرة ببغداد في الخط وجدارتها في حمل لوائه، حيث تمّ ابتكار أربع طرائق جديدة على الأقل في الخط المنسوب، و خلّفوا لنا ١٢ نتاجا علميا، في بعضه إضافات جديدة في الخط، منها (نظرية الدوائر) في تعليم الخط، ومثّلت منظومة الآثاري الألفية المسماة (العناية الربانية) النصَّ الجامع للجهود العلمية السابقة في الخط، وأغفلت كتب التراجم ومنها كتب ابن حجر لكثير من أحوال الخطاطين.

خامس وعشرين: ظهر متكلمون باللغات الأجنبية، وتبيّن إبداع أبي حيان الأندلسي في كتابته عن بعض اللغات الأخرى لغة وتصريفا ونحوا، كما تبيّن تقصير كتب التراجم ومنها كتب ابن حجر في تراجم الألسنيين، كما حازت القاهرة من بين سائر المدن مكانة جيدة في علم التشفير (التعمية).

سادس وعشرين: عُنِيَ أهل القاهرة بتعليم أبنائهم مبادئ الحساب، وبرّز فيه أهل الذمة، لكن كتب ابن حجر أسقطتهم تماما، واتضح وجود حوالي ٢٢ عالم حساب، ٩ منهم خلَّفوا نتاجا علميا، نصفه لابن الهائم القاهري خلا من الجديد.

سابع وعشرين: اتسم النتاج في الهندسة المعمارية والمدنية بالندرة الشديدة رغم كثرة المنشآت المعمارية وجمالها، وسكتت المصادر ومنها كتب ابن حجر عن ذكر المهندسين.

ثامن وعشرين: واجه المنطق حربا شعواء من بعض الفقهاء، ومع ذلك بيّن البحث وجود أكثر من ٣٣ منطقيا، جُلّهم علماء وافدون منهم حوالي ٤٢% من بلاد الشرق، و٢٥% من الروم، وكانت الشروح حوالي ٧١% من مجمل النتاج، والاختصارات ٦%، ويبدو أن دراسة المنطق وتدريسه كانت محاكاة لما فعله السابقون.

تاسع وعشرين: ظهر نتاج علمي في الشطرنج، ويبدو أنه اعتُبِر مجالا للتسلية فلم تستقص المصادر علماءه.

ثلاثين: أغفل المؤرخون ذكر علماء الفلك (الهيئة)، وتعتبر ترجمةً ابن حجر لابن الشاطر أعظم فلكيي ذلك القرن مثالا على ذلك، كما تقاعس المماليك عن تبنِّي مشاريع فلكية مثل مشروع مراغة الذي أنشأه المغول، ومع ذلك وجد الباحث ٨ فلكيين، خلَّفوا نتاجا علميا بلغ أكثر من ٤٠ عملا، وأظهر البحث أن هناك إبداعا في هذا العلم ظهر لدى ابن الشاطر سواء كان في نتاجه العلمي المكتوب، أو في آلاته الفلكية البديعة التي كان يصنعها.

واحد وثلاثين: وُجِدَ في القاهرة مشفى منذ القرن السابع الهجري، واستضافت احد أعظم أطباء عصره (ابن النفيس) الذي مارس عمله في ذلك المشفى وترك تراثا بديعا، وظهر في القرن الثامن الهجري الطبيب (ابن الأكفاني) الذي حقق بعض الإنجازات البديعة. أغفل (ابن حجر) الكثير من الأطباء و أحوالهم مقارنة بغيرهم، كما أسقط تماما الأطباء اليهود والنصارى، وأطباء العيون (الكحالين) والجراحين، إلا إذا توفّرت علاقة لأحدهم بأحد محاور التاريخ من السلاطين والأمراء، وفي الصيدلة كانت القاهرة عالة على ما كُتِب في القرون السابقة.

ثاني وثلاثين: ينطبق وضع علم الفلك على علم الكيمياء من حيث حملة بعض الفقهاء ضده؛ الأمر الذي يفسر تجاهل كثير من المصادر للعالم الكيميائي الجلدكي، رغم أنه يُعْتَبَرُ حلقة مهمة بمؤلفاته الكثيرة والتي استوعبت الجهود العلمية الكيميائية السابقة بشكل كبير.

ثالث وثلاثين: شارك بعض علمائها في الكتابة في علم الجواهر (المعادن والأحجار الكريمة)، وإن كما يبدو على سبيل الحفظ والتسجيل لما ذكر سابقا.

رابع وثلاثين: أسهم ٩ من علماء القاهرة في ١٠ أعمال في علم الحيوان، كان ٦٠% منها تتعلق بالخيل، نظرا لكونه أحد أدوات الحكم العسكري المملوكي القائم آنذاك، وظهر تميز كتاب (حياة الحيوان الكبرى) للدميري، حيث توصل فيه لمعلومات سبق بها العلم الحديث، وأشار إلى علاقة التعايش والتكافل بين الحيوانات التي نسبت لاحقا للعالم (جيتة).

خامس وثلاثين: نشط التاريخ في القاهرة، ويتضح أن حوالي ٢٢% من مجمل نتاجه كان متحررا عن الهياكل السابقة، وكان بعضه جديدا إما في موضوعه الذاتي كالسير الذاتية كما في كتاب (النضار) لأبي حيان، والاعتناء

بالوثائق النبوية كما فعل ابن حديدة المصري في (المصباح المضي)، أوفي موضوعه المكاني كـ(ممالك عباد الصليب) للعمري، وتاريخ الصعيد للأدفوي، أو في موضوعه الفئوي كتاريخ العميان للصفدي و(طبقات الحنفية) لابن المهندس اللذين يعتبران أول نتاج في موضوعهما، وجد الباحث أيضا أن ١٣% من المؤرخين من أصول قاهرية، وتقاربها نسبتهم من أصول مملوكية، وهي نسبة مرتفعة بشكل لافت، وبيّن البحث أيضا غياب مؤرخين من أصول شرقية؛ لقلة اعتنائهم بالتاريخ وبمقومه الآخر الحديث، وتبين رجحان كفة التاريخ العام والخاص في القاهرة لرغبتهم في تخليد ذكر المماليك وربط عصورهم بالعصور الإسلامية السابقة، وعكست نِسَبُ الإنتاج وتوزُّعها العادل بين فروع التاريخ توازنَ اهتمامات تلك الفروع داخل المجتمع القاهري.

سادس وثلاثين: عكس النتاج المأثور في الأحكام السلطانية الممارسة المملوكية لا سيما في العلاقة بين الخليفة والسلطان، والتي تأتي امتدادا لواقع سياسي نال صفة الشرعية التنظيرية من قبل الفقهاء منذ الماوردي الذي أقرَّ الغلبة العسكرية طريقا شرعيا للوصول إلى السلطة، وأبدع ما كُتِبَ في الفكر السياسي ولكن من زاوية اجتماعية فلسفية هو مقدِّمة ابن خلدون.

سابع وثلاثين: ركز ابن حجر على علم القضاء والتوثيق أكثر من سواه لكونه كان جزءا من اهتمامه الوظيفي، وفي الحسبة ظهر في القاهرة أبرز من كتب في مباحثها، وهو ابن الأخوة القرشي القاهري، كما ظهر أن اثنين من مجموع ثلاثة آخرين كتبوا حولها كانوا قاهريين أصالة؛ وذلك لكونها وظيفة مدنية.

ثامن وثلاثين: بيّن البحث الإبداع في نتاج القاهرة في علم الأخلاق والتربية والمتمثِّل في كتاب ابن جماعة (تذكرة السامع والمتكلم) حيث أرشد إلى مسالك تربوية وطرائق تدريسية سبق بها علماء التربية في هذا العصر.

تاسع وثلاثين: أغفل ابن حجر حال العلوم العسكرية وترجمة علمائها لخروجه عن دائرة اهتماماته، رغم أهميته لكون السلطة القائمة عسكرية، وتبيّنَ أن من كتبوا فيه كانوا في الأصل أهل فروسية من المماليك ولهذا اكتسب نتاجهم أهمية بالغة، وعكست كتاباتهم تألُّق القاهرة وإبداعها في هذا المجال، وكانت نسبة ٧٧% من تلك الأعمال تعالج مباشرة الفنون القتالية الحربية، كما كانت نسبة ٤٦% منه على أقل تقدير من نصيب فئة المماليك؛ وهو يشير إلى تركُّز هذه المعرفة العلمية فيهم، وحرصهم على تفوقهم العسكري.

أربعين: أثبت البحث تأثير بغداد في الدراسات الموسيقية حيث كتبت عشرة أعمال، ستة منها لعلماء من أصل عراقي، وتبين اهتمام القاهرة بعلم الموسيقى أيام المماليك على عكس ما أشيع عنهم لاحقا.

واحد وأربعين: تميز علماء القاهرة بعلم (الخطط والآثار).

ثاني وأربعين: يمكن القول بأن النشاط الموسوعي في القاهرة على أهميته كان نوعا من تنظيم النتاج المعرفي السابق وتبويبه وصياغته.

الملحقان

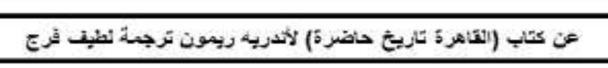
الملحق الأول: الخرائط الجغرافية

١ — مواقع عواصم مصر الاسلامية وأهم معالم القاهرة اليوم

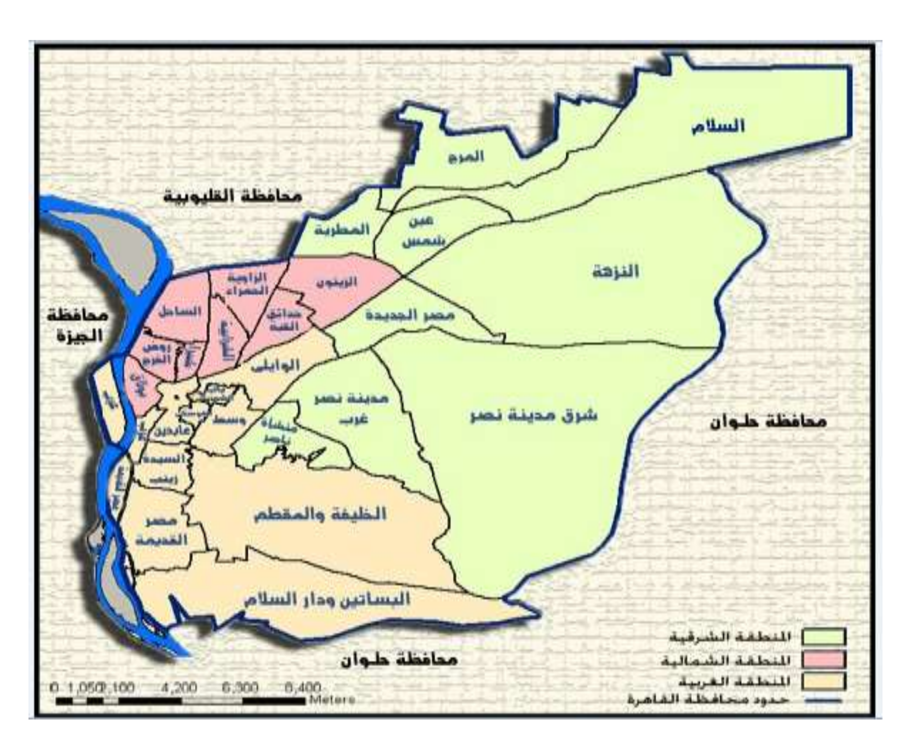
عن كتاب (القاهرة وتاريخها وآثارها) للدكتور عبدالرحمن زكي

الخريطة رقم (١)




عن كتاب (القاهرة تاريخ حاضرة) لأندريه ريمون ترجمة لطيف فرج

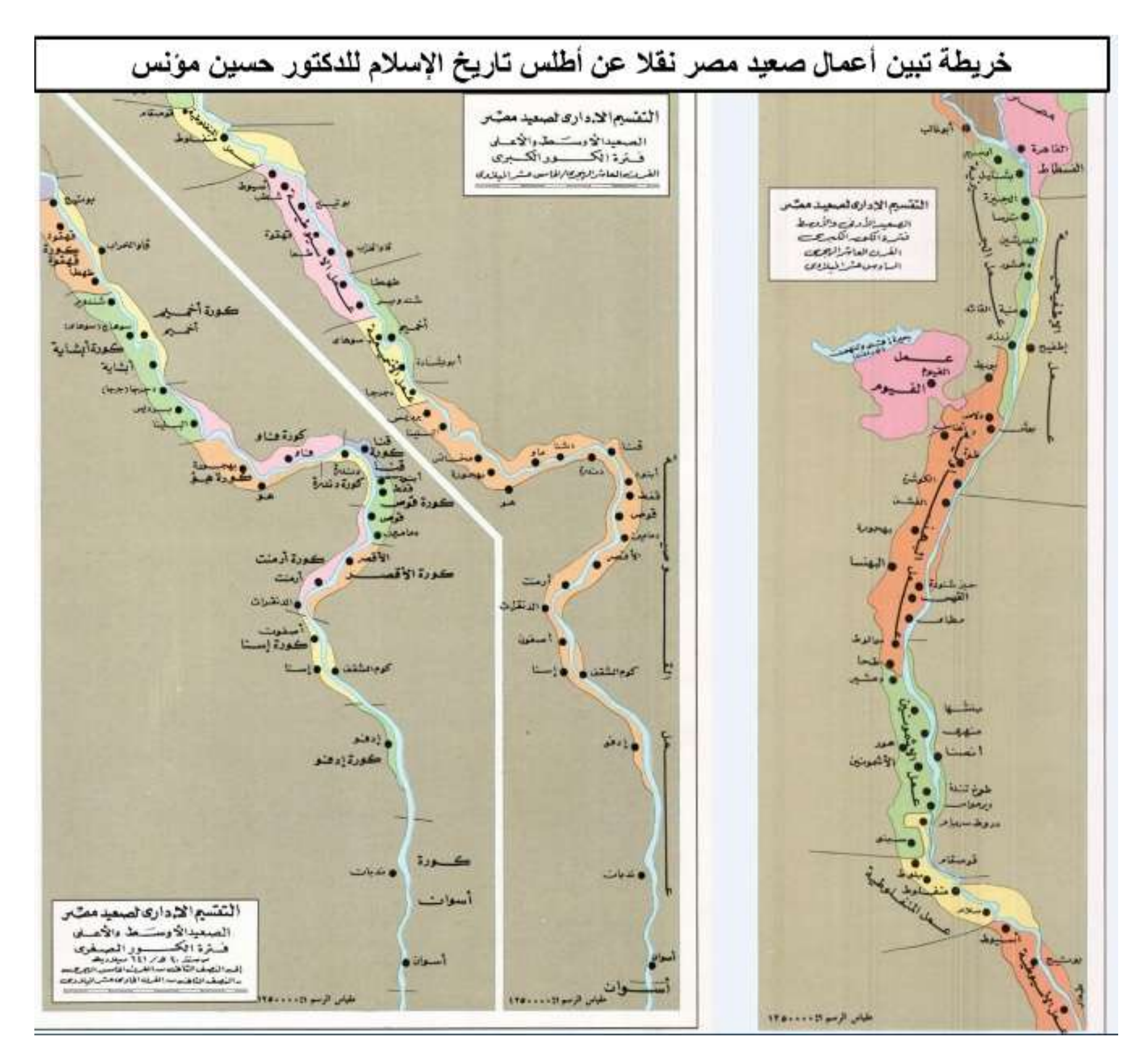
الخريطة رقم (٢)



الخريطة رقم (٣)



الخريطة رقم (٤)



الخريطة رقم (٥)

الملحق الثاني: أماكن التعليم بالقاهرة

وهي الأماكن التي ثبت من خلال كتب ابن حجر العسقلاني التاريخية أنها أدت دورا علميا في القرن الثامن الهجري في القاهرة[١]، وتم ذكرها سواء كانت مدارس، أو جوامع، أو قبابا (مشاهد)، أو خانقاوات، أو زوايا، أو تُرَبا.

١- خانقاه أرسلان: تقع فيما بين القاهرة ومصر من جملة أراضي منشأة المهرانيّ، أنشأها الأمير بهاء الدين أرسلان الدوادار الناصري (ت٧١٧هـ). ابن حجر: الدرر الكامنة ج٣ ص٤١٥؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٥٩٠.

٢- مدرسة الأزكشية أو يازكوج: بناها أتابك السلطان صلاح الدين الأيوبي يازكوج الأسدي (ت٥٩٩هـ) في رأس سوق الخروفيين بالقاهرة سنة٥٩٢هـ لتدريس الفقه الحنفي خاصة. المقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٤٣٩، ٤٤٨.

٣- جامع الأزهر: أول جامع بني في القاهرة أنشأه القائد الفاطمي جوهر الصقلي عند اختطاط القاهرة، وبدأ البناء فيه في جمادى الأولى سنة ٣٥٩هـ، وكمل في رمضان سنة ٣٦١هـ، وأخذ دورا علميا رياديا، ولا يزال حتى عصرنا هذا، رتب فيه الأمير بيلبك الخازندار مقصورة لتدريس الفقه الشافعي والحديث، وقراء ومقرئا للقرآن، ثم بعد زلزلة ٧٠٢هـ تولى أمر تجديده الأمير سلار، ثم جدّده القاضي نجم الدين محمد بن حسين بن علي الأسعردي محتسب القاهرة في سنة٧٢٥هـ، ثم جددت عمارته في سنة ٧٦١هـ، عندما سكن الأمير الطواشي سعد الدين بشير الجامدار الناصري في عهد السلطان حسن، ورتب فيه مكتبا لتعليم القرآن، وتدريسا للفقه الحنفي، ووقف على ذلك الأوقاف الجليلة. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٢ ص٢٩٨، ج٣ ص٢١٠ـ ٢١١؛ وإنباء الغمر ج١ ص٢٤٢؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٢١٣- ٢٢١.

٤- مدرسة الأشرف شعبان بن حسين: تقع فوق الصوة تجاه طبلخاناة قلعة الجبل، بناها السلطان الأشرف وعين القاضي ضياء بن سعدالله القزويني شيخا للشيوخ فيها، ثم هدمها الناصر فرج بن برقوق، فبنى مكانها السلطان المؤيد شيخ بيمارستانه. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٢ ص٢٠٩- ٢١٠؛ وإنباء الغمر ج١ ص١٨٣- ١٨٤؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٥٥٣.

٥- المدرسة الأقبغاوية: تقع بجوار الجامع الأزهر على يسرة من يدخل إليه من بابه الكبير البحريّ، وهي تُشرف بشبابيك على الجامع مركبة في جداره، في مواجهة المدرسة الطيبرسية، أنشأها الأمير علاء الدين أقبغا عبد الواحد أستادار الملك الناصر محمد بن قلاون (قتل سنة ٧٤٤هـ)، وجعل بجوارها قبة ومنارة من حجارة منحوتة، بتصميم المهندس المعلم ابن السيوفيّ رئيس المهندسين في الأيام الناصرية. ابن حجر: الدرر الكامنة ج١ ص٣٩١؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٤٩٠.

٦ و٧ - وأنشأ خانقاتين إحداهما بجانب مدرسته، وأقام فيها شيخا، وطائفة يؤدون وظيفة التصوف، ولهم وقف، وله خانقاة في القرافة أيضا. المقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٥٩٩.

٨- جامع الأقمر: يقع بمرجوش على يمين السائر إلى باب الفتوح، بناه الآمر الفاطمي سنة٥١٩هـ، وتجدد في عهد الظاهر بيبرس البندقداري. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٢ ص٢٦٧، ج٣ ص١٤٩؛ والمجمع المؤسس ج١ ص٧٩؛ ومحمد: مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ج١ ص٣٢٠.

٩- المدرسة الألجيهية: درّس فيها الشيخ جلال الدين التباني (ت٧٩٣هـ) والشيخ سراج الدين عمر بن رسلان البلقيني (ت٨٠٥هـ) بتعيين من واقفها. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٢ ص٥٤٥؛ وابن قاضي شهبة ج٤ ص٣٩.

١٠- مدرسة أم السلطان الأشرف: مدرسة جليلة تقع خارج باب زويلة بالقرب من قلعة الجبل بالتبانة، أنشأتها في سنة ٧٧١هـ الست بركة أمّ السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين (توفيت سنة٧٩٦هـ) ذكر المقريزي أنها وقفت لتدريس الفقه الشافعي والحنفي، لكن ابن حجر ذكر عالمين حنبليين تعاقبا فيها لتدريس الحنابلة بما يشير إلى تغير في وقفيتها. ابن حجر: الدرر الكامنة ج١ ص٤٧٤- ٤٧٥، ج٢ ص٣٦- ٣٧؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٥٣٠ -٥٣١.

١١- مدرسة الأمير ألجاي: تقع خارج باب زويلة بالقرب من قلعة الجبل، أنشأها الأمير الكبير سيف الدين ألجاي في ٧٦٨هـ، وجعل بها درساً للفقهاء الشافعية، ودرساً للفقهاء الحنفية، وخزانة كتب، وأقام بها منبراً يخطب عليه يوم الجمعة، وهي من

[١] تم ترتيبها مجتمعة حسب أبجدية أسمائها.

المدارس المعتبرة الجليلة، ودرّس بها الشيخ جلال الدين التباني. ابن حجر: إنباء الغمر ج١ ص٦١، ٣٤٣؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٥٢٨- ٥٢٩.

١٢- المدرسة البدرية الخروبية: وصفت بالبدرية نسبة إلى منشئها بدر الدين محمد بن محمد بن علي الخروبي، كبير الخرارية، وأحد أعيان التجار، وقد أنشأها بعد ٧٥٠هـ بظاهر مدينة مصر تجاه المقياس بخط كرسيّ الجسر، واشترط أن لا يلي أعجميٌّ فيها وظيفة.

١٣- وأنشأ ابن أخيه عز الدين عبد العزيز بن أحمد بن محمد الخروبي (ت٧٧٦هـ) مدرسة مليحة بجوار داره بالقرب من دار النحاس بالفسطاط.

١٤- وأنشأ تاج الدين محمد بن أحمد بن محمد الخروبي (ت٧٨٥هـ) مدرسة بجوار بيته بشاطئ النيل بالشون. ابن حجر: إنباء الغمر ج١ ص٨٦- ٨٧، ٢٨٥؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٤٥٣- ٤٥٤.

١٥- تربة الشيخ البصير: كانت تربة للشيخ أبي العباس البصير، وتقع في طرف القرافة، سكنها يحيى الصنافيري (ت٧٧٢هـ) أحد مشاهيرهم. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٤ ص٤٣١-٤٣٢.

١٦- المدرسة البقرية: تقع في الزقاق تجاه باب الجامع الحاكمي المجاور للمنبر، ويتوصل من هذا الزقاق إلى ناحية العطوف، بناها الرئيس شمس الدين شاكر بن غُزيل، تصغير غزال، المعروف بابن البقري (ت٧٧٦هـ)، أحد مسالمة القبط وناظر الذخيرة في أيام الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاون، وأنشأها بترتيب بديع لتدريس الفقه الشافعي، ورتب فيها ميعادا للوعظ. ابن حجر: إنباء الغمر ج١ ص٦٥-٦٦؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٥٠٨.

١٧- مدرسة بكتمر الحاجب: تقع عند ظاهر باب النصر بجانب دار منشئها، وهو الأمير والوزير بكتمر الحاجب (ت٧٢٨هـ). ابن حجر: الدرر الكامنة ج١ ص٤٨٣-٤٨٤.

١٨- خانقاه بكتمر الساقي: تقع بطرف القرافة في سفح الجبل مما يلي بركة الحبش، أنشأها سنة٧٢٦هـ الأمير بكتمر الساقي (ت٧٣٣هـ)، ورتب لشيخها في كل شهر مائة درهم، وعن معلوم الإمامة مبلغ خمسين درهماً، ورتب معه عشرين صوفياً لكل منهم في الشهر مبلغ ثلاثين درهماً، ورتب قرّاء قرّر لهم الطعام والخبز في كل يوم، والدراهم والحلوى والزيت والصابون في كل شهر، وبنى بجانبها حمّاماً، وأنشأ هناك بستاناً. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٢ ص٣٣٣؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٥٩١.

١٩- البيبرسية (القبة): هي عبارة عن ضريح بقاعة مربعة طول كل ضلع من أضلاعها ١١.٣٠ مترا، يعتبر ملحقا في الجهة الشامية بالمجمع الذي بناه بيبرس الجاشنكير مع الخانقاة ومنازل الصوفية والمئذنة والأروقة التابعة له، والقبة تطل على الشارع المسلوك فيه من رحبة باب العيد إلى باب النصر. ابن حجر: إنباء الغمر ج٢ ص٤٧٣؛ ومحمد: مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ج٣ ص١٧٠.

٢٠- البيبرسية (المدرسة ويطلق عليها الخانقاة أيضا): بناها السلطان بيبرس الجاشنكير ضمن المجمع الكبير الذي ضم القبة ومنازل الصوفية والمئذنة والأروقة التابعة له، وهي بجانب القبة رواق مساحته ١١.٤٥×٤.٧٣متر، خصص لدرس الحديث يحضره شيخ وثلاثون طالبا، وابتدئ بناء المجمع سنة ٧٠٦هـ وانتهى سنة ٧٠٩هـ. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٢ ص٢٠٩؛ ومحمد: مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ج٣ ص١٧٠.

٢١- الخانقاة أو المدرسة الجاولية: يطلق عليها الاسمان، وتقع على جبل يشكر بجوار مناظر الكبش، فيما بين القاهرة ومصر، أنشأها الأمير علم الدين سنجر الجاوليّ في سنة ٧٢٣هـ، ورتب بها درسا للصوفية، واستمرت حتى عصر المقريزي بأوقافها. ابن حجر: الدرر الكامنة ج١ ص٥٣٢؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٥٢٥- ٥٢٦، ٥٨٥.

٢٢- خانقاة الجيبغا: تقع خارج باب النصر فيما بين قبة النصر وتربة عثمان بن جوشن السعوديّ، أنشأها الأمير سيف الدين الجيبغا المظفري (٧٥٠هـ)، رتب بها شيخا وصوفية، وكُتّابا يقرأ فيه أطفال المسلمين الأيتام كتاب الله تعالى، ويتعلمون الخط. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٤ ص١٥٨، وأطلق عليها (تربة الجيبغا)؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٥٨٥- ٥٨٦.

٢٣- الجامع الحاكمي: يقع خارج باب الفتوح أحد أبواب القاهرة تأسّس أولا في العهد الفاطمي، وفي سنة٧٠٣هـ جدده الأمير بيبرس الجاشنكير بعد تعرضه لزلازل هدّمت أجزاء منه، ورتب له أوقافا كثيرة جدا، وأعاد تنظيم التدريس فيه، فجعل فيه تدريسا لفقه المذاهب الأربعة، ودرسا للحديث، ودرسا لإقراء القراءات السبع، ودرسا للنحو، على يد الإمام أبي حيان، وواعظا رسميا، ودرسا للعلوم الأخرى، ومقرئين للقرآن، ومعلما للأيتام، وشحن خزانة جليلة بالكتب، ثم أعاد تجديده مرة أخرى العلامة قطب الدين محمد الهرماس أيام السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون سنة٧٦٠هـ. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٢ ص٤٠٦- ٤٠٧، ج٣ ص١٦١ـ ١٦٤؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٢٢٢- ٢٢٦.

٢٤- المدرسة الحجازية: تقع برحبة باب العيد من القاهرة، بجوار قصر الحجازية، أنشأتها الست خوند تتر الحجازية، ابنة السلطان محمد بن قلاوون، زوجة الأمير بكتمر الحجازيّ، وبه عرفت، وجعلت بهذه المدرسة درساً للفقهاء الشافعية، وآخر للفقهاء المالكية، وجعلت بها منبراً يخطب عليه يوم الجمعة، وجعلت بها خزانة كتب، وأنشأت بجوارها قبة من داخلها لتدفن تحتها، وجعلت بجوار المدرسة مكتباً لتأديب عدة من أيتام المسلمين، وأجرت على ذلك أوقافا طائلة، وكان بناؤها سنة ٧٦١هـ. ابن حجر: رفع الإصر ص٤٣١؛ وإنباء الغمر ج١ ص٤٩٢ -٤٩٣؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٤٨٧- ٤٨٨.

٢٥- الحسامية: بناها الأمير حسام الدين طرنطاي المنصوريّ نائب السلطنة بديار مصر (قتل سنة٦٨٩هـ)، إلى جانب داره للفقهاء الشافعية، وهي تجاه سوق الرقيق، ويُسلك منها إلى درب العدّاس وإلى حارة الوزيرية وإلى سويقة الصاحب وباب الخوخة. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٢ ص٣٥٨، ج٣ ص٧٢-٧٣؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٤٩٥- ٤٩٦.

٢٦- المشهد الحسيني: استقدم الفاطميون رأس الحسين بن علي كما يُظَنُّ من عسقلان سنة٥٤٩هـ، ودفن عند قبة الديلم بباب قصر الزمرد قصر الخليفة الفاطمي في القاهرة، وجدد الظاهر بيبرس بناء مسجد بجواره، وقد رتب بعد موت السلطان صلاح الدين الأيوبي فيه تدريس للفقه الشافعي وكان أحد أماكن التدريس النشطة خلال القرن الثامن الهجري. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٣ ص٦٢- ٦٣؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٢ ص٢٠٤- ٢٠٥، ج٣ ص٥٦٥.

٢٧- المدرسة الجمالية: بناها الأمير جمال الدين يوسف ابن الألبيري الأستادار (قتل سنة ٨١٢هـ)، وتقع برحبة باب العيد بالقاهرة، وقد رتب فيها مدرسين للمذاهب الأربعة وللحديث وللتفسير وشيخ تصوف، ولكل مدرس ٣٠٠ درهم، ورتب لكل مدرس طلابا، ورتب لكل طالب منهم ٣ أرطال خبزا يوميا، و٣٠ درهما فلوسا شهريا، وتتبع المقريزي تلاعب القضاة بأوقافها تصحيحا ونقضا حسب رغبات السلاطين ومقربيهم. المقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٥٣٥- ٥٤٠.

٢٨- خانقاة ابن الخليلي: لعلها تنسب إلى الصاحب فخر الدين عمر بن عبد العزيز الخليلي الداري (ت٧١١هـ)، ولم يذكرها المقريزي، ووردت في الدرر الكامنة باسم (الخانقاه الجليلية)، والتصحيح من الوافي بالوفيات وأعيان العصر. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٢ ص٤٣٤، ج٣ ص١٧٠- ١٧١؛ والصفدي: الوافي بالوفيات ج١٩ ص٣٠٢؛ وأعيان العصر ج٣ ص٢١٠.

٢٩- رباط درب المهراني: وهو بمنشأة المهراني التي تقع ما بين نهر النيل وخليج مصر، وكان لهذا الرباط شيخة تدعى ست العلماء (ت٧١٢هـ)، تعظ فيه واشتهرت بالعبادة والخير. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٢ ص١٢٧.

٣٠- الخانقاة الدوادارية: لعلها هي خانقاه أرسلان. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٤ ص٣٢٨- ٣٢٩.

٣١- الدويدارية النجمية: تولى مشيختها شمس الأئمة محمود الكردي الحنفي (ت٧٦٧هـ). ابن حجر: الدرر الكامنة ج٤ ص٣٤٣؛ وإنباء الغمر ج١ ص٢٠٦-٢٠٧.

٣٢- المدرسة الديلمية (أو الدهلية كما في بعض نسخ الدرر الكامنة) لم أجدها، ولكن ورد في الدرر الكامنة (ج ٣ ص١٠١) أن بها درّس علي بن محمد الخلاطي.

٣٣- مسجد الرصد: الرصد مكان مشرف غربي القرافة ويطلّ من غربيه على راشدة، ومن قبلّيه على بركة الحبش، وفيه مسجد أنشأه الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجماليّ في أيام الفاطميين لأجل رصد الكواكب بالآلة التي يقال لها ذات الحلق. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٤ ص٢١٠؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج١ ص٥٦، ج٣ ص٦٥٠.

٣٤- جامع ابن الرفعة: هو خارج القاهرة الفاطمية بحكر الزهريّ، أنشأه أحمد بن عبد المحسن، ابن الرفعة العدوي. ابن حجر: الدرر الكامنة ج١ ص١٩٠- ١٩١، ج٣ ص٣٤٩؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٣٥٠.

٣٥- زاوية الرميلة: تقع بالرميلة تحت القلعة اتخذها رجب بن أشترك التركماني (ت٧١٤هـ)، وصارت مأوى للفقراء الواردين من العجم. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٢ ص١٠٧.

٣٦ و٣٧- زاويتا ابن كر الحنبلي: زاويتان إحداهما بالقرب من المشهد الحسيني، والأخرى بالقرب من دكة الخليج، ولي مشيختهما الفقيه الحنبلي وإمام الموسيقى محمد بن عيسى بن حسن بن كر البغدادي ثم المصري الحنبلي شمس الدين المرواني (ت٧٦٣هـ). ابن حجر: الدرر الكامنة ج٤ ص١٢٨.

٣٨- المدرسة السابقية: هي داخل قصر الخلفاء الفاطميين من جملة القصر الكبير الشرقيّ الذي كان داخل دار الخلافة الفاطمية، بناها الطواشي الأمير سابق الدين مثقال الأنوكي (ت٧٧٦هـ) مقدّم المماليك السلطانية الأشرفية، وجعل بها درساً للفقهاء الشافعية، قرّر في تدريسه الشيخ سراج الدين عمربن علي الأنصاريّ، المعروف بابن الملقن الشافعي، وجعل فيها تصدير قراءات وخزانة كتب، وكتاباً يقرأ فيه أيتام المسلمين، وبنى بينها وبين داره التي تُعرف بقصر سابق الدين حوض ماء للسبيل. ابن حجر: إنباء الغمر ج١ ص١٠٠، ج١ ص٢٢٤؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٥١٥.

٣٩- خانقاه سرياقوس: هي خارج القاهرة على بعد بريد شمالا، ولكنها كانت ترتبط بها مباشرة إداريا وتعليميا وتصوفا، وأطلق على شيخها (شيخ الشيوخ)، وكان يعينه السلطان من القاهرة، بناها الناصر ابن قلاوون، وافتتحها في سنة ٧٢٥هـ. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٣ ص١٤- ١٥، ج٤ ص٣٢٧- ٣٢٨ ؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٥٨٧- ٥٨٨.

٤٠- المدرسة السعدية: تقع خارج القاهرة بقرب حدرة البقر على الشارع المسلوك فيه من حوض ابن هنس إلى الصليبة، وهي بين قلعة الجبل وبركة الفيل، بناها الأمير سنقر السعدى (ت٧٢٨هـ)، وبنى بها رباطا للنساء. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٢ ص١٧٦؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٥٢٣.

٤١- زاوية أبي السعود: تقع خارج باب القنطرة من القاهرة على حافة الخليج، عُرفت بالشيخ المبارك أيوب السعوديّ (ت٧٢٤هـ) وخلفه آخرون في المشيخة عليها. ابن حجر: الدرر الكامنة ج١ ص٤٩٢؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٦١٩.

٤٢- خانقاه سعيد السعداء (وقد يطلق عليها الخانقاة الصلاحية): تقع بخط رحبة باب العيد من القاهرة، وسعيد السعداء أحد خدام القصر الفاطمي، فلما استولى صلاح الدين الأيوبي على مصر، وقف هذه الدار سنة٥٦٩هـ على الفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة، فكانت أوّل خانقاه في مصر، ووقف عليها الأوقاف، وبلغ عدد النازلين بها نحو ٣٣٠ صوفي، لكلّ منهم في اليوم ثلاثة أرغفة زنتها ثلاثة أرطال خبز، وقطعة لحم زنتها ثلث رطل في مرق، ويُعمل لهم الحلوى في كلّ شهر، ويفرّق فيهم الصابون، ويعطى كلّ منهم في السنة عن ثمن كسوة قدر أربعين درهماً، وكان يلي مشيختها الأكابر من العلماء. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٢ ص٢١، ٣٧٥-٣٧٦، ٣٧٩؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٥٧٠- ٥٧٣.

٤٣- جامع ومدرسة السلطان حسن: ورد وصفها في الفصل السادس في العلوم العقلية في علم الهندسة، ويطلق عليه كلا الاسمين لاختلاط وظيفتيهما، بناها السلطان الناصر حسن (ت٧٦٠هـ) والذي ابتدأ عمارتها في ٧٥٧هـ، وتقع تجاه قلعة الجبل ما بين القلعة وبركة الفيل، وهي اليوم في نهاية شارع القلعة (محمد علي) في مواجهة جامع الرفاعي، وتطل واجهتها الشرقية على ميدان صلاح الدين (الرماحة)، وتعد من أحسن الآثار العربية وأجملها ورتب للمدرس من أحد المذاهب الأربعة بها شهريا ٣٠٠ درهم نقرة، وللمعيد ١٠٠ درهم نقرة، وللمحدث ٣٠٠ درهم نقرة. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٢ ص٧٧؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٣٢٠؛ ومحمد: مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ج٣ ص٢٨١-٢٨٢، ٢٨٩.

٤٤- المدرسة السيفية: تقع في القاهرة الفاطمية فيما بين خط البندقانيين وخط الملحيين، بنيت بأمر سيف الإسلام طغتكين بن أيوب والي اليمن (ت٥٩٣هـ). ابن حجر: الدرر الكامنة ج ٢ ص٤١٣؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٤٤٩.

٤٥- المدرسة السيوفية: هي بالقاهرة الفاطمية من جملة دار الوزير المأمون البطائحيّ، وقفها السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة٥٧٢هـ على الحنفية، وعرفت بالسيوفية لأن سوق السيوفيين كان حينئذ على بابها، وهي أوّل مدرسة وقفت على الحنفية بديار مصر. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٣ ص٤٩٩؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٤٤٣- ٤٤٤.

٤٦- مشهد الإمام الشافعي بالقرافة: القرافة كبرى وتقع شرقي مدينة الفسطاط، وصغرى وتقع على سفح جبل المقطم، وفي الصغرى قبر الإمام الشافعي الذي بنى عليه السلطان الكامل الأيوبي قبة عظيمة، وأجرى إليها الماء، فتكاثر حولها البناء والترب لا سيما أيام الناصر ابن قلاوون، وقد درّس كثير من العلماء في هذا المشهد خلال القرن الثامن الهجري. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٢ ص٨؛ وإنباء الغمر ج١ ص٤٦- ٤٧؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٦٤٣، ٦٤٦، ٦٤٨.

٤٧- المدرسة الشريفية الفخرية: نسبة إلى مؤسسها الشريف فخر الدين أبو نصر بن فخر العرب ثعلب الجعفري الزينبي (ت ٦١٣هـ)، أحد أمراء الدولة الأيوبية، وهي مدرسة للفقهاء الشافعية تقع بدرب كركامة على رأس حارة الجودرية بالقاهرة. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٢ ص٦٠- ٦١؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبارج٣ ص٤٦٣.

٤٨- المدرسة أو الخانقاة الشيخونية: هي في خط الصليبة خارج القاهرة (الفاطمية) تجاه جامع شيخو، أنشأها الأمير سيف الدين شيخو العمريّ في سنة ٧٥٦هـ لتدريس المذاهب الأربعة، والحديث النبوي ولإقراء القرآن بالقراءات السبع، ورتب لكل مدرس عددا من الطلبة، واشترط عليهم حضور وظيفة التصوف، وأجرى عليهم رواتب مغرية، وجعل نظرها للشيخ أكمل الدين البابرتي، وتخرج منها كثير من العلماء، وتعرف الخانقاة اليوم بجامع شيخو القبلي، كما يعرف الجامع بجامع شيخو البحري، ويفصل بينهما شارع شيخو بقسم الخليفة في القاهرة. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٢ ص٨٦، ٨٩؛ وإنباء الغمر ج١ ص٢٩٨؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٥٨٤- ٥٨٥؛ ومحمد: مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ج٣ ص٢٦٠.

٤٩- زاوية الصاحب أمين الملك: تقع في الفسطاط، نزلها أبو الطيب بن محمد التونسي (ت٧٥١هـ). ابن حجر: الدرر الكامنة ج٢ ص٢٣٢.

٥٠- المدرسة الصاحبية البهائية: تقع في زقاق القناديل من مدينة مصر، قرب الجامع العتيق، أنشأها في ٦٥٤هـ الوزير الصاحب بهاء الدين عليّ بن محمد بن سليم ابن حنا (ت٦٧٧هـ)، وكان لها خزانة كتب جليلة، ويتبعها سكن يتنافس على السكنى به الطلاب لنفاسته. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٣ ص٣٨٥- ٣٨٦، ج٤ ص٢٩٩ـ ٣٠٠؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٤٥٥- ٤٥٨.

٥١- وهناك المدرسة الصاحبية: وتقع هذه المدرسة بالقاهرة في سويقة الصاحب، كان موضعها من جملة دار الوزير يعقوب بن كلس، أنشأها الصاحب صفيّ الدين عبد الله بن عليّ بن شكر الدميري المالكي (ت٦٢٢هـ)، وجعلها وقفاً على المالكية، وبها درس نحو وخزانة كتب. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٣ ص٣٨٥- ٣٨٦، ج٤ ص٢٩٩ـ ٣٠٠؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٤٥٥- ٤٥٨.

٥٢- جامع الصالح: بني في العهد الفاطمي خارج باب زويلة، بناه الصالح طلائع بن رزيك وزيرهم (ت٥٥٦هـ). ابن حجر: الدرر الكامنة ج٢ ص١٨٤، ١٨٦؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٢٦١.

٥٣- المدرسة الصالحية: بناها الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك العادل محمد الأيوبي سنة٦٤١هـ بخط بين القصرين محل القصر الشرقي الكبير، بشارع المعز لدين الله الفاطمي حي النحاسين، ورتب فيها لأول مرة في مصر دروسا للمذاهب الأربعة سنة ٦٤١هـ. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٤ ص٤٣٧-٤٣٨؛ ورفع الإصر ص٣٩٤-٣٩٦؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٤٦٥.

٥٤- المدرسة الصرغتمشية: من أبدع المدارس وأجلها، خارج القاهرة الفاطمية بجوار جامع ابن طولون، في ما بينه وبين قلعة الجبل، بناها الأمير سيف الدين صرغتمش الناصري، وانتهى من بنائها سنة٧٥٧هـ، وخصصها لتدريس الفقه الحنفي من قبل الحنفية الآفاقيين فقط، كما رتّب فيها درسا للحديث النبوي، واستقدم كثيرا من المدرسين للتدريس فيها، كما مر في البحث. ابن حجر: الدرر الكامنة ج١ ص٥٤٥، ج٤ ص٣٣٢؛ وإنباء الغمر ج١ ص٧٠. المقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٥٤٠- ٥٤١.

٥٥- المدرسة الصلاحية أو الناصرية: تعرف بالاسمين، أنشأها القائد صلاح الدين الأيوبي بالقرافة جوار ضريح الإمام الشافعي لتدريس المذهب الشافعي السني في مواجهة ما بقي من التأثيرات الفاطمية الشيعية، ورتب لها مدرسا ومعيدين وطلبة بمرتبات مالية. ينظر المقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٤٣٨.

٥٦- المدرسة الصيرمية: تقع داخل باب الجملون الصغير بالقرب من رأس سويقة أمير الجيوش، فيما بينها وبين الجامع الحاكميّ، بناها الأمير جمال الدين شويخ بن صيرم (ت٦٣٦هـ)، أحد أمراء الملك الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٣ ص٢٨٥؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٤٧٥.

٥٧- الخانقاه الطقزدمرية: تقع بالقرافة، بناها الأمير طقزدمر الحموي (ت٧٤٦هـ) نائب السلطنة بمصر والشام، ولم يذكرها المقريزي بين الخوانق في المواعظ والاعتبار. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٢ ص٤٤٦- ٤٤٧؛ والمقريزي: السلوك ج٤ ص٢١.

٥٨- جامع ابن طولون: بناه الأمير أحمد بن طولون ضمن مدينة القطائع التي بناها لما ضاقت الفسطاط بساكنيها بجانب جبل يشكر سنة٣٦٥هـ، وتم تجديده أيام السلطان لاجين سنة٦٩٦هـ، ثم سنة ٧٦٧هـ على يد الأمير يلبغا الخاصكي، ورتبوا فيه تدريسا وأوقافا تعين عليه، وكان رئيس الأطباء يدرس فيه الطب أيضا. ابن حجر: الدرر الكامنة ج ٢ ص٢٦٦- ٢٦٧، ٢٧٦، ج٣ ص٤٥٧؛ ومحمد: مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ج١ ص١٤١، ١٤٦- ١٤٧.

٥٩- الطيبرسية (الخانقاة): هي في جملة أراضي بستان الخشاب، فيما بين القاهرة ومصر على شاطئ النيل، أنشأها الأمير علاء الدين طيبرس الخازندار نقيب الجيوش في سنة سبع وسبعمائة، بجوار جامعه، وقرّر بها عدّة من الصوفية، وجعل لهم شيخاً وأجرى لهم الإعاشات. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٣ ص١٦١- ١٦٢؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٥٩٩.

٦٠- الطيبرسية (المدرسة): تقع بجوار الجامع الأزهر من القاهرة، مما يلي الجهة البحرية، أنشأها سنة٧٠٩هـ الأمير علاء الدين طيبرس الخازنداريّ نقيب الجيوش (ت٧١٩هـ)، وجعلها مسجداً لله تعالى زيادة في الجامع الأزهر، وقرّر بها درساً للفقهاء الشافعية، وكانت في أبدع زي، وأبهج ترتيب، لما فيها من إتقان العمل ووقف عليها أوقافا جليلة. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٣ ص٣٢٠، ٣٢١؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٤٨٨، ٤٨٩.

٦١- الجامع الظافري: يقع في القاهرة في وسط السوق الذي كان يُعرف قديماً بسوق السرّاجين، ويُعرف بجامع الفاكهانيين، سيأتي في الفاء.

٦٢- جامع الظاهر بالحسينية: يقع خارج القاهرة الفاطمية في الحسينية أنشأه الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداريّ سنة٦٦٥هـ. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٤ ص٣٧٨- ٣٧٩، ٤٢١-٤٢٢؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ س٢٧٨- ٢٨٠.

٦٣- المدرسة الظاهرية: تقع في الخط بين القصرين في القاهرة بناها الظاهر بيبرس، وفُرِغ من بنائها سنة ٦٦٢هـ، ورتّب فيها دروسا للشافعية والحنفية وأهل الحديث والتفسير، وهي من أجل المدارس، وفي سكناها يتنافس أهل العلم، ويصل إلى حد الخصومة لدى المحاكم. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٣ ص١٨٨، ج٤ ص٢٠٨- ٢١٠؛ والصفدي: أعيان العصر ج٣ ص٦٦١؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٤٧٦- ٤٧٩.

٦٤- المدرسة أو الخانقاة الظاهرية: يطلق عليها الاسمان لتداخل الوظيفتين، وتسمى أيضا الظاهرية الجديدة وتقع في خط بين القصرين فيما بين المدرسة الناصرية ودار الحديث الكاملية، أنشأها الملك الظاهر برقوق في سنة٧٨٦هـ. ابن حجر: إنباء الغمر ج١ ص٤٦٤؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص١٤٣، ٥٧٨.

٦٥- زاوية ابن عبود: تقع بلحف الحبل، قريباً من الدينوريّ في القرافة، أنشأها الشيخ الصوفي نجم الدين الحسين بن محمد القرشي (ت٧٢٢هـ). ابن حجر: الدرر الكامنة ج٢ ص٦٥- ٦٦؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٢ ص٥٤١- ٥٤٢.

٦٦- الجامع العتيق: وهو جامع عمرو بن العاص، أول جامع بني بعد فتح مصر في مدينة الفسطاط، وأعيد تجديده في عهد بيبرس البندقداري، ثم في عهد قلاوون الألفي، وبعد زلزلة ٧٠٢هـ كان تجديده على يد الأمير سلار مقابل اعتناء زميله الجاشنكير بجامع الحاكم، كان فيه حوالي ٨ زوايا و٥٠ حلقة في القرن الثامن الهجري، ومن الزوايا **(٦٧-)زاوية الشافعي**، وقف عليها السلطان العزيز الأيوبي، وتولى التدريس فيها أعيان العلماء، **(٦٨-)والزاوية المجدية** لتدريس الفقه الشافعي أيضا رتبها مجدالدين الحارث بن مهلب المهلبي البهنسي (ت٦٢٨هـ)، ووقف عليها أوقافا كثيرة، **(٦٩-)والزاوية الصاحبية** رتبها الصاحب تاج الدين محمد بن فخر الدين محمد بن بهاء الدين بن حنا، وجعل لها مدرسين أحدهما مالكي والآخر شافعي، ووقف عليها، **(٧٠-)والزاوية الكمالية** رتبها كمال الدين المنودي ووقف عليها، والزاوية التاجية أمام المحراب الخشب رتبها تاج الدين السطحي ووقف عليها، **(٧١-)والزاوية المعينية** في الجانب الشرقي من الجامع رتبها معين الدين الدهروطي ووقف عليها،

(٧٢-)والزاوية العلائية، تنسب لعلاء الدين الضرير، وهي في صحن الجامع، وهي لقراءة ميعاد، **(٧٣-)والزاوية الزينية** رتبها الصاحب زين الدين بقراءة ميعاد أيضاً، وبلغت حلقات العلم بها ما يقارب خمسين حلقة سنة٧٤٩هـ، **(٧٤-) وهناك** كما ذكر المقريزي في السلوك أيضا **الزاوية الخشابية**. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٢ ص٦٠- ٦١، ٢٦٦- ٢٦٧، ج٣ ص٢١٠، ٣٨٣؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص١٤٤- ١٧٠؛ والسلوك ج٥ ص٣٥٧؛ والصفدي: أعيان العصر ج٤ ص٣٠٠.

٧٥- زاوية العجمي: وهي في قرافة مصر، مشهورة، نزلها يوسف بن عبد الله بن عمر بن علي بن خضر الكردي الكوراني المعروف بالعجمي (ت٧٦٨هـ). ابن حجر: الدرر الكامنة ج٤ ص٤٦٣.

٧٦- مدرسة ابن عرام: تقع بجوار جامع الأمير حسين بحكر جوهر النوبيّ من بر الخليج الغربيّ خارج القاهرة، أنشأها الأمير صلاح الدين خليل بن عرّام، والي الإسكندرية قتل سنة ٧٨٤هـ. ابن حجر: إنباء الغمر ج١ ص٢٢٣-٢٢٤؛ و المقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٥١٧.

٧٧-مدرسة ابن العوكلاني: تقع بحارة بهاء الدين بالقاهرة، بناها النقيب الحسين بن محمد العوكلاني الحسيني، ابن قاضي العسكر (ت٧٦٢هـ) ووقف عليها أوقافا جيدة، وأنشأ فيها مكتبة جيدة أيضا. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٢ ص٦٧- ٦٨؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٦٨.

٧٨- المدرسة الفارقانية: باب هذه المدرسة مشرع إلى سويقة حارة الوزيرية من القاهرة، فُتحت سنة٦٧٦هـ لتدريس الفقه الشافعي والحنفي، أنشأها الأمير شمس الدين آق سنقر الفارقانيّ السلاحدار (ت٦٧٦هـ). ابن حجر: الدرر الكامنة ج٢ ص٣٢٦-٣٢٧، ج٣ ص١٦٩، ٤٢٣؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٤٥٢.

٧٩- المدرسة الفاضلية: من أعظم مدارس القاهرة تقع بدرب ملوخيا، بناها القاضي الفاضل عبد الرحيم بن عليّ البيسانيّ (ت٦٩٦هـ)، بجوار داره، في سنة ٥٨٠هـ، ووقفها على طائفتي الفقهاء الشافعية والمالكية، وجعل فيها قاعة للإقراء، أقرأ فيها الإمام الشاطبيّ ناظم الشاطبية، ووُقِف بهذه المدرسة مكتبة من أضخم المكتبات. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٢ ص٣١٢، المقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٤٤٤.

٦١- جامع الفاكهانيين: يقع في القاهرة في وسط السوق، وعرف أولا بجامع الظافر كما تقدم، أو الظافري حيث بناه الخليفة الظافر الفاطمي إسماعيل بن الحافظ عبدالمجيد سنة٥٤٣هـ، ثم عرف بعد ذلك بجامع الفاكهانيين، وبه حلقة تدريس وفقهاء ومتصدرون لقراءة القرآن. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٤ ص١٥٩؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٢٦١.

٨٠- المدرسة الفخرية: تقع في ما بين سويقة الصاحب ودرب العدّاس بالقاهرة، عمرها الأمير فخر الدين أبو الفتح عثمان بن قزل البارومي، أستادار الملك الكامل الأيوبي سنة اثنتين وعشرين وستمائة، وكان موضعها أخيراً يُعرف بدار الأمير حسام الدين ساروح بن أرتق شاد الدواوين. ابن حجر: الدرر الكامنة ج١ ص٣٠٤، ج٢ ص١٤٥؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٤٤٨.

٨١- جامع الفيلة: يقع بسطح الجرف المطلّ على بركة الحبش المعروف الآن بالرصد، بناه الأمير الأفضل بدر الجماليّ في شعبان سنة٤٧٨هـ، وفي قبلته تسع قباب في أعلاه ذات قناطر، إذا رآها الإنسان من بعيد شبهها بمدّرعين على فيلة، ولهذا سمي بذلك، وكان ينزله الصوفية المسلمية. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٢ ص٤٦؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٢٥١.

٨٢- المدرسة القراسنقرية: تقع تجاه خانقاه الصلاح سعيد السعداء، فيما بين رحبة باب العيد وباب النصر، أنشأها الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوريّ نائب السلطنة سنة سبعمائة، وبنى بجوار بابها مسجداً معلقاً ومكتباً لإقراء أيتام المسلمين القرآن الكريم، وجعل لها وقفا يدر عليها، (٨٣-) وفي المسجد أيضا عقدت حلقات العلم. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٣ ص١٦١ـ ١٦٤؛ وإنباء الغمر ج١ ص٤٥؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٥٠١.

٨٤- المدرسة القطبية: يحمل هذا الاسم مدرستان أولاهما مدرسة تقع في القاهرة في خط سويقة الصاحب بداخل درب الحريريّ، أنشأها الأمير قطب الدين خسرو بن بلبل بن شجاع الهدبانيّ أحد أمراء السلطان صلاح الدين الأيوبي في سنة ٥٧٠هـ، وجعلها وقفاً على الفقهاء الشافعية.

٨٥- وثانيتهما تقع في أوّل حارة زويلة برحبة كوكاي، عُرفت بالست عصمة الدين مؤنسة خاتون، المعروفة بدار إقبال العلائي، ابنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب (ت٦٩٣هـ)، وشقيقة الملك الأفضل قطب الدين أحمد، وإليه نُسبت، كانت قد سمت الحديث، وأوصت ببناء هذه المدرسة لتدريس الفقه الشافعي والحنفي وقراءات القرآن، وظلت عامرة حتى عصر المقريزي. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٢ ص٢٦٧، ج٣ ص٤٥٢- ٤٥٣؛ وإنباء الغمر ج١ ص١٢٠- ١٢١؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٤٤٣، ٤٥٠.

٨٦- جامع القلعة: أنشأه السلطان الناصر ابن قلاوون سنة٧١٨هـ، وعمره أحسن عمارة ثم جمع القرء والخطباء والمؤذنين واختار منهم من رتبهم فيه، وجعل به قراء ودرسا، ووقف عليه أموالا فاضلة عن حاجته، ودرس به بعض العلماء. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٢ ص٢٦٧؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٣٤٤.

٨٧- المدرسة القمحية: تقع بجوار الجامع العتيق بمصر، أنشأها السلطان صلاح الدين الأيوبي مدرسة للفقهاء المالكية، ورتب فيها أربعة مدرسين، عند كل مدرس عدد من الطلاب المالكية، وهي من أجل مدارسهم، ودرّس فيها العلامة ابن خلدون، وسميت كذلك لأن لها ضيعة في الفيوم يأتي منها قمح للمدرسين. المقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٤٣٩.

٨٨- المدرسة الكاملية: تقع بخط بين القصرين من القاهرة، وتعرف بدارالحديث الكاملية، أنشأها السلطان الكامل محمد ابن الملك العادل الأيوبي في سنة٦٢٢هـ، ووقفها على المشتغلين بالحديث النبويّ، ثم من بعدهم على الفقهاء الشافعية، ووقف عليها أوقافا جيدة، وكانت خلال القرن الثامن الهجري لا يتولاها إلا أعيان الفقهاء. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٢ ص٢٧٦؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٢٠٥.

٨٩- خانقاه كريم الدين (الكريمية): تقع في القرافة الصغرى، لعله بناها كريم الدين عبدالكريم بن هبة الله ابن السديد القبطي (ت٧٢٤هـ). ابن حجر: الدرر الكامنة ج٢ ص٢٩١- ٢٩٢، ج٣ ص٣٩- ٤٠؛ وإنباء الغمر ج١ ص١١٤.

٩٠- المدرسة الكهارية: تقع في درب الكهارية بجوار حارة الجودرية المسلوك إليه من القماحين. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٣ ص١٤٩؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٢ ص٤٥٥.

٩١- جامع الماريدني: يقع بجوار خط التبانة خارج باب زويلة، افتتح جمعه بجمعة ١٤ رمضان٧٤٠هـ، وهو من بناء الأمير الطنبغا الساقي المارداني (ت٧٤٤هـ). ابن حجر: الدرر الكامنة ج٤ ص٢٥٠، المقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٢٩٩- ٣٠٠.

٩٢- المدرسة المحمودية: أنشأها جمال الدين محمود بن علي الأستادار سنة ٧٩٧هـ، وتقع بخط الموازنيين خارج باب زويلة تجاه دار القردمية، ورتب بها دروسا، وزودها بأحسن المكتبات في مصر التي يوجد بها كل كتب الإسلام، وهي التي وليها ابن حجر في القرن التاسع الهجري، وتقع المدرسة اليوم بقصبة رضوان أول شارع الخيمة ما بين عطفة زقاق المسك وجامع محمود الكردي. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٤ ص٣٢٩؛ وإنباء الغمر ج١ ص١٣، ج٣ ص٢٩٩؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٥١٨؛ وعز الدين: التاريخ والمنهج التاريخي لابن حجر ص١٤٩ (الهامش).

٩٣- المدرسة المسرورية: تقع بالقاهرة داخل درب شمس الدولة، كانت دار شمس الخواص مسرور، أحد خدّام القصر وممن اختصهم صلاح الدين الأيوبي، فجُعلت مدرسة بعد وفاته بوصيته، وأن يوقف الفندق الصغير عليها. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٣ ص٤١٥؛ وإنباء الغمر ج١ ص٤٥؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٤٧٥.

٩٤- زاوية المشتهى: زاوية أو رباط في جزيرة الروضة، نزلها الشيخ المثير بهاء الدين الكازروني محمد بن عبد الله الصوفي، وكان يجتذب إليه المردان، ولا يستطيع أهلهم استرجاعهم. ابن حجر: الدرر الكامنة ج ٣ ص٤٨٨.

٩٥- المدرسة المعزية: بناها المعز أيبك أول سلاطين المماليك في الفسطاط برحبة الخروب. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٢ ص٣١٥، ج٤ ص٥٠، ٢٩٩- ٣٠٠، القلقشندي: صبح الأعشى ج٣ ص٤٩٨.

٩٦- المدرسة الملكية: هذه المدرسة بخط مشهد الحسين من القاهرة، بناها الأمير الحاج سيف الدين آل ملك الجوكندار تجاه داره، وعمل فيها درساً للفقهاء الشافعية، وأنشأ فيها خزانة كتب معتبرة، وجعل لها عدة أوقاف، وهي حتى عصر المقريزي من المدارس المشهورة. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٢ ص٦٠- ٦١؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٥١٠.

٩٧- البيمارستان المنصوري (مكان لتدريس الطب) نسبة إلى المنصور قلاوون الألفي، الذي أسسه ضمن مجمع ضم القبة والمدرسة التاليتين ويقع المجمع اليوم في شارع المعز لدين الله. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٤ ص١٨١، ٢٥٠؛ ومحمد: مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ج٣ ص٦٩، ٧٣.

٩٨- القبة المنصورية: وبها قبر السلطان قلاوون وولده الناصر وحفيده الصالح، وكان للقبة أهمية خاصة منها أن قاضي القضاة كان يعلن رؤية رمضان من فوقها، ويفيد المقريزي أن ريع أوقافها بلغ ٤٠٠٠ دينار ذهبا سنويا، وكان لا يدرس بها إلا قضاة القضاة، ويأسف أنها في عصره درّس بها من لا يستحق. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٤ ص٣٠٢-٣٠٩، والصفدي: الوافي ج٥ ص١٧٥-١٧٦؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٤٨٠؛ ومحمد: مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ج٣ ص٦٩، ٧٣.

٩٩- المدرسة المنصورية: تقع داخل باب البيمارستان الكبير المنصوري بخط بين القصرين بالقاهرة، أنشأها هي والقبة التي تجاهها والبيمارستان، الملك المنصور قلاوون الألفيّ الصالحيّ، ورتب بها تدريس الفقه على المذاهب الأربعة، ودرساً للطب، ورتب بالقبة درساً للحديث النبويّ، ودرساً لتفسير القرآن الكريم، وميعادا للوعظ، وكانت مناصب التدريس فيها لا يليها إلا أجل المدرسين. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٢ ص٣٥٨؛ ورفع الإصر ص٣٧٩- ٣٨٠؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٤٨٠.

١٠٠- المدرسة المنكوتمرية: بناها منكوتمر نائب السلطنة بالقاهرة بحارة بهاء الدين بالقاهرة، واكتمل بناؤها سنة٦٩٨هـ. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٢ ص٢٩٥؛ وإنباء الغمر ج١ ص١٣٥؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٤٩٨.

١٠١- المدرسة المهذبية أو مدرسة أبي حليقة: تقع بحارة حلب خارج القاهرة عند حمام قماري، بناها الحكيم مهذب الدين محمد بن أبي الوحش المعروف بابن أبي حليقة، ولي رياسة الأطباء في رمضان ٦٨٤هـ. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٤ ص٢١٠؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٤٥٣.

١٠٢- المدرسة المؤيدية: اكتمل بناؤها على يد السلطان المؤيد شيخ سنة٨٢٢هـ وكانت من أحسن الأبنية وأجملها، ورتب فيه المدرسين للمذاهب الأربعة وشيخا للتصوف وشيخا للحديث النبوي، وكان منهم ابن حجر شيخا للشافعية، وبدر الدين العيني شيخا للحديث النبوي، والقاضي شمس الدين محمد بن سعد الديري شيخا للحنفية والتصوف. المقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٣٥٢- ٣٥٨، ولا يزال هذا الجامع قائما.

١٠٣- المدرسة النابلسية: تقع تجاه خانقاة سعيد السعداء (الصلاحية) في القاهرة. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٢ ص٣٧١؛ وإنباء الغمر ج١ ص٤٥؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٢ ص٥٣٨، ٥٣٩، ولم يفردها بالذكر وإنما جاءت عرضا في سياق حدود بعض الحمامات.

١٠٤- المدرسة الناصرية: بناها الناصر صلاح الدين الأيوبي بجانب الجامع العتيق في الفسطاط، ثم عرفت بمدرسة ابن زين التجار، وهو أبو العباس أحمد بن المظفر بن الحسين الدمشقي (ت٥٩١هـ)، أحد أعيان الشافعية، درّس بها مدة طويلة، ثم عُرفت بالمدرسة الشريفة، وهي أيام المقريزي تُعرف بذلك. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٣ ص٢٠٦- ٢٠٧، ٢٨١، ٣٣٤؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٤٣٨.

١٠٥- زاوية نصر المنبجي: كانت له زاوية بباب النصر بالقاهرة. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٤ ص٣٩٢.

١٠٦- المشهد النفيسي: نسبة إلى نفيسة وهي ابنة الحسن بن زيد بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب، تزوجت إسحاق بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب، وتعلق المصريون بها لصلاحها، واعتقدوا ولايتها، توفيت سنة٢٨٠هـ، ودفنت في منزلها، وهو الموضع الذي به مشهدها، ويعرف بخط درب السباع، ودرب بزرب، واعتنى به الفاطميون أولا، وأمر السلطان الناصر سنة٧١٤هـ ببناء جامع لدى المشهد، وقد عقدت حلقات العلم فيه في القرن الثامن. ابن حجر: الدرر الكامنة ج٢ ص٢٩٨، ٣١٥؛ والمقريزي: المواعظ والاعتبار ج٣ ص٢٩٥، ٦٣٧- ٦٤٢.

مصادر البحث ومراجعه

أولا: المخطوطات

١. الأتقاني: أمير كاتب بن أمير عمر، (ت٧٥٨هـ)، التبيين شرح المنتخب في أصول المذهب، بخط محمد بن أحمد الحكري المقيم بالمدرسة الشريفية الفخرية سنة ٧٨٥هـ، موجودة لدي نسخة رقمية.
٢. ابن الأخوة: محمد بن محمد بن أحمد، (ت٧٢٩هـ)، معالم القربة في أحكام الحسبة، مخطوط لعله بخط المؤلف سنة ٧١٢هـ محفوظ بمكتبة جامعة الملك سعود، قسم المخطوطات، تحت رقم٥٠٢٣، لدي منه نسخة رقمية.
٣. الأدفوي: جعفر بن ثعلب، (٧٤٨هـ)، الإمتاع في أحكام السماع، موقع المكتبة المركزية للمخطوطات الإسلامية تحت رقم١٠٤، القاهرة، وزارة الأوقاف، لدي منه نسخة رقمية.
٤. ابن البيطار: عبد الله بن أحمد، (ت٦٤٦هـ)، الجامع لمفردات الأغذية والأدوية، مخطوط مصور بخط جيد، بدون بيانات، ويوجد في مكتبة المصطفى الإلكترونية على النت، لدي منه نسخة رقمية.
٥. الجلدكي: أيدمر بن علي، (حوالي ٧٦٢هـ)، المصباح في علم المفتاح، بومباي، ١٣٠٢هـ، لدي منه نسخة رقمية.
٦. ابن جماعة: محمد بن إبراهيم الكناني الحموي، (ت٧٣٤هـ)، في رسالة حكم السماع، مخطوطة في خمس صفحات، من مخطوطات الأزهر رقم النسخة ٣٣٣٥٤٣، لدي منه نسخة رقمية.
٧. سبط المارديني: محمد بنِ محمد، (ت٩٠٣هـ)، إرشاد الطلاب إلى وسيلة الحساب، معهد الثقافة والدراسات الشرقية، جامعة طوكيو برقم٢٢٤٩، موقع مكتبة المصطفى الإلكترونية، لدي منه نسخة رقمية.
٨. العوكلاني: الحسين بن محمد الحسيني، (ت٧٦٢هـ)، إدراك السؤول في مسابقة الخيول، نسخة مخطوطة بخط المؤلف الجميل كتبها سنة ٧٢٩هـ، موجوده بموقع مكتبة جامعة برينستون في نيوجرسي بأمريكا على النت، واسم الموقع (Princeton University Digital Library)، لدي منه نسخة رقمية.
٩. الغزي: محمد بن أحمد، (ت٩٨٣هـ)، شرح النزهة في الحساب، موجودة بمكتبة جامعة الملك سعود تحت رقم ٦٢٠٣، وعلى مكتبة المصطفى الإلكترونية، لدي منه نسخة رقمية.
١٠. المرتضى، الحسن بن أحمد بن يحيى (ت ق٩هـ): كنز الحكماء (سيرة والده المهدي)، مخطوط في مكتبة مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية – صنعاء، لدي منه نسخة رقمية.
١١. المزي: محمد بن أحمد بن عبدالرحيم، (٧٥٠هـ)، كشف الريب في العمل بالجيب، مخطوط، في دار المخطوطات المصرية، موجود على النت في مكتبة المصطفى الإلكترونية، لدي منه نسخة رقمية.
١٢. ابن الهائم: أحمد بن محمد القرافي، (ت٨١٥هـ)، شباك المناسخات، مكتبة جامعة الملك سعود تحت رقم ١٧٠٧، مخطوط بتاريخ ١١٦٨هـ، لدي منه نسخة رقمية.
١٣. ابن الهائم: أحمد بن محمد القرافي، (ت٨١٥هـ)، شرح الياسمينية، مكتبة جامعة الرياض – قسم المخطوطات، رقم ٢٦٢٩، كاتبها يوسف الحلبي (ت٩٨٦هـ)، لدي منه نسخة رقمية.
١٤. ابن الهائم: أحمد بن محمد القرافي، (ت٨١٥هـ)، غاية السؤول في حكم الإقرار بالدين المجهول، معهد الثقافة والدراسات الشرقية – جامعة طوكيو، بخط أحمد بن عيسى بن قاسم الشافعي كتبها بتاريخ ١٠٥٦هـ، موجود في مكتبة المصطفى الإلكترونية، لدي منه نسخة رقمية.
١٥. ابن الهائم: أحمد بن محمد القرافي، (ت٨١٥هـ)، اللمع في الحساب، موجود في موقع الدكتور يوسف زيدان، ومكتبة المصطفى الإلكترونية، لدي منه نسخة رقمية.
١٦. ابن الهائم: أحمد بن محمد القرافي، (ت٨١٥هـ)، اللمع المرشدة في صناعة الغبار، برقم ٢/ ١٠٣٤ OR في المكتبة البريطانية، قسم المجموعات الشرقية، والمكتبة الهندسية، موقع الدكتور يوسف زيدان للتراث والمخطوطات على النت، لدي منه نسخة رقمية.
١٧. ابن الهائم: أحمد بن محمد القرافي، (ت٨١٥هـ): المقنع في علم الجبر والمقابلة، في ثلاث صفحات بخط جميل، في مكتبة جامعة الرياض، تحت رقم ٧٦٥، وموجودة بمكتبة المصطفى الإلكترونية، لدي منه نسخة رقمية.

ثانيا المصادر

١٨. الآثاري: شعبان بن محمد الموصلي، (ت٨٢٦هـ)، العناية الربانية في الطريقة الشعبانية، مجلة المورد، وزارة الثقافة والإعلام العراقية ، العدد ٢، مج٨، ، ١٩٧٩م.

١٩. الأتقاني: أمير كاتب بن أمير عمر، (ت٧٥٨هـ)، غاية البيان ونادرة الزمان في آخر الأوان (من باب حد القذف إلى نهاية كتاب الحدود)، ت. عبد الله محمد هنانو، لدى معهد الدعوة الجامعي للدراسات الإسلامية – بيروت، لعام ٢٠١٠/ ٢٠١١م. (رسالة ماجستير على النت).

٢٠. الإدريسي: محمد بن محمد، (ت٥٦٠هـ)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، القاهرة، المكتبة الثقافية، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.

٢١. الأدفوي: جعفر بن ثعلب، (ت٧٤٨هـ)، الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد ، ت. سعد محمد حسن، وطه الحاجري، القاهرة، الدار المصرية.

٢٢. الأدفوي: جعفر بن ثعلب، (ت٧٤٨هـ)، الموفي بمعرفة التصوف والصوفي، ت. محمد عيسى صالحية، ط١، الكويت، مكتبة دار العروبة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٢٣. الأرموي: محمد بن عبدالرحيم الهندي، (ت٧١٥هـ)، الرسالة التسعينية، ت. جلال علي عامر، وعبد الملك أحمد أحمد، (بدون رقم طبعة ولا مكان نشر، ولا تاريخ).

٢٤. الأسنوي: عبد الرحيم بن الحسن، (ت٧٧٣هـ)، التمهيد في تخريج الفروع على الأصول، ت. محمد حسن هيتو، ط٢، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ ١٩٨١م.

٢٥. الأسنوي: عبدالرحيم بن الحسن، (ت٧٧٣هـ)، طبقات الشافعية، ت. كمال الحوت، ط١، بيروت، دارالكتب العلمية، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٢٦. الأسنوي: عبد الرحيم بن الحسن، (ت٧٧٣هـ)، نهاية السول في شرح منهاج الأصول، القاهرة، جمعية نشر الكتب العربية، ١٣٤٣هـ.

٢٧. ابن أبي أصيبعة: أحمد بن القاسم بن خليفة السعدي الخزرجي، (ت٦٦٨هـ)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ط١، المطبعة الوهبية، ١٢٩٩هـ/١٨٨٣م.

٢٨. الأمير: محمد بن محمد السنباوي، (ت١٢٢٣هـ)، الإكليل شرح مختصر خليل، تقديم عبد الله الصديق الغماري، القاهرة، مكتبة القاهرة.

٢٩. أبو حيان: محمد بن يوسف الغرناطي، (ت٧٤٥هـ)، الإدراك للسان الأتراك، الأستانة، ١٣٠٩هـ.

٣٠. أبو حيان: محمد بن يوسف الغرناطي، (ت٧٤٥هـ)، ارتشاف الضرب من لسان العرب، ت. رجب عثمان محمد، ط١، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

٣١. أبو حيان: محمد بن يوسف الغرناطي، (ت٧٤٥هـ)، البحر المحيط، ت. عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

٣٢. أبو حيان: محمد بن يوسف الغرناطي، (ت٧٤٥هـ)، تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب، ت. سمير المجذوب، ط١، بيروت ودمشق، المكتب الإسلامي، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

٣٣. أبو حيان: محمد بن يوسف الغرناطي، (ت٧٤٥هـ)، تذكرة النحاة، ت. عفيف عبد الر حمن، ط١، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

٣٤. أبو حيان: محمد بن يوسف الغرناطي، (ت٧٤٥هـ)، التذييل والتكميل، ت. حسن هنداوي، بيروت، دار القلم.

٣٥. أبو حيان: محمد بن يوسف الغرناطي، (ت٧٤٥هـ)، عقد اللآلي في القراءات السبع العوالي، ت. حسين بن محمد العواجي، مجلة البحوث والدراسات القرآنية، المدينة المنورة، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، العدد ٨، السنة الرابعة.

٣٦. أبو حيان: محمد بن يوسف الغرناطي، (ت٧٤٥هـ)، المبدع في التصريف، ط١، بيروت، مكتبة دار العروبة، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

٣٧. أبو حيان: محمد بن يوسف الغرناطي، (ت٧٤٥هـ)، النكت الحسان في شرح غاية الإحسان، ت. عبد الحسين القيلي، ط١، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٣٨. الأهدل: الحسين بن عبدالرحمن، (ت٨٥٥هـ)، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن، ت. عبدالله محمد الحبشي، أبو ظبي، المجمع الثقافي، ١٤٢٥هـ.

٣٩. البابرتي: محمد بن محمود بن أحمد، (ت٧٨٦هـ)، الردود والنقود، ت. ضيف الله بن صالح العمري، ط١، الرياض، مكتبة الرشد ناشرون، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٤٠. البابرتي: محمد بن محمود بن أحمد، (ت٧٨٦هـ)، العناية شرح الهداية، ط١، القاهرة، بولاق، ١٣١٥هـ، طبع بهامش شرح فتح القدير لابن الهمام الحنفي (ت٦٨١هـ).
٤١. البابرتي: محمد بن محمود بن أحمد، (ت٧٨٦هـ)، النكت الظريفة في ترجيح مذهب أبي حنيفة، دراسة وتحقيق. بلة الحسن مساعد، ط١، الرياض، كلية التربية – جامعة الملك سعود، مركز البحوث المحكمة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
٤٢. البرماوي: محمد بن عبد الدائم، (ت٨٣١هـ)، شرح لمحة أبي حيان النحوي، ت. عبد الحميد محمود الوكيل، ط١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
٤٣. ابن بطوطة: محمد بن عبدالله اللواتي الطنجي، (ت٧٧٧هـ)، تحفة النظار في غرائب الأسفار وعجائب الأمصار، ط١، القاهرة، المطبعة الخيرية، ١٣٢٢هـ.
٤٤. البغدادي: إسماعيل باشا، (ت١٣٣٩هـ)، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
٤٥. البغدادي: إسماعيل باشا ،(ت١٣٣٩هـ)، هدية العارفين أسماء المؤلفين والمصنفين، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٥١م.
٤٦. البكجري: مغلطاي بن قليج، (ت٧٦٢هـ)، إكمال تهذيب الكمال في أسماء الرجال، ت. عادل بن محمد، وأسامة بن إبراهيم، ط١، القاهرة، الفاروق الحديثة، ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م.
٤٧. البلقيني: سراج الدين عمر بن رسلان، (ت٨٠٥هـ)، قطر السيل في أمر الخيل، ت. حاتم الضامن، ط ٢، دمشق، دار البشائر، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
٤٨. البلوي: خالد بن عيسى، (ت بعد ٧٦٧هـ)، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، ت، الحسن السائح، طبع بإشراف اللجنة المغربية الإماراتية المشتركة، مؤسسة إحياء التراث الإسلامي.
٤٩. ابن تغري بردي: أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، (ت٨٧٤هـ)، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ت. محمد محمد أمين، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٨٤م.
٥٠. ابن تغري بردي: أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، (ت٨٧٤هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
٥١. التميمي: تقي الدين بن عبد القادر الغزي، (ت١٠١٠هـ)، الطبقات السنية في تراجم الحنفية، ت. عبد الفتاح الحلو، القاهرة، ١٣٩٠هـ -١٩٧٠م.
٥٢. التنسي: أحمد بن محمد الزبيري، (ت٨٠١هـ)، شرح التسهيل، دراسة وتحقيق فريدة حسن معاجيني (رسالة دكتوراه)، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ -١٩٩٣م.
٥٣. ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم الحراني، (ت٧٢٨هـ)، الحسبة في الإسلام، بيروت، دار الكتب العلمية.
٥٤. ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم الحراني، (ت٧٢٨هـ)، الرد على المنطقيين، ت. محمد عبد الستار نصار، وعماد خفاجي، القاهرة، مكتبة الأزهر.
٥٥. ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم الحراني، (ت٧٢٨هـ)، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ت. علي بن محمد العمران، جدة، دار عالم الفوائد.
٥٦. ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم الحراني، (ت٧٢٨هـ)، شرح العمدة، ت. سعود صالح العطيشان، ط ١، الرياض، مكتبة العبيكان، ١٤١٣هـ.
٥٧. ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم الحراني، (ت٧٢٨هـ)، مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية، جمع ترتيب عبدالرحمن الحنبلي، ط١، الرياض، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
٥٨. الجرجاني: علي بن محمد، (ت٨١٦هـ)، التعريفات، ت. إبراهيم الأبياري، ط١، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ.
٥٩. الجزري: محمد بن محمد، (ت٨٣٣هـ)، غاية النهاية في طبقات القراء، ت. ج. برجسترانر، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٦م.
٦٠. ابن جماعة: محمد بن إبراهيم الحموي، (ت٧٣٣هـ)، إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل، ت. وهبي سليمان الألباني، ط١، دمشق، دار إقرأ، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م.
٦١. ابن جماعة: محمد بن إبراهيم الحموي، (ت٧٣٣هـ)، تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم، ت. محمود العبد، مكتبة مشكاة الإسلامية.

٦٢. ابن جماعة: محمد بن إبراهيم الحموي، (ت٧٣٣هـ)، تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام، ت. فؤاد عبدالمنعم أحمد، ط١، قطر، رئاسة المحاكم الشرعية، ١٤٠٥- ١٩٨٥م.
٦٣. ابن جماعة: محمد بن إبراهيم الحموي، (ت٧٣٣هـ)، المنهل الروي في مختصر علوم الحديث النبوي، ت. محيي الدين رمضان، ط٢، بيروت، دار الفكر.
٦٤. الجندي: خليل بن إسحاق، (ت٧٦٧هـ)، التوضيح، ت. أحمد بن عبد الكريم نجيب، ط١، القاهرة، دار نجيبويه، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
٦٥. الجندي: خليل بن إسحاق، (ت٧٦٧هـ)، مختصر خليل، ت. الطاهر أحمد الزاوي، ط١٢، بيروت، دار المدى الإسلامي، ٢٠٠٤م.
٦٦. ابن الجيعان: يحيى بن شاكر بن عبدالغني، (ت٨٨٥هـ)، التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية، القاهرة، المطبعة الأهلية، ١٨٩٨م.
٦٧. ابن الحاجب: عثمان بن عمر، (ت٦٤٦هـ)، الشافية، ت. حسن أحمد العثمان، ط١، مكة المكرمة، المكتبة المكية، ١٩٩٥م.
٦٨. حاجي خليفة: مصطفى بن عبد الله، (ت١٠٦٧هـ)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
٦٩. ابن حجر: أحمد بن علي العسقلاني، (ت٨٥٢هـ)، إتحاف المهرة بالفوائد المبتكرة من أطراف العشرة، ت. زهير الناصر، ط١، المدينة المنورة، مجمع الملك فهد، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
٧٠. ابن حجر: أحمد بن علي العسقلاني، (ت٨٥٢هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة، ت. علي البجاوي، ط١، بيروت، دار الجيل، ١٤١٢هـ.
٧١. ابن حجر: أحمد بن علي العسقلاني، (ت٨٥٢هـ)، إنباء الغمر بأبناء العمر، ت. حسن حبشي، القاهرة، ١٣٨٩هـ -١٩٦٩م. وهذه الطبعة هي المعتمدة عند الإطلاق.
نسخة ثانية: ت. محمد عبد المعيد خان، ط٢، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
٧٢. ابن حجر: أحمد بن علي العسقلاني، (ت٨٥٢هـ)، انتقاض الاعتراض في الرد على العيني في شرح البخاري، ت. حمدي السلفي وصبحي السامرائي، الرياض، مكتبة الرشد.
٧٣. ابن حجر: أحمد بن علي العسقلاني، (ت٨٥٢هـ)، بذل الماعون في فضل الطاعون، ت. أحمد عصام الكاتب، الرياض، دار العاصم.
٧٤. ابن حجر: أحمد بن علي العسقلاني، (ت٨٥٢هـ)، بلوغ المرام في أدلة الأحكام، ت. عصام موسى أبو هادي، ط١، الجبيل (السعودية)، دار الصديق، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
٧٥. ابن حجر: أحمد بن علي العسقلاني، (ت٨٥٢هـ)، تبصير المنتبه بتحرير المشتبه، ت. محمد النجار، وعلي البجاوي، بيروت، المكتبة العلمية.
٧٦. ابن حجر: أحمد بن علي العسقلاني، (ت٨٥٢هـ)، تغليق التعليق على صحيح البخاري، ت. سعيد القزقي، ط١، بيروت، المكتب الإسلامي، وعمان، دار عمار، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
٧٧. ابن حجر: أحمد بن علي العسقلاني، (ت٨٥٢هـ)، تهذيب التهذيب، ط١، بيروت، دار الفكر، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
٧٨. ابن حجر: أحمد بن علي العسقلاني، (ت٨٥٢هـ)، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، ت. سالم الكرنكوي الألماني، بيروت، دار الجيل، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
٧٩. ابن حجر: أحمد بن علي العسقلاني، (ت٨٥٢هـ)، ديوان ابن حجر العسقلاني ، ت. السيد أبو الفضل، حيدر أباد، ١٣٨١هـ - ١٩٦٢م.
٨٠. ابن حجر: أحمد بن علي العسقلاني، (ت٨٥٢هـ)، رفع الإصر عن قضاة مصر، ت. علي محمد عمر، ط١، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
٨١. ابن حجر: أحمد بن علي العسقلاني، (ت٨٥٢هـ)، فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، ت. عبد القادر شيبة الحمد، ط١، طبع على نفقة الأمير سلطان بن عبد العزيز آل سعود، ١٤٢١هـ -٢٠٠١م، وهي المعتمدة عند الإطلاق.
نسخة ثانية: فتح الباري شرح البخاري، ت. عبد العزيز بن عبد الله بن باز، القاهرة، المكتبة السلفية.
٨٢. ابن حجر: أحمد بن علي العسقلاني، (ت٨٥٢هـ)، لسان الميزان، تحقيق عبدالفتاح أبو غدة، ط١، بيروت، مكتبة المطبوعات الإسلامية، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٨٣. ابن حجر: أحمد بن علي العسقلاني، (ت٨٥٢هـ)، المجمع المؤسس للمعجم المفهرس، ت. يوسف عبدالرحمن المرعشلي، ط١، بيروت، ١٤١٣هـ -١٩٩٢م.
٨٤. ابن حجر: أحمد بن علي العسقلاني، (ت٨٥٢هـ)، نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، ت. عبد الله الرحيلي، ط١، الرياض، ١٤٢٢هـ -٢٠٠١م.
٨٥. ابن أبي حجلة: أحمد بن يحيى بن أبي بكر التلمساني، (ت٧٧٦هـ)، سكردان السلطان، طبع بهامش كتاب المخلاة لبهاء الدين محمد بن حسين العاملي، مصر، مطبعة البابي الحلبي.
٨٦. ابن حديدة: محمد (أو عبد الله) بن علي بن أحمد المصري، (ت بعد٧٧٩هـ)، المصباح المضي في كتاب النبي الأمي ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي، ت. محمد عظيم الدين، بيروت، عالم الكتب، ١٤٠٥هـ.
٨٧. الحسامي: محمد بن لاجين، (ت٧٨٠هـ)، الفروسية برسم الجهاد وما أعد الله للمجاهدين من العباد، ت. عارف عبدالغني، دمشق، دار كنان، ١٩٩٥م.
٨٨. الحلبي: عبدالكريم بن عبدالنور، (ت٧٣٥هـ)، المورد العذب الهني في الكلام على سيرة عبد الغني، (من سرية الطفيل بن عمرو إلى نهاية أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم)، دراسة وتحقيق: صالحة بنت رشيد القثامي، مكة المكرمة، جامعة أم القرى، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، (رسالة ماجستير غير منشورة، مركز تحميل مكتبتنا العربية على النت).
٨٩. الحلبي: محمد بن يوسف ناظر الجيش، (ت٧٧٨هـ)، شرح التسهيل (تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد)، ت. علي محمد فاخر وآخرين، ط١، دار السلام، القاهرة، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.
٩٠. الحلبي: شهاب الدين محمود بن سلمان، (ت٧٢٥هـ)، حسن التوسل إلى صناعة الترسل، القاهرة، مطبعة أمين أفندي، ١٣١٥هـ.
٩١. الحموي: ياقوت بن عبدالله، (ت٦٢٦هـ)، معجم البلدان، بيروت، دار الفكر.
٩٢. الحميري: محمد بن عبدالمنعم، (ت٩٠٠هـ)، الروض المعطار في خبر الأقطار، ت. إحسان عباس، ط٢، بيروت، مكتبة لبنان.
٩٣. الخزرجي: علي بن الحسن (ت٨١٢هـ)، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، ت. محمد بسيوني عسل، مصر، مطبعة الهلال، ١٣٣٢هـ - ١٩١٤م.
٩٤. الخطيب: أحمد بن علي البغدادي، (ت٤٦٣هـ)، تاريخ مدينة السلام، ت. بشار معروف، ط١، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
٩٥. ابن الخطيب: محمد بن عبد الله اللوشي الغرناطي، (ت٧٧٦هـ)، الإحاطة في أخبار غرناطة، ت. محمد عبدالله عنان، ط٢، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.
٩٦. ابن الخطيب: محمد بن عبد الله اللوشي الغرناطي، (ت٧٧٦هـ)، الكتيبة الثامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثامنة، ت. إحسان عباس، ط١، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٣م.
٩٧. ابن خلكان: أحمد بن محمد بن أبي بكر، (ت٦٨١هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ت. إحسان عباس، بيروت، دار صادر.
٩٨. ابن دقماق: إبراهيم بن محمد، (ت٨٠٩هـ)، الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، ت. محمد كمال الدين علي، ط١، بيروت، عالم الكتب، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.
٩٩. ابن دقماق: إبراهيم بن محمد، (ت٨٠٩هـ)، نزهة الأنام في تاريخ الإسلام (الجزء المتضمن أحداث ٦٢٨هـ - ٦٥٩هـ)، ت. سمير طبارة، ط١، صيدا وبيروت، المكتبة العصرية، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
١٠٠. ابن دقيق العيد: محمد بن علي القشيري، (ت٧٠٢هـ)، الاقتراح في بيان الاصطلاح وما أضيف إلى ذلك من الأحاديث الصحاح، ت. قحطان عبدالرحمن الدوري، ط١، عمّان، دار العلوم، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٧م.
١٠١. الدمياطي: أحمد بن أيبك الحسامي، (ت٧٤٩هـ)، المستفاد من ذيل تاريخ بغداد، ت. مصطفى عبد القادر عطا، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
١٠٢. الدميري: بهرام بن عبد الله، (ت٨٠٢هـ)، الشامل في فقه الإمام مالك، ت. أحمد بن عبد الكريم نجيب، ط١، القاهرة، مركز نجيبويه، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
١٠٣. الدميري: كمال الدين محمد بن عيسى، (ت٨٠٨هـ)، حياة الحيوان الكبرى، ت. إبراهيم صالح، ط١، دمشق، دار البشائر، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

١٠٤. الدواداري: أبو بكر بن عبدالله بن أيبك المعظمي، (كان حيا سنة٧٥٦هـ)، كنز الدرر وجامع الغرر، ت. بيرند راتكة، القاهرة، المعهد الألماني للآثار، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
١٠٥. الذهبي: محمد بن أحمد بن عثمان، (ت٧٤٨هـ)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ت. بشار عواد معروف، ط١، دار الغرب الإسلامي، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
١٠٦. الذهبي: محمد بن أحمد بن عثمان، (ت٧٤٨هـ)، تذكرة الحفاظ، ت. عبدالرحمن المعلمي، بيروت، دار الكتب العلمية.
١٠٧. الذهبي: محمد بن أحمد بن عثمان، (ت٧٤٨هـ)، سير أعلام النبلاء، ت. حسين الأسد، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
١٠٨. الذهبي: محمد بن أحمد بن عثمان، (ت٧٤٨هـ)، معرفة القراء الكبار، ت. طيار آلتي قولاج، استانبول، ١٤١٦هـ - ١٩٨٥م.
١٠٩. الذهبي: محمد بن أحمد بن عثمان، (ت٧٤٨هـ)، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، ت. علي محمد البجاوي، بيروت، دار المعرفة.
١١٠. ابن أبي الرجال: أحمد بن صالح، (ت١٠٩٢هـ)، مطلع البدور ومجمع البحور، ت.عبد الرقيب حجر، ط١، صعدة، مركز أهل البيت للدراسات الإسلامية، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
١١١. ابن رجب: عبد الرحمن بن أحمد، (٧٩٥هـ)، ذيل طبقات الحنابلة، ت. عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، ط١، الرياض، مكتبة العبيكان، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م.
١١٢. الزركشي: محمد بن بهادر بن عبدالله، (٧٩٤هـ)، البحر المحيط في أصول الفقه، ت. عبد القادر العاني، ط٢، الكويت، دار الصفوة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
١١٣. الزركشي: محمد بن (بهادر) بن عبدالله الزركشي، (ت٧٩٤هـ)، البرهان في علوم القرآن، ت. محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، مكتبة التراث.
١١٤. الزركشي: محمد بن بهادر بن عبدالله، (ت٧٩٤هـ): تشنيف المسامع شرح جمع الجوامع لتاج الدين السبكي، ت. سيد عبد العزيز، وعبد الله ربيع، ط٢، القاهرة، مكتبة قرطبة، ٢٠٠٦م.
١١٥. الزركشي: محمد بن بهادر بن عبدالله، (ت٧٩٤هـ)، التنقيح لألفاظ الجامع الصحيح، دراسة وتحقيق يحيى محمد الحكمي، ط١، الرياض، مكتبة الرشد، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
١١٦. الزركشي: محمد بن بهادر بن عبدالله، (٧٩٤هـ)، خبايا الزوايا، ت. أيمن صالح شعبان، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ - ١٩٢٦م.
١١٧. الزركشي: محمد بن بهادر بن عبدالله، (ت٧٩٤هـ)، اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة، ت. مصطفى عبد القادر عطا، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
١١٨. الزركشي: محمد بن بهادر بن عبدالله، (٧٩٤هـ)، لقطة العجلان، شرح محمد جمال الدين القاسمي، ط١، القاهرة، مطبعة مدرسة والدة عباس الأول، ١٣٢٦هـ - ١٩٠٨م.
١١٩. الزركشي: محمد بن بهادر بن عبدالله، (ت٧٩٤هـ)، النكت على مقدمة ابن الصلاح، ت. زين العابدين بن محمد بلا فريج، ط١، الرياض، مكتبة أضواء السلف، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
١٢٠. الزرقاني: محمد بن عبد العظيم، (ت١٣٦٧هـ)، مناهل العرفان، ت. مكتب البحوث والدراسات، ط١، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٦م.
١٢١. الزفتاوي: محمد بن أحمد، (ت٨٠٦هـ)، منهاج الإصابة في أوضاع الكتابة، ت. هلال ناجي، مجلة المورد، وزارة الثقافة والإعلام العراقية، عدد٤، مج ١٥، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.
١٢٢. الزيلعي: عبدالله بن يوسف الحنفي، (٧٦٢هـ)، نصب الراية تخريج أحادث الهداية، ت. المجلس العلمي ومحمد عوامة، دار القبلة للثقافة الإسلامية، مؤسسة الريان، المكتبة المكية.
١٢٣. الزيلعي: عثمان بن علي بن يحيى البارعي، (ت٧٤٣هـ)، تبيين الحقائق في شرح كنز الحقائق، ترقيم آلي، المكتبة الشاملة، الإصدار الثاني، موقع الإسلام على شبكة النت.
١٢٤. السبكي: عبدالوهاب بن علي، (ت٧٧١هـ)، الاعتبار ببقاء الجنة والنار، ضمن مجموع لأربع رسائل في الرد على ابن تيمية، ت. محمد زاهد الكوثري، دمشق، مطبعة الترقي، ١٣٤٧هـ.

١٢٥. السبكي: عبدالوهاب بن علي، (ت٧٧١هـ)، جمع الجوامع، ت. عبدالمنعم خليل إبراهيم، ط٢، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

١٢٦. السبكي: عبد الوهاب بن علي، (ت٧٧١هـ)، رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب، ت. علي معوض، وعادل عبد الواحد، ط ١، بيروت، عالم الكتب، ١٩٩٩م.

١٢٧. السبكي: عبدالوهاب بن علي، (ت٧٧١هـ)، طبقات الشافعية الكبرى، ت. محمود الطناحي، وعبدالفتاح الحلو، ط١، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م.

١٢٨. السبكي: عبدالوهاب بن علي، (ت٧٧١هـ)، معيد النعم ومبيد النقم، ت. محمد النجار، ومحمود أبوشلبي، ومحمد أبوالعيون، ط٢، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

١٢٩. السبكي: علي بن عبدالكافي، (ت٧٥٦هـ)، شفاء السقام بزيارة خير الأنام، ت. حسين علي شكري، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

١٣٠. السخاوي: محمد بن عبدالرحمن، (ت٩٠٢هـ)، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ، ت. فرانز روزنثال، ترجمة صالح أحمد العلي، ط١، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

١٣١. السخاوي: محمد بن عبدالرحمن، (ت٩٠٢هـ)، الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر، ت. إبراهيم باجس عبدالمجيد، ط١، بيروت، دار ابن حزم، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

١٣٢. السخاوي: محمد بن عبدالرحمن، (ت٩٠٢هـ)، الذيل على رفع الإصر، ت. جودة هلال ومحمد محمود صبح، (بدون بيانات أخرى).

١٣٣. السخاوي: محمد بن عبدالرحمن، (ت٩٠٢هـ)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ط١، بيروت، دار الجيل، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

١٣٤. السخاوي: محمد بن عبدالرحمن، (ت٩٠٢هـ)، المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، ت. عبد الله بن محمد الصديق، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

١٣٥. السروجي: أحمد بن إبراهيم، (٧١٠هـ)، أدب القضاء، دراسة وتحقيق شيخ شمس العارفين صديق بن محمد ياسين، مكة، جامعة أم القرى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

١٣٦. السمعاني: عبدالكريم بن محمد التميمي، (ت٥٦٢هـ)، أدب الإملاء والاستملاء، ت. ماكس فايس فايلر، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

١٣٧. السمين الحلبي: أحمد بن يوسف بن عبد الدائم، (ت٧٥٦هـ)، العقد النضيد في شرح القصيد (من أول الكتاب إلى أول باب الفتح والإمالة)، ت. أيمن رشدي سويد، ط١، جدة، دار نور المكتبات، ١٤٢٢هـ -٢٠٠١م.

١٣٨. السمين الحلبي: أحمد بن يوسف بن عبد الدائم، (ت٧٥٦هـ)، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، ت. أحمد محمد الخراط، دمشق، دار القلم.

١٣٩. السمين الحلبي: أحمد بن يوسف بن عبد الدائم، (ت٧٥٦هـ)، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، ت. محمد باسل عيون السود، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٦م.

١٤٠. ابن سيد الناس: فتح الدين محمد بن محمد اليعمري، (ت٧٣٤هـ)، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، ت. محمد العيد الخطرواي، ومحيي الدين متو، المدينة، مكتبة دار التراث، ودمشق وبيروت.

١٤١. السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر، (ت٩١١هـ)، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ت. محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، بيروت، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٧م.

١٤٢. السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر، (ت٩١١هـ)، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، ت. صلاح عويضة، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

١٤٣. السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر، (ت٩١١هـ)، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ت. محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.

١٤٤. السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر، (ت٩١١هـ)، نظم العقيان في أعيان الأعيان، تحرير فيليب حتي، بيروت، المكتبة العلمية، ١٩٢٧م.

١٤٥. الشاذلي: محمد وفاء بن محمد الإسكندري، (ت٧٦٥هـ)، شعائر العرفان في ألواح الكتمان، ت. أحمد فريد المريدي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

١٤٦. الشربيني: محمد بن أحمد الخطيب، (ت٩٧٧هـ)، مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المحتاج، ت. محمد خليل عيتاني، ط١، بيروت، دار المعرفة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
١٤٧. الشهرستاني: محمد بن عبد الكريم، (ت٥٤٨هـ)، الملل والنحل، ت. محمد سيد الكيلاني، بيروت، دار المعرفة، ١٤٠٤هـ.
١٤٨. الشوكاني: محمد بن علي، (ت١٢٥٠هـ)، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي.
١٤٩. ابن الصائغ: عبدالرحمن بن يوسف، (ت٨٤٥هـ)، تحفة أولي الألباب في صناعة الخط والكتاب، ت. هلال ناجي، ط٢، تونس، دار أبو سلامة، ١٩٩٢م.
الصفدي: الحسن بن أبي محمد عبدالله العباسي، (كان حيا سنة٧١٧هـ)، نزهة المالك والمملوك في مختصر سيرة من ولي مصر من الملوك، ت. السيد محمد سيد، القاهرة، دار الحديث، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.
١٥٠. الصفدي: خليل بن أيبك، (ت٧٦٤هـ)، أعيان العصر وأعوان النصر، ت. علي أبو زيد وآخرين، مطبوعات مركز جمعة الماجد بدبي، ط١، بيروت، دار الفكر المعاصر، ودمشق، دار الفكر، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
١٥١. الصفدي: خليل بن أيبك، (ت٧٦٤هـ)، أمراء دمشق في الإسلام، ت. صلاح الدين المنجد، ط٢، بيروت، دار الكتاب الجديد، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
١٥٢. الصفدي: خليل بن أيبك، (ت٧٦٤هـ)، غوامض الصحاح، ت. عبد الإله نبهان، ط١، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٩٦م.
١٥٣. الصفدي: خليل بن أيبك، (ت٧٦٤هـ)، كشف الحال في وصف الخال، ت. جميل عبد الله عويضة، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.
١٥٤. الصفدي: خليل بن أيبك، (ت٧٦٤هـ)، لوعة الشاكي ودمعة الباكي، ت. محمد أبو الفضل هارون، ط١، مصر، المطبعة الرحمانية، ١٤٣١هـ - ١٩٢٢م.
١٥٥. الصفدي: خليل بن أيبك، (ت٧٦٤هـ)، نَكْت الهميان في نُكَت العميان، القاهرة، المطبعة الجمالية، ١٣٢٩هـ - ١٩١١م.
١٥٦. الصفدي: خليل بن أيبك، (ت٧٦٤هـ)، الوافي بالوفيات، ت. أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، ط١، بيروت، دار إحياء التراث العربي،١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م.
١٥٧. طاش كبري زادة: أحمد بن مصطفى، (ت٩٦٨هـ)، مفتاح السعادة ومصباح السيادة، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
١٥٨. الطرسوسي: إبراهيم بن علي الحنفي، (ت٧٥٨هـ)، تحفة الترك فيما يجب أن يعمل في الملك، ت. عبد الكريم محمد الحمداوي، ط٢، (بدون بيانات أخرى).
١٥٩. الطوفي: سليمان بن عبد القوي، (ت٧١٦هـ)، الانتصارات الإسلامية، تحقيق ودراسة سالم بن محمد القرني، ط١، الرياض، مكتبة العبيكان، ١٤١٩هـ - ٢٠٠٩م.
١٦٠. ابن عبد الظاهر: عبد الله بن عبد الظاهر الجذامي، (ت٦٩٢هـ)، الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، ت. أيمن فؤاد السيد، ط١، القاهرة، مكتبة الدار العربية للكتاب، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
١٦١. العبدري: محمد بن محمد، ابن الحاج الفاسي، (ت٧٣٧هـ)، المدخل، القاهرة، مكتبة دار التراث.
١٦٢. العجلوني: إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، (ت١١٦٢هـ)، كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، ط٣، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
١٦٣. ابن أبي العز: علي بن علي الحنفي، (ت٧٩٢هـ)، شرح العقيدة الطحاوية، ط٤، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٣٩١هـ.
١٦٤. العسقلاني: شافع بن علي المصري، (ت٧٣٠هـ)، كتاب الفصل المأثور من سيرة السلطان المنصور، ت. عمر تدمري، ط١، صيدا وبيروت، المكتبة العصرية، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
١٦٥. ابن عطاء الله: أحمد بن محمد الإسكندري، (ت٧٠٩هـ)، تاج العروس، القاهرة، دار جوامع الكلم.
١٦٦. ابن عطاء الله: أحمد بن محمد الإسكندري، (ت٧٠٩هـ)، التنوير بإسقاط التدبير، مصر، ١٣٠٠هـ.
١٦٧. ابن عطاء الله: أحمد بن محمد الإسكندري، (ت٧٠٩هـ)، لطائف المنن، ت. عبد الحليم محمود، ط٢، القاهرة، دار المعارف.

١٦٨. ابن عطاء الله: أحمد بن محمد الإسكندري، (ت٧٠٩هـ)، مفتاح الفلاح، ت. محمد عبد السلام إبراهيم، بيروت، دار الكتب العلمية.

١٦٩. ابن العماد الحنبلي: شهاب الدين عبد الحي بن أحمد العكري الدمشقي، (١٠٨٩هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ت. محمود الأرناؤوط، ط١، دمشق وبيروت، دار ابن كثير، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

١٧٠. العمري: أحمد بن يحيى ابن فضل الله، (ت٧٤٩هـ)، ذهبية العصر، ت. حمد بن محمد الجاسر، مجلة جامعة الملك سعود، كلية الآداب، العدد٢، مج١١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

١٧١. العمري: أحمد بن يحيى ابن فضل الله، (ت٧٤٩هـ)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ت. كامل الجبوري، ومهدي النجم، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠١٠م.

١٧٢. الغزي: محمد بن عبدالرحمن، (ت١١٦٧هـ)، ديوان الإسلام، ت. سيد كسروي حسن، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية،١٤١١هـ -١٩٩٠م.

١٧٣. أبو الفدا: إسماعيل بن علي الأيوبي، (ت٧٣٢هـ)، المختصر في تاريخ البشر، ت. محمد زينهم محمد عزب، ط١، القاهرة، دار المعارف.

١٧٤. أبو الفدا: إسماعيل بن علي الأيوبي، (ت٧٣٢هـ)، تقويم البلدان، ت. رينود، وماك كوكين ديسلان، باريس، دار الطباعة السلطانية، ١٨٤٠م.

١٧٥. ابن فرحون: إبراهيم بن علي اليعمري، (ت٧٩٩هـ)، تبصرة الحكام في أصول الأحكام، ت. جمال مرعشلي، الرياض، عالم الكتب، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

١٧٦. ابن فرحون: إبراهيم بن علي اليعمري، (ت٧٩٩هـ)، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ت. مأمون بن محيي الدين الجنان، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

١٧٧. ابن فهد المكي: تقي الدين محمد بن محمد (ت٨٧١هـ)، لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ، مجلد فيه أيضا ذيل تذكرة الحفاظ للحسيني، محمد بن علي بن الحسن الدمشقي (ت٧٦٥هـ)، وذيل طبقات الحفاظ للحافظ جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ)، بيروت، دار الكتب العلمية.

١٧٨. ابن القاصح: علي بن عثمان، (ت٨٠١هـ)، تلخيص الفوائد وتقريب المتباعد شرح عقيلة القصائد، ت. عبد الفتاح القاضي، ط١، القاهرة، مطبعة البابي الحلبي، ١٣٦٨هـ -١٩٤٩م.

١٧٩. ابن القاصح: علي بن عثمان، (ت٨٠١هـ)، سراج القارئ المبتدي ونهاية القارئ المنتهي، ت. محمد عبدالقادر شاهين، ط٢، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٥هـ -٢٠٠٤م.

١٨٠. ابن القاصح: علي بن عثمان، (ت٨٠١هـ)، مصطلح الإشارات في القراءات الزوائد المروية عن الثقات، دراسة وتحقيق عبد الله بن حامد السليماني، جامعة أم القرى،١٤٢٢هـ، (رسالة ماجستير غير منشورة، موقع ملتقى أهل اللغة على النت).

١٨١. ابن القاصح: علي بن عثمان، (ت٨٠١هـ)، نزهة المشتغلين في أحكام النون الساكنة والتنوين، تحقيق غانم قدوري الحمد، مجلة البحوث والدراسات القرآنية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، العدد ٣، السنة الثانية.

١٨٢. ابن قاضي شهبة: أبو بكر بن أحمد بن محمد الأسدي، (ت٨٥١هـ)، طبقات الشافعية، ت. الحافظ عبدالعليم خان، ط١، بيروت، عالم الكتب، ١٤٠٧هـ.

١٨٣. القرشي: عبد القادر بن محمد، (ت٧٧٥هـ)، الجواهر المضية في طبقات الحنفية، ت. عبدالفتاح الحلو، ط٢، الجيزة، هجر للطباعة والنشر، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

١٨٤. القزويني: محمد بن عبدالرحمن، (٧٣٩هـ)، الإيضاح في علوم البلاغة، ت. بهيج غزاوي، ط١، بيروت، دار إحياء العلوم، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

١٨٥. ابن قطلوبغا: زين الدين قاسم الحنفي، (ت٨٧٩هـ)، تاج التراجم في طبقات الحنفية ، Leipzig، 1862م.

١٨٦. القفطي: علي بن يوسف، (ت٦٤٦هـ)، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ت. محمد أمين الخانجي، القاهرة، مطبعة دار السعادة، ١٣٢٦هـ.

١٨٧. القلقشندي: أحمد بن علي، (٨٢١هـ)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ت. يوسف الطويل، ط١، دمشق، دار الفكر، ١٩٨٧م.

١٨٨. القلقشندي: أحمد بن علي، (٨٢١هـ)، مآثر الإنافة في معالم الخلافة، ت. عبدالستار فراج، بيروت، عالم الكتب.

١٨٩. القلقشندي: أحمد بن علي، (٨٢١هـ)، قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، ت. إبراهيم الأنباري، ط٢، القاهرة، دار الكتاب المصري، وبيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
١٩٠. القلقشندي: أحمد بن علي، (٨٢١هـ)، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ت. إبراهيم الأنباري، ط٢، بيروت، دار الكتاب العربي،١٤٠٠هـ -١٩٨٠م.
١٩١. القنوجي: صديق بن حسن، (ت١٣٠٧هـ)، أبجد العلوم، ت. عبدالجبار زكار، دمشق، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٧٨م.
١٩٢. ابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر، (ت٧٥١هـ)، الكلام على مسألة السماع، ت. راشد الحمد، ط١، الرياض، دار العاصمة، ١٤٠٩هـ.
١٩٣. الكاتبي: عمر بن علي القزويني، (ت٤٩٣هـ)، الشمسية في القواعد المنطقية، ت. مهدي فضل الله، ط١، بيروت، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٨م.
١٩٤. الكتاني: محمد بن جعفر، (ت١٣٤٥هـ)، الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المصنفة، ت. محمد المنتصر الكتاني، ط٤، بيروت، دار البشائر، ١٣٠٦هـ - ١٩٨٦م.
١٩٥. الماوردي: علي بن محمد بن حبيب البصري، (ت٤٥٠هـ)، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ت. أحمد البغدادي، ط١، الكويت، مكتبة ابن قتيبة، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
١٩٦. الماوردي: علي بن محمد بن حبيب البصري، (ت٤٥٠هـ)، كتاب قوانين الوزارة وسياسة الملك، ت. رضوان السيد، ط١، بيروت، دار الطليعة، ١٩٧٩م.
١٩٧. المخللاتي: رضوان بن محمد بن سليمان، (ت١٣١١هـ)، القول الوجيز في فواصل الكتاب العزيز (شرح على ناظمة الزهر)، ت. عبد الرزاق بن علي، ط٢، المدينة المنورة، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
١٩٨. المرادي: حسن بن قاسم، ابن أم عبد المراكشي، (٧٤٩هـ)، الجنى الداني في حروف المعاني، ت. فخر الدين قباوة، ومحمد نديم واصل، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
١٩٩. المرادي: حسن بن قاسم، ابن أم عبد المراكشي، (٧٤٩هـ)، شرح التسهيل، ت. محمد عبد النبي عبيد، ط١، المنصورة، مكتبة الإيمان، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
٢٠٠. المزي: يوسف بن عبدالرحمن، (ت٧٤٢هـ)، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، ت. بشار معروف، ط٦، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
٢٠١. المقريزي: أحمد بن علي، (ت٨٤٥هـ)، إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق كرم حلمي فرحات، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٧م، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية. مق
٢٠٢. المقريزي: أحمد بن علي، (ت٨٤٥هـ)، درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، ت. محمود الجليلي، ط١، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
٢٠٣. المقريزي: أحمد بن علي، (ت٨٤٥هـ)، السلوك لمعرفة دول الملوك، ت. محمد عبدالقادر عطا، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
٢٠٤. المقريزي: أحمد بن علي، (ت٨٤٥هـ)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ت. محمد زينهم، ومديحة الشرقاوي، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٩٨م.
٢٠٥. ابن الملقن: عمر بن علي الأنصاري، (ت٨٠٤هـ)، التوضيح لشرح الجامع الصحيح، ت. دار الفلاح، ط١، الدوحة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
٢٠٦. ابن الملقن: عمر بن علي الأنصاري، (ت٨٠٤هـ)، طبقات الأولياء، ت. نور الدين شريبة، ط١، القاهرة، دار ومكتبة الخانجي، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
٢٠٧. المنصوري: بيبرس بن عبد الله الخطائي، (ت٧٢٥هـ)، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ت. رونالد ريتشاردز، ط١، بيروت، الشركة المتحدة، ١٩٩٨م.
٢٠٨. ابن منظور: محمد بن مكرم الإفريقي، (ت٧١١هـ)، لسان العرب، ط١، بيروت، دار صادر.
٢٠٩. ابن منظور: محمد بن مكرم الإفريقي، (ت٧١١هـ)، أخبار أبي نواس، ت. محمد عبد الرسول، وعباس شربيني، مطبعة الاعتماد، ١٩٢٤م.
٢١٠. ناصر خسرو (ت حولي ٤٨١هـ): سفر نامة، ترجمة يحيى الخشاب، ط٢، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٣م.

٢١١. ابن نجيم: زين العابدين بن إبراهيم بن نجيم، الأشباه والنظائر على مذهب أبي حنيفة النعمان، بيروت، دار الكتب العلمية،١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
٢١٢. النعيمي: عبد القادر بن محمد الدمشقي، (ت٩٧٨هـ)، الدارس في تاريخ المدارس، ت. إبراهيم شمس الدين، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
٢١٣. النووي: يحيى بن شرف أبو زكريا النووي، (ت٦٧٦هـ)، منهاج الطالبين وعمدة المتقين، ت. محمد محمد طاهر شعبان، ط١، جدة، دار المنهاج، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
٢١٤. النويري: أحمد بن عبدالوهاب، (ت٧٣٣هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب، ت. مفيد قميحة، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.
٢١٥. ابن هشام: عبدالله بن يوسف الأنصاري، (ت٧٧٦١هـ)، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، ط٥، بيروت، دار الجيل، ١٩٧٩م.
٢١٦. ابن هشام: عبدالله بن يوسف الأنصاري، (ت٧٧٦١هـ)، تخليص الشواهد وتلخيص الفوائد، ت. عباس مصطفى الصالحي، ط١، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
٢١٧. ابن هشام: عبد الله بن يوسف الأنصاري، (ت٧٦١هـ)، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ت. مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، ط٦، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٥م.
٢١٨. الهندي: عمر بن إسحاق الغزنوي، (ت٧٧٣هـ)، الغرة المنيفة في تحقيق بعض مسائل الإمام أبي حنيفة، ط١، مؤسسة الكتب الثقافية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
٢١٩. ابن الوحيد: محمد بن شريف الزرعي المصري، (ت٧١١هـ)، وابن البصيصي: (عاش ق القرن العاشر الهجري)، شرح المنظومة المستطابة في علم الكتابة، ت. هلال ناجي، مجلة المورد، وزارة الثقافة والإعلام العراقية، عدد٤، مج ١٥، ١٤٠٧هـ -١٩٨٦م.
٢٢٠. ابن الوزير: محمد بن إبراهيم، (ت٨٤٠هـ)، الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم، ت. علي محمد العمران، مكلة المكرمة، دار عالم الفوائد.
٢٢١. ابن وفاء: علي بن محمد الشاذلي، (ت٨٠٧هـ)، المسامع واردات إلهية فيضية، ت. أحمد فريد المريدي، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٨هـ -٢٠٠٧م.
٢٢٢. اليافعي: عبدالله بن أسعد اليمني (ت٧٥٠هـ)، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ت. خليل المنصور، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
٢٢٣. اليماني: عبد الباقي بن عبد المجيد، (ت٧٤٤هـ)، إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين، ت.عبد المجيد دياب، ط١، الرياض، مركز الملك فيصل، ١٤٠٦هـ.
٢٢٤. اليماني: عبد الباقي بن عبد المجيد، (ت٧٤٤هـ)، بهجة الزمن في تاريخ اليمن، ت. مصطفى حجازي، ط٢، صنعاء، دار الكلمة، ١٩٨٥م.
٢٢٥. اليوسفي: موسى بن محمد، (ت٧٥٩هـ)، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، ت. أحمد حطيط، ط١، بيروت، عالم الكتب، ١٤٠٦هـ - ١٠٨٦م.

ثالثا المراجع

٢٢٦. إبراهيم: رجب عبدالجواد، المعجم العربي لأسماء الملابس، ط١، القاهرة، دار الآفاق العربية، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
٢٢٧. أحمد: أحمد عبدالرزاق، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى "العلوم العقلية"، ط١، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
٢٢٨. الألوسي: عادل، الخط العربي نشأته وتطوره، ط١، القاهرة، مكتبة الدار العربية للكتاب، ١٤٣٠هـ -٢٠٠٩م.
٢٢٩. أمين: محمد محمود، ازدهار الأوقاف في عصر سلاطين المماليك، بحث قدم لمؤتمر الأوقاف الأول في مكة المكرمة عام ١٤٢٢هـ، موقع السادة الأشراف على النت.
٢٣٠. بحر: مجدي عبد الرشيد، القرية المصرية في عصر سلاطين المماليك (٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م.

٢٣١. البراك: عبدالرحمن بن ناصر، تعليقات الشيخ البراك (عبدالرحمن بن ناصر) على المخالفات العقدية في فتح الباري، نسخة إلكترونية بترقيم آلي، المكتبة الشاملة، الإصدار الثاني.
٢٣٢. بروكلمان: كارل، تاريخ الأدب العربي، تر. عبدالحليم النجار، ط٣، القاهرة، دار المعارف.
٢٣٣. البهنسي: عفيف، معجم مصطلحات الخط العربي والخطاطين، ط١، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٩٥م.
٢٣٤. البوطي: محمد سعيد رمضان، شرح الحكم العطائية، دمشق، دار الفكر، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
٢٣٥. جرجس: فوزي، دراسات في تاريخ مصر السياسي منذ العصر المملوكي، القاهرة، العربي للنشر والتوزيع.
٢٣٦. حبش: محمد، المسلمون وعلوم الحضارة، ط١، دمشق، دار المعرفة، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
٢٣٧. الحبشي: عبد الله محمد، الصوفية والفقهاء في اليمن، صنعاء، مكتبة الجيل الجديد، ١٣٩٦هـ -١٩٧٦م.
٢٣٨. الحبشي: عبد الله محمد، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن، أبو ظبي، المجمع الثقافي، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.
٢٣٩. حبيب: شوقي عبد الحميد عثمان، التجارة بين مصر وأفريقيا في عصر المماليك، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠م.
٢٤٠. الحجي: حياة ناصر، صور من الحضارة العربية الإسلامية في سلطنة المماليك، ط١، الكويت، دار القلم، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
٢٤١. الحدابي: داود عبدالملك وآخرون، الكيمياء للصف الأول الثانوي، الطبعة الأولى التجريبية للعام الدراسي ١٤٢٣-١٤٢٤هـ /٢٠٠٢م-٢٠٠٣م، صنعاء، وزارة التربية والتعليم، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.
٢٤٢. حسن: زكي محمد، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، بيروت، دار الرائد العربي،١٤٠١هـ -١٩٨١م.
٢٤٣. حسن: زكي محمد، في الفنون الإسلامية، مصر، مطبعة الاعتماد.
٢٤٤. الحفني: محمود أحمد، تاريخ الموسيقى، مقالة في كتاب مؤتمر الموسيقى العربية المنعقد عام١٩٣٢م، القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٩٣٣م.
٢٤٥. حمارنة: نشأت، ابن الأكفاني ومؤلفاته، بحث منشور في مجلة التراث العربي، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، السنة ٢٥، العدد ٩٨، جمادى الأولى ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
٢٤٦. الحمداوي: عبدالكريم محمد مطيع، في النظام السياسي الإسلامي، ثلاثية فقه الأحكام السلطانية رؤية نقدية للتأصيل والتطوير، ط ٣، (بدون تاريخ ولا دار نشر).
٢٤٧. خصباك: شاكر، الجغرافية عند العرب، ط١، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٦م،
٢٤٨. أبو خليل: شوقي، أطلس التاريخ العربي الإسلامي، ط١٢، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م، دار الفكر – دمشق.
٢٤٩. أبو خليل: شوقي، أطلس دول العالم الإسلامي، ط٢، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، دار الفكر – دمشق.
٢٥٠. أبو خليل: شوقي، الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة، ط١، ١٩٩٤م، دار الفكر – دمشق.
٢٥١. الدفاع: علي عبدالله، علامة الكيمياء الجلدكي، مجلة البحوث الإسلامية، الرياض، الهيئة العلمية للبحوث والإفتاء، العدد ٦، سنة ١٤٠٢هـ.
٢٥٢. دهمان: محمد أحمد، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ط١، بيروت، دار الفكر المعاصر، ودمشق، دار الفكر، ١٤١٠هـ -١٩٩٠م.
٢٥٣. دياب: كوكب، المعجم المفصل في الأشجار والنباتات في لسان العرب، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢١هـ -٢٠٠١م.
٢٥٤. روزنثال: فرانز، علم التاريخ عند المسلمين، تر. صالح العلي، ط٢، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
٢٥٥. الزركلي: خير الدين، الأعلام، ط٥، بيروت، دار العلم للملايين،١٩٨٠م.
٢٥٦. أبو زهرة، محمد: تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية، القاهرة، دار الفكر العربي.
٢٥٧. أبو زهرة، محمد: ابن تيمية حياته وعصره، آراؤه وفقهه، القاهرة، دار الفكر العربي،١٩٩١م.
٢٥٨. أبو زهو، محمد محمد: الحديث والمحدثون، ط٢، الرياض، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العامة، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م
٢٥٩. سركيس: يوسف إليان، معجم المطبوعات، تقديم أحمد تيمور باشا، (بدون أي معلومات أخرى).

٢٦٠. سزكين: فؤاد، تاريخ التراث العربي، تر. محمود حجازي، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود،١٤١١هـ - ١٩٩١م.
٢٦١. سعاد ماهر محمد، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م.
٢٦٢. السقاف: حسن بن علي، السلفية الوهابية أفكارها الأساسية وجذورها التاريخية، ط١، عمّان، دار الإمام النووي، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
٢٦٣. أبو سكين: عبد الحميد بن محمد، المعاجم العربية مدارسها ومناهجها، ط٢، القاهرة، الفاروق الحرفية، ١٤٠٢هـ - ١٩٨١م.
٢٦٤. سليم: محمود رزق، الأدب العربي وتاريخه في عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث، القاهرة، مطابع دار الكتاب العربي، ١٣٧٧هـ - ١٩٥٧م.
٢٦٥. سليمان: أبو عبيدة مشهور بن حسن، وبن صبري: أبو حذيفة رائد، معجم المصنفات الواردة في فتح الباري، ط١، الرياض، دار الهجرة، ١٤١٢هـ -١٩٩١م.
٢٦٦. الشكيل: علي جمعان، الكيمياء في الحضارة الإسلامية، القاهرة، دار الشروق، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
٢٦٧. الشيخ: عبدالستار، ابن حجر العسقلاني أمير المؤمنين في الحديث، ط١، دمشق، دار القلم، ١٣١٢هـ.
٢٦٨. صبحي: أحمد محمود، في فلسفة التاريخ، الإسكندرية، مؤسسة الثقافة الجامعية، ١٩٧٥م.
٢٦٩. صليبا: جورج، نظريات حركات الكواكب في علم الفلك العربي بعد القرن الحادي عشر، مقالة ضمن موسوعة تاريخ العلوم العربية، إشراف رشدي راشد، ط٢، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥م.
٢٧٠. الضبع: يوسف بن عبد الرحمن، ابن هشام وأثره في النحو العربي، ط١،القاهرة، دار الحديث، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
٢٧١. الطائي: فاضل أحمد، أعلام العرب في الكيمياء، القاهرة، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، وبغداد، دار الشؤون الثقافية، ١٩٨٦م.
٢٧٢. الطنطاوي: محمد، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، ت. سعيد اللحام، بيروت، عالم الكتب، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
٢٧٣. عاشور: سعيد، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٩٦م.
٢٧٤. عاشور: سعيد، العصر المماليكي في مصر والشام، ط٢، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٧٦م.
٢٧٥. عاشور: سعيد، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٩٢م.
٢٧٦. العبادي: أحمد مختار، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، بيروت، دار النهضة العربية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
٢٧٧. عبدالحميد: سعد زغلول، العمارة والفنون في دولة الإسلام، الإسكندرية، منشأة المعارف.
٢٧٨. عبد القادر: موفق بن عبد الله، علم الأثبات ومعاجم الشيوخ والمشيخات وفن كتابة التراجم، ط١، مكة المكرمة، جامعة أم القرى، ١٤٢١هـ.
٢٧٩. عبدالمنعم: شاكر محمود، ابن حجر العسقلاني مصنفاته ودراسة في منهجه وموارده في كتابه الإصابة، ط١، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
٢٨٠. عتيق: عبدالعزيز، علم البيان، ط١، بيروت، دار النهضة، ١٩٨٥م.
٢٨١. علي: محمد كمال الدين عزالدين، ابن حجر العسقلاني مؤرخا، ط١، بيروت، عالم الكتب، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
٢٨٢. علي: محمد كمال الدين عزالدين، التاريخ والمنهج التاريخي لابن حجر العسقلاني، ط١، بيروت، دار إقرأ، ١٤٠٤هـ -١٩٨٤م.
٢٨٣. عنان: محمد عبدالله، مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية، القاهرة، مهرجان القراءة للجميع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨م.
٢٨٤. عواد: كوركيس، الخط العربي في آثار الدارسين قديماً وحديثاً، مجلة المورد، مج ١٥، عدد ٤، وزارة الثقافة والاعلام العراقية، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.
٢٨٥. عيسى بك: أحمد، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ط٢، بيروت، دار الرائد العربي، ١٤٠١هـ -١٩٨١م.
٢٨٦. عيسى بك: أحمد، معجم الأطباء، ط١، القاهرة، مطبعة فتح الله، ١٣٦١هـ - ١٩٤٢م.
٢٨٧. فازيليف، العرب والروم، تر. محمد عبد الهادي شعيرة، دار الفكر العربي.

٢٨٨. فتاح: عرفان عبد الحميد، نشأة الصوفية وتطورها، ط١، بيروت، دار الجيل، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
٢٨٩. فهد: توفيق، علم النبات والزراعة مقالة في موسوعة تاريخ العلوم العربية، إشراف رشدي راشد، ط٢، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥م.
٢٩٠. فهرس الكتب العربية الموجودة بدار الكتب المصرية لغاية ١٩٢١، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٣٤٢هـ - ١٩٢٤م.
٢٩١. قاسم: قاسم عبده؛ وعلي: علي السيد، الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري، القاهرة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.
٢٩٢. القطوري: الصفصافي أحمد، من تراثنا الثقافي المشترك خيال الظل، مجلة حراء، العدد ١٣، السنة الرابعة، ٢٠٠٨م.
٢٩٣. قنواتي: جورج، الخيمياء العربية، مقالة ضمن موسوعة تاريخ العلوم العربية، إشراف رشدي راشد، ط٢، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥م.
٢٩٤. القوصي: عطية، المسلمون والشطرنج (دراسة تاريخية)، القاهرة، دار الثقافة العربية، ١٩٨٥م.
٢٩٥. الكاتب: أحمد، عقيدة التوحيد في فتح الباري، ط١، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ١٤٠٣هـ.
٢٩٦. كحالة: عمر رضا، معجم المؤلفين، ط١، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤١٤هـ - ١٩٨٤م.
٢٩٧. كراتشكوفسكي: اغناطيوس يوليانوفتش، تاريخ الأدب الجغرافي، تر. صلاح الدين عثمان هاشم، جامعة الدول العربية، الإدارة الثقافية، عن طبعة لينينجراد عام ١٩٥٧م.
٢٩٨. كندو: محمد إسحاق، منهج الحافظ ابن حجر العسقلاني في العقيدة من خلال كتابه فتح الباري، الرياض، مكتبة الرشد.
٢٩٩. الكوثري: محمد زاهد، كلمة عن الغرة المنيفة، من مجموعه (الفقه وأصوله من أعمال الإمام محمد بن زاهد الكوثري)، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
٣٠٠. كينغ: دافيد، علم الفلك والمجتمع الإسلامي، مقالة ضمن موسوعة تاريخ العلوم العربية، إشراف رشدي راشد، ط٢، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥م.
٣٠١. لابدوس: إيرا، مدن إسلامية في عهد المماليك، تر. علي ماضي، بيروت، الأهلية للطباعة والنشر، ١٩٨٧م.
٣٠٢. ماجد: عبد المنعم، الدولة الأيوبية في تاريخ مصر السياسي التاريخ السياسي (٥٦٧-٦٤٨هـ/١١٧١-١٣٥٠م)، ط٢، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
٣٠٣. محجوب: فاطمة، الموسوعة الذهبية، القاهرة، دار الغد العربي.
٣٠٤. مراد: بركات محمد، ابن الشاطر، عالم الفلك وصانع أدوات الرصد والقياس، مجلة حراء، عدد٢١، أكتوبر، ديسمبر – ٢٠١٠م.
٣٠٥. المراغي: أحمد مصطفى، علوم البلاغة، بيروت، دار القلم.
٣٠٦. مصطفى: شاكر، التاريخ العربي والمؤرخون، ط١، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٩٠م.
٣٠٧. المعجم الفلسفي، إعداد مجموعة من الباحثين، وإصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة، القاهرة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
٣٠٨. المقحفي: إبراهيم أحمد، معجم البلدان والقبائل اليمنية، ط٤، صنعاء، دار الكلمة، وبيروت، المؤسسة الجامعية، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
٣٠٩. الملا: أحمد علي، أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية، ط٢، دمشق، دار الفكر، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
٣١٠. المنجد: صلاح الدين، ياقوت المستعصمي، بيروت، دار الكتاب الجديد.
٣١١. منصور: نصار، نظام الإجازة في فن الخط، ضمن مجموع دراسات مهداة إلى يوسف ايبس، تحت عنوان (صفحات من تاريخ دمشق)، تحرير الدكتور عدنان البخيت، لندن، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م،
٣١٢. مورلون: ريجيس، علم الفلك العربي، مقالة ضمن موسوعة تاريخ العلوم العربية، إشراف رشدي راشد، ط٢، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥م، ج١ ص٤٠، ٤١.
٣١٣. الموسوعة الفقهية، ط٢، الكويت، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويتية،١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
٣١٤. الموسوعة العربية العالمية، ط٢، الرياض، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
٣١٥. الموسوعة العربية الميسرة، ط٣، بيروت وصيدا، المكتبة العصرية، ٢٠٠٩م.

٣١٦. مؤنس: حسين، أطلس تاريخ الإسلام، ط١، القاهرة، دار الزهراء للإعلام العربي، ١٤٠٧هـ -١٩٨٧م.
٣١٧. موير: وليم، تاريخ دولة المماليك في مصر، تر. محمود عابدين، وسليم حسن، ط١، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
٣١٨. ميكال: أندريه، الجغرافيا، مقالة ضمن موسوعة تاريخ العلوم العربية، إشراف رشدي راشد، ط٢، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥م.
٣١٩. النايل: عبدالله بن محمد، صناعة الأسلحة الثقيلة والنارية في الدولة المملوكية (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠م-١٥١٧م)، دراسة مقدمة لقسم التاريخ جامعة الإمام محمد بن سعود لنيل الدكتوراه، تحت إشراف الدكتور حمود النجيدي، الرياض ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
٣٢٠. نصار: حسين، المعجم العربي نشأته وتطوره، ط٤، القاهرة، دار مصر، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
٣٢١. نصار: لطفي أحمد، وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك في مصر، مصر، الهيئة العامة للكتاب،١٩٩٩م.
٣٢٢. النهار: عمار محمد، العصر المفترى عليه عصر المماليك البحرية دراسة فكرية، ط١، دمشق، دار النهضة ومجموعة الكمال المتحدة، ٢٠٠٧م.
٣٢٣. يسرى عبدالغني، معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثاني عشر الهجري، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

رابعا المراجع الأجنبية

٣٢٤. Huort: Clement, A history of Arabic Literature, New York, Appleton and company, 1903.
٣٢٥. Holmyard: Eric John, Makers of Chemistry, Britain, Oxford at the Clawendon Press, 1931.
٣٢٦. Rieu: Charles, supplement to the catalogue of the Arabic manuscripts in the British Museum, London, 1894.

University of Sana'a

On behalf of Postgraduate Studies and Scientific Research

Faculty of Arts and Humanities

History Department

Department of Islamic History and its Civilization



Scientific life in Cairo in the 8th century AH through historical writings of Ibn Hajar Al-Asqallaani, who died in 852 AH

Thesis for getting master degree

Prepared by:

Hamood Abdullah Yahya Al-Ahnomi

Supervisor: ***D.Nizar AbdeLatif Alhadeethi***

Co-supervisor: ***D.Faisal Baggash***

Sana'a 2014

Conclusion

At the end, the researcher presents his research's most important findings:

First: the researcher found two types of factors that influenced the scientific life in Cairo during the 8th century AH. One of these factors is a positive side and the other one is a negative side. The positive one was represented in: 1- the religious factor which incites self-community to learn science. 2- When the Cairo was declared as a capital of Islamic succession by the Mamluks, it became very strong in politics, economic, military importance and security stability which brought life to science and attracted a large number of the scientists from different parts of the world who brought knowledge and important positive impacts along with them. 3- Since Cairo was secured when the Mongols destroyed Iraq and Syria, scientists moved from both Iraq and Syria to Cairo. 4- The military regime of the Mamluk ruler who ruled on religious based by building mosques, schools, scientific institutions and granting endowments that yields money on scientific life. Besides, some sultans and princes had the tendency to the science especially history. 5- Since the Cairo was the political, military and economic capital, it needed various scientific expertises of the scientists. So, it was an opened city for anyone from different race and place throughout the world who has the qualifications that distinguished him in the various sciences fields. The feeling with the one OMMA and the absence of the regional borders led to the continuation of the scientific communication channels between the parts of Islamic world and Cairo. The other cities of Egypt and Syria formed a major scientific stores and a sustained support. 6- The endowments authority specified salaries for people of science, some of the public schools had free housing and salaries for them, the rich people contributed in construction of these schools and provided them with endowments, in reign of Mamluks the endowments was a flourishing and ruled by chief justice, this provided the scientific life with a constant income though very little. 7- Schools of Cairo had the best and the largest libraries which the popular effort contributed in, they were very efficient that

some of imams stopped purchasing the books and lonely depended on the library, in addition bookshops was a scientific and cultural focus where the scholars were debating and interchanging their information. 8- As the geography location of Cairo which was on the roads of the western Andalusian and African pilgrims, it gave an important scientific place for pioneers of science to met and vaccinate various cultures. 9- It had the most specialized scientists who made students from Egyptian cities and urban to come for higher studies. 10- Teaching medical was activated in AL-Mansory Hospital. It had some medical and social services that eager to stay in or travel to. 11- Since the Egyptian African trade reached the brighter ages, many of the scientists worked on the trade. This made it easier for them scientific independence. 12- There was contentious jurisprudence and theology in the Sunni schools which played the role in stimulating science. The scientific councils were held to exam the scientists and teachers which led to further research.

The researcher found factors that have a negative impact. These factors are: 1- the nature of the authoritarian rule of the Mamluk where some of their sultans tortured some scholars who disagree with their desire. Thus, this made an environment of dread. 2- The hostility of some scholars for some science and also warn and punish those who are studying it. 3- Most of the women who are considered half of the society were absent from the sciences which declined their role badly in science. 4- Bouts of military conflict were influenced between the princes' aspirants in power on the scientific stability and different princes lured some scholars to be in their side which led them to separation. Educational and scientific institutions were used for military purpose which made those institutions to give up on their functions. 5- Some of the sultans tried to deprive the scholars from their salaries and endowments, though they had stability and religious legitimacy for their rule from support of scholars to them within the dualism which controlled Cairo by the sultans and scholars. 6- Many of the scientists and students were engaged in serving Mamluks Princes due to the stinginess and corruption of some judges' supervisors in distribution

endowment money to them. 7- The plagues and the epidemics formed dangerous threat to the human element in life of science. 8- Some of the social diseases were gnawed in the life of science such as some of AL-TASAWWUF types. 9- The death penalty was increased to those who were called the heretics of scientists by the judges of Maliki. This caused a worried and scared environment which it does not lead to the creativity. 10- The inventory of existing scholars in single environment and same conditions did not encourage on supporting science neither on its evolution nor on its diversity. 11- Some scholars accused other scholars by the atonement (AL-TAKFIR) which prevented creativity.

Second: Ibn Hajar got the most famous teachers and the average of men was about 92% while 8% was for women. However, few numbers of these women were from Egypt while 90% of them were particularly from Syria. This indicates that the female scholars (Shikhat) of Syria surpassed of those in Egypt. Most of these scholars were from a class of scientists (ALHADEETH). This was the way that took up on him (ALHADEETH). Those scholars were from different groups, categories, schools and positions. These differences were very good things for him which made him more indulgence in his books compare to others. The effects of his scholars on him led him to be from those who take care of AL HADEETH. Then, he travelled to ALSAEED, AL-EXANDRIA, Hejaz, Syria and Yemen. During his visits to Yemen, he met the most famous scholars of sciences in AL-MAHJM, ZABID, TAIZ and ADEN. He also had closed look on the overall situation of scientific, social and political in Yemen. He had knowledge on the overall situation of scientific, social and political in Yemen.

Third: His students were affected by his ideology in Hadith and History. They were the most prominent scholars during that time. The researcher illustrates that there was a lack of female students. The author wrote about 282 books and only half of them have been accomplished. And about 70% of his books talk about Hadith and History. In addition, his students helped him to write his books. Some of his books were very famous in his time and

the kings used to present each other his books. The analyst explained the reasons of negative aspects for certain topic such as in his book (BADL ALMAAOON FI FADL ALDDAAOON).

Fourth: He was Ash'ari in most of his faith but he took issue with some of the circumstances against Hanbalis. He was thinking that Sufis, who were abiding by Islamic rules, has the priority to lead people although he think those mysticism philosophers are in wrong path such as Ibn Al-Arabi and Ibn Fared. He was following Shafi'I in Fiqh.

Fifth: The scholars, who are originally from Cairo, were the minority. There were scholars from other countries and regions. Some of the scholars were bored in Cairo while some came to learn in Cairo. However, he went to other countries for giving and learning in Egypt, Syria and Iraq. Most of its scholars were from Cairo by their tender. Almost all of its judges were originally from outside Cairo. Cairo was an area of central magnet for most of Islamic centers in the world and some of these were from Egypt (the north and the south of Egypt), Syria (Damascus , Jerusalem , Hama , Aleppo , and its surrounded), Yemen, Hijaz (Mecca and Medina) , Aljazira (Mosul , Mardin , Donaiser , Haran , Sarooj, and Diyarbakir) , Erzurum (Konya , Caesarea , Thira and Papert) , Khalad of Armenian, Iraq (Baghdad and its suburbs) , the east of Iraq (Tabriz , Ashna , Shiraz , Tastur, Isfahan , and Sabzevar), Crimea, algorithm (Kath), beyond the river (Bukhara and Itkan), Turk , Ghazni (Afghanistan), Dehli (India), Zeila, Tunisia, Mahdia, middle Maghreb (Bejaia, Tozeur, Beja, and Tlemcen), Morocco (Marrakech and Rekrakh), and finally from Andalusia (Granada, Wadi Ash, and Sevilla). They were belonging to different ethnic backgrounds. Besides, they were belonging to Islam and the majorities were Muslims. There also were a tiny minority from Christians and Jewish who were called Dhimmis.

Sixth: It can be seen that Cairo Scholars were generally poor compare to others. The caste and professional hierarchy had a negative effect on the Fiqh of Cairo. However, the

lines of moving up and down were opened. Many of Alhadeeth scholars had menial jobs. Classification of Arab scientists and Agam scientists was found.

Seventh: A large number of its scientists revolved around centers of the Mamluk Authority which took over the power and money. As a result, the Mamluks tried to abolish the system of endowment on the schools. But they faced a strong opposition by the scientists. A few of them were far away from the government jobs. Some of them envied each other and monopolized the jobs for their relatives. They got dissimilar salaries. Those who have a higher position, they have a higher salary. However, their salaries were usually less than the salaries of younger Mamluks. So they tried to get another jobs beside which caused them to be divided on the spectrums of society of Cairo. Anyone of them, who had a relationship with princes of Mamluks, was a rich. Although they were poor, they were better than those scientists from other area.

Eighth: the high class of scientists lived in special neighborhood and there were homes to some of them on the Nile used for picnic and learning. Some of them lived in schools. The Sufis lived in special schools called (Alkhankah) and they used their homes for science classes. Their food was agreeing with their trends about the live. The Mamluk government took care of the garb where the scientists and the students had special garb. They thought that it keeps the prestige of science. It is considered as viewpoint of the stability societies, which is showing their headway and bureaucracy. Shafi'i's judges had a distinction at their garb. Sometimes the scientists were annoyed by the Mamluks because of their superior clothes and riding the horses.

Ninth: the scholars’ relationship was not good which led some of them to atonement (Alttakfeer). Some of them lived a life of luxury and some took bribery. They kept silent about the injustices of the rulers. Anyone of them disagreed with the government policy was described with a bad manners and Dhimmis Cairo's doctors were untrusted.

Tenth: The scholars tried to get educational jobs and some of them felt that Mamluks exclude them because of their Cultural and ethnic differences. They assumed a wide and functional role in the government. They formed inside a military government a civilian power center which had effect on the society. Both of the scientists and the rulers took their power from each other. Both of them were responsible for the stability of the regime. So the scientists got respect from the rulers who tried to make them satisfy by establishing the schools and giving endowments. Although they had a great impact, the authority of sultans at naming and removing them was a deadlock. Although this relationship which satisfied both of them, different events proved that whatever respect and prestige of the Mamluks to the scientists didn't reach to the use of the good governance. They were threatened with the cancellation of endowments. Some of them called to a revolution with ideological background against Sultan Barqoq when he arrested the al-Qurashi Caliph. Some of whom opposed the Sultan had a death penalty. Some of them were accused with apostasy of the religion and they were killed.

Eleventh: The judges of Cairo practiced wide competences in the judiciary, education and management. Some of them achieved a strong authority as their competences, but this authority was vanishing with taking them away or with retirement. They managed the judiciary even though under the dictators. Some of them were faithful to the sultans with a high degree. And during that time, there were a lot of corruptions in the endowments which theoretically Hanbalis tolerate in them while Hanafis are inflexible. This jurisprudential vision had an effect on the practice. Their enough positions against the illegal sultans's wishes were absent a fairly. But there were impartial judges sacrificed their jobs for settlement the application and the principles.

Twelfth: The written product of its scientists in the 8^{th} century for the Reading and Tajweed was mostly normal works. A few of them were creators. About 36% of the total production was explanations, annotations and abbreviations which were around (Shatebia).

And about 64% of that production was for tow of Cairo's scholars. Most of them were from the arrivals and most of their product was in the Readings.

Thirteenth: Shaafais had won the most product of the interpretation, followed by the Hanafis. There were great interpreters, like Imam Abu Hayyan, who had written (Albahr Almoheet). It is a reference for anyone wants to know the sides of the verses inflection. There were creative studies like the study of Altofee about "the number" in Qur'an. As well as the study of the Sufi Ibn Al-labban that reflected the efforts of Sufis at the interpretation. (Aldurr Almasoon), A book for Alsameen –AlHalabi which grasped previous efforts in the inflection of Qur'an. Also it gave a detailed analysis for it originally and etymologically.

Fourteenth: There was an activity of Alhadeeth in Egypt and Syria. Narrators who were jurists appeared like Ibn Dageg Alead, Sirajuddin Albalgayni, and Zinedine AlIraqi. Women participated slightly . Nevertheless, they were absent from all sciences. Effort of the people of Alhadeeth focused on the explanation, shortness, appending and reordering. Knowledge of Alhadeeth deepened the historical mentality of the scientific life. Scholars of Alhadeeth were the most people who documented their scholarly life by their indexes books, teachers dictionaries and books of the generations. Listening to Albokharee and Muslim was the wide-spread popular culture. From Shaafais who contributed in Alhadeeth production were about 48%, 28% Hanafis, 4% Malkis, 1% Hanbalis. About 24% were unknown because they didn't care about the belongingness. About 80% of all productions of Hadeeth were based on previous frames. About 49% of them were explanations and commentaries, 21% were (Takhreegs), taking out. The rest were whether reordering, abstraction, or poetizing.

Fifteenth: Egyptian jurists and few of foreigners jurists were Shaafais. About 22% of all Shaafais product were at the basics of Fikh. Few were liberal towards previous frames, like (Gam'a Algawame'a) of Alssubki and (Albahr Almoheet) of Alzarkashi, which

was a complementary encyclopedia in its subject. About 66% of product of basics of Fikh were explanations, 17% were abstractions. Most of this product was about (Menhag Alosoul) of Albaidawi, followed by (Mokhtasar Ibn Alhageb). The product of Fikh was 78% of the collection, the half is explanations, and about a quarter of it was abstractions. It is clear that Cairo's scholars were interested in Alnawawee books of Fikh. Rarely, Shafeis wrote on comparative Fiqh because of their pride for their Fikh. Alasnawee was unique in his two books, (Altamheed) and (Alkawkab Alddurree).

Sixteenth: All Hanafis who wrote in Fikh and its basics were from out Cairo originally. Likely, as Mamluks leaders were Hanafis, this made scholars of them interested in Cairo. A lot of their product of Fikh basics were explanations for (Manar Alanwar), then for (Mokhtasar Ibn Alhageb). About 84% of all was in Fikh. About 67% of all was built on previous frames. (Alhedaya) took nearly half of this, while (Algame'e Alkabeer) took the fifth. Hanafis tried rooting their opinions of their school and getting some distinctions, so there was a product explained what Hanafis had written in the 2nd century of the Hegira(AH) . The product showed the reaction of the eastern Hanafis with Hanafis of Cairo quickly.

Seventeenth: Alexandria provided Cairo with 40% of Maliki's knowledge men following all countries of the Maghreb with 50%. The creative product was a little as well as with the others. But Cairo's effect on the Maliki Fikh seems clear in the method of providing Fikh, and in their care about narratives which support Fikh .Also , in writing of abstracts like what Shafeis scholars of Cairo had written, and in an encyclopedic product which was a Cairo feature. They tried the Fikhi and historical rooting by working on (Almudwwana) by some of them which belongs to the 2nd century of the Hegira (AH).

Eighteenth: No product for Hanbalis in Fikh, except the product of Ibn Taymiyyah which was not built on previous frames.

Nineteenth: The Product of Alkalam knowledge was little, because most of Cairo was from Asha'aree . Some of this product was a response against the opinions of Ibn Taymiyyah and people of the anthropomorphism. There was a limited representation of Maatreedis. Some scholars had writings responding to the Jews and the Christians.

Twentieth: Sufis have been showed in Cairo with their different schools. Their product was in total wisdom and advice in the behavior of devotees of God and refinement of themselves. Their dubious phrases were the reason for bringing some of them to trail, but they mostly escaped the sentences because of their presence and effective power.

Twenty-first: In Cairo, Syntax and Morphology appeared fairly. Some grammarians had a strong influence on the grammatical efforts, like Abu Hayyan, who wrote for many levels. There was also Almuradi who had a creation in his book (Aljana Alddani), which is likely the origin of (Mogni Allabib) of Ibn Hisham, which had an effect on this knowledge. (Alkwkab Aldduri) of Alasnawi was very important because it was the first specialized book that studied the effect the syntax on Fikh . There were great books which contained the previous efforts. The grammarians who belong to Shafe'eis monopolized with a percentage of 50% from the total product, followed Maalikis then Hanafis. Most of them were from Syria and there were a few Egyptians, Moroccans, and Indonesians. The research showed that about 22% of the product was not built on the previous frames. It was a good sign for rising the creation in this field comparing to the others. The books of Ibn Malik monopolized the works which were built on the previous frames.

Twenty- second: The scholars of Cairo wrote the Linguistic dictionaries. There was a little creation whether in the analysis of words and their origins or in the ranking method. The most famous one was (Lisan Alarab), which contained the subject and the previous efforts of Arabic language, but the opinion of the author didn't appear strongly.

Twenty- third: The scholars of Cairo had a product in the prose and in the phrasing about the official issues of the state. In its principles were books like (Altta'areef Bi Almosdalah Alshareef) of (Ala'amree) and (Subh Ala'ashaa) of (Alqalqashandi). The writing was immersed in the rhetoric improvement. It was clear that the rulers turned away from the poetry. Whoever, there were prominent poets like Ibn Nabata, Ibn Alwakeel, and Ibn Abu Hijleh Tlemceni. Ibn Danial Almawsely from Iraq was creative in the literature of (Khaial Alddel).

Twenty -fourth: Baghdad had a clear effect on Cairo in the knowledge of calligraphy. Cairo carried it aptly. Four new modes at least were created that belonged to (Almansoob calligraphy) by scholars of Cairo. They had 12 of a science product. In some of it were new additions like (Theory of circles) for calligraphy learning. The millennial poem of (Alaathari), which called (Alenaya Alrabbanyya) was the most inclusive of all the previous efforts. Biographies, including books of Ibn Hagar left out many cases of these scholars.

Twenty- fifth: There were speakers of foreign languages. Abu Hayyan had creativity in his works which were about some foreign languages including vocabulary, morphology, and grammar . Biographies, including the books of Ibn Hagar had left out many of those scholars. Cairo - comparing to other cities - took a good position in Cryptography.

Twenty - sixth: People of Cairo gave their attention to the basics of Arithmetic, and they urged their children to learn them. Although Dhimmis had clear efforts, the books of Ibn Hagar ignored them completely. There were about 22 of the mathematicians. Only 9 of them had a product. Half of this product belonged to Ibn Alha'em. All of them in my opinion hadn't new things.

Twenty - seventh: Despite the large number of the architectural buildings and its magnificence, the product was very rare in Architecture and Civil Engineering. The

sources, including the books of Ibn Hagar didn't mention the architectures nor the engineers.

Twenty - eighth: Logic had faced a relentless war by some clerics. However, the research found more than 33 of logicians. Most of them were arrivals, about 42% from the east and 25% from Turkey. The explanations were about 71% from the total product and 7% were abstracts. It seems that studying and teaching Logic were a simulation of what the formers had done.

Twenty- ninth: There was a product in chess, but it seems that it was considered a field for fun. The source ignored it, too.

Thirtieth: The historians ignored mentioning astronomers. The greatest of them, Ibn Alshader was a model. Mamluks ignored adapting astronomical projects like the project of Maraghah which was established by the Mongols. The research found that 8 astronomers wrote more than 40 works. The research showed the creation of Ibn Alshader's works, whether in the written product or in his equipment which he made.

Thirty- first: Cairo had a hospital since the 7th century. It had hosted Ibn al-Nafis, the greatest doctor in that time, who worked in this hospital and wrote a creative product. In the 8th century, Ibn Al-Akfani accomplished some creativity. Nevertheless, Ibn Hagar and others didn't mention many doctors, or the cases of others. They omitted Dhimmis doctors completely. Also they omitted the surgeons and ophthalmologists, unless those who had relations with the rulers. On the other hand , in the field of pharmacy, Cairo depended on what had been written before.

Thirty - second: Astronomy as well as Chemistry were opposed by some clerics , so many sources including Ibn Hagar ignored the greatest chemist Aljaldaki. His works were important in the history of Chemistry and contained the previous efforts widely.

Thirty- third: Some of its scientists wrote at Gemology, but this seems that was only for recording and keeping the previous mentioned things.

Thirty- fourth: 9 scientists wrote 10 works at Zoology. 60% from them were about the horse because it was one of means of the military rule at that time. (Hayat Al-Haiwan Al-Kobra) of Al-Ddomairee distinguished by the creation because it preceded the modern science in many things. It reflected the relation of the symbiosis between animals, which was attributed to the German scientist Jath.

Thirty- fifth: The history was powerful, so about 22% of its product was not based on the previous works. Some was new, whether in its own subject like (Al-Nodar) of Abu Hayyan, which was from the self-biographies. Moreover, caring about the prophetic documents like (Al-Mesbah Al-Mode'e) of Ibn Hadeeda Al-Mesree, or in its spatial subject like (Mamaalik Obbad Al-Ssaleeb) of Al-Omaree, and (Tareekh Al-Ssa'eed) of Al-Adfoy, or in its fictional subject like (Tareekh Al-Omyan) of Al-Ssafadi, and (Tabagat Al-Hanafyya) of Ibn Al-Mohandes, which were – two of them – considered as the first product at the same subject in both of them. The research found that 13% of the historians were from Cairo originally, approached by those from Mamluk origins. In fact, this average was rising remarkably. The research showed the absence of historians from eastern origins, because they had no attention about History nor its constituent Hadeeth in their mother land. It is clear that branches of the general and special history were likelier than others. This was for their desire for immortalizing Mamluks' mention and linking their eras with the previous eras. Percentages and distribution of its product between all of its branches reflected their balance inside Cairo's society.

Thirty - sixth: The Product of the rules and the ethics of the rules as well reflected what Mamluks had practiced, especially at the relation of Caliph and Sultan. It came from an old political reality that had got the theoretical legitimacy since Al-Mawardee who

endorsed the military victory as a legitimate way of getting the authority. The best at the product from a social standpoint was (Al-Moqaddema) of Ibn Khaldoon.

Thirty -seventh: Ibn Hagar focused on the judiciary and the notarization, because this was a part from his attention. The most important scholar who had written at Hisba was Qahri, Ibn Al-Owkhowwa. Also there were two Qahri scholars among three others had a product at Hisba. That happened because it was a civil job.

Thirty - eighth: the research uncovered a creativity of Cairo at the field of education by (Tadkerat Al-Motakallem Wa Al-Ssame,e) of Ibn Joma'ah. It guided to educational behaviors and teaching methods, which are confirmed by scholars of education today.

Thirty - ninth: Although the military science was important for the rulers of Cairo, it hadn’t been given attention by Ibn Hagar. So, he left it out as well as the biographies of its scholars. Those who had written about it were war heroes , so their product had gained great importance. Their writings reflected Cairo’s success at this field. About 77% of it discussed directly the martial kind of war. 46% of it at least belonged to the Mamluks scholars. This reflects their focus on this knowledge and to their care about the military distinction.

Fortieth: The research proved that Baghdad had a strong effect on Cairo at Musicology. 6 out of 10 works belong to scholars from Iraqi origin. It has been spread a rumor later about Mamluks that they hadn’t cared about Musicology. On the contrary , they cared much about it .

Forty - first: Scientists of Cairo distinguished by Geography.

Forty - second: It is likely that the encyclopedic activity despite its importance was a type of arrangement and classification of the previous knowledge.